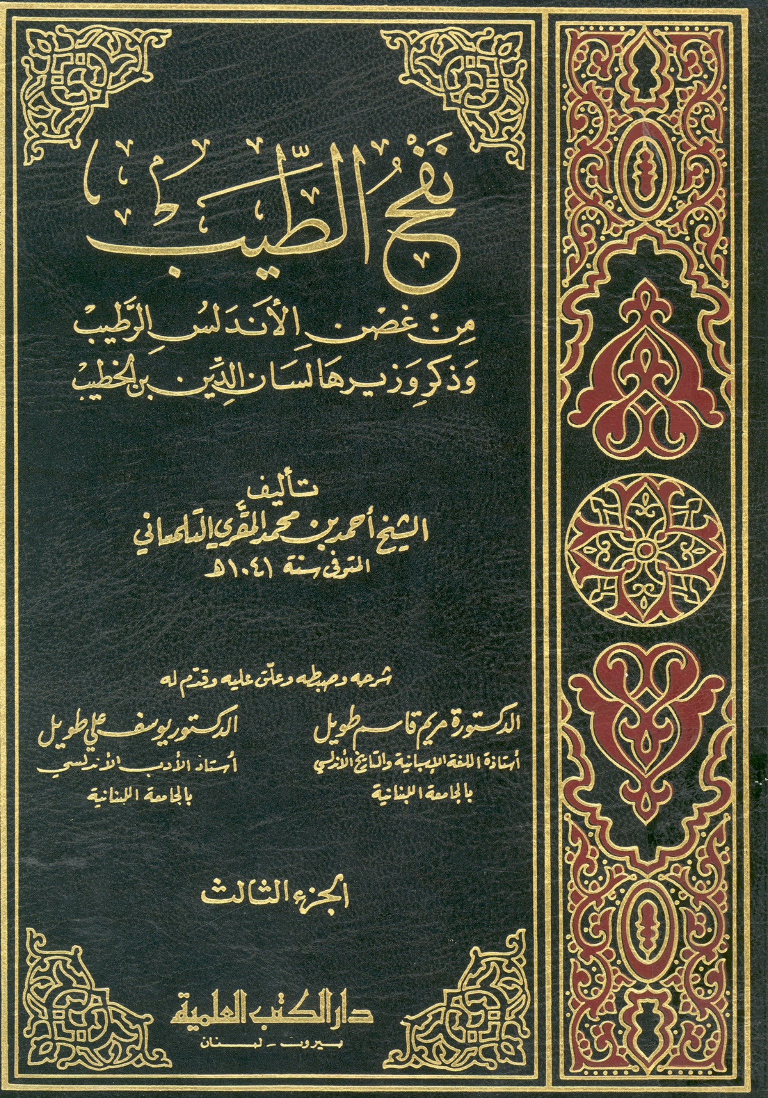
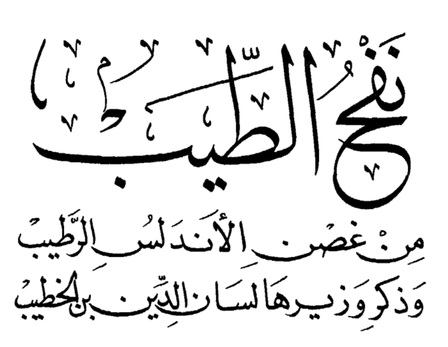


نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١ هـ
شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له
الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية
الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية
الجزء الثالث
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلّق عليه وقدّم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الثالث

مدينة مُرْسِيَة تورُّعًا عن سُكناها وعن الصلاة في جامعها، فاتّخذ له بيتًا سقفُه من حطب السِّدْر[1] يأوي إليه، واعتمر جُنَينة بيده يقتات منها. وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر، ثم تحوّل من قريته بعد عامين إلى الثغر، وواصل الرِّباط، ونزل مدينة طَلَبِيرَة، وكان يدخل منها في السرايا إلى بلد العَدُوّ فيغزو ويتقوّت من سُهْمَانه[2]، ويُعَوِّل على فرس له ارتبطه لذلك، وكان له بأس وشدّة وشجاعة وثقافة، يُحَدَّثُ عنه فيها بحكايات عجيبة، إلى أن استشهد مقبلاً غير مُدْبِر، سنة ٣٧٩[3]، أو في التي قبلها، عن اثنتين[4] وأربعين سنة، وأبوه حيٌّ، رحم اللّه تعالى الجميع!

١٤٦ ـ ومنهم أبو عبد اللّه القَيجَاطي محمد بن عبد الجليل بن عبد اللّه بن جَهْوَر.

مولده سنة ٥٩٠ بقَيجَاطة[5]، وكتب عنه الحافظ المنذري، ومن شعره قوله: [الطويل]

إذا كنتَ تَهْوَى مَنْ نَأَتْ عنك دارُهُ فَحَسْبُكَ ما تَلْقَى مِنَ الشَّوْقِ والبُعْدِ
فيا وَيحَ صَبٍّ قد تَضَرَّم نارُهُ ووَاحَرَّ قَلْبٍ ذابَ مِنْ شِدَّة الوَجدِ

١٤٧ ـ ومنهم أبو عبد اللّه ـ ويقال: أبو حامد ـ محمد بن عبد الرحيم، المازنيُّ، القَيسي، الغَرْناطي[6].

ولد سنة ٤٧٣، ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨، وسمع بها من أبي عبد اللّه الرازي، وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيىٰ المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد اللّه محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم، وحدّث بدمشق، وسمع أيضًا بها وببغداد، وقدمها سنة ٥٥٦، ودخل خراسان، وأقام بها مدّة، ثم رجع إلى الشام، وأقام بحلب سنين، وسكن دمشق، وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتّى، ونسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى ما لا يليق، وصنّف في ذلك كتابًا سمّاه «تحفة الألباب» وكان حافظًا عالمًا أديبًا، وتكلّم

---

(٤) السِّدْرُ، بكسر السين وسكون الدال: شجر النَّبْق. لسان العرب (سدر).
(٥) السُّهْمان: جمع سَهْم وهو الحظّ والنصيب. محيط المحيط (سهم).
(١) في تاريخ علماء الأندلس: استشهد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة في غزوة استرقة.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «اثنين».
(٥) قيجاطة: مدينة بالأندلس من عمل جيان. الروض المعطار (ص ٤٨٨).
(٦) ترجمة محمد بن عبد الرحيم الغرناطي في الوافي بالوفيات (جـ٣ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦) وفيه ينقل الصفدي عن ابن النجار.

فيه الحافظ ابن عساكر، وزَنَّه[1] بالكذب، وقال ابن النجار: ما علمْتُه إلّا أمينًا.

ومن شعره قوله[2]: [الرمل]

تَكْتُبُ العِلْمَ وتُلْقي في سَفَطْ ... ثم لا تحفظ؟ لا تُفْلِحُ قَطّ
إنّما يُفلحُ مَنْ يَحْفَظُهُ ... بَعْدَ فَهْمٍ وتَوَقٍّ مِنْ غَلَطْ

وقوله[3]: [البسيط]

العلم في القلب ليس العلم في الكُتُبِ ... فلا تكنْ مُغْرَمًا باللَّهْو واللَّعِبِ
فاحْفَظْهُ وافْهَمْهُ واعْمَلْ كي تفوز به ... فالعلم لا يُجْتَنَى إلّا مع التَّعَبِ

توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥.

١٤٨ - ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام، القرطبي[4]، من ذرّيّة أبي ثعلبة الْخُشَني صاحب رسول اللّه ﷺ.

رحل قبل الأربعين ومائتين، فحجَّ، وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزَّمِن ونَصْر بن علي الْجَهْضَمي، ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي، وسمع ببغداد من أبي عُبَيد القاسم بن سلام[5]، وبمكّة من محمد بن يحيىٰ العدني، وبمصر من سلمة بن شَبيب صاحب عبد الرزّاق والبَرْقي وغيرهما، وأدخَلَ الأندلس علمًا كثيرًا من الحديث واللغة والشعر، وكان فصيحًا جَزْل المنطق، صارمًا، ألوفًا[6]، منقبضًا عن

---

(١) زَنَّه بالكذب: اتَّهمه به. محيط المحيط (زنن).
(٢) البيتان في الوافي بالوفيات دون تغيير عمّا هنا.
(٣) البيتان في الوافي بالوفيات دون تغيير عمّا هنا.
(٤) هو محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن الحسن بن كُليب أو كلب الخشني، وترجمته في جذوة المقتبس (ص ٦٨) وبغية الملتمس (ص ١٠٣) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٦٤٨) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٣) وبغية الوعاة (ص ٥٢).
(٥) ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن محمد بن عبد السلام سمع بالمشرق من شيوخ، منهم محمد بن المغيرة ومحمد بن وهب المِسْعري صاحبي أبي عبيد القاسم بن سلام. وهكذا قال ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس.
(٦) في طبعة دار صادر: «أنوفًا».

السلطان، أراده على القضاء فأبى، وقال: إباية إشفاق لا إباية عصيان[1]، فأعفاه، وكان ثقةً مأمونًا، وتوفي في رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة، رحمه الله تعالى!.

١٤٩ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج، القرطبي[2].

سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه، وأخذ عن محمد الخُشَني وقاسم بن أصبغ وإبراهيم بن قاسم بن هلال، ورحل سنة ٢٧٤، فسمع بمصر من المُطَّلِبِ بن شعيب والمِقْدام بن داود الرُّعَيني، وأدرك بالعراق إسماعيل القاضي وعبد الله بن أحمد بن حنبل.

قال الحميدي: حدَّث بالمغرب وبالمشرق، وصنَّف السنن، ومِمَّن روى عنه خالد بن سعيد، وقال لنا أبو محمد بن حزم: مُصَنَّف ابن أيمن مصنَّف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنَّفات، وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٠، بقرطبة، رحمه الله تعالى!.

١٥٠ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون بن مروان[3]، اللخمي، الرصافي، القرطبي، الحداد[4].

سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ، وحجَّ سنة ٣٣٩ سنة رَدِّ القرامطة الحجَرَ الأسود إلى مكانه، وسمع بمكّة من ابن الأعرابي، وبمصر من ابن الورد وأبي علي بن السكن وعبد الكريم النسائي وغيرهم وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة، وكان رجلًا صالحًا، عدلًا، حدّث وكتب عنه الناس، وعَلَتْ سنُّه، وتوفي بشوال سنة ٣٩٤، وولد فيما أظنُّ سنة ٣٠٢، وكانت وفاته بقُرْطُبة، وقد اضطرب في أشياء قرئت عليه، ومِمَّنْ أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر، رحم الله تعالى الجميع!.

١٥١ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك، الخزرجي، السعدي، القُرْطُبي.

---

(١) انظر خبر إبائه القضاء في تاريخ قضاة الأندلس.

(٢) ترجمة محمد بن عبد الملك القرطبي في جذوة المقتبس (ص ٦٧) وبغية الملتمس (ص ١٠٢) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٧٠٤).

(٣) «بن مروان» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) ترجمة محمد بن عبد الملك بن ضيفون في جذوة المقتبس (ص ٦٨) وبغية الملتمس (ص ١٠٢) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٧٩٧).

روى عن أبي الحسن علي بن هشام، وروى عنه أبو القاسم بن بَشْكُوَال، وقدم مصر وحدَّث بها، وممَّنْ سمع منه بها[1] ابن وردان وأبو الرضا القَيْسَرَاني في آخرين، واستوطن مصر، وتوفي سنة ٥٨٨.

١٥٢ - ومنهم أبو بكر بن السرّاج[2]، النحوي، بتشديد الراء.

وهو محمد بن عبد الملك بن محمد بن السَّرَّاج الشَّنْتَمَرِي، أحد أئمة العربية المبرّزين فيها، ويكفيه فخرًا أنه أستاذ أبي محمد عبد اللَّه بن بري المصري اللغوي النحوي، وحدَّث عن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد النفطي، وقرأ العربية بالأندلس على ابن أبي العافية[3] وابن الأخضر، وقدم مصر سنة ٥١٥، وأقام بها، وأقرأ الناسَ العربية، ثم انتقل إلى اليمن، وروى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار، وله تواليف منها «تنبيه الألباب، في فضل الإعراب»[4] وكتاب في العروض، وكتاب «مختصر العمدة» لابن رشيق وتنبيه أغلاطه.

قال السِّلفي: كان من أهل الفضل الوافر، والصلاح الظاهر، وكانت له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو، وكثيرًا ما كان يحضر عندي - رحمه اللَّه تعالى! مدّة مقامي بالفسطاط. توفي بمصر سنة ٥٤٩، وقيل: سنة خمس وأربعين، وقيل: خمسين وخمسمائة، برمضان، والأول أثبت.

١٥٣ - ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن أحمد بن علي بن سعيد العَنْسي، ويكنى أيضًا أبا القاسم، الغَرْنَاطي.

سمع من الجِلَّة بمصر والإسكندرية ودمشق وبغداد؛ منهم الحراني أبو عبد اللَّه وأبو محمد عبد الصمد بن داود بدمشق، وكتب الحديث وعني بالرواية أتمّ عناية، وفُقِدَ بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «بهاء».

(٢) ترجمة أبي بكر بن السرّاج في الوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ٤٦) وبغية الوعاة (ص ٦٨) وفيهما: «الشنتريني» بدل «الشنتمري».

(٣) في طبعة ليدن: «ابن أبي العاقبة».

(٤) في الوافي بالوفيات: «تلقيح الألباب في عوامل الإعراب».

١٥٤ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن الدفاع[١]، بالدال المهملة، وقيل: بالراء.

قرطبي، سمع عبد الملك بن حبيب، ورحل فسمع بمصر من الحارث بن مسكين[٢] وغيره، وكان زاهدًا فاضلاً، وتوفي سنة ٢٨١، رحمه اللّٰه تعالى!.

١٥٥ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن سعيد بن عابد، المَعَافري، القرطبي[٣].

ولد بقرطبة سنة ٣٥٨، ودخل مصر فسمع من أبي بكر بن المهندس وأبي بكر البصري، وروَى عن أبي عبد اللّٰه بن مفرج، وأبي محمد الأصيلي، وجماعة، ولقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها، وحجَّ مِنْ عامه، ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢، وكان معتنيًا بالأخبار والآثار، ثقة فيما رواه، وعني به، خيرًا، فاضلاً، دينًا، متواضعًا، متصاونًا، مقبلاً على ما يعنيه، صاحب حظّ مِنَ الفقه، وبَصَرٍ بالمسائل، ودعي إلى الشورى بقرطبة فأبى، ومات سنة ٤٣٩.

وعابد جدُّه بالباء الموحدة، رحم اللّٰه تعالى الجميع!.

١٥٦ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن سليمان بن عثمان بن هاجد[٤]، الأنصاري البَلَنسي.

أخذ القراءات عن جماعة من أهل بلده، وخرج حاجًا سنة ٥٧١، فجاور بمكّة، وسمع بها وبالإسكندرية من السِّلَفي، وعاد إلى بلده سنة ٥٩٦[٥]، وحدّث وكان من أهل

---

(١) ترجمة محمد بن عبد اللّٰه بن الدفاع في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٤٥) وجذوة المقتبس (ص ٦٢) وبغية الملتمس (ص ٨٧). وفي المصدرين الأخيرين: «ابن الرفاع» بالراء.

(٢) هو أبو عمر الحارث بن مسكين المصري، مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان. كان فقيهًا على مذهب مالك بن أنس، وكان ثقة في الحديث. تاريخ بغداد (جـ ٨ ص ٢١٦) ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٥٦).

(٣) ترجمة محمد بن عبد اللّٰه بن عابد في الصلة (ص ٧٧٩) وبغية الملتمس (ص ٩٢).

(٤) ترجمة ابن هاجد البلنسي في التكملة (ص ٥٥٩) وفيه: «ابن ماجد». وفي غاية النهاية (جـ ٢ ص ١٧٩) وفيه وفي طبعة ليدن: «ابن هاجر».

(٥) في التكملة: سنة ٥٧٦.

الصلاح والفضل والورع، كثير البِرِّ، ومفاداة الأسرى، ويحترف بالتجارة، ومولده بعد سنة ٥٣٠[١]، ومات سنة ٥٩٨ بمرسية، رحمه الله تعالى!.

١٥٧ ـ ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خِيَرَةَ، القرطبي، المالكي، الحافظ[٢].

ولد سنة ٤٧٩، وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد بن رشد، والحديث عن ابن عتاب، وروى المُوَطَّأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان، وأخذ الأدب عن مولانا[٣] أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي، وعن مالك بن عبد الله العُتْبي، وخرج من قرْطُبَة في الفتنة بعد ما دَرَّس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله، وأقام بالإسكندرية خوفًا من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر بعدما روى عنه السِّلفي، وأقام بها مدّة، ثم قال: والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين[٤]، ثم سافر إلى الصعيد، وحدَّث في قُوْصَ بالمُوَطَّأ، ثم قال: والله ما يصلون إلى مصر ويتأخّرون عن هذه البلاد، فمضى إلى مكّة، وأقام بها، ثم قال: وتصل إلى هذه البلاد ولا تحجّ؟ ما أنا إلاَّ هربت منه إليه! ثم دخل اليمن، فلما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجّه إلى الهند، فأدركْته وفاتُه بها سنة ٥٥١[٥]، وقيل: بل مات بزَبِيد من مدن اليمن، وكان من جِلة العلماء الحفاظ مُتْقنًا متفنّنًا في المعارف كلّها جامعًا لها، كثير الرواية، واسع المعرفة، حافل الأدب، من كبار فقهاء المالكية، يتصرّف في علوم شتّى، حافظًا للآداب، عارفًا بشعراء الأندلس، وكان علمه أوفر من منطقه، ولم يرزق فصاحة ولا حسن إيراد، والله أعلم[٦].

قال ابن نقطة: خِيَرَة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين.

---

(١) هكذا في التكملة، وفي طبعة عبد الحميد: سنة ٥٢٠.

(٢) ترجمة ابن خيرة القرطبي في بغية الملتمس (ص ٩٢) والصلة (ص ٨٥٩).

(٣) كلمة «مولانا» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «بمتباعدتين».

(٥) هكذا في الصلة. وفي بغية الملتمس: «توفي بزبيد سنة إحدى وخمسمائة».

(٦) جملة: «والله أعلم» ساقطة من طبعة دار صادر.

١٥٨ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل، السلمي، الْمُرْسِي[١].

قال ابن النجار: وُلد بمُرْسِية سنة ٥٧٠، وقال غيره: في التي قبلها، وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧، ودخل مصر، وسار إلى الحجاز، ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنِّظامية، ثم سافر إلى خراسان، وسمع بنيسابور وهَرَاة ومَرْوَ، وعاد إلى بلاد بغداد، وحدّث بكتاب السنن الكبرى[٢] للبيهقي عن منصور بن عبد المنعم الفراوي، وبكتاب غريب الحديث للخطابي، وقدم إلى مصر فحدّث بالكثير عن جماعة منهم أبو المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي، وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزَّعْقَة والعريش من منازل الرمل في ربيع الأول سنة ٦٥٥، ودفن بتلّ الزعقة، وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والأصلين والنحو واللغة، وله فهم ثاقب، وتدقيق في المعاني، مع النظم والنثر المليح، وكان زاهدًا، متورّعًا، حسن الطريقة، متديّنًا، كثير العبادة، فقيهًا، مجرّدًا، متعفّفًا، نَزِهَ النفس، قليل المخالطة لأوقاته، طيّب الأخلاق، متودّدًا، كريم النفس، قال ابن النجار: ما رأيت في فنّه مثله، وكان شافعي المذهب، وله كتاب تفسير القرآن سمّاه «ريّ الظمآن» كبير جدّاً، وكتاب «الضوابط الكلّيّة» في النحو، وتعليق على الموطأ، وكان مكثرًا شيوخًا وسماعًا، وحدّث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز، وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث إنه لا يستصحب كتبًا في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه[٣]. وكان كريمًا، قال أبو حيان: أخبرني الشرف الجزائري بتونس أنه كان على رحلة، وكان ضعيفًا، فقال له: خُذْ ما تحت هذه السجادة أو البساط، فرفعت ذلك، فوجدت تحته أكثر[٤] من أربعين دينارًا ذهبًا، فأخذتها.

---

(١) ترجمة ابن أبي الفضل المرسي في الوافي بالوفيات (جـ٣ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥) وبغية الوعاة (ص ٦٠) ومعجم الأدباء (جـ١٨ ص ٢٠٩).

(٢) في طبعة دار صادر: «السنن الكبير».

(٣) يروي الصفدي أن أبا عبد الله خلف كتبًا عظيمة كانت مودعة بدمشق، فأمر السلطان ببيعها، فكانوا يحملون منها كل يوم ثلثًا إلى دار السعادة لأجل الباذرائي فاشترى منها جملة كثيرة وبيعت في سنة.

(٤) في طبعة دار صادر: «نحوًا من..».

وقال الجمال اليَغْمُوري[1]: أنشدني لنفسه بالقاهرة[2]: [الكامل]

قالوا فلانٌ قد أزَالَ بَهاءَهُ ... ذاك العذارُ وكان بَدْرَ تمامِ
فأجَبْتُهُمْ بل زادَ نورُ بهائِهِ ... ولذا تَضاعَفَ فيه فَرْطُ غرامي
اِسْتَقْصَرَتْ ألحاظُهُ فَتَكاتِهَا ... فأتى العِذارُ يمدُّها بسهامِ

ومن شعره قوله[3]: [الكامل]

مَنْ كان يَرْغَبُ في النَّجاة فما له ... غَيْرُ اتِّباعِ المُصْطَفَى فيما أتى
ذاك السبيلُ المستقيمُ، وغيرُهُ ... سُبُلُ الغواية والضلالة والرَّدَى
فاتْبَعْ كتابَ اللّه والسّنن التي ... صَحَّتْ، فذاك إذا اتَّبَعْتَ هو الهدى
ودَعِ السؤال بكمْ وكيف فإنه ... بابٌ يجرُّ ذوي البصيرة للعمى
الدين ما قال النبيُّ وصَحْبُهُ ... والتابعون ومَنْ مناهِجَهُمْ قَفَا[4]

١٥٩ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن عبد اللّه، البُنْتي، الأندلسي، الأنصاري.

قدم مصر، وأقام بالقرافة[5] مدّة، وكان شيخًا صالحًا زاهدًا فاضلاً، وتوجّه إلى الشام فهلك.

قال الرشيد العطار: كان من فضلاء الأندلسيين ونبهائهم، ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة، وكان يتكلّم بألسنة شتّى.

ومن شعره قوله: [الطويل]

إذا قَلَّ منك السَّعْيُ فالعزْمُ ناشِدُ ... وكلُّ مكانٍ في مَرَائِكَ واحدُ
تَوَجَّهْ بصدقٍ واتَّقِ المَيْنَ واقْتَصِدْ ... تَجِئْكَ رهيناتِ النجاحِ المقاصِدُ

---

(١) هو الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد الأسدي الدمشقي اليغموري؛ سمع الكثير بدمشق والموصل ومصر والإسكندرية، وعني بالحديث، وكتب الكثير من الحديث والأدب. توفي سنة ٦٧٣ هـ. فوات الوفيات (جـ ٤ ص ٣٣٨).

(٢) الأبيات في معجم الأدباء (ص ٢١٢).

(٣) الأبيات في معجم الأدباء (ص ٢١٢).

(٤) قفا مناهجهم: تبعها.

(٥) القرافة: إحدى عجائب الدنيا بما تحتوي عليه من قبور الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد، أي هو مدفن مشهور في مصر. الروض المعطار (ص ٤٦٠).

والبُنْتي ـ بضم الباء، وسكون النون ـ نسبة إلى بُنْت حصن بالأندلس، ويقال «بونت» بزيادة واو.

١٦٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه، الخولاني، الباجي، ثم الإشبيلي، المعروف بابن القوق[١].

سمع بقرطبة من جماعة، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٦، فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره، وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد، وكان فقيهًا في الرأي، حافظًا له، عاقدًا للشروط، قال ابن الفرضي: كان رجلاً صالحًا، ورعًا ثقة، وكان خالد بن سعيد قد رحل إليه وسمع منه، وكان يقول إذا حدَّث عنه: كان من معادن الصدق، توفي سنة ٣٠٨.

١٦١ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه، اللوشي، الطبيب.

اشتغل بالطبّ، وبرع فيه، وأقام بمصر مدّة، وبها مات في عَشْرِ الستين وستمائة.

١٦٢ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عبدون، العذري، القرطبي[٢].

رحل سنة ٣٣٧، فدخل مصر والبصرة، وعني بعلم الطب، ودبّر مارستان مصر، ثم رَجَعَ إلى الأندلس سنة ٣٦٠، واتّصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد، وله في التكسير كتاب حسن.

قال صاعد: تمهّر في الطب[٣]، ونبل فيه، وأحكم كثيرًا من أصوله، وعانى صنعة المنطق مُعَاناة صحيحة، وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني البغدادي، وكان قبل أن يتطبّب مؤدّبًا للحساب والهندسة، وأخبرني أبو عثمان سعيد الطليطلي، أنه لم يَلْقَ في قرطبة مَنْ يلحق محمد بن عبدون في صناعة الطب، ولا يجاريه في ضبطها وحسن دُرْبَته فيها وإحكامه لغوامضها رحمه اللّٰه تعالى!.

---

(١) ترجمة ابن القوق في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٧٣) وفيه: «محمد بن عبد اللّٰه بن محمد الخولاني، المعروف بابن القَوْن».

(٢) ترجمة ابن عبدون مكرّرة، وقد مرّت في الجزء الثاني رقم ٩٩. وجاء هناك: «العدوي» بدل «العذري» وهو الصواب.

(٣) في طبعة ليدن: «تمهّر بالطب».

١٦٣ ـ ومن الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زُهْر، الإيادي، الأندلسي[١].

صاحب البيت الشهير بالأندلس، رحل المذكور إلى المشرق، وتطبّب به زمانًا، وتولّى رياسة الطب ببغداد، ثم بمصر، ثم القيروان، ثم استوطن مدينة دَانِيَة، وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب، واشتهر بالتقدّم في علم الطب حتى فاق[٢] أهل زمانه، ومات في مدينة دانية، رحمه اللّٰه تعالى!.

ووالده محمد[٣] بن مروان كان عالمًا بالرأي، حافظًا للأدب، فقيهًا، حاذقًا بالفتوى، متقدّمًا فيها، مُتْقِنًا للعلوم، فاضلًا، جامعًا للدراية والرواية، وتوفي بِطَلَبيرَةَ سنة ٤٢٢، وهو ابن ست وثمانين سنة، حدَّث عنه جماعة من علماء الأندلس، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل، رحمه اللّٰه تعالى!.

وأمّا أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دِحْيَة فيه[٤]: إنه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه، وتوفي ممتحنًا من نُغْلَة[٥] بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة، انتهى.

وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة، ولذلك كتب في شأنه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته: أطال اللّٰه تعالى بقاء الأمير الأجلِّ سامعًا للنداء، دافعًا للتطاول والاعتداء، لم ينظم اللّٰه تعالى بلَبَّتك الملك عقدًا، وجعل لك حلًّا للأمور وعقدًا، وأوطأ لك عقبًا، وأصار من الناس لعونك منتظرًا ومرتقبًا، إلّا أن تكون للبرية حائطًا، وللعدل فيهم باسطًا، حتى لا يكون فيهم مَنْ يُضَام، ولا ينال أحَدَهم اهتضام، ولتقصر يد كل معتدٍ في الظلام، وهذا ابن زُهْر الذي أجررتَهُ رَسَنًا، وأوضحت له إلى الاستطالة سَنَنًا، لم يتعد من الإضرار إلّا حيث انتهيته، ولا تمادى على غيِّه إلّا حين لم تنهه

---

(١) ترجمة عبد الملك بن زهر في المغرب (جـ ١ ص ٢٧٠) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥١٧) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ١٨) والمطرب (ص ٢٠٣).

(٢) في طبعة دار صادر: «حتى بَزَّ».

(٣) ترجمة محمد بن مروان بن زهر في الصلة (ص ٧٥٢) والمطرب (ص ٢٠٣).

(٤) المطرب (ص ٢٠٣). وانظر أيضًا التكملة (ص ٣٣٤) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥١٧).

(٥) النُّغْلة، بضم النون وسكون الغين: الجرح المتعفّن. لسان العرب (نغل).

أو نهيته، ولَمَّا علم أنك لا تنكر عليه نُكْرًا، ولا تغير له متى ما مكر في عباد اللّٰه مَكْرا، جرى في ميدان الأذيّة ملء عنانه، وسرى إلى ما شاء بعُدْوانه، ولم يراقب الذي خلقه، وأمدَّ في الخُطْوة عندك طَلَقَه، وأنت بذلك مرتهن عند اللّٰه تعالى؛ لأنه مكَّنَكَ لئلاَّ يتمكّن الجور، ولتسكن بك الفلاة والغَوْر[1]، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق، وأخفق به كلُّ فريق، وقد علمْتَ أن خالقك الباطش الغيور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تَخْفى عليه نَجْواك، ولا يستتر عنه تقلّبك ومَثْواك[2]، وستقف بين يدي عدل حاكم، يأخذ بيد كلِّ مظلوم من ظالم، قد علم كلّ قضية قضاها، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها، فَبِمَ تحتجُّ معي لديه، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه؟ أترى ابنَ زُهْر ينجيك في ذلك المقام، أو يحميك من الانتقام؟ وقد أوضحت لك المحجّة[3]، لتقوم عليك الحجّة، واللّٰه سبحانه النصير، وهو بكلّ خلق بصير، لا ربَّ غيره، والسلام.

وقد تذكَّرْتُ هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض إخوانه غريقًا: [الطويل]

أتاني وَرَحْلي بالعراق عشيّةً ... ورَحْلُ المطايا قد قَطَعْنَ بنا نَجْدَا
نَعِيٌّ أطار القلبَ عن مُسْتَقَرِّهِ ... وكنت على قَصْدٍ فأغلطني القَصْدَا

نَعَوْا واللّٰه باسق الأخلاق لا يخلف، ورموا قلبي بسهم أصاب صميمه فما أخْلَف، لقد سام الردى منه حسنًا وجمالاً ووَسَامة، وطوى بطيّه نَجْده وتِهَامه، فعطّل منه النَّدِيَّ والنَّدَى، وأثكل فيه الهدِيَّ والهُدَى، كم فَلَّ السيوفَ طولُ قراعه، ودلّ عليه الضيوفَ موقدُ ناره ببقاعه[4]، وكم تشوّف إليه السرير والمنبر، وتصرّف فيه الثناء المُحَبَّر، وكَمْ راع البدرَ ليلة إبداره، ورَوَّع العدوَّ في عُقْر داره، وأي فتًى غدا له البحرُ ضريحًا، وأعدى عليه الحَيْنُ ماء وريحًا، فبدّل مِنْ ظُللِ عُلًى ومفاخر، بقعر بحر طامي اللُّجج زاخر، وبدّل مِنْ صَهَوات الخيل، بلهوات اللّجج والسَّيْل، غريق حكى مقلتي في دمعها، وأصاب نفسي في سمعها، ومن حزنٍ لا أستسقي له الغمامَ فما له قبر تجوده، ولا ثرى تروي به تهائمه ونجوده، وقد آليتُ أن لا أودعَ الريح تحية، ولا يورثني هبوبُها أريحية، فهي التي أثارت في الموج

---

(١) الغَوْرُ: بفتح الغين وسكون الواو: المطئن من الأرض. مختار الصحاح (غور).

(٢) المَثْوَى: الإقامة؛ يقال: ثَوَى بالمكان إذا أقام فيه. لسان العرب (ثوى).

(٣) المَحَجَّة، بثلاث فتحات: جادّة الطريق. مختار الصحاح (حجج).

(٤) في طبعة دار صادر: «بيفاعه».

حَنَقًا[1]، ومشتْ عليه خَبَبًا وعَنَقًا[2]، حتى أعادته كالكُثْبان[3]، وأودعته قضيب بان، فيا أسفًا لزلالٍ غاضَ في أُجاج، ولسلسالٍ فاض عليه بحر عَجّاج، وما كان إلاَّ جوهرًا ذهَبَ إلى عنصره، وصَدَفًا بان عن عين مبصرِه، لقد آن للحُسَام أن يُغمد فلا يُشَام[4]، وللحَمَام أن تبكيه بكل أراكة وبَشَام[5] وللعذارَى أنْ لا يحجبهنّ الخَفَر والاحتشام، يَنُحْنَ فتًى ما ذَرَّت الشمس إلاّ ضرّ أو نفع، ويبكين مَنْ لم يدع فقده في العيش مِنْ مُنْتَفع، فكم نعمْنا بدنوّه، ونسمْنا نسيمَ الأنس في رَوَاحه وغدوّه، وأقمْنا بروضة مَوْشِيَّة، ووقفْنا بالمسرّات عَشِيَّة، وأدرْناها ذهبًا[6] سائلة، ونظرْناها وهي شائلة، لم نرم السهر، ولم نَشِمْ بَرْقًا إلاَّ الكأس والزَّهَر، ولو غير الحمام زَحَف إليه جيشه، أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه، لفَدَاه من أُسْرَته كلُّ أروع إنْ عاجله المكروه تثبّطه، أو جاءه الشرّ تأبّطه، ولكنها المنايا لا تردُّها الصَّوارم والأسَل، ولا تفوتها ذئاب الْغَضَا العُسَّل، قد فرقتْ بين مالك وعَقِيل، وأشرقتْ بعدهما جَذِيمة بالحسام الصَّقيل، انتهى.

وقد عَرّفْنا بالفتح في غير هذا الموضع فليراجع.

رجع إلى بيت بني زُهْر، رحمهم اللّٰه تعالى ـ وأمّا أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر[7] المذكور، فهو عين ذلك البيت، وإن كانوا كلّهم أعيانًا علماء رؤساء حكماء وزراء، وقد نالوا المراتب العليّة، وتقدّموا عند الملوك، ونفذت أوامرهم. قال الحافظ أبو الخطاب بن دِحْية في «المطرب، من أشعار أهل المغرب»[8]: كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زُهْر بمكان من اللغة مكين، ومَوْرِدٍ من الطّلَب عَذْب مَعِين، وكان يحفظ شعر ذي الرُّمّة وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل

(١) الحَنَقُ، بالفتح: الغيظ، مختار الصحاح (حنق).

(٢) الخَبَبُ والعَنَقُ: ضربان من السير السريع. لسان العرب (خبب) و(عنق).

(٣) الكُثْبان: جمع كثيب وهو الرمل المتراكم. لسان العرب (كثب).

(٤) شامَ سَيْفَهُ: أغمده واستلّه، ضدّ، وهو هنا بمعنى: استلّه. محيط المحيط (شيم).

(٥) البَشَام، بالفتح: شجر طيب الريح يُسْتاك به. مختار الصحاح (بشم).

(٦) أي خمرًا صفراء كالذهب في لمعانها.

(٧) هو الحفيد ابن زهر، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٨) النص في المطرب (ص ٢٠٦).

الطبّ، والمنزلة العَلْياء عند أصحاب المغرب، مع سموّ النسب، وكثرة الأموال والنَّشَب[1]، صحبْته زمانًا طويلاً، واستفدْتُ منه أدبًا جليلاً، وأنشد من شعره المشهور قوله[2]: [الكامل]

ومُوَسَّدِينَ على الأكفِّ خدودَهُمْ　　قد غالهمْ نومُ الصَّباح وغالَنِي
ما زِلْتُ أسقيهمْ وأشْرَبُ فَضْلَهمْ　　حتى سكرْتُ ونالهمْ ما نالني
والخمرُ تَعْلَم كيف تأخذُ[3] ثارَهَا　　إنِّي أمَلْتُ إناءَهَا فأمالني

ثم قال ابن دحية[4]: وسألته عن مولده، فقال: ولدْتُ سنة سبع وخمسمائة، قال: وبلغتني وفاته آخر سنة ٥٩٥، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

وزعم ابن خلكان أن ابن زهر ألمَّ في الأبيات المذكورة بقول الرئيس أبي غالب عبيد اللّه بن هبة اللّه[5]: [الكامل]

عَاقَرْتُهُمْ[6] مَشْمُولةً لو سالمتْ　　شُرَّابَهَا ما سُمِّيَتْ بعُقَارِ
ذكَرَتْ حَقَائدَهَا القديمةَ إذ غَدَتْ　　صَرْعَى تُدَاسُ بأرجُلِ العَصَّار
لَانَتْ لهمْ حتى انتَشَوْا وتمكَّنَتْ　　منهمْ وصاحَتْ فيهمُ بالثار

ومن المنسوب إلى أبي بكر بن زُهْر قولُه في كتاب جالينوس المسمّى بحيلة البرء، وهو من أجلِّ كتبهم وأكبرها[7]: [الخفيف]

حِيلَةُ البرء صَنْعَةٌ لعليلٍ[8]　　يترجَّى الحياة أو لعليلَهْ
فإذا جاءتِ المنيَّةُ قالت:　　حيلة البرء لَيْسَ في البرء حِيلَهْ

---

(١) النَّشَبُ: بالفتح: العَقار. مختار الصحاح (نشب).
(٢) الأبيات في المطرب (ص ٢٠٧) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٣٤).
(٣) في المطرب: «تطلب ثارَها».
(٤) المطرب (ص ٢٠٧) وانظر أيضًا وفيات الأعيان (ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥).
(٥) في وفيات الأعيان (ص ٤٣٥): «بقول الرئيس أبي غالب عبيد اللّه بن هبة اللّه بن الأصباغي».
(٦) في وفيات الأعيان: «عَقَرْتُهُمْ».
(٧) البيتان في وفيات الأعيان (ص ٤٣٥).
(٨) في وفيات الأعيان: «صُنِّفَتْ لعليل».

ومن شعره، رحمه الله تعالى، يتشوّق ولدًا له صغيرًا بإشبيلية وهو بمراكش [1]: [المتقارب]

ولي واجِدٌ مثلُ فَرْخِ القَطَاة ... صغيرٌ تخلَّفْتُ قلبي لديْهِ [2]
وأُفْرِدْتُ عنه، فيا وَحْشَتَا [3] ... لذاك الشُّخَيص وذاك الوُجَيهِ
تَشَوَّقني وتَشَوَّقْتُهُ ... فيَبْكي عَلَيَّ وأبكي عليه
وقد[4] تَعِبَ الشوقُ ما بيننا ... فمنه إليَّ ومني إليه

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلاّمة سيّدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب المغرب، رضي الله تعالى عنه، أنَّ ابن زُهْر لَمَّا قال هذه الأبيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى إشبيلية، وأمرهم أنْ يحتاطوا علمًا ببيوت ابن زُهْر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدّة، وفرشها بمثل فرشه، وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زُهْر وأولاده وحَشَمه وأسبابه إلى تلك الدار، ثم احتال عليه حتى جاء إلى[5] ذلك الموضع، فرآه أشبه شيء ببيته وحارته، فاحتار لذلك، وظنّ أنه نائم، وأنَّ ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله، فإذا ولده الذي تشوّق إليه يلعب في البيت، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه، ولا يعبّر عنه، هكذا هكذا وإلاَّ فلا لا.

ومن نظم ابن زهر المذكور حيث[6] شاخ وغلب عليه الشَّيْب [7]: [البسيط]

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان.
(٢) في وفيات الأعيان: «فرخ القطا صغير تخلّف..».
(٣) رواية صدر البيت في وفيات الأعيان هي:
نأتْ عنه داري، فيا وَحْشَتا
(٤) في وفيات الأعيان: «لقد».
(٥) كلمة «إلى» ساقطة من طبعة ليدن.
(٦) في طبعة ليدن: «حين شاخ».
(٧) الأبيات في وفيات الأعيان (ص ٤٣٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٢٤).

إني نَظَرْت إلى المرآة قد جُلِيَتْ[1] فأنْكَرَتْ مقلتايَ كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُوَيخًا لستُ أعْرِفُهُ وكُنْتُ أعْهَدُهُ مِنْ قبلِ ذاك فتى[2]
فقلتُ: أين الذي بالأمس كان هُنَا؟[3] متى تَرَحَّلَ عن هذا المكان؟ متى؟
فاستضحكتْ ثم قالت وهي مُعْجَبة: إنَّ الذي أنْكَرَتْهُ مُقْلتاكَ أتى[4]
كانَتْ سُلَيمى تنادي يا أُخَيَّ وقد صارتْ سليمى تنادي اليوم يا أبتا[5]

والبيت الأخير ينظر إلى قول الأخطل[6]: [الكامل]

وإذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنه نَسَبٌ يزيدُكَ عِنْدَهُنّ خَبَالاَ
وإذا دَعَوْنَكَ يا أُخَيّ فإنه أدْنى وأَقْرَبُ خُلّةً ووِصالا[7]

وقال ابن دِحْية في حقه أيضًا[8]: والذي انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه[9]، وصارت النبهاءُ فيه مِنْ خَوَله وأتباعه: الموشحات، وهي زُبْدة الشعر ونخبته[10]، وخلاصة جوهره وصَفْوَته. وهي من الفنون التي أغرب[11] بها أهل المغرب على أهل الْمَشْرِق. وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء الْمُشْرِق، انتهى.

---

(١) في وفيات الأعيان وعيون الأنباء: «إذ جُلِيَتْ».
(٢) في وفيات الأعيان: «شُيَيْخًا لستُ..». وفي عيون الأنباء: «شُيَيْخًا لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل..».
(٣) في عيون الأنباء: «الذي مَثْواه كان هنا».
(٤) رواية البيت في عيون الأنباء هي:
فاسْتَجْهَلَتْني وقالتْ لي وما نَطَقَتْ قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
(٥) رواية هذا البيت في عيون الأنباء هي:
كان الغواني يَقُلْنَ يا أُخَيَّ فقد صار الغواني يَقُلْنَ اليوم يا أَبَتَا
وقبل هذا البيت بيت آخر ورد في عيون الأنباء ولم يرد هنا وهو:
هَوِّنْ عليكَ فهذا لا بقاء له أما ترى العشب يفنى بعد ما نَبَتَا
(٦) شرح ديوان الأخطل التغلبي (ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦). والبيتان أيضًا في وفيات الأعيان (ص ٤٣٦).
(٧) لم يرد هذا البيت في الديوان، وقد يكون هو نفسه هذا البيت:
وتَعَرَّضَتْ لك بالأباطح بعد ما قطعتْ بأبرقَ خُلَّةً ووصالا
(٨) المطرب (ص ٢٠٤).
(٩) في طبعة دار صادر: «وانقادت لتحليته طباعه، وصارت..»، وفي طبعة ليدن: «وانقادت إليه طباعه..». وفي المطرب: «وانقادت لتخيله طباعُه وأصارت النبهاءَ خَوَلَهُ وأتباعَهُ.».
(١٠) كلمة: «ونخبته» غير واردة في المطرب.
(١١) في طبعة ليدن: «أغرب فيها». وفي المطرب: «أغربت بها».

ومن مشهور موشحات ابن زُهْر قوله(١):

مـا لـلمـولّـهْ مِنْ سُـكْـرِهِ لا يُفِـيقْ؟

وهــذا مـطلع مـوشح يستعمله أهــل المغـرب إلى الآن، ويــرون أنــه من أحسن الموشحات.

ومن موشحاته قوله(٢):

سَـلِّمِ الأَمْـرَ لـلْقَـضَـا   فـهـو لـلـنَّـفْس أنْـفَـعُ
واغـتـنـمْ حـيـن أَقْـبَـلَا   وَجْـهُ   بَـدْرٍ   تَـهَـلَّلَا   لا تَـقُـلْ بـالـهـمـوم لا
كـلُّ مـا فـاتَ وانْـقَـضَـى   لـيس بـالـحُـزْنِ يَـرْجِـعُ
واصْـطَبِحْ بـابْنَـةِ الكُـرُومِ   مِـنْ يَـدَيْ شـادنٍ رخيـمِ   حـينَ يَفْتَـرُّ عـن نـظيـمِ
فـيـه بَـرْقٌ قـد آومَـضَـا   ورَحِـيـقٌ   مُـشَـعْـشَـعُ
أنـا أفـديْـهِ مِـنْ رَشَـا   أهـيـفِ الـقَـدِّ والـحَـشَـا   سُـقِيَ الـحُسْـنَ فـانْـتَـشَى
مـذ تـولَّـى وأعْـرَضَـا   فـفُـؤَادي   يُـقَـطَّعُ
مَـنْ لِـصَـبٍّ غَـدَا مَـشُـوقْ   ظَـلَّ فـي دَمْـعـه غـريـقْ   حـين أمّـوا حِمَى العقيقْ
واسْـتَقَـلُّوا بـذي الـغَـضَـا   أسـفـي يـوم وَدَّعُـوا
مـا تَـرَى حيـن أَظْـعَـنَـا   وسَـرَى الـرَّكْبُ مَـوْهِنَا(٣)   واكْـتَسَى الليـلُ بـالـسَّنَـا
نـورُهُـم ذا الـذي أضـا   أم مـع الـركـب يُـوشَـعُ(٤)؟

---

(١) مطلع الموشحة هو الآتي:
ما لِلْمُوَلَّهْ/ من سُكْرِهِ لا يُفيقْ؟/ يا له سكرانْ/ مِنْ غير خَمْرِ/ ما للكئيبِ المَشُوْقْ/ يندبُ الأوطانْ.
«وهو» مؤلَّف، كما نرى، من ستة أجزاء مفردة. والموشحة كاملة في غرض الغزل، وهي في تاريخ ابن خلدون (م ١ ص ١١٤٣ ـ ١١٤٤). وسيرد بعض هذه الموشحة في الجزء التاسع من نفح الطيب.

(٢) هذه الموشحة تامة، وهي تتألف من ستة أقفال وخمسة أبيات. والأقفال هنا متفقة في الوزن والروي وعدد الأجزاء، ولها رويّان هما الضاد المفتوحة والعين المضمومة.

(٣) المَوْهِنُ من الليل: منتصفه أو بعد منتصفه بقليل. لسان العرب (وهن).

(٤) هو يوشع بن نون، من سبط يهوذا، ومن ولد يوسف عليه الصلاة والسلام. جمهرة أنساب العرب (ص ٥٠٥، ٥٠٨). وفي يوم العنصرة، وهو يوم مشهور ببلاد الأندلس وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، حبس اللّهُ تعالى الشمسَ على يوشع بن نون، عليه السلام، حين بعثه موسى عليه الصلاة والسلام إلي أريحا لقتال الجبابرة. وقد ذكر الشعراء ذلك في أشعارهم. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

ورأيت مع هذا موشحًا آخر لا أدري هل هو لابن زهر أم لا، وهو هذا[1]:

فُتِقَ المِسْكُ بكافور الصباحْ ... ووَشَتْ بالرَّوْضِ أعرافُ الرياحْ

فاسْقِنِيْها قبل نُورِ الفَلَقِ ... وغِناءِ الوُرْق بين الوَرَقِ ... كاحْمرار الشمس عند الشفقِ

نَسَجَ المَزْجُ عليها حين لاحْ ... فلكَ اللهو وشمسَ الاصْطباحْ

وغزال سامني بالمَلَقِ ... وبَرَى جِسْمي وأذْكَى حُرَقي ... أهيفُ مذ سلَّ سَيْفَ الحَدَقِ

قصرتْ عنه أنابيب الرماحْ ... وثَنَى الذعر مشاهير الصفاحْ

صار بالدّلّ فؤادي كَلِفًا ... وجفون ساحرات وُطفًا ... كلما قلت جَوَى الحبِّ انْطَفَا

أَمْرَضَ القلبَ بأجفانٍ صحاحْ ... وسَبَى العَقْلَ بجدٍّ ومزاحْ

يُوسُفيُّ الحسن عَذْبُ المبتسمْ ... قَمَرِيّ الوَجْهِ لَيْليُّ اللِّمَمْ[2] ... عنتريُّ البأس عُلْويُّ الهممْ

غُصُنِيُّ القَدِّ مهضومُ الوشاحْ ... ما دِرِيُّ الوَصْلِ طائيُّ السَّماح[3]

قَدَّ بالقَدِّ فؤادي هَيَفَا ... وسَبَى عَقْليَ لَمَّا انعطفا ... ليته بالوصل أَحْيَا دَنِفا[4]

مُسْتَطَارَ العقل مقصوصَ الجناحْ ... ما عليه في هواه مِنْ جُناحْ

يا علي أنت نُورُ المُقَلِ ... جُدْ بوَصْلٍ منك لي يا أملي ... كم أغنّيك إذا ما لحتَ لي

طَرَقْتَ والليلُ ممدودُ الجَناحْ ... مَرْحَبًا بالشمس مِنْ غير صباحْ

١٦٤ - ومنهم أبو الحجاج الساحلي، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم بن علي، الفِهْري، الغَرْنَاطي[5].

قال في الإحاطة: صَدْرٌ من صدور حملة القرآن على وَتيرة الفضلاء وسَنَن الصالحين، حَجَّ ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وطبقته، ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكيم[6] وقد أصابته حمّى تركت على شفته بُثُورًا: [السريع]

---

(١) هذه الموشحة تامة، وهي من ستة أقفال وخمسة أبيات، والأقفال هنا متفقة في الوزن والروي وعدد الأجزاء. ورويّها هو الحاء الساكنة.

(٢) اللِّمَمُ: جمع لِمَّة، بكسر اللام، وهي الشَّعْر الذي يجاوز شحمة الأذن. مختار الصحاح (لمم).

(٣) المادري: نسبة إلى مادر مضرب المثل في البخل، وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٥٠). طائي السماح: أي كحاتم الطائي، وقد مرَّ التعريف بحاتم.

(٤) الدَّنِفُ: الذي أصابه المرض الشديد. لسان العرب (دنف).

(٥) ترجمة أبي الحجاج الساحلي في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٠٤).

(٦) هو أبو عبد الله ابن الحكيم الرندي، ذو الوزارتين، وترجمته في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٤٤). وسيترجم=

حـاشـاك أنْ تَمْـرَضَ حـاشـاكـا | قـد اشـتكى قلبي لـشكـواكـا
إن كنت محمومًا ضعيفَ القـوى | فـإنـنـي أَحْـسُـدُ حُـمَّـاكـا
مـا رَضِيَتْ حُـمَّـاك إذْ بـاشـرت | جِسْمَـك حتى قَبَّلَتْ فـاكـا[1]

قال أبو الحجاج، رحمه اللّٰه تعالى: وكتب إليَّ شيخنا محمد بن محمد بن عَتيق بن رشيق في الاستدعاء الذي أجازني فيه ولمن ذكر معي[2]: [الطويل]

أجَـزْتُ لـهـمْ أبـقـاهُـمُ الـلّٰه كـلَّ مـا | رَوَيْتُ عن الأشيـاخ في سـالـف الـدهـرِ
ومـا سَـمِـعَـتْ أُذنـاي مِـنْ كـلِّ عـالِـمٍ | ومـا جـادَ مِنْ نـظمي ومـا راق مِنْ نثـري[3]
على شَـرْطِ أصحـابِ الحـديث وضَبْـطِهِمْ | بـريءٌ عن التصحيف عـارٍ عـن النُّكْـرِ[4]
كـتـبْـتُ لـهُـمْ خـطِّي وإسـمـي مـحـمـد | أبـو القـاسم المكنيُّ مـا فيـه من نـكـر[5]
وَجَـدِّي رشيـقٌ شـاعَ فـي الـغَـرْب ذكْـرُهُ | وفي الشـرق أيضًـا فـادْرِ إن كنت لا تـدري
ولـي مـولـدٌ مِنْ بَـعْـدِ عشـريـن حـجَّـة | ثمـانٍ على الستِّ المئين[6] ابتـدا عمـري
وبـالـلّٰه تـوفـيـقـي عـلـيـه تـوكُّـلي | لـه الحمد في الحـالين[7] في العُسْـر واليُسْـر

ومولد أبي الحجاج المذكور سنة ٦٦٢، وتوفي سنة ٧٠٢، رحمه اللّٰه تعالى! انتهى باختصار.

١٦٥ ـ وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق شاعر الأندلس يحيىٰ بن الحكم، البكري الجياني الملقّب بالغزّال[8] لجماله، وهو في المائة الثالثة، من بني بكر بن وائل.

= له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب رقم ٢٤٤، وفي الجزء الثامن ضمن ترجمة ولده أبي بكر محمد بن أبي عبد اللّٰه ابن الحكيم الرندي.

(١) الأبيات في الإحاطة (ص ٤٠٦).

(٢) الأبيات في الإحاطة (ص ٤٠٦).

(٣) في الإحاطة: «نَثْرٍ».

(٤) رواية عجز البيت في الإحاطة هي:

بـريٌّ مـن التـصحيـف عـارٍ مـن الـنُّكْـرِ

(٥) هذا البيت لم يرد في الإحاطة.

(٦) في الإحاطة: «المبين».

(٧) في الإحاطة: «الحالتين» وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) مرَّ التعريف بيحيىٰ الغزال والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول من نفح الطيب.

قال ابن حيان في «المقتبس»: كان الغزال حكيم الأندلس، وشاعرها، وعرّافها، عمّر أربعًا وتسعين سنة، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس؛ أولهم عبد الرحمن بن معاوية، وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.

ومن شعره: [الرجز]

أَدْرَكْتُ بالمصر مُلُوكًا أربَعَهْ ... وخامسًا هذا الذي نحن مَعَهْ

وله على أسلوب ابن أبي حكيمة راشد بن إسحٰق الكاتب[1]: [الكامل]

خَرَجَتْ إليك وثَوبُها مقلوبُ ... ولِقَلْبها طربًا إليك وَجِيبُ[2]

وكأنها في الدار حين تَعَرَّضَتْ ... ظبيٌ تَعَلَّلَ[3] بالفَلا مَرْعُوبُ

وتَبَسَّمَتْ فأَتَتْكَ حين تبسَّمَتْ ... بجُمَانِ دُرٍّ لم يَشِنْهُ ثقوبُ[4]

ودَعَتْك داعيةُ الصِّبَا فتَطَرَّبَتْ ... نَفْسٌ إلى داعي الضلال طَرُوْبُ

حَسَبَتْكَ في حال الغَرَام كعهدها ... في الدار إذ غُصْنُ الشباب رَطِيبُ

وعَرَفْتُ ما في نَفْسها فضمَمْتُها ... فتساقطتْ بَهْنَانَةٌ رُعْبُوبُ[5]

وقَبَضْتُ ذاك الشيء قَبْضَةَ شاهنٍ ... فنَزَا إليَّ عَضَنَّكٌ حُلْبُوبُ[6]

بيدي الشمال وللشِّمَال لَطَافةٌ ... لَيْسَتْ لأخرى والأديب أريبُ

فأصاب كَفِّي منه حين لَمَسْتُه ... بَلَلٌ كماء الورد حين يسيبُ

---

(١) ترجم له ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (جـ٢ ص ١٥) فقال: راشد بن إسحٰق بن راشد أبو محمد الكاتب، يلقب أبا حُكيمة، بضم الحاء، شاعر أديب أفنى عامة شعره في مراثي متاعه، وكانت وفاته بطريق مكة بعد الأربعين ومائتين. وأبيات يحيىٰ الغزال في المطرب (ص ١٤٩ ـ ١٥٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) رواية هذا البيت في المطرب (ص ١٤٩) هي:

لم أنسَ إذ برزتْ إليَّ لَعُوْبُ ... طَرَبًا وحيث قميصُها مقلوبُ

والوجيب: الاضطراب. مختار الصحاح (وجب).

(٣) في المطرب: «تدلَّه».

(٤) رواية هذا البيت في المطرب مختلفة عمّا هنا. وهنا يشبّه أسنانها بحبات الجمان.

(٥) البَهْنانةُ: المرأة الطيبة النفس الخفيفة الروح. الرُّعْبُوْبُ: المرأة البيضاء الحسنة الناعمة. محيط المحيط (بهن) و (رعب).

(٦) يريد بالشاهن: الشاهين وهو من سباع الطير. العَضَنّكُ: الفرج العظيم المكتنز. الحُلْبُوْبُ: الأَسْوَدُ. لسان العرب (شهن) و (عضنك) و (حلب).

وتَـحَلّتْ نـفسـي لِـلَذّةِ رَشْـجِـهِ حـتى خشيْتُ علـى الـفـؤاد يَـذُوبُ
فَتَقَـاعَسَ الـملعـون عنـه ورُبّمَـا نـادَيْـتُـه خَيْـرًا فـليس يُجـيـبُ
وأبـى فـحـقّق فـي الإبـاء كـأنـه جـانٍ يُـقَـاد إلـى الـردى مَـكْـرُوبُ
وتَغَـضّنَـتْ جَـنَبـاتـه فـكـأنـه كِـيـرٌ تَـقَـادم عـهـدُه مـشـقُـوبُ
حـتى إذا مـا الـصـبـحُ لاحَ عَـمُـودُه قَـبَسًـا وحـان مـن الـظلام ذُهُـوبُ
سـاءلْتُهَـا خَجَـلًا أمـا لـك حـاجَـةٌ عنـدي؟ فقـالت: سـاخـر وحَـرُوبُ
قـالـتْ جِـرُ آمّـك إذ أردْتَ وداعَهـا قَـرِنٌ وفيـه عَـوَارضٌ وشُـعُـوبُ[١]

وذكرها ابن دِحْيَة بمخالفة لِمَا سَرَدْناه.

قال عتبة التاجر: وجّهني الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق وعبد اللّه بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون، فلقيته بالعراق، فسألني عن هذه القصيدة[٢] هل أحفظها للغَزَال؟ قلت: نعم، فاستنشدنيها، فأنشدته إيّاها، فَسُرَّ بها، وكتبها، قال عتبة: ونلْتُ بها حظًا عنده.

والبهنانة: المرأة الطيبة النفس والأرج، كما في الصحاح، وقيل: اللّيِّنة في منطقها وعملها، وقيل: الضحّاكة المتهلّلة، والرُّعْبُوبُ: السَّبْطة البيضاء، والسبطة: الطويلة.

وقال سامحه اللّه تعالى: [السريع]

سَـأَلْـتُ فـي الـنّـوم أبـي آدمًـا فَـقُـلْـتُ والـقـلـبُ بـه وامِـقُ[٣]
اِبْـنُـك بـالـلّه أبـو حـازم؟! صَـلّى عليـك الـمـالـكُ الخـالـقُ
فـقـال لـي: إن كـان مـنّـي ومِـنْ نَـسْـلـي فـحـوًا أُمُّـكُـمْ طـالِـقُ

وقال، رضي اللّه تعالى عنه: [الوافر]

أرى أهْـلَ الْـيَسَـار إذا تُـوُفُّـوا بَنَـوا تلك المقـابـرَ بـالصخـورِ
أبَـوْا إلّا مُـبَـاهـاةً وفـخـرًا عـلى الفـقـراء حتـى في الـقبـور

(١) الحِرُ، بكسر الحاء: فرج المرأة. القَرِنُ: الفرج الذي فيه قَرْنٌ وهو زائدة صلبة تنبت هناك شبيهة بالقرن. محيط المحيط (حرر) و(قرن).
(٢) كلمة «القصيدة» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) الوامِقُ: الشديد المحبّة. لسان العرب (ومق).

فإن يكن التفاضلُ في ذُرَاها   فإنَّ العدل فيها في القُعُورِ
رَضِيتُ بمن تأنَّقَ في بناء   فبالغَ فيه تصريف الدهور
أَلَمَّا يُبْصِرُوا ما خَرَّبَتْهُ الد   هورُ مِنَ المدائن والقُصُور؟
لَعَمْرُ أبيهمُ لو أبصروهمْ   لَمَا عُرِفَ الغنيُّ من الفقير
ولا عَرَفُوا العبيد من الموالي   ولا عرفوا الإناثَ من الذكور
ولا من كان يلبس ثوبَ صوفٍ   مِنَ البَدَنِ المُباشِر للحرير
إذا أكل الثَّرَى هذا وهذا   فما فضلُ الكبير على الحقير

وقال، رضي اللّٰه تعالى عنه: [الخفيف]

لا، ومَنْ أعْمَلَ المطايا إليه   كلُّ مَنْ يَرْتجي إليه نَصِيبَا
ما أرى هٰهُنَا من الناس إلاَّ   ثَعْلبًا يطلبُ الدجاج وذِيْبا
أو شَبِيهًا بالقطِّ ألقى بِعَيْنَيْـ   ـهِ إلى فارَةٍ يريد الوثوبا

وقال، رضي اللّٰه تعالى عنه: [الكامل]

قالت أحِبُّكَ قلتُ كاذبةٌ   غُرِّي بذا مَنْ ليس ينتقدُ
هذا كلامٌ لستُ أقبله   الشيخ ليس يُحِبُّه أحَدُ
سِيَّان قَولُكِ ذا وقَوْلك إنَّ   الريح نعقدها فتنعقِدُ
أو أنْ تقولي النارُ باردة   أو أن تَقُولي الماء يَتَّقدُ

وحكى أبو الخطاب بن دِحْية في كتاب «المطرب»[1] أن الغَزَالَ أُرْسِل إلى بلاد المجوس وقد قرب[2] الخمسين، وقد وَخَطَه الشيب[3]، ولكنه كان مجتمع الأشُدّ، فسألته زوجة الملك يومًا عن سنّه، فقال مداعبًا لها: عشرون سنة، فقالت: وما هذا الشيب؟ فقال: وما تنكرين من هذا؟ ألم تَرَيْ قطُّ مُهْرًا يُنْتج وهو أشهب؟ فأعجبتْ بقوله، فقال في ذلك، واسم الملكة تود[4]: [السريع]

---

(١) المطرب (ص ١٤٣ ـ ١٤٤).

(٢) في طبعة دار صادر: «قارب». وفي المطرب (ص ١٤٣): «شارف».

(٣) وَخَطَهُ الشَّيْبُ: خالطَ سوادَ رأسه. لسان العرب (وخط).

(٤) أغلب الظن أن «تود» هو اختصار «تيودورا» Teodora. وفي المطرب (ص ١٤٤): «نود» بالنون. والأبيات في المطرب (ص ١٤٤).

كُلِّفْتَ يـا قـلبي هَـوًى مُـتْعِـبَـا ... غـالَبْتَ منـه الضَّيْغَمَ الأَغْلَبـا[1]
إنـي تَـعَـلَّقْتَ مَـجُـوسِيَّـةً ... تـأبى لِشمسِ الحُسْن أن تَغْـرُبـا
أقـصى بـلاد الـلّه في حـيـث لا ... يُـلْفي إلـيـه ذاهبٌ مـذهبـا[2]
يـا تـودُ يـا رُوْدَ[3] الـشبـابِ التي ... تُـطْلِعُ مـن أزرارهـا الـكـوكـبـا
يـا بـأبي الـشخصَ الـذي لا أرى ... أحْـلَى عـلى قـلبـي، ولا أعْـذَبـا
إنْ قـلتُ يـومًـا إنَّ عـيـنـي رأتْ ... مُـشْـبِـهَـهُ لـم أعْـدُ أن أكْـذِبَـا
قـالـت أرى فَـوْدَيْـه[4] قـد نَـوَّرَا ... دُعـابـةً تُـوْجِـبُ أن أدْعَـبـا
قَـلْتُ لـهـا: مـا بـالُـهُ؟ إنـه[5] ... قـد يُنْتَـجُ الـمَهْـرُ كـذا أشـهبـا
فـاستضحكتْ عُجْبًـا بقـولي لهـا ... وإنـمـا قـلتُ لـكـي تَـعْـجـبـا

قال: ولَمَّا فهمها الترجمان شِعْرَ الغَزَال ضحكتْ، وأمرته بالخضاب، فغدا عليها وقد اختضب وقال[6]: [الكامل]

بَكَـرَتْ تحسِّنُ لـي سَـوَادَ خضـابي ... فـكـأنَّ ذاكَ أعـادني لـشـبـابـي
مـا الشَّيْبُ عندي والخِضـابُ لِـواصِفٍ ... إلاَّ كـشـمسٍ جُـلِّلَتْ بِـضَـبـاب
تخفى قليـلاً ثـم يَقْشَعُـهـا الصَّبـا ... فيصيـرُ مـا سُتِـرَتْ بـه لِـذَهـاب
لا تُنْكـري وَضَـحَ المشيب فـإنـمـا ... هـو زَهْـرَةُ الأفـهـامِ والألـبـاب
فَلَدَيَّ مـا تَهْـوَيْـنَ مِنْ زَهْـوِ الصِّبـا ... وطـلاوةِ الأخـلاق والآداب

وحكى ابن حيـان في «المقتبس» أنَّ الأمير عبـد الـرحمن بن الحكم المـرواني وَجَّـه شـاعره الغَـزَّال إلى ملك الروم، فـأعجبه حـديثه، وخفّ على قلبـه، وطلب منه أن ينـادمه، فامتنع من ذلك، واعتذر بتحـريم الخمر، وكـان يومًـا جالسًـا عنده، وإذا بـزوجة الملك قـد خرجت وعليها زينتها، وهي كالشمس الـطالعة حُسْنًـا، فجعل الغَـزَال لا يُمِيْلُ طـرفه عنهـا،

---

(١) الضَّيْغم: الأسد. الأغلب: الغليظ العنق. لسان العرب (ضغم) و(غلب).
(٢) في المطرب: «لي حيث لا يلقى إليها..».
(٣) في المصدر نفسه: «يا نُوْدُ..». والرود: الفتاة الشابة الجميلة الممشوقة. لسان العرب (رود).
(٤) الفَوْدان: مثنى فَوْد وهو الشَّعر الذي على جانب الرأس ممّا يلي الأذنين. لسان العرب (فود).
(٥) رواية صدر البيت في المطرب هي:
قـلت لـهـا: يـا أبـي إنـه
(٦) الأبيات في المطرب (ص ١٤٦) دون اختلاف عمّا هنا.

وجعل الملك يحدّثه وهو لاهٍ عن حديثه، فأنكر ذلك عليه، وأمر الترجمان بسؤاله، فقال له: عَرِّفْه أني قد بَهَرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه، فإني لم أر قطُّ مثلها، وأخذ في وصفها والتعجّب من جمالها، وأنّها شوقته إلى الحُوْرِ العِيْنِ، فلمّا ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حُظْوَته عنده، وسُرَّتِ الملكةُ بقوله، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الخِتَان، وتجشُّم المكروه فيه، وتغيير خلق اللّه، مع خلوّه من الفائدة، فقال للترجمان: عَرِّفْها أن فيه أكبر فائدة، وذلك أن الغصن إذا زُبِرَ قَوِيَ، واشتدّ، وغلظ، وما دام لا يفعل به ذلك لا يزال رقيقًا ضعيفًا، فضحكت وفطِنت لتعريضه، انتهى.

ومن شعر الغزال قوله(١): [الكامل]

يا راجيًا وُدَّ الغواني ضَلَّةً	وفُؤادُه كَلِفٌ(٢) بهنَّ مُوَكَّلُ
إنَّ النساء لكالسُّرُوجِ حقيقةً	فالسَّرْجُ سَرْجُك ريثما لا تنزل
فإذا نَزَلْتَ فإنَّ غيرك نازلٌ	ذاك المكانَ وفاعلٌ ما تفعل
أو مَنْزِلُ المُجْتازِ أصْبَحَ غاديًا	عَنْهُ وينزلُ بَعْدَهُ مَنْ ينزل
أو كالثمار مُبَاحةً أغصَانُها	تَدْنُو لأول من يمر فيأكل(٣)
أعْطِ الشبيبةَ ـ لا أبالَكَ ـ حَقَّها	منها، فإنَّ نعيمَهَا متحوِّلُ
وإذا سُلبْتَ ثيابها لم تنتفع	عند النساء بكلِّ ما تستبدل(٤)

وقال(٥): [مجزوء الرمل]

قال لي يَحْيَىٰ وصِرْنَا	بين مَوْجٍ كالجِبَالِ
وتَوَلَّتْنَا رِيَاحٌ	مِنْ دَبُور وشَمَال(٦)
شَقَّتِ القَلْعَيْنِ وانبتْ	تَتْ عُرَا تلك الحبال
وتَمَطَّى مَلَكُ المو	تِ إلينا عن حِيَالِ

(١) الأبيات في المطرب (ص ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) في المطرب: «ففؤاده «كَلِفًا..».

(٣) في المصدر نفسه: «فَتُؤكَلُ».

(٤) في المصدر نفسه: «ما يُسْتَبْدَلُ».

(٥) الأبيات في المطرب (ص ١٣٩ ـ ١٤٠) وجذوة المقتبس (ص ٣٧٥) وبغية الملتمس (ص ٥٠٠).

(٦) الدَّبُوْرُ: الريح الغربية. لسان العرب (دبر). ورواية البيت في جذوة المقتبس وبغية الملتمس هي:

وتَوَلَّتْنا عُصُوْفٌ من جنوب وشمالِ

فـرأيـنـا الـمـوت رأيَ الْـ ـعَيـن حـالاً بَـعْـدَ حـالِ[1]
لـم يَكُـنْ لِلْقَـوْمِ فـيـنـا يـا رفـيـقـي رأسُ مـالِ

ومنـــها:[2]

وسُـلَيْـمَـى ذاتُ زُهْـدٍ فـي زَهِـيـدٍ فـي وصـال[3]
كـلّمـا قـلْتُ صِـلِيـنـي حـاسَبَتْـني بـالـخـيـال
والْـكَـرَى قـد مُـنِـعَـتْـهُ مُـقْلتـي أُخْـرى الـلـيـالـي
وهـي أَدْرَى فـلـمـاذا دافَـعَـتْـنِـي بِـمُـحـال
أتـرى أنّـا اقْـتَـضَـيـنـا[4] بَـعْـدُ شـيـئًـا مِـنْ نـوالِ؟

ولـــه: [الكامل]

مَنْ ظَنَّ أنَّ الـدهـرَ ليس يُصِيبُـهُ بـالـحـادثـاتِ فـإنـه مَغْـرُورُ
فَـٱلْقَ الـزمـانَ مُهَـوِّنًـا لخطوبـه وانْجَـرَّ حيث يجـرُّكَ الـمقـدورُ
وإذا تَـقَـلَّبَـتِ الأمـورُ ولـم تَـدُمْ فـسـواءٌ الـمحـزونُ والمسـرورُ

وعاش الغَزّال أربعًا وتسعين سنة، وتوفي في حدود الخمسين والمائتين، سامحه اللّه تعالى!.

وكان الغزال أقذع في هجاء علي بن نافع المعروف بزرياب[5]، فذكر ذلك لعبد الرحمن، فأمر بنفيه، فدخل العراق، وذلك بعد موت أبي نُوَاس بمدّة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر أحد بشعره، فجلس يومًا مع جماعة منهم فأَزْرَوْا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله[6]: [الطويل]

---

(١) لم يرد هذا البيت في جذوة المقتبس وبغية الملتمس.
(٢) هذه الأبيات لم ترد أيضًا في المصدرين السابقين.
(٣) في المطرب: «من وصال».
(٤) رواية صدر البيت في المطرب هي:
أتُـرانـي أقـتـضـيـهـا
(٥) في طبعة بولاق: «بابن زرياب».
(٦) الأبيات في المطرب (ص ١٤٨). وفي جذوة المقتبس (ص ٣٢٩) وبغية الملتمس (ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧) الأبيات الثلاثة الأوائل فقط.

وَلَمَّا رأيْتُ الشَّرْبَ أكْدَتْ سماؤهُمْ تأبَّطْتُ زِقّي واحْتَبَسْتُ عنائي[1]
فلمَّا أتيتُ الحانَ ناديتُ رَبَّهُ فثابَ خفيفُ الروح نحو ندائي[2]
قليلَ هُجُوعِ العَينِ[3] إلّا تَعِلَّةً على وَجَلٍ منّي ومِنْ نُظَرائي
فقلتُ أذِقْنِيها فلمّا أذاقَها طَرَحْتُ عليه رَيطَتي وردائي[4]
وقلْتُ أعِرْني بِذْلَةً أسْتَتِرْ بها بَذَلْتُ له فيها طلاق نسائي
فواللَّه ما بَرَّتْ يميني ولا وَفَتْ له غَيْرَ أني ضامِنٌ بوفائي
فأُبْتُ[5] إلى صَحْبي ولم أكُ آئبًا فكلٌّ يُفَدِّيني وحُقَّ فدائي

فأُعْجبوا بالشعر، وذهبوا في مدحهم له، فلمّا أفرطوا قال لهم: خَفِّضوا عليكم، فإنه لي، فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تداركْتُ في شُرْبِ النبيذِ خَطَائي[6] وفَارَقْتُ فيه شِيْمَتي وحيائي

فلما أتمَّ القصيدة بالإنشاد خجلوا، وافترقوا عنه.

وحكي أن يحيىٰ الغَزّال أراد أن يعارض سورة ﴿ قُلْ هو اللَّه أحدٌ ﴾[7] فلمّا رام ذلك أخذته هَيبة وحالة لم يعرفها، فأناب إلى اللَّه، فعاد إلى حاله.

وحكي أن عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء كان يَفِدُ على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها، ومرَّت عليهم قصيدته التي أولها: [الطويل]

لعَمْرُكَ ما البَلْوَى بعارٍ ولا العَدَمْ إذا المرءُ لم يعدم تُقَى اللَّه والكَرَمْ

---

(١) في جذوة المقتبس: «وكنتَ إذا ما الشَّرْبُ... واحتضنْتُ عنائي». وفي بغية الملتمس: «وكنت إذا ما الشَّرْبُ... واحتسبْتُ عنائي».
(٢) في المطرب: «الخان... فهبَّ خفيف..». وفي جذوة المقتبس وبغية الملتمس: «ولمّا أتيتُ الحانَ نَبَّهْتُ أهله فهبَّ..».
(٣) في الجذوة والبغية: «هجوع الليل...».
(٤) في المطرب: «فلمّا أذاقني طرحْتُ إليه..». والرَّيْطة: المُلاءة أي الثوب الرقيق. لسان العرب (ريط).
(٥) في المطرب: «وأُبْتُ».
(٦) الخطاء: الخطأ.
(٧) سورة الإخلاص ١١٢، الآية: ١.

حتى انتهى القارىء إلى قوله:

تَجَافَ عن الدنيا فما لمعجِّزٍ ولا عاجزٍ إلَّا الذي خُطَّ بالقَلَمْ

فقال له الغَزَال، وكان في الحلقة، وهو إذ ذاك حَدَثٌ نَظَّامٌ متأدِّبٌ ذكيُّ القريحة: أيها الشيخ، وما الذي يصنع مُفَعِّل مع فاعل؟ فقال له: كيف تقول؟ فقال: كنت أقول: فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباس: واللّٰه يا بني لقد طلبها عَمُّكَ فما وجدها.

وأنشد يومًا قوله من قصيدة: [الطويل]

بَقَرْتُ[1] بطونَ الشِّعْرِ فاسْتُفْرِغَ الحَشَا بكفِّي حتى آب خَاوِيه مِنْ بَقْري

فقال له بكر بن عيسى الشاعر: أما واللّٰه يا أبا العلاء، لئن كنت بَقَرْتَ الحَشَا لقد وَسَّخْتَ يَدَيْكَ بفَرْثِهِ[2]، وملأتَهُما بدمه، وخَبَّثْتَ نَفْسَكَ بِنَتْنِهِ، وخَشَمْتَ أنفك[3] بعَرْفه، فاسْتَحْيا عباس وأُفْحم عن جوابه.

١٦٦ - ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق، المحلِّي بجواهره صدورَ المهارق[4]، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العَنْسي[5].

متمّم كتاب «المغرب، في أخبار المغرب» قال فيه: وأنا أعتذر في إيراد ترجمتي هنا بما آعتذر به ابن الإمام في كتاب «سمط الجُمَان» وبما اعتذر به الحِجَاري في كتاب «المسهب» وابن القَطَّاع في «الدّرّة الخطيرة» وغيرهم من العلماء.

فمن نظمه عندما ورد الديار المصرية: [الكامل]

أصبحتُ أعترضُ الوُجُوه ولا أرى ما بَيْنَها وَجْهًا لمن أَدْرِيهِ
عَوْدِي على بَدْئي ضلالاً بينهمْ حتى كأني من بقايا التِّيْهِ
وَيْحَ الغريب توحَّشَتْ ألحاظه في عالمٍ ليسُوا له بشَبِيهِ
إنْ عادَ لي وطني آعْتَرَفْتُ بحقِّهِ إنَّ التغرُّبَ ضاعَ عُمْرِيَ فيه

---

(١) بَقَرْتُ بطونَ الشِّعْر: شَقَقْتُها. لسان العرب (بقر).

(٢) الفَرْثُ: السِّرْجين ما دام في الكَرِش، والجمع فروث. مختار الصحاح (فرث).

(٣) خَشَمَ الأنفُ: تغيَّرتْ ريحه. لسان العرب (خشم).

(٤) المهارق: جمع مهرق وهو الصحيفة البيضاء. لسان العرب (هرق).

(٥) مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

وله من قصيدة يمدح ملك إفريقية أبا زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حَفْصٍ: [الكامل]

الأفق طَلْق والنسيمُ رُخَاء | والروضُ وَشَّتْ بُرْدَه الأنداءُ[1]
والنهرُ قد مالتْ عليه غُصُونُهُ | فكأنما هُوَ مُقْلَةٌ وَطْفاء[2]
وبَدَا نِثَارُ الجُلَّنار بصفحه | فكأنما هو حَيَّة رَقْطاء
والشمسُ قد رقَمَتْ طِرَازًا فوقه | فكأنما هي حُلَّةٌ زرقاء
فأدِرْ كؤوسَك كي يتمَّ لك الْمنَى | وآسْمَعْ إلى ما قالتِ الوَرْقَاء
تَدْعُوك حَيَّ على الصَّبُوح[3] فلا تَنَمْ | فَعَلَى المنامِ لدى الصَّباحِ عَفَاء

وله أيضًا: [الخفيف]

كم جَفَاني ورُمْتُ أدعو عليه | فتَوَقَّفْتُ ثم نادَيتُ قائلُ
لا شَفَى اللَّه لَحْظَهُ مِنْ سَقامٍ | وأراني عِذَارَهُ وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها إلى ملك سَبْتة الموفّق أبي العباس أحمد بن أبي الفضل السَّبْتي شافعًا لشخص رغب في خدمته: [الكامل]

بالعدل قُمْتَ وبالسماح فَدِنْ وجُدْ | لا فارَقَتْكَ كفايةٌ وعَطاءُ
ما كلُّ مَنْ طلبَ السعادة نالَها | وطِلابُ ما يأبى القضاءُ شَقَاءُ

ومنها:

وقد اسْتَطارَ بأسْطُرِي نحو النَّدَى | مَنْ أَنْهَضَتْهُ لنحوكَ العَلْياءُ
طَلَبَ النباهَةَ في ذَرَاكَ فما له | إلَّا لديك تأمُّلٌ ورجاء
وَهوَ الذي بعد التجارب أُحْمِدَتْ | أحوالُهُ وجَرَى عليه ثناءُ
لا يقربُ الدنسَ المريبَ كواصِلٍ | هَجَرَتْهُ خَوفًا أنْ يشان الراءُ

---

(١) الرُّخاء، بضمّ الراء: الريح الليّنة. الأنداء: جمع ندى وهو المطر والبَلَلُ. مختار الصحاح (رخا) و (ندا).

(٢) المُقْلَةُ الوطفاء: العين كثيرة شعر الحاجبين. محيط المحيط (وطف).

(٣) الصَّبُوحُ: خمرة الصباح. لسان العرب (صبح).

قـد مـارس الحـرْبَ الـزبـونَ زمـانَـهُ ... وَجَـرَت عـلـيـه شـدّة ورَخَـاءُ[1]
وعُـلاك تقضـي أنْ يَسُـودَ بـأُفْقِهـا ... لا غَـرْوَ أن يُعْلِي الـشـهـابَ بـهـاءُ

وقوله من قصيدة: [الكامل]

أَلِفَ التَّغـرُّبَ والتَّـوَحُّش مثـلَ مـا ... ألـف الـتـوحُّشَ والـنـفـورَ ظـبـاءُ
حُجَّـابُـه أَلِفُـوا التَّجَـهُّمَ والجَفَـا ... فَـهُـمُ لـكـلِّ أخـي هُـدًى أعـداءُ
مـهـمـا يَـرُمْ طَـلَبٌ إلـيـه تـقـرُّبًـا ... بَـعُـدَتْ بـذاك الـبَـدْرِ عـنـه سمـاءُ
لـكنني مـا زِلْتُ أخـدَعُ حـاجبًـا ... ومُـرَاقـبًـا حـتـى ألانَ حِـبـاءُ[2]
والأرض لم تُـظْهِـرْ مُحَجَّبَ نَبْتِهـا ... حتى حَبَتْهَـا الـدِّيمَـةُ الـوَطـفـاءُ

قيل: وهذا معنى لم يسمع من غيره، وقوله في خسوف البدر: [الكامل]

شـان الخسـوفُ الـبَـدْرَ بَعْـدَ جَمَـالِهِ ... فـكـأنـه مـاءٌ عـلـيـه غُـثَـاءُ[3]
أو مـثـل مـرآةٍ لِخَـودٍ قـد قـضـتْ ... نـظرًا بـهـا فَعَـلَا الـجـلاءَ غِـشـاءُ

وله من قصيدة عتاب يقول فيها: [الكامل]

ولـقـد كَسِبْتُ بـكـمْ عُـلًا لـكنّـهـا ... صـارتْ بـأقـوالِ الـوشـاة هَـبَـاءَ
فغَـدَوتُ مـا بين الصحـابـة أجْـرَبًـا ... كُـلٌّ يُـحَـاذر مـنّـيَ الأعـداءَ
ولـقـد أرى أنّ الـنـجـوم تَـقِـلُّ لـي ... حُـجُـبًـا وأصْـغـر أنْ أحُـلَّ سـمـاء
فـليـهـجـروا هَـجْـرَ الـفَـطِيم لِـدَرِّهِ ... ويُـسَـاعـدوا الـزمَنَ الـخؤون جَـفَـاءَ
فـلقـد شـكـوْتُ لـهـمْ إحـالـة وُدِّهـمْ ... إذ لـم أكـنْ أرضـى بـهـمْ خُـدَمَـاءَ
إيـهِ فَـذِكْـرُهُـمُ أقـلُّ، وإنـمـا ... أُومِـي إلـيـكَ فَـتَـفْـهَـمُ الإيـمـاءَ
لـو لم يكـن قَيـدٌ[4] لـمـا فتكَتْ ظُبًـا ... أنـت الـذي صَـيَّـرْتَـهُـمْ أعـدَاءَ
وَلَـو أنني أرجُـو ارتجـاعَـكَ لم أُطِـلْ ... شَكْـوَى ولـم أَسْـتَبْـعِـدِ الإغـضـاءَ
لـكـنْ رأيـتُـكَ لا تَـمِـيـلُ سَجِـيَّـةً ... نـحـوي ولا تـتـكـلَّفُ الإصـغـاءَ
إن لـم يكـن عَـطْفٌ فمنُّـوا بـالـنَّـوَى ... إنَّ الـكـريـم إذا أُهِـيـنَ تـنَـاءَى

(١) هذا البيت ساقط من طبعة ليدن. والحرب الزَّبُوْنُ: التي يدفع بعضها بعضًا من الكثرة. محيط المحيط (زبن).
(٢) الحِباء، بكسر الحاء: العطاء. مختار الصحاح (حبا).
(٣) الغُثاء، بضم الغين: ما يحمله السَّيْل من القماش، وقد يريد هنا «الزبد». مختار الصحاح (غثا).
(٤) في طبعة دار صادر: «قَيْنٌ».

وقولـه: [الكامل]

ولكمْ سَرَيْنَا في مُتُونِ ضوامر ... تَثْني أعِنَّتَها مِنَ الخُيَلاءِ
مِنْ أدهمٍ كالليلِ حُجِّلَ بالضُّحَى ... فَتُشَقّ غُرْتُهُ عن ابن ذُكَاءِ[1]
أو أشهبٍ يحكي غدائر أشْيَبٍ ... خَلَعَتْ عليه الشُّهْبُ فَضْلَ رداءِ
أو أشقرٍ قد نَمَّقَتْهُ بشُعْلَةٍ ... كالمزج ثار بصَفْحَةِ الصَّهْبَاءِ
أو أصْفَرٍ قد زَيَّنَتْهُ غُرّةٌ ... حتى بَدَا كالشمعة الصفراء
طارتْ، ولكن لا يُهَاضُ جَنَاحُهَا ... هَبَّتْ، ولكن لم تكنْ برُخَاءِ

وقوله من أبيات في افتضاض بكر: [الكامل]

وخريدةٍ[2] ما إنْ رأيْتُ مِثالَهَا ... حَيَّتْ من الألحاظ بالإيماءِ
فسألْتُها سَمْعَ الشكاة فأفْهَمَتْ ... أنَّ الرقيبَ جُهَينَةُ الأنباء
وتَبِعْتُها وسألْتُ منها قُبْلَةً ... في خَلْوة من أعين الرقباء
فَثَنَتْ عليَّ قَوَامَهَا بتعانقٍ ... أحْيَا فؤادًا مات بالبُرَحَاءِ
ووَجَدْتُها لَمَّا مَلَكْتُ عنانَها ... عَذْرَاءَ مثلَ الدُّرَّة العذراء
جاءتْ إليَّ كوَرْدَةٍ محمرَّةً ... فتركْتُهَا كعَرَارةٍ صَفْرَاءِ[3]
وسَلَبْتُها ما احْمَرَّ منها صَفْوهُ ... فَجَرَى مُذَابًا مُنْجِحًا لرجائي

وقوله من أبيات: [الكامل]

أحْبابَنَا عُودُوا علينا عَوْدَةً ... ما منكُمُ بَعْدَ التفرُّقِ مَرْغَبُ
كم ذا أُداريكُمْ بنفسي جاهدًا ... وكأنما أُرْضِيكُمُ كي تَغْضبوا
وأزيدُ بُعْدًا ما اقْتَرَبْتُ إليكُمُ ... كالسَّهْم أبْعَدُ ما يُرَى إذ يَقْرُبُ
وأجوبُ نحوكمُ المنازلَ جاهِدًا[4] ... ومَعَ اجتهادي فاتني ما أطلب
كالبَدْرِ أقطعُ منزلاً في منزل ... فإذا ما انتهيتُ إلى ذَرَاكُمْ أغربُ

---

(١) الذكاء، بضم الذال: الشمس، وابن ذُكاء: الصبح. محيط المحيط (ذكا).

(٢) الخريدة: البكر لم تُمْسَسْ. محيط المحيط (خرد).

(٣) في طبعة دار صادر: «كوردةٍ حمراء». والعَرارَةُ: واحدة العَرار وهو بَهار البَرِّ وهو نبت طيب الريح. مختار الصحاح (عرر).

(٤) أجُوبُ المنازل: أقطعها. مختار الصحاح (جوب).

وقوله من أبيات: [الطويل]

سألتك يا مَنْ يُسْتَلَانُ فيَصْعُبُ ... ومَنْ يُتَرَضَّى بالحياة فيَغْضَبُ
أمَا خَدّك البَدْرُ المنيرُ فلِمْ غَدَتْ ... تحلُّ به ضِدَّ القضية عقرب[1]

وقوله، وقد داعَبَه أحدُ الفقهاء وسرق سكينه من حِرْز[2]: [الطويل]

أيا سارِقًا مُلْكًا[3] مَصُونًا ولم يَجِبْ ... على يَدِهِ قَطْعٌ وفيه نِصَابُ
سَتَنْدُبُهُ الأقلامُ عند عِشارها ... ويَبْكيه إن يَعْدُ الصَّوابَ كتابُ[4]

وقوله في تفاحَةٍ عَنْبر أهْدِيَتْ للملك الصالح نجم الدين أيوب[5]: [الخفيف]

أنا لونُ الشبابِ والخالِ أُهْدِيْـ ... ـتُ لمنْ قد كَسَا الزمانَ شَبَابَا
ملكُ العالمين نجمُ بني أيْـ ... ـيُوبَ لا زال في المعالي شهابا
جئْتُ مَلأى من الثناء عليه ... من شكورٍ إحْسانَهُ والثَّوابا
لستُ ممَّنْ له خطابٌ ولكنْ ... قد كفاني أريْجُ عَرْفِي خطابا

وقوله من قصيدة: [السريع]

فالحمدُ للّه على ساعةٍ ... قد قَرَّبَتْني مِنْ عُلاَ الصاحبِ
وليعذرِ المَولَى على أنني ... قد كنْتُ مِنْ عَلْيَاه في جانب
كَمَنْ أتى نافلَةً[6] أوّلاً ... ثم أتى مِنْ بَعْدُ بالواجب

وقوله من أبيات: [الطويل]

فإن كنتُ في أرضِ التَّغَرُّبِ غاربًا ... فسوف تَرَاني طالعًا فوق غاربِ[7]

---

(١) العقرب: منزلة من منازل القمر. لسان العرب (عقرب).

(٢) الحِرْزُ، بكسر الحاء وسكون الراء: الموضع الحصين، وشَرْعًا ما يحفظ فيه المال عادة كالدار والحانوت وغيرهما. محيط المحيط (حرز). والبيتان في اختصار القدح المعلى (ص ٢١٥) والمغرب (جـ٢ ص ١٧٣) وقد تقدّما في الجزء الثاني من نفح الطيب .

(٣) في اختصار القدح: «سِلْكا».

(٤) في المصدر نفسه: «إنْ بَعْدَ الصوابِ..».

(٥) سترد هذه الأبيات بعد قليل في هذا الجزء (ص ٥٤) وجاء هناك: «مهابا» بدل «شهابا».

(٦) النافلة: عطيّة التطوّع وما يفعله المرء مما لا يجبُ، ومنه نافلة الصلاة. محيط المحيط (نفل).

(٧) الغارب: في الأصل سنام البعير، وأراد ذروة الشيء. لسان العرب (غرب).

فصَمْصامُ عَمْرٍو حين فارق كَفَّه رَمَوهُ ولا ذَنْبٌ لعجز المضاربِ[1]
وما عزة الضرغام إلا عرينه ومن مكة سادت لؤي بن غالب

وقوله في فرس أصفر أغرّ أكحل الحلية[2]: [الطويل]

وأجْرَدَ تِبْرِيٍّ أثَرْتُ به الثَّرَى وللفَجْرِ في خَصْرِ الظلام وِشَاحُ
له لونُ ذي عِشْقٍ وحُسْنُ مُعَشَّقٍ لذلك فيه دَلَّةٌ[3] ومَرَاحُ
عَجِبْتُ له وهو الأصيل، بِعَرْفِه ظلامٌ وبين الناظِرَين صَبَاحُ
يُقَيِّدُ طَيرَ اللَّحْظِ والوَحْشِ عندما يَطِيرُ به نحو النجاح جَنَاحُ

وقوله من أبيات: [الطويل]

إذا ما غُرَابُ البَينِ صاحَ فقُلْ له تَرَفَّقْ رماكَ اللَّهُ يا طَيرُ بالبُعْدِ
لأنْتَ على العُشَّاق أقْبَحُ مَنْظرًا وأكرهُ في الأبصارِ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّحْدِ
تَصِيحُ بِنَوْحٍ ثم تَعْثرُ ماشيًا وتبرزُ في ثوبٍ من الحزن مُسْوَدِّ
متى لُحْتَ[4] صحّ البَينُ وانْقَطَعَ الرجا كأنك من وَشْكِ الفراق على وَعْدِ

وقوله في غلام جميل الصورة أهدى تفاحة: [مجزوء الرمل]

نابَ ما أهْدَيتَ عن عَرْ فٍ وعَن رِيقٍ وخدٍّ
حَبَّذا تفاحَةٌ قد أشبَهَتْ أوصافَ مُهْدِي
بِتُّ منها في سُرورٍ فكأنْ قد بتَّ عندي

وقوله من قصيدة: [البسيط]

هذا الذي يَهَبُ الدنيا بأجمعها وبعد ذلك يُلْفَى[5] وَهْو يَعْتَذِرُ

(١) الصمصام: السيف، والمراد هنا سيف عمرو بن معديكرب، أحد فحول الشعراء والفرسان العرب المشهورين في الجاهلية، وكان سيفه يعرف بالصمصامة. توفي في فتح نهاوند سنة ٢١ هـ. الأغاني (جـ ١٥ ص ٢٠٠) والفهرست لابن النديم (ص ١٧٨) والعقد الفريد (جـ ١ ص ١١٧) و (جـ ٢ ص ٢٠٣) والمؤتلف والمختلف (ص ٢٠٨) والشعر والشعراء (ص ٢٨٩) والأمالي في لغة العرب (جـ ٣ ص ١٤٥).

(٢) الأبيات، عدا الأخير، في المغرب (جـ ٢ ص ١٧٣).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ذِلَّةٌ».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «نحت».

(٥) في طبعة ليدن: «يلقى».

إنْ هَــزَّه المـدحُ فــالأمــوال في بَــدَدٍ والـغُصْـنُ مــا هُــزَّ إلَّا بُــدِّدَ الـثـمــرُ
فـقلتُ لَـمَّــا بَــدَا لي حُـسْنُ مـنـظره لكنــه زاد إشــراقًــا: هــو القمَــرُ[1]
مَتِّــعْ لحـاظــك في وَجْـهٍ بــلا ضــرر إن كــان شَمْسًــا يَـدَاهُ تحتهــا مَــطَرُ

وقوله من أبيات: [الكامل]

لــي جيــرة ضَــنُّــوا علـيَّ وجــارُوا فــنَـبَـتْ بــيَ الأوطــانُ والأوطــارُ
ومِنَ العجــائبِ أنــني مَــعَ جَــوْرِهِـمْ مــا قَــرَّ لــي بَـعْــدَ الـفــراقِ قَــرَارُ

وقــولــه: [الكامل]

أنــا شــاعــر أهــوى الـتـخلِّيَ دون مــا زوج لِــكَـيــمَــا تَــخْــلُصَ الأفــكــارُ
لــو كـنـتُ ذا زَوْجٍ لـكـنـتُ مُـنَــغَّصًــا فــي كــلِّ حِــيــنٍ رِزْقَــهــا أمــتــارُ[2]
دَعْني أُرِحْ طــولَ الـتغــرُّبِ خــاطــري حــتــى أعــودَ ويَــسْــتَــقِــرَّ قَــرَارُ
كم قــائــلٍ قــد[3] ضــاع شَــرْخُ شبابِــهِ مــا ضَــيَّــعَــتْــهُ بِــطالــة وعُــقــارُ
إذ لــم أزل فــي الــعـلم أجْــهَــدُ دائـمًــا حــتــى تــأتَّــتْ هــذه الأبــكــارُ
مَــهْــمــا أرُمْ مــن دون زوج لــم أكــن كَــلًّا ورزقــي دائــمًــا مِــدْرَارُ[4]
وإذا خــرجْــتُ لـفُــرْجَــةٍ هــنَّيــتـهــا لا ضَــيــعَــة[5] ضــاعــتْ ولا تــذْكَــارُ

وقوله من قصيدة: [الكامل]

مــا كنتُ أحسب أن أضيع وأنت في الــدْ ـدُنْيــا وأنْ أُمْــسي غَــريبًــا مُـعْـسِــرا
أنــا مِثْلُ سَهْمٍ سَــوْف يَـرْجــعُ بعــدمــا أَقْـصــاه رامِـيــهِ الـمـجـيــدُ لـيـخـبــرا

وقوله سامحه اللّٰه تعالى: [مخلع البسيط]

وافَــى عَــلـيٌّ لــنــا بِــسَــيــفٍ والــبَــيــنُ قــد حــانَ والــوَدَاعُ
فــقــال شَبِّــهْ فــقــلــتُ شــمس قــد مــدَّ مِــنْ نــورهــا شــعــاعُ

---

(١) هذا البيت ساقط من طبعة ليدن.
(٢) أمتارُ الرِّزْقَ: أجمعه؛ يقال: امْتار لعياله امتيارًا إذا أمارهم أي جمع لهم المِيْرة. محيط المحيط (مار).
(٣) في طبعة دار صادر: «لي ضاعَ..».
(٤) الكَلُّ: العالة على غيره. المدرار: الكثير. لسان العرب (كلل) و(درر).
(٥) في طبعة دار صادر: «لا صَنْعَةٌ».

وقوله من قصيدة في ملك إشبيلية الباجي، وقد هزم ابن هُود[1]: [الكامل]

لِلَّه فرسانٌ غَدَتْ راياتهمْ ... مثلَ الطيور على عِداكَ تُحَلِّقُ
السُّمْرُ تَنْقُطُ ما تُسَطِّرُ بِيضُهُمْ ... والنَّقْعُ يُتْرِبُ والدماءُ تُخَلِّقُ[2]

وقال ارتجالاً بمحضر زكي الدين بن أبي الإصبع وجمال الدين أبي الحسين الجزار المصري الشاعر ونجم الدين بن إسرائيل الدمشقي بظاهر القاهرة، وقد مشى أحدهم على بسيط نرجس[3]: [السريع]

يا واطئ النرجس، ما تستحي ... أنْ تَطَأَ الأَعْيُنَ بالأرجُلِ ؟

فتهافتوا بهذا البيت، وراموا إجازته، فقال ابن أبي الإصبع مجيزًا: [السريع]

فقلت دَعْني لم أزلْ مُحْرَجًا ... على لِحاظِ الرشَإ الأكحلِ[4]

وكان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غيره، فقال[5]:

قابلْ جُفُونًا بجفونٍ ولا ... تَبْتَذِلِ الأرْفَعَ بالأسْفَلِ

وقوله في الجزيرة الصالحية بمصر، وهي الشهيرة الآن بالروضة[6]: [الطويل]

تأمَّلْ لحُسْنِ الصالحيةِ إذْ بَدَتْ ... مَناظِرُها مِثْلَ النجوم تَلالاَ[7]
وللقَلْعةِ الغَرّاءِ كالبَدْرِ طالعًا ... تَفَجَّرَ صَدْرُ الماء عنه هِلالاَ
ووافى إليها النِّيلُ مِنْ بَعْدِ غايةٍ ... كما زارَ مَشْغُوفٌ يروم وِصَالاَ
وعانَقَها مِنْ فَرْطِ شوق بِحُسْنِها[8] ... فمدَّ يمينًا نحوها وشِمَالاَ
جَرَى قادمًا بالسعد فاخْتَطَّ حَوْلَها ... من السعد إعلامًا بذلك دَالاَ

---

(١) البيتان في المغرب (جـ٢ ص ١٧٧).
(٢) في المغرب: «والسُّمْرُ». والنَّقْعُ: الغبار. تُخَلِّقُ: تُصْبَغ بالخَلُوْق وهو ضرب من الطِّيْب. لسان العرب (نقع) و (خلق).
(٣) البيت في فوات الوفيات (جـ٣ ص ١٠٦). وروايته في الإحاطة (جـ٤ ص ١٥٥) مختلفة عمّا هنا. وسيرد في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٨) وفيه: «مُخْنَقًا» بدل «مُحْرَجًا».
(٤) في الإحاطة (جـ٤ ص ١٥٥): «لم أزل محرجًا... الرشاد الأكحلِ».
(٥) البيت في فوات الوفيات (جـ٣ ص ١٠٦).
(٦) بعض هذه الأبيات في فوات الوفيات (جـ٣ ص ١٠٥).
(٧) في فوات الوفيات: «وأبراجُها مثلُ النجومِ..».
(٨) في فوات الوفيات: «شوقٍ مُحِبُّها..».

وقوله من أبيات في ملك إفريقية وقد جهّز ولده الأمير أبا يحيىٰ بعسكر: [الوافر]

وقــد أرسَــلْتَــهُ نـحــو الأعــادي　　　كمــا جَـرَّدْتَ مِنْ غمـدٍ حُسَـامَـا

وقوله في قوس: [الخفيف]

أنــا مثــلُ الهِــلال فـي ظُلَم الـنَّقْـ　　　ـعِ سِهـامي تنقَضُّ مثـلَ النجــومِ
تَقْصُـرُ القُضْبُ والقَنَـا عن مَجَـالي　　　عِنْـدَ رَجْمِـي بهـا لـكـلِّ رَجيـمِ
قــد كَسَتْهـا الـطيـورُ لَمَّــا رأتهــا　　　كـافـلاتٍ لـهــا بــرِزْقٍ عَمِيـمِ

وقوله من أبيات[1]: [الطويل]

وأشْقَـرَ مِثْلِ البَـرْقِ لَـونًـا وسُـرْعَـةً　　　قَصَدْتُ عليه عارضَ الْجُودِ فانْهَمَى

ولنذكر ترجمته من الإحاطة ملخصة، فنقول:

قال لسان الدين[2]: علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن محمـد بن عبد اللّٰه بن سعيـد بن الحسن بن عثمان بن عبـد اللّٰه بن سعد بن عمـار بن يـاسـر بن كنـانـة بن قيس بن الحصين العَنْسي، المُدْلجي، من أهل قلعة يَحْصُب، غَرْنَاطي، قَلْعي[3]، سكن تونس، أبـو الحسن بن سعيـد، وهذا الـرجـل وُسْطَى عقـد بيتـه، وعلم أهله، ودرّة قـومـه، المصنّف، الأديب، الـرحّالـة، الطرَفـة، الأخباري، العجيب الشـأن في التجوّل في الأقـطار، ومداخلة الأعيان، للتمتُّع[4] بالخزائن العلميـة، وتقييد الفـوائد المشـرقية والمغـربية. أخـذ من أعلام إشبيلية كأبي علي الشَّلَوْبين، وأبي الحسن الدباج، وابن عصفور، وغيرهم، وتواليفه كثيـرة؛ منها «المرقصات والمطربات» و «المقتطف، من أزاهر الطرف» و «الطالع السعيد، في تاريخ بني سعيد» تاريخ بيته وبلده[5]، والموضوعان الغريبـان المتعدّدا الأسفـار، وهما «المُغْـرب، في حلى المغـرب» و «المُشْرق، في حلى المشـرق» وغير ذلـك مما لم يتّصـل إلينـا، فلقـد

(١) البيت في المغرب (جـ ٢ ص ١٧٩).
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ١٥٢).
(٣) القلعي: نسبة إلى قلعة بني سعيد المسمّاة أيضًا قلعة يحصب، وقد مرَّ التعريف بها في الجـزء الأول من نفح الطيب.
(٤) في طبعة دار صادر: «والتمتّع».
(٥) في الطبعة نفسها: «تاريخ بلده وبيته».

حدّثني الوزير أبو بكر بن الحكيم أنه تخلف كتابًا يسمى «الْمِرزَمة»[1] يشتمل على وَقْر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والأخبارية إلاّ اللّه تعالى، وتعاطى نظم الشعر في حدّ من الشبيبة يُعْجَبُ فيه من مثله، فيذكر أنه خرج مع أبيه إلى إشبيلية وفي صحبته سَهْل بن مالك، فجعل سهل بن مالك يُبَاحثه عن نظمه إلى أن أنشده في صفة نهر والنسيم يردّده والغصون تميل عليه[2]: [المنسرح]

كأنما النهرُ صَفْحَةٌ كُتِبَتْ أَسْطُرُها، والنسيمُ يُنْشِئُها[3]
لَمَّا أبانتْ عن حُسْنِ مَنْظِرِها مالتْ عليها الغُصُونُ تقرأها[4]

فطرب وأثنى عليه.

ثم ناب عن أبيه في أعمال الجزيرة، ومازج الأدباء، ودوّن كثيرًا من نظمه، ودخل القاهرة، فصنع له أدباؤها صنيعًا في ظاهرها، وانتهتْ بهم الفرجة إلى رَوْضِ نرجس، وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجله، فقال أبو الحسن[5]: [السريع]

يا واطىء النرجس ما تستحي أنْ تَطَأَ الأعْيُنَ بالأرجلِ؟

فتهافتوا بهذا البيت، وراموا إجازته، فقال ابن أبي الإصبع[6]: [السريع]

فقال دَعْني لم أزلْ مُحْنَقًا على لِحاظِ الرشإ الأكْحَلِ

وكان أمثل ما حضرهم، ثم أبوا أن يجيزه غيره، فقال[7]: [السريع]

قابلْ جفونًا بجفونٍ، ولا تَبْتَذِلِ الأرفَعَ بالأسفلِ

---

(١) هكذا في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٥٣).

(٢) البيتان في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٥٤) واختصار القدح (ص ٢) وبغية الوعاة (ص ٣٥٧) والمغرب (جـ ٢ ص ١٧٣).

(٣) في المغرب: «منشئها». وفي اختصار القدح: «منثؤها». وفي بغية الوعاة: «منشؤها».

(٤) في المغرب: «حسن منظره.. الغصونُ تفرؤها». وفي بغية الوعاة: «حسن منظره..».

(٥) البيت في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ١٠٦). وروايته في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٥٥) هي:

يا واطىء النرجسِ بالأرجل ما تستحي أن تطأ الأعين بالأرجلِ

وقد مرَّ هذا البيت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٧).

(٦) البيت في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٥٥) وفيه: «لم أزل محرجًا... الرشاد الأكحل». وقد مرَّ في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٧) ببعض الاختلاف عما هنا.

(٧) البيت في فوات الوفيات والإحاطة، وقد مرَّ في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٧).

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق إلى مجلس بِضَفَّةِ النِّيل مبسوط بالورد، وقد قامت حوله شمامات نرجس، فقال في ذلك[1]: [السريع]

مَنْ فضَّلَ النَّرْجِسَ فَهْوَ الذي ... يَرْضَى بِحُكْمِ الوَرْدِ إذ يرئسُ
أما ترى الوَرْدَ غَدَا قاعدًا ... وقام في خدمته النرجسُ؟

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفًا في الخدمة، على عادة المشارقة فطرب الحاضرون.

ولقي بمصر أَيْدَمُر التركي والبهاء زُهَيرًا وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم، ورحل صحبة كمال الدين بن العديم[2] إلى حلب، فدخل على الناصر صاحب حلب، فأنشده قصيدة أولها: [الكامل]

جُدْ لي بما لقي الخيالُ مِنَ الكَرَى ... لا بُدَّ للضَّيفِ المُلِمِّ مِنَ القِرَى[3]

فقال كمال الدين: هذا رجل عارف، وَرَّى بمقصوده من أول كلمة، وهي قصيدة طويلة، فاستجلسه السلطان، وسأله عن بلاده ومقصوده برحلته، وأخبره أنه جمع كتابًا في الحلى البلادية والعلى العبادية المختصّة بالمشرق، وأخبره أنه سمّاه «المُشْرق، في حلى المشرق» وجمع مثله فسمّاه «المُغْرب، في حلى المغرب» فقال: نُعِينُكَ بما عندنا من الخزائن، ونُوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد، وتُصَنِّف لنا، فخدم على عادتهم، وقال: أمر مولاي بذلك إنعام وتأنيس، ثم قال له السلطان مداعبًا: إنَّ شعراءنا ملقّبون بأسماء الطيور، وقد اخترْتُ لك لقبًا يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر، فإن كنت ترضى به، وإلّا لم نُعْلِمْ به أحدًا غيرنا[4]، وهو البُلْبُل، فقال: قد رضي المملوك يا خوند، فتبسّم السلطان. وقال له أيضًا يُدَاعبه: اخْتَرْ واحدةً من ثلاث: إمّا الضيافة التي ذكرتها أوّل شعرك، وإمّا جائزة القصيدة، وإمّا حقّ الاسم، فقال: يا خوند، المملوك ممّا لا يختنق بعشر

---

(١) البيتان في الإحاطة، وسيردان في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١١٠).
(٢) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، العقيلي الحلبي، المعروف بابن العديم؛ محدّث مؤرخ فقيه، كاتب مجوّد، توفي سنة ٦٦٦ هـ. فوات الوفيات (جـ ٣ ص ١٢٦).
(٣) في طبعة دار صادر: «بما ألقى الخيالُ..». وفي الإحاطة (ص ١٥٦): «بما ألقى الخيال... للطيف... من الكَرَا». والضيف المُلِمُّ: الزائر. لسان العرب (لمم).
(٤) في طبعة ليدن: «وإلّا لم يعلمه غيرنا».

لُقَمٍ؛ لأنه مغربي أكول فكيف بثلاث؟ فطرب السلطان وقال: هذا مغربي ظريف، ثم أتبعه من الدنانير والخلع الملوكية[1] والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف.

ولقي بحضرته عون الدين العجمي، وهو بحر لا تُنزفه الدِّلاء[2]، والشهاب التَّلَّعْفَرِي، والتاج ابن شُقير، وابن نجيم الموصلي، والشرف بن سليمان الإربلي، وطائفة من بني الصاحب. ثم تحوّلَ إلى دمشق، ودخل الموصل وبغداد، ودخل مجلس السلطان المعظَّم ابن الملك الصالح بدمشق، وحضر مجلس خلوته، وكان ارتحاله إلى بغداد في عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة في رحلته الأولى إليها، ثم رحل إلى البصرة ودخل أرَّجَان، وحجَّ، ثم عاد إلى المغرب، وقد صنّف في رحلته مجموعًا سمّاه: «النفحة المسكية، في الرحلة المكية» وكان نزوله بساحل مدينة إقْلِيبِيَةَ[3] من إفريقية في إحدى جمادى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، واتّصل بخدمة الأمير أبي عبد اللّٰه المستنصر، فنال الدرجة الرفيعة من حُظْوته.

حدّثني شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم أنَّ المستنصر جفاهُ في آخر عمره وقد أسنَّ لِجَرَّاء خدمة مالية أسندها إليه، وقد كان بلاءً منه قَبْل جفوة أعقبها انتشال وعناية، فكتب إليه بنظم من جملته: [الرمل]

لا تَــرُعْـنِي بــالـجَفَـا ثــانـيــةً

فرقَّ له، وعاد إلى حسن النظر إليه، إلى أن توفي تحت برّ وعناية.

مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة، ووفاته بتونس في حدود خمسة وثمانين وستمائة، انتهى باختصار[4].

وذكرت حكاية إجازة بيته في النرجس وإنْ تقدَّمت لاتّصال الكلام.

---

(١) كلمة «الملوكية» ساقطة من طبعة ليدن.

(٢) الدِّلاء: جمع دَلْو وهو الذي يُسْتقى به. محيط المحيط (دلا). وقوله: لا تنزفه الدلاء: أي لا تستخرج ماءه كلّه، كناية عن الغزارة.

(٣) إقليبية، بكسر الهمزة واللام والباء وسكون القاف: حصن منيع بإفريقية قرب قرطاجنة، مطلّ على البحر. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٣٧).

(٤) هنا ينتهي نص الإحاطة.

قلت: قد كنتُ وقفتُ على بعض ديوان شعره المتعدّد الأسفار، ونقلت منه قوله من قصيدة يهنىء ابن عمِّه الرئيس أبا عبد اللّه بن الحسين(١) بقدومه من حركة هَوّارة: [الطويل]

أمـا واجِـبٌ أنْ لا يـحـولَ وجِـيـبُ ... وقـد بَـعُـدَتْ دارٌ وحـانَ(٢) حبيـبُ
ولـيس أَلِـيفٌ غَـيـرُ ذكـرٍ وحَـسْـرَةٍ ... ودَمْـعُ عـلى مـن لا يـرقُّ صـبـيـبُ
وخفقُ فؤادٍ إنْ هَفَـا الـبـرقُ خـافقًـا ... وشـوقٌ كمـا شـاء الهَـوَى ونحيبُ
ويَعْـذِلني مَنْ ليس يَعْـرِفُ مـا الهوى ... وعَـذْلُ مَشُـوقٍ في البكـاء عـجيبُ
أَلَا تَعِسَ اللوّامُ في الحبِّ قـد عَمُـوا ... وصَـمُّـوا ودائي لـيس مـنـه طـبـيـبُ
يـرومـون أن يثني المـلامُ صبـابتي ... ولـسْتُ إلى داعـي الـمـلام أُجِيـبُ
وفـائي إذا مـا غبْتُ عنكُمْ مُـجَـدَّدٌ ... وغـيـريَ ذو غـدرٍ أوانَ يـغـيـب
ولـو لم يَكُـنْ منِّي الـوفـاء سَجِيَّـةً ... لـكنتُ لغيـر ابن الحسيـن أُنِيـبُ
سَمَـوْءَلُ هـذا العصـر حـاتمُ جُـوْده ... مُـهَـلَّبُـه إنْ مـارسَـتْـهُ حُـروبُ(٣)
فَتًى سَيَّـر الأمـداحَ شـرقًـا ومغـربًـا ... أبـو دُلَـفٍ مِـنْ دونـه وخَـصِـيـبُ(٤)
إذا رَقَـمَ القـرطـاسَ قُـلْتَ ابنُ مُـقْـلَةٍ ... وإنْ نـظم الأشـعـار قلتَ حَـبيبُ(٥)

---

(١) هو أبو عبد اللّه محمد بن الحسين بن سعيد بن الحسن بن سعيد، وزير صاحب تونس. المغرب (جـ ٢ ص ١٦٨). وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب ٨٢).
(٢) حان: هلك. لسان العرب (حين).
(٣) السموأل: هو السموأل بن عادياء، مضرب المثل في الوفاء. وحاتم هو حاتم الطائي، مضرب المثل في الجود. والمهلب هو المهلب بن أبي صفرة، مضرب المثل في الشجاعة. وقد أشرنا إليهم جميعًا من قبل.
(٤) أبو دلف: هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلي، أحد قواد المأمون العباسي ثم المعتصم من بعده. كان كريمًا شجاعًا ذا وقائع مشهورة. توفي ببغداد سنة ٢٢٦ هـ، وقيل: ٢٢٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٧٣) وتاريخ بغداد (جـ ١٢ ص ٤١٦) والأغاني (جـ ٨ ص ٢٥٦). وخصيب: هو أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بمصر في زمن هارون الرشيد وممدوح أبي نواس. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٦١، ١٣٧).
(٥) ابن مقلة: هو أبو عبد اللّه الحسن بن علي بن مقلة، الأديب البارع وصاحب الخطّ المليح، وقد توفي سنة ٣٣٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١١٧). وحبيب: هو أبو تمام، وقد مرّت ترجمته في الجزء الأول من نفح الطيب .

وإنْ نَثَرَ الأسجاعَ قلْتَ سَمِيُّهُ وإنْ سَرَدَ التاريخَ قلت عَرِيبُ[1]
وما أحْرَزَ الصُّوليُّ[2] آدابَهُ التي إذا ما تَلاها لم يُجِبْهُ أديبُ

ومنها:

وأمّا إذا ما الحربُ أخمد نارها ففيه تَلَظَّى مارجٌ ولهيبُ
فكم قارَعَ الأبطالَ في كلِّ وجْهَةٍ نَحاها وكم لُفَّتْ عليه حُروبُ
وكائِنْ له بالغَرْبِ من مَوْقِفٍ له حديثٌ إذا يُتْلَى تطيرُ قلوبُ
بمَرّاكشٍ سَلْ عنه تَعْلَمْ غَناءه وقد ساءهُمْ يومٌ هناك عَصِيبُ
إذا ما ثنى الرُّمْحَ الطويلَ كأنه مُديرٌ لِغُصْنِ الخَيْزُرَانِ لَعُوبُ
وإنْ جَرَّهُ أبْصَرْتَ نَجْمًا مجرّرًا ذُؤَابَتُهُ، منه الكُماةُ تذوبُ
يَهيمُ به ما إنْ يزالُ مُعَانقًا له راكعاتٍ ما تحوزُ كعوبُ
محمدُ، لا تُبْدِ الذي أنتَ قادرٌ عليه، وخَفْ عَيْنًا عُلاكَ تصيبُ
نفوذُ سهامِ العَينِ أوْدَى بمُصْعَبٍ وطاح به بَعْدَ الشّبوب شَبِيبُ
ألَا فَهَنِيئًا أنْ رَجَعْتَ لتونسٍ فأطلعْتَ شمسًا والسِّفارُ غروبُ
كواكبها تبدو إذا ما تَرَكْتَها وقد جَعَلَتْ مَهْما حَضَرْتَ تغيبُ
إذا سُدْتَ في أرضٍ فغيرك تابعٌ عُلاكَ، ومَهْما سادَ فهو مريب

ومنها:

كفانيَ أنّي أستظلُّ بظلِّكُمْ ومَنْ هابَ ذاك المَجْدَ فَهْوَ مَهِيبُ
فأَصْلُكَ أصلي والفروعُ تبايَنَتْ بعيدٌ على مَنْ رامَهُ وقريب
وحَسْبِيَ فخرًا أنْ أقول محمدٌ نسيبُ عليٍّ جَلَّ منه نَصِيبُ
تركْتُ جميعَ الأقربينَ لِقَصْدِهِ على حِينَ حانَتْ فِتْنَةٌ وخطوب

---

(١) سميُّه: أراد به أبا الفضل ابن العميد، الكاتب الشهير، وقد مرَّت ترجمته في الجزء الأول من نفح الطيب وعريب: هو عريب بن سعيد القرطبي، الأديب الشاعر الطبيب المؤرخ؛ اختصر تاريخ الطبري، وكانت وفاته سنة ٣٦٩هـ. الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ١٤١) وتاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٠٦) وفيه: «عريب بن سعد».

(٢) الصُّوْلي: هو أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن عبد اللّه الصولي، أحد الأدباء المشاهير وصاحب التصانيف المشهورة، ومنها كتاب «أدب الكاتب». توفي سنة ٣٣٥ هـ، وقيل: ٣٣٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٣٥٦).

رأيـتُ بــه جنّــاتِ عَــدْنٍ فـلم أُبَـلْ — إذا وَصَـلَتْـنـا لـلخـلود شَـعُـوبُ
فَـقَبَّـلْتُ كَفًّـا لا أُعـابُ بِـلَثْمِـهـا — وأيـدي الأيـادي لَـثْـمُـهُــنَّ وجـوب
وكيف وليس الـرأسُ كـالـرِّجْـل، فَـرَّقَتْ — شِيَـاتٌ لَـعَمْـري بَيـنَنـا وضُـرُوبُ
ولـو كـان قــدري مثـل قــدرك في العلا — لَـحقَّ بـأن يعلو الشبـابَ مَشِيْـبُ
ولــولا الـذي أُسْمِعْتَ مِنْ مَكْـرِ حـاسـدٍ — أتـاك بـقـولٍ وَهْـوَ فـيـه كـذوب
لَـمَـا كنت محتــاجًـا لقــوليَ آنـفًـا — تَـخَلَّيـتُ مِـنْ ذنـبٍ وجئـتُ أتـوبُ
إذا كـنـت ذا طـوعٍ وشـكـرٍ وغبـطةٍ — فَمِنْ أين لـي يـا ابنَ الكـرام ذنـوب
لقـد كنت معتــادًا ببشـرٍ فمـا الـذي — تَـقَـلَّدْتُـهُ حـتـى يـزالَ قـطوب
أإن رَفَـعَ السلطانُ سَـعْيـي بقـربكـمْ — أُحَـلَّأُ عــن وِرْدٍ لـكـمْ وأخـيـب[1]
فـأحسبُ ذنبي ذَنْبَ صُخْـرٍ[2] بِـدارُهـا — إلى البِـرّ عـنـد الخـابـريـن مَعِيـبُ
وحـاشـاكَ مِــنْ جـور علـيّ، وإنـمـا — أُخـاطِـبُ مَنْ أصـفـو[3] لـه فيشـوب
صحـابٌ همُ الـداء الـدفينُ فليتنـي، — ولـم أدْنُ منـهـمْ، لـلذئـاب صَحُـوب
كَـلاَمُـهُـمُ شَـهْـدٌ ولكـنَّ فِعْـلَهُـمْ — كَـسَـمٍّ لـه بـيـن الـضـلوع دَبِيـبُ
سـأرحـلُ عنهـمْ والتجـاربُ لم تَـدَعْ — بقلبي لـهـمْ شيئًـا عـليـه أُثيـب[4]
إذا اغـتـرب الإنـسـان عَـمَّنْ يـسـوءه — فـمـا هـو في الإبـعـاد عنـه غـريـب
فـدارِكْ بـرَأْب منـكَ مـا قـد خَـرَقْتـه — لـيحسـنَ مـنّي مَـشْـهَـدٌ ومـغـيـب
ولا تـسـتـمـعْ قـولَ الـوُشـاة فـإنـمـا — عَـدُوُّهُـمُ بـيـن الأنـام نَـجِـيـبُ
فـيـا لـيـت أنـي لـم أكـنْ مـتـأدِّبًـا — ولـم يَـكُ لـي أَصْـلٌ هـنـاك رَسُـوبُ
وكـنـت كـبـعض الـجـاهـلـيـن مـحبَّـبًـا — فـمـا أنـا لـلهَـمِّ الـمُـلِمِّ حـبـيـب

---

(١) في طبعة دار صادر: «سعيي بقدركم..». وقوله: أَحَلَّأُ عن الوِرْدِ: أي أُمْنَعُ عنه. لسان العرب (حلأ).
(٢) صُخْر: هي صُخْر بنت لُقْمان بن عاد، ومنه المثل: «ما لي إلاَّ ذنب صُخْر»، يضرب لمن عُوْقب على الإحسان، وأصله أنَّ أباها خرج يومًا إلى الغزو ومعه أخوها لُقَيْم، فأصابا إبلًا كثيرة، وساقها لقيمٌ إلى منزله، فعمدت أخته صُخْر إلى جزور منها فنحرتْه وصنعتْ منه طعامًا لأبيها، وكان لقمان قد حسد لقيمًا على رجحانه عليه في تلك الغزوة، فلما قدَّمت له صُخْر الطعام وعلم أنه من غنيمة لقيم لطمها لطمة قضت عليها فصارت مثلًا. محيط المحيط (صحر).
(٣) في طبعة دار صادر: «أصفي».
(٤) أثيب: أجازي وأكافىء. لسان العرب (ثاب).

ومـا إن ضَـرَبْتُ الـدهـرَ زيـدًا بِعَمْـره	ولـم يَـكُ لي بـين الـكِـرام ضَـرِيبُ[1]
أأشكـوك أم أشكـو إليـكَ فمـا عَـدَتْ	عـداتـيَ حتـى حـانَ مـنـك وُثـوبُ
سـأشـكـرُ مـا أولىٰ وأصـبـر لـلذي	تـوالـى، عـلى أنَّ الـعـزاء سَـلِيـبُ
فَـدُمْ فـي سـرورٍ مـا بَقِيـتَ فـإنـنـي	وحَـقِّـكَ مُـذْ دَبَّ الـوُشـاة كَئِيـبُ

قال: وكان سبب التغير بيني وبين ابن عمي الرئيس المذكور أنَّ ملك إفريقية استوزر لأشغال الموحدين أبا العَلَاء[2] إدريس بن علي بن أبي العلاء بن جامع، فاشتمل عليَّ، وأولاني مِنَ البرِّ ما قَيَّدَني وأمال قلبي إليه، مع تأكيد ما بينه وبين ابن عمي من الصحبة، فلم يزل يَنْهَضُ بي، ويرفع أمداحي للملك، ويُوَصِّل إليه رسائلي، مُنَبِّهًا على ذلك، مرشحًا، إلى أن قبض الملكُ على كاتب عسكره، وكان يقرأ بين يديه كتبَ المظالم، فاحتيج إلى من يَخْلفه في ذلك، فنبّه الوزير عليَّ، وارتهن فيَّ، مع أنِّي كنت مِنْ كتّاب الملك، فقلّدني قراءة المظالم المذكورة، وسَفَر لي الوزيرُ عنده في دار الكاتب المؤخَّر، فأنعم بها، فوجد الوشاة مكانًا متّسعًا للقول، فقالوا وزَوّروا مِنَ الأقاويل المختلقة ما مال بها حيث مالوا، وظهر منه مخايل التغيير، فجعلْتُ أُداريه وأستعطفه، فلم ينفع فيه قليل ولا كثير، إلى أن سعى في تأخير والدي عن الكَتْبِ للأمير الأسعد أبي يحيىٰ ابن ملك إفريقية، ثم سعى في تأخيري، فأُخِّرْتُ عن الكتابة وعن قراءة[3] المظالم، فانفردْتُ بالكتابة للوزير المذكور، وفوَّضَ إليَّ جميعَ أموره، وأولاني من التأنيس ما أنساني تلك الوحشة، ومن العِزِّ ما أنقذني من تلك الذلة: [الطويل]

فَـرَدَّ عـليَّ الـعَـيشَ بَـعْـدَ ذهـابِـهِ	وآنـسَـنِي بـعـد انـفـرادي مـن الأهـلِ
وقـالـوا[4] إذا مـا الـوبـلُ فـاتَـكَ فـاقتنـعْ	بـمـا قـد تَسَـنَّى عـنـدك الآن مِنْ طَـلِّ
ووالـلّه مـا نُـعْـمَـاه طَـلٌّ وإنّـمـا	تـأَدُّبُـهُ غَـيـثٌ يـجُـودُ عـلى الـكُـلِّ
رآنـيَ أَظْمـا فـي الهـجـيـرة ضـاحـيًـا	فـرقَّ وآوانـي إلـى الـمـاء والـظِّلِّ

ولم أزل عنده في أسرِّ حال ما لها تكدير إلَّا ما يبلغني من أن ابنَ عمّي لا يزال يسعى في حقّي بما أخشى مَغَبَّتَهُ، وخِفْتُ أن يطول ذلك، فيُسْمع منه، ولا ينفع دفاعُ الوزير

(١) الضريب: المِثْلُ. محيط المحيط (ضرب).
(٢) في طبعة بولاق: «أبا العلى».
(٣) في طبعة ليدن: «وعن كتابة».
(٤) في طبعة دار صادر: «وقال».

المذكور عني، فرغبْتُ له في أن يرفع للملك أني راغبٌ في السَّراح إلى المشرق برسم الحج: [المتقارب]

ومَنْ بَلَّهُ الغَيثُ في بطنِ وادٍ ... وباتَ فلا يَأْمَنَنَّ السُّيُولا

فلم يُسْعِفني في ذلك، ولامَني على تخوّفي، وقلّة ثقتي بحمايته، فرفعْتُ له هذه القصيدة: [الطويل]

هل الهَجْرُ إلَّا أن يطولَ التَّجَنُّبُ ... ويبعدَ مَنْ قد كان منه التقرُّبُ
وتُقْطَعَ رُسْلُ بَيْنَنا ورسائلُ ... ويمنعَ لُقْيانا نوًى وتحجُّبُ
ولو أنني أدري لنفسيَ زلَّةً ... جعلْتُ لكُمْ عُذْرًا ولم أكُ أعتبُ
ولكنّكمْ لمَّا مَلَكْتُمْ[1] هَجَرْتُمُ ... وذنَّبْتُمُ في الحُبِّ من ليس يُذْنِبُ
إلى اللَّه أشكو غدركمْ ومَلالَكُمْ ... وقَلْبًا له ذلك التعذُّبُ يَعْذُبُ
فلو أنه يجزيكُمُ بفعالِكُمْ ... لكان له عنكُمْ مَرَادٌ ومطلب[2]
ولكن أبى أن لا يحنَّ لغيركمْ ... وأن لا يُرَى عنكم مَدَى الدهرِ مذهبُ
فهلَّا رَعَيتُمْ أنه في ذَرَاكُمُ ... غريبٌ، وليس الموتُ إلَّا التغرُّبُ
لَزِمْتُكَ لَمَّا أنْ رأيتك كاملًا ... جمالًا وإجمالًا وذاك يُحَبِّبُ
وإنّي لأَخْشَى أن يطولَ اشتكاؤه ... لِمَنْ إن أتى مَكْرًا فليس يُثَرِّبُ[3]
فلم أَسْعَ إلَّا لارتياحٍ وراحةٍ ... وغيري وقد آواه غيرك يَتْعَبُ
فأنتَ الذي آويْتَني ورَحِمْتَني ... وذو الرحمِ الدنيا لناريَ يحطبُ
فما مَرَّ يومٌ لا يريد[4] مصيبةً ... عليك، وبالتدبير منكَ يُخَيَّبُ
وهَبْكَ ثَبوتًا لا تُحيل أما ترى[5] ... مجرَّ حبال في الحجارة يرسب
وهبك[6] له سدًّا فكم أنتَ حاضِرٌ ... أُحاذر خَرْقًا منه أن يتسبَّبوا
وما إن أرى إلَّا الفرارَ مُخَلِّصًا ... وما راغبٌ في الضيم مَنْ عنه يرغبُ

---

(١) في الطبعة نفسها: «لمّا مللتم».
(٢) في طبعة دار صادر: «مرادٌ ومذهبُ».
(٣) يُثَرِّبُ: يلوم. لسان العرب (ثرب).
(٤) في طبعة دار صادر: «لا يدير».
(٥) في الطبعة نفسها: «وهَبْهُ ثُبُوْتًا لا يُحِيْلُ..».
(٦) في الطبعة نفسها: «وهَبْهُ».

فأُنْهِي[1] إلى الأمرِ العليِّ شَكِيَّتي وأنَّ خطوبَ الدهرِ نحوي تخطب
ولا تطمعوني في الذي لستُ نائلاً فلا أنا عُرْقُوبٌ ولا أنا أَشْعَبُ[2]
ألا فَلتَمُنُّوا بالسَّراحِ فإنه لَراحَةُ مَنْ يَشْقى لديكمْ ويَنْصَبُ
سَلُوا الكأسَ عنِّي إذ تُدار فإنني لأتركها هَمًّا ودمعي أَشْرَبُ
ولا أسمعُ الألحانَ حين تهزّني ولو كان نَوحًا كنتُ أُصْغي وأطرب
فَدَيْتُكُمُ كم ذا أُهُونُ بأرضكمْ أهذا جزاءٌ للذي يَتَغَرَّبُ؟
أَبُخْلٌ عليَّ؟[3] ما سواك يصيخُ لي فهل لي ممّا كَدَّر العَيشَ مهربُ؟
تَقَلَّصَ عنِّي كلُّ ظِلٍّ ولم أجدْ كما كنتُ أَلْقي[4] مَنْ أودُّ وأصحب
أذو طمعٍ في العيش يبقى وحوله مدى الدهر أفْعَى لا تزالُ وعقرب
أَجِزْنيَ لأنجو[5] بالفرار فإنه وحَقِّكَ مِنْ نُعْماك عنديَ يُحْسَبُ
فلا زلت يا خيرَ الكِرام مُهَنَّأً فَعَيْشيَ منه الموتُ أشهى وأطيب
وصانَكَ مَنْ قد صُنْتَ في حقِّه دمي وغيرُكَ مِنْ ثوبِ المروءة يسلبُ

ولم يزل الوزير ـ لا أزال اللّه عنه رضاه! ـ يحمي جانبي، إلى أن أصابتني فيه العين، فأصابه[6] الحَين، فقلت في ذلك: [الطويل]

وطَيَّبَ نفسي أنه مات عندما تَنَاهَى ولم يشمتْ به كلُّ حاسدِ
ويحكمُ فيه كلُّ من كان حاكمًا عليه ويُعْطي الثأرَ كلُّ مُعانِدِ

وقلت أرثيه: [الطويل]

بَكَتْ لكَ حتى الهاطلاتُ السواكبُ وشَقَّتْ جيوبًا فيك حتى السحائبُ

---

(١) في الطبعة نفسها: «فأنِهِ».

(٢) هو عرقوب بن معبد، وهو رجل من العمالقة من ساكني يثرب، كان أكذب أهل زمانه، يَعِدُ ولا يفي، يضرب به المثل في الخُلْف فيقال: أخلف من عرقوب ومواعيد عرقوب. وأشعب: رجل من المدينة كان مولى لعثمان بن عفان، كان شديد الطمع، يضرب به المثل فيقال: هو أطمع من أشعب، ولذلك يقال له: أشعب الطمّاع. لسان العرب ومحيط المحيط (عرقب) و (شعب).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «على أنْ ما».

(٤) في طبعة دار صادر: «أُلْفي».

(٥) في طبعة دار صادر: «أنجو». وفي طبعة بولاق: «أجرني».

(٦) الحَيْنُ، بفتح الحاء: الهلاك والموت. لسان العرب (حين).

فكيف بمن دافَعْتَ عنه ومَنْ به | أحاطتْ وقد بُوعِدْتَ عنه المصائبُ
ألَا فانْظروا دمعي فأكثرُهُ دمٌ | ولا تذهبوا عنّي فإنيَ ذاهب
وقولوا لمن قد ظلَّ يندبُ بعده | وفاؤكَ لو قامتْ عليك النوائب[1]
لَعَمْرُكَ ما في الأرض وافٍ بذمّةٍ | أيصمتُ إدريس ومثلي يخاطب؟
دَعَوْتُكَ يا من لا أقومُ بشكره | فهل أنتَ لي بعد الدعاء مجاوب؟
أيا سيّدًا قد حال بيني وبَيْنَهُ | ترابٌ حَوَتْ ذكراكَ منه الترائبُ[2]
لمن أشتكي إنْ جارَ بعدك ظالمٌ | عليَّ وإنْ نابتْ جَنابي النوائبُ
لمن أرتجي عند الأمير بمنطقٍ | تحفُّ به حولي المُنَى والمواهب

وهي طويلة، ومنها قُبَيلِ الختم:

وقد كنتُ أختارُ الترحُّلَ قبل أن | يُصِيبَكَ سَهْمٌ للمنيَّةِ صائبُ
ولكنْ قَضاءُ اللَّه مَنْ ذا يردُّه | فَصَبْرًا فقد يَرْضَى الزمانُ المغاضبُ

ومنها، وهو آخرها:

وإنّي لأدْرِي أنَّ في الصبر راحةً | إذا لم تكنْ فيه عليَّ مَثَالبُ[3]
وإن لم يؤبْ مَنْ كنتُ أرجو انتصاره | عليكَ فلُطْفُ اللَّهِ نحويَ آيب

قال، رحمه اللَّه تعالى: ولَمَّا قدمْتُ مصر والقاهرة أدركَتْني فيهما وَحْشة، وأثارَ لي تذكُّرُ ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التي قطعْتُ بها العيشَ غَضًّا خصيبًا، وصحبْتُ بها الزمانَ غلامًا ولبسْتُ الشباب بُرْدًا[4] قشيبًا، فقلْتُ: [الرمل]

هذه مِصرُ فأين المغربُ؟ | مُذْ نأى عنّي فعيني تسكبُ
فارَقَتْهُ النَّفْسُ جهلًا إنّما | يُعْرَفُ الشيء إذا ما يَذْهَبُ
أين حِمْصُ[5]؟ أين أيامي بها؟ | بَعْدَها لم ألْقَ شيئًا يُعْجِبُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «عليك النوادبُ».
(٢) الترائب: عظام الصدر، واحدتها تريبة، والمراد هنا الصدور. مختار الصحاح (ترب).
(٣) المثالب: جمع مثلبة وهي العيب والمسبّة. لسان العرب (ثلب).
(٤) كلمة «بُرْدًا» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٥) حمص: هنا هي إشبيلية.

كـم تَـقَـضَّـى لـي بـهـا مـن لـذّة		حـيـثُ لـلـنـهـرِ خـريـرٌ مُـطْرِب
وحَـمَـامُ الأيْـكِ تَـشْـدُو حـولـنـا		والـمـثـانـي[1] في ذَرَاهـا تَـصْـخَـب
أيُّ عَـيشٍ قـد قَـطَـعْـنـاه بـهـا		ذِكْـرُه مِـنْ كـلِّ نُـعْـمَـى أطْـيَـبُ
ولـكـمْ بـالـمَـرْجِ لـي مِـنْ لـذَّةٍ		بعـدهـا مـا العَيشُ عنـدي يَعْـذُبُ
والـنـواعـيـرُ الـتـي تـذكـارُهـا		بـالـنَّـوَى عن مُـهْـجـتـي لا تُـسْـلَبُ
ولـكم فـي شَنْتَبُـوسٍ[2] مِـنْ مُنًى		قـد قَـضَـيْـنـاه ولا مـن يَـعْـتـبُ
حيث هـاتيـك الشـراجيبُ[3] التي		كـم بهـا مِنْ حُسْنِ بـدرٍ مُغْـضَـبُ
وغـنـاءُ كـلُّ ذي فـقـرٍ لـه		سـامـعُ غـصبًـا ولا مـن يَـغْـضِـبُ
بـلدةٌ طـابـتْ وربٌّ غـافـرٌ		لـيـتـنـي مـا زلـتُ فيـهـا أُذْنِـبُ
أيـن حُسْنُ الـنِّـيـل من نَـهْـرٍ بـهـا		كُـلُّ نـغْـمـاتٍ لـديـه تُـطْرِبُ
كـم بـه مـن زورَقٍ قـد حَـلَّهُ		قَـمَـرٌ سَـاقٍ وعُـودٌ يـضـرب
لَـذَّةُ الـنـاظـرِ والـسـمـعِ عـلى		شَـمِّ زَهْـرٍ وكـؤوسٍ تُـشْـرَبُ
كـم ركبْـنـاهـا فـلم تـجـمـحْ بـنـا		ولـكـمْ مِـنْ جـامـحٍ إذ يُـرْكَـبُ
طَـوعُـنـا حيث اتَّجهْنـا لـم نَجِـدْ		تَـعَـبًـا مـنـهـا إذا مـا نـتـعـبُ
قـد أثـارتْ عِـثْـيَـرًا[4] يُـشْـبِـهُـهُ		نَـثْـرُ سِـلْكٍ فـوق بُـسْطٍ يُـنْـهَـبُ
كـلمـا رِشْـنَـا لـهـا أجـنـحـةً		مِنْ قـلاعٍ ظَلْتَ منـهـا تَـعْـجَـبُ
كـطيـورٍ لـم تَـجِـدْ رِيًّـا لـهـا		فَـبَـدَا لـلغَـيـن مـنـهـا مَـشْـرَبُ
بـل على الخضـراء[5] لا أنْفَـكُّ مِنْ		زَفْـرَةٍ فـي كـلِّ حـيـن تـلـهـبُ
حَـيـثُ لـلـبـحـر زئـيـرٌ حَـولَـهـا		تبـصـرُ الأغـصـانَ مـنـه تـرهـب
كم قـطعْنـا الليـلَ فيـهـا مشـرقًـا		بـحـبـيـبٍ ومُـدامٍ يُـسْـكَـبُ
وكـأنَّ الـبـحـرَ ثـوبٌ أزرقٌ		فـيـه لـلـبـدرِ طِـرازٌ مُـذْهَـبُ

---

(١) المثاني: آلات الطرب، وأوتاد العود. محيط المحيط (ثنى).
(٢) شنتبوس: من متنزهات إشبيلية، كان ابن سعيد يرتاده ويقضي فيه أحلى الأوقات.
(٣) الشراجيب: جمع شَرْجب وهو الطويل، والمراد هنا سور الجسر، محيط المحيط (شرجب).
(٤) العِثْيَرُ، بكسر العين وسكون الثاء وفتح الياء: الغبار. مختار الصحاح (عثر).
(٥) الخضراء: أي الجزيرة الخضراء، وهي مدينة بالأندلس كان ابن سعيد قد قضى فيها جانبًا من حياته، إذ كان والده واليًا عليها، وكان هو ينوب عنه أحيانًا.

وإلى الْحَورِ حنيني دائمًا | وعلى شَنِّيلَ دمعي صَيِّبُ[1]
حيث سُلَّ النهر عَضْبًا وانْثَنَتْ | فَوْقَهُ القُضْبُ وغَنَّى الربرب[2]
وتشفَّتْ أعينُ العُشّاق مِنْ | حُورِ عِينٍ بالمواضي تُحْجَبُ
مَلْعَبُ لِلَّهْوِ مذْ فارقْتُهُ | ما ثناني نحوَ لَهْوٍ مَلْعَبُ
وإلى مالَقَةٍ يهفو هَوًى | قَلْبُ صَبٍّ بالنَّوَى لا يُقْلَبُ
أين أبراجٌ بها قدْ طالما | حَثَّ كأسي في ذَرَاها كوكبُ
حَفَّتِ الأشجارُ عشقًا حولنا | تارةً تنأى وطورًا تقرب
جاءتِ الريحُ بها ثم انْثَنَتْ | أتراها حَذِرَتْ من تَرْقُبُ؟
وعلى مُرْسِيَة أبكي دمًا | منزلٌ فيه نعيمٌ مُعْشِبُ
مَعَ شمسٍ طَلَعَتْ في ناظري | ثم صارتْ في فؤادي تَغْرُبُ
هذه حالي، وأمّا حالتي | في ذَرَى مِصْر ففكرٌ مُتْعِبُ
سَمِعَتْ أُذْني محالاً، ليتها | لم تصدِّق وَيْحَها مَنْ يكذبُ
وكذا الشيء إذا غاب انتَهَوْا | فيه وَصْفًا كي يميل الغُيَّبُ
ها أنا فيها فريدٌ مُهْمَلٌ | وكلامي ولساني مُعْرِبُ
وأرى الألحاظَ تنبو عندما | أكتبُ الطِّرْسَ[3] أفيه عقرب؟
وإذا أَحْسِبُ في الديوان لم | يَدْرِ كتابهمُ ما أحسبُ
وأُنادَى مغربيًّا، ليتني | لم أكن للغرب يومًا أُنْسَبُ
نَسَبٌ يشركُ فيه خاملٌ | ونبيهٌ، أين منه المهربُ؟
أَتُراني ليس لي جَدٌّ له | شهرةٌ أو ليس يُدْرَى لي أبُ
سوف أثني راجعًا لا غَرَّني | بَعْدَ ما جَرَّبْتُ بَرْقٌ خُلَّبُ[4]

(١) في طبعة عبد الحميد: «وإلى الحوز» بالزاي، وحور أو حوز هو حور مؤمل وهو من أجمل متنزهات غرناطة، وقد مرَّ التعريف به في الجزء الثاني من نفح الطيب. وشنيل هو نهر غرناطة الكبير، وقد مرَّ التعريف به أيضًا في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٢) العَضْبُ، بفتح العين وسكون الضاد: السَّيْف الصارم القاطع، شبَّه به النهر. القُضْبُ: جمع قضيب وهو الغصن. الربرب: القطيع من البقر الوحشي، وأراد هنا القينات المغنّيات، شبههنّ بها لسعة العيون. لسان العرب (عضب) و (قضب) و (ربرب).

(٣) الطِّرْسُ، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة. مختار الصحاح (طرس).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «لأغرني» بدل: «لا غرّني». والبَرْقُ الخُلَّب: الذي لا مطر فيه كأنه خادع. مختار الصحاح (خلب).

وقال بِقَرْمُونَة متشوّقًا إلى غَرْناطة: [الطويل]

أغِثْنِي إذا غَنَّى الحَمامُ المُطربُ ... بكأسٍ بها وَسْوَاسُ فكري يُنْهَبُ
ومِلْ مَيْلَةً حتى أعانِقَ أيْكَةً ... وألْثِمَ ثغرًا فيه للصَّبِّ مشربُ
ولم أرَ مَرْجَانًا ودُرًّا خلافَهُ ... يُطيف به وَرْدٌ مِنَ الشَّهْد أعذب
فَدَيتُكَ مِنْ غُصْنٍ تَحَمَّلَهُ نَقًا ... تَطَلَّعَ أعلاهُ صباحٌ وغَيهَبُ(١)
وجَنَّتُهُ جنَّات عَدْنٍ وفي لَظى ... فؤادي وما لي من ذنوبٍ تعذب
ويَعْذلني العذّالُ فيه وإنني ... لأَعْصي عليه مَنْ يلومُ ويعتب
لقد جهلوا هل عن حياتيَ أنثني ... إذا نَمَّقُوا أقوالهمْ وتألَّبوا
يقولون لي قد صار ذكركَ مخلقًا ... وأصبحَ كلٌّ في هواهُ يُؤَنِّبُ
وعِرْضُكَ مبذولٌ وعَقْلُكَ تالِفٌ ... وجِسْمُكَ مسلوبٌ ومالُكَ يُنْهَبُ
فقلتُ لهمْ عِرْضي وعقليَ والعُلا ... وفخريَ لا أرْضَى بها حين يغضبُ
جنونٌ أبَى أن لا يلينَ لعازمٍ ... بسحرٍ بآيات الرُّقَى ليس يذهبُ
فقالوا ألاَ قد خانَ عَهْدَكَ قلْتُ لم ... يَخُنْ مَنْ إذا قرَّبْتَهُ يَتَقَرَّبُ
وكم دونه مِنْ صارمٍ ومُثَقَّفٍ(٢) ... فيا مَنْ رأى بَدْرًا بهذين يُحْجَبُ
على أنه يستسهلُ الصَّعْبَ عندما ... يزورُ فلا يُجْدي حِمًى وتَرَقُّبُ
وكم حيلةٍ تَتْرَى على إثْرِ حالةٍ ... وذو الودِّ مَنْ يحتالُ أو يتسبَّبُ
على أنه لو خان عهدي لم أزل ... له راعيًا، والرعي للصَّبِّ أوْجَبُ
فأين زمانٌ لم يخنِّيَ ساعةً ... به وهو مني في التنعّم أرغبُ
ولا فيه مِنْ بخلٍ ولا بي قناعةٌ ... كلانا بلذّاتِ التواصل مُعْجَبُ
ويا رُبَّ يومٍ لا أقومُ بشكرِهِ ... على أنّني ما زلتُ أُثْني وأُطنب
على نَهْرِ شَنِّيلٍ وللقُضْب حولنا ... منابرُ ما زالتْ بها الطيرُ تَخْطبُ
وقد قُرِعَتْ منه سَبائِكُ فِضَّةٍ ... خلالَ رياضٍ بالأصيل تُذَهَّبُ
شربْنا عليها قهوةً ذهبيَّة(٣) ... غَدَتْ تَشْرَبُ الألبابَ أيّانَ تُشْرَبُ

---

(١) النَّقا: كثيب الرمل، شبَّه الرِّدْفَ به. الغيهب: الظلام الشديد، شبَّه به الشَّعْرَ الأسود. لسان العرب (نقا) و (غيهب).

(٢) الصارم: السيف. المثقَّف: الرمح. لسان العرب (صرم) و (ثقف).

(٣) القهوة الذهبية: الخمر الصفراء التي بلون الذهب.

كـأنْ يـاسـمـينًـا وَسْطَ وَرْدٍ تـفـتَّـحَـتْ ... أزاهـرُه أيّـانَ فـي الـكـأس تُـسْـكَـبُ
إذا مـا شـربْـنـاهـا لِـنَـيـلِ مَـسَـرَّةٍ ... تَـبَـسَّـمُ عـن دُرٍّ لـهـا فـتـقـطَّبُ
أتتْ دونهـا الأحـقـابُ حتى تخـالـهـا ... سـرابًـا بـآفـاق الـزجـاجـةِ يَلْعَبُ
نَـعِـمْـنـا بـهـا والـيـومُ قـد رقَّ بُـرْدُهُ ... إلى أنْ رأيْـنـا الـشـمسَ عـنـا تـغـربُ
فقـالـوا ألَا هـاتـوا الـسـراجَ فكـلُّ مَنْ ... دَرَى قَـدْرَ مـا في الكـأس أقبـلَ يعجبُ
وقـال ألا تـدرون مـا فـي كـؤوسـكـم ... فـلا كـأس إلَّا وهـو في الليـل كـوكب
كـواكبُ أمْسَتْ بيـن شَـرْبٍ ولم نَـخَـلْ ... بـأنَّ النجـومَ الـزُّهْـرَ تـدنـو وتَغْـربُ
ظـلِلْنـا عـليـهـا عـاكـفـيـن ولـيـلُنـا ... نـهـارٌ إلى أنْ صـاح بـالأيْـك مـطرب
فلم نثْنِ عن دين الصَّـبُـوحِ[١] عنـانَـنـا ... إلى أن غَـدَا مَنْ ليس يَعْـرِفُ يـنـدب
صُـرِعْنا فأمسى يحسبُ السُّكْـرَ قـد قضى ... عـلينـا، وذاك الـسُّكْـرُ أشـهى وأعـجب
وكـم لـيـلةٍ فـي إثـر يـومٍ وعُـذَّلِـي ... وعُـذَّلُ مَنْ يُـصْـغِي لـقـولي خُـيَّبُ
فـيـا لـيـت مـا ولّـى مُـعَـادٌ نـعـيـمُـهُ ... وأيُّ نـعـيـمٍ عـنـد مَـنْ يَـتَـغَـرَّبُ

قال: وقلت بإشبيلية ذاكرًا لوادي الطَّلْح، وهو بشرق[٢] إشبيلية ملتفّ الأشجار، كثير مُتَرنّم الأطيار، وكان المعتمد بن عباد كثيرًا ما ينتابه مع رميكيّتِه[٣]، وأُولي أُنسه ومسرّته[٤]: [السريع]

سـائِلْ بـوادي الـطَّلْحِ رِيـحَ الصَّبَا ... هـل سُخِّـرَتْ لي في زمـان الصِّبَـا
كـانـتْ رسـولًا فيـه مـا بَـيْـنَـنـا ... لـنْ نَـأْمَـنَ الـرُّسْـلَ ولـن نَـكْـتُـبَـا
يـا قـاتـلَ الـلَّه أنـاسًـا إذا ... مـا اسْتُؤْمِنوا خـانـوا، فمـا أعْجَبَـا
هَـلَّا رَعَـوْا أنَّـا وَثِـقْـنَـا بـهـمْ ... ومـا اتَّـخَـذْنـا عَـنْـهُـمُ مَـذْهَـبَـا
يـا قـاتـلَ الـلَّه الـذي لـم يَـتُـبْ ... مِـنْ غَـدْرِهِمْ مِـنْ بَعْـدِ مـا جَـرَّبـا
والْـيَـمُّ[٥] لا يَـعْـرِفُ مـا طـعْـمُـهُ ... إلَّا الـذي وَافَـى لِأَنْ يَـشْـرَبـا
دَعْـنِـيَ مِـنْ ذِكْـرِ الـوُشَـاة الأُلـى ... لَـمَّـا يَـزلْ فـكـري بـهـمْ مُـلْـهَـبَـا

---

(١) الصبوح: خمرة الصباح. لسان العرب.
(٢) مرَّ في الجزء الثاني من نفح الطيب: «بشرف إشبيلية».
(٣) الرميكية: هي زوجة المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، وقد تقدّم الحديث عنها.
(٤) تقدمت هذه القصيدة في الجزء الثاني من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.
(٥) اليَمُّ: البحر. مختار الصحاح (يمم).

واذْكُرْ بوادي الطَّلْحِ عَهْدًا لنا — لله ما أَحْلَى وما أَطْيَبا!
بجانب العطفِ وقد مالتِ الـ — أغصانُ والزَّهْرُ يَبُثُّ الصَّبَا
والطَّيْرُ مازَتْ بين ألحانِها — وليسَ إلَّا مُعْجِبًا مُطْرِبا
وخانَنِي مَنْ لا أُسَمِّيه مِنْ — شُحٍّ أخافُ الدهرَ أنْ يُسْلَبَا
قد أترع الكأسَ وحَيًّا بها — وقلتُ أهلًا بالمُنَى مَرْحَبا
أهلًا وسهلًا بالذي شِئْتُه — يا بَدْرَ تِمٍّ مُهْدِيًا كوكبا
لكنني آليْتُ أُسْقَى بها — أو تُودِعَنْهَا ثَغْرَكَ الأَشْنَبَا
فَمَجَّ لي في الكأسِ مِنْ ثغره — ما حَبَّبَ الشُّرْبَ وما طَيَّبا
فقال ها لَثْمِيَ نُقْلًا ولا — تَشَمَّ إلَّا عَرْفِيَ الأطيبا[1]
فاقطفْ بخدِّي الوَرْدَ والآس والنْـ — ـنِسْرِينَ لا تَحْفِلْ بِزَهْرِ الرُّبا
أُسْعِفْتُهُ غُصْنًا غدَا مُثْمِرًا — ومِنْ جَنَاه مَيْسُهُ قَرَّبا
قد كنتُ ذا نَهْيٍ وذا إمْرَةٍ — حتى تَبَدَّى فحللْتُ الْحُبَا[2]
ولم أَصُنْ عِرْضِيَ في حُبِّه — ولم أُطِعْ فيه الذي أنَّبا
حتى إذا ما قال لي حاسدي — ترجوه والكوكبُ أن يَغْرُبا
أَرْسَلْتُ مِنْ شِعْرِيَ سِحْرًا له — يُيَسِّرُ المَرْغَبَ والمَطْلَبَا
وقال عَرِّفْهُ بأني سأَحْـ — ـتالُ فما أَجْتَنِبُ المَكْتَبَا
فزادَ في شوقي له وَعْدُهُ — ولم أزلْ مُقْتَعِدًا مَرْقَبَا[3]
أَمُدُّ طَرْفي ثم أَثْنِيهِ مِنْ — خَوْفِ أخي التنغيصِ أنْ يرقبا
أُصَدِّق الوَعْدَ وطورًا أرى — تَكْذِيبَهُ والحُرُّ لن يكذبا
أتى ومَنْ سَخَّرَه بعد ما — أيأس بُطْئًا كاد أن يُغْضِبا
قَبَّلْتُ في التربِ ولم أَسْتَطِعْ — مِنْ حَصَرِ اللُّقْيَا سوى مَرْحَبا
هَنَّأْتُ رَبْعِي إذ غَدَا هالةً — وقلْتُ يا من لم يُضِعْ أَشْعَبا
باللّه مِلْ مُعْتَنِقًا لائمًا — فمالَ كالغُصْنِ ثَنَتْهُ الصَّبَا
وقال ما ترغبُ؟ قلت آتِّئِدْ — أَدْرَكْتُ إذ كلَّمْتَني المَأْرَبا

---

(١) ها: اسم فعل أمر بمعنى خذ. النُّقْلُ: ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب. مختار الصحاح (نقل).

(٢) حَلَلْتُ الحُبَى: كناية عن خلع ثوب الوقار والحياء.

(٣) المرقب: المكان المرتفع يجلس فيه للمراقبة. لسان العرب (رقب).

فـقــال لا مــرْغَــبَ عــن ذِكْــرِ مــا تَــرْغَــبُــه قــلــتُ إذًا مــركــبــا
فــكــان مــا كــان فــوالــلّه مــا ذكــرْتُــهُ دَهْــرِيَ أو أُغْــلَبَا

قال: وقلت باقتراح الملك الصالح نور الدين صاحب حِمْص أن أكتب بالذهب على تفاحة عَنْبر قدّمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية[1]: [الخفيف]

أنــا لَــوْنُ الشبــابِ والخــالِ أُهْــدِيْــتُ لمنْ قــد كَسَــا الــزمَــانَ شَبَــابَــا
مــلكُ الــعــالــمــيــن نــجــمُ بــنــي أيْــيُوبَ، لا زال في المعالي مهابا![2]
جئــتُ مَــلأى من الــثــنــاء عــلــيــه مِــنْ شكــورٍ إحســانَــهُ والــثــوابــا
لــســت مــمــن لــه خــطــابٌ ولــكــنْ قــد كفاني أريــجُ عَــرْفي خــطابــا

قال: ولَمَّا أنشد أبو عبد اللّه بن الأبَّار[3] كاتب ملك إفريقية لنفسه[4]: [الكامل]

لــلّه[5] دولابٌ يــدورُ كــأنــه فَــلَكٌ ولكــنْ مــا ارتقــاه كــوكــبُ
هــامَتْ بــه الأحــداق لَمَّا نــادَمَتْ منه الحــديقــةُ ساقيًــا لا يَشْــرَبُ
نَصَبَتْــهُ فــوق النهــر أيــدٍ قَــدَّرَتْ تَــرْوِيحَهُ[6] الأرواحُ ساعــةَ يُنْصَبُ
فــكــأنــه وَهْــوَ الــطليقُ مُــقَــيَّــدٌ وكــأنــه وهــو الــحبيسُ مُسَــيَّــبُ
لــلمــاء فــيــه تَــصَــعُّــدٌ وتَــحَــدُّرٌ كالْمُزن يستقي البحارَ ويَسْكُبُ[7]

حلف أبو عبد اللّه بن أبي الحسين ابنُ عمي أن يصنع في ذلك شيئًا، فقال[8]: [الطويل]

---

(١) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣٤) وجاء هناك: «شهابًا» بدل «مهابا».

(٢) في طبعة بولاق: «في المعالي شهابا».

(٣) هو محمد بن عبد اللّه بن أبي بكر القضاعي البلنسي؛ كاتب أديب، من مصنفاته: «الحلة السيراء» و«التكملة». توفي سنة ٦٥٨ هـ. فوات الوفيات (جـ٣ ص ٤٠٤) والذيل والتكملة (جـ٦ ص ٢٥٣) واختصار القدح (ص ١٩١) والمغرب (جـ٢ ص ٣٠٩) وأزهار الرياض (جـ٣ ص ٢٠٤) وشذرات الذهب (جـ٥ ص ٢٧٥). وسيترجم له المقري في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ٣٣٥).

(٤) الأبيات في المغرب (جـ٢ ص ٣١٢) واختصار القدح (ص ١٩٢).

(٥) في المصدرين السابقين: «كَلَفًا بدولابٍ..».

(٦) في اختصار القدح: «تزويجه».

(٧) رواية عجز البيت في اختصار القدح هي:

كــالمزن تستقي البحــارَ وتسكبُ

(٨) الأبيات في المغرب (جـ٢ ص ١٦٩).

ومَحْنِيَّةِ الأضلاع تحنو على الثرى ... وتسقي نباتَ الترب، دَرَّ الترائبِ[1]
تُعَدُّ[2] مِنَ الأفلاك أنَّ مياهها ... نجومٌ لرجمِ المَحْلِ ذاتُ ذوائب
وأَعْجَبُهَا[3] رَقْصُ الغصون ذوابلاً ... فدارتْ بأمثالِ السيوفِ القواضبِ
وتحسبها والروضَ ساقٍ وقَينَةً ... فما بَرِحَا ما بين شادٍ وشارب[4]
وما خِلْتُها تَشْكُو بتَحْنانها الصَّدَى ... ومن[5] فوق مَتْنَيها اطّراد المذانب
فَخُذْ مِنْ مَجَارِيها ودُهْمَةِ لَوْنِها ... «بياضَ العطايا في سَواد المطالبِ»[6]

ثم كلفت في أن أقول في ذلك، وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول: [الطويل]

وذاتِ حَنينٍ لا تزالُ مُطيفَةً ... تَئِنُّ وتبكي بالدموعِ السواكِبِ
كأنَّ أليفًا بانَ عنها فأصْبَحَتْ ... بمَرْبَعِهِ كالصَّبِّ بَعْدَ الحبائب
إذا ابْتَسَمَتْ فيها الرياضُ شَمَاتَةً ... تَرُعْهَا بأمْثَالِ السيوفِ الْقَوَاضِبِ[7]
فكم رَقَصَتْ أغصانُهَا فَرَمَتْ لها ... نِثارًا كما بَدَّدْتَ حَلْيَ الكواعب[8]
لقد سَخِطَتْ منها الثغورُ وأرْضَتِ الـ ... ـقدودَ ولم تَحْفِلْ بتشريب[9] عائب
شَرِبْتُ على تحْنَانها ذهَبِيَّةً ... ذخيرةَ كِسْرَى في العصور الذواهب
فهاجَتْ ليَ الكأسُ ادِّكَارَ مُغاضِبٍ ... فَحَاكَيْتُهَا وَجْدًا بذاك المغاضب
فلا تَدَعِ التبريزَ في كثرة الهَوَى ... فلولاي كانت فيه إحدى العجائب

قال: وقلت بغرناطة: [الرمل]

باكرِ اللَّهْوَ وَمَنْ شَاءَ عَتَبْ ... لا يَلَذُّ العَيشُ إلَّا بالطَّرَبْ

---

(١) في المغرب: «ومَحْنِيَّة الأصلاب... نبات التُّرْب دمعَ..».
(٢) في المغرب: «تظنّ من..».
(٣) في المصدر نفسه: «وأطربُها».
(٤) هذا البيت غير وارد في المغرب.
(٥) في المغرب: «وما بين مَتْنَيْها».
(٦) عجز البيت هو عجز بيت لأبي تمام، وصدره هو:
وأَحْسَنَ مِنْ نَوْرٍ تُفَتِّحُهُ الصَّبا
ديوان أبي تمام (ص ٤٢).
(٧) السيوف القواضب: القاطعة. لسان العرب (قضب).
(٨) الكواعب: جمع كاعب وهي الفتاة التي نَهَدَ ثَدْياها. لسان العرب (كعب).
(٩) التثريب: اللوم. لسان العرب (ثرب).

مـا تَـوَانـى مَـنْ رأى الـزَّهْـرَ زَهَـا والصَّبَـا تمـرَحُ في الـروضِ خَبَبْ
وشَـذاه صـانَـهُ حـتَّـى اغْـتَـدَى بين أيـدي الـريـح غَضْبًـا يُنْتَـهبْ
يـا نـسيمًـا عَـطَّرَ الأرجـاءَ، هـل بعثـوا ضمنـكَ مـا يَشْفي الكُـرَبْ؟
هُـمْ أعَـلُّوه وهـمْ يَـشْـفُـونَـه لا شفـاهُ اللَّهُ مـن ذاك الـوَصَـبْ![1]
خَلَـعَ الـروضُ عـلـيـه زهْـرَهُ حينَ وافى مِنْ ذرَاكُمْ فِعْلَ صَبّ
فـأبـى إلاَّ شَـذَاه فـانـثـنـى حاملاً مِنْ عَرْفِهِ ما قد غصبْ
لـستُ ذا نُـكْـرٍ لأنْ يُـشْـبِـهـكُـمْ مَـنْ بعثْتُـمْ، غيـرُ ذا منـه العَـجَبْ
غـالَـبَ الأغـصـانَ فـي بَـدْأتِـهِ ثـم لَـمَّـا زادَ أعْـطَتْـهُ الـغَـلَبْ
فـبَـكَـى الـطَّلُّ عـليـهـا رحْـمَـةً أو بـكى مِـنْ وَعْظِ طَيـرٍ قـد خَـطَبْ
كُـلُّ هـذا قـد دَعَـانـي لِـلَّتِـي مَـلَكَتْ رقِّـي علـى مَـرِّ الـحِـقَـبْ
فَـهْـوَةٌ أبْـسِـمُ مِـنْ عُـجْـبٍ لـهـا عنـد مـا تَبْسِمُ عُجْبًـا عـن حَبَبْ[2]
حـاكَتِ الخمـرَ فلمّـا شُعْشِعَتْ[3] قُـلْتُ مـا للخمـر بـالمـاه الْتَهَبْ
وبَـدَتْ مِـنْ كـأسهـا لـي فـضّـةٌ مُـلِئَتْ إذ جَـمَـدَتْ ذَوْبَ الـذهبْ
اِسْقِنِيهـا مِـنْ يَـدَيْ مُـشْبِـهِـهـا بـالـذي يحـويـه طَـرْفٌ وشَنَبْ[4]
لا جَـعَلْتُ الـدهـرَ نُقْلِي غيـر مـا لَـذَّ لِي مِنْ رِيقِ ثَغْـرٍ كـالضَّـرَبْ[5]
لا جَعَلْتُ الـدهْـرَ رَيحـاني سِـوَى مـا بِـخَـدَّيـه مِـنَ الـوَرْدِ انـتـخبْ
لـم أزلْ أقْـطَعُ دهـري هٰـكـذا وكـذا أقْـطَعُ مـنـه الـمُـرْتَـقَـبْ
حَـبَّـذَا عَـيشٌ قَـطَعْـنَـاه لَـدَى معـطفِ الخـابـور مـا فيـه نَصَـبْ
مَـعَ مَنْ لم يَـدْرِ يـومًـا مـا الجَفَـا مَـنْ أراحَ الـصَّـبَّ فيـه مِـنْ تَـعَـبْ
كـلُّ مـا يـصـدرُ مـنـه حَـسَـنٌ لم يُـذِقْني في الـهـوى مُـرَّ الغـضب
أيُّ عَـيشٍ سـمـحَ الـدهـرُ بـه كـلُّ نـعـمـى ذَهَـبَـتْ لَـمَّـا ذهَـبْ

---

(١) الوَصَبُ، بالفتح: المرض. مختار الصحاح (وصب).
(٢) الحَبَبُ، بالفتح: ما يعلو الماء من فقاقيع. لسان العرب (حبب).
(٣) شعشع الخمرَ: مزجها بالماء. لسان العرب (شعشع).
(٤) في طبعة دار صادر: «سَقِّنِيْهـا مِنْ يَدَيْ. .». والشَّنَبُ، بـالفتح: العـذوبة في الأسنـان. مختار الصحـاح (شنب).
(٥) الضَّرَبُ، بالفتح: العسل الأبيض. محيط المحيط (ضرب).

قال: ودخلْتُ بتونس مع أبي العباس الغَسَّاني[1] حمّامًا، فنظرْنـا إلى غِلْمانٍ في نهـاية الحسن ونُعُومة الأبدان، فقلت مخاطبًا له: [السريع]

دَخَـلْتُ حـمّـامًـا وقَـصْـدي بـه | تـنعيـمُ جسـمٍ فَـغَـدَا لـي عـذابْ
قـلْتُ لَـظًى فـاعْـتَـرَضَـتْ حُـورُهُ | وقـلتُ عَـدْنٌ فـنهـانـي الـتـهـابْ
وأنــت فـي الـفـضـل إمـامٌ فـكُـنْ | في الحكم مِمَّنْ حـازَ فَصْلَ الخطابْ

فـقـال: [السريع]

لا تـأمَـنِ الحـمّـامَ فـي فِـعْـلِهِ | فليس مـا يـأتيـه عندي صـوابْ
فـمـا أرى أخْـدَعَ مـنـه ولا | أكـذبَ إلاَّ أن يـكـون الـسـرابْ
يُبْـدي لـك الغِيـدَ كَحُـورِ الـدُّمَى | ويُلْبِسُ الشيـخَ بُـرُودَ الشبـابْ
ظُـنَّ بـه الـنـارَ فـلا جَـنَّـةٌ | لِلْحُسْنِ إلاَّ مـا حَـوَتْـهُ الثيـابْ

ومن فوائده[2] ـ أعني ابن سعيد رحمه اللّه تعـالى ـ في كتابـه «المحلّى»[3] بالأشعـار نقلاً عن القرطبي[4] قضية بناء الهودج بروضـة مصر، وهـو من منتزهـات الخلفاء الفـاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة، وذلك أنه يقال: إن الباني له الخليفة الآمـر[5] بأحكـام اللّه، للبدوية التي غلب عليه حبها، بجوار البستان المختار، وكان يتردّد إليه كثيرًا وقُتل وهو متوجّه إليه، وما زال منتزهًا للخلفاء من بعده.

وقد أكثر الناس في حديث البدوية وابن مَيَّاح من بني عمّها، وما يتعلّق بذلـك من ذكر الآمر، حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كحديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبـه ذلك، والاختصار منه أن يقال: إنَّ الآمر قد كان بُلي بعشق الجواري العربيـات، وصارت لـه عيون في البوادي، فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم، شاعرة جميلة، فيقال: إنه

(١) هو الفقيه أحمد بن إبراهيم الغسـاني؛ كاتب دولـة بني حفص بإفـريقية، وشـاعر مشهـور. القدح المعلى (ص ١٢).

(٢) ورد هذا الخبر في المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي (جـ ٢ ص ٣٧٦).

(٣) هو كتابه: «القدح المعلّى في التاريخ المحلّى»، وقد طبع منه قسم بعنوان: «اختصـار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «القرطبي».

(٥) هو أبو علي المنصور الملقب بالآمر بأحكام اللّه ابن المستعلي الفاطمي؛ بويع يوم مات أبـوه سنة ٤٩٥، ومات قتلاً سنة ٥٢٤هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٩٩).

تـزيّا بـزيّ بُدَاة الأعـراب، وكان يجـول في الأحياء إلى أن انتهى إلى حَيِّهـا، وبات هنـالك، وتحيّل حتى عاينها هناك، فما ملك صبره، ورجع إلى مقرّ ملكه، وأرسل إلى أهلها يخطبها، وتـزوّجها، فلمّا وصلت إليه صَعُبَ عليهـا مفارقـة ما اعتـادت، وأحبَّت أنْ تسرِّح طـرفها في الفضـاء، ولا تنقبض نفسها تحت حيـطان المـدينـة، فبنى لهـا البنـاء المشهـور في جـزيـرة الفُسْطاط المعروف بالهودج، وكان غريب الشكـل، على شطّ النيل، وبقيت متعلّقـة الخاطـر بابن عمّ لها رُبِّيتْ معه، يُعْرَف بابن مَيَّاح، فكتبت إليه من قصر الآمر: [الرمل]

يـا ابن مَيَّـاحٍ إليـكَ المشتكى ... مـالـكُ مِنْ بعـدكُـمْ قـد ملكـا
كـنـت فـي حـيـي طـلـيقًـا آمـرًا ... نـائـلاً مـا شئتُ منكُمْ مـدركـا
فـأنـا الآن بـقـصـرٍ مُـوصَـدٍ ... لا أُرى إلَّا حَـبِـيسًـا مُـمْـسَـكـا
كم تَثَنَّيْـنـا كـأغصـان النقـا[1] ... حيث لا نـخـشـى عـلـينـا دَرَكـا

فأجابها بقوله[2]: [الرمل]

بِـنْتَ عـمِّي والـتـي غَـذَّيـتُـهـا ... بـالهـوى حتى عَـلَا واحْتبكـا[3]
بُحْتِ بـالشكـوى وعنـدي ضِعْفُهـا ... لـو غَـدَا يَنْفَـعُ مِنَّـا المُشْتَكَى
مـالِـكُ الأمـر إلـيـه يُشْتَكـى ... هـالـكٌ، وهْـو الـذي قـد أهلكـا

قال: وللناس في طلب ابن مَيّاح واختفائه أخبار تطول.

وكان من عرب طيىء في عصر الآمر طِرّاد بن مهلهل، فقـال وقد بلغتـه هذه الأبيـات: [المتقارب]

أَلَا بـلِّغـوا الآمـرَ الـمُـصْـطَفَى ... مَـقَـالَ طِـرّادٍ ونِـعْـمَ الـمـقـالْ
قَـطَعْـتَ الأليـفـيـن عـن أُلْـفَـةٍ ... بهـا سَمَـرُ الحيّ[4] حـول الـرحـالْ
كـذا كـان آبـاؤك الأكـرمـون؟ ... سـألتُ فقـلْ لي جـوابَ السؤالْ

فقال الخليفة الآمر لَمَّا بلغته الأبيات: جوابُ سؤاله قـطع لسانـه على فضولـه، فطُلب في أحياء العرب فلم يوجد، فقيل: ما أخْسَر صَفْقَةَ طراد، باع عدّة أبيات بثلاثة أبيات.

(١) في طبعة دار صادر: «كأغصان اللوى».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «فقال».
(٣) في طبعة دار صادر: «واحتنكا».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «الحمى»، وهكذا ينكسر الوزن.

وكان بالإسكندرية[1] مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حَدِيد، له مروءة عظيمة، ويحتذي أفعالَ البرامكة، وللشعراء فيه أمداح كثيرة، ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصَّلْت وغيرهما، وكان له بستان يتفرَّج فيه، به جُرْن كبير من رخام، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره، وكان يرى في نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعّم والمباهاة في عصره، فوشي به للبدوية محبوبة الآمر، فسألت الآمِرَ في حمل الْجُرْن إليها، فأرسل إلى ابن حديد في إحضار الجُرْن، فلم يجد بُدًّا من حمله من البستان، فلمّا صار إلى الآمر أمر بعمله في الهودج[2]، فقلق ابن حَديد، وصارت في قلبه حزازة من أخذ الجُرْن، فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحدِّ في الكثرة، حتى قالت البدوية: هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه، ولم يكلِّفْنا قطُّ أمرًا نقدر عليه عند الخليفة مولانا، فلمّا قيل له عنها هذا القول قال: ما لي حاجة بعد الدعاء للَّه بحفظ مكانها وطول حياتها في عِزّ غير رَدِّ السَّقِيَّة التي قُلِعَتْ مِنْ داري التي بنيتُها في أيامهم من نعمتهم تُرَدُّ إلى مكانها، فتعجّبت من ذلك، وردتها عليه، فقيل له: قد حصلت في حدّ أنْ خَيَّرَتْكَ البدوية في جميع المطالب، فنزلت همّتك إلى قطعة حجر، فقال: أنا أعْرَفُ بنفسي، ما كان لها أمل سوى أن لا تُغلب في أخذ ذلك الحجر من مكانه، وقد بلَّغها اللَّهُ تعالى أَمَلَها.

وكان هذا المكين متولِّي قضاء الإسكندرية ونظرها في أيام الآمر، وبلغ من علوِّ همّته وعظيم مروءته أنَّ سلطان الملوك حَيْدَرة أخا الوزير المأمون بن البطائحي[3] لمّا قلّده الآمِرُ ولاية ثغر الإسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة، وأضاف إليها الأعمال البحرية، ووصل إلى الثغر ـ وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضي المذكور، فأمر في الحال بعضَ غلمانه بالمضيِّ إلى داره لإحضار دهن الشمع، فما كان أكثر من مسافة الطريق إلَّا وقد أحضر حُقًّا مختومًا، ففكَّ[4] عنه، فَوُجِد فيه منديلٌ لطيف مذهب على مُدَاف[5] بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصّعة بياقوت وجوهر؛ بيت دهن مُمَسّك، وبيت

(١) هذا الخبر في المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (جـ ٢ ص ٣٧٧).

(٢) في طبعة دار صادر: «الهودج، وتركيبه هنالك، فقلق. . ».

(٣) انظر أخبار المأمون ابن البطائحي في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٩٩، ٣٠٢).

(٤) في طبعة دار صادر: «فكَّ عنه».

(٥) في الطبعة نفسها: «مراق».

دهن بكافور، وبيت دهن بعنبر طيب، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته، فعندما أحضره الرسولُ تعجّب المؤتمن والحاضرون من علوّ همّته، فعندما شاهد القاضي ذلك بالَغَ في شكر إنعامه، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، وكان من[1] جواب المؤتمن: وقد قبلته منك لا لحاجة إليه، ولا نظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمّة وإذاعتها، وذكر أن قيمة هذا المُدَاف وما عليه خمسمائة دينار.

فانظر، رحمك اللّٰه تعالى، إلى مَنْ يكون دهن الشمع عنده في إناء قيمته خمسمائة دينار، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه، فماذا تكون ثيابه وحُلي نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات؟ وهذا إنما هو حال قاضي الإسكندرية ومَنْ قاضي الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة؟! وما نسبة أعيان الدولة وإنْ عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبّهتها إلّا يسير حقير.

وما زال الخليفة الآمر يتردّد إلى الهودج المذكور إلى أنْ ركب يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة ٥٢٤ يريد الهودج، وقد كمن له عدّة من النزارية[2] على رأس الجسر من ناحية الروضة، فوثبوا عليه، وأثخنوه بالجراحة، وحمل في العُشَارِيِّ إلى اللؤلؤة[3]، فمات بها، وقيل: قبل أن يصل إليه، وقد خرب هذا الهودج، وجُهل مكانه من الروضة، وللّٰه عاقبة الأمور، نقل ذلك كله الحافظ المقريزي[4]، رحمه اللّٰه تعالى!.

قال النور ابن سعيد، ومن خطّه نقلت: لَمّا نزلْنا بتَلَّعْفَر[5] حين خرجْنا من سِنْجَار إلى

---

(١) كلمة «من» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) النزارية: فرقة تنسب إلى نزار بن المستنصر الفاطمي، كانت تطعن بإمامة المستعلي الفاطمي وتطالب بإمامة نزار؛ وكان المستنصر قد عهد في حياته بالخلافة لابنه نزار، فخلعه الملك الأفضل ابن أمير الجيوش وبايع المستعلي، وهرب نزار إلى الإسكندرية فبايعه أهلها وسمّوه المصطفى لدين اللّٰه. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٧٩، ٤٠٧) و (جـ ٢ ص ٤٥٠).

(٣) العُشاريّ: مركب بمصر يُرْكَبُ في النِّيل. محيط المحيط (عشر). واللؤلؤة: متنزه الخلفاء الفاطميين، بناه الخليفة العزيز الفاطمي. المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.

(٤) المواعظ والاعتبار (جـ ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١). وانظر أيضًا وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٥) تَلَّعْفَرُ أو تلّ أعفر: اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٣٩).

الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد شهاب الدين التَّلَّعْفَرِي[1]، فقال أنا أدركْتُه، وكان كثير التجوّل، وأنشدني لنفسه في عيد أدركه في غير بلده: [السريع]

يبتهجُ الناسُ إذا عَيَّدُوا ... وعِنْدَ سَرَّائِهِمُ أكْمَدُ
لأنني أُبْصِرُ أحبابَهمْ ... ومُقْلتي محبوبَهَا تَفْقِدُ

قال: وخرج ابنه الشهاب أجْول منه شخصًا وشعرًا، وصدق فيما قاله.

وأنشد ابن سعيد للشهاب التَّلعْفري: [الخفيف]

لكَ ثَغْرٌ كلؤلؤٍ في عقيقٍ ... ورُضابٌ كالشُّهْدِ أو كالرَّحِيقِ[2]
وجُفُونٌ لم يُمْتَشَقْ سَيفُها إلاَّ ... لِمُغْرًى بقَدِّكَ المَمْشُوقِ[3]
تِهْتَ عُجْبًا بكلِّ فَنٍّ مِنَ الْحُسـ ... ـن جليلٍ وكلِّ معنى دقيقِ
وتَفَرَّدْتَ بالجمال الذي خَلْـ ... ـلاكَ مستوحشًا بغير رفيق
باللحاظ التي بِهَا لم تزل تر ... شُقُ قلبي وبالْقَوَام الرَّشِيق
لا تُغِرْ بالغوير إذ تَتَثَنَّى ... فيه أعْطَاف كلِّ غصن وَرِيقِ
واثْنِ مُحْمَرَّ وَرْدِ خَدَّيْكَ واستر ... هُ وإلاَّ يَنْشَقُّ قلبُ الشقيق

قال ابن سعيد: وحظي الشهاب التلعفري بمُنَادمة الملوك، وكونهم يقدمونه، ويُقْبِلون على شعره، وعهدي به لا ينشد أحدٌ قبله في مجلس الملك الناصر، على كثرة الشعراء، وكثرة من يعتني بهم، ولَمَّا جمعْتُ للملك الناصر كتابَ «ملوك الشعر» جعلْتُ ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدّمة، فإنه كان كثيرًا ما ينشده، وينوّه به. والتشفي من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب «الغرّة الطالعة، في فضلاء المائة السابعة» وهو الآن عند الملك المنصور صاحب حَمَاة قد عَلَتْ سنُّه، وما فارقه غرامه ودَنُّه، انتهى.

---

(١) هو محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة التلعفري، نسبة إلى تَلَّعْفَر؛ أديب بارع وشاعر مشهور، كان خليعًا، امتحن بالقمار. توفي سنة ٦٧٥ هـ. فوات الوفيات (جـ ٤ ص ٦٢) والوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٥٦) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٠٩) و (جـ ٧ ص ٤٠، ٤٥).

(٢) الشُّهْد: بضم الشين وفتحها وسكون الهاء: العسل في شمعها. الرحيق: صفوة الخمر. مختار الصحاح (شهد) و (رحق).

(٣) امتشق السيف: استلّه. الممشوق: المعتدل. لسان العرب (مشق).

ولما أجرى ابنُ سعيد في بعض مصنّفاته ذِكْرَ الملك العادل بن أيوب[1] قال ما نصُّه: وكان من أعظم السلاطين دَهَاء وحَزْماً، وكان يُضْرب به المثل في إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له، ويحكى أنه بَشَّره شخص بأنّ أميرًا من أمراء الأفضل بن صلاح الدين فَسَد عليه، فأعطاه مالاً جزيلاً، وأرسل مستخفيًا إلى المذكور يزيده بصيرة في الانحراف عن الأفضل، ويَعِدُه بما يفسد الصالح فكيف الفاسد، قال: وكان يمنع حتى يوصف بالبخل، ويجود في مواضع الجود حتى يوصف بالسَّمَاح، وكان صلاح الدين ـ وهو السلطان ـ يأخذ برأيه، وقدَّم له أحدُ المصنِّفين كتابًا مُصَوَّرًا في مكايد الحروب ومنازلة المدن، وهو حينئذ على عَكّا محاصرًا للفرنج، فقال له: ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر، وكان كثير المُدَاراة والحزم، ومن حكاياته في ذلك أن أحد الأشياخ من خَوَاصِّه قال له يومًا، وهو على سماطه يأكل: يا خُوَنْدُ، ما وَفيتَ معي ولا رَعَيتَ سابقَ خدمتي، وكلّمه بدَالَّةِ السِّنّ وقِدَم الصحبة قبل الملك، فقال لمماليكه: انظروا وسَطه، فحلُّوا[2] الكَمَرَانَ وقال: خذوا الصُّرَّةَ التي فيه، فوجدوا صُرَّة، فقال: افتحوها، ففتحوها فإذا فيها ذَرُورٌ، فقال العادل: كُلْ مِنْ هذا الذَّرُور[3]، فتوقّف، وعلم أنه مُطَّلع على أنه سمّ، فقال: كيف نَسَبْتني إلى قلّة الوفاء، وأنا منذ سنين أعلم أنك تريد أن تسمّني بهذا السمّ، وقد جعل لك الملك الفلاني على ذلك عشرةَ آلافِ دينار، فلا أنا أمكنتك من نفسي، ولا أشعرتك، لئلاَّ يكون في ذلك ما لا خفاء به، وتركتك على حالك، وأنا مع هذا لا أُغَير عليك نعمة، ثم قال: ردّوا سمّه إلى كَمَرَانِهِ، لا أبقى اللّه تعالى عليه إن قدر وأبقى عليّ، فجعل يقبِّلُ الأرضَ ويقول: هكذا واللّه كان، وأنا تائب للّه تعالى، ثم إنَّ الشيخ جَدَّد توبة، واستأنف أدبًا آخر وخدمة أخرى، وكانت هذه الفعلة من إحدى عجائب العادل.

قال: وكان كثير المصانعات حتى إنه يَصُوغ الحليَ الذي يصلح لنساء الفرنج ويُوَجِّه

---

(١) هو سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملقب بالملك العادل، أخو السلطان صلاح الدين؛ مَلَكَ دمشق سنة ٥٩٢ هـ، ومصر سنة ٥٩٦ هـ، وامتدّ ملكه على مناطق واسعة، وتوفي سنة ٦١٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٧٤) والوافي بالوفيات (جـ ٢ ص ٢٣٥) والكامل في التاريخ (جـ ١٢ ص ٣٥٠).

(٢) في طبعة دار صادر: «فَجَسُّوا».

(٣) الذَّرُوْر، بفتح الذال وضمّ الراء وسكون الواو: ما يذرُّ على الجرح ونحوه من الأدوية، ونوع من العطور. لسان العرب (ذرر).

في الخفيـة إليهنّ، حتى يمسكن أزواجهنّ عن الحركـة، وله في ذلـك مع ملوك الإسـلام ما يطول ذكره.

ولَمّا خرج ابنُ أخيه المعز إسماعيل بن طغتكين[1] باليمن، وخطب لنفسـه بالخـلافة، وكتب له أن يبايعه ويخطب لـه في بلاده، كـان في الجماعـة مَنْ أشار إلى النـظر في توجيـه عسكر له في البر والبحر، وإنفاق الأموال قبل أن يتفاقم أمره، فضحك وقال: مَنْ يكون عقله هذا العقل لا يحـوج خصمه إلى كبيـر مؤونة، أنـا أعرف كيف أُفْسـد عليه حـالَهُ في بـلاده، فضلاً عن أن يتطرّق فساده لبلادي، ثم إنه وجّه في السّرّ لأصحاب دَوْلته بالوعد والوعيد وقال لهم: أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لي، فكيف يسوغ له؟ وقـد أدخل نفسـه في أمر لا يخرج منه إلاّ بهلاكه، فـاحذروا أنْ تهلكـوا معه، واتّعـظوا بالآيـة ﴿ ولا تَرْكَنُـوا إلى الذين ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النارُ ﴾[2] وما لهذا عقل يدبّر به نفسَه، فكيف يفضل عن تدبير خاصّته إليكم ﴿ ولَتَعْلَمُنَّ نَبَـأَهُ بَعْدَ حِيْنٍ ﴾[3] فعنـدما وَعَتْ أسمـاعُهم هذا وتـدبّروه بعقـولهم قبضـوا عليـه وقتلوه، وعادت البلاد للعادل، وقال للمشيرين عليه في أول الأمر بتجهيز العسكـر: قد كُفِينـا المؤونة بأيسر شيء من المال، ولـو حاولْنـاه بما أشـرتم به لم تقم خـزائن ملكنا بـالبلوغ إلى غايته.

وكان ـ على ما بلغه من عَظَمة السلطان، واتّساع الممالك ـ يحكي مـا جرى لـه من[4] زمـان خُلُوِّهِ من ذلك، ويحبّ الاستمـاع لنوادر أنـذال العالم، واشتهـر في خـدمتـه مَسَـاخـر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغُوطَة دمشق، ومن نوادره الحارَّة معه[5] أنه سمعه يـومًا وهـو يقول في وضـوئه: اللهمَّ حـاسبني حسابًـا يسيرًا، ولا تحـاسبني حسابًـا عسيرًا، فقال له: يا خُوَنْدُ، على أي شيء يحاسبك حسابًا عسيـرًا؟ إذا قال لـك: أين أموال الخلق التي أخـذْتَها؟ فقـل له: تـراها بـأمانتهـا في الكـرك، وكـان قـد صنـع بهـذا المعقـل الحسـرات، سُمِّيَتْ بذلـك لأنَّ مَنْ رآها يتحسّـر إذا نـظرهـا، ولا يستـطيـع على شيء منهـا

(١) في طبعة ليدن: «ظفركين».

(٢) سورة هود ١١، الآية ١١٣.

(٣) سورة ص ٣٨، الآية ٨٨.

(٤) في طبعة دار صادر: «في زمان».

(٥) في طبعة بولاق: «نوادره الحاضرة منه».

بحيلة، وهي خَوابٍ[1] مفروغة من ذهب وفِضّة تركت بمرأى من الناظرين ليشتهر ذلك في الآفاق.

وقال العادل مرّة، وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم مِمَّنْ ذكر في كتاب «المستجاد، في حكايات الأجواد»: إنما هذا كذب مختلق من الوَرّاقين ومن المؤرّخين، يقصدون بذلك أن يحرّكوا هِمَمَ الملوكِ والأكابر للسخاء وتبذير الأموال، فقال خضير: يا خُوَنْدُ، ولأي شيء لا يكذبون عليك؟

قال ابن سعيد: مَنْ وقف على حكايات أبي العَيْنَاء مع عُبَيْد اللّه بن سليمان يجد مثل هذه الحكاية.

قال ابن سعيد: ووجدت الشهاب القُوصي[2] قد ذكر السلطان العادل في كتاب «تاج[3] المعاجم» وابتدأ الكتاب المذكور بمحاسنه والثناء عليه، وخرّج عنه الحديث النبوي عن الحافظ السِّلَفي، وتمثّل فيه عند وفاته[4]: [الوافر]

أُلَامُ على بُكائي خيرَ مَلْكٍ ... وقَلَّ له بكائي بالنَّجِيعِ
به كان الشبابُ جميعَ عُمْري ... ودَهْرِي كلُّه زَمَنَ الربيعِ
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زمَنٌ خَؤون ... له شَغَفٌ بتفريق الجميعِ

قال ابن سعيد: ودفن العادل بالمدرسة العادلية بدمشق، وكان أنشأها للشافعية، وهي في نهاية الحسن، وبها خزانة كتب، فيها تاريخ ابن عساكر، وذَيَّل هذا التاريخ واختصره أبو شامة، سمعت عليه منه هنالك ما تيسّر أيام إقامتي بدمشق.

وأولاد العادل ملوك البلاد في صدر هذه المائة السابعة، منهم الكامل والمعظم والأشرف، وهؤلاء الثلاثة شهروا بالفضل وحبّ الفضلاء وقول الشعراء، انتهى.

---

(١) الخوابي: جمع خابية وخابئة وهي الجرّة الضخمة. محيط المحيط (خبأ).

(٢) هو شهاب الدين إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي القُوْصي، يكنى أبا الطاهر، وأبا العرب، وأبا حامد، وأبا الفداء، ألّف بدمشق معجمًا في أربع مجلدات سمّاه «تاج المعاجم»، توفي بدمشق سنة ٦٥٣ هـ. الطالع السعيد (ص ٨١ ـ ٨٢).

(٣) كلمة «تاج» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٤) تقدم البيتان الثاني والثالث في مقدمة الجزء الأول باختلاف يسير عمّا هنا.

وقال ابن سعيد، في ترجمة الرئيس صفي الدين أحمد بن سعيد المرذغاني[1]، وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق: إن من شعره قوله: [الخفيف]

كيف طابتْ نفوسُكُمْ بفراقي ... وفراقُ الأحباب مُرُّ المَذَاقِ
لو عَلِمْتُمْ بلَوْعَتِي وصَبابا ... تِي ووَجْدِي وزَفْرَتي واحتراقي
لَرَثَيتمْ للمسْتَهَام المُعَنَّى ... ووفيتُمْ بالعهدِ والميثاق

قال ابن سعيد: وقفت على ذكر هذا الرئيس في كتاب «تاج المعاجم» ووجدت صاحبه الشهاب القوصي قد قال: أخبرني بدمشق أنه قد كان عزم على السفر منها إلى مصر، لأمر ضاق به صدره، فهتف به هاتف في النوم، وأنشده: [الكامل]

يا أحْمَدُ اقْنَعْ بالذي أُعْطِيتَهُ ... إن كُنْتَ لا تَرْضَى لنفسك ذُلَّهَا
وَدَعِ التكاثر في الغِنَى لمعاشر ... أضحَوا على جَمْع الدراهم وُلَّهَا
واعْلَمْ بأنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلالُه ... لم يخلق الدنيا لأجلك كلَّهَا

فانثنى عزمه عن الحركة، ثم بلغ ما أمّله دون سفر.

وقال ابن سعيد، في ترجمة المنتجب[2] أحمد بن عبد الكريم الدمشقي المعروف بدِفْتِرْخُوَان[3]، وهو الذي يقرأ الدفاتر بين أيدي الملوك والأكابر[4]؛ إنه كان يقرأ الدفاتر بين يدي العادل بن أيوب، وكان يكتب له بالأشعار في المواسم والفصول، فينال من خيره، وكتب له مرّة وقد أظلّ الشتاء في دمشق فقال: [المجتث]

مَوْلاَي جاء الشتاءُ ... والكيس منه خَلاَءُ
لا زَالَ يَجْري بما تَرْ ... تَضِي عُلاك القَضَاءُ
وكلُّ كافٍ إليه ... يُحْتَاجُ فيه التواءُ

---

(١) في طبعة بولاق: «المردغاني» بالدال المهملة.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «المنتخب».

(٣) ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٧٨ - ٧٩) ولقَّبه منتجب الدين، وقال إنه خدم العادل، ثم سعى الحُسّاد بينهما، وكانت وفاته بعد وفاة العادل وذلك في سنة ٦١٥ هـ.

(٤) تحدّث الصفدي عن وظيفة الدفترخُوان فقال: «هو الذي يتحدّث في أمر الكتب المجلّدات ويكون أمرها راجعًا إليه، وهو الذي يقرأ على السلطان فيها، إمّا ليلاً وإمّا نهارًا، ينادمه بذلك». الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٧٩).

فقال له العادل: هذا الضمير الذي في البيت الأول على ماذا يعود؟ قال: بحسب مكارم السلطان، إنْ شئت على الدراهم، وإنْ شئت على الدنانير! فضحك وقال: هات كيسك، فأخرج له كيسًا يَسعُ قَدْرَ مائة دينار، فملأه له، وقال: أظنّه كان مُعَدًّا عندك، فقال: نثل السلطان مَنْ يكون جوده مظنونًا.

وكتب إليه مرّة وقد أملق[1]: [الكامل]

أُنْظُرْ إليَّ بعينِ جُودِكَ مرّةً[2] فلعلَّ محرومَ المطالبِ يُرْزَقُ
طَيرُ الرجاء على عُلاكَ مُحَلِّقٌ وأظنّه سيعودُ وَهْوَ مخلَّقُ

فأعطاه جملة دنانير، وقال له: اشْتَرِ بهذه ما تخلّق به طير رجائك، انتهى.

وأنشد ابن سعيد، رحمه اللّه تعالى، لبعض المغاربة، وهو أبو الحسن علي بن مروان الرباطي[3] الكاتب: [السريع]

أُنْسُ أخي الفضل كتابٌ أنيقْ أو صاحبٌ يُعْنَى بوُدٍّ وثيقْ
فإنْ تُعِرْهُ دون رَهْن به تخْسَرْهُ أو تخْسَرْ ودادَ الصديقْ
ورُبَّما تَخْسَرُ هذا وذا فاسْمَعْ، رعاك اللّهُ، نُصْحَ الشفيقْ

قال: وأجابه المخاطب بهذه الأبيات، وهو ابن الرَّبيب، بنثرٍ نصُّه: مثلك يُفِيدُ تجربة قد نفق عليها عمر، وضلّ عن فوائدها غِرّ غُمْر، وقد أنفذتُ رهنًا لا يسمح بإخراجه من اليد إلّا ليدك، فتفضل بتوجيه الجزء الأول، فأنا أعلم أنه عندك مثل ولدك، قال: فوجّهه ومعه بطاقة صغيرة فيها: يا أخي، إنْ عَرَّضت بولدي فكذلك كنت مع والدي وقد توارثنا العقوق كابرًا عن كابر، فكنْ شاكرًا فإني صابر.

ثم قال ابن سعيد: وتفاقم أمر ولده فقَيَّده بقيد حديد وقال فيه: [مجزوء الرجز]

لي وَلَدٌ يا لَيْتَهُ لم يَكُ عندي يُخْلَقُ
يَجْهَدُ في كل الذي يرغمُ وَهْوَ يُعْشَقُ
وإنْ أكنْ قَيَّدْتُه دمعي عليه مُطْلَقُ

---

(١) البيتان في الوافي بالوفيات (ص ٧٩).

(٢) في الوافي بالوفيات: «نظرة» بدل «مرة».

(٣) في طبعة دار صادر: «الزناطي».

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرًا ما يستعير الكتب، فإذا طُلبت منه فكأنها ما كانت، فذكر لبعض أصحابه ـ وهو ابن الربيب المؤرخ ـ أنّ عنده نسخة جليلة من تاريخ عَرِيب[1] الذي لخّص فيه تاريخ الطبري واستدرك عليه ما هو من شرطه وذيّل ما حدث بعده، فأرسل إليه في استعارتها، فكتب إليه: يا أخي، سَدَّد اللّٰه آراءك، وجعل عقلك أمامك لا وراءك، ما يلزمني من كونك مُضَيِّعا أن أكون كذلك، والنسخة التي رُمْتَ إعارتها هي مؤنسي إذا أوحشني الناس، وكاتم سرّي إذا خانوني، فما أعيرها إلاَّ بشيء أعْلَم أنك تتأذّى بفقده إذا فقد جزء من النسخة، وأنا الذي أقول:

أُنْسُ أخي الفضل كتابٌ أنيقْ

إلى آخره.

وأنشد للكاتب أبي الحسن المذكور: [الخفيف]

إنَّ ذاك العِذَارَ قام بِعُذْرِي ... وفَشَا فيه للعَوَاذل سِرِّي
ما رَأَيْنا مِنْ قَبْلِ ذلك مِسْكًا ... صاغَ منه الإلٰهُ هالَةَ بَدْرِ
أيُّ آسٍ مِنْ حَوْل جنَّةِ وَرْدٍ ... ليس منه آسٍ مَدَى الدهر يُبْرِي[2]

ولَمَّا اشتد مرضه بين تِلِمْسَان وفاس قال هذه الأبيات، وأوصى أن تُكْتَبَ على قبره: [المتقارب]

ألا رَحِمَ اللّٰهُ حَيًّا دَعَا ... لمَيْتٍ قضى بالفلا نَحْبَهُ
تمرُّ السَّوافِي[3] على قبره ... فتهدي لأحبابه تُرْبَهُ
وليس لَه عملٌ يُرْتَجَى ... ولكنه يرتجي ربَّهُ

رجع إلى نظم ابن سعيد المترجم به، فنقول:

وقال لَمَّا سار المعظم من حصن كيفا، وآل أمره إلى الملك، ثم القتل والهلك[4]: [الكامل]

---

(١) هو عريب بن سعيد القرطبي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء ٤٣).
(٢) الآس في صدر البيت هو شجر ورقه عطر. الآسي في عجز البيت هو الذي يداوي المريض. محيط المحيط (أوس) و(أسا). ويبري: أصل القول: يبرىء بالهمز، فقلب الهمزة ياء مراعاة للقافية.
(٣) السوافي: جمع سافية وهي الريح التي تحمل التراب وتنثره. لسان العرب (سفا).
(٤) البيتان في اختصار القدح (ص ٩).

ليت المُعَظَّمَ لم يَسِرْ مِنْ حِصْنِهِ يومًا ولا وافى إلى أملاكِهِ
إنَّ[1] العناصِرَ إذ رأته مُكَمَّلًا حَسَدَتْهُ فاجْتَمَعَتْ على إهلاكِهِ

وممّا نقلْتُه من ديوانه الذي رتّبه على حروف المعجم قوله ـ رحمه اللّه تعالى! ـ وقُلْتُ بالقاهرة على لسان مَنْ كلّفني ذلك: [الرمل]

شرفَ الدين، أبِنْ لي ما السببْ في انقلاب الدهرِ لي عند الغَضَبْ
فلْتَدُمْ غَضْبانَ أَظْفَرْ بالمُنَى ليس لي في غير هذا مِنْ أربْ
إنَّما ظَهْرُكَ عندي قِبْلَةٌ ووَضُوئي الدهرَ مِنْ ذاك الشَّنَبْ

وأستغفر اللّه من قول الكذب، قال: وقلت بإشبيليَةَ: [السريع]

قد جاء نَصْرُ اللّه والفَتْحُ والصُّبْحُ لَمَّا رَضِيت صُبْحُ
فهنِّئوني بارتجاع المُنَى لولا الرضا ما بَرِح البَرْحُ[2]
يا أورقًا يا غُصُنًا يا نَقًا يا ظبيةً بالليل يا صُبْحُ
يصحو جميعُ الناس مِنْ سكرهمْ ولستُ مِنْ سكركُمُ أَصْحو
بلغْتُ فيه غايةً لم يُبِنْ غايتَها التفسيرُ والشَّرْحُ
وينصح العذّال، مَنْ لي بأن يعذلني عن غَيِّكِ النصحُ

وقلت بإشْبِيلِيَةَ: [الرمل]

وَضَحَ الصبحُ فأين القَدَحُ؟ يعرفُ اللّذّاتِ مَنْ يَصْطبحُ[3]
ما ترى الليلَ كطِرْفٍ أدهمٍ وضياءُ الفجر فيه وَضَحُ[4]
والثَّرَى دَبَّجَهُ دَرُّ النَّدَى وعلى الأغصان منه وُشُحُ
ومُدِيْرُ الراحِ لم يَعْدُ المُنَى كلُّ ما يأتي به مُقْتَرَحُ
في بطاحِ المرجِ قد نادمني رَشَأُ مِنْ سُكْره ينبطحُ
جَعَلَ المِسْواكَ سِتْرًا للمُنَى فكأنْ قَبَّلَ فاهُ قُزَحُ

---

(١) في اختصار القدح: «إنَّ الطبائع».
(٢) البَرْحُ: الشدّة. لسان العرب (برح).
(٣) يصطبح: يتناول الصَّبُوحَ وهي خمرة الصباح. لسان العرب (صبح).
(٤) الطِّرْف، بكسر الطاء وسكون الراء: الفرس. الأدهم: الأسود. الوَضَحُ، بالفتح: البياض في قوائم الفرس. لسان العرب (طرف) و(دهم) و(وضح).

كـلمـا شئتُ الـذي قـد شـاءه فَـحَنَـى لي كـاسَـهُ أَفْـتـتـحُ
مـا أُبـالـي أنْ رآني كـاشـحٌ[1] أم رأنـي مَـنْ لـديـه نُـصُـحُ
هـكـذا العـيش ودَعْ عَيْشَ الـذي خـافَ مِنْ نَقْـدٍ إذا يَـفْـتـضـحُ

وقلْتُ بشَرِيشَ: [مجزوء الكامل]

طـابَ الـشـرابُ لـمـعـشـرٍ سُلِبُوا المروءةَ فـاستراحـوا
لا يـعـرفـون تَـسَـتُّـرًا الـسـكـرُ عـنـدهُـمُ مُـبـاحُ
متـهـتّـكـون لـدى الـمُـنَـى وفـسـادهُـمْ فـيـهـا صـلاحُ
سـاقِـيْـهُـمُ مُـتَـبَـذِّلٌ هـل يُمْنَـعُ الـمـاءُ القَـراحُ؟
غُـصْـنٌ يـمـيـل بـه الـصَّـبـا رَدَّتْـهُ طَـوْعَ الـراح راحُ
طَـوْعُ الأمـانـي كـلُّ مـا يـأتـي بـه فـهـو اقـتـراح
مـا إن نُـبـالـي إنْ بَـدَا أنْ لا يـلـوحَ لـنـا الـصـبـاح
مـا زلـتُ أَرْشِـفُ ثَـغْـرَهُ وعـلـيـه مِنْ عَـضُـدِي وِشـاحُ
والـقَـلْـبُ يَـهْـفُـو طـائـرًا وَلَـعًـا ولا يُخْشَـى افـتـضـاحُ
ولَـوَ آنـنـا نَـخْـشـاهُ كـا ن لـنـا مِـنَ الـظَّلْـمـا جَـنَـاحُ
لـكـنّـنـا فـي عـصـبـةٍ مـا في تهـتّـكِـهِـمْ جُـنَـاحُ[2]
لا يُـنْـكـرون سـوى ثـقـيـ ـلٍ لا يـمـيـلُ بـه مـزاحُ
أفـنـى الـذي قـد جَـمَّـعـو ه الكـأسُ والحَـدَقُ الـمـلاحُ

وقلت بأُرْكُش[3]: [مجزوء الكامل]

قُـمْ هـاتِـهـا لاحَ الـصـبـاحُ مـا الـعـيشُ إلاَّ الاصـطبـاحُ
مَـعَ فـتـيـةٍ مـا دأبـهـمْ إلاَّ الـمـروءة والـسـمـاحُ
جَـرَّبْـتُـهُـمْ فَـوَجَـدْتُـهُـمْ مـا لـلمُـنَـى عنـهـمْ بَـرَاحُ

(١) الكاشح: العدوّ الظاهر العداوة. لسان العرب (كشح).
(٢) الجُناح، بضم الجيم: الإثم. مختار الصحاح (جنح).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «بمراكش». وأركش، بالإسبانية Arcos de la Frontera، وهي حصن بالأندلس ومدينة يكثر فيها الزيتون. الروض المعطار (ص ٢٧).

يَثْنِيهُمُ نحو الصَّبا ... نَقْرُ المثاني والمراح[1]
ما نادموا شخصًا فكا ... ن لهمْ بخدمته استِرَاحُ
بل يعرفونَ مكانَهُ ... فله إذا شاء اقتراحُ
هُمْ يتعبونَ وضَيْفُهُمْ ... ما دام عندهُمُ يُرَاحُ
ما إنْ يملُّون النزيـ ... ـلَ وبالرضا منه السراحُ
يدعونه بأجلّ ما ... يُدْعى به الحُرُّ الصُّراحُ[2]
حتى إذا ما بان كَدُّ ... رَعَيشَهُمْ منه انتزاح
فعلى مثالِهِمُ يبا ... حُ ليَ المدامعُ والنواحُ
كَرْهًا فَقَدْتُهُمُ فحا[3] ... لي بَعْدَ بُعْدِهِمُ ارتياح
للَّه شوقي إنْ هَفَتْ ... مِنْ نحو أرضهمُ الرياحُ
فهناك قلبي طائرٌ ... لهمُ ومِنْ شوقي جَناحُ

قال: وقلت بمدينة ابن السليم[4] في وصف كلب صيد أسود في عُنقه بياض: [الوافر]

وأدْهَمَ دون حَلْيٍ ظلّ حالي ... كأنْ لَيلًا يُقَلِّدُهُ صباحُ
يطيرُ وما له ريشٌ ولكنْ ... متى يَهْفُو فأربَعُهُ جَناحُ
تكلُّ الطيرُ مهما نازعَتْهُ ... وتحسدُهُ إذا مرقَ الرياح
له الألحاظُ مهما جاء سلكٌ ... ومهما سارَ فهي له وشاح

وقلت في نيل مصر: [الكامل]

يا نِيلَ مِصْرٍ أينَ حِمْصُ ونَهْرُهَا ... حيثُ المناظرُ أَنْجُمٌ تلتاحُ
في كل شطٍّ للنواظر مَسْرَحٌ ... تدعو إليه منازحٌ وبطاح
وإذا سَبَحْتُ فلستُ أسبحُ خائفًا ... ما فيه تَيّارٌ ولا تمساح

(١) المراح: الخفّة والنشاط. لسان العرب (راح).
(٢) الصُّراح، بضم الصاد: الخالص النسب. لسان العرب (صرح).
(٣) في طبعة دار صادر: «فما لي بَعْدَ..».
(٤) مدينة ابن السليم: هي مدينة شذونة بالأندلس، عرفت بهذا الاسم لأن بني سليم انضووا إليها عند خراب مدينة قلشانة، وبين قلشانة وأم السليم ٢٥ ميلًا. الروض المعطار (ص ٤٦٦).

قال: وقلت وقد حضرت مع إخوان لي بموضعٍ يُعْرف بالسلطانية على نهر إشْبِيلِيَةَ وقد مالت الشمس للغروب[1]: [الكامل]

رَقَّ الأصيلُ فواصِلِ الأقداحا ... واشْرَبْ إلى وقت الصباح صباحا
وانظرْ لشمس الأُفْق طائرةً وقد ... أَلْقَتْ على صَفْح الخليج جَنَاحا
فاظْفَرْ بِصَفْو الأُفْق قبل غروبها ... واستنطق المثنى وحُثَّ الراحا
مَتِّعْ جفونك في الحديقة قبل أن ... يَكْسو الظلامُ جمالها أمساحا

وقلت بمُرْسِيَةَ: [مخلع البسيط]

أَقْلَقَهُ وَجْدُهُ فباحا ... وزاد تبريحُه فناحا
ورام يثني الدموع لَمَّا ... جَرَتْ فزادتْ له جماحا
يا من جَفَا فارفقنْ عليه ... مستعبدًا لا يرى السراحا
يكابدُ الموتَ كلَّ حين ... لو أنه مات لاستراحا
ينزو[2] إذا ما الرياحُ هَبَّتْ ... كأنه يَعْشَقُ الرياحا
يسألها عن ربوع حِمْصٍ ... لَمّا نَمَا عَرْفُها وفاحا
كم قد بكى للحَمَام كيما ... يعيرَه نحوها جَناحا

قال: وخرجت مرّة مع أبي إسحٰق إبراهيم بن سَهْل الإسرائيلي[3] إلى مرْج الفِضّة بنهر إشْبيلية فتشاركْنا في هذا الشعر[4]: [الكامل]

غيري يميلُ إلى كَلام اللاحي ... ويَمُدُّ راحَتَهُ لغيرِ الراحِ
لا سيما والغُصْنُ يَزْهو زَهْرُهُ ... ويُمِيلُ عِطْفَ الشاربِ المرتاح[5]

---

(١) البيتان الأول والثاني في المغرب (جـ٢ ص ١٧٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٢) نزا ينزو: وثب. مختار الصحاح (نزا).

(٣) أبو إسحٰق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي من أشهر شعراء الأندلس في فترة الموحدين؛ كان صديقًا لابن سعيد المترجم له، وكانت وفاته سنة ٦٤٩ هـ. وسيرد جانب من أخباره في مواطن من نفح الطيب. ترجمته في المغرب (جـ١ ص ٢٦٩) وفوات الوفيات (جـ١ ص ٢٠) واختصار القدح (ص ١٤٠) ومقدمة ديوان ابن سهل.

(٤) بعض الأبيات في ديوان ابن سهل (ص ٢٥ ـ ٢٦). والأبيات كلها في اختصار القدح (ص ٧٦) وجاء فيه أنها لابن سهل فقط، أي لم يشترك فيها ابن سعيد.

(٥) في الديوان: «والغصن يزهر زهره ويهزُّ عطفَ..». وفي اختصار القدح: «ويهزّ عطفَ..».

وقد استطارَ القَلْبَ ساجعُ أَيْكَةٍ[1] مِنْ كلٍّ ما أشكوه ليس بصاحِ
قد بانَ عنه جناحُهُ عجبًا له مِنْ جانحٍ للعجز خِلْفِ جناح[2]
بَينَ الرياض وقد غَدَا في مأتمٍ وتخاله قد ظلَّ في أفراح
الغصنُ يمرحُ تحته والنهرُ في قَصْفٍ تزجِّيه يَدُ الأرواح[3]
وكأنما الأنشام فوق جِنانِهِ أعلامُ خَزٍّ فَوقَ سُمْرِ رماح[4]
لا غَرْوَ أنْ قامت عليه أسطرٌ[5] لَمَّا رأته مُدَرَّعًا لكفاح
فإذا تتابعَ مَوجُهُ لِدِفاعِهِ[6] مالتْ عليه فظلَّ خِلْفَ صِياح

قال: وقلت بمالَقَة متشوِّقًا إلى الجزيرة الخضراء: [الخفيف]

يا نسيمًا من نحو تلك النواحي كيف باللَّه نَورُ تلك البِطَاحِ
أَسَقَتْهَا الغَمامُ رَيًّا فلاحَتْ في رداءٍ ومئزرٍ ووشاح
أم جَفَتْهُ فصيَّرَتْهُ هشيمًا تركتْه تَذْروه هُوجُ الرياح
يا زماني بالحاجبية إني لستُ مِنْ سُكْرِ ما سُقِيتُ بصاحي
آه مِمَّا لقيتُ بعدك مِنْ هَمْـ ـمٍ وشوقٍ وغربةٍ وانتزاح
أين قومٌ أَلِفْتُهُمْ فيكَ لَمَّا قَرَّبَ الدَّهْرُ آذنوا بالرَّواح
تركوني أسيرَ وَجْدٍ وشَوقٍ ما لقلبي مِنَ الجَوَى مِنْ سَرَاح
أسلموني للويلِ حتى تولَّوا وأصاخوا ظُلمًا لقولِ اللواحي
أعرضوا ثمّ عَرَّضوني لشوقٍ تركَ القَلْبَ مُثْخَنًا بجراح
أسهرُ الليلَ لستُ أُغْفي لصبحٍ أترى النومَ ذاهبًا بالصباح
قد بدا يُظْهِرُ النجومَ حُلِيًّا وهو من لبسة الصبا في براح

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «أيْكِهِ».

(٢) في الديوان: «قرنيه، عجبًا... خلف جناح». وفي اختصار القدح: «قرنيه عجبًا... للهجر خوف جُناح».

(٣) في اختصار القدح: «تدرّجه يد الأرواح». وتزجيه: تسوقه. والأرواح: جمع ريح. محيط المحيط (ريح).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الأنسام» بالسين. وفي اختصار القدح: «الأنشام فوق جناحه». والأنشام: من أشجار الجبال.

(٥) في اختصار القدح: «أسطرًا».

(٦) في المصدر نفسه: «لدفاعها».

مُـسْـبِـلاً سـتـره مُـنَـعَّـمَ بـالٍ   وجـفـوني مِـنْ سُـهْـدِهِ فـي كـفـاح
أيـهـا الـلـيـلُ لا تـؤمِّـلْ خـلودًا   عن قـريـبٍ يـمحـو ظـلامَـكَ مـاح
ويـلوحُ الـصـبـاحُ مـشـرقَ نـورٍ   فـيـه لـلمُـشْـتـهـام بَـدْءُ نـجـاح
إنَّ يـومَ الـفـراقِ بَـدَّدَ شـمـلي   طـائـرًا لَـيْـتَـهُ بِـغَـيـرِ جَـنـاح
حـالِك اللون شبـه لـونـك فـاعـرف   عن عيـاني يـا شِبْـه طيـر النِّـزَاح[1]
وإذا مـا بَـدَا الـصـبـاحُ فـمـا يُـشْـ   ـبـهُ إلاَّ لَـونَ الـخـدودِ الـمـلاح

وقلت بالجزيرة الخضراء: [مخلع البسيط]

قـد رُفِـعَـتْ رايـةُ الـصـبـاحِ   تـدعـو الـنـدامى لـلاصـطبـاحِ
فـبـادروا لـلصَّـبُـوح إنِّـي   قـد بـعـثُ فـي غـيِّـه صـلاحـي
ولا تـمـيـلوا عـن رَشْـفِ ثـغـرٍ   وسَـمْـعِ شَـدْوٍ وشُـرْب راح
وأنـتَ يـا مـن يـرومُ نُـصْـحـي   قـد يئس الـقـومُ مِـنْ فَـلاَحـي
فـلسـت أُصْـغـي إلى نـصـيـحٍ   مـا نـهـضـتْ بـالـبوس راحـي

قال: وقلت أمدح ملك إفريقية وأهنّئه بقَتْل ثائر من زَنَاتَة[2] يدّعي أنه من نسل يعقوب المنصور: [السريع]

بَـرَّحَ بـي مَـنْ لـيس عـنـه بَـرَاحْ[3]   ومَـنْ رأى قـتـلي حَـلاَلاً مُـبَـاحْ
مَـنْ صَـرَّح الـدمـعُ بـحُـبِّي لـه   ومـا لـقـلبـي عـن هـواه سَـرَاحْ
ظَبْيٌ عـدمْتُ الصبـحَ مـذ صـدّني   وكـيـف لا يُـعْـدَمُ وهـو الـصـبـاح
مُـوَرَّدُ الـخَـدُّ شـهـيُّ الـلَّمْـى   مُنَعَّـمُ الـرِّدْف جـديبُ الـوشـاح[5]
تـظنّـه مِـنْ قـلبـه جَـلْمَـدًا[4]   ومنـه لـلمـاءِ بـجـفـني انسـيـاح
لَـرِدْفُـهُ أضـعـفُ مِـنْ صَـبِّـه   ولـم أزل مِـنْ لَـحْـظِهِ فـي كـفـاح
نـشـوانُ مِـنْ ريـقـتـه عَـرْبَـدَتْ   أجفـانُـهُ بـالمـرهفـات الصِّـفـاح

(١) في طبعة دار صادر: «لونك فاعزب. . . طير انتزاح».
(٢) زناتة: قبيلة بربرية كثيرة العدد ببلاد المغرب، ومنهم بنو مرين وبنو عبد الحق وبنو عبد الواد. قلائد الجمان (ص ١٧٦ ـ ١٧٧).
(٣) بَرَّح بي: جهدني وأتعبني. البراح: الابتعاد. لسان العرب (برح).
(٤) جديب الوشاح: كناية عن رقة خصرها. لسان العرب (جدب).
(٥) الجَلْمَدُ: الصخر. مختار الصحاح (جلمد).

فهـا أنيـنـي خـافِـتٌ مثـلَ مـا ... أنـا أسيـرٌ مُثْخَنٌ بـالـجـراح

يـا قـاتلي صـدًّا أمَـا تستحـي ... أن تَلْـزمَ البخـلَ بـأرض السَّمـاح

مـن ذا الـذي يَبْـخَـلُ في تـونسٍ ... والـملحُ فيهـا صـارَ عـذْبًـا قَـراح

وأصـبـحـتْ أرجـاؤهـا جـنَّـةً ... مُبيَضَّـةَ الأبـراج خُضْـرَ البـطاح

لـولا نـدى يـحـيـىٰ وتـدبـيـرُهُ ... مـا بـرحـتْ تَغْبَرُّ منهـا النَّـواح

لـكـنْ يـداهُ سُـحُـبٌ كـلّمـا ... حَلَّتْ بـأرضٍ حَـلَّ فيهـا النجـاح

هـذا وقـد آمَـنَ مَـنْ حـلَّهـا ... وحَـفَّـهـا مـن غـربـة وانـتـزاح

كـم شُتِّـتـوا مِنْ قـبـلِ تـأميـره ... وحُكِّمَتْ فيهـمْ عَـوَالي الـرمـاح

يـا سـائـرًا يـرجـو بلوغَ المُنَـى ... بـاكـرْ ذَرَى يـحـيـىٰ وقُـلْ لا رَوَاح

وحَـيِّـهِ بـالـمـدح فـهـو الـذي ... يـهتـزُّ كـالـهِنْـدِيِّ حيـن امتـداح

بـالـشـرقِ والـغـربِ غَـدَا ذِكْـرُهُ ... يَـحُـثُّ مِـنْ حـمـدٍ وشكـرٍ جَنَـاح

سـاعَـدَهُ الـسَّـعْـدُ وأضحتْ لـه الـ ... آمـال تـجـري بغـيـر اقـتـراح

ويَـسَّـرَ الـلَّهُ لـه مُـلْكَـهُ ... مِنْ غيـرِ أن يَشْهَـرَ فيـه السـلاح

وكـلُّ مَـنْ كـان عـلى غـيـره ... ذا مَنْـعَـةٍ أَمْـسـى بـه مُـسْـتـبـاحْ

وكم جَمُـوحٍ عـنـدمـا قـام بـالأمْـ ... ـر رأى الـقـهـرَ فخلَّى الـجـمـاح

كَـفٌّ بـكـفٍّ لـلـنَّـدى والـرَّدَى ... بهـا مَعَـانٍ[1] وهـي خُـرْسٌ فِصـاح

حتـى لـقـد أحسـبُ مِنْ سَـعْـدِهِ ... تجـري على مـا يـرتضيـه الـريـاح

قـولـوا لـيـعـقـوبَ فـمـاذا جَـنَى ... وابـن أبـي حـمـزة مـاذا استـبـاح

قـد أصبحـا مـن فـوق جِـذْعَـيـنِ لا ... يُـؤنـسـهـم غـيـرُ هـبـوب الـريـاح

واسـألْ عن الـداعي الـدعيِّ الـذي ... حـاول أمـرًا كـان عنـه انْضِـرَاح[2]

أكـان مَـنْ صَـيَّـره والـدًّا ... بـزعـمـه أمَّـلَ فـيـه فـلاح

شـكـرًا لـسـعـدٍ لـم يَـدَعْ فـرقـةً ... قـد صيَّـر الملكَ كضـرب القِـداح

رامـوا بـلا جـاهٍ ولا مَـحْـتِـدٍ[3] ... مـا حُـزْتَ بـالحقِّ فكـان افتضـاح

زنـاتـةٌ يَـهْـنـيـكُـمُ فِـعْـلُكُـمْ ... عـاجلُكُـمْ ثـائـرُكُـمْ بـاجـتـيـاح

(١) في طبعة دار صادر: «معانٌ»، والمَعَانُ: المنزل، ومعانُ الأدب: مكانه. محيط المحيط (معن).

(٢) الانضراح: الابتعاد. لسان العرب (ضرح).

(٣) المَحْتِدُ: الأصل. محيط المحيط (حتد).

كَـفَّـرَ مـا قـدّمْـتُـمُ آخـرٌ والـخـيـرُ لـن يـبـرح لـلشـرِّ مـاح
عهـدي بـه في مـوكـب الـملكِ مـا بَـيْـنَـكُـمُ نَـشْـوَانَ مِـنْ غـيـر راح
يـحـسـبُ أنَّ الأرضَ مـلكٌ لـه وروحُـهُ مـلكٌ لـسُـمْـرِ الـرمـاح
غَـدَا بـعـزِّ الـمـلك لـكـنـه أَهْـوَنُ مـمـلوكٍ عـلى الأرض راح
جـاءوا بـه يَـمْـرَحُ فـي عـزِّه وهـم أزالـوا عـنـه ذاك الـمـراح
تـوقّـعُـوا في الـقـرب منـه الـردى مِنْ صحبةِ الأجربِ يَخْشَى الصِّحاح
فـأسـرعـوا نـحـوك يـبـغـون مـا عَـوَّدْتَـهُـمْ مِـنْ عـطـفـةٍ والـتـمـاحْ
فَـغَـادروه جـانـيًـا غَـدْرَهُ لـطـائـر الـبَـيـنِ عـلـيـه نِـيَـاح
فـالـحـمـدُ لـلّه عـلى كـلِّ مـا سَنّى لـك الـسعـدُ بـرغـم اللُّواح[1]
مِـثـلك لا يـنـفـد مـا شـاءَه[2] فـلسـتَ تـأتـي الـدهـرَ إلاَّ صـلاح
لا زلْـتَ فـي عِـزٍّ وفـي مُـكْـنـةٍ وفـي سـرورٍ دائـمٍ وانـفـسـاح

قال: وقلت ببَنْيُونِشَ موضع الفرجة بسَبْتَةَ: [مجزوء الكامل]

إِشْـرَبْ عـلى بَـنْـيُـونِشٍ بين الـسـوانـي[3] والـبـطـاحْ
مَـعَ فِـتْـيَـةٍ مـثـلِ الـنـجـو مِ لـهـمْ إذا مَـرُّوا جـمـاحْ
سـاقـيـهـمُ مُـتَـبَـذِّلٌ لا يـمـنـعُ الـمـاءَ الـقَـراح
كـلٌّ يـمـدُّ يَـمِـيـنَـهُ مـا في الـذي يـأتي جُـنَـاح[4]
هَـبُّـوا عـلـيـه كـلّمـا هَبَّتْ علـى الـروض الـريـاح
طَـوْعُ الأمـانـي كـلّ مـا يـأتـي بـه فَـهْـوَ اقـتـراح
عـانَـقْـتُـهُ حـتـى تَـرَكْـتُ بِـخَـصْـره أَثَـرَ الـوشـاح

وقلت بإشبِيلِيَةَ: [مخلع البسيط]

أَوَجْـهُ صُـبْـحٍ أمِ الـصَّـبـاح؟ ولَـحْـظُهَـا أم ظُـبَـا الـصـفـاحْ
وثَـغْـرهـا أم نـظيـمُ دُرٍّ ورِيـقُـهـا أم سُـلافُ راحْ

(١) اللواح: أصلها: اللواحي وهي جمع اللاحية وهي اللائمة. لسان العرب (لحا).
(٢) في طبعة بولاق: «ما شاءه».
(٣) السواني: جمع سانية وهي الساقية أو الناعورة. محيط المحيط (سنا).
(٤) الجُناح، بضم الجيم: الإثم. لسان العرب (جنح).

وقَـدُّهـا أم قَـوَام غُـصْـنٍ وعَـرْفُـهـا أم شَـذَا الـبِـطاحْ
يـا حَـبَّـذا زَوْرَةٌ تـأتَّـتْ مـنـهـا عـلى غـفـلةِ الـلُّواحْ
فـلم أُصَـدِّقْ بـهـا سـرورًا وظَـلْتُ نَـشْـوانَ دون راح
أمـا مَـنَـعْـتِ الـسـلامَ دهـرًا ولا رسـولٌ سـوى الـريـاحْ
قـالـت: ألَا فـانْسَ مـا تـقَـضَّـى فـمن يَـدَعْ مـا مضى استـراح
يـا حـبّـذاهـا وقـد تـأتَّـتْ مِـنْ دونِ وَعْـدٍ ولا اقـتـراح
زارتْ ومـنْ نُـورِهـا دلـيـلٌ والـليـلُ قـد أسْبَـلَ الـجَـنـاحْ
أخْـفَـتْ سُـراهـا فـبـاحَ نَـشْـرٌ لـهـا بِـعَـرْفٍ فَـشَـا وفـاحْ
وافَـتْ فـأَمْـسَـى فـمي مُـدامًـا وسـاعـداي لـهـا وِشـاحْ
كـأنـمـا بِـتُّ بـيـن روضٍ والـغـصـنِ والـوَرْدِ والأقـاحْ
فـبينمـا الـشَّمْـلُ في انـتـظامٍ إذ سـمعـتْ داعـي الـفـلاح[1]
فـغـادرتـنـي فـقـلْتُ: غَـدْرًا؟ قـالـت: أمَـا تحـذرُ افـتـضـاحْ
وَلَّـتْ ومـا خِـلْتُ مِـنْ صَبَـاحٍ يَـبْـدو عـلى إثْـرِهِ صـبـاحْ

قال: وقلت بتُونُس: [السريع]

لا مَـرْحَـبًـا بـالتِّـينِ لَـمَّـا بَـدَا يَسْحَبُ مِنْ ليـلٍ عليه الـوشـاحْ
مُمَـزَّقُ الجلبـاب يَحْكي ضُـحًى هـامَـةَ زنـجيٍّ عـليـهـا جِـراحْ
وإنْ تُـصَـحِّـفْـه فـلا حَـبَّـذا مـا قـد أتى تصحيفـه بـانـتـزاح[2]

وقلت بالجزيرة الخضراء، وقد كُلِّفْتُ ذلك: [الطويل]

غـرامي بـأقـوال العِـدَا كيف يُنْسَـخُ؟ وعَهْـدِي وقـد أحْكَمْتُـهُ كـيف يُـفْسَـخُ
كـلامُكُمُ لا يَـدْخُـلُ السَّمْـعَ نُصْحُـهُ ولـكنْ إذا حَـرِضْتُـمُ[3] فَـهْـوَ يـرسـخ
وبـي بَـدْرَ تِمٍّ قـد ذلـلتُ لحـسـنـه فـمنْ ذا الـذي فـيمـا أتـيتُ يـوبِّـخُ
إذا خـاصـمـوني فـي هـواه خَصَمْتُهُمْ ويـبغـون تـنقيصي بـذاك فـأَشْمَـخُ
أرى أنَّ لـي فـضـلًا عـلى كـلِّ عـاشـقٍ فـقـصّـتـنـا فـي الـدهـر مِـمّـا يُـؤرَّخُ
فـمـا بَـشَـرٌ مِـثْـلُ لـه فـي جـمـالـه ووجـدي بـه فـي العِشْـقِ لـيس لـه أخ

(١) سمعت داعي الفلاح: أي سمعت أذان الصبح.
(٢) تصحيف «التِّين» هو «البَيْن» وهو الفراق.
(٣) حَرَضَ الرجلُ: كان مُضْنًى مرضًا وسقمًا. محيط المحيط (حرض).

وقلت بالإسكندرية، وقد تَعَذَّر عليَّ الحجُّ عند وصولي إليها سنة تسع وثلاثين وستمائة: [الكامل]

قَرُبَ المَزارُ ولا زمانٌ يُسْعِدُ ... كَمْ ذا أقرِّبُ ما أراه يَبْعُدُ
وارَحْمَةً لِمُتَيَّمٍ ذي غُرْبَةٍ ... ومَعَ التغرُّبِ فاتَهُ ما يَقْصِدُ
قَدْ سار مِنْ أقصى المغاربِ قاصدًا ... مَنْ لَذَّ فيه مسيرُهُ إذ يَجْهَدُ
فلكم بِحارٍ مَعْ قفارٍ جُبْتُها ... تَلْقَى بها الصمصامَ[1] ذُعْرًا يرعد
كابدْتُها عَرَبًا ورُومًا، ليتني ... إذ جُزْتُ صَعْبَ صِراطها لا أُطْرَدُ
يا سائرين ليَثْرِبٍ بُلِّغْتُمُ ... قد عاقني عنها الزمانُ الأنكَدُ
أَعَلِمْتُمُ أنْ طرتُ دون محلِّها ... سَبْقًا وها أنا إذ تدانى مُقْعَدُ
يا عاذِلِي فيما أكابدُ قلْ في ... ما أبتغيه صَبَابةٌ وتَسَهُّدُ
لم تَلْقَ ما لقيتُهُ فعذلتني ... لا يَعْذِرُ المشتاقَ إلَّا مُكْمَدُ
لو كُنْتَ تعلمُ ما أرومُ دُنُوَّه ... ما كنتَ في هذا الغرام تُفَنِّدُ[2]
لا طابَ عيشي أو أحلَّ بطيبةٍ ... أُفُقٌ به خيرُ الأنامِ محمدُ
صلَّى عليه مَنْ بَرَاه خِيرَةً ... مِنْ خلقِهِ فهو الجميعُ المفرَدُ
يا ليتني بُلِّغْتُ لَثْمَ ترابِهِ ... فيزاد سعدًا مَنْ بنعمى يَسْعَدُ
فهناك لو أُعْطَى مُنَايَ محلَّةً ... من دونها حَلَّ السُّهَا والفرقد
عيني شكتْ رَمَدًا وأنتَ شفاؤها ... مِنْ دائها ذاك الثرى لا الإثْمِدُ
يا خيرَ خلقِ اللّٰه مهما غِبْتُ عن ... علْيا مشاهدها فقلبي يَشْهَدُ
ما باختيارِ القلبِ يترك جِسْمَهُ ... غِيَرُ[3] الزمانِ له بذلك تَشْهَد
يا جَنَّةَ الخُلْدِ التي قد جِئْتُها ... من دون بابِكِ للجحيمِ تَوَقُّدُ
صَرَمَ التواصلَ ذُبَّلٌ وصوارمٌ ... ما للجليدِ على تَقَحُّمِها يد[4]
فلئنْ حُرِمْتُ بلوغَ ما أَمَّلْتُهُ ... فلديَّ ذكرى لا تزالُ تَرَدَّدُ
فلتنعشوا مني الذَّمَاء[5] بذكره ... ما دمْتُ عن تلك المعالم أُبْعَدُ

(١) الصَّمْصام: السيف. محيط المحيط (صمصم).
(٢) فَنَّدَهُ: خطّأ رأيه أو كَذَّبه. لسان العرب (فند).
(٣) غِيَرُ الزمان: نوازله وكوارثه. لسان العرب (غير).
(٤) الذُّبَّلُ: الرماح. الجليد: ذو الجَلَد والقوة. تَقَحَّمَ: خاض. لسان العرب (ذبل) و (جلد) و (قحم).
(٥) الذَّماء، بفتح الذال: بقية الروح في الجسد. لسان العرب (ذمأ).

لـولاهُ مـا بـقيتْ حيـاتي سـاعـةً / هُـوَ لـي إذا متُّ اشتيـاقًـا مـولـد
ذكـرٌ يـليـه من الـثنـاءِ سحـائبٌ / أبـدًا عـلى مَـرِّ الـزمـان يُـجَـدَّدُ
مَنْ ذا الـذي نـرجـوه لليـوم الـذي / يُقْصَى الـظَّماءُ بـه ويُحْمَى المـوردُ
يـا لَـهْفَ مَنْ وافَى هـنـاك ومـا لـه / مِـنْ حُـبِّـه ذخـرٌ بـه يـتـزوّد
مـا أرتـجي عـمـلاً ولـكنْ أرتـجي / ثِـقتي بـه ولَحَسْبُ مَـنْ يتـزوّد
مـا صَـحَّ إيـمـانٌ خَـلا مِنْ حُبِّـه / أبِـلَا ريـاشٍ يَسْتَعِـدُّ مُهَـنَّـدُ؟!
عـن ذكـره لا حُلْتُ عـنـه لحـظةً / ومـديحُـه في كـلِّ حفـلٍ أسْـرُدُ
يـا مـادحي يـبـغي ثـوابًـا زائـلاً / فثـوابُ مَـدْحي في الجِنـان أُخلَّدُ
لـولا رسـولُ الـلَّه لم نَـدْرِ الـهُـدَى / وبـه غـدًا نـرجـو النَّجـاة ونسعـد
يـا رحمـةً للعـالـمين بُعِثْتَ والـدْ / دُنْيـا بجنـح الكفـر ليـلٌ أربـد(١)
أطْلَعْتَ صُبْحًـا سـاطعًـا فهَـدَيتَ للـ / إيمـان إلَّا مَـنْ يَحيـدُ ويَـجْحَـدُ
لـم تَخْشَ في مـولاك لـومـةَ لائـمٍ / حتى أقـرَّ بـه الـكَفُـورُ المُـلْحِـد
ونَـصَـرْتَ ديـن الـلَّه غـيـرَ مُحـاذرٍ / ودَعَوتَ في الأخرى الأُلى قـد أصْعَدُوا
ولـقيـتَ مـن حـرب الأعـادي شـدّةً / لـو كـابـدوهـا سـاعـةً لَتَبَـدَّدوا
أيّـانَ لا أحـدٌ عـليـهـمْ عـاضِـدٌ / إلَّا الإلّـه ولـم يَـخُنْ مَـنْ يَـعْـضُـدُ
فحمـاك بـالغـارِ الـذي هـو من أدلْ / ـلِ المعجـزات وخابَ مَنْ يَتَـرَصَّـدُ
ووقـاك مِـنْ سَـمِّ الـذراع بـلطفـه / كيمـا يُغـاظَ بـك العـدا والحُسَّـدُ
والجـذعُ حَنَّ إليـك والمـاء انهمى / مـا بين خمسِكَ والصحـابةُ شُهَّـدُ
والـذئـبُ أنْـطِقَ للذي أضـحى بـه / يُهْـدَى إلى سبـل النجـاح ويـرشـد
وبِـلَيلَةِ الإسـرا حَبَـاك وسمي الصّـ / ـصِـدِّيقَ مَنْ أضحى لقـولـك يُسْعِدُ
وحَبَـاك بـالخُلُقِ العـظيمِ ومعجـز الـ / ـكـلمِ الـذي يُهْـدى بـه إذ يـورد
وبُـعِثْتَ بـالقـرآن غيـر معـارَضٍ / فيـه وأَمْسَى مَـنْ نَحَـاه يـعـرِّدُ(٢)
فـتـوالتِ الأحـقـابُ(٣) وهـو مبـرّأ / مـن أن يـكـون لـه مثـالٌ يُـوجَـدُ
ولَكَمْ بليـغٍ جـالَ فَصْـلَ خـطابِـهِ / والسُّرْجُ في ضـوء الغَـزَالـة تَهْمـد(٤)

---

(١) الليلُ الأَرْبَدُ: الأسود المظلم. لسان العرب (ربد).
(٢) نَحاهُ: قَصَدَهُ. يُعَرِّدُ: يفرُّ. محيط المحيط (عرد).
(٣) الأحقاب: جمع حقبة وهي الفترة من الزمن. لسان العرب (حقب).
(٤) الغزالة: الشمس. لسان العرب (غزل).

زُوِيَتْ لكَ الأرضُ[1] التي لا زال حَتْـ ... ـتَى الحشر رَبُّك في ذُراها يُعْبَدُ
ونُصِرْتَ بالرعبِ الذي لمَّا يزلْ ... يَثْرَى كأنْ ما عين شخصك تفقدُ
فمتى تَعَرَّضَ طاعنٌ أو حادَ عن ... حَرَمِ الهدايةِ فالحُسامُ مُجَرَّدُ
يا من تُخُيِّرَ مِنْ ذؤابةِ هاشمٍ ... نِعْمَ الفخارُ لها ونِعْمَ المَحْتِدُ
لِسَنَاكَ حين بَدَا بآدمَ أقبلتْ ... رعيًا لأخراه الملائكُ تسجد
لم أستطع حَصْرًا لما أعطيته ... فذكَرْتُ بعضًا واعتذاري منشد
ماذا أقول إذا وصفتُ محمدًا ... نَفِدَ الكلامُ ووصْفُهُ لا يَنْفَدُ
فعليك يا خيرَ الخلائقِ كلِّها ... منّي التحيةُ والسلامُ السرمد

قال: وقلت بإشبِيلِيَّة: [مجزوء الرجز]

هل تمنع النهودُ ... ما أَبْدَتِ الخدودُ
نَعَمْ وكم طعينٍ ... بطعنها شهيدُ
يا رَبَّةَ المُحَيَّا ... خَفَّتْ به السعودُ
لم تُسكِرِ الحُمَيَّا ... بل رِيقُكِ البَرُودُ
للَّه يا عذولي ... ما تَكْتُمُ البُرُودُ
ما زلت فيه أفنى ... والوَجْدُ مستزيد
يا هل ترى زمانًا ... مضى لنا يعود
لدى العروس[2] سَقَّتْ ... جنابها العهودُ
حيث الغصون مالتْ ... كأنها قُدُودُ
وزهْرُها نظيمٌ ... كأنه عُقُودُ
حمامُها تغني ... أعطافُها تميدُ
وبالنسيم شُقَّتْ ... لنهرها بُرُودُ
فُرُوعُهُ سيوفٌ ... وسُورُهُ بُنُود[3]
هناك كم دَعَتْني ... إلى الورود رُودُ[4]

---

(١) زُوِيتْ لك الأرضُ: قبضت وجمعت. لسان العرب (زوا).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «الغروس». والعروس: من متنزهات إشبيلية.

(٣) البُنُودُ: جمع بَنْد وهو العَلَمُ. لسان العرب (بند).

(٤) الرُّودُ، بضم الراء وسكون الواو: الشابة ذات الدلّ والخفر. لسان العرب (رود).

فنلْتُ كلَّ سُؤْلٍ　　يَفْنَى به الحسود
قَضَيتُ فيه عَيشًا　　ما بَعْدَهُ مزيد
أُضْحِي به وأُمْسي　　مُرَنَّحًا أميد
كأنني يزيدُ　　كأنني الوليد
يجري الزمانُ طَوعي　　بكلِّ ما أريد
الخمرُ مَلَّكَتْني　　فالخلقُ لي عبيد
يحقُّ لي إذا ما　　أَبْصَرْتُها تجود[1]
فها أنا إذا ما　　فَقَدْتُها فَقِيدُ
يا مَنْ يلومُ بَغْيًا　　العَذْلُ لا يُفِيدُ
إذا عَدِمْتُ كأسي　　فليس لي وجود

قال: وقلت بإشْبِيلِيَةَ: [الكامل]

أو ما نظرتَ إلى الحمامة تُنْشِدُ　　والغصنُ مِنْ طَرَبٍ بها يتأوَّدُ[2]
ونِثارُهُ تلقاه[3] جائزة لها　　لَمَّا يزلْ بيد النسيم يُبَدَّدُ
ألقى عليها الطَّلُّ بُرْدًا سابغًا[4]　　فثناؤه طولَ الزمان يُرَدَّدُ
أترى الحمامةَ مِنْ مُحِبٍّ مخلصٍ　　أولى بشكرٍ حين تَغْمُرُهُ يَدُ
فَلأُثْنِيَنَّ عليك ما أثنى بأعـ　　ـلى الغصن حَنَّانُ الهديل مغرِّد
كم نعمةٍ لي في جنابك؟ كم أُكا　　بِدُ جهدها؟ أيَّان برِّك يجهدُ

وقال: [الطويل]

أرى العَينَ منِّي تحسدُ الأُذْن كلّما　　جَرَتْ مدحةٌ للعلم والفضلِ والمَجْدِ
أُحَقِّقُ أنباءً ولم أَرَ صورةً　　كتحقيقيَ الأخبارَ عن جنّة الخُلْدِ
فَمُنَّ على عيني بلقياكَ إنني　　أخذْتُ لها أمْنًا بذاك من السُّهْد

---

(١) في طبعة ليدن: «سجود».
(٢) يتأوّد: يتلوّى ويتمايل. لسان العرب (أود).
(٣) في طبعة دار صادر: «ألقاه».
(٤) سابغًا: طويلاً واسعًا. لسان العرب (سبغ).

قال: وقلت أمدح ابن عمي وأشكره، على ما أذكره: [الخفيف]

آه مِمّا تكنُّ[1] فيكَ الجوانحْ ... ودموعي على نَواك سوافحْ
واشتفاءُ من العدوّ ببينٍ ... كَدَّرَ العَيشَ، أيُّ عَيْشٍ لنازحْ
يا أتَمَّ الأنامِ حُسْنًا، أما تحـ ... ـسنُ حتى يتمَّ إطراءُ مادحْ
يا زمانَ الوصال عَوْدًا فإنِّي ... طَوَّحَتْ بي، لمّا غَدَرْتَ، الطوائح[2]
أين عيشُ العروس إذ يسطح السكـ ... ـرُ حبيبي ما بين تلك الأباطحْ[3]
والأماني تترى ولا أحدٌ ينـ ... ـصَحُ إذ لا يُصْغَى إلى قولِ ناصحْ
وزمانُ السرورِ سَمْحٌ مطيعٌ ... ورسولُ الحبيب غادٍ ورائحْ
ولَكَمْ ليلةٍ أتاني بلا طيـ ... ـبٍ ولكنْ يزري بأذكى الروائح
هو ظبيٌ فليس يحتاجُ طيبًا ... قد كفاه عَرْفٌ مِنَ المِسْكِ فائح
مثلُ عليا محمدٍ لم تكن كسـ ... ـبًا وما لا يكون في الطبع فاضح
يا كريمًا أتى مِنَ الجُود ما لا ... كان يُدْرى فأوْجَدَتْهُ المدائحْ
وعَلاَ كلَّ ذي علاءٍ وأضحى ... نحو ما لا يَرُومُهُ الناسُ طامح
قد أتاني إحسانُك الغمرُ في إثـ ... ـرِ سواه فكنتَ أكْمَلَ مادحْ
فاض بَحْرُ النوالِ منك ولا سا ... حلَ يبدو ولم أزلْ فيه سابحْ
حُلَلٌ مثل ما كَسَوْتُكَ في المد ... ح تُميتُ العِدَا ومالٌ وسائحْ[4]
أوْرَدَ الوَرْدُ[5] منطقي كلَّ شكرٍ ... حين أضحى طوع البنان مسامحْ
لونُ خدِّ الحبيبِ حين كَسَوْهُ ... حُلَّةَ الحسنِ بالعيون اللوامحْ
شَفَقٌ سال بَيْنَ عينيه صُبْحٌ ... حُسْنُهُ قيَّدَ اللِّحاظَ السوارحْ
لم أجدْ فيه مِنْ جماحٍ ولكنْـ ... ـنَ ثنائي عليكَ ما زال جامحْ

---

(١) كَنَّ الشيءَ: ستره وصانه، وأكَنَّ الشيءَ في نفسه: أسرّه. مختار الصحاح (كنن).
(٢) طَوَّحَ به: ذهب به هنا وهناك وبعّده في الأرض. والطوائح: جمع طائحة وهي المهلكة. لسان العرب (طوح).
(٣) الأباطح: جمع أبطح وهو البطحاء، أي هو المكان المتّسع المنبسط الذي يسيل فيه الماء فيخلف فيه التراب والحصى. لسان العرب (بطح).
(٤) في طبعة دار صادر: «وسابحْ».
(٥) الوَرْدُ: الفرس الورديّ اللون. لسان العرب (ورد).

لـكَ يـا ابنَ الحسين ذكـرٌ جميـلٌ   صَيَّـرَ الكُـلَّ نحـو بـابـك جـانـحْ
قـد هَـدَى نحـوك الثنـاءَ كمـا يَـهْـ   ـدي إلى الـروضِ باسمـاتُ النـوافـح
فـاعـذرِ النـاس أَنْ أتـوا لـك أفـوا   جًـا فكـلٌّ بقـصـدِ فـضـلِكَ رابـحْ
مـا هَـدَتْـهُـمْ إلـيـكَ إلَّا الأمـانـي   لـم تُحِـلْهُـمْ إلَّا عـليـك الـقـرائـح
قل لـذي المفخـرِ الحديث تـأخَّرْ   لـيس مُهْـرٌ في شـأوِهِ مثـلَ قـارح
أيُّ أصـلٍ وأيُّ فَـرْعٍ أقـامـا   شَـرَفًـا ظَـلَّ لـلنجـوم يـنـاطـح
قـد حَـوَتْ مـذحِجٌ من الفخـر لَمَّا   كنتَ منهـا مـا ليس يحـويـه شـارح
أُفْقُ مَـجْـدٍ قـد زانـه منـك بَـدْرٌ   في ظـلام الخـطوب مـا زال لائـح
بَـدْرُ تِـمٍّ حَـفَّـتْ بـه هَـالَـةٌ مـن   بيتِ مجـدٍ عَـلاَؤهـا الـدهـرَ واضحْ
يـا سمـاكًـا بِمَسْكِـهِ[1] القلَمَ الأعـ   ـلى بَـدَا بـين أنـجمِ الـمُلْكِ رامـح
رفـع الـلَّه لـلكـتـابـة قـدرًا   بعـد مـا كـابَدَتْ تـوالي الفضـائـح
يـا أعـزَّ الأنـامِ نَـفْـسًـا وأعـلا   هُـمْ مَـحَـلًّا لا زال أَمْـرُكَ راجـح
أيـن أعـداؤك الـذيـن رَعـى سـيـ   ـفُـكَ فيهمْ فـأشبهـوا قَوْمَ صـالـح[2]
أفسـد الـدهـرُ حـالهمْ لِيُـرَى حـا   لُـكَ رغمًـا بمن ينـاويك صـالحْ[3]
دُمْتَ في عـزَّة وسَعْـدٍ مـدى الـدَّهْـ   ـرِ ولا زالَ طـائـرٌ منـكَ سـانـح[4]

وابنُ عمِّه المذكور قال في حقّه في «المغرب» ما ملخّصُه[5]: إنـه الرئيس الأعلى، ذو الفضـائل الجمّـة، أبو عبـد اللَّه محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيـد بن الحسين[6] بن سعيد بن خلف بن سعيد، قـال: واجتماع نسبنـا مع هـذا الرئيس في سعيـد بن خلف، وهو الآن قد اشتمل عليه ملك[7] إفريقية اشتمال المُقْلَة على إنسانها، وقـدّمه في مهمّـاته تقـديم

---

(١) في طبعة ليدن: «بملكه القلم».
(٢) يريد أنهم أشبهوا قوم النبي صالح في الهلاك.
(٣) في طبعة ليدن: «صائح». وفي طبعة بولاق: «طائح».
(٤) الطير السانح والسنيح: الذي يُتَيَمَّن به. لسان العرب (سنح).
(٥) المغرب (جـ ٢ ص ١٦٨ ـ ١٦٩) والنص فيه مختلف كثيرًا عمّا هنا.
(٦) في المغرب: «الحسن».
(٧) هو أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حفص، أول من استقلّ من بني حفص بالملك بإفريقية ووطّد فيها أركانه؛ ملك إفريقية سنة ٦٢٥ هـ، وظلَّ يحكم حتى وفاته في عام ٦٤٧ هـ. فوات الوفيات (جـ ٤ ص ٢٩٣) وتاريخ ابن خلدون (م٦ ص ٥٩٣).

الصَّعْدة لسِنَانها[1]، وأقام لنفسه مدينةً حذاء حضرة تونس، واعتزل فيها بعسكر الأندلس الذين صَيَّرهم الملكُ المنصور إلى نظره، وهو كما قال الفتح صاحبُ القلائد «فقد جاء آخِرَهم، فجدّد مفاخرهم». ومن نظمه وقد نزل على من قدّم له مشروبًا أسودَ اللون غليظًا وخرُّوبًا وزبيبًا أسود، وزبيبًا كثير الغضون[2] جاءت به عجوز في طبق، فقال[3]: [المتقارب]

وَيَوْمَ نَزَلْنا بعبد العزيزِ ... فلا قَدَّسَ اللّهُ عبدَ العزيزِ
سقانا شرابًا كَلَوْنِ الْهِناء ... ونَقَّلَنَا بقرون العُنُوزِ[4]
وجاءتْ عجوزٌ فأهْدَتْ لنا ... زبيبًا كخيلان خَدِّ العجوز

ونزل السلطان أبو يحيىٰ [5] في بعض حركاته لموضع فيه نهر، وعلى شَطِّه نَوْرٌ[6]، فقال الرئيس أبو عبد اللّه بن الحسين يصفه أو أُمِرَ بذلك: [الطويل]

ونهرٍ يرفُّ الزهرُ في جَنَباتِهِ ... ويَثني النسيمُ قُضْبَهُ ويقنطرُ [7]
يسيل كما عَنَّ الصباحُ بأُفْقِهِ ... وإلاَّ كما شِيمَ الحُسامُ المجوهرُ
عليه ليحيىٰ قُبَّةٌ، هل سَمِعْتُمُ ... بقرصةِ شمسٍ حَلَّ فيها غضنفرُ
فإنْ قلتَ هذي قُبَّةٌ لِعُفَاتها ... فقلْ ذلك الوادي الذي سال كوثر

---

(١) الصَّعْدَةُ، بفتح الصاد وسكون العين: القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف. السِّنان: سِنان الرمح، والجمع أَسِنَّة. مختار الصحاح (سنن) و(صعد).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «الغضون».

(٣) الأبيات في المغرب (جـ٢ ص ١٦٩).

(٤) في المغرب: «وأنقلنا». وأنقلنا ونقَّلْنا: بمعنى، أي قدَّم لنا النُّقْلَ وهو ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب. الهِناء، بكسر الهاء: القَطِران. العُنُوزُ: جمع عَنْز. لسان العرب (هنأ) و(عنز) و(نقل).

(٥) السلطان أبو يحيىٰ هو عبد اللّه بن عبد الواحد الحفصي؛ كان أبوه أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد قد عقد له على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حماد، وولاّه عهده سنة ٦٣٨ هـ، ولكنه هلك سنة ٦٤٦ هـ قبل وفاة والده بسنة، فأصبح ولي العهد أخوه محمد بن يحيىٰ بن عبد الواحد وتلقّب بالمستنصر. تاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٦١٩ - ٦٢٦).

(٦) النَّوْرُ: الزَّهْر. لسان العرب (نور).

(٧) في طبعة دار صادر: «قُضْبَهُ فتأطَّرُ».

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك[1] بن سعيد المير اللخمي النشابي في ذلك: [الطويل]

وأرضٍ مِنَ الحَصْباءِ بيضاءَ قد جَرَتْ ... جداولُ ماءٍ دونها[2] تَتَفَجَّرُ
كما سَبَحَتْ تبغي الحياةَ أراقمٌ ... على روضةٍ فيها الأقاحُ المُنَوَّرُ
وإلَّا كما شَقَّتْ سبائكُ فِضَّةٍ ... بساطًا على حافاتِهِ الدُّرُّ يُنْثَرُ

وقال أبو علي يونس: [البسيط]

أُنْظُرْ إلى منظرٍ يَسْبِيكَ مَنْظَرُهُ ... ويزدهيكَ بإذنِ اللَّهِ مَخْبَرُهُ
ومُعْجبٍ مُعْجبٍ لا شيء يُشْبِهُه ... خريرُ ماءٍ نميرٍ ثَمَّ مَنْهَرُهُ
كأنما فُرِشَتْ بالدُّرِّ صَفْحَتُهُ ... فالماءُ ينظمُهُ طورًا ويَنْثُرُهُ
كأنَّ خُلْجانَهُ قُدَّتْ على قَدَرٍ ... بمائها قَسَمٌ يجري مُفَجِّرُهُ
أحلَّ سيدُنا المأمونُ قُبَّتَهُ ... بحوزِهِ فغدا يزدانُ جَعْفَرُهُ

رجع إلى ما كُنَّا فيه من أخبار الرئيس ابن الحسين، فنقول:

رأيت بالمغرب آخر كتاب «روح السحر» من نسخة ملوكية كتبت له أبياتًا علق بحفظي منها الآن ما نصُّه: [الرمل]

تمَّ رُوحُ السحرِ نسخًا[3] فأتى ... مُصْحَبًا باليُمْنِ والفخرِ البعيدْ
لأبي عبدِ الإلهِ المُرْتقي ... في ذرَا المجدِ الرئيسِ ابْنِ سعيدْ

ولم أحفظ تمام الأبيات.

وقال أبو الحسن علي بن سعيد: كتبت إليه من أبيات بحضرة تونس وقد نَقَلَ إليه بعض الحُسّاد ما أوجب تغيُّره: [الطويل]

ومِنْ بَعْدِ هذا قد أتيْتُ بزَلَّةٍ ... أما حَسَنٌ أنْ لا تضيقَ بها صَدْرا
وعِلْمُكَ حسبي بالأمور فإنّني ... عهدْتُكَ تدري سرَّ أمريَ والجَهْرا
وقد أصلحَ اللَّهُ الأمورَ بسعيكُمْ ... ونيّتكمْ صُلْحًا على البِشْرِ والبُشْرى

---

(١) في طبعة دار صادر: «مالك بن سيد أمير اللخمي الشابي في ذلك».
(٢) في الطبعة نفسها: «ماءٍ فَوْقَها».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «نسخًا».

ولـم يَـبْـقَ لـي إلاّ رضـاكَ فـإنْ بـه كَتَبْتَ ولـو حـرفًـا أطبْتَ بـه العمـرا[1]
فـبُقِّيـتَ كَـهْـفًـا لـلجـمـيـع ومـوئـلاً ولا زلْـتَ مـا دام الـزمـانُ لـنـا سـتـرا

فكتب إليَّ هذه الأبيات، وكان متمرِّضًا، وبعث إليَّ بما يذكر: [الطويل]

أكُفُّ الصَّبـا حَفَّتْ جَنَى زَهَـرِ الـرُّبـا سؤالـك عن مُضْنًى[2] يسامي بـك الزَّهْـرا
بَعَثْتَ بمثـلِ الـزَّهْـرِ في مثـلِ صفحـةٍ لـذلـك مـا قَلَّدْتَهـا الشَّـذْرَ[3] والـدُّرّا
مـعـانٍ لهـا أعْـنُـو وأُعْنِـي بـهـا فكـم وقفتُ عليهـا العَينَ والسَّـمْـعَ والفِـكْـرا
فـلو عـرضتْ لـلبحـر لـم يـلفظِ الـدُّرّا ولـو عـارضتْ هـاروتَ لم ينفثِ السِّحْـرا
أبـا حـسن، هَنِئْتَ مـا قـد مُنِـحْـتَـهُ ضـروبًـا من الآداب تُحْلي بهـا الـدهـرا
ودونـك بـحـرًا مـن ودادي تـلاطـمـتْ بـه زاخـراتُ المَـدِّ لا يعـرفُ الجَـزْرَا
فـإنْ خـطرتْ في جـانبٍ منـك هفـوةٌ فـلا تـحسبنْ أنـي أضيـقُ بـهـا صَـدْرا
يـزلُّ الـجـواد عنـد مـا يـبلغُ الـمَـدَى ويعثـرُ بـالـرِّمْثِ[4] النسيمُ إذا أسـرى
فَـدَعْ ذا وخُـذْهـا شـائبـاتٍ قـرونهـا عَـرُوبًـا لَعُـوبًـا جـائزًا حكمهـا بكـرا
ولـو غـادرتْ أوصـافُـهـا مُـتَـرَدِّمًـا لَـشَنَّـفْتُ مـن أشعـارهـا أُذُنَ الشِّـعْـرا
ألاَ فـاحْـجُبَـنْهَـا عـن صـديقٍ مُـعَمَّـمٍ فـإنَّ قُصارى الغمـر[5] أن يبكي العمـرا
ومـن كـان ذا حِـجْـرٍ ونُـبْـلٍ ورقّـةٍ فـلا يخلونْ إلاَّ على الخمـرة الحَـمْـرا
قـرنْتُ بهـا صفـراءَ لم تعـرفِ الهـوى ولا ألـفتْ وَصْـلاً ولا عـرفتْ هـجـرا
ولا ضُمِّخَتْ نضـخَ العبيـرِ وإنْ غَـدَتْ تُـؤخِّـرُهُ لـونًـا وتَـفْـضَـحُـهُ نَـشْـرا
فـإنْ خِـلْتَـهـا بِـنْتَ الـظليـم أظَلَّـهـا فقـد فَـرَشَ الإذْخِـرِ مِنْ تحتهـا تِبْـرا[6]
لـهـا نَـسَـبٌ بـيـن الـثُّـرَيَّـا أو الـثـرى وسـلْ بـرُبـاهـا المُـزْنَ والغُصْنَ النَّضْـرا
فَشُـرْبًـا دِهَـاقًـا وانتـشـاقًـا ولا تَـرِمْ عن البيتِ فِـتْـرًا[7] أو تقيمَ بـه شَـهْـرا

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «لي العُمْرا».
(٢) في طبعة دار صادر: «عن نِضْوٍ».
(٣) الشَّذْرُ: ما يُلْقَطُ من الذهب. مختار الصحاح (شذر).
(٤) الرِّمْثُ: مرعى للإبل من الحمض. لسان العرب (رمث).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «العمر».
(٦) الظليم: ذكر النعام. الإذْخِر: نبات طيب الرائحة. لسان العرب (ظلم) و (ذخر).
(٧) الفِتْرُ: ما بين طرف الإبهام وطرف السَّبّابة إذا فتحتهما. محيط المحيط (فتر).

وله في الخشكلان[1]: [المجتث]

هــو الأهِـلَّة لـكــنْ تَــدْعُــونَــهُ خشْكـلانــا
فــإنْ تـفــاءلْـتَ صَـحِّـفْ تَـجِـدْ: حـبـيـبــك لانــا

انتهى باختصار.

وحَظِي المذكور جدًّا عند السلطان ملك إفريقية أبي زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حَفْص، ولمَّا مات السلطان المذكور، وحَدَثَتْ فتنة بموته واختلاف، ثم استقرَّتِ الدولةُ لابنه الشهير الكبير القدر أبي عبد اللّٰه المستنصر[2] ممدوحِ حازم[3] بالمقصورة، وقاتلِ ابن الأبار القضاعي ـ سخط على الرئيس ابن الحسين المذكور، وقبض على دياره وأمواله، وصيّره كالمحبوس، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة، فأحضره، وسأله فأخبره بأنّ أباه صنع دارًا عظيمة تحت الأرض، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عُـدَّة وذَخيرة لسلطانه، ولم يترك على وجه الأرض مَنْ له علم بهذا الموضع الذي أودعه نفائس أمواله غيري، وأوصاني أنه إذا انتقل إلى جوار ربّه، إذ توقّع أن تقع فتنة بين أقاربه، أنه إذا انقضت سنة واستقرّ الأمر لأحد من ولَدِي أو من يتيقّن أنه يصلح لأمور المسلمين، فأطلعه على هذه الذخائر، فربما فنيت الأموال بالفتنة، فلا يجد القائم بالأمر ما يصلح به الدولة إذا تفرغَ للتدبير والسياسة، ففرح السلطان، وبادر إلى تلك الدار، فرأى ما ملأ عينه، وسرَّ قلبه، وخرج الرئيس ابن الحسين والخيلُ تجنب أمامه، وبِدَرُ الأموال بين يديه، وأعاده إلى أحسن أحواله، وجعله وزيرًا لديه، كما كان أبوه مفوِّضًا أموره إليه، وقال السلطان: إن

---

(١) الخشكلان: أصلها فارسي (بالفارسية: خشك نان) وهو نوع من الخبز في شكل هلالي.

(٢) هو المستنصر الأول محمد بن يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حفص؛ بويع له بتونس بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧ هـ، وتوفي سنة ٦٧٥ هـ. تاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٦٢٦).

(٣) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الأنصاري القرطاجني، نسبة إلى قرطاجنة الأندلس التابعة لكورة تدمير في شرقي الأندلس. توفي سنة ٦٨٤ هـ. اختصار القدح المعلى (ص ٢٠) وبغية الوعاة (ص ٢١٤) وأزهار الرياض (جـ٣ ص ١٧٢). والمقصورة ألّفها حازم للمستنصر الحفصي، وقصر محاسنها على مدحه ومدح أخيه أبي يحيىٰ، ومطلعها: [الرجز]

لـلّٰه مـا قـد هـجْـتَ يـا يـوم الـنـوى عـلى فـؤادي مـن تـباريـح الـجَـوَى

وقد شرح هذه المقصورة أبو القاسم الشريف الحسني القاضي بغرناطة وسمَّى شرحه: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة». وهذه المقصورة لم ترد في ديوان حازم القرطاجني الذي حقّقه الأستاذ عثمان الكعاك.

مِنْ أوجَبِ شكر اللّه عليَّ أن أفتتح المال بأن أؤدِّي منه للرعيّة الـذين نُهِبَتْ دُورُهم واحترقت في الفتنة التي كانت بيني وبين أقاربي ما خسـروه، وأمر بـالنداء فيهم، وأحضـرهم وكلُّ مَنْ حلف على شيء قَبَضه وانصرف.

وكـان السلطان المستنصر المـذكور في بعض متصيّـداته فكتب لأبي عبـد اللّه الـرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله: [الوافر]

لِـيَحْـضُــرْ كـلُّ لَيْـثٍ ذي مـنــالِ ... زَكَــا فَـرْعًــا لإسـداء الـنَّــوالِ
غــدًا يــومَ الخميس فمــا شُغِلْنَــا ... بـأُسْدِ الـوَحْشِ عن أُسْدِ الـرجـالِ

وحكي أن السلطان المذكور عَرَض مرّة أجناده، وقيل: بـل سلَّم عليه المـوحدون يـوم عيد بتونس، وفيهم شاب مليح وَسيم آسمُ جدِّه النعمان، فسأله السلطانُ عن اسمه، وأعجبه حسنه، فخجل واحمرَّ وجهه، وازداد حسنًا، فقال السلطان هذا المصراع: [الكامل]

كلَّمْتُـه فكَلَمْتُ[1] صَفْـحَـةَ خَـدِّهِ

وسأل من الحاضرين الإجازة، فلم يأتوا بشيء، فقال السلطان مجيزًا شطره:

فَتَفَتَّحَتْ فيـهــا شقــائـقُ جَــدِّهِ[2]

وهذا من البديع[3] مع ما فيه من التورية والتجنيس.

ومما نسبه له أبو حيان بسنده إليه: [الكامل]

ما لي عَلَيْـكَ سـوى الـدُّمُــوعِ مُعِينُ ... إن كنتَ تَغْـدِرُ في الهــوى وتخـونُ
مَنْ مُنْجِـدِي غيـرُ الـدمــوع وإنّهــا ... لَمُغِيثَــةٌ مَـهْـمَــا اسْتغـاثَ حَـزِيـنُ
الــلَّه يَـعْـلَـمُ أنَّ مــا حَــمَّـلتـنــي ... صَـعْـبٌ ولٰـكِـنْ فـي رضــاك يَـهُــونُ

وكان للسلطان المذكور سَعْدٌ يُضْرَب به المثـل، حتى إنه كتب لـه صاحب مكـة البيعة من إنشـاء ابن سبعين المتصوّف، كمـا ذكر ذلـك ابن خلدون في تاريخـه الكبيـر[4]، وسـرد نصَّها، وهي من الغرائب.

---

(١) كَلَمْتُ: جَرَحْتُ. لسان العرب (كلم).

(٢) الشقائق: شقائق النعمان وهو زهر أحمر. الجَدُّ، بفتح الجيم: الحظّ. لسان العرب (شقق) و (جدد).

(٣) في طبعة دار صادر: «من البدائع».

(٤) تاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٦٣٤).

ومن سعده أن الفرنسيس الذي كان أُسِرَ بمصر وجُعِل في دار ابن لُقْمَان والطواشي صَبيح يحرسه لَمَّا سُرِّحَ جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع قط مثله، حتى قيل: إنهم كانوا ألف ألف، فكتب إليه أهل مصر مِنْ نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التي منها: [السريع]

قُلْ للفرنسيس إذا جِئْتَهُ مَقَالَةً من ذي لِسَانٍ فصيحْ

إلى أن قال:

دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ على حالها ومِصْرُ مِصْرٌ والطَّواشي صَبيحْ

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسْرُدْها، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر: [الخفيف]

أفرنسيسُ، تونسٌ أختَ مصرٍ فتأهَّبْ لِمَا إليه تَصِيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قَبْرٌ وطَوَاشِيكَ مُنْكرٌ ونَكِيرُ

فقضى اللّٰه سبحانه وتعالى أنه مات في حركته لتونس، وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قطّ، ويقال: إنه دسَّ إليه سَيفًا مسمومًا منْ سَلَّه أثر فيه سمّه، وقَلده رسولاً إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره، وقال للرسول: إن الفرنسيس رجل كثير الطمع، ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره، وإنه سيرى السيف، ويُكْثر النظر إليه، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقَبِّلْه، وقُلْ له: هذا هدية مني إليك؛ لأنَّ من آدابنا مع ملوكنا أن كلَّ ما وقع نظر الملك عليه وعاوَدَ النظر إليه بالقصد فلا بدَّ أن يكون له، ويحرم علينا أن نمسكه؛ لأنَّ ما أحبّه المولى على العبيد حرام، وتكرار[1] النظر إليه دليل على حُبِّه له، ففرح النصراني بذلك، وأسرع الرسول العَود إلى سلطانه، فسلَّ النصرانيُّ السيف، فتمكَّن فيه السمّ بالنظر، فمات في الحين، وفرّج اللّٰه تعالى عن المسلمين.

رجع إلى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد:

قال ابن العديم في تاريخ حلب: أنشدني شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف

(١) في طبعة دار صادر: «وتكراره».

التيفاشي[1] بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغَرْنَاطي يشير إلى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسمّاه «المغرب»: [الخفيف]

سَعِدَ الغَرْبُ وازْدَهَى الشرقُ عُجْبًا ... وابتهاجًا بمُغْرِبِ ابن سعيدِ
طلَعَتْ شمسُه من الغرب تُجْلَى ... فأقامت قيامَةَ التقييد
لم يَدَعْ للمؤرِّخين مقالاً ... لا ولا للرُّواة بَيتَ نشيد
إنْ تلاه على الحَمامِ تَغَنَّتْ ... ما على ذا في حُسْنِهِ مِنْ مَزِيدِ

وأنشدني أبو العباس التِّيفاشي لنفسه فيه: [البسيط]

يا طَيِّبَ الأصل والفَرْعِ الزكيِّ كما ... يبدو جَنَى ثَمَرٍ مِنْ أطيب الشَّجَرِ
ومَنْ خلائقُه مثلُ النسيمِ إذا ... يَهْفُو على الزَّهْر حول النهر في السَّحَر
ومَنْ مُحَيَّاه واللَّهُ الشهيدُ إذا ... يبدو إلى بصري أَبْهَى من القمر
أَثْقَلْتَ ظهري ببِرٍّ لا أقوم به ... لو كنت أتلوه قرآنًا مَعَ السُّوَرِ
أَهْدَيْتَ لي الغَرْبَ مجموعًا بعالمه ... في قاب قوسين بين السمع والبصر
كأنني الآن قد شاهدْتُ أَجْمَعَهُ ... بكلِّ مَنْ فيه من بَدْو ومن حَضَرِ
نعم ولاقيتُ أهلَ الفَضْلِ كُلَّهُمُ ... في مُدَّتِي هذه والأَعْصُرِ الأُخَرِ
إن كنتُ لم أَرَهُمْ في الصَّدْرِ مِنْ عُمُري ... فقد رددتَ عليَّ الصَّدْرَ مِنْ عمري
وكنتَ لي واحدًا فيهمْ جميعهمُ ... ما يُعْجِزُ اللَّهَ جمعُ الخلق في بشر
جُزِيتَ أفضلَ ما يُجْزَى به بَشَرٌ ... مفيدَ عُمْرٍ جديدِ الفَضْلِ مبتكرِ

ومن نظم أبي الحسن بن سعيد قوله: [الكامل]

وعَشِيَّةٍ بَلَغَتْ بنا أيدي النَّوَى ... منها محاسنَ جامعاتٍ للنُّخَبْ
فحدائقٌ ما بينهنَّ جَدَاولٌ ... وبلابلٌ فوق الغصون لها طَرَبْ
والنَّخْلُ أمثالُ العرائسِ لُبْسُها ... خَزٌّ وحِلْيَتُها قلائدُ مِنْ ذَهَبْ

(1) هو أبو الفضل وأبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن سعد القيسي القفصي التيفاشي، نسبة إلى تيفاش إحدى قرى قفصة بالجزائر. هاجر إلى القاهرة وتعلّم فيها ثم عاد إلى بلده تيفاش وتولّى فيه القضاء. من مؤلفاته كتاب «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب»، وقد اختصره ابن منظور وسماه «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس»، وقد حقّقه الدكتور إحسان عباس. توفي سنة ٦٥١ هـ. ترجمته في الوافي بالوفيات (جـ ٨ ص ٢٨٨) ومقدمة كتابه «سرور النفس» بقلم المحقق الدكتور إحسان عباس.

ومن نظمه رحمه اللّٰه تعالى في حلب قوله: [الخفيف]

حادِيَ العِيْس، كم تنيخُ المَطَايا سُقْ فروحي مِنْ بعدهمْ في سياقِ
حَلَبٌ إنها مَقَرُّ غرامي ومرامي وقِبْلَةُ الأشواق
لا خلا جَوْسَقٌ وبِطْياسُ والسعـ ـداءُ مِنْ كلِّ وابلٍ غَيْدَاقِ[1]
كم بها مَرْتَعٌ لِطَرْفٍ وقلبٍ فيه يُسْقى المُنَى بكأسٍ دِهَاقِ[2]
وتُغَنِّي طيورُه لارتياحٍ وتَثَنَّى غصونُه للعناق
وعلوُّ الشَّهْباء[3] حيثُ استدارتْ أنْجُمُ الأفْقِ حولها كالنطاق

وقوله أيضًا في حَمَاة: [الطويل]

حَمَى اللّٰهُ مِنْ شَطَّيْ حماة مناظرًا وَقَفْتُ عليها السمعَ والفكرَ والطَّرْفَا
تُغَنِّي حَمامٌ أو تميل خمائلٌ وتُزْهى مبانٍ تمنحُ الواصفَ الوَصْفَا
يلومون أنْ أعصي التَّصَوّنَ والنُّهَى بها وأطيعَ الكأسَ واللهوَ والقَصْفَا
إذا كان فيها النهرُ عاصٍ[4] فكيف لا أحاكيْهِ عصيانًا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعير شَدْوَها وأَغْلِبُها رَقْصًا وأُشْبِهها غَرْفا
تَئِنُّ وتُذْرِي دَمْعَها فكأنها تَهِيمُ بمرآها وتسألها العَطْفا

وقوله في وداع ابن عمِّه وكتب بهما إليه: [الطويل]

وَدَاعٌ كما ودَّعْتَ فصلَ ربيعٍ يفُضُّ[5] ضُلوعي أو يُفِيضُ دُمُوعِي
لئن قيل في بعضٍ يُفَارِقُ بَعْضَهُ فإنيَ قد فارقْتُ منكَ جميعي

قال: فأرسل إليَّ إحسانًا، واعتذر ولسانُ الحال ينشد عنه: [الوافر]

أُحِبُّكَ في البَتُولِ وفي أبيها ولكنِّي أحِبُّكَ مِنْ بعيدِ

---

(١) جَوْسق وبطياس والسعداء: أسماء مواضع. معجم البلدان. والوابل: المطر الشديد. الغَيْداق: المطر الغزير. لسان العرب (وبل) و(غدق).
(٢) الكأس الدِّهاق: الممتلئة. مختار الصحاح (دهق).
(٣) الشَّهْباء: هي مدينة حلب.
(٤) عاصٍ: أراد نهر العاصي الذي يمرّ بحماة ويسقي أرضها، والصواب قوله: «عاصيًا» وهكذا ينكسر الوزن.
(٥) يَفُضُّ ضلوعي: يكسرها. لسان العرب (فضض).

وقوله، وقد أفلتَ المركب الذي كان فيه من العدوّ: [السريع]

أُنْظُرْ إلى مَرْكَبنا مُنْقذًا ... من العِدَا مِنْ بَعْدِ إحرَازِ
أفْلَتَ منهمْ فغَدَا طائرًا ... كطائرٍ أفْلَتَ من بازي

وقال، رحمه اللَّه تعالى، لَمَّا خرج من حدود إفريقية: [الطويل]

رَفيقيَ، جَاوَزْنَا حدودَ مَواطنٍ ... صحبْنا بها الأيامَ طَلْقًا مُحَيَّاها
وما إنْ تركْناها لجَهْلٍ بقدْرها ... ولكنْ ثَنَتْ عَنَّا أعِنَّةَ سُقْيَاها
فَسِرْنَا نحثُّ السَّيرَ عنها لغيرها ... إلى أنْ يَمُنَّ اللَّهُ يومًا بلُقْيَاها

وكان وصوله الإسكندرية في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وقال رحمه اللَّه تعالى: أخذت مع والدي يومًا في اختلاف مذاهب الناس، وأنهم لا يَسْلَمُونَ لأحد في اختياره، فقال: متى أردت أن يَسْلَمَ لك أحدٌ في هذا التأليف - أعني المغرب - ولا يعترض[1] أتعبتَ نفسكَ باطلاً، وطلبتَ غايةً لا تُدْرَكُ، وأنا أضرب لك مثلاً: يحكى أنَّ رجلاً من عُقَلاء الناس كان له ولد، فقال له يومًا: يا أبي، ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل؟ ولو سعيتَ في مُجَانبتها سلمْتَ مِنْ نَقْدهم، فقال: يا بنيّ، إنك غِرٌّ لم تجرِّب الأمور، وإنَّ رضا الناسِ غايةٌ لا تُدْرك، وأنا أوقفك على حقيقة ذلك، وكان عنده حمار، فقال له: اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشيًا، فبينما هو[2] كذلك إذ قال رجل: انْظُرْ، ما أقَلَّ هذا الغلام بأدب! يركب ويمشي أبوه، وانظرْ ما أشدَّ تخلُّف والده لكونه يتركه لهذا، فقال له: انْزِلْ، أَرْكَبُ أنا وامْشِ أنتَ خلفي، فقال شخص آخر: انظرْ هذا الشخص، ما أقلَّه بشفقة! ركب وترك ابنه يمشي، فقال له: اركبْ معي، فقال شخص: أشقاهما اللَّه تعالى! آنظر كيف ركبا على الحمار، وكان في واحد منهما كفاية، فقال له: انْزِلْ بنا، وقَدِّماه وليس عليه راكب، فقال شخص: لا خَفَّف اللَّه تعالى عنهما! اُنظرْ كيف تركا الحمار فارغًا وجعلا يمشيان خلفه، فقال: يا بنيَّ، سمعْتَ كلامهم، وعلمْتَ أنَّ أحدًا لا يسلم من اعتراض الناس على أي حالة كان، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «ولا تُعْتَرَض أَتْبَعْتَ..».

(٢) في طبعة دار صادر: «هما».

وقال في أثناء خطبة المغرب ما نصُّه: الحمد للّه الذي جعل الأدب أفضل ما اكْتُسِبَ، وأفضل ما انتُخِبَ، إذ هو ذُخْرٌ لا يُخَاف كَسَادُه، وكنزٌ لا يُخْشَى انتقاصه وإنْ كثر مُرْتَادُه، وللّه درّ القائل: [الطويل]

رأيتُ جميعَ الكَسْب يَفْقِدُهُ الفتى ... وتبقى له أخلاقُهُ والتأدُّبُ
إذا حَلَّ في أرضٍ أقامَ لنفسه ... بآدابه قَدْرًا به يَتَكَسَّبُ
وأَوْمَأَ كُلٌّ نَحْوَهُ، ولعلَّه ... إلى غير أهلٍ للنباهةِ يُنْسَبُ

وقال في أثناء الكلام لبعض المغاربة: [الطويل]

فَأَثْبَتَّ في كلِّ المَواطِن هِمَّةً ... إلى طلبِ العلمِ الذي كان مُطَّرَحْ
وصَيَّرْتَ مَنْ قد كان بالنَّظْمِ جاهلاً ... يُحَاوِلُه كَيْمَا تجودَ لكَ المِدَحْ

وقال أيضًا في الخطبة: وبعد، فهذا كتابُ راحةٍ قد تَعِبَتْ في جمعه الأسماعُ والأبصار والأفكار، وكلّ عناءٍ سهل إذا أنجح القصد، وقد بدأ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة، ومنتهاه إلى غرّة سنة إحدى وأربعين وستمائة، قال: وأول مَنْ كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جَدّ والدي عبد الملك بن سعيد، وهو إذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ملك البربر، إلى أن استبدَّ بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقَصَده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظُ الأندلس أبو محمد عبد اللّه بن إبراهيم بن الحِجَاري وصنَّف له كتاب «المُسْهب، في غرائب المغرب» في نحو ستة أسفار، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذي ابتدأه فيه، وهو سنة ثلاثين وخمسمائة، ثم ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف إليه ما أغفله الحِجَاري، وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد، وأضافا له ما استفاداه، ولم يزل يزيد إلى أن استبدَّ به محمد، فاعتنى به أشدّ اعتناء، ثم استبدَّ به والدي - وكان أعلمهم بهذا الشأن - وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أنني أذكره يومًا وقد نوّه به ابن هُودٍ وهو ملك الأندلس وولّاه الجزيرة الخضراء، فأعلمه شخص أنَّ عند أحد المنسوبين إلى بيت نَبَاهة كراريسَ من شعر شعرائها، وأخبار رؤسائها، الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن، فأرسل إليه راغبًا في استعارتها، فأبىٰ، وقال: عليَّ يمينٌ أن لا تخرج عن منزلي، وقال: إن كانت له حاجة يأتي على رأسه، وكان جاهلاً، فلما سمع والدي ضحك فقال[1] لي: سِرْ معي إليه، فقلت له: ومن يكون هذا حتى نمشي

---

(١) في طبعة دار صادر: «ضحك وقال».

لـه على هـذه الصـورة؟ فقـال: إني لا أمشي لـه، ولكن أمشي للفضـلاء الـذين تضمّنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم، أتراهم لـو كانـوا أحياء مجتمعين في مـوضع أَنِفْتُ أن أمشي إليهم؟ قلت: لا، قـال: فإنَّ الأثـرَ ينوبُ عن العين، فمشيْنـا إلى منزل الـرجـل، فـواللَّه مـا أنْصَفَنَا في اللقاء، فلما قضينا منها الغرض صَرَفها إليه والدي، وشكره، وقال: هذه فائدة لم أجدها عند غيرك، فجزاك اللَّه تعالى خيـرًا! ثم انفصل وقـال: ألم تعلم يا بني أنني سـررْتُ بهذه الفائدة أكثر من الولاية، وإنَّ هذا واللَّه أوّل السعادة، وعنوان نجاحها.

والقلعة التي كان بها بنو سعيد تُعْرَفُ بهم فيقـال لها: قلعـة بني سعيد، وكـانت تُعْرَفُ قبل بقلعة أسطلير، وهو عين لها، وقـال المَلاَّحي في تـاريخه: إنهـا تُعْرَفُ بقَلْعـة يَحْصُب، قَبيـلٍ من اليمـن نـزل بهـا عنـد فتـح الأنـدلس، وبهـا كمـا مَـرَّ صَنَّف الحِجَـاريُّ كتـاب[1] «المسهب» لصاحبها عبد الملك بن سعيد.

وفي بني سعيد يقول الحِجاري: [مجزوء الكامل]

قـومٌ لـهـمْ فـي فَـخْـرِهـمْ شَـرَفُ الحـديثِ مـع القـديمِ
وَرِثُـوا الـنـدَى والـبـأسَ والـ ـعَلْيَـا كـريمًـا عـن كـريـم
مِـنْ كـلِّ وضَّـاحٍ بـه يُـجْلَى دُجَى الليـلِ البهيـمِ

وكـان أوّلَ من دخـل الأنـدلس[2] من ولـد عمـار بن يـاسـر، رضي اللَّهُ تعـالى عنـه، عبدُ اللَّه بن سعد بن عمار، وقد ذكره ابن حيان في مُقْتَبسه، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِي، صاحبَ الأندلس آخِرَ دولة بني أمية بالمشرق، كتب إليه أن يدافع عبد الـرحمن بن معاوية المرواني الداخل للأندلس، وكان إذ ذاك أميـرًا على اليمانيـة من جُنْد دمشق، وإنمـا ركن إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبين بني أمية من الثـأر بسبب قتل عَمَّـار بصِفِّين على يد عسكر معاوية، رضي اللَّه تعالى عنه، وكـان عمار من شِيعـة علي رضي اللَّه تعالى عنهما.

---

(١) في طبعة ليدن: «كتابه».

(٢) النص للحجاري، وقد ورد في المغرب (جـ ٢ ص ١٦١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

وقال الحِجَاري: أنشدني أبو بكر محمد بن سعيد[1] صاحب أعمال غَرْنَاطة في مدّة الملثَّمين لنفسه، فيما يليق بجنسه: [مخلع البسيط]

إن لم أكن للعَلاء أهلاً ... بما تراه فمن يكونُ
وكلُّ ما أبتغيهِ دوني ... ولي على هِمَّتي دُيُونُ
ومَنْ يَرُمْ ما يقلُّ عنه ... فذاك مِنْ فِعْلِهِ جنونُ
فرعٌ بأُفْقِ السماء سامٍ ... وأَصْلُهُ راسخٌ مَكِينُ

ومن نظمه قوله أيضًا[2]: [المجتث]

اللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي ... أُحِبُّ كَسْبَ المعالي
وإنّما أَتَوانَى ... عنها لسوء المآل
تحتاجُ للكدِّ والبَذْ ... لِ واصْطناع[3] الرجال
دَعْ كلَّ مَنْ شاءَ يسمو ... لها بكلِّ احتيال
فحالُهُمْ بانعكاسٍ ... فيها وحاليَ حالي

ولما ذكر ابنُ سعيد في «المغرب»[4] ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبي العباس أحمد الغساني كاتب ملك إفريقية قال: بماذا أصفه؟ ولو أن النجومَ تصير لي نثرًا لَمَا كنتُ أُنْصِفُه، وكفاك أنِّي اختبرت الفضلاءَ من البحر المحيط إلى حضرة القاهرة، فما رأيْتُ أَحْسَنَ ولا أفضلَ عِشْرة منه، ولَمَّا فارقته لم أشعر إلَّا برسالته قد وافَتْنِي بالإسكندرية من تونس، وفيها قصيدة فريدة منها[5]: [الكامل]

إيْهٍ أبا الحَسَنِ اسْتَمِعْ شَدْوِي فقد[6] ... يُصْغِي الحَمامُ إذا الحمامُ تَرَنَّما

ثم سرد بعضًا من القصيدة، وستأتي قريبًا إن شاء اللّه تعالى، بزيادة على ما ذكر منها في المغرب.

(١) في طبعة بولاق: «بكر بن محمد بن سعيد...».
(٢) ستأتي هذه الأبيات في الجزء الرابع وفي رواية البيت الأخير بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في طبعة بولاق: «واصطاف الرجال».
(٤) لا يوجد في كتاب «المغرب» المطبوع ترجمة للكاتب أبي العباس أحمد الغساني، وترجمته في اختصار القدح (ص ١٢).
(٥) البيت مطلع قصيدة من ١١ بيتًا وردت في اختصار القدح (ص ١٩).
(٦) في اختصار القدح: «كما» بدل «فقد».

رجع ـ وجد بخطِّه، رحمه اللَّه تعالى، آخر الجزء من كتاب «المغرب» ما نصُّه: أجزتُ الشيخَ القاضي الأجلَّ أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضي أبي يعقوب التِّيفَاشي، أن يروي عنِّي مُصَنَّفي هذا، وهو «المغرب، في محاسن المغرب» ويُرْوِيه من شاء ثقة بفهمه، واستنامة إلى علمه، وكذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبي عبد اللَّه محمد بن أبي بكر بن خطلخ الفارسي الأرموي أن يرويه عنِّي، ويُرْويه من شاء، وكتبه مصنِّفُه علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد في تاريخ الفراغ من نَسْخ هذا السِّفْر، انتهى.

وقال في وسيم من أبناء العجم صحبه في الطريق من حَلَب إلى بغداد فمات، وكان ظريفًا أديبًا[1]: [مجزوء الكامل]

لَهْفي على غُصْنٍ ذَوَى	أُفْقِدْتُهُ لَمَّا اسْتَوَى
رَيَّان مِنْ ماء الصِّبا	ومِنَ المدامعِ ما ارْتَوَى
لا تعذلوني إنْ نَطَقْـ	ـتُ الدهْرَ فيه عن الهوى
كم ضلَّ صاحبُه بِسِحْـ	ـرِ اللحظِ منه وكم غَوَى
أنا لا أُفِيقُ الدهرَ فيـ	ـه من الصَّبابة والجَوَى
إنَّ الهَوَى حَيًّا ومَيْـ	ـتًا لا يزالُ به سَوَى
كم قد نويتُ به النعيـ	ـم فقدّر اللَّه النوى[2]
دارَ السلام، حَوَيتِ مَنْ	كُلَّ المحاسن قد حَوَى[3]
مجموعُ حُسْنٍ قد تَوَى	في جنةٍ وبها ثَوَى[4]

وولد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد[5] يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر رمضان عام عشرة وستمائة، وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد اللَّه بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد اللَّه بن سعيد[6] بن عمار بن ياسر، رضي اللَّه تعالى عنه. وقال في «المغرب» لَمَّا عَرَّف

(١) أبيات ابن سعيد في اختصار القدح (ص ٨ ـ ٩).

(٢) في اختصار القدح: «التَّوَى».

(٣) دار السلام: هي مدينة بغداد. وفي اختصار القدح: «ما حوى».

(٤) في طبعة دار صادر: «مجموعُ حُسْنٍ قد ثَوَى». وفي اختصار القدح: «حوريّ حُسْنٍ قد ثَوَى». وتَوَى: هلك.

(٥) «بن محمد» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٦) تقدم في هذا الجزء (ص ٩٣) أنه «عبد اللَّه بن سعد بن عمار».

بوالده الكاتب الشهير أبي عِمْرَان موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، ما ملخّصه[1]:
لولا أنه والدي لأطنبْتُ في ذكره، ووفّيْتُه من الوصف حقَّ قَدْرِه، لكنْ كفاه وصفًا ما أثبتُّ[2] له في هذه الترجمة، وما مَرَّ له ويمرُّ في أثناء هذا الكتاب، وكونُ كلِّ مَن اشتغل بهذا التأليف نهرًا وهو بحر، واشتهاره في حفظه التاريخَ والاعتناء بالآداب في بلاده، بحيث لا يحتاج إلى تنبيه ولا إطناب، وله من النظم والنثر ما تضجّ الأقلام من كثرته، ويُسْتمدُّ القَطْرُ مِنْ درِّته، وممّا شاهدْتُ من عجائبه أنه عاش سبعًا وستين سنة ولم أره يومًا تخلّى[3] عن مطالعة كتاب أو كَتْب ما يخلده، حتى إنَّ أيام الأعياد لا يخليها من ذلك، ولقد دخلْتُ عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكَتْب، فقلْتُ له: يا سيدي، أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إلي كالمغضَب وقال: أظنك لا تُفْلح أبدًا، أترى الراحة في غير هذا؟ واللّه لا أحسب راحةً تبلغ مبلغها، ولوددت أنَّ اللّه تعالى يُضَاعف عمري حتى أُتمّ كتاب «المغرب» على غرضي، قال: فأثار ذلك في خاطري أنْ صرت مثله لا ألتذُّ بنعيم غير ما ألتذُّ به من هذا الشأن، ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف إلى ما تراه. وكان أولع الناس بالتجوّل في البلدان، ومشاهدة الفضلاء، واستفادة ما يرى وما يسمع، وفي تولُّعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول[4]: [البسيط]

يا مُفْنِيًا عُمْرَه في الكأس والوَتَرِ	وراعيًا في الدُّجى للأَنْجُمِ الزُّهُرِ
يَبْكي حَبيبًا جَفَاهُ أو يُنادِمُ مَنْ	يَهْفُو لديه كَغُصْنٍ باسِمِ الزَّهَرِ
مُنَعَّمًا بين لذّاتٍ يُمَحِّقُها	ولا يُخَلّدُ مِنْ فَخْرٍ ولا سِيَرِ
وعاذلًا ليَ فيما ظَلْتُ أكتبه[5]	يُبْدي التَّعَجُّبَ مِنْ صبري ومن فِكَري
يقول ما لك قد أفنيتَ عُمْرَكَ في	حِبْرٍ وطِرْسٍ عن الأغصان والحبر[6]
وظَلْتَ تسهُر طُولَ الليلِ في تَعَبٍ	ولا تَنِي أَمَدَ الأيامِ في ضَجَرِ[7]

(١) في طبعة دار صادر: «ما محصّله». وهذا النص في المغرب (جـ٢ ص ١٧٠)، ويبدو النص في المغرب كأنه ملخص لما جاء به المقري.
(٢) في طبعة دار صادر: «ما أَثْبَتُّهُ».
(٣) في الطبعة نفسها: «يومًا يخلي مطالعة..».
(٤) الأبيات في المغرب (ص ١٧٠).
(٥) في المغرب: «ظَلْتُ أَلْزَمُهُ».
(٦) في المصدر نفسه: «عن الأعصار والخبر».
(٧) في المغرب: «ولا تُرَى أَبَدَ الأيام..».

أَقْصِرْ فإنيَ أَدْرَى بالذي طَمَحَتْ ... لأُفْقِهِ هِمَّتي واسْأَلْ عَنِ الأَثَرِ
واسْمَعْ لقولِ الذي تُتْلَى محاسِنُهُ ... مِنْ بَعْدِ ما صارَ مثلَ التربِ كالسُّوَرِ
جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة، وهُمْ ... بَعْدَ المَمَاتِ جمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

انتهى[1].

وولد أبو عمران موسى بن محمد في الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين وخمسمائة، وتوفي بثغر الإسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوّال عام أربعين وستمائة.

وولد أبوه محمد بن عبد الملك[2] صاحب أعمال غَرْنَاطة وأعمال إشبِيلِيَةَ عام أربعة عشر وخمسمائة، وتوفي بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة.

وكان محمد بن عبد الملك وزيرًا جليلاً، بعيدَ الصِّيت، عالي الذكر، رفيع الهمّة، كثير الأموال، وذكره ابن صاحب الصَّلاة[3] في كتابه «تاريخ الموحِّدين»[4] ونبّه على مكانته منهم في الحُظْوة والأخذ في أمور الناس، وأثنى عليه، وذكره السهيلي في «شرح السيرة الشريفة»[5] حيث ذكر الكتاب المُوَجَّه من رسول اللّه، ﷺ، إلى هِرَقْل وأنَّ محمد بن عبد الملك عاينه عند أدفونش[6] مكرمًا مفتخرًا به، والقصة مشهورة، ومدحه الرصافي بقصيدة أوّلها[7]: [الكامل]

ماذا عسى يُثْنَى على عَلَم النَّدى ... ذِهْنًا يفيضُ وخاطرًا مُتَوَقِّدا

(١) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٢) ترجمة محمد بن عبد الملك في المغرب (جـ٢ ص ١٦٢)، وهنا ينقل المقري عن المغرب.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «الصَّلات» وهو خطأ.
(٤) تاريخ الموحدين: هو كتاب «المَنّ بالإمامة» وهو مطبوع.
(٥) هو كتاب «الروض الأنف».
(٦) في طبعة دار صادر: «أذفونش» بالذال المعجمة.
(٧) البيت مطلع قصيدة من ٣٢ بيتًا وردت في ديوان الرصافي (ص ٦٢ - ٦٦). ورواية المطلع في الديوان هي:

أَيِّدًا تَبِيْضُ وخاطرًا مُتَوَقِّدا ... دَعْها تَبِتْ قَبَسًا على عَلَمِ النَّدَى

ولما أنشده قصيدته فيه التي أولها[1]: [الكامل]

لِمَحَلِّكَ الترفيعُ والتعظيمُ ولوَجْهِكَ التقديسُ والتكريمُ

حَلَف لا يسمعها، وقال: عليَّ إجازتك، ولكن طباعي لا تحمل مثل هذا، فقال له الرصافي: ومَنْ مثلك يستحقّ هذا في الوقت غيرك؟ فقال له: دَعْني من خداعك، أنا وما أعلمه من قلبي.

وأنشد له في الطالع السعيد[2]: [الطويل]

فلا تُظْهِرَنْ ما كان في الصَّدْرِ كامِنًا ولا تَرْكَبَنْ بالغَيظِ في مَرْكَبٍ وَعْرِ
ولا تَبْحَثنْ في عُذْرِ مَنْ جاء تائبًا فليس كريمًا مَنْ يُباحثُ في العُذْرِ

ووَلي للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكش وسَلَا وإشبيلية وغَرْنَاطة، واتّصلت ولايته على أعمال غَرْنَاطة، وكان من شيوخها وأعيانها، وكتب عليه عقد أن في داره من الحلى وأصنافه ما لا يمكن إلّا في دار الملك، وأنه إذا ركب في صلاة الصبح شوش عليه[3] نُبَاح الكلاب، فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمِّه صاحب أعمال إفريقية أبي الحسن[4] سنة ٥٩٣، ثم رضي عنهما، وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطِّه كل ما أخذ منه[5]، فصرفه عليه، ولم ينقص منه شيئًا، وغرم له ما فات منه، وهذا مما يدلّ على قوّة سَعْد محمد بن عبد الملك المذكور ونباهة قدره، وحَسْبُه من الفخر مدحُ أديب الأندلس وشاعرها أبي عبد الله الرصافي له، وهو ممّن يمدحُ الخلفاء في ذلك العصر ـ رحمه الله تعالى! ـ.

وولد أبوه عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة، وتوفي بحضرة مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة. قال الحِجَاري: لَمَّا مات يحيىٰ بن غانية الملثَّمُ ملكُ الأندلس بحضرة غَرْنَاطة، وكان وزيره ومُدَبِّر دولته عبد الملك بن سعيد، بادر الفرار لغَرْنَاطة عندما سمع بموته إلى قلعته، وثار بها، وطلبه خليفةُ يحيىٰ بن غانية طلحةُ بن العنبر، فوجده قد فاته.

(١) البيت مطلع قصيدة من ٣٢ بيتًا في مدح أبي جعفر الوقشي وزير ابن همشك، وقد وردت في ديوان الرصافي (ص ١٣١ ـ ١٣٤) وفي المغرب (جـ٢ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤).
(٢) البيتان في المغرب (جـ٢ ص ١٦٢) دون تغيير عمّا هنا.
(٣) في طبعة دار صادر: «شوش... ونُباح..».
(٤) في الطبعة نفسها: «أبي الحسين».
(٥) في الطبعة نفسها: «أخذ له».

وقد قَدَّمْنا أن عبد الملك هذا هو السبب في تأليف كتاب «المغرب، في أخبار المغرب» ثم تمّمه ابنُه محمد بن عبد الملك، ثم تمّم ما بقي منه ابنه موسى بن محمد، ثم أربى على الكلِّ في إتمامه أبو الحسن علي بن موسى الذي قصدناه بالترجمة في هذا الكتاب، وقد ذكرْنا من أحواله جملة كافية.

ومن فوائد ابن سعيد أبي الحسن ما حكاه عن صاحب كتاب «الكمائم»[1] وهو[2]: فأما فسطاط مصر فإنَّ مبانيها كانت في القديم متّصلة بمباني مدينة عين شمس، وجاء الإسلام وبها[3] بناء يُعْرف بالقصر حوله مساكن، وهو الذي عليه نزل عمرو بن العاص، وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه، ثم لَمَّا فتحها قسم المنازل على القبائل، ونسب المدينة إليه، فقيل: فسطاط عمرو، وتداولت عليها بعد ذلك وُلَاة مصر، فاتّخذوها سرير السلطنة، وتضاعفتْ عمارتها، فأقبل الناسُ مِنْ كلِّ جانب إليها، وقصروا أمانيهم عليها، إلى أن رسخت بها دولة بني طُولُونَ، فبَنَوا إلى جانبها المنازلَ المعروفة بالقطائع، وبها كان مسجدُ ابنِ طولون الذي هو الآن إلى جانب القاهرة، وهي مدينة مستطيلة يمرُّ النيلُ مع طولها، وتحطُّ في ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد، وبها منتزهات، وهي في الإقليم الثالث، ولا ينزل فيها مطر إلَّا في النادر، وترابُها يتنن[4] الأرجل، وهو قبيح اللون، تستكدر منه أرجاؤها، ويسوء بسببه هواؤها، ولها أسواق ضخمة إلَّا أنها ضيّقة، ومبانيها بالقَصَب والطوب طبقة على طبقة. ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط، وفُرِّطَ في الاعتناء بها بعد الإفراط، وبينهما نحو ميلين، وأنشدْتُ فيها للشريف العقيلي[5]: [الطويل]

أَحِنُّ إلى الفسطاط شَوقًا وإنّني ... لأدعو لها أن لا يحلَّ بها القَطْرُ
وهل في الْحَيَا من حاجة لجَنَابها ... وفي كل قُطْرٍ مِنْ جوانبها نَهْرُ
تَبَدَّتْ عروسًا والمُقَطَّمُ تاجُها ... ومِنْ نِيلِها عقدٌ كما انتظَمَ الدُّرُّ

(١) كتاب «الكمائم» للبيهقي.

(٢) النص في المغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ١).

(٣) في المغرب: «مبنى».

(٤) في المغرب: «وترابُها تثيره الأرجلُ... تتكدّر منه أرجاؤها...».

(٥) الشريف العقيلي هو أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة، من شعراء المائة الرابعة، وأكثر شعره في الوصف، ولم يكن يمدح. المغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ٢٠٥).

وقال عن كتاب إجار[1]: والفسطاط هو قَصَبة مصر، والجبل المقطَّم شرقيها، وهو متّصل بجبل الزمرذ[2]. وقال عن كتاب ابن حوقل[3]: الفسطاط مدينة عظيمة[4]، ينقسم النِّيلُ لديها، وهي كبيرة، ومقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة والطيب واللّذّة ذات رِحَاب في محالِّها، وأسواق عظام فيها ضيق، ومتاجر فخام، ولها ظاهر أنيق، وبساتين نضرة، ومنتزهات على ممرِّ الأيام خضرة، وفي الفسطاط قبائل وخطط للعرب تُنْسب إليها كالكوفة والبصرة، إلّا أنها أقلُّ من ذلك، وهي سبخة الأرض، غير نقيّة التربة، وتكون الدار بها سبعَ طبقات وخمسًا وستًّا، وربما يسكن في الدار المائتان من الناس، ومُعْظم بنيانهم بالطوب، وأسفل دُورهم غير مسكون، وبها مسجدان للجمعة، بنى أحدَهما عمرُو بن العاص في[5] وسط الفسطاط، والآخر على الموقف[6] بناهُ ابن طولون. وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون مِيلاً في ميل يسكنها جنده، وتعرف بالقطائع، كما بنى بنو الأغلب خارجَ القيروان رَقَّادة، وقد خربتا في وقتنا هذا، وأخلف اللّه بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة.

قال ابن سعيد[7]: لمّا استقرَرْتُ بالقاهرة تشوَّقْتُ[8] إلى مُعَاينة الفُسْطاط، فسار معي إليها أحد أصحاب القرية[9]، فرأيتُ عند باب زويلة من الحمير المُعَدَّة لركوب مَنْ يسير إلى الفسطاط جملة عظيمة، لا عهد لي بمثلها في بلد، فركب منها حمارًا، وأشار إلي أن أركب

---

(١) كتاب إجار هو كتاب «نزهة المشتاق» للإدريسي، وقد ألّفه الإدريسي للملك رجار Roger ملك صقلية. والنص في المغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ٢).

(٢) في طبعة ليدن: «الزمرد» بالدال المهملة.

(٣) النص في صورة الأرض (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) والمقري هنا ينقل عن ابن حوقل باختصار، لذا لم نثبت هنا فروق الروايتين. كذلك النص في المغرب ـ قسم مصر (ص ٢).

(٤) في طبعة دار صادر: «مدينة حسنة».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «في سطّ».

(٦) الموقف: محلة بمصر. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٢٢٦). وحدّدها ابن الدقماق بقوله: الموقف بقعة شمال الفسطاط. الانتصار في واسطة عِقْد الأمصار (جـ ٤ ص ١٠).

(٧) النص في المغرب ـ قسم مصر (جـ ١ص ٥).

(٨) في طبعة دار صادر: «تشوَّفْتُ».

(٩) في المغرب: «أصحاب العزمة».

حمارًا آخر، فأنِفْتُ من ذلك جَرْيًا على عادة ما خلفته في[1] بلاد المغرب، فأخبرني[2] أنه غير مَعِيبٍ على أعيان مصر، وعاينْتُ الفقهاءَ وأصحابَ البزّة والشارة الظاهرة يركبونها، فركبْتُ، وعندما استويْتُ راكبًا أشار المُكاري[3] إلى الحمار، فطار بي، وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينيَّ، ودنس ثيابي، وعاينْتُ ما كرهته، ولقلّة معرفتي بركوب الحمار وشدّة عَدْوه على قانون لم أعهده، وقلّة رفق المُكاري، وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العَجاج، فقلت[4]: [المتقارب]

لَقِيتُ بمصرَ أشدَّ البَوَار	ركوبَ الحمار وكحل الغُبَارْ
وخَلْفِي مُكَارٍ يفوق الريا	ح لا يَعْرِفُ الرفقَ مهما اسْتطارْ
أُنادِيه مَهْلاً فلا يَرْعَوِي	إلى أنْ سجدْتُ سُجُودَ العثار
وقد مَدَّ فَوْقِي رواق الثرى	وأَلْحَدَ فيها ضياء النهار

فدفعت إلى المُكاري أجرته، وقلت له: إحسانُكَ أن تتركني أمشي على رجليَّ، ومشيتُ إلى أن بلغتها، وقدرت الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحقّقته بعد ذلك نحو ميلين، ولَمَّا أقبلْتُ على الفسطاط أدبَرَتْ عني المسرّة، وتأمّلْتُ أسوارًا مُثَلَّمة سوداء وآفاقًا مغبرة، ودخلْتُ من بابها وهو دون غَلَق يُفْضي إلى خراب معمور بمبان مُشَتَّتة[5] الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بُنيتْ من الطوب الأدكن[6] والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغضّ طرف الظريف، فسرْتُ وأنا مُعَاين لاستصحاب تلك الحال، إلى أن صرْتُ في أسواقها الضيّقة، فقاسيتُ من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والرَّوَايَا[7] التي على الجمال ما لا تفي به إلَّا مشاهدته ومُقاساته، إلى أن انتهيتُ إلى المسجد الجامع، فعاينْتُ مِنْ ضيقِ الأسواق التي حوله ما ذكرت به ضدّه في جامع إشبيلية وجامع مَرَّاكش، ثم دخلتُ إليه فعاينْتُ جامعًا كبيرًا قديم البناء، غير

---

(١) في طبعة دار صادر: «من».

(٢) في المغرب: «فأعلمني».

(٣) المُكاري، بضم الميم: الذي يكري الدواب. لسان العرب (كرا).

(٤) الأبيات في المغرب.

(٥) في طبعة دار صادر: «متشتّتة».

(٦) الطوب: الآجرّ. الأدكن: المائل إلى السواد. لسان العرب (طوب) و (دكن).

(٧) الروايا: جمع رَوِيّة وهي الحاجة. لسان العرب (روي).

مزخرف، ولا مُحْتَفَل في حُصُره التي تدور مع بعض حيطانه، وتنبسط فيه، وأبصرْتُ العامّة، رجالاً ونساء، قد جعلوه مَعْبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق، والبيّاعون يبيعون فيه أصناف المكسّرات والكعك وما سوى ذلك[١]. والناس يأكلون في عدّة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك، وعدّة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل، قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقًا، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع، وفي زَوَاياه العنكبوت قد عظم نسجُه في السقف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون في صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كَتْب فقراء العامّة[٢]، إلاَّ أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده في جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه، ولقد تأمَّلْتُ ما وجدْتُ فيه من الارتياح والأنس[٣] دون منظر يوجب ذلك، فعلمت أنّ ذلك سرّ مودع من وقوف الصحابة، رضي اللّه تعالى عنهم، في ساحته عند بنائه، واستحسنْتُ ما أبصرْتُه مِنْ حَلَق المتصدّرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدّة أماكن، وسألْتُ عن مواد أرزاقهم فأُخْبِرْت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك، ثم أُخْبِرْتُ أنَّ اقتضاء ذلك يصعب إلاَّ بالجاه والتعب. ثم انفصلْنا من هناك إلى ساحل النِّيل، فرأيتُ ساحلاً كدر[٤] التربة، غير نظيف ولا متّسع الساحة، ولا مستقيم الاستطالة، ولا عليه سور أبيض، إلاَّ أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النِّيل، ولَئِنْ قلْتُ إني لم أبصر على نهرٍ ما أبصرْتُه على ذلك الساحل فإني أقول حقًّا، والنيل هنالك ضيّق؛ لكون الجزيرة التي بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته[٥] قد توسّطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط، وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة في ذلك الساحل. وقد ذكر ابن حَوْقَل الجسر الذي يكون ممتدًّا من الفسطاط إلى الجزيرة، وهو غير طويل، ومن الجانب الآخر إلى البرّ الغربي المعروف ببرّ الجيزة[٦] جسر آخر من الجزيرة إليه، وأكثرُ

(١) في المغرب: «وما جرى مجرى ذلك..».
(٢) في المصدر نفسه: «العوام».
(٣) في طبعة ليدن: «الارتياح والحسن».
(٤) في طبعة دار صادر: «كدير التربة».
(٥) في طبعة بولاق: «قلعة».
(٦) في طبعة دار صادر: «ببر الجزيرة».

جَوَازِ الناس بأنفسهم ودوابهم في المراكب؛ لأنّ هذين الجسرين قد احْتُرما لحصولهما في حيز قلعة السلطان، ولا يجوز أحد على الجسر الذي بين الفسطاط والجزيرة راكبًا احترامًا لموضع السلطان، وبِتْنا في ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على الجانب النيل، فقلت [1] : [الطويل]

نَزَلْنَا من الفُسْطَاطِ أحْسَنَ مَنْزِلٍ	بحيثُ امتدادُ النِّيلِ قد دَارَ كالْعِقْدِ
وقد جُمِعَتْ فيه المراكبُ سُحْرَةً	كَسِرْبِ قَطًا أضحى يَرِفُّ على وِرْدِ
وأصبح يطفُو المَوْجُ فيه ويرتمي	ويطربُ أحيانًا ويلعبُ بالنردِ
حلا ماؤه كالرِّيقِ ممّن أُحِبُّهُ	فَمُدَّتْ عليه حُلَّةٌ مِنْ حلى الخَدِّ
وقد كان مثلَ النهرِ من قبلِ مَدِّه	فأصبحَ لَمَّا زاده المَدُّ كالوَرْدِ

وقلت هذا لأني لم أذق في المياه أحلى من مائه، وإنه يكون قبل المَدِّ الذي يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض، فإذا كان عباب النِّيل صار أحمر، وأنشدني علم الدين فخر الترك أيدَمُر[2] عتيق وزير الجزيرة في مدح الفُسْطاط[3]: [الرمل]

حَبَّذا الفُسْطاطُ مِنْ والدةٍ	جَنَّبَتْ أولادَهَا دَرَّ الْجَفَا[4]
يَرِدُ النِّيلُ إليها كَدِرًا	فإذا مازَجَ أهليها صفا
لطفوا فالمُزْنُ لا تألفهمْ	خَجَلًا لَمَّا رأتهمْ أَلْطفا

ولم أَرَ في أهل البلاد ألطف من أهل الفُسْطاط، حتى إنهم ألطف من أهل القاهرة، وبينهما نحو ميلين، والحال أن أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام، وتحت ذلك من المَلَق وقلّة المبالاة ورعاية[5] قدر الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره.

---

(١) الأبيات في المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (جـ ٢ ص ١٤٨).

(٢) هو محيي الدين أيدُمر المحيوي، محمد بن محمد بن سعيد بن ندى. ترجمته في فوات الوفيات (جـ ١ ص ٢٠٨).

(٣) الأبيات في الانتصار في واسطة عقد الأمصار (جـ ٤ ص ١٠٩) والمغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ٩) والمواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (جـ ٢ ص ١٤٨).

(٤) في طبعة دار صادر: «دار الجفا».

(٥) في الطبعة نفسها: «المبالاة برعاية . . .».

وأمّا ما يـرد[1] على الفسطاط من متـاجر البحـر الإسكندراني والبحـر الحجازي، فـإنه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك، لا بالقاهرة، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد.

وبالفُسْطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى؛ لأن القـاهرة بُنِيَتْ للاختصاص بالجند، كما أن جميع زيّ الجنـد بالقـاهرة أعـظم منه بـالفُسْطاط، وكـذلك مـا يُنْسج ويُصاغ وسائر ما يُعْمَلُ من الأشيـاء الرفيعـة السلطانية، والخـراب في الفسطاط كثيـر، والقاهرة أجدُّ وأعمرُ وأكثرُ زحمة، باعتبار[2] انتقال السلطان إليها، وسكنى الأجناد فيها، وقـد نفخ روح الاعتناء والنمو في مدينة الفسطاط الآن، لمجاورتها للجزيرة الصـالحية، وكثيـر من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج النـاظر، انتهى.

قال المقريزي[3]: يعني ابن سعيد ما بنى على شقة[4] مصر من جهة النيل، انتهى.

وقال ابن سعيد المذكور في «المغرب، من حلى المغرب» ما ملخَّصُه: الـروضة أمـام الفُسْـطاط فيما بينهـا وبين مناظـر الجيزة، وبهـا مقياس النِّيـل، وكانت متنـزهًا لأهـل مصـر، فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامـل سريـر السلطنة[5]، وبنى فيهـا قلعة مُسَـوَّرة بسور سـاطع اللون مُحْكم البنـاء عالي السَّمْـك لم تَرَ عيني أحسنَ منـه، وفي هذه الجـزيـرة كـان الهَوْدَج الذي بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التي هام في حُبِّها، والمختار بستـان الإخشيد وقصره، وله ذكر في شعر تميم بن المعز وغيره، ولشعراء مصر في هذه الجزيرة أشعار، منهـا قول أبي الفتح بن قادوس الدمياطي: [الوافر]

أرى سُـرُجَ الجـزيـرة مِنْ بَعيـدٍ ... كـأحـداقٍ تُغَـازلُ في المغـازلْ
كـأن مـجـرّة الجـوزاء خَـطَّتْ ... وأثـبتَـتِ المنـازلَ في المنـازلْ

قال: وكنت أبِيتُ بعض الليالي بالفُسْطاط، فيزدهيني ضحكُ البَـدْرِ في وجه النِّيْـل مع سور هذه الجـزيرة الـدّرّيّ اللون، ولم أنفصل عن مصـر حتى كمل سـور هذه القلعـة، وفي

---

(١) قارن بما جاء في المغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ١١).
(٢) في المغرب: «بسبب انتقال».
(٣) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (جـ ٢ ص ١٤٩).
(٤) في طبعة دار صادر: «شفة مصر».
(٥) في الطبعة نفسها: «سريرًا لسلطنته».

داخله من الدُّور السلطانية ما ارتفعت إليه همّة بانيها، وهو من أعظم السلاطين في البناء، وأبصرْتُ بهذه الجزيرة إيوانًا لجلوسه لم تَرَ عيني مثاله، ولا يُقَدَّرُ ما أنفق عليه، وفيه من صحائف الذهب والرخام الآبنوسي والكافوري والمجزَّع ما يذهل الأفكار، ويستوقف الأبصار، ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة في بعضها حاظر[1] حصر فيه أصناف الوحوش التي يتفرّج عليها السلطان، وبعدها مروج تنقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر، قال: وقد تفرّجْتُ كثيرًا في طرف[2] هذه الجزيرة مما يلي أثر الفُسْطاط فقطعت به عشيّات مُذْهَبَات، لم تزل لأحزان الغربة مُذْهِبات، وإذا زاد النيل فصل برّها عن برّ الفُسْطاط من جهة خليج القاهرة، ويبقى موضع الجسر تكون فيه المراكب، انتهى.

وأورد الصفدي في تذكرته لابن سعيد المذكور في هذه الجزيرة: [الكامل]

انْظُرْ إلى سُورِ الجزيرة في الدُّجَىٰ والبَدْرُ يلثمُ منه ثَغْرًا أشْنَبَا
تتضاحكُ الأنوارُ في جَنَبَاته فَتُرِيْكَ فوقَ النِّيل أمرًا مُعْجبا
بَينَا تَراه مُفَضَّضًا في جانبٍ أبْصَرْتَ منه في سِوَاه مُذْهَبا
لِلَّهِ مَرْأى ما رآه ناظِري إلاَّ خَلَعْتُ له المقام تطربا

وقال في «المغرب» نقلاً عن بعضهم ما صورته[3]: وأما مدينة القاهرة، فهي الحاليةُ الباهرة، التي تفنّن فيها الفاطميون وأبدعوا في بنائها، واتّخذوها قُطْبًا لخلافتهم ومركزًا لأرجائها، فنُسِي الفُسْطاط، وزُهد فيه بعد الاغتباط، وسُمِّيت القاهرة لأنها تَقْهَر مَنْ شذَّ عنها ورام مخالفة أميرها[4]. قال ابن سعيد: هذه المدينة اسمها أعظم منها، وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينْته؛ لأنها مدينة بناها المعزّ أعظمُ خلفاء العُبَيديين، وكان سلطانه قد عَمَّ جميعَ طول المغرب من أوّل الديار المصرية إلى البحر المحيط[5]: [الطويل]

وسارتْ مَسِيرَ الشمس في كلِّ بَلْدَةٍ وهَبَّتْ هبوبَ الريح في البَرِّ والبَحْرِ

(١) في الطبعة نفسها: «حاضر».

(٢) في طبعة بولاق: «طرق».

(٣) المواعظ والاعتبار (جـ ٢ ص ١٨٦ - ١٩٠) والنقل عن البيهقي.

(٤) في طبعة دار صادر: «أميرها، انتهى».

(٥) سيأتي هذا البيت في الجزء الرابع ببعض الاختلاف عمّا هنا.

لا سيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة[1] المنصورية إلى جانب القيروان، وعاين المهدية مدينة جَدِّه عُبَيْد اللَّه المهدي، لكن الهمّة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار، ولله درّ القائل[2]: [الكامل]

هِـمَمُ الـمـلوكِ إذا أرادوا ذِكْـرَهَـا   مِنْ بَعْـدِهِـمْ فَبِـأَلْسُنِ الـبُنْـيَـانِ
إنَّ الـبـنـاءَ إذا تـعـاظَـمَ شـأْنُـهُ   أضْحَى يـدلُّ على عـظيمِ الشـانِ

وتهمّم من بعده الخلفاء المصريون في الزيادة في تلك القصور، وقد عاينْتُ فيها إيوانًا يقولون إنه بُني قَدْرَ إيوان كسرى الذي بالمدائن، وكان يجلس فيها خلفاؤهم ولهم على الخليج الذي بين الفُسْطاط والقاهرة مَبَانٍ عظيمة جليلة الآثار، وأبصرْتُ في قصورهم حيطانًا عليها طاقات عديدة من الكِلْس والجبس ذُكر لي أنهم كانوا يجدّدون تبييضها في كلٍّ سنة، والمكان المعروف بالقاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطاني؛ لأنَّ هناك ساحة متّسعة للعسكر والمتفرّجين ما بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلّها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمّة السلطانية، ولكن ذلك أمد قليل، ثم تسير منه إلى أمد ضيّق، وتمرُّ في ممرّ كدر خَرِج[3] بين الدكاكين، إذا ازدحمت فيه الخيلُ مع الرجالة كان ممّا تضيق به الصدور، وتَسخن منه العيون، ولقد عاينْتُ يومًا وزير الدولة وبين يديه الأمراء، وهو في موكب جليل، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدّت جميع الطرق بين يدي الدكاكين، ووقف الوزير وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين، والدخان في وجه الوزير، وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة، وكدت أهلك في جملتهم، وأكثر دُروب القاهرة ضيّقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضَيَّقَتْ مسلك الهواء والضوء بينها، ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري، وتُدْركني وحشة عظيمة، حتى أخرج إلى بين القصرين.

ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النِّيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عَطَشًا لبعدها عن مجرى النيل، لئلاّ يصادرها ويأكل ديارها، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالمَقْس، وجَوُّها لا

---

(١) في طبعة دار صادر: «المدينة».

(٢) تقدم هذان البيتان في الجزء الثاني وجاء هناك: «قدره» بدل «شأنه».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «خرج».

يبرح كدرًا ممّا تثيره[1] الأرض من التراب الأسود، وقد قلت فيها حين أكثر عليَّ رفاقي من الحضّ على العود فيها: [المتقارب]

يقولون سَافِرْ إلى القَاهِرَهْ ... وما لي بها رَاحَةٌ ظَاهِرَهْ
زِحَامٌ وضِيْقٌ وكَرْبٌ وما ... تُثيرُ بها أرْجُلٌ سائِرهْ

وعندما يُقبِلُ المسافرُ عليها يرى سُورًا أسودَ كدرًا، وجوًّا مغبّرًا، فتنقبض نفسه، ويفرُّ أنسه، وأحسن موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة، لا سيّما أرض القرط والكتّان، وقلت: [الطويل]

سقى اللَّهُ أرْضًا كلما زُرْتُ رَوْضَها ... كَسَاها وحلّاها بِزِينَتِهِ القَرْطُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا والمياهُ عُقُودُهَا ... وفي كلِّ قطرٍ مِنْ جوانبها قرط

وفيها خليج لا يزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافي[2]: [الكامل]

ما زالت الأمْحَالُ تأخذه ... حتى غَدَا كَذُؤَابةِ النَّجْمِ

وقلت في نَوّار[3] الكتان على جانبي الخليج: [البسيط]

أُنْظُرْ إلى النهر والكتّانُ يَرْمُقُه ... من جانبيه بأجفانٍ لها حَدَقُ
رأتْهُ سَيفًا عليه للصَّبَا شُطَبٌ ... فقابَلَتْهُ بأحداقٍ بها أرَقُ
وأصْبَحَتْ في يدِ الأرواحِ تَنْسجُهَا ... حتى غَدَتْ حلَقًا من فوقها حلَقُ
فلم تزرها ووَجْهُ الأرض مُصْطَبح ... أو عنْدَ صَفْوته إن كنت تغتبق[4]

وأعجبني في ظاهرها بركة الفيل؛ لأنها دائرة كالبدر، والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتُسْرِجُ أصحابُ المناظر على قدر همّتهم وقدرتهم، فيكون لها بذلك منظر عجيب، وفي ذلك قيل: [البسيط]

---

(١) في طبعة دار صادر: «بما تنثره».
(٢) البيت في ديوان الرصافي (ص ١٣٦) ورواية صدره فيه هي:
«فتوالتِ الأمحالُ تَنْقُصُه».
(٣) في طبعة دار صادر: «نَوْر».
(٤) في الطبعة نفسها: «فَقُمْ فزُرْها... أو عند صفرته..».

أُنْـظُرْ إلى بِـرْكَـةِ الفِيـل التي اكْتَنَفَتْ بهـا الْمَنَـاظِـرُ كـالأهـدابِ للبَصَـرِ
كـأنـمـا هي والأبْـصَـارُ تَـرْمُـقُـهَـا كـواكـبٌ قـد أداروهَـا على الـقَمَـرِ

ونظرْتُ إليها وقد قابلتها الشمس بالغُدْوَة[1] فقلت: [البسيط]

أُنْظُرْ إلى بِرْكَةِ الفِيلِ التي فَجَرَتْ لهـا الغـزالـةُ فَجْـرًا مِنْ مَـطَالِعِهـا[2]
وخَـلِّ طَـرْفَـكَ مجنُـونًـا ببهْجتهـا يَـهِيمُ وَجْـدًا وحُبًّـا فـي بَـدَائعـهـا

والفُسْطاط أكثر أرزاقًا، وأرخص أسعارًا من القاهـرة، لقـرب النيـل من الفسـطاط، والمراكب التي تصل بالخيرات تحطّ هنـاك، ويُباع مـا يصل فيهـا بالقـرب منها، وليس يتّفق ذلك في ساحل القاهرة؛ لأنه يبعد عن المدينة، والقاهرة هي أكثر عمارة واحترامًا وحشمة من الفسـطاط؛ لأنها أجَـلُّ مدارس، وأضخم خـانـاتٍ، وأعـظم ديـارًا لسكنى الأمـراء فيهـا؛ لأنهـا المخصوصة بالسلطنة، لقرب قلعة الجبل منها، فأمور السلطنة كلّها فيهـا أيسر، وأكثـر، وبها الـطراز وسائـر الأشياء التي يتـزيّن بها الـرجـال والنسـاء، إلاَّ أنَّ في هـذا الـوقت لمـا اعتنى السلطان ببنـاء قلعة الجـزيرة التي أمـام الفُسْطاط وصَيَّـرهـا سـريـر السلطنـة عَـظُمَت عمـارة الفُسْطاط، وانتقل إليها كثير من الأمراء، وضخمت أسواقها، وبنى فيها السلطان أمـام الجسر الذي للجزيرة قَيسَارِيـة عظيمـة، فنقل إليهـا من القاهـرة سوقَ الأجنـاد التي يُبَاع فيهـا الفِرَاء والجوخ وما أشبه ذلك.

إلى أن قـال: وهي الآن عـظيمـة آهلة، يُجْبَى إليهـا من الشـرق والغـرب والجنـوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفسيره إلاَّ خالق الكل جلَّ وعلا، وهي مستحسنة للفقير الـذي لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيمًا[3] ولا عذابًا، ولا يطالب برفيق له إذا مات، فيقـال له: تـرك عندك مالاً، فـربّما سجن في شـأنه أو ضـرب أو عصر، والفقيـر المجرّد فيهـا يستريـح بجهة رخص الخبز وكثرته، ووجود السمـاع والفرج في ظـواهرهـا ودَوَاخلها، وقلّة الاعتـراض عليه فيما تذهب إليـه نفسه، يحكم فيهـا كيف شاء من رقص في وسط السـوق أو تجريـد أو سكر من حشيشـة أو صحبة مُـرْدان[4] وما أشبـه ذلك، بخـلاف غيرهـا من بلاد المغـرب، وسائـر

(١) في الطبعة نفسها: «بالغُدُوِّ..».
(٢) فَجَرَتْ: شَقَّتْ. الغزالة: الشمس. لسان العرب (فجر) و(شمس).
(٣) الترسيم: وضع المشكوك في ولائه للحاكم تحت المراقبة. لسان العرب (رسم).
(٤) المُرْدان: جمع أمرد وهو الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد. لسان العرب (مرد).

الفقـراء لا يتعرضـون إليهم بالقبض لـلأسطول إلّا المغـاربة، فـذلك وَقْفٌ عليهم لمعـرفتهم بمعاناة[1] الحرب والبحر، وقد عَمّ ذلك مَنْ يعـرف معانـاة البحر منهم ومَنْ لا يعـرف، وهـم في القدوم عليها بين حالين؛ إن كان المغربي غنيًّا طُـولب بالـزكاة وضُيِّق عليـه[2]، وإن كان مجردًا فقيرًا حُمل إلى السجن حتى يحين وقت الأسطول.

وفي القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتّصال، وهذا الشأن في الديار المصـرية يفضـل كثيرًا من البلاد، وفي اجتماع النرجس والورد فيها أقول[3]: [السريع]

مَنْ فَضَّـلَ النَّرْجِسَ وَهْـوَ الـذي ... يَـرْضَى بِحُكْمِ الـوَرْدِ إذ يَرْأَسُ
أمـا تَـرَى الـوَرْدَ غَـدَا قـاعـدًا ... وقـام فـي خـدمتـه الـنـرجسُ

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز، أمّا التفـاح والإجّاص فقليـل غالٍ، وكـذلك الخـوخ، وفيها الـورد والنرجس والنسـرين والنيلوفر والبنفسـج واليـاسمين والليمـون الأخضر والأصفر، وأما العنب والتين فقليل غالٍ، ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلّا القليل، ومع هـذا فشرابـه عندهم في غـاية الغـلاء، وعامّتهـا يشربـون المِزْرَ الأبيض المتّخذ من الحنطة، حتى إنَّ الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك، فينادي المنـادي من قبل الوالي بقـطعه وكسـر أوانيه، ولا ينكـر فيها إظهـار أواني الخمر ولا آلات الـطرب ذوات الأوتار، ولا تبرُّجُ النساء العواهر، ولا غير ذلـك ممّا ينكـر في غيرهـا من بلاد المغـرب، وقد دخلْتُ في الخليج الذي بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيمـا يلي القاهـرة، فرأيت فيـه من ذلـك العجائب، وربّمـا وقع فيـه قتـلٌ بسبب السكـر فيمنـع فيـه الشـرب، وذلـك في بعض الأحيان، وهو ضيّق، عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكّم والطرب والمخالفة، حتى إنَّ المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العُبُور بـه في مركب، وللسُّـرُج في جانبيـه بالليـل منظر، وكثيرًا ما يتفرّج فيه أهل الستر في الليل، وفي ذلك أقول: [مخلع البسيط]

لا تَـرْكَبَـنْ فـي خـليـجِ مِـصْـرٍ ... إلّا إذا أُسْـدِلَ الـظلامُ
فـقـد عَـلِمْـتَ الـذي عـليـه ... مِـنْ عـالَـمٍ كُـلُّهُـمْ طَـغَـامُ[4]

---

(١) في طبعة دار صادر: «بمعاناة البحر..».

(٢) في طبعة دار صادر: «وضيِّقت عليه السعاة..».

(٣) تقدّم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ٤٠) دون تغيير عمّا هنا.

(٤) الطَّغام، بالفتح: أوغـاد الناس، الواحد والجمع فيه سواء. مختار الصحاح (طغم).

صَفَّانِ لِلحربِ قد أطَلَّا   سِلاحُ ما بينهمْ كَلاَمُ
يا سيدي لا تَسِرْ إليه   إلَّا إذا هَوَّمَ النِيَامُ
والليلُ سترٌ على التصابي   عليه من فَضْلِهِ لِثام
والسُّرْجُ قد مُدِّدَتْ[1] عليه   منها دنانيرُ لا تُرام
وهو قد امْتَدَّ والمباني   عليه في خدمةٍ قِيام
لِلَّهِ كَمْ دَوحَةٍ جَنَيْنا   هناك أثمارُها الأَثامُ

قال المقريزي: وفيه تحامل كثير، انتهى.

ومَنْ نظر بعين الإنصاف علم أن التحامل في نسبة التحامل إليه، واللّٰه تعالى الموفّق.

قال ابن سعيد: ومعاملة الفُسْطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء، كلّ درهم منها ثلاثة[2] من الدراهم[3] الناصرية، وفي المعاملة بها شدّة وخسارة في البيع والشراء، ومخاصمة بين الفريقين، وكان بها قديمًا الفلوس، فقطعها الملك الكامل، فبقيت الآن مقطوعة منها. وهي في الإقليم الثالث، وهواؤها رديء، لا سيما إذا هبَّ الْمَرِيسي من جهة القبلة، وأيضًا فرَمَدُ العين فيها كثير، والمعايش فيها متعذّرة نَزْرة، لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك[4] المدارس قليلة كدرة، وأكثر ما يتعيّش بها اليهود والنصارى في كتابة الطب والخراج، والنصارى بها يمتازون بالزنّار في أوساطهم، واليهود بعمائم صُفر، ويركبون البغال، ويلبسون الملابس الجليلة، ويأكل أهل القاهرة البَطَارخ، ولا تُصْنع حلاوة القمح إلَّا بها وبغيرها من الديار المصرية، وفيها جَوَارٍ طباخات أصلُ تعليمهنّ من قصور الخلفاء الفاطميين، ولهنَّ في الطبخ صنائع عجيبة، ورياسة متقدّمة، ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفُسْطاط دون القاهرة. انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام أبي الحسن النور بن سعيد رحمه اللّٰه تعالى.

وقال رحمه اللّٰه: [المجتث]

كَمْ ذا تُقِيمُ بمصر   مُعَذَّبًا بِذَوِيها
وكيف ترجو نَدَاهُمْ   والسُّحْبُ تَبْخَلُ فيها

(١) في طبعة عبد الحميد: «قد بَدَتْ»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الطبعة نفسها: «ثلاث».
(٣) في طبعة دار صادر: «من الدرهم الناصري».
(٤) الجوامك: جمع جَوْمك وهو رواتب خُدّام الدولة. محيط المحيط (جمك).

وقال رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

لابن الـزبيـر مكـارمٌ أضْحَتْ بهـا ... طَيْـرُ المـدائـح في البـلاد تُغَـرِّدُ
إنْ قَيَّـدوه وَبَـالَغُـوا فـي عَصْـره ... فـالْكَـرْمُ يُعْصَـر والجَـوَادُ يُقَيَّـدُ[1]

ولنذكر بعض أخبار والده، فإنه ممّن رحل إلى المشرق وتوفي بالإسكندرية، وقـد ذكر ابنه أبو الحسن في «المغرب» وغيره من أخباره العجائب، ولا بأس بأن نُلِمَّ بشيء من ذلك، سوى ما تقدّم، فنقول:

من أخباره أنه لَمَّا اجتاز بمالَقَةَ ومشـرفها إذ ذاك أبـو علي بن تقي[2] وَجَّه إليـه من نقل أسبابه إلى داره وأقبل عليه مُنْشِدًا: [الكامل]

أكـذا يَجُـوز القَـطْر لا يَثْني عـلى ... أرضٍ تَـوَالَـى جَـدْبُهـا مِنْ بَعْـدِهِ
ألـلّهُ يـعْـلَمُ أنـهـا مـا أنـبـتـتْ ... زَهَـرًا ولا ثـمَـرًا بـمـدّة فـقـده
عَـرِّجْ عـليهـا سـاعـةً يـا مَنْ لـه ... حَسَبٌ يـفـوق العـالـمينَ بمَجْـدِهِ
وانْـثُـرْ عـليهـا من أزاهِـرِكَ التـي ... تَشْفِي المُتَيَّم مِنْ لَـوَاعـجِ وَجْـدِهِ
والـلّه مـا ذاكـرْتُ فكـرَكَ سـاعـةً ... إلاّ وأقْـبَسَ خـاطـري مِـنْ زَنْـدِهِ

قال موسى: فارتجلت للحِين: [السريع]

أنتَ الـذي تَعْـرِفُ كيف الـعُـلاَ ... وتَبْـتَـدِي فـي سُبُـل الـمَجْـدِ
بـدأتَ بـالفضـل المنيـرِ الـذي ... أَكْـمَـلَ بَـدْرَ الشُّـكْـرِ والحَـمْـدِ
والـلّه مـا أَبْصَـرْتُكُـمْ سـاعـةً ... إلاّ بَـدَا لـي طـالـعُ الـسَّـعْـدِ

وانصرفت معه إلى منزله: [المجتث]

فـلم أزلْ فـي كَـرَامَـهْ ... لـيـسـتْ كـظلٍّ غَـمـامَـهْ

ولَمَّا كان أبو عمران موسى بن سعيد بالجزيـرة الخضراء مُقَـدَّمًا على أعمـالها من قبـل

---

(١) في طبعة ليدن: «والجوادُ يُعْقَدُ».
(٢) في طبعة دار صادر: «ابن مبقّى». وفي طبعة بولاق: «ابن بقي».

ابن هودٍ وصله كتاب من الفقيه القاضي أبي عبد اللّه محمد بن عسكر[1] قاضي مالَقَة مع أحد الأدباء، منه: [الطويل]

أُفاتحُ مَنْ قلبي بعَلْيَاهُ واثِقٌ … وإن كانت الأبصارُ لم تنسخِ الودّا
وَثِقْتُ بما لي من ذمام تشيُّعي … بآلِ سعيدٍ وابْتغيتُ به السَّعْدَا
وبالحبِّ يدنو كلُّ مَنْ أقصَتِ النوى … برغمِ حِجَابٍ للنوى بَيْنَنا مُدّا

يا سيدي الذي حملني ما أمال أسماعي من الثناء عليه، أن أهجم على مفاتحته شافعًا في موصِّلها إليه، واثقًا بالفرع لعلم الأصل، مؤمّلاً للإفضال بتحقّق الفضل، إن لم تَقْضِ باجتماع بيننا الأيام، فلا تجري[2] بالمشافهة بيننا إلاّ ألسن الأقلام، ويوحي بعضنا إلى بعض بسُوَر الوداد، والحمد للّه الذي أطلعك في ذلك الأفق بدرًا، وأدناك من هذه الدار فصيَّرْنا لقُرب مَنْ يرد عنك لا نعدم لك ذكرًا، فكلٌّ يُثْني بالذي علمت سعد، ويصف من خلالك ما يقضي ذلك المجد، ولَمّا كان إحسانك يبشّر به الصادر والوارد، ويحرّض عليه الغائب والشاهد، مَدَّ أمله نحوك موصل هذه المفاتحة، وليس له وسيلة ولا بضاعة إلاّ الأدب وهي عند بيتك الكريم رابحة، وهو من شَتَّتَتْ خطوبُ هذا الزمان شَمْله، وأبانت نوائبه صبره وفضله، وما طمح ببصره إلاّ إلى أفقك، ولا وَجَّه رجاءه إلاّ نحو طرقك، والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنتْ حقائبه، وأعْنَقَتْ من الحمد رَكَائبه، دُمْتَ غرّة في الزمن البهيم، مخصوصًا بأفضل التحيّة والتسليم، انتهى.

وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحّر في العلوم، وله كتاب في أنساب بني سعيد أصحاب هذه الترجمة، ومن شعره[3]: [السريع]

أهْوَاكَ يا بَدْرُ وأهْوَى الذي … يَعْذِلُني فيكَ وأهْوَى الرقيبْ
والجارَ والدارَ ومَنْ حَلَّها … وكلَّ مَنْ مَرَّ بها مِنْ قريبْ
وكلَّ مُبْدٍ شَبَهًا منكُمُ … وكلَّ مَنْ يلفِظُ باسم الحبيبْ

---

(١) هو محمد بن علي بن خضر بن هارون بن عسكر الغساني؛ من أهل المعرفة بالأحكام، وله شعر رائق وتآليف في الحديث. بقي بمالقة قاضيًا إلى أن توفي سنة ٦٣٦ هـ. تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢٣).
(٢) في طبعة دار صادر: «فلا تجزىء من المشافهة».
(٣) سيرد البيتان الأول والثاني في الجزء الرابع دون تغيير عمّا هنا.

رجع ـ قال ابنه علي: لَمَّا أردْتُ النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة أول وصولي إلى الإسكندرية، رأى أن يكتب لي وصيّة أجعلها إمامًا في الغربة، فبقى فيها أيامًا إلى أن كتبْتها عنه، وهي هذه، وكفى بها دليلاً على ما اختبَرَ وعلم: [السريع]

أُوْدِعُكَ الرحمنَ في غُرْبَتِكْ ... مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ في أوبَتِكْ[1]

وما اختياري كان طَوعَ النوى ... لكنني أجْري على بُغْيَتِكْ

فلا تُطِلْ حَبْلَ النوى إنني ... واللّه أشتاقُ إلى طَلْعتكْ

مَنْ كان مَفْتُونًا بأبنائه ... فإنني أمْعَنْتُ في خبرتك

فاختصِرِ التوديع أخْذًا، فما ... لي ناظرٌ يَقْوَى على فُرْقَتِكْ

واجْعَلْ وَصَاتي نُصْبَ عينٍ ولا ... تَبْرَحْ مدى الأيام من فكرتكْ

خُلَاصةُ العُمْرِ التي حُنِّكَتْ ... في ساعة زُفّتْ[2] إلى فِطْنَتِكْ

فللتَّجاريبِ أمورٌ إذا ... طالَعْتَها تَشْحَذُ مِنْ غفلتكْ

فلا تَنَمْ عن وَعْيِهَا ساعَةً ... فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكْ

وكلُّ ما كابَدْتَهُ في النوَى ... إيّاك أن يكسرَ مِنْ هِمَّتك

فليسَ يُدْرَى أصْلُ ذي غُرْبة ... وإنما تُعرفُ مِنْ شِيمتك

وكلُّ ما يُفْضي لِعُذْرٍ فلا ... تجعلْهُ في الغُرْبة من إربتك[3]

ولا تجالِسْ مَنْ فشَا جَهْلُهُ ... واقْصِدْ لمن يرغبُ في صنعتكْ

ولا تجادلْ أبدًا حاسِدًا ... فإنه أدْعَى إلى هَيْبَتِكْ

وامْشِ الْهُوَيْنَى مُظْهِرًا عِفّةً ... وابْغِ رضا الأعْيُنِ عن هيئتكْ

أَفْشِ التحيَّاتِ إلى أهْلِهَا ... ونبِّهِ الناسَ على رتبتكْ

وانْطِقْ بحيثُ العيُّ[4] مُسْتَقْبَحُ ... واصْمُتْ بحيثُ الخيْرُ في سكتتك

ولا تزلْ مجتمعًا طالبًا ... مِنْ دَهْرِك الفُرْصَةَ في وَثْبَتكْ

وكلما أبْصَرْتَها أمْكَنتْ ... ثِبْ واثِقًا باللّه في مُكنتكْ

ولِجْ على رِزْقك مِنْ بَابِهِ ... واقْصِدْ له ما عِشْتَ في بُكْرتكْ

---

(١) الأوبة: العودة. مختار الصحاح (أوب).

(٢) في طبعة ليدن: «رفت».

(٣) الإِرْبَةُ: الحاجة. مختار الصحاح (أرب).

(٤) العيُّ: العجز في النُّطْق عن إظهار المراد. لسان العرب (عيي).

وآيَــأسْ مِــن الــودِّ لــدى حــاســدٍ ضِــدٍّ ونــافِــسْــهُ عــلى خُــطّتِــكْ
ووفِّــر الــجــهــدَ فَــمَــنْ قَــصْــدُهُ قَــصْــدُكَ لا تَعْتِبْــه فـي بـغْـضَـتِـكْ
ووفِّ كُــلًّا حَــقَّــهُ ولْــتَــكُــنْ تكســرُ عنــد الفخـر مِنْ حِـدّتِـكْ
ولا تــكــن تَــحْــقِــرُ ذا رُتْــبــةٍ فــإنــه أنــفــعُ فــي غُــرْبَــتِــكْ
وحَــيْــثُــمــا خَــيَّــمْــتَ فــاقْــصِــدْ إلى صُحْبَــة مَنْ تَــرْجُــوه في نصْــرَتِــكْ
ولِــلرَّزَايَــا وَثْــبَــةٌ مــا لــهــا إلاّ الــذي تــدْخَــر[1] مـن عُــدَّتِــكْ
ولا تــقُــلْ أسْــلَمُ لــي وحْــدَتــي فقــد تُقَــاسِي الــذلَّ في وَحْــدَتِــكْ
ولْــتَــزِنِ الأحــوالَ وزْنًــا ولا تــرجــعْ إلى مــا قــام في شهــوَتِــك
ولتجعــلِ العقــلَ مَحَكًّــا وخُــذْ كُلاً بمـا يظـهر فـي نَقْدتك
واعْــتَــبِــرِ الــنــاسَ بــألــفــاظِــهِــمْ واصْحَبْ أخًــا يَــرْغَبُ في صُحْبَتِــكْ
بَعْــدَ اختبــارٍ منــك يَــقْضِي بمــا يَحْسُنُ في الأخْــدَانِ[2] من خلطتــك
كم من صَــدِيق مُــظْهِــرٍ نُصْحَــهُ وفِــكْــرُهُ وَقْــفٌ عــلى عَــثْــرَتِــكْ
إيــاكَ أنْ تَــقْــرَبَــهُ، إنَّــهُ عَــونٌ مَــعَ الــدَّهْــرِ على كُــرْبَتِــكْ
واقْنَــعْ إذا مــا لم تَــجِــدْ مَــطْمَعًــا واطْمَــعْ إذا أُنْعِشْتَ[3] مِنْ عُسْرتِــكْ
وانْــمُ نُــمُــوَّ الــنَّــبْــتِ قــد زَارَهُ غــبُّ الــنــدى واسْمُ إلــى قُــدْرَتِــكْ
وإنْ نَــبَــا دَهْــرٌ فَــوَطِّــنْ لــه جَــأْشَــكَ وانْــظِرْهُ إلــى مُــدَّتِــكْ
فــكــلُّ ذي أمــرٍ لــه دَوْلَــةٌ فَــوَفِّ مــا وَافَــاك فــي دَولَــتِــكْ
ولا تُــضَــيِّــعْ زَمَــنًــا مُــمْــكِــنًــا تــذكــارُهُ يــذكي لَــظَى حَسْــرَتِــك
والــشَّــرُّ مهــمــا اسْــطَعْتَ لا تَــأْتِــهِ فــإنــه حُــوبٌ[4] عــلى مُــهْــجَــتِــكْ

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلي، ولا منصوح لي مثله، قد[5] قدمْتُ لك في هذا النـظم ما إن أخطرته بخاطرك في كل أوان رجوتُ لك حسن العاقبة، إن شاء اللّه تعالى، وإنَّ أخفَّ منه للحفظ وأعلق بالفكر وأحقّ بالتقدّم قول الأول: [المتقارب]

---

(١) في طبعة دار صادر: «تذخر» بالذال المعجمة.
(٢) الأخدان: جمع خِدْن وهو الصديق والصاحب. لسان العرب (خدن).
(٣) في طبعة دار صادر: «إذا نَفَّسْتَ».
(٤) الحُوْبُ، بضم الحاء وسكون الواو: الحزن والوحشة. محيط المحيط (حوب).
(٥) كلمة «قد» ساقطة من طبعة دار صادر.

يَـزِينُ الغـريـبَ إذا مـا اغتَـربْ   ثـلاثٌ فـمنـهـنَّ حُـسْـنُ الأدبْ
وثـانـيـةٌ حُـسْـنُ أخـلاقِـهِ   وثـالِـثَـةٌ اجتـنـابُ الـرِّيَـبْ

وإذا اعتبرْتَ هذه الثلاثة ولزمْتَها في الغربة رأيتَها جامعة نافعة، لا يلحقك إنْ شاء اللّه تعالى مع استعمالها ندم، ولا يفارقك برّ ولا كرم، وللّه درُّ القائل: [الطويل]

يُعَـدُّ رفيعَ القـومِ مَنْ كـان عـاقـلاً   وإن لـم يكـن في قَـومِـه بحَسِيـبِ
إذا حَـلَّ أرْضًـا عـاش فيهـا بعَقْلِهِ   ومـا عـاقِـلٌ فـي بَلْدَةٍ بـغَـرِيـبِ

وما قَصَّرَ القائلُ حيث قال: [المنسرح]

واصْبِـرْ على خُلْقِ مَنْ تُعـاشِـره   وَدَارِهِ فـالـلـبـيـبُ مَـنْ دَارَى
واتَّـخِـذِ النـاسَ كـلَّهُـمْ سَكَنًـا   ومَـثِّـلِ الأرضَ كُـلَّهَـا دَارَا

وأَصْغِ، يا بنيَّ، إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر، وسُلَّم الكرم والصبر: [الكامل]

ولَـوَ آن أوطـانَ الـديـار نَـبَتْ بـكمْ   لَـسَـكَـنْـتُـم الأخـلاقَ والآدَابَـا

إذ حُسْنُ الخلق أكرم نزيل، والأدبُ أرحب منزل، ولتكن كما قال بعضهم[1] في أديب متغرّب: وكان كلّما طرأ على ملك فكأنه معه ولد، وإليه قصد، غير مستريب بدهره، ولا منكر شيئًا من أمره، وإذا دعاك قلبك إلى صحبة مَنْ أخذ بمجامع هواه فاجعل التكلّف له سُلَّمًا، وهُبَّ في روض أخلاقه هُبُوبَ النسيم، وحُلَّ بطرفه حُلولَ[2] الوسن، وآنزل بقلبه نزول المسرّة، حتى يتمكّن لك وداده، ويخلص فيك اعتقاده، وطهِّر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخِّصْ في جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه، لمنفعته، أو حسود له يغار لتجمّله بصحبتك، ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته، ولا تتمهّد بدوام رقدته، فقد ينبّهه الزمان، ويغير منه القلبَ واللسان، ولذا قيل: إذا أحببت[3] فأحبب هونًا مّا، ففي الممكن أن ينقلب الصديق عدوًّا والعدوّ صديقًا، وإنما العاقل مَنْ جعل عقله معيارًا، وكان

---

(١) في طبعة دار صادر: «قال أحدهم».
(٢) في طبعة دار صادر: «محلّ الوسن».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «أحبيت» وهو خطأ.

كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله، وجعل نصب ناظره قول أبي الطيِّب[1]: [الوافر]

وَلَـمَّـا صـار وُدُّ الـنـاس خِـبًّـا ... جَـزَيْتُ على ابتسامٍ بـابتسـامِ[2]

وفي أمثال العامة: من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحْتذِ[3] بأمثلةِ مَنْ جَرَّبَ، واستمعْ إلى ما خلَّد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزُبْدة تجاربهم، ولا تتّكلْ على عقلك، فإنَّ النظر فيما تعب فيه الناس طولَ أعمارهم وابتاعوه غاليًا بتجاربهم يُرْبحك، ويقع عليك رخيصًا، وإن رأيت مَنْ له مروءةٌ وعقلٌ وتجربة فاستفدْ منه، ولا تضيِّعْ[4] قوله ولا فعله، فإنَّ فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك، وحَثًّا لك واهتداء، وإياك أن تعمل بهذا البيت في كل موضع: [الكامل]

فـالْحُرُّ يُخْـدَعُ بالكـلامِ الـطَّيِّبِ

فقد قال أحدهم: ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمّل، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبّره، فإن كان موافقًا لعقلك مصلحًا لحالك فراعِ[5] ذلك عندك، وإلَّا فانبِذْه نَبْذَ النواة، فليس لكلِّ أحد يُتَبَسَّمُ، ولا كلّ شخص يُكَلَّمُ، ولا الجود ممّا يُعَمُّ به، ولا حُسْنُ الظنِّ وطِيبُ النفس ممّا يعامل به كل أحد، ولله در القائل: [الطويل]

وَمَـا لـي لا أُوفي الـبَـرِيَّـةَ قِسْـطَهَـا ... عَلَى قَـدْرِ مَـا يُعطى وعَقْليَ مِيـزَانُ

وإياك أن تعطي من نفسك إلَّا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى، ولا تضيع عمرك فيمن يملكك[6] بالمطامع، ويَثْنِيكَ عن مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة، واسمع قول الأول: [المتقارب]

وبِـعْ آجِـلاً منـك بـالْعـاجِـلِ

---

(1) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٢١).

(2) الخِبُّ، بكسر الخاء: الخداع. لسان العرب (خبب). يقول: لمَّا صار ودُّ الناس مخادعةً يبشّون بوجوههم، وقلوبهم مطويّة على المكر، جاريتهم على أخلاقهم، فابتسمت إليهم كما ابتسموا إليَّ.

(3) في طبعة دار صادر: «فاحتذى مثله».

(4) في الطبعة نفسها: «ولا تضيع فعله ولا قوله».

(5) في طبعة دار صادر: «قوّاه ذلك..».

(6) في طبعة بولاق: «فيمن يعاملك».

وأقللْ مِنْ زيارة الناس ما استطعتَ ولا تَجْفُهُمْ بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء، ولا تقلْ أيضًا أقعد في كسر بيتي ولا أرى أحدًا، وأستريح من الناس، فإنَّ ذلك كسلٌ داعٍ إلى الذلّ والمَهَانة، وإذا علم عدوٌّ لك أو صديقٌ منك ذلك عامَلَاكَ بحسبه، فازدَرَاك الصديقُ وجَسَرَ عليك العدوُّ، وإياك أن يغرَّكَ صاحِبٌ واحدٌ عن أن تذخر[1] غيره للزمان، وتطيعه في عداوة سواه، ففي الممكن أن يتغيّر عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجدْ ذخيرةً قَدَّمْتَها، وكان هو في أوسع حال وأعلى رأي بما دبّره بحيلته في انقطاعك عن غيره، فلو اتّفق لك أن تصحب من كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عُدَّة لكان ذلك أولى وأصوب، وسَلْني فإني خبير، طال واللّه ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتمد على سواه، ولا أعتدّ إلاّ إياه، منخدعًا بسَرَابه، موثوقًا في حبائل خطابه، إلى أن لا يحصل لي منه غير العَضّ على البَنَان، وقول: «لو كان ولو كان»، ولا يحملنك أيضًا هذا القول أن تظنّه في كل أحد، وتعجل المكافأة، ولْيَكُنْ حُسْنُ الظنّ بمقدار[2]، واصبرْ بمقدار مّا، والفَطِنُ لا تخفى عليه مخايل الأحوال، وفي الوجوه دلالات وعلامات، وأصْغ إلى القائل: [الخفيف]

لـيس ذا وَجْـه مـن يـضيـف ولا يَـقـ ـرِي ولا يَـدْفَـعُ الأذى عـن حـريـم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فولِّ وَجْهَكَ عنه قبلةً ترضاها، ولتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلاَّ ربَّ حشمة ونعمة، ومن نشأ في رفاهية ومروءة، فإنك تنام معه في مِهَاد العافية، وإنّ الجياد على أعراقها تَجرِي، وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْمة، وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان: أَشَرِبَ مصعبٌ الخمر[3]؟ فقال عبد الملك، وهو عدوّ له محارب له على الملك: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه: [الكامل]

* والفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ *[4]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «تدخر» بالدال المهملة.

(٢) في طبعة دار صادر: «بمقدار ما، واصبر بقدر ما..».

(٣) مصعب: هو مصعب بن الزبير، وقد جرت بينه وبين عبد الملك بن مروان معركة قُتل فيها مصعب، وصار الأمر لعبد الملك. الشعر والشعراء (ص ٤٥٠).

(٤) سيأتي هذا الشطر في الجزء الرابع.

يا بنيَّ، وقد علمت أن الدنيا دار مُفارقةٍ وتغيّر، وقد قيل: اصْحَبْ مَنْ شئتَ فإنك مُفارقه، فمتى فارقْتَ أحدًا فعلى حسنى في القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجع إليه، فلذلك قال الأول: [الطويل]

ولَمَّا مَضى سلْمٌ بكيتُ على سلْمِ

وإياك والبيت السائر[1]: [الوافر]

وَكُنْتَ إذَا حَلَلْتَ بدَارِ قَوْمٍ   رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَركْتَ عَارَا

واحرص على ما جمع قول القائل[2]: ثلاثة تبقي لك الودَّ في صدر أخيك، أن تبدأه بالسلام، وتُوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه، واحذرْ كلَّ ما بَيَّنَهُ لكَ القائل: كلُّ ما تغرسه تجنيه إلَّا ابن آدم فإنك إذا غرسته يقلعك، وقول الآخر: ابن آدم يتمسكن حتى يتمكّن، وقول الآخر: ابن آدم ذئب مع الضعف، أسد مع القوّة. وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختباره، فيحكى أن ابن المقفّع خطب من الخليل[3] صحبته، فجاوبه: إنَّ الصحبة رِقٌّ، ولا أضع رِقِّي في يدك حتى أعرف كيف مَلَكتك. واسْتَمْلِ مِنْ عَينِ مَنْ تعاشره، وتفقّد في فلتات الألسن وصفَحات الأوجه، ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرّك أن لا تبيّنه، فإنَّ الكلام سلاح السلْم، وبالأنين يُعْرف ألم الجرح، واجْعلْ لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك، وآكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار، وتسلِّم للأقدار: [المنسرح]

واقْبَلْ مِنَ الدهرِ ما أتاك به   مَنْ قَرَّ عَينًا بِعَيشِهِ نَفَعَهْ

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتضاعف الغموم، ومُلازمة القُطُوب، عنوان المصائب والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدوّ المجانب، ولا تضرّ بالوساوس إلَّا نفسك؛ لأنك تنصر بها الدهر عليك، ولله درُّ القائل: [الوافر]

إذا ما كنتَ للأحزان عَونًا   عليك مَعَ الزمانِ فَمَنْ تلومُ

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه (ص ٢١٦).

(٢) النص في عيون الأخبار (جـ٣ ص ١٣) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) الخليل: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي.

مع أنه لا يردُّ عليك الفائتَ الحزنُ[1]، ولا يرعوي بطول عتبك الزمنُ. ولقد شاهدتُ بغَرْناطة شخصًا قد ألِفَتْهُ الهمومُ، وعَشِقَتْهُ الغمومُ، من صغره إلى كبره، لا تراه أبدًا خليًّا مِنْ فكره، حتى لقد[2] لُقِّب بصدر الهَمِّ، ومن أعجب ما رأيْتُه منه أنه يتنكّد في الشدّة، ولا يتعلّل بأن يكون بعدها فرج، ويتنكّد في الرخاء خوفًا من أن لا يدوم، وينشد: [المتقارب]

تَوَقَّعْ زَوَالاً إذا قِيلَ تَمّْ

وينشد[3]: [الطويل]

وعِنْدَ[4] التَّناهي يَقْصر المتطاولُ

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا عمره مخسور يمرّ ضياعًا. ومتى رَفَعك الزمان إلى قومٍ يَذُمّون من العلم ما تحسنه حسدًا لك، وقَصْدًا لتصغير قدره عنده، وتزهيدًا لك فيه، فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مَشْيُ الحَجَلة فرام أن يتعلّمه فصعب عليه، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه، فبقي مخبل المشي [كما قيل: [الكامل]

حَسَدَ القطا وأراد يَمْشي مشيها ... فأصابه ضربٌ من العُقَّالِ
فأضلَّ مِشْيَتَهُ وأخطأ مَشْيَها ... فلذاك سَمَّوهُ أبا مِرْقالِ][5]

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله، ويقول: ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح[6] فيه، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممّن صحبه

---

(١) هو من قول المتنبي: [البسيط]

فما يُدِيْمُ سرورٌ ما سُرِرْتَ به ... ولا يَرُدُّ عليكَ الفائتَ الحَزَنُ

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٠٨).

(٢) كلمة «لقد» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) هو عجز بيت للمعري، وصدره هو:

وإن كنتَ تَهْوَى العَيْشَ فابْغِ توسّطا

وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٤٥٠).

(٤) في وفيات الأعيان: «فعند».

(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر. وقد ذكر المحقق الدكتور إحسان عباس هذين البيتين في الحاشية.

(٦) في طبعة دار صادر: «يستراح».

الحرمان، واستحَقَّتْ طلعته للهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال، فمقتوهم، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم، وتعذير أمورهم. ولا تُزِلْ هذين البيتين مِنْ فِكْرِك: [مجزوء الرمل]

لِنْ إذا ما نِلْتَ عِزًّا ... فأخو العِزِّ يلينُ
فإذا نابَكَ دَهْرٌ ... فكما كنتَ تكونُ

ولا قول الآخر: [مجزوء الكامل]

تِهْ وارْتَفِعْ إنْ قيلَ أقْـ ... ـتَرَ وانخفض إنْ قِيلَ أَثْرَى
كالغُصْن يسفل ما اكتسى ... ثمرًا ويعلو ما تَعَرَّى

ولا قول الآخر[1]: [البسيط]

الخيرُ يبقى وإنْ طال الزمان به ... والشَّرُّ أخْبَثُ ما أوعيتَ من زادِ[2]

واعتقد في الناس ما قاله القائل[3]: [الطويل]

ومَنْ يَلْقَ خيرًا يَحْمَدِ الناسُ أَمْرَهُ ... ومَنْ يَغْوِ لا يَعْدَمْ على الغيِّ لائما

[وقريب منه قول القائل: [المتقارب]

بقَدْرِ الصُّعودِ يكونُ الهبوطُ ... فإياك والرتب العاليهْ
وكُنْ في مكانٍ إذا ما سَقَطْتَ ... تقومُ ورِجْلاك في عافيه][4]

وتَحفَّظ بما تضمّنه قول الآخر[5]: [السريع]

ومَنْ دَعا الناسَ إلى ذمِّه ... ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالباطلِ

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه (ص ٤٩). كذلك نُسب إلى طرفة في ديوانه (ص ٤٥).

(٢) أَوْعَيْتَ من زاد: جعلت الزاد في الوعاء. مختار الصحاح (وعى).

(٣) البيت للمرقش الأصغر، وقد ورد في الشعر والشعراء (ص ١٤٣).

(٤) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر، وقد أورد المحقق الدكتور إحسان عباس البيتين في الحاشية.

(٥) البيت منسوب إلى كعب بن زهير، وقد ورد في نهاية الأرب (جـ٣ ص ٦٨) وفي التمثيل والمحاضرة (ص ٦٢).

ولله درّ القائل[1]: [الكامل]

مـا كـلُّ مـا فـوقَ البسيـطة كـافيًـا ... فـإذا اقْتَنَعْتَ[2] فكـلُّ شيء كـافـي

والأمثال يضربها لذي اللُّبِّ الحكيم، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم، والفَطِنُ يقنع بالقليل، ويستدلّ باليسير، واللَّه سبحانه خليفتي عليك، لا رَبَّ سواه.

نجزت الوصيّة وتكفيك عنوانًا على طبقته في النثر.

وله رسالة كتب بها إلى ملك المغرب أبي محمد عبد الواحد بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن[3] مهنّئًا له بالخلافة حين بُويع بها بمراكش، وكان إذ ذاك بإشبيلية، وكان قبل ذلك كاتبًا له ومختصًا به:

الحضرة العليّة، السامية السنيّة، الطاهرة القدسيّة، حضرة الإمامة، وجنّة دار الإقامة، مَدَّ اللَّهُ على الإسلام ظلالها، وأنمى في سماء السعادة تمامها وكمالها، وهنّأ المؤمنين باستقبال إمارتها، وأدام لهم بركة خلافتها، عَبْدُ أياديها، وخديم ناديها، المتوسِّل بقديم الخدمة، المتوصِّل بعميم النعمة وكريم الحرمة، المنشد بلسان المسرَّة، حين أطلع الزمان هذه الغُرَّة[4]: [المتقارب]

أتـتـه الـخـلافـةُ مُـنْـقـادةً ... إلـيـه تـجـرِّرُ أذيـالَـهـا
فـلـم تَـكُ تـصـلحُ إلاّ لـه ... ولـم يَـكُ يـصـلحُ إلاَّ لـهـا

موسى بن محمد بن سعيد [بن محمد][5] لا زال هذا الأمر العلي محمودًا سعيدًا، ولا برح يستزيدُ ترقيًا وصعودًا[6]: [المجتث]

يـا نـعـمـة الـلَّه زيـدي ... إن[7] كـان فـيـك مـزيـدُ

---

(١) البيت لأبي فراس الحمداني، وقد جاء في ديوانه (ص ١٨٠).
(٢) في الديوان: «قَنَعْتَ».
(٣) هو عبد الواحد بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي؛ ولي الملك سنة ٦٢٠ هـ، وتوفي سنة ٦٢١ هـ. الحلل الموشية (ص ١٢٣) وفيه أن كنيته أبو مالك.
(٤) البيتان لأبي العتاهية، وقد وردا في ديوانه (ص ٦١٢) بتحقيق د. شكري فيصل.
(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٦) البيت لابن عبد ربه، وهو في ديوانه (ص ٦٤).
(٧) في ديوان ابن عبد ربه: «ما كان. . .».

سلام اللّه الكريم، يخصّ حضـرة الإجلال والتعـظيم، والتقديس والتفخيم، ورحمتـه وبركاته، وبعد حمد اللّه الذي بلغ الإسلام بهذه الخلافة آماله، وحَلَّى بهذه الولايـة السعيدة أحـواله، والصـلاة والسلام على سيّـدنا محمـد نبيّه الكـريم، الذي أدحض[1] اللّه تعـالى به الكفر وضلاله، وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله، وامتثلوا أفعاله، والرضا عن الإمام المهدي المعلوم الذي أفاء اللّه بـه على الدين الحنيفي ظـلاله، وأذهب عنـه طواغيتـه وضلاله، والدعاء للمقام العالي الكريم، بالسعد المتوالي والنصر الجسيم، وكتب العبد وقـد ملأت هذه البشرى المسرّة أفقه، ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقه[2]: [البسيط]

فهــذه رتبــةٌ مــا زلتُ أرقُبُهــا ... فــاليـومَ أبْسُط آمــالي وأحْتَكِمُ

ولا أقنع مني إنِ اقتصرتْ على السمـاء دارًا، والهلال للبشيـر سوارًا، والنجـوم عِقدًا، والصباح بندًا، حتى أسُرَّ كل أحد بشكله، وأقابل كل شخص بمثله[3]: [الطويل]

ومن خَـدَم الأقـوامَ يَـرْجُـو نــوالهمْ ... فــإنِّيَ لم أخْـدُمْـك إلّا لأُخْـدَمَـا

وما بعد الخلافة رتبة، ودون ثَبِير تنحطُّ كلُّ هَضْبة، فـالحمد للّه رب العـالمين، وهنيئًا لعباده المؤمنين، حيث نظر لهم نظر رحمة، فأسبل عليهم ستر هذه النعمة[4]: [الكامل]

ولقــد علمتُ بــأنَّ ذلــك مِعْـصَمٌ ... مــا كـان يتــركُـهُ بغيــر سِــوارِ[5]

واللّه أعلم حيث يجعل رسالاته، وإلى مَنْ يشير بآياته، فللّه صباح ذلـك اليوم السعيـد وليلته، لقد سَفَر عن وجه من البُشْرى أضاءت الآفاق شرقًا وغربًـا غرّتُـه، ولقد اجتمعت آراءُ السداد، حتى أتت الإسلامَ بالمراد، فأخذ القـوس باريهـا، وحلَّ بـالدار بـانيها، هنيئًـا زادك الـرحمن لطفًـا[6] وخيـرًا، ولا بـرحت المسـرّات تسيـر إليـك سَيـرًا، وهـل يصلح النـور إلاَّ للمُقَــل، وهـل يليق بـالحسن إلاَّ الحُلَـل؟ فـالآن مَهَّـدَ اللّه البَـرَّين، وأفـاض العـدل على العُدْوتين، وقَدَّم للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان، ولا يختصُّ بحفظه إنسان دون إنسان،

---

(١) في طبعة دار صادر: «دحض اللّه تعالى بنبوّته الكفر..».
(٢) تقدّم هذا البيت في الجزء الأول وجاء فيه: «خطّة» بدل «رتبة».
(٣) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه (ص ٢٦٣).
(٤) البيت أيضًا لأبي تمام وهو في ديوانه (ص ١٣٧).
(٥) في الديوان: «ولقد عَلِمْتَ.. ما كنتَ تتركه..».
(٦) في طبعة دار صادر: «الرحمن خيرًا..».

خليفة له النفس العُمَرية، والآراء العَمْرية، والفراسة الإياسية، ولا ينبئك مثل خبير، فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير، ولعمري لقد صار[1] الصباح في إشراق النهار، ولم يخْف عنا ما زاد الدنيا من البَهْجَة والمسارّ، وشملت الناسَ هذه البشائر، وعَمَّتْ كلّ باد وحاضر، وأصاخوا لتاليها إصاخة المجدبين لمرتادهم، وأهطعوا[2] لها مُهَلّلين ومكبّرين إهطاع الناس لأعيادهم، وأما العبد فقد أخذ بحظّه، حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه[3]: [المتقارب]

ومِنْ[4] فَرَحِ النَّفْسِ ما يَقْتُلُ

وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم، ويحسد عليها الهلال والنجم، بل يسلمان لما استحقّته من المراتب، ويخضعان إليها خضوع المفترض الواجب، أقرّ اللّه بها عيون المسلمين، وأفاض سُحُبَها على الناس أجمعين، وحفظها بعينه التي لا تنام، ووقف على خدمتها الليالي والأيام.

ولَمَّا قدم من الأندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله: [الكامل]

بشرى ويُسْرَى قد أنار المُظْلِمُ ... نَجْمًا وقد وضحَ الصباحُ المُعْلَمُ
ورَنَتْ عيونُ الأمنِ وهي قريرةٌ ... وبَدَتْ ثغورُ السَّعْدِ وهي تَبَسَّمُ
فارحلْ لتونسَ واعتقدْ أعلام مَنْ ... قَويَ الضعيفُ به وأثرى المعدمُ
حيثُ المعالي والمعاني والنَّدَى ... والفضلُ والقومُ الذين هُمُ هُمُ
أَجْرَوا إلى الغايات مِلْءَ عنانِهِمْ ... سَبْقًا وَبَذَّهُمُ الجوادُ المنعمُ
ساد الإمامُ المَلْكُ يحيىٰ سادةً ... أَعْطَى الوَرَى لهمُ القيادَ وسلّموا
إنَّ الإمارةَ مُذْ غَدَا يقتادُها ... يقظى وأجفانُ الحوادث نُوَّمُ
للّه منكَ مُبارَكٌ ذو فِطْنَةٍ ... بَزَغَتْ فأَحْجَمَ عندها مَنْ يُقْدِمُ
يقظانُ لا وانٍ ولا متقاعسٌ ... كالدهرِ يَبْني ما يشاءُ ويهدمُ

(١) في الطبعة نفسها: «عاد الصباح».
(٢) أهطعوا: مدّوا أعناقهم وصوّبوا رؤوسهم. مختار الصحاح (هطع).
(٣) الشطر عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وصدره هو:
فلا تُنْكِرَنَّ لها صَرْعَةً
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣١٤).
(٤) في الديوان: «فمن».

إنْ صـال فـاللَّيْثُ الهَصُـورُ المُقْـدِمُ أو سـال فالغَيثُ المغيثُ المثجم[1]
أعْـلَى منـارَ الـحقِّ حـين أمـالـه قـومٌ تَـبَـرَّأَتِ المنـابـرُ مِنْـهُـمُ
أعـلى الإلـهُ مكـانَـهُ وزمـانَـهُ والنصـرُ يقـدمُ والسعـادة تخـدمُ

وقـال يخاطب ملك المغرب مأمـون[2] بني عبـد المؤمن، حين أخـذ البيعـة لنفسـه بإشبيلية، وكان المذكور بمراكش ولبني سعيد بهذا الملك اختصاص قديم: [البسيط]

الـحـزمُ والـعـزمُ مَـوجُـودان والـنـظرُ واليُمْنُ والسَّعْـدُ مضمـونـان والـظَّفَـرُ
والـنـورُ فـاضَ عـلى أرجـاء أنـدلسٍ والـزّورُ لـيس لـه عَـيـنٌ ولا أثـر
حُثَّ الـركـابَ إلى هـذا الجنـاب فقـد ضـلّوا فـمـا تـنـفـعُ الآيـاتُ والـنُّـذُرُ
واعـزمْ كمـا عـزم المـأمـونُ إذ نَشَـزَتْ[3] أرض الـعـراق فـزال البـؤس والـضـررُ

ولَمَّا قدم العادلُ القائم بمُرْسِية المتولي على مملكة البَـرَّينِ إلى إشبيلية كـان في جملة من خرج للقائه، ورفع له قصيدة منها: [الطويل]

لـقـاءٌ بِـهِ للبِـرِّ والشكـر مَـجْمَـعُ إلى يـومـه كُنَّـا نَخُبُّ ونُـوضِـعُ[4]
لقـد يَسَّـرَ الـرحمنُ صَعْبَ مَـرامِـهِ فـأبصرْتُ أضعـاف الذي كنتُ أسمعُ

وله أيضًا: [السريع]

يـا مُـنْـعِـمًـا قـد جـاءنـي بِـرُّهُ مِـنْ غـيـر أن أُجْـري لـه ذِكْـرا
إنّـي أحـب الـخـيـر مـا جـاءنـي عَـفْـوًا، ولـم أعـمـل بـه فـكـرا[5]

وله في غلام واعظ، وهو من حسناته: [المجتث]

وشـادنٍ ظَـلَّ لـلـوَعْـ ـظِ تـالـيًـا بـيـن جَـمْـعِ
مَـتَّـعْـتُ طَـرْفي بـمـرآ هُ فـي خـفـارةِ سـمـعـي

---

(١) الغَيْثُ المُثْجم: المتساقط بسرعة؛ يقال: ثَجَمَتِ السماءُ إذا تساقط مطرها بسرعة. لسان العرب (ثجم).
(٢) هو أبو العلاء إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي؛ بويع له سنة ٦٢٤ هـ، وتوفي سنة ٦٢٩ هـ، فكانت خلافته خمس سنين وثلاثة أشهر. الحلل الموشية (ص ١٢٣ ـ ١٢٥).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «نشرت».
(٤) الخَبَبُ والإيضاع: ضربان من السَّيْر. لسان العرب (خبب) و (وضع).
(٥) في طبعة دار صادر: «إنَّ أَحَبَّ... ولم أَعْمُرْ به..».

وله من أبيات: [الطويل]

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الليالي تَغَيَّرَتْ ... ولكنّها ما غَيَّرَتْ منيَ العَهْدَا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر بن الجدّ، وأبو بكر بن زُهْر، وغيرهما، وحضر حصار طَليطلة مع منصور[1] بني عبد المؤمن، وكتب لملك البَرَّين أبي محمد عبد الواحد[2]، وكتب أيضًا عن مأمون بني عبد المؤمن، وكتب أخيرًا عن ملك بجَايَةَ والغرب الأوسط الأمير أبي يحيىٰ ابن ملك إفريقية، رحم اللّٰه تعالى الجميع!

رجع إلى أبي الحسن بن سعيد:

قال رحمه اللّٰه تعالى: حضرْتُ ليلَةَ أنسٍ مع كاتب ملك إفريقية أبي العباس أحمد الغَسَّاني، فاحتاجت الشمعةُ أنْ تُقَطَّ، فتناول قطَّها غلامٌ ببنانه، فقلت: [المتقارب]

ورَخْصِ البَنانِ تَصَدَّى لأنْ ... يَقُطَّ السراجَ بمثل العَنَمْ[3]

فقال:

ولم يَهَبِ النار في لَمْسه ... ولا احتاجَ في قَطِّهِ للجَلَمْ[4]

فقلت:

وما ذاك إلّا لِسُكْنَاه في ... فؤادي على ما حَوَى مِنْ ضَرَمْ

فقال:

تَعَوَّدَ حَرَّ لهيبٍ به ... فليس به من أُوارٍ[5] ألمْ

وأنشد في «المغرب» للغساني المذكور في خسوف القمر مما قاله ارتجالاً: [الوافر]

كأن البَدْرَ لَمَّا أنْ علاهُ ... خسوفٌ لم يكنْ يعتادُ غَيْرَهْ

---

(١) هو المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) مرَّ التعريف بأبي محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي في هذا الجزء (ص ١٢١).

(٣) العَنَمُ، بالفتح: شجر ليِّن الأغصان، تُشَبَّه به بَنان الجواري. مختار الصحاح (عنم).

(٤) الجَلَمُ، بالفتح: الذي يُجَزُّ به، وهما جَلَمان. مختار الصحاح (جلم).

(٥) الأُوار، بضم الهمزة: حَرُّ النار. محيط المحيط (أور).

سَجَنْجَلُ[1] غادةٍ قَلَبَتْهُ لَمَّا أراها شِبْهها حَسَدًا وغَيْرَهْ

وخاطبه المذكور برسالة يقول في آخرها: وعند حامل هذه الأحرف - سلَّمه اللَّه تعالى! - كُنْهُ خبري، واستيعاب ما قصر عنه قلمي فضاقت بحمله أسْطُرِي، لتعلم ما أجده وأفقده من تشوقي وتصبّري، وأني لا أزال أنشد حيث تذكُّري وتفكُّري: [البسيط]

يا نائيًا قد نأى عنِّي بِمُصْطَبَرِي وثاوِيًا في سَوَاد القَلْبِ والبَصَرِ
إذا تناسيتَ عَهْدًا مِنْ أخي ثقةٍ فاذكرْ عهودي فما أُخْلِيكَ مِنْ فِكَرِي
وأردد عليّ تحياتي بأحسنها تَرْدُدْ عليّ حياتي آخر العمر

ولْنُمْسِكِ العِنان عن الجري في ميدان أخبار ابن سعيد، فإنها لا يُشَقُّ غبارها، ومنها قوله رحمه اللَّه تعالى: سمعْتُ كثيرًا من السماع المشرقي، فلم يهزّني مثلُ قول الشريف الشمسي المكي: [مجزوء الرمل]

مُقَلٌ بالدمع غَرْقَى وفؤادٌ طارَ خَفْقَا
وتَجَنٍّ وَتَثَنٍّ شَقَّ جَيبَ الصبر شَقّا
يا ثقاتي خبروني عن حديثِ اليوم حَقّا
أكذا كُلُّ مُحِبٍّ فارقَ الأحبابَ يشقى
لا وعَيشٍ قد تَقَضَّى وغرامٍ قد تَبَقَّى
ونعيمٍ في ذَرَاكُمْ قد صَفَا دهرًا ورَقَّا
ونسيمٍ مِنْ حِماكُمْ حملَ الوَجْدَ فَرَقَّا
برسالاتٍ صبابا تٍ على المُشْتاقِ تُلْقَى
وغصونٍ ناعماتٍ بمياهِ الدَّنِّ[2] تُسْقَى
ووجوهٍ فِقْنَ حُسْنًا[3] فَمَلأنَ الأرضَ عشقا
لو رضيتمْ بيَ عَبْدًا ما رضيتُ الدَّهْرَ عِتْقا

---

(١) السَّجَنْجَل: المرآة، روميّ معرّب. مختار الصحاح (سجل).
(٢) الدَّنُّ: الراقود العظيم، وهو وعاء ضخم للخمر. لسان العرب (دنن).
(٣) في طبعة دار صادر: «فِضْنَ حُسْنًا».

وقال: ما سمعْتُ ولا وقفتُ على شيء أبدع من قول الجزار، وقد تردّد إلى جمال الدين بن يغمور[1] رئيس الديار المصرية فلم يُقَدَّر له الاجتماع به: [الخفيف]

أسألُ اللَّهَ أن يُدِيمَ لكَ العِزْ ... زَ ويُبْقيكَ ما أردْتَ البقاءْ

كلَّ يَوْمٍ أرجو النعيمَ بِلُقْيا ... كَ فألقى بالبُعْدِ عنك شَقَاءْ

علم الدهرُ أنني أشتكيه ... لك إذ نلتقي فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الإحسان، وكتب في حقّه إلى ولاة الصعيد كُتُبًا أغنتْه مدة عن شكوى الزمان، انتهى.

وقال أيضًا: ولم أسمع في وضع الشيء موضعه أحسن من قول المتنبي[2]: [الطويل]

وأَصْبَحَ شِعْرِي مُتْهِمًا في مكانه ... وفي عُنُقِ الحُسْناء يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ

ولم أسمع في وضع الشيء غير موضعه أحسن من قول أبي الفرج: [الرمل]

مَرَّ مَذْحِجي ضائعًا في لُؤْمِهِ ... كضياعِ السَّيفِ في كَفِّ الجبانِ

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب «عِدّة المستنجز، وعُقْلَة المستوفز» وذكر فيه أنه ارتحل من تونس إلى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦، وأورد في هذا الكتاب غرائب وبدائع، وذكر فيه أنه لَمَّا دخل الإسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر، فأُخْبِرَ بحاله، وما جرى له مع التتر حتى قتلوه بعد الأمان، ثم ساق فيه دخول هُولاكُو حلبَ؛ فقال بعد كلام كثير: وارتَكبَ في أهل حلب التتر والمرتدون ونصارى الأرمن ما تَصَمُّ عنه الأسماع، وكان فيمن قُتل بتلك الكائنة البدرُ بن العديم الذي صدر عنه من الطبقة العالية في الشعر مثلُ قوله: [مجزوء الكامل]

واهًا لعَقْرَبِ صُدْغِهِ ... لو لم تكن لِلَمَاهُ[3] تَحْمِي

ولِغُفْلِ خَطِّ عِذارِهِ ... لو بِتُّ أُعْجِمُهُ بلثمي[4]

---

(١) هو يوسف بن أحمد بن محمود الأسدي الدمشقي، المعروف بابن يغمور؛ توفي سنة ٦٧٣ هـ. وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ١٢).

(٢) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢١٨) وجاء فيه: «منهما» بدل «مُتْهِمًا».

(٣) اللَّمى، بالفتح: سُمْرة في الشفة تُسْتَحْسَنُ. مختار الصحاح (لمي).

(٤) الغُفْلُ، بضم الغين وسكون الفاء: المهمل من النقط والشكل. أُعْجِمُهُ: أنقطه. لسان العرب (غفل) و(عجم).

وابنُ عمه الافتخار بن العديم الذي وقع له مثلُ قوله: [الكامل]

والغُصْنُ فيه الماءُ مُطَّرِدٌ والماءُ فيه الغصنُ منعكسُ

ثم قال، لَمَّا ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء التتر على بلاد حلب والشام وما يليهما، ما نصُّه: قال مَنْ دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق: قَبَّلْتُ يده، وجعلْتُ أدعو له، وأُظْهر تعزيته على ما جرى من تلك المصائب العظيمة، فأضرب عن ذلك، وقال لي: فيم تتغزّل اليوم؟ ثم أنشدني قوله في مملوك فقد[1] له في هذه الكائنة: [السريع]

واللَّه ما أبكي لِمُلْكٍ مَضَى ولا لحالٍ ظاعنٍ أو مُقِيمْ

وإنما أبكي وقد حَقَّ لي لِفَقْدِ مَنْ كنتُ به في نعيمْ

يَطْلعُ بَدْرًا ينثني بانَةً يمرُّ فيما رُمْتُهُ كالنسيمْ

في خاطري أُبْصِرُهُ خاطرًا فألْتَوِي مثل التواء السقيمْ

يا عاذلي، دَعْني وما حلَّ بي فما سوى اللَّه بحالي عليمْ

إنْ مُتُّ مِنْ حزنٍ له أَسْتَرِحْ وإن أعِشْ عشتُ بهمٍّ عظيمْ

قال: ثم إنه سار نحو هولاكو، فلمّا مَرَّ بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد قال: [الطويل]

مررتُ بجَرْعَاءِ الحِمَى فَتَلَفَّتَتْ لِحاظي إلى الدارِ التي رحلوا عنها

ولو كان عندي ألفُ عَينٍ وقمْتُ في معالمها عمري لَمَا شَبِعَتْ منها

وصنع في نعيها أشعارًا يغنّي بها المسمّعون، ثم رحل إلى صحراء يُوشَنَ[2] في جهة طريق أرمينية، فوجد هولاكو هنالك في تلك المروج المشهورة بالخصب، فأنزله، وأقام يشرب معه إلى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على التتر للملك المظفر قُطُزَ صاحب مصر سنة ٦٥٨، فقتلوه، وخلعوا عظم كتفه، وجعلوه في أحد الأعلام على عادته في أكتاف الملوك، انتهى باختصار.

رجع:

---

(١) في طبعة دار صادر: «فقده في . .».

(٢) في الطبعة نفسها: «يوش».

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد[١].

وكان صعب الخلق، شديد الأنَفَة، جرى بينه وبين أقاربه ما أَوْجَبَ خروجه إلى أقصى المشرق، وفي ذلك يقول، وكتب به إليهم: [الخفيف]

مَنْ لصَبٍّ يَرْعَى النجومَ صَبابَهْ ... ضَيَّعَ السَّيْرُ في الهموم شبابَهْ
زِدْتُ بُعْدًا فزِدْتُ فيه اقترابًا ... بودادي كذاكَ حُكْم القرابَهْ
منزلي الآن سَمرقَنْدُ وبالقَلْـ ... ـعَةِ رَبْعٌ وطئتُ طفلاً تُرابَهْ
شدّ ما أبْعَدَ الفراقُ انتزاحي ... هكذا الليثُ ليس يدري اغترابَهْ
لا ولا أرتجي الإيابَ لأمرٍ ... إنْ يَكُنْ يرتجي غريبٌ إيابه

وكتب لهم من بُخارى[٢]: [الوافر]

إذا هَبَّتْ رياحُ الغَرْبِ طارتْ ... إليها مُهْجتي نَحْوَ التَّلاقي
وأحْسَبُ مَنْ تَرَكْتُ به يُلاقي[٣] ... إذا هَبَّتْ صَبَاها ما أُلاقي
فيا ليت التَّفَرُّقَ كان عَدْلاً ... فَحُمِّلَ ما يطيق[٤] مِن اشْتياقي
وليت العُمْرَ لم يَبْرَحْ وصالاً ... ولم يُخْتَمْ[٥] علينا بالفراقِ

إذا كان الشوق فوق كل صِفة، فكيف تعبّر عنه الشفة، لكن العنوان دليل[٦] على بعض ما في الصحيفة، والحاجبُ قد ينوب في بعض الأمور مَنابَ الخليفة، وما ظنّكم بمشوق طريح، في يد الأشواق طليح[٧]، يقطع مسافات الآفاق يتقلّب تقلب الأفياء، ويتلوّن تلوّن الحِرْباء، حتى كأنه يَخْبُرُ مساحات الأرض، ذات الطول والعرض، ويجوب أهوية

---

(١) ترجمة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد في المغرب (جـ٢ ص ١٧٢)، وهنا ينقل المقري عن المغرب.
(٢) الأبيات في المغرب.
(٣) في طبعة ليدن: «وأحسبُ ما تركْتُ بها..».
(٤) في المغرب: «ما نطيق».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «يحتم». وفي المغرب: «يحكم».
(٦) في طبعة دار صادر: «دلالة».
(٧) الطليح: التَّعِبُ الهزيل. محيط المحيط (طلح).

الأقاليم السبع، خارجًا بما أدخله فيه اللّجاج عن السمع[1]، فكأنه خليفة الإسكندر، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر، جزت إلى بر العُدْوة من الغرب الأقصى، ثم تشوقت[2] نفسي فطمحت إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة من المشاق ما لا يحصى[3]، ثم تشوقت إلى إفريقية دربِ بلاد الشرق، فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلادي من الفرق، واختطفت من عيني تلك الطلاوة، وانتزعت من قلبي تلك الحلاوة: [الطويل]

فللَّه عَينٌ لم تَرَ العَينُ مِثْلَها ولا تلتقي إلَّا بجَنّات رِضْوَانِ

ثم نازعتني النفس التوّاقة إلى الديار المصرية، فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه إلّا المشاهدة[4] إلى أن أبصرت منار الإسكندرية، فيا لك من استئناف عمر جديد، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد، ثم صعدت إلى القاهرة قاعدة الديار المصرية، لمعاينة الهرَمَيْن وما فيهما من المعالم الأزلية، وعاينت القاهرة المعزّيّة، وما فيها من الهمم العلية[5] الملوكية، غير أنّي أنكرت مبانيها الواهية، على ما حوتْ مِنْ أولي الهمم العالية، وكونها حاضرة العسكر الجرّار، وكرسيَّ الملك العظيم المقدار، وقلت: أصداف فيها جواهر، وشوكٌ مُحْدِقٌ بأزاهر، ثم ركبت النِّيلَ وعاينْتُ تماسيحه، وجُزْتُ بحر جدة وذقت تباريحه، وقضيت الحجّ والزيارة، ومِلْتُ إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمّارة، فهنالك بعتُ الزيارة بالأوزار[6]، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار، إذ هي كما قال أحد مَنْ عاينها[7]: [البسيط]

أمَّا دمشقُ فَجَنّاتٌ مُعَجَّلَةٌ للطالبينَ بها الولدانُ والحُورُ

فللَّه ما تضمّن داخلها من الحور والولدان، وما زُيِّن به خارجها من الأنهار والجنان، وبالجملة فإنها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناقُ الفَصَاحة، وتقصر عن مناولتها في ميدان

---

(١) في طبعة دار صادر: «عن الشرع».
(٢) في الطبعة نفسها: «فطمحت نفسي إلى مشاهدة».
(٣) في الطبعة نفسها: «يحصر».
(٤) في الطبعة نفسها: «المشافهة».
(٥) كلمة «العلية» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٦) الأوزار: جمع وزر وهو الإثم والخطيئة. لسان العرب (وزر).
(٧) البيت لعرقلة الدمشقي الكلبي، وقد ورد في رحلة ابن بطوطة (ص ٨٥).

الأوصاف كل راحة، ولم أزل أسمع عن حلب، أنها دار الكرم والأدب، فأردت أن يَحْظى بصري بما حظي به سمعي، ورَحَلْتُ إليها وأقمتُ جابرًا بالمذاكرة والمطايبة صَدْعي، ثم رحلْتُ إلى الموصل فألفيت مدينة عليها رَونق الأندلس، وفيها لطافة وفي مبانيها طلاوة ترتاح لها الأنفس، ثم دخلْتُ إلى مقرِّ الخلافة بغداد، فعاينْتُ من العِظَمِ والضخامة ما لا يفي به الكتب ولو أن البحر مِدَاد، ثم تغلغلْتُ إلى[1] بلاد العجم بلدًا بلدًا، غير مقتنع بغاية ولا قاصد أمدًا، إلى أن حللْتُ بِبُخاري قبّة الإسلام، ومجمع الأنام، فألقيتُ بها عصا التسيار، وعكفْتُ على طلب العلم واصلاً في اجتهاده سَوَادَ الليل وبياضَ النهار، انتهى.

وكتب إليهم أيضًا من هذه الرسالة: كتبت وقد حصّلتني السعادة، وحظّ الأمل والإرادة، بحضرة بُخارى قبّة الإسلام.

وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته: «وإن كنت قد تحصَّنْت بقبّة الإسلام، فقد تعجلْت لنا ولك الفَقْدَ قبل وقت الحِمَام».

وأتبعوا ذلك بما دعاه لأن خاطبهم بشعر منه: [الطويل]

عتبتمْ على خَتّي المطيَّ وقُلْتُمُ ... تَعَجَّلْتَ فَقْدًا قبل وقت حِمامِ
إذا لم يكنْ حالي مُهِمًّا لديكُمُ ... سواء عليكم رِحْلَتي ومقامي

وقُتل المذكور بِبُخارى، حين دخلها التتر، وهو عَمُّ علي بن سعيد الشهير.

وكان لعبد الرحمن المذكور أخٌ يُسَمَّى يحيىٰ قد عانى الجنديّة، فلمّا بلغه أنَّ أبا القاسم عبد الرحمن قُتل بِبُخارى قال: لا إلّه إلَّا اللَّه! كان أبدًا يُسَفِّهُ رأيي في الجنديّة، ويقول: لو اتَّبَعْتَ طريق النجاة كما صنعْتُ أنا لكان خيرًا لك، فها هو رَبُّ قلمٍ قد قُتل شَرَّ قتلة بحيث لا ينتصر وسُلِبَ سلاحُه، وأنا ما زلت أُغازي في عُبَّاد الصليب وأخلص، فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة، انتهى.

قال أبو الحسن علي بن سعيد: ثم إن يحيىٰ المذكور بعد خَوضه في الحروب صَرَعه في طريقه غلام كان يخدمه، فذبحه على نَزْرٍ من المال، أفلَتَ به، فانظر إلى تقلّب الأحوال كيف يجري في أنواع الأمور لا على تقدير ولا احتياط، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «في بلاد».

ومن شعر أبي القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيبَ الأشراف بِبُخارى، وقد أهدى إليه فاخِتًا[1] مع زوجه: [الطويل]

أيـا سيِّدَ الأشـرافِ لا زلْتَ عـاليًـا ... معـاليك تَنْبُـو الـدهـرَ عن كـلِّ نـاعتِ
مِنَ الفضـلِ إقبـالٌ على مـا بعثتـه ... لـمغنـاكَ من شـادٍ دَعَـوهُ بـفـاختِ
ألاَ حَبّـذا مِنْ فـاختٍ سـاد جِنْسَـهُ ... وأصبـحَ مقـرونًـا بستّ الـفـواخت
لئن فـاتني منـه الأنيسُ فكـلُّ مـا ... يـحـلّ إلى عـليـاك لـيس بـفـائـت

١٦٨ - ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن عبد اللّٰه بن يوسف بن حمزة، القرطبي، الأنصاري، المعروف بابن العابد.

نزيل رباط الصاحب الصفي بن شُكْر[2]، قال بعض المشارقة عنه: إنما سُمِّيَت الخمر بالعجوز لأنها بنتُ ثمانين، يعني عدد حدِّها[3]، وأنشد له: [المتقارب]

عـذلـنـا فُـلاَنًـا على فِـعْـلِهِ ... ولُمْنَـاه في شـربـه للعجـوزْ
فـقـال: دَعُـونيَ مِـنْ أجلهـا ... أنـالُ أنـا وأخـي والـعـجـوزْ

١٦٩ - ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد اللّٰه محمد بن علي بن يوسف بن محمد بن يوسف، الأنصاري[4]، الشاطبي الأصل، البَلَنْسي المولد في أحد ربيعي سنة إحدى وستمائة، ولقّبه المشارقة برضي الدين.

وتوفي بالقاهرة في جمادى الأولى سنة ٦٨٤، رحمه اللّٰه تعالى!.

ومن نظمه لَمَّا حضر أجله، وقد أمر خادمه أن ينظّف له بيته، وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمان، ففعل ذلك، فلمّا دخل عليه وجده ميتًا، وقد كتب في رقعة: [الكامل]

حـان الـرحيـلُ فـودِّعِ الـدارَ التي ... مـا كـان سـاكـنُهـا بـهـا بِمُـخَلَّدِ
واضْـرَعْ إلى الملكِ الجـوادِ وقُـلْ لـه ... عبـدٌ ببـابِ الجـودِ أصبح يَجْتَـدِي[5]
لـم يـرض غيـر الـلّٰه مـعـبـودًا ولا ... دينًـا سـوى ديـن الـنبـي مـحـمـد

(١) الفاخت: نوع من الحمام البرّي من ذوات الأطواق. لسان العرب (فخت).
(٢) هو صفي الدين عبد اللّٰه بن علي، المعروف بابن شكر، وزير الملك العادل بمصر.
(٣) حَدُّ شارب الخمر ثمانون جلدة، ولذلك قيل: الخمر بنت ثمانين.
(٤) ترجمة محمد بن علي الأنصاري الشاطبي في الوافي بالوفيات (جـ ٤ ص ١٩٠) وبغية الوعاة (ص ٨٣).
(٥) يجتدي: يطلب الجدوى يسأل. مختار الصحاح (جدي).

ومن نظمه أيضًا رحمه اللّٰه تعالى: [الطويل]

أقولُ لنفسي حين قابلها الرَّدَى ... فرامتْ فرارًا منه يُسْرَى إلى يُمْنَى
قِري، تَحَمَّلي بَعْضَ الذي تكرهينَهُ ... فقد طالما اعْتَدْتِ الفرارَ إلى الأَهْنَى

أنشده له[1] تلميذه أبو حَيَّان إمام عصره في اللغة.

حدّث عن ابن المنير وغيره، واشتغل الناسُ عليه بالقاهرة، وله تصانيف مفيدة، وسمع من الحافظ أبي الربيع بن سالم، وكتب على صحاح الجوهري وغيره حواشيَ في مجلّدات، وأثنى عليه تلميذه أبو حيان، رحم اللّٰه تعالى الجميع!

ومن فوائده قوله: نقلت من خط أبي الوليد بن خِيَرَة الحافظ القرطبي في فهرست أبي بكر بن مفوّز: قد أدركته بِسنّي ولم آخذ عنه واجتمعت به، أنشدني له أبو القاسم بن الأبرش يخاطب بعض[2] أكابر أصحاب أبي محمد[3] بن حزم، والإشارةُ لابن حزم الظاهري[4]: [البسيط]

يا مَنْ تُعَاني أمورًا لن تُعانيها[5] ... خَلِّ التعاني وأَعْطِ القَوْسَ باريها
تَرْوِي الأحاديثَ عن كلٍّ مُسامَحَةً ... وإنّما لِمُعانِيها مَعانيها

وقد سبق في ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي ذكر هذين البيتين عندما أجرينا ذكر ابن حزم، قال: وإنما قال هذا الشعر في ذكر رواية ٱدُّعِيَتْ على قول النبي ﷺ: «إنَّ خالدًا قد احتبس أدراعه وأَعْتُدَه في سبيل اللّٰه» وصحّح رواية من روي «أعْبُدَه» جمع عبد، وعَلَّل رواية من روي «أعتده» بالتاء مثناة باثنتين من فوق جمع عَتَدٍ، وهو الفرس، قال ابن خِيَرة: الإحاطة ممتنعة، وهذه الرواية قد رواها جماعة من الأثبات والعلماء المحدّثين، فهو إنكار غير معروف، واللّٰه تعالى أعلم.

---

(١) كلمة «له» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٢) هو أبو بكر بن مفوز كما مرَّ في الجزء الثاني.
(٣) في طبعة ليدن: «أصحاب ابن حزم».
(٤) تقدم هذان البيتان في الجزء الثاني وفيه: «تعانيها» بدل «يعانيها».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «يعانيها».

ومن فوائده ما نقله تلميذه أبو حيان النحوي عنه، قال: أنشدنا للمقري ونقلته من خطِّه: [مجزوء الوافر]

إذا ما شِئْتَ مَعْرِفَةً لما[1] حارَ الوَرَى فيهِ
فَخُذْ خَمْسًا لأربعةٍ ودَعْ للشوبِ رافيهِ

وهو لغز في ورد.

وقال: وأنشدنا لبعضهم: [الخفيف]

لا رَعَى اللّهُ عزمَةً ضَمِنَتْ لي سَلْوَةَ الصَّبْرِ والتَّصَبُّرَ عنْهُ
ما وَفَتْ غيرَ ساعةٍ ثم عادتْ مِثْلَ قلبي تقول: لا بُدَّ منْهُ

قال: وأنشدنا لغيره: [الطويل]

وكان غريْبَ الحُسْنِ قبلَ التحائِهِ فَلَمَّا الْتَحَى صار «الغريبَ المُصَنَّفَا»[2]

وأنشدنا لغيره: [مجزوء الرمل]

طِبْ على الوحدة نَفْسا وارْضَ بالوحشة أُنْسَا
ما عليها من يساوي حين يُستخبرُ فَلْسَا

وقرأ الرضيُّ ببلده على ابن صاحب الصَّلاَة[3] آخر أصحاب ابن هذيل، وسمع منه كتاب التلخيص للواني، وسمع بمصر من ابن المقيّر، وجماعة، وروى عنه الحافظ المزي[4] واليونيني والظاهري وآخرون، وانتهت إليه معرفة اللغة وغريبها، وكان يقول: أعرف[5] اللغة على قسمين: قسم أعرف معناه وشواهده، وقسم أعرف كيف أنطق به فقط، رحمه اللّه تعالى!.

---

(١) في طبعة دار صادر: «بما حارَ..».

(٢) الغريب المصنَّف: هو كتاب في اللغة لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي المتوفَّى سنة ٢٢٤ هـ. وهو من أجلِّ كتبه في اللغة، احتذى فيه كتاب النضر بن شميل المازني، الذي يسميه كتاب الصفات. تاريخ بغداد (جـ ١٢ ص ٤٠٤) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٦١).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الصِّلات» وهو خطأ، وابن صاحب الصلاة هو صاحب كتاب «المنّ بالإمامة» ويدور هذا الكتاب حول تاريخ الموحدين.

(٤) في طبعة ليدن: «المري» بالراء المهملة.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «أحرف اللغة».

ومن فوائد الرضي الشاطبي المذكور ما ذكره أبو حيان في البحر قال: وهو من غريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد اللّٰه محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزينب بنت إسحٰق النصراني الرسعيني[1] : [الطويل]

عَدِيٌّ وتَيمٌ لا أُحاوِلُ ذِكْرَهُمْ ... بسوء، ولكنِّي مُحِبٌّ لهاشمِ
وما يعترِيني في عليٍّ ورَهْطِهِ ... إذا ذُكِروا في اللّٰه لَوْمَةُ لائم
يقولون: ما بال النصارى تُحِبُّهُمْ؟ ... وأهلُ النّهَى مِنْ أَعْرُبٍ وأعاجم
فقلتُ لهمْ: إني لأحْسَبُ حُبَّهُمْ ... سرى في قلوب الخلقِ حتى البهائمِ

ومن نظم الرضي المذكور: [البسيط]

مُنَغَّصُ العيش لا يأوي إلى دَعَةٍ ... إن[2] كان في بلدٍ أو كان ذا ولدِ
والساكنُ النفس مَنْ لم تَرْضَ هِمَّتُهُ ... سُكْنَى بلادٍ ولم يَسْكُنْ إلى أحدِ

وله: [مخلع البسيط]

لولا بناتي وسيئاتي ... لَطِرْتُ شوقًا إلى المَماتِ
لأنني في جوارِ قومٍ ... بَغَّضَني قُرْبُهُمْ حياتي

وقرأ عليه أبو حيان كتاب «التيسير» وأثنى عليه، ولَمَّا توفي أنشد ارتجالاً: [المتقارب]

نَعَوا لي الرضيَّ فقلْتُ لقد ... نُعِي ليَ شيخُ العُلَا والأدبْ
فَمَنْ لِلُّغاتِ ومَنْ لِلثِّقاتِ ... ومَنْ للنحاةِ ومَنْ للنسبْ
لقد كان للعلمِ بحرًا فغار ... وإنَّ غؤورَ البحار العجب
فَقُدِّسَ من عالمٍ عاملٍ ... أثارَ لشجويَ لَمَّا ذهب

وتحاكم إلى رضي الدين المذكور الجزّار والسّراج الورّاق أيّهما أشعر، وأرسل إليه الجزارُ شيئًا، فقال: هذا شعرٌ جَزْلٌ، مِنْ نمط شعر العرب، فبلغ ذلك الورّاق، فأرسل إليه شيئًا فقال: هذا شعر سَلِسٌ، وآخر الأمر قال: ما أحكم بينكما، رحمه اللّٰه تعالى!

قلت: رأيْتُ بخطِّه كتبًا كثيرة بمصر وحواشيَ مفيدة في اللغة وعلى دواوين العرب، رحمه اللّٰه تعالى!.

(١) في طبعة دار صادر: «الرَّسْعني».
(٢) في الطبعة نفسها: «من كان ذا بلدٍ».

١٧٠ - ومنهم حميد الزاهد، وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد بن أبي محمد عبد اللّٰه بن الحسن بن أحمد بن يحيىٰ بن عبد اللّٰه، الأنصاري، القُرْطبي، نزيل مالَقَة[١].

قال الرضي الشاطبي المذكور قريبًا: أنشدني حميدٌ بالقاهرة لأبيه أبي محمد وقد تأخّر شَيْبُهُ مع عُلُوِّ سِنِّه[٢]: [الطويل]

وهل نافعي أنْ أَخْطَأَ الشَّيْبُ مَفْرِقي ... وقد شابَ أترابي وشابَ لِدَاتِي
إذا كان خَطُّ الشَّيبِ يُوجَدُ عَينُهُ[٣] ... بِتِربي فَمَعْناهُ يَقُومُ بذاتي

واللِّدات: مَنْ وُلِدَ معه في زمان واحد، انتهى.

وفي ذكري أنه قال هذين البيتين لَمَّا قال له القاضي عياض: شِبْنَا ولم تشب[٤].

وقال الرضي أيضًا: أنشدني حميدٌ لأبيه فيمن يكتب في الورق بالْمِقص، وهو غريب: [المنسرح]

وكاتبٍ وَشْيُ طِرْسِهِ حِبَرٌ[٥] ... لم يَشِها حِبْرُهُ ولا قَلَمُهْ
لكنْ بمقراضِهِ يُنَمْنِمُها ... نَمْنَمَةَ الرَّوضِ جادَهُ رِهَمُهْ
يُوجِدُ بالقطعِ أحرفًا عُدِمَتْ ... فاعجبْ لشيء وجودُهُ عَدَمُهْ

والرهم: المطر.

قال: وتوفي حُمَيْد الزاهد هذا بمصر، قُبَيلِ الظهر من يوم الثلاثاء، وصُلِّي عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور، ودُفن بسَفْح المقطّم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي يدق الرصاص، حذاء رجليه، في

---

(١) حميد اسم شُهر به، واسمه الحقيقي أحمد. وأبوه أبو محمد هو عبد اللّٰه بن الحسن بن أحمد بن يحيىٰ بن عبد اللّٰه الأنصاري المالقي والقرطبي الأصل، وقد ترجم له ابن عبد الملك ترجمة واسعة في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٩١ - ٢١٧).

(٢) البيتان في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٢١٠).

(٣) في الذيل والتكملة: «لئن كان خطب الشَّيْب».

(٤) في المصدر نفسه: «شِبْنا وما شبتم».

(٥) الوَشْيُ: النَّقْش. الطِّرْسُ، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة. الحِبَرُ: جمع حِبَرَة وهي بُرْدٌ يمني منقوش، شبِّهت به الكتابة هنا. لسان العرب (وشى) و (حبر).

الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وستمائة، [ومولده سنة ستّ وستمائة][1]؛ انتهى.

١٧١ ـ ومنهم الْيَسَعُ بن عيسى بن حزم بن عبد اللّه بن اليسع بن عبد اللّه الغافقي[2].

من أهل بَلَنْسِيَة وأصله من جَيّان، وسكن أَلْمَرِية ثم مالَقَة، يكنى أبا يحيىٰ، كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس[3]. وله تأليف سماه «المعرب[4]، في أخبار محاسن أهل المغرب»، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة، وبها توفي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة، رحمه اللّه تعالى.

١٧٢ ـ ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي، يكنى أبا عبد اللّه، من أهل إشبيلية[5].

تجوّل في بلاد الأندلس طالبًا للعلم، ثم حَجَّ، ولقي الحافظ السِّلَفي وغيره، واستوطن تلمسان، وبها توفي في جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، وله تواليف كثيرة.

١٧٣ ـ ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللَّخْمي، الباجي[6].

من أهل إشبيلية، ولي القضاء بها، وأصله من باجة إفريقية، دخل المشرق لأداء الفريضة فحجَّ، وتوفي بمصر بعدما دخل الشام، في اليوم الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة، وكانت رحلتُه من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة.

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد.

(٢) ترجمة اليسع بن عيسى بنَ اليسع في المغرب (جـ ٢ ص ٨٨)، وقد مرّت ترجمته والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٣) قال في المغرب إنه كان يكتب بالأندلس عن المستنصر بن هود.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «المغرب» بالغين المعجمة.

(٥) ترجم له ابن الأبار في التكملة (ص ٥٨٨) ونسبة إلى لقنت من عمل مرسية، وذكر له عددًا كبيرًا من مصنّفاته.

(٦) ترجمة محمد بن أحمد اللخمي الباجي في التكملة (ص ٥٨٨) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٨٧).

١٧٤ ـ ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري[١].

من أهل سَرَقُسْطة، يكنى أبا العباس، له كتاب سمّاه «الوجازة، في صحة القول بالإجازة» وله رحلة لقي فيها ألف شيخ ومحدّث وفقيه، توفّي بالدينوَر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة، يروي عنه أبو ذرّ الهروي وعبد الغني الحافظ، وكفاه فخرًا بهذين الإمامين العظيمين، رحم اللّه تعالى الجميع!.

١٧٥ ـ ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد اللّه بن محمد الرُّعَيني الرُّنْدِي، يكنى أبا محمد[٢].

استوطن مالَقَةَ، ورحل إلى المشرق، وحجَّ، ولقي جماعة من العلماء، وقَفَلَ إلى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة[٣]، وولي الإمامة بالمسجد الجامع بمالَقَةَ، وبها توفي في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ولُقِّب في المشرق برشيد الدين، ووُلد في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها يالمالتين[٤] كورة بَشْتَغْيَر، ذكر ذلك ابن المستوفي في تاريخ إرْبل.

١٧٦ ـ ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد، الينيني[٥].

من أهل الأندلس، استوطن المشرق ومدح الملك الكامل، ومن شعره رحمه اللّه تعالى قوله: [الكامل]

لولا تَحَدِّيهِ بآيةِ سِحْرِهِ ... ما كنتُ ممتثلاً شريعةَ أَمْرِهِ
رَشَأٌ أُصَدِّقُهُ وكاذبُ وَعْدِهِ ... يُبْدي لعاشقه أدِلَّةَ غَدْرِهِ[٦]
ظهرتْ نُبُوَّةُ حُسْنِهِ في فَتْرةٍ ... مِنْ جَفْنِهِ وضلالةٍ من شَعْرِهِ

---

(١) في طبعة ليدن: «الغمري» بغين معجمة. وترجم ابن بشكوال لوليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري في الصلة (ص ٩٢٤) وقال: ابن أبي زياد، ونسبته الغمري والعمري، بغين معجمة وعين مهملة.

(٢) ترجمة عيسى بن سليمان الرعيني الرندي في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧).

(٣) هكذا في الذيل والتكملة، وأضاف ابن عبد الملك أنه أقام في رحلته نحو ستة عشر عامًا.

(٤) في طبعة دار صادر: «يلمالتين». وفي طبعة ليدن: «يلماتين».

(٥) في طبعة ليدن: «الينيبي».

(٦) في طبعة دار صادر: «عُذْرِهِ».

١٧٧ ـ ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضَّبِّيُّ[١].

رحل حاجًّا فلقي ببِجَايَةَ عبد الحق الإشبيلي، وبالإسكندرية أبا الطاهر بن عوف، ولقي غير واحد في رحلته كالغَزْنوي[٢] وابن بر[٣] وأبي الثناء الحراني وأبي الحسين الحُرَيْثي[٤]، وللحُرَيْثي أحاديث ساوى بها البخاري ومسلمًا، ولقي جماعة ممّن شارك السِّلَفي في شيوخه.

١٧٨ ـ ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد [بن][٥] جُبَيْر، الكناني، صاحب الرحلة[٦].

وهو من ولد ضَمْرة بن بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة، أندلسي، شاطبي، بَلَنْسي، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببَلَنْسية، وقيل في مولده غير ذلك[٧]، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد اللّه الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش، وأخذ عنه القراآت، وعُني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدّم في صناعة القريض والكتابة.

ومن شعره قوله، وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنًا نضيرًا من أحد بساتينها فذَوى في يده: [مجزوء الرجز]

لا تَغْتَرِبْ عن وَطَنٍ   واذْكُرْ تصاريفَ النَّوَى
أَمَا ترى الغُصْنَ إذا   ما فارق الأصلَ ذَوَى

---

(١) هو أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن أحمد بن عميرة، المعروف بالضَّبِّي، صاحب كتاب «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس»، توفي بمرسية سنة ٥٩٩ هـ. التكملة (ص ٩٣) ومقدمة بغية الملتمس.

(٢) في طبعة دار صادر: «كالفرنوي».

(٣) في الطبعة نفسها: «وابن بري».

(٤) في طبعة دار صادر: «الحديثي ـ وللحديثي . . ».

(٥) كلمة «بن» ساقطة من طبعتي دار صادر وعبد الحميد.

(٦) ترجمة محمد بن أحمد بن جبير في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٥٩٥) والتكملة (ص ٥٩٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٨٤) والإحاطة (جـ ٢ ص ٢٣٠) ومقدمة كتابة «رحلة ابن جبير».

(٧) في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٢١): مولده ببلنسية سنة ٥٣٩ هـ، وقيل بشاطبة سنة ٥٤٠ هـ.

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الخُجَنْدِي[1] : [السريع]

يـا مـن حَـوَاه الـديـن في عـصـره	صَـدْرًا يـحـلُّ الـعـلـمُ مـنـه فـؤادْ
مـاذا يَـرَى سيِّـدُنـا الـمـرتَـضَـى	فـي زائـرٍ يـخـطـبُ مـنـه الـودادْ
لا يَـبْـتـغـي مـنـه سـوى أحـرفٍ	يـعـتـدُّهـا أشـرف ذُخْـرٍ يُـفـادْ
تَـرْسُـمُـهـا أنـمـلُهُ[2] مـثـلَ مـا	نَـمَّقَ زَهْـرَ الـروضِ كفُّ الـعِـهَـاد
في رقعـةٍ كـالـصبـح أَهْـدَى لـهـا	يَـدَ المعـالي مِسْـكُ لـيـلِ المِـدادْ
إجـازةً يُـورِثُـنِـيـهَـا الـعُـلاَ	جـائـزةً تـبـقـى وتـفـنـى الـبـلادْ
يستصحـبُ الشكـرَ خـديمًـا لـهـا	والـشكـرُ لـلأمـجـادِ أسنى عَـتَـاد

فأجابه الصدر الخُجَنْدِي : [المتقارب]

لـك الـلَّهُ مِـنْ خـاطـبٍ خُـلَّتِـي	ومِنْ قـابِسٍ يجتـدي سِقْطَ زَنْـدِي
أَجَـزْتُ لـه مـا أجـازُوهُ لـي	ومـا حَـدَّثـوه ومـا صَـحَّ عنـدي
وكـاتِـبُ هـذي الـسـطـور الـتـي	تـراهُنَّ عبـدُ اللطيف الخُجَنْـدِي

١٧٩ ـ ورافقَ ابنَ جبير في هذه الرحلة أبو جعر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القُضَاعي[3]، وأصله من أُنْدَةَ من بَلَنْسِية، رحل معه فأدَّيا الفريضة، وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي، وأجاز لهما أبو محمد بن أبي عَصْرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما، ودخلا بغداد وتجوّلا مدّة، ثم قَفَلا جميعًا إلى المغرب، فسُمِع منهما به بعضُ ما كان عندهما.

وكان أبو جعفر هذا متحقّقًا بعلم الطبّ، وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم.

وكَتَبَ عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن، وجَدُّه لأمِّه القاضي أبو محمد عبد الحق ابن عطية.

---

(١) هو صدر الدين أبو القاسم عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف بن ثابت بن الحسن الخُجَنْدي ؛ من أهل أصبهان، فقيه فاضل، وأديب شاعر. توفي سنة ٥٨٠ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أنملةٌ».

(٣) ترجمة أبي جعفر أحمد بن الحسن القضاعي في التكملة (ص ٩٣) والذيل والتكملة (جـ ١ ص ٨٧). وفي الأخير: «أحمد بن حسان القضاعي».

وتـوفي أبو جعفـر هذا بمـراكش سنة ثمـانٍ، أو تسـعٍ وتسعين وخمسمـائـة، ولم يبلغ الخمسين في سنّه، رحمه اللّه تعالى!.

رجع إلى ابن جُبَير:

قـال لسان الـدين في حقّه: إنـه من علماء الأنـدلس بالفقـه والحديث والمشـاركـة في الآداب، ولـه الرحلة المشهـورة، واشتهرت في السلطان النـاصر صـلاح الدين بن أيـوب لـه قصيدتان: إحداهما أولها[1]: [المتقارب]

أَطَـلَّتْ على أُفْـقِـكَ الـزاهـرِ ... سُـعُـودٌ مِـنَ الـفـلَك الـدائـرِ

ومنـــها:

رَفَـعْتَ مـغـارمَ مَكْسِ الـحجـازِ ... بـإنعامـكَ الشـامـلِ الغـامـرِ[2]

وأَمَّـنْـتَ أكـنـافَ تـلك الـبـلادِ ... فـهـانَ السبيـلُ عـلى الـعـابـرِ

وسُـحْـبُ أيـاديـكَ فـيَّـاضَـةٌ ... عـلى واردٍ وعـلى صـادر

فكم لـكَ بـالشـرقِ مِنْ حـامِـدٍ ... وكم لـكَ بـالغَـرْبِ مِنْ شـاكـر

والأخـرى منهـا في الشكـوى من ابن شُكْـر الـذي كـان أخـذ المكس من النـاس في الحجاز[3]: [الوافر]

ومـا نـالَ الحجـازُ بكمْ صـلاحًـا ... وقـد نـالَـتْـهُ مِـصْـرُ والـشـآمُ

ومن شعره: [المتقارب]

أخــلاء هـذا الـزمـانِ الخؤون ... تَـوَالَتْ عليهمْ حـروفُ الـعِلَلْ

قَـضَيـتُ التَّـعَجُّـبَ مِنْ بـابِـهِمْ ... فَصِـرْتُ أُطـالـعُ بـابَ البَـدَلْ

---

(١) الأبيات الأول والثاني والخامس في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٥٩٨، ٦٠٠) ضمن قصيدة من ٥٤ بيتًا.

(٢) في الذيل والتكملة: «أهل الحجاز... الشامل الهامر».

(٣) البيت في المصدر السابق (ص ٦٢٠) ضمن قصيدة من ٦٥ بيتًا.

وقـولـه[1]: [المتقارب]

غـريـبٌ تَـذَكَّـرَ أوْطـانَـهُ فَهَيَّـجَ بـالـذِّكْـرِ أشجـانَـهُ
يَحُـلُّ عُـرَى صَبْـرِهِ بـالأسى[2] ويَـعْقِـدُ بـالـنجـم أجفـانَـهُ

وقـال رحمه اللَّه تعـالى، لَمَّا رأى البيت الحـرام زاده اللَّه شرفًـا [ومهابـة وتعظيمًـا][3] [المتقارب]

بَـدَتْ لـيَ أعـلامُ بيـتِ الـهُـدَى بـمـكَّـةَ والـنُّـورُ بـاد عـليـهِ
فَـأَحْـرَمْـتُ شـوقًـا لـه بـالهَـوَى وأهـديْـتُ قـلبـي هَـدِيًّـا إليـهِ

وقوله يخاطب مَنْ أهدى إليه مَوْزًا[4]: [المجتث]

يـا مُـهْـدِيَ الـمَـوْزِ تَـبْـقَـى ومِـيـمُـهُ لـكَ فـاءُ
وزَايُـهُ عـن قـريـبٍ لِـمَـنْ يُـعَـادِيـكَ تـاءُ[5]

وقال رحمه اللَّه تعالى: [السريع]

قـد ظَهَـرَتْ في عـصـرنـا فـرقـةٌ ظُـهُـورُهَـا شُـؤْمٌ عـلى الـعـصـرِ
لا تـقـتـدي فـي الـديـن إلاَّ بـمـا سَـنَّ ابنُ سـينـا وأبـو نَـصْـرِ[6]

وقال: [السريع]

يـا وَحْشَـةَ الإسـلامِ من فـرقـةٍ شـاغـلةٍ أَنْـفُـسَـهَـا بـالـسَّـفَـهْ
قـد نَبَـذَتْ دينَ الهـدى خَلْفَـهـا وادَّعَـتِ الحـكـمـةَ والـفـلسـفـهْ

(١) البيتان في المغرب (جـ٢ ص ٣٨٤).
(٢) رواية صدر البيت في المغرب هي:
يَـحُـلُّ جَـواهُ عـقـودَ الـعـزاءِ
(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.
(٤) البيتان في الذيل والتكملة (ص ٦٢٠).
(٥) جعل الفوز للذي أهداه الموز؛ إذ قلب ميم الموز فاء، فصارت الكلمة «الفوز». هذا في البيت الأول، وفي هذا البيت جعل الموت لعدوِّه، بوضعه حرف التاء مكان الزاي.
(٦) أبو نصر هو الفارابي.

وقـــال: [مخلع البسيط]

ضَلَّتْ بـأفعـالهـا الشنيعـهْ طـائِفَةٌ عن هُـدَى الشريعَـهْ
لَيْسَتْ تـرى فـاعـلاً حكيمًـا يفعـلُ شيئًـا سـوى الـطبيعَـهْ

وكان انفصاله ـ رحمه اللَّه تعالى! ـ من غَرْنَاطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨، ووصل الإسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة الحرام من السنة، فكانت إقامته على متن البحر من الأندلس إلى الإسكندرية ثلاثين يومًا، ونزل البَرَّ الإسكندراني في الحادي والثلاثين، وحجَّ، رحمه اللَّه تعالى، وتجوَّلَ في البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها، وكان ـ رحمه اللَّه تعالى! كما قال ابن الرقيق ـ من أعلام العلماء العارفين باللَّه، كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غَرْناطة، فاستدعاه لأنْ يكتب عنه كتابًا وهو على شَرابه، فمدَّ يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال: يا سيدي ما شربْتها قطّ، فقال: واللَّه لتشربَنَّ منها سبعًا، فلمَّا رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبَّ ذلك في حجرِهِ، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحجّ بتلك الدنانير، ثم رغب إلى السيد، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحجّ في تلك السنة، فأسعفه، وباع ملكًا له تزوّد به، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البِرّ.

ومن شعره في جارية تركها بغَرْنَاطة[1]: [مخلع البسيط]

طـولُ اغـتـرابٍ وبَـرْحُ شـوقٍ لا صَـبْـرَ والـلَّهِ لـي عـلَيْـهِ
إلـيـكَ أشـكـو الـذي أُلاقـي يـا خَيـرَ مَنْ يُشْتَكَى إلـيـهِ
ولـي بـغـرنَـاطَـةٍ حَـبـيـبٌ قـد غَـلِقَ الـرهـنُ فـي يـديـه
وَدَّعْـتُـهُ وهـو فـي دَلالٍ[2] يُـظْهِـرُ لـي بعضَ مـا لـديـه
فـلو تـرى طَـلَّ نَـرْجِـسَـيـهِ يَـنْـهَـلُّ فـي وَرْدِ وَجْـنَـتَيـهِ[3]
أَبْـصَـرْتَ دُرًّا عـلى عـقـيـقٍ مِـنْ دَمْعِـهِ فَـوْقَ صَـفْـحَـتَيـهِ[4]

---

(١) الأبيات في المغرب (جـ٢ ص ٣٨٤).
(٢) في المغرب: «وهو بارتماضٍ».
(٣) في المصدر نفسه: «صَفْحَتَيْهِ».
(٤) في المصدر نفسه: «وَجْنَتَيْهِ».

وله رحلة مشهورة بأيدي الناس.

ولَمَّا وصل بغداد تذكّر بلده، فقال: [الطويل]

سقى اللَّهُ بابَ الطاقِ[1] صَوْبَ غمامةٍ ... ورَدَّ إلى الأوطانِ كلَّ غريبِ

وقال في رحلته في حق دمشق[2]: جنةُ المشرق، ومطلعُ حُسْنِهِ المونق المُشْرق، هي خاتمة بلاد الإسلام التي اسْتَقْرَيناها، وعَروس المدن التي اجتليناها، قد[3] تحلَّت بأزاهير الرياحين، وتجلَّت في حُلَل سندسية من البساتين، وحلَّت من موضع[4] الحسن بمكان مكين، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين، وتشرّفت بأن آوى اللَّه تعالى المسيح وأمّه منها إلى رَبْوةٍ ذاتِ قَرَار ومَعِين، ظِلّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مَذَانبه انسيابَ الأراقم[5] بكل سبيل، ورياض يُحْيي النفوسَ نَسِيمُها العليل، تتبرّج لناظريها بِمُجْتلى صقيل، وتناديهم: هلمُّوا إلى مُعَرَّس للحسن ومَقِيل، قد سئمتْ أرضُها كثرةَ الْمَا[6]، حتى اشتاقت إلى الظَّمَا، فتكاد تناديك بها الصُّمُّ الصلاب: ﴿ ٱرْكُضْ برجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشرابٌ ﴾[7] قد أحدقَتْ[8] بها البساتينُ إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتنافَ الكِمامة[9] للزهر، وامتدَّتْ بشرقيّها غُوطَتُهَا الخضراء امتدادَ البصر، فكلُّ موقع[10] لحظة بجهاتها الأربع نظرتُه اليانعة قَيْدُ النظر، وللَّه صِدْقُ القائلين فيها[11]: إن كانت الجنَّة في الأرض فدمشقُ لا شكَّ فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسَامِتُها[12] وتُحاذيها.

---

(1) باب الطاق: محلّة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي. معجم البلدان (جـ ١ ص ٣٠٨).

(2) النص في رحلة ابن جبير (ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

(3) في طبعة عبد الحميد: «التي قد تحلَّتْ».

(4) في رحلة ابن جبير: «موضوع الحسن بالمكان المكين».

(5) المذانب: جمع مذنب وهو مسيل الماء. الأراقم: الحيّات، مفردها أرقم. لسان العرب (ذنب) و (رقم).

(6) في رحلة ابن جبير: «الماء. . . إلى الظماء».

(7) سورة ص ٣٨، الآية ٤٢.

(8) في رحلة ابن جبير: «أحدقت البساتين بها».

(9) الكِمامة، بكسر الكاف: غلاف الزهرة. لسان العرب (كمم).

(10) في رحلة ابن جبير: «موضع».

(11) في المصدر نفسه: «عنها».

(12) تُسامِتُها: تقابلُها. لسان العرب (سمت).

قال العلامة ابن جابر الوادي آشي، بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق، ما نصُّه: ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوّق الأنفس للتطلّع على صورتها بما أفاد، هذا ولم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، وما وصف ذهبيَّات أصيلها وقد حان من الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المتنوعات[1]، ولا أوقات سرورها المهنئات، ولقد أنصف من قال: ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، انتهى.

رجع إلى كلام ابن جبير فنقول:

ثم ذكر في وصف الجامع[2] أنه من أشهر جوامع الإسلام حُسْنًا، وإتقانَ بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. وشهرته المتعارَفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه. ومن عجيب شأنه أنه لا تنسج به العنكبوت، ولا تدخله، ولا تُلِمُّ به الطيرُ المعروفة بالخُطّاف. ثم مَدَّ النَّفَسَ في وصف الجامع وما به من[3] العجائب. ثم قال بعد عدّة أوراق ما نصُّه[4]: وعن يمين الخارج من باب جَيرون في جدار البلاط الذي أمامه، غُرْفة، ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طِيقانُ صُفْرٍ، وقد فُتِّحَتْ أبوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار، دُبِّرَتْ[5] تدبيرًا هندسيًا، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صَنْجَتَان من صُفْر من فَمَيْ بَازَيْنِ[6] مصوَّرَين من صُفْر قائمين على طاسَتين من[7] صُفْر تحت كل واحد منهما، أحَدُهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثاني تحت آخرها، والطاستان[8] مثقوبتان، فعند وقوع البُنْدُقتين فيهما تعودان داخلَ الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازَين يمدّان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين[9] ويقذفانها بسرعةٍ بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحرًا، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يُسْمَع لهما دويّ، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلَوْح من

(١) في طبعة ليدن: «المنوعات».
(٢) النص في رحلة ابن جبير (ص ٢٣٥).
(٣) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٤) رحلة ابن جبير (ص ٢٤٣ - ٢٤٤).
(٥) في المصدر نفسه: «ودُبِّرَتْ».
(٦) في المصدر نفسه: «بازيين».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «طاستَيْ صفر».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «والطاسان».
(٩) في الطبعة نفسها: «الطاسين».

الصُّفْر، لا يزال كذلك عند[1] انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلّها وتنقضي الساعات، ثم تعود إلى حالها الأول. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أنَّ في القوس المنعطف على تلك الطِّيقان المذكورة آثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرّمة، وتعترض في كلّ دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبّر ذلك كلّه منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عَمَّ الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعُها، فلاحت للأبصار دائرة محمرّة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمرّ الدوائر كلّها، وقد وُكّل بها في الغرفة متفقّدٌ لحالها، دَرِبٌ بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصَرْفَ الصنج إلى موضعها، وهي التي تسمّيها[2] الناس المِنْجانة، انتهى المقصود منه.

قلت: كل ما ذكر رحمه اللّه تعالى في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الأمر يسير، ومَنْ ذا يروم عدّ محاسنها التي إذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير[3]، وقد أطنب الناسُ فيها، وما بقي أكثر ممّا ذكروه، وقد دخلْتُها أواخرَ شعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة، وأقمْتُ بها إلى أوائل شوال من السنة، وارتحلْتُ عنها إلى مصر وقد تركْتُ القلبَ فيها رَهْنًا، وملك هواها مني فكرًا وذهنًا، فكأنها بلدي التي بها ربيتُ، وقَرَاري الذي لي به أهل وبيت؛ لأنَّ أهلها عاملوني بما ليس لي بشكره يَدَانِ، وها أنا إلى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان، ولا يَشُوقني ذكر أرض بابل ولا بغدان[4]، فاللّه سبحانه وتعالى يعطِّر منها بالعافية الأردان.

وقد عنّ لي أن أذكر جملة ممّا قيل فيها من الأمداح الرائقة، وأسرد ما خاطبني به أهلُها من القصائد الفائقة، فأقول:

قال البدر بن حبيب[5]: [الكامل]

يَمِّمْ دمشقَ ومِلْ إلى غَرْبِيِّها ... والْمَحْ محاسنَ حُسْنِ جامع بِلْبُغَا

من قال من حسد رأيتُ نظيره ... بين الجوامع في البلاد فقد لَغا

(١) في رحلة ابن جبير: «عند كل انقضاء».

(٢) في المصدر نفسه: «يسميها».

(٣) الحسير: المتعب المعيي. لسان العرب (حسر).

(٤) بغدان: لغة في بغداد.

(٥) هو بدر الدين الحسن بن عمر الحلبي المتوفّى سنة ٧٧٩ هـ. وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

وقال في كتاب «شِنْفِ السامع، بوصف الجامع»[1]: [الكامل]

لـلّه مـا أحـلى مـحـاسـنَ جِـلَّقٍ — وجهـاتهـا الـلاتي تـروقُ وتَعْـذُبُ
بيـزيـدِ رَبْـوَتِهـا الفـراتِ وجَنْكِهـا — يـا صـاحِ، كم كنـا نخوضُ ونلعب

وقال فيه أيضًا[2]: [الرجز]

لـلّه مـا أجمـلَ وَصْـفَ جِـلَّقٍ — ومـا حـوى جـامِعُهـا المنفـردُ
قـد أطـربَ النـاسَ بصـوتِ صيتِـهِ — وكـيـف لا يُـطْرِبُ وهـو مَعْبَـدُ

وقال في ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة[3]: [الكامل]

يـا راغبًـا في غيـر جـامـعِ جِلَّقٍ — هـل يستـوي الممنـوعُ والممنـوحُ
أَقْصِـرْ عَـنَـاكَ وفـي غُـلُوِّكَ لا تَـزِدْ — إنَّ الـزيـادة بـابُـهَـا مـفـتـوحُ

وقال في مَنَارته المعروفة بالعَروس[4]: [الخفيف]

معبـدُ الشـام يجمـعُ النـاسَ طُـرًّا — وإلـيـه شـوقًـا تَـمِيـلُ النـفـوسُ
كـيف لا يـجمـع الـوَرَى وهـو بَيتٌ — فيـه تُجْـلَى على الـدوامِ الـعـروسُ

ومنه في ذكر بانيه الوليد: [الرجز]

تـاللّه مـا كـان الـوليـدُ عـابثًـا — في صَـرْفِـهِ المـالَ وبَـذْلِ جُهْـدِهِ
لـكـنـه أَحْـرَزَ مُـلْكَ مَـعْـبَـدٍ — لا يـنـبـغـي لأحـدٍ مِـنْ بَـعْـدِهِ

ومن أبيات في آخره: [الوافر]

بـجـامـعِ جِلَّقٍ ربُّ الـزعَـامَـهْ — أقـمْ تَلْقَ الـعِـنـايـةَ والـكَـرامَـهْ
ويَـمِّـمْ نـحـوه فـي كـلِّ وقـتٍ — وصَـلِّ بـه تَـصِـلْ دارَ الإقـامَـهْ
مُـصَلًّى فيـه لـلرحـمنْ ذِكْـرٌ[5] — ومَـثْـوًى للقبـولِ بـه عـلامَـهْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وقال رحمه اللّه:».
(٢) في الطبعة نفسها: «وقال في كتاب سِنْف السامع بوصف الجامع:»
(٣) البيتان في نزهة الأنام في محاسن الشام (ص ٤٥).
(٤) البيتان في المصدر السابق (ص ٤٥).
(٥) في طبعة دار صادر: «سِرٌّ» بدل «ذِكْرٌ».

مَحَلٌّ كَمَّلَ الباري حُلاه وبيتُ أبدعَ الْبَانِي نظامَهْ
دمشقُ لم تزلْ للشام وَجْهًا ومَسْجِدُها لوجه الشام شامَهْ
وبين معابدِ الآفاق طُرًّا له أمرُ الإمارة والإمامَهْ
أدام اللّهُ بَهْجَتَهُ وأبْقَى محاسِنَهُ إلى يومِ القيامَهْ

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور، بل على بعضه فقط.

ومن قصيدة القاضي المهذب بن الزبير(1): [مجزوء الكامل]

باللّه يا ريحَ الشما لِ إذا اشْتَمَلْتِ الرَّنْدَ(2) بُرْدَا
وحَمَلْتِ مِنْ عَرْفِ(3) الخُزا مَى ما اغْتَدَى لِلنَّدِّ نِدًّا
ونَسَجْتِ ما بين الغصو نِ إذا اعتنقْنَ هَوًى ووِدًّا(4)
وهَزَزْتِ عند الصبح مِنْ أعطافِها قَدًّا فَقَدًّا
وَنَشَرْتِ فوق الماء مِنْ أجيادِها للزهرِ عِقْدَا
فَمَلأْتِ صفحةَ وَجْهِهِ حتى اكتسى آسًا ووَرْدا
وكأنما أَلْقَيْتِ فيـ ـه منهما صُدْغًا وخَدّا
مُرِّي على بَرَدَى عسا ه يزيدُ في مَسْرَاكِ بردا
نهرٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ تكـ ـسرُ مَتْنَه الأزهارُ عَمْدا
صَقَلَتْهُ أنفاسُ النسيـ ـمِ بِمُرِّهِنَّ فليس يَصْدَا

ومنها:

أحبابَنا، ما بالُكُمْ فينا مِنَ الأعداء أَعْدى
وحياةِ حُبِّكُمُ وحُرْ مَةِ أصلكم(5) ما خُنْتُ عَهْدا

(1) هو أبو محمد الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير، وترجمته في الخريدة ـ قسم مصر (جـ ١ ص ٢١٤) ومعجم الأدباء (جـ ٩ ص ٤٧).
(2) في الخريدة: «الليل بُرْدَا».
(3) في المصدر نفسه: «من نَشْر».
(4) في المصدر نفسه: «ونسجت في الأشجار بين غصونهنَّ..».
(5) في طبعة دار صادر وفي الخريدة: «وصلكم».

وقال الكمال الشَّريشي[1]: [البسيط]

يا جيرةَ الشام، هل مِنْ نحوكمْ خَبَرُ؟ ... فإنَّ قلبي بنار الشوق يَسْتَعِرُ
بَعُدت عنكُمْ فلا واللَّه بَعْدَكُمُ ... ما لَذَّ للعَينِ لا نَومٌ ولا سَهَرُ
إذا تَذَكَّرْتُ أوقاتًا نأَتْ ومَضَتْ ... بقربكُمْ كادتِ الأحشاءُ تنفطرُ
كأنني لم أكن بالنَّيرَبَينِ[2] ضُحًى ... والغَيمُ يبكي ومنه يضحكُ الزهر
والوُرْقُ تُنْشِدُ والأغصانُ راقصةٌ ... والدَّوحُ يَطْرَبُ بالتصفيق والنهر
والسَّفْحُ أين عَشِيّاتي التي ذَهَبَتْ ... لي فيه فهي لعمري عنديَ العُمُرُ
سقاكَ بالسَّفْحِ سَفْحُ الدمع منهمرًا ... وقَلَّ ذاك له إنْ أعْوَزَ المطر

وحكى ابن سعيد وغيره أن غَرْناطة تسمى «دمشق الأندلس» لسكنى أهل دمشق الشأم بها عند دخولهم الأندلس، وقد شبّهوها بها لَمَّا رأوها كثيرة المياه والأشجار، وقد أطلَّ عليها جبلُ الثلج، وفي ذلك يقول ابن جُبَير صاحب الرحلة: [مجزوء الرمل]

يا دمشقَ الغربِ هاتِيـ ... ـكَ لقد زِدْتِ عليها
تحتكِ الأنهارُ تجري ... وَهْيَ تَنْصَبُّ إليها

قال ابن سعيد: أشار ابن جبير إلى أن غَرْنَاطة في مكان مشرف وغُوطَتها تحتها تجري فيها الأنهار، ودمشق في وَهْدَة تَنْصَبُّ إليها الأنهار، وقد قال اللَّه تعالى في وصف الجنّة ﴿ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ ﴾[3] انتهى.

وقال الشيخ الصفدي في تذكرته: أنشدني المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد اللَّه الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية، حرسها اللَّه تعالى، لنفسه في شعبان المكرم سنة ٧٣٣[4]: [السريع]

---

(١) مرَّ التعريف بالشريشي والإشارة إلى مصادر ترجمته وتقدمت هذه الأبيات في الجزء الثاني وروايتها هناك فيها بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «بالنَّيْرَيْنِ». وهي هنا بمعنى «نَيْرَب» وهي قرية مشهورة بدمشق، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الثاني فلتراجع هناك.

(٣) سورة الطلاق ٦٥، الآية ١١.

(٤) في طبعة دار صادر: «٧٣٢». وقد مرَّ التعريف بابن الخياط والإشارة إلى مصادر ترجمته، وتقدّم البيتان في الجزء الأول وفي روايتهما هناك بعض الاختلاف عمّا هنا.

قَصَدْتُ مصرَ[1] مِنْ رُبَا جِلَّقٍ   بِهِمَّةٍ تَجْرِي بتجريبي
فلم أَرَ الطُّرَّةَ حتى جَرَتْ   دموعُ عيني بالمزيريب[2]

وأنشدني لنفسه أيضًا: [السريع]

خَلَّفْتُ بالشامِ حبيبي وقد   يَمَّمْتُ مصرًا لِعَنًا طارِقِ
والأرضُ قد طالتْ فلا تَبْعَدِي   باللهِ يا مصرُ على العاشقِ

وأنشدني لنفسه أيضًا: [السريع]

يا أهلَ مصرٍ أنتُمُ للعُلَا   كواكبُ الإحسانِ والفَضْلِ
لو لم تكونوا لي سعودًا لَمَا   وافَيتُكُمْ أَضْرِبُ في الرملِ

وذكرته برمّته لِحُسْنِ مَغْزاه.

وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الظُّهير الحنفي الإِرْبَلِي[3]: [الطويل]

لَعَلَّ سَنَا بَرْقِ الحِمَى يتألَّقُ   على النأي أو طَيفًا لأسماءَ يَطْرقُ
فلا نارُها تبدو لمرتقبٍ ولا   وعودُ الأمانيِّ الكواذبِ تَصْدقُ
لعلَّ الرياحَ الهُوجَ تُدْني لنازحٍ   مِنَ الشامِ عَرْفًا كاللطيمةِ يعبق[4]
ديارٌ قضينا العيشَ فيها مُنَعَّمًا   وأيامُنا تحنو علينا وتُشْفق
سَحَبْنَا بها بُرْدَ الشباب وشُرْبُنا،   لَدَيْنا كما شِئْنا، لذيذٌ مُرَوَّقُ[5]
مواطنُ منها السهمُ سَهْمي وظِلّه   تَخُبُّ مطايا اللَّهْو فيه وتُعْنِقُ[6]

---

(١) في طبعة دار صادر: «مِصْرًا».

(٢) في الطبعة نفسها: «بالمريزيب». والمزيريب: تصغير مزراب.

(٣) مجد الدين ابن الظهير هو محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر؛ أديب نحوي فقيه، ولد بإربل سنة ٦٠٢ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٧ هـ. فوات الوفيات (جـ٣ ص ٣٠١) والوافي بالوفيات (جـ٢ ص ١٢٣) والبداية والنهاية (جـ١٣ ص ٢٨٢). وهذه القصيدة في فوات الوفيات (ص ٣٠٤).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «تعبق». وفي فوات الوفيات: «وعلَّ الرياح..».

(٥) رواية عجز البيت في فوات الوفيات هي:

لذيذٌ كما شِئْنا مُصَفًّى مُصَفَّفُ

(٦) في فوات الوفيات: «فيها السهم سهمي فكلّنا نحثُّ... ونُعْنِقُ».

كِلا[1] جانِبَيهِ مُعْلَمٌ متجعِّدٌ ... من الماءِ في أطلالِه يَتَدفَّقُ
إذا الشمسُ حلَّتْ مَتْنَهُ فهو مُذْهبٌ ... وإنْ حَجَبَتْها دَوْحُهُ فهو أزرقُ
وإنْ فُرَجُ الأوراقِ جادتْ بنَوْرِها ... فَرَقْمٌ أجادَتْهُ الأكُفُ مُنَمَّقُ
يُطِلُّ عليه قاسيونُ كأنه ... غمامٌ مُعَلّى أو نعامٌ مُعَلَّقُ[2]
تسافرُ عنه الشمسُ قَبْلَ غُروبها ... وترجفُ إجلالاً له حين تشرقُ
وتَصْفَرُّ مِنْ قَبْلِ الأصيلِ كأنها ... مُحِبٌّ من البَين المُشَتِّتِ مُشْفِقُ[3]
وفي النَّيرَبِ الميمون لِلُّبِّ سالبٌ ... من المنظر الزاهي وللطرف مومقُ[4]
بدائعُ من صنع القديم رصائع ... تأنَّقَ فيها المُحْدِثُ المتأنِّق[5]
رياضٌ كوَشْيٍ للبُرود يَشُقُّها ... جداولها، فالنُّور بالماء يَشْرق[6]
فَمِنْ نَرْجس يخشى فراقَ فريقِهِ ... ترى الدمعَ في أجفانه يترقرقُ
ومِنْ كلِّ ريحانٍ مُقيمٍ وزائرٍ ... يصافحُ ريّاه الرياضَ فتعبقُ[7]
كأنّ قدودَ السَّرْو فيه مَوَائِسًا ... قدودُ عَذارَى مَيلُها مترفق[8]
إذا ما تَدَلَّتْ للشقائق صَدَّها[9] ... عيونٌ من النَّورِ المفتّح ترمقُ
وقَصْرٌ يَكِلُّ الطَّرْفُ عنه كأنه ... إلى النَّسْر نَسْرٌ في السماء معلَّقُ[10]
وكم جَدْولٍ جارٍ يُطارِدُ جدولاً ... وكم جَوْسَقٍ[11] عالٍ يوازيه جَوْسَقُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «جلا».
(٢) في فوات الوفيات: «أطلّ عليه... أو لغامٌ مُعَلَّقُ».
(٣) المُشْفِقُ: الخائف. لسان العرب (شفق).
(٤) في فوات الوفيات: «وفي النَّيْرب المرموق... وللطرف مؤنق».
(٥) في طبعة دار صادر: «القديم ومُحْدَثُ». وفي فوات الوفيات: «القديم ومحدث تألّق..».
(٦) في طبعة دار صادر: «رياض كموشي». وفي فوات الوفيات: «رياض كوشي البرد تزهو بحسنها... والنور..».
(٧) رواية عجز البيت في فوات الوفيات هي:
تضاعف ريّاه الرياح فيعبقُ».
(٨) في فوات الوفيات: «مَيْلُها يترقرقُ».
(٩) رواية صدر البيت في المصدر السابق هي:
إذا ما تداعتْ للتعانق صدَّها
(١٠) في فوات الوفيات: «في السماء محلّق».
(١١) الجوسق: القصر. محيط المحيط (جوسق).

وكم بـركـةٍ فيهـا تُضاحِـكُ بـركـةً ... وكم قَسْـطَلٍ للمـاء فيـه تَـدَفُّقُ [1]
وكم منـزلٍ يُغْشي العيـونَ كـأنمـا ... تـألَّـقَ فـيـهـا بـارقٌ يـتـألَّـقُ
وفي الـربـوة الفَيحـاء للقلب جـاذبٌ ... ولـلـهمِّ مَسْـلاة وللعَيـن مَـرْفَـقُ [2]
عـروسٌ جـلاهـا الـدهـرُ فـوق منصّـةٍ ... من الـدهـر والأبصـارُ تـرمي وتـرمَقُ
فهـام بهـا الـوادي ففـاضتْ عيـونُـهُ ... فكـلُّ قـرارٍ منـه بـالـدَّمْع يَشْـرَقُ [3]
تَكَفَّـلَ من دونِ الجـداولِ شُـرْبَهـا ... يـزيـدُ يُصَفِّيـه لـهـا ويُـرَوِّقُ [4]

وقال أبو تمام في دمشق[5]: [الكامل]

لـولا حـدائِـقُـهـا وأنّـي لا أرى ... عَـرْشًـا هنـاك ظَنَنْتُهـا بَلْقِيسَـا[6]
وأرى الـزمـانَ غـدا عليك بـوجهـه ... جَـذْلانَ بَسَّـامًـا وكـان عَبُـوسـا
قـد بُـورِكَتْ تلك البـطونُ وقـد سَمَتْ ... تلك الـظهـورُ وقُـدِّسَتْ تقـديسـا[7]

وقال البحتري[8]: [البسيط]

أمّـا دمشقُ فقـد أَبْـدَتْ محـاسِنَهـا ... وقـد وَفَى لـك مُـطْرِيهـا بمـا وَعَـدَا
إذا أَرَدْتَ مَـلأتَ الـعَيـنَ مِنْ بـلدٍ ... مُـسْتَحْسَنٍ وزمـانٍ يُشْبِـهُ البَلَدا
تمشي السَّحـابُ على أجبالِهـا فِرَقًـا ... ويصبحُ النَّورُ في صحـرائها بَـدَدَا[9]
فـلستَ تُـبْـصِـرُ إلاَّ واكـفًـا خَـضِـلاً ... أو يـانعًـا خَضِـرًا أو طـائـرًا غَـرِدَا
كـأنـمـا القَيظُ ولَّى بَـعْـدَ جَيئَتـه ... أو الـربيـعُ دَنَـا مِنْ بَعْـدِ مـا بَعُـدا

---

(١) في فوات الوفيات: «في الماء للماء يدفق».
(٢) في طبعة دار صادر: «وللعين مرمقُ». وفي فوات الوفيات: «وفي الربوة الشمّاء... وللسمع إصمات وللعين مرمق».
(٣) في فوات الوفيات: «يملق».
(٤) في المصدر نفسه: «ويصفّق».
(٥) الأبيات في ديوان أبي تمام (ص ١٥٥).
(٦) في الديوان: «لولا حداثتها... لها لَظَنَنْتُها...».
(٧) رواية البيت في الديوان هي:
قـد بُـوْرِكَتْ تلك الـظهـورُ وقُـدِّسَتْ ... تـلك الـبـطونُ بـقـربـه تـقـديسـا
(٨) لم ترد هذه الأبيات في ديوان البحتري، طبعة دار صعب، ووردت في ديوان البحتري (جـ ٢ ص ٧١٠) طبعة دار المعارف بمصر. وهي أيضًا في معجم البلدان (جـ ٢ ص ٤٦٧، مادة دمشق).
(٩) في معجم البلدان: «يمسي السحاب... ويصبح النَّبْتُ في...».

وفي دمشق يقول بعضهم: [الكامل]

بَـرَزَتْ دمشقُ لـزائـري أوطـانِـهـا مِـنْ كـلِّ نـاحـيـةٍ بـوجـهٍ أزْهَـرِ
لـو أنَّ إنـسـانًـا تَـعَـمَّـدَ أنْ يـرى مَـغْنًى خَـلاَ مِنْ نـزهـةٍ لـم يـقـدر

وقال القيراطي[1] في قصيدته التي أولها[2]: [الكامل]

للصَّبِّ بَـعْـدَكَ حـالـةٌ لا تُعْجِبُ

لـلَّه لَـيـلٌ كـالـنـهـار قَـطَعْـتُـهُ بـالـوصـلِ لا أَخْشَى بـه مـا يُـرْهَبُ
وركـبْتُ مـنـه إلى الـتـصـابي أَدْهَمًـا من قـبـل أنْ يـبـدو لـصبـح أشْـهَـبُ
أيـام لا مـاء الـخـدودِ يَـشُـوبُـهُ كَـدَرُ الـعِـذارِ ولا عِـذاريَ أَشْـيَـبُ
كـم في مَـجَـال اللهـو لي مِنْ جـولـةٍ أضـحتْ تُـرَقِّصُ بـالـشبـاب وتـطربُ
وأقـمْـتُ لـلـنـدمـاء سُـوقَ خـلاعـةٍ تُـجْبَـى الـمـجـونُ إليَّ فـيـه وتُـجْلَبُ
وذكـرت فـي مَـغْـنـى دمشـقٍ معشـرًا أُمُّ الـزمـانِ بـمـثـلهـمْ لا تُـنْـجِـبُ
لا يـسـأَلُ الـقُـصّـادُ عـن نـاديـهـمُ لـكـنْ يـدلُّـهُـمُ الـثـنـاءُ الـطَّيِّـبُ
قـومٌ بـحسـنِ صفـاتـهـمْ وفـعـالـهـمْ قـد جـاء يـعتـذرُ الـزمـانُ الـمـذنبُ
يـا مَـنْ لـحـرَّانِ الـفـؤادِ وطَـرْفُـهُ بـدمـشـقَ أَدْمُـعُـهُ غَـدَتْ تـتـحـلَّبُ
أشـتـاقُ فـي وادي دمـشـقٍ مَـعْـهَـدًا كـلُّ الـجـمـال إلـى حـمـاهُ يُـنْـسـب
مـا فـيـه إلاَّ روضـةٌ أو جَـوسَـقٌ أو جـدولٌ أو بـلـبـلٌ أو رَبْـرَبُ[3]
وكـأن ذاك الـنـهـرَ فـيـه مِـعْـصَـمٌ بِـيَـدِ الـنـسـيـم مُـنَـقَّشٌ ومُـكَـتَّـبُ
وإذا تَـكَـسَّـرَ مـاؤه أَبْـصَـرْتَـهُ في الـحـال بـين ريـاضِـهِ يَـتَـشَـعَّـبُ
وشَـدَتْ عـلى العِـيـدان وُرْقٌ أطـربـتْ بـغـنـائـهـا مَنْ غـابَ عـنـه الـمُـطْرِبُ
فـالـوُرْقُ تـنشـدُ والـنسـيـمُ مُـشَبِّبٌ والـنهـرُ يـسقـي والـحـدائقُ تَـشْـرَبُ
وضيـاعُهـا ضـاعَ الـنسيـمُ بـهـا فكمْ أضـحـى لـه مـن بـيـن روضٍ مَـطْلَبُ
وحَـلَتْ بـقـلبـي مِـنْ عـسـاكـرِ جـنّـةٍ فـيـهـا لأربـابِ الـخـلاعـةِ مـلعـبُ

---

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عبد اللّه بن محمد بن عسكر الطائي القيراطي؛ شاعر من أعيان القاهرة، اشتغل بالفقه والأدب، وتوفي بمكة سنة ٧٨١ هـ. الدرر الكامنة (جـ ١ ص ٣١) وشذرات الذهب (جـ ٦ ص ٢٩٦).

(٢) بعض أبيات هذه القصيدة في نزهة الأنام في محاسن الشام (ص ٥٠).

(٣) الرَّبْرَبُ: القطيع من بقر الوحش. محيط المحيط (ربرب).

ولكم رقصتُ على السماع بِجُنْكِهَا[1] وغدا بربوتها اللسان يُشَبِّبُ
فمتى أزورُ مَعَالمًا أبوابُها بسماحها كُتْبُ السماح تُبَوَّبُ

وقال الصَّفِيُّ الحِلِّي[2] عند نزوله بدمشق مسمِّطًا لقصيدة السموأل بالحماسة[3]:

قبيحٌ بمن ضاقتْ عن الرزق أرضُهُ وطولُ الفَلاَ رَحْبٌ لديه وعَرْضُهُ
ولم يُبْلِ سِرْبالَ الدُّجى فيه ركْضُهُ إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤمِ عِرْضُهُ
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

إذا المرء لم يحجبْ عن العَين نَوْمَها ويُغْلِ من النفس النفيسةِ سَومَها
أُضِيعَ ولم تأمَنْ معاليه لَومَهَا وإن هو لم يحملْ على النفس ضَيمَها
فليس إلى حُسْن الثناء سبيلُ

رَفَعْنا على هامِ السِّمَاكِ مَحَلَّنا فلا مَلكٌ إلاَّ تَغشَّاهُ ظلُّنا
لقد هابَ جيشُ الأكثرينَ أقلّنا ولا قَلَّ مَنْ كانتْ بقاياهُ مِثْلَنا
شبابٌ تَسامَى للعُلاَ وكُهُولُ

يُوازي الجبالَ الراسياتِ وَقَارُنا وتُبْنَى على هامِ المَجَرَّةِ دارُنا
ويَأْمَنُ مِنْ صَرْفِ الزمان جوارُنا وما ضَرَّنا أنّا قليلٌ وَجَارُنَا
عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

ولَمَّا حَلَلْنا الشامَ تَمَّتْ أمورُهُ لنا وحَبانا مَلْكُهُ ووزيرُهُ
وبالنَّيرَبِ[4] الأعلى الذي عَزَّ طُورُهُ لنا جَبَلٌ يحتلُّه مَنْ نجيرُهُ
منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

---

(١) الجُنْكُ، بضمِّ الجيم وسكون النون: من آلات الطرب، معرب چنك بالفارسية. محيط المحيط (جنك).

(٢) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم بن سرايا الطائي، المعروف بصفي الدين الحِلِّي؛ شاعر عصره على الإطلاق. ولد ونشأ في الحِلَّة، وتوفي ببغداد سنة ٧٥٠ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٣٣٥).

(٣) هذه المخمّسة في ديوان صفي الدين الحلي (ص ٣٦).

(٤) النَّيْرَب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين، وتعدّ من أنزه المواضع. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٣٣٠).

يُرِيْكَ الثُّرَيَّا من خلالِ شعابِهِ | وتُحْدِقُ شُهْبُ الأُفقِ حَوْلَ هِضابِهِ
ويقصرُ خطوُ السُّحب دون ارتكابِهِ | رسا أَصْلُهُ تحت الثرى وسَمَا بِهِ

إلى النجم فرعٌ لا يُنَال طويلُ

وقصرٍ على الشقراء قد فاضَ نهرُهُ | وفاقَ على فخرِ الكواكبِ فَخْرُهُ
وقد شاعَ ما بين البريّةِ شُكْرُهُ | هو الأبلقُ الفَرْدُ الذي سار ذِكْرُهُ

يعزُّ على مَنْ رَامَهُ ويطولُ

إذا ما غضبْنا في رضا المَجْدِ غضبةً | لِنُدْرِكَ ثأرًا أو لنبلغَ رتْبَةً
نزيد غداةَ الكَرِّ في الموت رغبةً | وإنّا لَقَومٌ لا نرى الموتَ سُبَّةً

إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلُولُ

وكتب الشيخ محبّ الدين الحموي(١) في ترجمة الشيخ إسماعيل النابلسي(٢) شيخ الإسلام من مصر: [الطويل]

لواء التهاني بالمَسَرَّةِ يَخْفِقُ | وشمسُ المَعَالي في سَمَا الفَضْلِ تُشْرِقُ
وسَعْدٌ وإقبالٌ ومَجْدٌ مُخَيِّمٌ | وأيامُ عزٍّ بالوَفَا تتخلَّقُ
فيا أيها المولى الذي جَلَّ قَدْرُهُ | ويا أيها الحَبْرُ(٣) اللبيبُ المدقّق
أرى الشامَ مذ فارقْتَها زال نُورُها | وثوبُ بَهاها والنضارةِ يَخْلَقُ(٤)
إذا غِبْتَ عنها غابَ عنها جمالُها | ونفسٌ بدون الروحِ لا تتحقَّق
وإنْ عُدْتَ فيها عاد فيها كمالُها | وصارَ عليها مِنْ بهائِكَ رَوْنَقُ
فيا ساكني وادي دمشقَ مَزارُكُمْ | بعيدٌ وبابُ الوصلِ دوني مُغْلَقُ
وليس على هذا النوى لي طاقةٌ | فهل من قيودِ البَينِ والبُعْدِ أُطْلَقُ
وإني إلى أخبارِكُمْ مُتَشَوِّفٌ | وإني إلى لُقْياكُمُ مُتَشَوِّقُ

---

(١) محب الدين الحموي هو محمد بن تقي الدين أبي بكر بن داود بن عبد الرحمن بن عبد الخالق المحبي، صاحب كتاب «تنزيل الآيات على شاهد الأبيات»، المعروف بشواهد الكشاف. توفي سنة ١٠١٦ هـ. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (جـ ٣ ص ٣٢٢).

(٢) هو إسماعيل بن أحمد ابن الحاج إبراهيم النابلسي؛ شيخ الإسلام وصاحب الفتاوى وصدر دمشق في عصره، توفي سنة ٩٩٣ هـ. الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (جـ ٣ ص ١٣٠).

(٣) الحَبْرُ، بفتح الحاء وسكون الراء: العالم. محيط المحيط (حبر).

(٤) يَخْلَقُ: يبلى. محيط المحيط (خلق).

أودُّ إذا هَبَّ النسيمُ لنحوكُمْ ... بأنيَ في أذيالهِ أتعلَّقُ
وأصبو لذكراكُمْ إذا هَبَّتِ الصَّبَا ... لَعَلِّيَ مِنْ أخبارِكُمْ أتنشَّقُ
ولي أنَّةٌ أوْدَتْ بجسمي ولوعةٌ ... ونارُ جَوًى من حَرِّها أتفلَّقُ
فحنُّوا على المضْنَى الذي ثوبُ صَبْرِهِ ... إذا مَسَّهُ ذيلُ الهوى يتمزَّقُ
غريبٌ بأقْصَى مصرَ أضحتْ ديارُهُ ... ولكنَّ قلبي بالشآمِ مُعَلَّقُ
وقد نسخَ التبريحُ جسمي، فهل إلى ... غبارِ ثَرَى أعتابِ وَصْلٍ يُحَقَّقُ
فيا ليت شعري هل أفوزُ بروضةٍ ... وفيها عيونُ النرجسِ الغضِّ تحدِقُ
وأنظرُ واديها وآوي لربوةٍ ... وماءٍ مَعِينٍ حَولَها يتدفَّق
ويحلو لي العيشُ الذي مَرَّ صَفْوُه ... وهل عائِدٌ ذاك النعيمُ المروَّق
وأنظرُ ذاك الجامعَ الفَرْدَ مرَّةً ... وفي صَحْنِه تلك الحلاوةُ تُشْرِق
وأصحابُنا فيه نجومٌ زواهرٌ ... ونورُ مُحَيَّا وجههمْ يتألَّق
فلا برحوا في نعمةٍ وسعادةٍ ... وعزٍّ ومَجْدٍ شأْوُهُ ليس يُلْحَقُ

وقال ابن عنين[1]: [الكامل]

ماذا على طيف الأحبَّة لو سَرَى ... وعليهمُ لو ساعدوني[2] بالكَرَى
جَنَحُوا إلى قول الوُشَاة وأعرضُوا ... واللَّه يعلمُ أنَّ ذلك مُفتَرَى
يا مُعْرِضًا عنِّي بغيرِ جنايةٍ ... إلَّا لما[3] نقل العذولُ وزَوَّرَا
هَبْني أسأتُ كما تقولُ وتَفْتَرِي ... وأتيتُ في حُبِّيكَ شيئًا مُنْكرا
ما بَعْدَ بُعْدِكَ والصدودِ عقوبةٌ ... يا هاجري ما آن لي أن تغفرا
لا تجمعنَّ عليّ عَتْبَكَ والنَّوَى ... حَسْبُ المُحِبِّ عقوبةً أنْ يُهْجَرا
عبءُ الصدودِ أخفُّ مِنْ عبءِ النَّوَى ... لو كان لي في الحبِّ أنْ أتخيَّرا
فَسَقَى دمشقَ وواديَيْهَا والحِمَى ... متواصلُ الأرهامِ[4] منفصمُ العرا

(١) مرَّ التعريف بابن عنين في الجزء الأول. والقصيدة في ديوان ابن عنين (ص ٣)، وبعضها في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١٦ـ ١٧)، وقد كتبها إلى الملك العادل ابن أيوب يستأذنه في الدخول إلى دمشق، ويصفها ويصف بساتينها وأنهارها ومتنزهاتها، ويشير إلى النفي منها، ويشكو فيها من الغربة.

(٢) في الديوان ووفيات الأعيان: «لو سامحوني».

(٣) في الديوان: «لما رقش الحسود..».

(٤) في الديوان: «الأرعاد».

حتى تـرى وَجْـهَ الـريـاض بعـارضٍ أحْـوَى وفَـوْدَ الـدَّوْحِ أزهَـرَ نَـيِّـرا
تـلك الـمـنـازلُ لا مـلاعـبُ عـالـجٍ ورمـالُ كـاظـمـةٍ ولا وادي الـقـرى
أرضٌ إذا مَـرَّتْ بـهـا ريـحُ الـصَّـبـا حـملتْ عـلى الأغصـان مِسْكًـا أذفـرا
فـارقْتُهـا لا عـن رضًـا، وهجـرْتُـهـا لا عـن قِلًى، ورحـلْتُ لا مُـتَـخَـيِّـرا
أسعى لـرزقٍ فـي الـبـلاد مُـشَـتَّتٍ[1] ومـن الـعـجـائـبِ أن يـكـونَ مُـقَـتَّـرا

وابن عنين المذكور كان هجّاء، وهو صاحب «مقراض الأعراض» تجاوز اللّه تعالى عنه، فمن ذلك قوله[2]: [الوافر]

أَرِحْ مِـنْ نَـزْحِ مـاءِ الـبِئْـرِ يـومًـا فـقـد أَفْـضَـى إلـى تَـعَـبٍ وعـيٍّ
مُـرِ القـاضي بـوضـعِ يـديْـهِ فيـه وقـد أضـحـى كـرأسِ الـدَّوْلَـعِـيِّ

يعني أقرع.

وسببُ قوله البيتين أن المعظَّم أَمَرَ بنزح ماء بقلعة دمشق، فأعياهم ذلك.

ومن هَجْوه قوله[3]: [الوافر]

شكـا شعـري إليَّ وقـال تهجـو بمثلي عـرْضَ ذا الكَـلْب اللئيمِ
فـقـلتُ لـه تَـسَـلَّ فـرُبَّ نـجـمٍ هَـوَى فـي إثـر شيـطانٍ رجـيـمِ

وقال فيمن خرج حاجًا فسقط عن الهجين فتخلف[4]: [الوافر]

إذا مـا ذُمَّ فِـعْـلُ الـنُّـوقِ يـومًـا فـإنِّـي شـاكـرٌ فِـعْـلَ الـنِّـيـاقِ
أرادَ الـلَّه بـالـحُـجَّـاجِ خَـيـرًا فـثـبَّطَ عـنـهـمُ أهـلَ الـنـفـاقِ

وقال[5]: [البسيط]

وراحـلٍ سِـرْتُ فـي ركـبٍ أُوَدِّعُـهُ تَـبـارَكَ اللَّهُ مـا[6] أحلى تـلاجِينـا

(١) في الديوان: «في البلاد مفرّقٍ، ومن البليّة..».
(٢) الأبيات في ديوان ابن عنين (ص ٢٣٥).
(٣) ديوان ابن عنين (ص ١٨٨).
(٤) المصدر نفسه (ص ٢٢٧).
(٥) المصدر نفسه (ص ٢١٥).
(٦) في الديوان: «ما أشقى المساكينا».

جِئْنـا إلى بـابـه لاجِـينَ نَسـأَلُـهُ   فليتنـا عـاقَنـا مَـوتٌ ولا جِينـا
راجـينَ نسـألُ مَيـتًـا لا حَـراكَ بـه   مثـلَ النصارى إلى الأصنـام لاجِينا

وقال[1]: [الخفيف]

وَصَلَتْ منـكَ رقعـةٌ أسـأمتْني   صَيَّرَتْ صبريَ الجميـلَ قليلا
كنهـارِ المصيفِ حَرًّا وكـربًـا   وكَلَيـلِ الشتـاءِ بَـرْدًا وطُـولا

وأول «مقراض الأعراض» قولُه[2]: [المنسرح]

أضـالـعٌ تـنـطوي عـلى كَـرْبِ   ومُـقْـلَةٌ مـسـتـهـلّةُ الـغَـرْبِ[3]
شَـوقًـا إلى سـاكني دمشـقَ فـلا   عَـدَتْ رُباهـا مـواطـرُ السُّحْب
مـواطـنٌ مـا دَعَـا تـوطّـنـهـا   إلّا ولَـبَّـى نـداءهـا لُـبِّـي

ثم ذكر من الهجو ما تصمّ عنه الآذان.

وهو القائل في دمشق[4]: [الطويل]

أَلَا لَيتَ شعـري هـل أبيتَنَّ لـيلةً   وظِـلُّكَ يـا مُـقْـرَى عـليَّ ظَـليـلُ
وهـل أرَيَنِّي بعـدمـا شَـطَّتِ النَّـوَى   ولـي فـي ذَرَا رَوضٍ هنـاكَ مَقِـيلُ

ومـنـهـا[5]:

دمشـقُ بـنـا شـوقٌ إليـكِ مُبَـرِّحٌ   وإنْ لَـجَّ واشٍ أو ألَـحَّ عَـذُولُ
بـلادٌ بهـا الحَصْبـاءُ دُرٌّ، وتُـرْبُـهـا   عَبِيـرٌ، وأنـفـاسُ الشَّمَـال شَمُـولُ
تَسَلْسَـلَ فيهـا مـاؤهـا وَهْـوَ مـطلقٌ   وصَـحَّ نسيمُ الـروضِ وهْـوَ عليـلُ

وقد تقدّم التمثيل بهذه الأبيات الثلاثة في خطبة هذا الكتاب.

---

(١) الديوان (ص ٢٣٥).
(٢) المصدر نفسه (ص ١٧٩).
(٣) الغَرْب: عرق في العين يفيض ولا ينقطع. لسان العرب (غرب).
(٤) الديوان (ص ٦٩).
(٥) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الأول وجاء هناك: «الرياح» بدل «الشمال في البيت الثاني».

ومن هذه القصيدة:

وكيف أخافُ الفَقْرَ أو أُحْرَمُ الغنى ... ورأيُ ظهيرِ الدِّينِ فيَّ جميلُ
مِنَ القومِ أمَّا أحنفُ فَمُسَفَّهُ ... لديهِمْ، وأمَّا حاتمٌ فبخيلُ
فتى المَجْدِ أمَّا جارُه فَمُمَنَّعُ ... عزيزٌ، وأمَّا ضِدُّهُ فذليلُ
وأمَّا عطايا كَفِّهِ فَمُباحَةٌ[١] ... حلالٌ، وأمَّا ظِلُّه فظليلُ

وظهير الدين الممدوح هو طُغْتِكِين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين، وكان ملك اليمن، وأحسن إلى ابن عنين إحسانًا كثيرًا وافرًا، وخرج ابن عنين من اليمن بمالٍ جمّ، وطُغْتِكِين: بضمِّ الطاء المهملة، وبعدها غين معجمة، ثم تاء مثنّاة من فوقها مكسورة، ثم كاف مكسورة أيضًا، ثم ياء تحتية، ثم نون، وكان يلقّب بالملك العزيز، ولذلك قال ابن عنين لَمَّا رجع من عنده إلى مصر أيام العزيز عثمان بن صلاح الدين فألزم أربابُ الديوان ابنَ عنين بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته[٢]: [البسيط]

ما كلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بالعزيز له ... أهلٌ وما كلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ
بين العزيزينِ بَونٌ في فَعالهما ... هذاك يُعْطي وهذا يأخذُ الصَّدَقَهْ

ومن هجو ابن عنين قولُه في فقيهين يلقّب أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس[٣]: [الكامل]

البغلُ والجاموسُ في حالَيهما ... قد أصبحَا مثلاً لكل مُنَاظِرِ
قعدا عشيةَ يَومِنا فتناظرَا[٤] ... هذا بقَرْنَيهِ وَذَا بالحافر
ما أحكما غير الصياح كأنما ... لقيا[٥] جدال المرتضى بن عساكر
جِلْفَانِ ما لهما شبيهٌ ثالثٌ ... إلاَّ رَقَاعَةُ مَذْلَوَيه الشاعر
لَفْظٌ طويلٌ تحت معنًى قاصرٍ ... كالعقلِ في عبد اللطيف الناظر

---

(١) في الديوان: «كفِّه فسوابغ عذاب..».
(٢) ديوان ابن عنين (ص ٢٢٣).
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٠٥).
(٤) رواية صدر البيت في الديوان هي:

برزا عشية ليلة فتناظرا

(٥) في طبعة دار صادر: «لقنا».

رجع إلى دمشق:

وقال العزُّ الموصلي: [الوافر]

إليـك حيـاضَ حَمَّـامـاتِ مصـرٍ ولا تـتـكـثّـري عـنـدي بـمَـيـنِ
حيـاضُ الشـام أحلى منـكِ مـاءً وأطـهـرُ وهـي دون الـقُـلَّتـيـن

وهذان البيتان جوابٌ منه عن قول ابن نُباتة[1]: [مجزوء الكامل]

أحـواضَ حَـمَّـامِ الـشـآ م ألَا اسْـمَـعي لـي كـلْمتَـيـنِ
لا تـذكـري أحـواض مـصـ ـرَ فـأنـتِ دون الـقُـلَّتَـيـنِ

وأما قول النَّوَاجي[2] سامحه اللّه تعالى: [مجزوء الخفيف]

مـصـرُ قـالـت: دمـشـقُ لا تـفـتـخـرْ قطُّ بـاسْـمِـهـا
لـو رأت قَـوْسَ روضـتـي مـنـه راحَتْ بِـسَـهْـمِـهـا

فهو من باب تفضيل الوطن من حبّه، ومنه قول الوَدَاعي[3]: [السريع]

روٌّ بـمـصـرٍ وبـسـكّـانـهـا شـوقي وجَـدِّدْ عهـديَ الخـالي[4]
وأرْوِ لـنـا يـا سعـدُ عـن نِيلِهـا حـديـثَ صفـوان بـن عسّـال[5]
فـهـو مُـرادي لا «يـزيـدٌ» ولا «ثـور» وإنْ رقَّـا ورَقَّـا لـي

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي[6]: [الرجز]

قـالـوا دمشقٌ قـد زَهَتْ لـزهـرهـا فـامْضِ وشاهـدْ جَـوزَهـا ولَـوْزَهـا

(١) البيتان في مطالع البدور في منازل السرور (جـ ٢ ص ١٢).
(٢) هو شمس الدين محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي؛ عالم بـالأدب وشاعـر من أهل مصـر، ولد بالقاهرة سنة ٧٨٨ هـ، وتوفي بها سنة ٨٥٩ هـ. الأعلام (جـ ٦ ص ٨٨ ومصادر حاشيته).
(٣) هو علي بن المظفر بن إبراهيم الكندي، المعروف بعلاء الدين الوداعي، وقد مرّت ترجمتـه والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول، والأبيات في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ١٠٠).
(٤) في فوات الوفيات: «عهدي البالي».
(٥) هو صفوان بن عسال المرادي، الصحابي المعروف.
(٦) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الخزرجي، المعروف بالحجازي؛ من شيوخ الأدب في مصـر. ولـد بـالقـاهـرة سنـة ٧٩٠ هـ وتـوفي بهـا سنـة ٨٧٥ هـ. الأعـلام (جـ ١ ص ٢٣٠ ومصـادر حاشيته).

فـقـلـتُ لا أُبْـدِلُ بـلدتـي بـهـا ولستُ أَرْضَى زَهْـرَهـا ولَـوْ زَهَـا[1]

[وقـول الخَفَاجي قـاضي مصر، وإن لم يكن في دمشق، لكن في السيـاق في النظم: [المنسرح]

قـد فـتـن الـعـاشـقـيـن حيـن بَـدَا بـطلعـةٍ كـالـهـلالِ أَبْـرَزَهـا
طَـرٌّ لـه شـاربٌ عـلى شَـفَـةٍ كـالـورد في الآس حين طَـرَّزَهَـا][2]

وقول الآخر: [الكامل]

قـد قـالَ وادي جِـلَّقٍ لـلنِّـيـلِ إذ كسـروه أعْيُنُ جبـهتـي لـك تُـرْفَـعُ
فـأجـابَ بَحْـرُ النِّيـلِ لَمّـا أنْ طَغَى عنـدي مقـابـل كـلِّ عَينٍ إصْبَـعُ

وقد تذكَّرْتُ هنا قول بعضهم: [المجتث]

مـاذا يـفـيـد الـمـعـنَّى مـن الأذى الـمـتـتـابـعْ
بـمـصـرَ ذات الأيـادي ونـيـلهـا ذي الأصـابـعْ

وقد شاع الخلافُ قديمًا وحديثًا في المفاضلة بين مصر والشام، وقـد قال بعضهم: [مجزوء الرجز]

فـي حـلـبٍ وشـامِـنـا ومِـصْـرَ طـالَ الـلَّغَطُ
فـقـلت قـولَ مُـنْـصِـفٍ خـيـرُ الأمـورِ الـوَسَطُ

وأما قولُ بعضهم: [المتقارب]

تـجـنَّـبْ دِمَـشْـقَ ولا تـأتـهـا وإنْ راقَـكَ الجـامـعُ الجـامـعُ
فَسُـوقُ الفُسُـوقِ بهـا قـائـمٌ وفجـرُ الفُجُـورِ بهـا طـالـعُ

فـلا يُلْتَفَت إليه، ولا يُعَـوَّل عليه، إذ هـو مجرّد دعـوى خالية عن الـدليـل، وهي من نزعات بعض الهجائين الذين يَعْمدون إلى تقبيح الحسن الجميل الجليل: [الطويل]

---

(١) كلمة «لو زها»: مركبة من «لو» الشرطية، ومن فعل «زها».

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر، وقد أثبتها المحقق الدكتور إحسان عباس في الحاشية.

وما زالتِ الأشرافُ تُهجى وتُمْدَحُ[1]

ولا يقابلُ ألف مُثْنٍ عَدْل بفاسق يقدح: [الطويل]

وفي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُد الشمسَ نُورَها ... ويأمُلُ أن يأتي لها بضريبِ[2]

وأخفُّ من هذا قول بعض الأندلسيين، وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم[3]: [الوافر]

دِمَشْقٌ جَنَّةُ الدنيا حَقِيقًا ... ولكنْ ليس تَصْلُحُ للغريبِ
بها قَومٌ لهمْ عَدَدٌ ومَجْدٌ ... وصُحْبَتُهُمْ تؤولُ إلى الحروب
ترى أنهارَهُمْ ذاتَ ابتسامٍ ... وأَوْجُهَهُمْ تَوَلَّعُ بالقطوب
أَقَمْتُ بدارهِمْ ستين يومًا ... فلم أَظْفَرْ بها بِفَتًى أديبِ

والجواب واحد، ولا يضرّ الحقَّ الثابتَ إنكارُ الجاحد، وأخفُّ من الجميع قول العارف باللّه تعالى سيدي عمر بن الفارض[4] رضي اللّه تعالى عنه: [الرمل]

جِلَّقٌ جَنَّةُ مَنْ تاهَ وباهَى ... ورُبَاهَا أرَبِي لولا وَبَاهَا
قال غالٍ: بَرَدَى كَوثَرُهَا ... قلت: غالٍ بَرَدَاها بِرَدَاهَا[5]
وطني مصرُ وفيها وَطَرِي ... ولنفسي مُشْتهاها مُشْتهاها[6]
ولعيني غيرها إن سكنت ... يا خليليَّ سلاها ما سلاها

---

(١) هو عجز بيت، وصدره هو:

هجوت زهيرًا ثم إني مدحته

(٢) البيت للمتنبي من قصيدة يعزّي فيها سيف الدولة. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٣٤) وفيه: «ويجهد» بدل «ويأمل». وسيرد هذا البيت في الجزء الخامس. والضريب: المثيل والشبيه. لسان العرب (ضرب).

(٣) مرّ التعريف بأبي بكر محمد بن القاسم والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني. وتقدم البيتان الأول والثاني في الجزء نفسه.

(٤) هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف. ولد سنة ٥٧٦ هـ وتوفي سنة ٦٣٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ٣ ص ٤٥٤).

(٥) غالٍ: في صدر البيت اسم فاعل من الغلوّ، وهو فاعل قال. بردى: اسم نهر بدمشق. غالٍ في عجز البيت اسم فاعل من غلاء الشعر. الرَّدَى: الهلاك، والضمير يعود إلى دمشق.

(٦) المُشْتَهَى: متنزه بمصر.

وأخفُّ منه قول ابن عبد الظاهر[1]: [الخفيف]

لا تلوموا دمَشْقَ إنْ جِئْتُمُوها ... فَهْيَ قد أوْضَحَتْ لكمْ ما لديها
إنها في الوجوه تضحكُ بالزَّهْـ ... ـرِ لِمَنْ جاء[2] في الربيع إليها
وتراها بالثلج تبصقُ في لحـ ... ـيةِ مَنْ مَرَّ[3] في الشتاء عليها

وقول ابن نُبَاتة وهو بالشام يتشوّق إلى المقياس والنيل: [الكامل]

أرَقٌ له بالشام نِيلُ مدامعٍ ... يُجْريه ذِكْرُ منازلِ المقياسِ
سَقْيًا لمصرَ منازلاً معمورةً ... بنجومِ أُفْقٍ أو ظباءِ كِنَاسِ
وطني سهرْتُ له وشابتْ لِمَّتي ... وَنَعَمْ على عيني هواه وراسي
من لي به والحالُ ليس بآنس ... كَدِرٍ وعَطْفُ الدهرِ ليس بقاسي
والطرف يستجلي غزالاً آنسًا ... بالنيل لم يَعْتَدْ على بانياسِ

رجع إلى مدح دمشق:

وقال الناصر داود ابن المعظَّم عيسى[4]: [الطويل]

إذا عايَنَتْ عينايَ أعلامَ جِلَّقٍ ... وبَانَ[5] مِنَ القَصْرِ المشيدِ قِبابُهُ
تَيَقَّنْتُ أنَّ البَينَ قد بان والنوى ... نَأى شخصه[6] والعيش عاد شبابُهُ

وقال أيضًا رحمه اللّٰه تعالى: [البسيط]

يا راكبًا مِنْ أعالي الشام يجذبُهُ ... إلى العراقين إدلاجٌ وإسحارُ
حَدَّثْتني عن ربوعٍ طالما قُضِيَتْ ... للنفس فيها لُبَاناتٌ وأوطارُ

---

(1) هو محيي الدين عبد اللّٰه بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر الجذامي المصري، القاضي الكاتب الشاعر، شيخ أهل الترسّل. توفي بالقاهرة سنة ٦٩٢ هـ. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ١٧٩) والبداية والنهاية (جـ١٣ ص ٣٣٤). وأبياته هذه في فوات الوفيات (ص ١٩٠).

(2) في فوات الوفيات: «لمن مرّ».

(3) في المصدر نفسه: «من جاء».

(4) هو الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن عيسى بن محمد بن أيوب، صاحب دمشق والكرك وغيرهما. توفي سنة ٦٥٦ هـ. فوات الوفيات (جـ ١ ص ٤١٩). والبيتان في المصدر المذكور (ص ٤٢٧).

(5) في فوات الوفيات: «وبانت».

(6) في المصدر نفسه: «شحطها».

لـدى ريـاضٍ سقـاهـا المــزنُ دِيمَتَـهُ — وزانَــهــا زَهَــرٌ غَضٌّ ونــوّار
شَــحَّ النــدى أنْ يسقِّيهــا مُجَــاجَتَــهُ — فجــادَهـا مُفْعَمُ الشُّؤبــوب[1] مِـدْرار
بكتْ عليهـا الغـوادي وهي ضـاحكـةٌ — وراحتِ الــرِّيــحُ فيهـا وهي معــطار
يــا حُسْنَهـا حين زانتْهـا جـواسِقُهـا — وأينعـتْ في أعـالي الـدوح أثمــار
فهي السمــاءُ اخْضـرارًا في جـوانبها — كــواكـبُ زُهُــرٌ تــبـدو وأقــمــار
حــدثتني وأنــا الــظامي إلى نَبَـإٍ — لا فُضَّ فُــوك فـمِنّي الـريَّ تـمتــار
فهـو الـزلالُ الــذي طـابتْ مشـاربُـهُ — وفــارقَــتْــهُ غــشــاءَات وأكــدار
كَــرِّرْ عـلى نـازحٍ شَطَّ الـمـزارُ بــه — حـديثَكَ العَـذْبَ لا شَطَّتْ بـك الـدار
وعَلِّلِ النَّفْسَ عنهمْ بـالحـديث بـهمْ — إنَّ الحـديثَ عن الأحبـاب أسـمــار

وهـذا الملك الناصـر له تـرجمة كبيرة، وهو ممّن أدركتـه الحرفـة الأدبية، ومنـع حقّه بالحمية والعصبية، وأُنْكرت حقوقه، وأظهر عقوقه، حتى قضى نحبه، ولقي ربه.

رجــع:

وقال سيف الدين المشدّ رحمه اللّه تعالى[2]: [البسيط]

بُشْـرَى لأهـلِ الهَـوَى عـاشـوا بـه سُعَـدَا — وإنْ يـمــوتُــوا فَهُـمْ مِنْ جـملةِ الـشُّهَــدَا
شِعــارُهُمْ رِقَّــةُ الـشكــوى ومَــذْهَبُهُـمْ — أنَّ الضــلالَــةَ فيـهمْ فـي الغــرام هُــدَى
عُيُــونُهُــمْ في ظَــلامِ الـليــلِ ســاهــرةٌ — عَبْــرَى وأنفـاسُهُمْ تحت الــدُّجَى صُعَـدَا
تَجَــرَّعُـوا كــأسَ خمــرِ الحُبِّ مُتْــرَعَــةً — ظـلّوا سَكــارى وظَنُّــوا غَـيَّـهُـمْ رَشَــدا
وعــاسِــلِ الـقَــدِّ مـعســـولٍ مُـقَـبَّـلُهُ — كــالغُصْنِ لَمّــا انْثَنَى والبـدر حـين بَــدا
رقيـمُ عــارضِــهِ كَــهْـفٌ لــعــاشِقِــهِ — يــأوي إليــه فكـم في حُبِّــه[3] شُهَــدَا
نــادمْــتُــهُ وثُـغُــورُ الـبــرقِ بــاسـمــةٌ — والـغَـيْـثُ يـنــزلُ مُـنْـحَـلًا ومُـنْـعـقــدا

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. محيط المحيط (شأبب).

(٢) هو علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني، الأمير سيف الدين المشدّ، صاحب الديوان المشهور. ولد بمصر سنة ٦٠٢ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦ هـ. فوات الوفيات (جـ٣ ص ٥١) والبداية والنهاية (جـ١٣ ص ١٩٧).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «في حَيِّهِ».

كـأنَّ جِـلَّقَ حَـيَّـا الـلّهُ سـاكِـنَـهـا أَهْـدَتْ إلى الغـورِ مِنْ أزهـارهـا مـددا
فـاسْتَـرْسَـلَ الجـوُّ[1] منهـلاًّ يـزيـد على «ثَـوْرَى» ويعقـدُ محلولَ النـدى «بَـرَدَا»

وقال أيضًا: [الطويل]

فـؤادي إلـى بـانـاتِ جِـلَّقَ مـائـلٌ ودمـعـي عـلى أنـهـارهـا يَـتَـحَـدَّرُ
يُـرَنِّحني لـوزُ ابن كَـلاَّبَ مُـزْهِـرًا وتَـهْـتَـزُّني أغصـانُـه وَهْـوَ مُثْمِـرُ
وإنـي إلى زهـرِ الـسفـرجـلِ شَـيِّقٌ إذا مـا بـدا مـثـلَ الـدراهم يُـنْـثـر
غِيـاضٌ يفيضُ المـاءُ في عَـرَصـاتهـا فتـزهـو جمـالاً عنـد ذاك وتـزهـر
تـرى بَـرَدَى فـيهـا يـجـولُ كـأنـه وحصبـاءَهُ سَيْفٌ صقيـلٌ مـجـوهـر
وبـي أحْـوَرٌ لاح الـعـذارُ بـخـدِّه يـسـامـحُ قلبي في هـواه ويـعـذر
يحـاورني فيـه على الصبـر صـاحبي وكيف أُطِيقُ الصبـرَ والـطرفُ أحْـوَرُ
إذا اشتقْتُ وادي النيـرَبَيـنِ لمحتُـه فـأنـظرُ معنـاهُ بـه وهـو أنـضـر
حوى الشرفَ الأعلى من الحسن خدُّه على أنَّ ميـدانَ الـعـوارضِ أخضـر

وما أحسن قوله رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

وادٍ بـه أهـلُ الـحـبـيـبِ نُـزُولُ حَـيَّـا مـعـاهِـدَهُ الـحَـيَـا والـنِّـيـلُ
وادٍ يـفـوحُ المِـسْـكُ مِنْ جَنَبَـاتـه ويَـصِـحُّ فيـه لـلنسـيـمِ عـلـيـلُ
يـشـتـاقُـهُ ويـودُّ لَـثْـمَ تُـرابـه شـوقًـا ولـكـنْ مـا إلـيـه سـبـيـل
متقلقـلُ الأحشـاءِ مسلوبُ الـكـرى طَـلْقُ الـدمـوعِ فـؤادُهُ مـتـبـول
يَصْبُـو إلى الأثـلاتِ من وادي الغضى ويـحنُّ إنْ خـطرتْ هـنـاك شَـمُـولُ
قـالـوا تَبَـدَّلْ، قلتُ يـا أهـلَ الهوى والـنـاسُ فـيـهـمْ عـاذرٌ وجـهـول
هـل بَعْـدَ قـطعِ الأربعينَ مسـافـةٌ لـلعمـرِ فيهـا يـحسنُ التـبـديـل
ولقـد هَفَـا بي في دمشقَ مُهَفْهَفٌ يسبي العقـولَ رُضَـابُـهُ المـعسـول
يـهـتـزُّ إنْ مَـرَّ الـنـسـيـمُ بِـقَـدِّه ويميـلُ بـي نحـو الـصِّبـا فـأميـل
أبـدى لـنـا بَـرَدًا تـبـسُّـمُ ثَـغْـرِهِ وإذا انـثـنـى فَـقَـوَامُـه الـمـجـدول
لـزمَ الـتسلسـلَ مـدمعي وعـذارُهُ فـانـظرْ إلى المُهَجَـاتِ كيف تسيـل

---

(1) في طبعة دار صادر: «الجود».

وسقمتُ مِنْ سَقَمِ الجفونِ لأنها ... هي عِلَّةٌ وفؤاديَ المعلول
لا تعجبوا إنْ راعني بذوائبِ ... فالليلُ هَوْلٌ والمُحِبُّ ذليل
ما صَحَّ لي أنَّ الذؤابةَ حَيَّةٌ ... حتى سَعَتْ في الأرض وهي تجول

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمي[1]: [البسيط]

يا سائقًا يقطعُ البَيداء مُعْتسفًا ... بضامرٍ لم يكنْ في سَيْره وَانِي
إنْ جُزْتَ بالشام شِمْ تلك البروقَ ولا ... تَعْدِلْ، بَلَغْتَ المُنَى، عن دَيْر مُرّان[2]
واقصِدْ أعالي قَلاليه فإنَّ بها[3] ... ما تشتهي النفسُ من حُورٍ وولْدان
مِنْ كل بيضاءَ هيفاءِ القَوَام إذا ... ماستْ فواخَجَلَ المُرّان والبانِ[4]
وكلِّ أسمرَ قد دانَ الجمالُ لهُ ... وكَمَّلَ الحُسْنَ فيه فَرْطُ إحسان
ورُبَّ صُدْغٍ بَدَا في خَدِّ مُرْسِلِهِ[5] ... في فترةٍ فَتَنَتْ مِنْ سِحْرِ أجفان
فليتَ ريقَتَهُ وِرْدِي ووجْنَتَهُ ... وَرْدِي ومِنْ صُدْغه آسي وريحاني
وعُجْ على دير مَتَّى ثم حَيِّ به الرّ ... بّانَ بطرسَ، فالرّبّان رَبّاني
فهمتُ منه إشاراتٍ فهِمْتُ بها ... وصنْتُ منشورها في طيِّ كتمان
وادخل[6] بدير حنين وانْتَهِزْ فُرَصَ الـ ... ـلذّاتِ ما بَينَ قِسِّيْسٍ ومطران
واسْتَجْلِ راحًا بها تَحْيَا النفوسُ إذا ... دارَتْ براحِ شماميس ورهبان
حمراءَ صفراءَ بعد المَزْج كم قذفتْ ... بِشُهْبها مِنْ هُمُومي كلَّ شيطان
كم رحتُ في الليل أسقيها وأشربُها ... حتى انقضى ونديمي غيرُ ندمان

---

(١) هو سليمان بن عبد المجيد بن حسن بن عبد الله بن الحسن، عون الدين ابن العجمي الحلبي؛ كاتب أديب بارع. ولد سنة ٦٠٦ هـ، وتوفي سنة ٦٥٦ هـ بدمشق. فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٦٦) ووفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٥١). وقصيدته هذه في فوات الوفيات (ص ٦٧ - ٦٨).

(٢) دَيْر مُرّان، بضم الميم وتشديد الراء: دَيْرٌ بالقرب من دمشق على تلّ مشرف. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٥٣٣).

(٣) رواية صدر البيت في فوات الوفيات هي:

واقصد علالي قلاليه تلاقِ بها

(٤) في فوات الوفيات: «فيا خجلة المُرّان..». والمُرّان، بضم الميم وتشديد الراء: الرماح، الواحدة مُرّانة. مختار الصحاح (مرن).

(٥) في فوات الوفيات: «في الخدّ مرسلة..».

(٦) في طبعة دار صادر وفي فوات الوفيات: «واعْبُرْ بدير حنينا..».

سألتُ توماسَ عَمَّنْ كان عاصِرَها ... أجابَ رَمْزًا ولم يسمحْ بتبيان
وقال: أخبرني شمعونُ ينقلُهُ ... عن ابن مريمَ عن موسى بن عمران
بأنها سَفَرَتْ بالطُّورِ مُشْرِقَةً ... أنوارُها فَكَنَوْا عنها بنيران
وَهْيَ المُدامُ التي كانت مُعَتَّقَةً ... مِنْ عهد هُرْمُسَ مِنْ قبلِ ابن كنعان
وَهْيَ التي عَبَدَتْها فارسٌ فكَنَى ... عنها بشمسِ الضحى في قومه ماني
سكرتُ منها فلا صَحْوٌ وَجُدْتُ بها ... على الندامى وليس الشحُّ مِنْ شاني
وسوف أمنحها أهلاً وأنشده ... ما قِيلَ فيها بترجيعٍ وألحان
حتى تميلَ لها أعطافُهُ طربًا ... وينثني(١) الكونُ مِنْ أوصافِ نشوان

وهذه وإن لم تكن في دمشق على الخصوص فلا تخرج عمّا نحن بصدده، والأعمال بالنيّات، وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية، ومِمَّنْ حاك هذه البرودَ الشيخُ الأكبر رحمه اللّه تعالى، وقيل: إنه الشيخ شعبان النحوي.

رجع:

وقال بعضهم: [البسيط]

شوقي يزيدُ وقَلْبُ الصَّبِّ ما بَرَدَا ... وبانَ يأسي مِنَ المَعْشُوقِ حين غَدَا
ومَدْمعي قنواتٌ، والعذولُ حَكَى ... ثَوْرَى، يلوم الفتى في عِشْقِهِ حَسَدَا
على مُغَنِّيَةٍ بالجُنْكِ(٢) جاوبَها ... شَبَّابةٌ كَمْ بها مِنْ عاشقٍ سَهِدَا
فالبدرُ جَبْهَتُها، والرِّدْفُ رَبْوَتُها، ... وخِلُّها ماتَ في خَلْخَالِها كمدا

ولنذكر نبذة مما خوطبتُ به من علماء الشام وأدبائه حفظ اللّه تعالى كمالهم، وبلغ آمالهم!.

فمن ذلك قول شيخ الإسلام، مفتي الأنام، سيدي الشيخ عبد الرحمن العِمَادي(٣) الحنفي حفظه اللّه تعالى، وكتبه لي بخطِّه: [السريع]

شمسُ هُدًى(٤) أَطْلَعَهَا المغربُ ... وطارَ عنقاءُ بها مُغْرِبُ

(١) في فوات الوفيات: «وينتشي».
(٢) الجُنْكُ، بضم الجيم وسكون النون: من آلات الطرب، فارسية. محيط المحيط (جنك).
(٣) مرَّ التعريف بعبد الرحمن العمادي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.
(٤) في طبعة دار صادر: «شمس الهدى».

فأشرقتْ في الشام أنوارُهَا   وليتَهَا في الدهر لا تَغْرُبُ
أعني الإمامَ العالم المَقَّري   أحمَدَ مَنْ يكتب أو يخطب
شهابُ علمٍ ثاقبٌ فَضْلُهُ   ينظمُ عقدًا وهو لا يَثْقُبُ
فرعُ علومٍ بالهُدَى مُثْمِرٌ   ورَوْضُ فَضْلٍ بالندى مُعْشِبُ
قدِ ارتَدَى ثوبَ عُلا وامْتَطَى   غاربَ مجدٍ فَرَهَا المركب
درسٌ غريْبٌ كلَّ يومٍ له   يُمْلى ولكنْ حِفْظُهُ أغرب
مُحاضَراتٌ مسكرٌ لَفْظُها   بكأسِ سمعٍ راحُها تُشْرَب
رياضُ آدابٍ سقاها الحَيَا   ففاحَ مِسْكًا نَشْرُها الأطيب
فضائلٌ عَمَّتْ وطَمَّتْ فقد   قَصَّرَ فيها كلُّ مَنْ يُطْنب
قلوبُنا قد جُذِبَتْ نحوه   والحبُّ مِنْ عادته[1] يجذب
إنْ بَعُدَتْ عن غَرْبِهِ شَرْقُنَا   فالفضلُ فينا نَسَبٌ أقْرَبُ
كم طلبتْ تشريفَه[2] شامُنَا   بُشْرَى لها فَلْيَهْنِها المطلبُ
قد سَبَقَتْ لي مَعَهُ صحبةٌ   في حَرَمٍ يُؤْمِنُ مَنْ يَرْهَبُ
أُخُوَّةٌ في اللّه من زمزمٍ   رَضاعُها طابَ لها المشرب
أَنْهلني ثَمَّ ودادًا فلي   بالشام منه عَلَلٌ أعذب
أَهْدَيْتُ ذا النظم امتثالاً له   وقد هَجَرْتُ الشعرَ مذ أحْقُبُ
نَشَّطَ قلبي لطفُهُ فانثنى   والقَلْبُ في أهلِ الهوى قُلَّبُ
ضاءَ دُجَى العِلْمِ به للوَرَى   ما لاح[3] في جُنْحِ الدّجَى كوكب

تحيّة الفقير الداعي، عبد الرحْمن العمادي، انتهى.

وأجبته بما نصُّه: [السريع]

ما تِبْرُ راحٍ كأسُها مُذْهَبُ   ما للنُّهَى عن حُسْنِها مَذْهَبُ
تُسْتَدْفَعُ الأكدارُ مِنْ صَفْوِها   وتنهلُ الأفراحُ أو تنهب
تَسْعَى بها هَيفاءُ مِنْ ثَغْرِها   أو شَعْرِها النُّورُ أو الغَيْهَبُ

---

(١) في طبعة ليدن: «من عاداته».

(٢) في طبعة ليدن: «تشريقه».

(٣) في طبعة دار صادر: «ما نار».

فَـتَّـانَـةُ الأَعْـطافِ نَـفَّـاثَـةٌ سِحْـرًا بـألـبـابِ الـوَرَى يَـلْعَبُ
فـي روضـةٍ قـد كَـلَّلَتْ بـالـنَّـدَى والـزهـرِ رأسَ الـغُصْـن إذ يُـعْـصَـبُ
بُـرُودُهـا بـالـنَّـوْر قـد نُـمْـنِمَـتْ كـالـوَشْي مِنْ صنعـاءَ بـل أعـجب
والـمـاءُ يجـري تـحت جَـنَّـاتِـهـا والـنـارُ مِـنْ نـارنـجـهـا تُـلْهَـبُ
والـظِّلُّ ضـافٍ والـنـسيـمُ انبـرى والـجـوُّ ذاكي الـعَـرْف مُسْتَـعْـذَبُ
والـطيـرُ لـلعُـشَّـاق بـالـعُـوْدِ قـد غَـنَّتْ فـهـاجَـتْ شَـوْقَ مَـنْ يـطرب
أبـهـى ولا أبـهـجَ فـي مـنـظرٍ مِـنْ نـظم مَنْ تـقـديمُـهُ الأَصْـوَبُ
مُفْتي دمشـق الشـامِ صَـدْرِ الـوَرَى مَـنْ فـي الـعُـلا تَـمَّ بـه الـمَـطْلَبُ
عَـلاَّمَـةُ الـدهـرِ ولا مِـرْيَـةٌ[1] ومَـلْجـأُ الـفَـضْـلِ ولا مَـهْـرَبُ
لـلَّه مـا امـتـازَ بـه مِـنْ حُـلًى بـغـيـرِ مَـنِّ الـلَّهِ لا تُـكْـسَـبُ
أبـدى بـه[2] الـرحـمنُ في عَبْـده مـظاهـرَ الـمَنْـحِ الـتي تُـحْسَبُ
جُـودٌ بـلا مَـنٍّ وعِـلْمٌ بـلا دَعْـوَى بـه التحـقـيـقُ يُسْتَـجْـلَبُ
وبـيـتُ مَـجْـدٍ مُـسْـنَـدٌ ركـنُـهُ إلـى عـمـادِ الـديـن إذ يُـنْـسَـبُ
فَـبَـرْقُـهُ الـشـامِـيُّ مَـنْ شـامَـهُ نـالَ مـرامًـا والـسِّـوَى خُـلَّبُ
ومـا عـسـى أُبْـدِيـهِ فـي مَـدْحِـهِ أو وَصْـفِ أبـنـاء لـه أَنْـجَـبُـوا
تـسـابقـوا لـلمـجـد حتى حَـوَوْا سبـقًـا لـمـا فـي مـثله يُـرْغـب
أُعِـيـذُهُـمْ بـالـلَّه مِـنْ شَـرِّ مـا يُـخْـشَـى مِنَ الأغـيـار أو يُـرْهَـبُ
وأسـألُ الـلَّهَ لـهـمْ عـزَّةً بـادِيَـةَ الأَضـواءِ لا تُـحْـجَـبُ

ولَمَّا حللْتُ دِمَشْقَ المحروسة، وطلبْتُ موضعًا للسكنى يكون قريبًا من الجامع الأموي الذي يُعْجز البليغُ وصفَهُ وإن مـلأ طُرُوسَـه، أرسل إليَّ أديبُ الشـام فرد المـوالي المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهيني[3] حفظه اللَّه تعالى بمفتاح المدرسة الجَقْمقية، وكتب لي معه ما نصُّه[4]: [الخفيف]

كَـنَـفُ الـمَـقَّـرِيِّ شـيـخي مَـقَـرِّي وإلـيــه مِـنَ الـزمـان مَـفَـرِّي

(١) المِرْية، بكسر الميم وسكون الراء وفتح الياء: الشَّكُّ. مختار الصحاح (مرا).
(٢) في طبعة دار صادر: «بها».
(٣) مرّ التعريف بأحمد الشاهيني في الجزء الأول.
(٤) الأبيات في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (جـ ١ ص ٣٠٤).

كَنَفٌ مثلُ صَدْرِهِ في اتِّساعٍ ... وعلومٍ كالدُّرِّ[1] في ضِمْنِ بَحْرِ
أيُّ بَدْرٍ قد أطلعَ الغَرْبُ منه ... مَلأَ الشرقَ نُورُه؟ أيُّ بدرِ
أحمدُ سيدي وشيخي وذخري ... وسَمِيِّي وفوق ذاك وفخري[2]
لو بغير الأقدام يسعى مَشُوقٌ ... جِئْتُهُ زائرًا على وجه شكري

العبد الحقير المستعين، المخلص أحمد بن شاهين، انتهى.

فأجبته بقولي[3]: [الخفيف]

أيُّ نَظْمٍ في حُسْنه حار فكري ... وتحلَّى بدُرِّهِ صَدْرُ ذكري
طائرُ الصِّيتِ لابنِ شاهينَ يُنْمَى ... مَنْ بروضِ النَّدَى له خَيرُ وَكْرِ
أحمدُ الممتطينَ ذروةَ مَجْدٍ ... لِعَوَانٍ[4] مِنَ المعالي وبِكْرِ
حَلَّ مِفْتاحُ فَضْلِهِ بابَ وَصْلٍ ... مِنْ معاني تعريفه دون نُكْرِ
يا بديعَ الزمانِ دُمْ في ازديانٍ ... بالعُلا وازديادِ تجنيسِ شكرِ

وكتب إليَّ لَمَّا وقف على كتابي «فتح المتعال، في مدح النعال» بما نصُّه: لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامي في تقريظ تأليف سيدي ومولاي وقبلتي ومعتقدي شيخ الدنيا والدين، وبركة الإسلام والمسلمين، حفظ اللّٰه تعالى وجوده آمين: [الطويل]

أأحمدُ، فخرًا يا ابنَ شاهينَ ساميًا ... بأحمَدَ ذاك المقَّرِيِّ المُسَدَّدِ
بِمَنْ راحَ خدَّامًا لِنَعْلِ محمدٍ ... وناهيك في العليا بأرفعِ سُؤْدَدِ
فإنْ أنا أخدمْ نَعْلَهُ فَلَطَالما ... غدا خادمًا نعلَ النبيِّ المُمَجَّدِ
بتأليفه في وَصْفِ نعلٍ تَكَرَّمَتْ ... كتابًا حوى إجلالَ كلِّ مُوَحِّدِ
ويكفيك فخرًا يا ابن شاهينَ أنْ تُرَى ... خَدومًا لخدّامٍ لِنَعْلِ محمدِ
فقلْتُ له طُوبَى بخدمةِ أحمدٍ ... فقال كذا طُوبَى بخدمةِ أحمدِ
فلا زال يَرْقَى للمعالي مُكَرَّمًا ... ويَنْتَعِلُ العَيُّوقَ في رَغْمِ فَرْقَدِ[5]

---

(١) في خلاصة الأثر: «كالبحر».
(٢) رواية عجز البيت في خلاصة الأثر هي:
وسميي وذاك أشرف فخري
(٣) الأبيات في خلاصة الأثر (ص ٣٠٥).
(٤) العَوان، بالفتح: المتوسّطة في السِّنّ، والجمع عُوْن. لسان العرب (عون).
(٥) العَيُّوقُ والفَرْقَدُ: نجمان.

فأجبته بقولي: [الطويل]

أأحمدَ وَصْفٍ بالعوارفِ يَرْتدي ... وأَشْرَفَ مولًى للمعارفِ يَهْتَدي
نُجُومُكَ إذا أنتَ الخليلُ تَوَقَّدَتْ ... فأنّى أُجاريها بنحوِ المُبَرَّدِ
أتاني نظامٌ منك حَيَّرَ فكرتي ... على أنه أعلى مرامي ومَقْصدي
فأنتَ ابنُ شاهينَ الذي طارَ صِيتُهُ ... بجوٍّ العُلا والضدُّ ضلَّ بفرقد
فَبِرُّكَ موصولٌ وشانيكَ[1] مُنْكَرٌ ... وقَدْرُكَ مرفوعٌ على رَغْم حُسَّدِ
وعند حديثِ الفَضْلِ أسند عاليًا ... بشامٍ فَهُمْ يَرْوُوْنَ مُسْنَدَ أحمدِ
فوجهك عن بشرٍ ويُمْناك عن عَطًا ... وفِكْرُكَ يروي في الهدى عَنْ مُسَدَّد
فلا زلتَ ترقى أَوْجَ سعدٍ ورفعةٍ ... ودُمْتَ بتوفيقٍ وعزٍّ مُخَلَّدِ

ولما خاطبته بقولي: [الطويل]

يَصِيدُ ابنُ شاهينٍ بجوٍّ بلاغةٍ ... سوانِحَ في وَكْرِ البدائعِ تُفْرِخُ
وما كان دِيكُ[2] الجنِّ مُدْرِكَ نَيْلِها ... إذا صَرْصَرَ البازي فلا ديكَ يَصْرِخُ
ولو جادَ فكرُ البحتريِّ بمثلها ... لكان على الطائيِّ[3] بالأنف يَشْمَخُ
ولو أن نظمَ ابن الحسين[4] أُتِيحَها ... لفازَ بِسَبْقٍ حُكْمُهُ ليس يُنْسَخُ
فلا زالَ ملحوظًا بِعَينِ عنايةٍ ... وكُتْبُ التهاني عن عُلاهُ تؤرِّخُ

أجابني بما نصُّه: [الطويل]

أأنفاسَ عيسى ما بروعيَ ينفخُ ... أم الطرسُ أَضْحى بالعبيرِ يُضَمَّخُ
وهذي قوافٍ أم هي الشمس؟ إنني ... أراها على الجوزاء بالأنف تَشْمَخُ
بَلَى هي نَصٌّ مِنْ ودادِكَ مُحْكَمٌ ... تزولُ الرواسي وهي لم تَكُ تُنْسَخُ
أتتني بمدحٍ مُخْجِلٍ فكأنها ... لفَرْطِ حيائي قد أتتني تُوَبِّخُ
وهل أنا إلَّا خادمُ نَعْلَ سيدي ... وبيني وبين المدح في الحقِّ بَرْزَخُ

---

(١) شانيك: أصلها: «شانئك»؛ يقال: شنأه إذا أبغضه بغضًا شديدًا. لسان العرب (شنأ).

(٢) ديك الجن: هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن تميم الكلبي، الملقب بديك الجن. وهو شاعر مشهور، توفي سنة ٢٣٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ٣ ص ٢٨٤).

(٣) أراد بالطائي أبا تمام الشاعر.

(٤) أراد بابن الحسين أحمد بن الحسين المتنبي.

وما هي إلاَّ غُرَّةٌ حُزْتُ فَخْرَها وإني بها بادي المحاسن أشدخ[1]
فلا دَرَّ دَرِّي وانحرفْتُ عن العُلاَ إذا كان وُدِّي عن معاليكَ يُفْسَخُ
وحُبُّكَ مهما طالَ شرقًا ومغربًا بِوَكْرِ ابنِ شاهينَ الوفيِّ يُفَرِّخُ
وإنِّي وإنْ أَرَّخْتُ مجدًا لماجدٍ فإنِّيَ باسم المقَّرِي أؤرِّخُ
سَمِيِّي ومولاي الذي راحَ مَدْحُهُ لرأسِ الأعادي بالمعاريض يرضخ[2]
ودُمْ يا نظيرَ البَدْرِ ترقى بأوْجِهِ ولا زلتَ في طرْفي وقلبيَ ترسخُ

وكنتُ يومًا أرومُ الصعودَ لموضع عالٍ فوقعْتُ، وانفكَّتْ رجلي، وأَلِمْتُ، فكتب إليَّ: [السريع]

لا أَلِمَتْ رِجْلُكَ يا سيدي وصانَها اللَّهُ مِنَ الشَّيْنِ
ما هي إلَّا قَدَمٌ للعُلاَ لا آحتاجَ ذاك النَّصْلُ لِلْقَينِ
زانَتْ دمشقَ الشام في حلِّها فلا رأتْ فيها سوى الزَّين
بانتْ عن الأهلِ لتشريفنا لا جَمَعَتْ أَيْنًا[3] إلى بَينِ
عَجِبْتُ مِنْ راسخةٍ في العُلاَ والعلمِ إذا زاغَتْ مِنَ العَينِ
إنِّي أعافُ المَينَ[4] بَيْنَ الورَى ولستُ واللَّهِ أخا مَينِ
للمَقَّري المُجْتَبَى أحمدٍ دِينُ الهوى والمدحِ كالدَّين
وأحمدُ اللَّهَ على أنني رأَيْتُهُ حازَ الفريقين
فلا أراهُ اللَّهُ في عمره بَينًا يُؤَدِّيه إلى أين

تعويذًا لمحبِّ العبد الحقير الداعي أحمد بن شاهين، انتهى.

وأهديتُ إليه، حفظه اللَّه تعالى، سبحة وخاتمًا، وكتبْتُ إليه[5]: [مجزوء الكامل]

يا نَجْلَ شاهينَ الذي أَحْيَا المعاليَ والمعالمْ

---

(١) في طبعة ليدن: «أشرخ». والأشرخ: المنتشر الغرّة. والأشدخ: السائل الغرّة. لسان العرب (شرخ) و (شدخ).

(٢) المعاريض: جمع مِعْراض وهو سهم بلا ريش يصيب بعرضه دون حدِّه. يرضخ رأسه بالمعراض وبالحجر: يكسره به. لسان العرب (عرض) و (رضخ).

(٣) الأين: التعب. لسان العرب (أين).

(٤) المَيْنُ: الكذب. لسان العرب (مين).

(٥) الأبيات في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (جـ ١ ص ٣٠٦).

يـا مَـنْ بـه رِيـشَـتْ مـن الـ ـمـجـدِ الْـخَـوَافـي والْـقَـوَادمْ
يـا مَـنْ دمـشـقُ بـطـيـبِ مـا يُـبْـدِيـهِ عـاطـرةُ الـنـواسـمْ
فـالـنـهـرُ مـنـهـا ذو صـفًـا والـزهـرُ مُـفْـتَـرُّ الـمـبـاسـمْ
والـغُـصْـنُ يَـثْـنـي عِـطْفَـه طـربًـا لـتـغـريـدِ الـحـمـائـمْ
يـا أحـمـدَ الأوصـافِ يـا مَـنْ حـازَ أنـواعَ الـمـكـارمْ
أنـتَ الـذي طَـوَّقْـتَـنـي مِـنَنًـا لـهـا تَـعْـنُـو الأعـاظـمْ[1]
فـمـتـى أُؤَدِّي شُـكْـرَهـا والـعـجـزُ لـي وَصْـفٌ مُـلاَزمْ
والـعُـذْرُ بـادٍ إنْ بَـعَـثْـ ـتُ إلـيـك مِنْ جنسِ الـرتـائمْ
بـنـتـيـجـة[2] الـذكـرِ الـتي جـاءتْ بـتـصـحـيـفٍ مـلائـمْ
وبـحـائـمٍ صـادٍ إلـى[3] فَـيضِ الـنَّـدَى مِنْ كَـفٍّ حـاتـمْ
فـامْـدُدْ على جـهـدِ الـمُـقِـلْـ ـلِ رِوَاقَ صَـفْـحٍ ذا دعـائـم
واقْـبَـلْ عـقـيـلةَ فـكـرِ مَـنْ هـو في بـحـارِ الـعِـيِّ عـائـم
لا زِلْـتَ سـابِـقَ غـايـةٍ بـيـن الأعـارب والأعـاجـم

فأجابني بما صورته[4]: [مجزوء الكامل]

يـا سـيـدًا شـعـري لـه مـا إنْ يـقـاوي أو يُـقـاومْ
كـلاَّ، ولا قَـدْري لـه يـومًـا يُـسـاوي أو يُـسـاومْ
يـا مَـنْ رأيـتُ عُـطَارِدًا مـنـه بَـدَا في شـخـصِ عـالـمْ
يـا مَـنْ بـنَـفْـحَـةِ خُـلْقِـهِ وبِـنَـظْمِـهِ السـامي الـمُـلائـمْ
أضـحـى يُـريـنـي مُـعْـجِـزَيْـ ـنِ مِنَ الـنـواسـم والـمـبـاسـمْ
مـا زلْـتُ أُبْـصِـرُ مـنـهـمـا حُـسْنَ الـنُّعَـامـى والـنَّـعـائـم[5]

(١) المِنَنُ: جمع مِنَّة وهي الإحسان. تعنو: تخضع. لسان العرب (منن) و(عنا).
(٢) في خلاصة الأثر: «تسبيحة الذكرِ..».
(٣) رواية صدر البيت في خلاصة الأثر هي:
وبـخـاتـمٍ داعٍ إلـى
(٤) الأبيات في خلاصة الأثر (جـ١ ص ٣٠٧).
(٥) النُّعامى، بضم النون: ريح الجنوب، وهي أبلُّ الرياح وأرطبها. النعائم: منزل من منازل القمر. محيط المحيط (نعم).

بـهـمـا زمـانـي حـاسـدًا أضـحى وبـالـتنغيص حـاسِمْ
قَـلَمـي وقَـلْبـي بـيـن هـا مٍ فـي الـشـنـاء لـه وهـائـمْ
حُـبِّـي لأحـمـدَ سـيِّـدي شـيْـخِ الـوَرَى فَـرْضٌ مـلازمْ
الـمـقـريِّ الـمُـعْـتـلي شَـرَفَ الـمعـالـي والـمعـالـمْ
مـا لـي إلـيـه وَسِـيـلَةٌ إلَّا هـوًى فـي الـقـلبِ دائـمْ
قـد جـاء مـا شـرَّفْـتَـنـي بِـخُـصُـوصِـهِ دونَ الأعـاظـمْ
مِـنْ خـاتـمٍ كَـفِّـي بـه وَرِثَـتْ سـليـمـانَ الـعـزائـمْ
وجَـعَـلْتَـنـي لا أحـسـبُ الـ ـعَيُّـوقَ[1] لي في فَصِّ خـاتـمْ
وبِـسُـبْـحَـةٍ شَـبَّـهْـتُـهـا بـالـشُّـهْـبِ في أسـلاكِ نـاظـمْ
فَـلْتَـحْـسُـدِ الـجـوزاء مـا أحـرزْتُ مِـنْ تـلك الـمـكـارمْ
هـي آلـةٌ لـلـذكـرِ لـ ـكنْ ليس ذِكْـرَى في الحيـازم[2]
فَـهَـواكَ فـي قـلـبـي ومـا في القـلب جَـلَّ عـن الـرتـائـم
مـا ذي رتـائـمُ سـيـدي بـل إنـهـا عـنـدي تـمـائِـمْ
لـو أنـهـا مِـنْ جـنسٍ مـا يُـطْوَى غَـدَتْ فـوق الـعـمـائـم
لـكـنـهـا قـد زَيَّـنَـتْ كـفِّـي وأَزْرَتْ بـالـخـواتـم
يـا مَـنْ يـريشُ إذا رمـى نَـسْـرَ الـسـمـاء بِلَحْظِ حـازم
إنَّ ابـنَ شـاهـيـنٍ حَـوَى مـنـك الـخـوافـيَ والْـقَـوَادم
هـذي نـوافـلُ يـا إمـا مَ الـدَّهْـرِ لـيـسـتْ بـالـلوازم
الـعـذرُ عـنـهـا مـخـجـلٌ عَـبْـدًا لـنـعـلكَ جـدَّ خـادم
بـل أنـتَ فـوق الـعـذرِ قـد أَصْبَحْتَ لـلشِّـعْـرَى[3] تُـنـادمْ
لا زال دَهْـرُكَ سـيـدي يـلقـاكَ مـنـه ثَـغْـرُ بـاسـم
يُـهْـدِي إلـيـك مـن الـمـرا حـمِ والـمـكـارمِ والـغـنـائـم
مـا لا يُـسـاومُ مِـثْـلَهُ ذو الـحظِّ فـي أَسْنَـى الـمـواسِمْ

العبد الحقير الداعي لأستاذه مولاي الأجلّ بالتمكين، أحمد بن شاهين، حامدًا مصليًا مسلمًا، انتهى.

---

(١) العَيُّوقُ: نجم. محيط المحيط (عوق).

(٢) في طبعة دار صادر: «ذكرًا» بدل «ذِكْرَى». والحيازم: جمع حيزوم وهو الصدر. محيط المحيط (حزم).

(٣) الشِّعْرى، بكسرِ الشين: كوكب، وهما شِعْرِيان. مختار الصحاح (شعر).

وقال مستجيزًا: [المجتث]

الشيخُ يشربُ ماءً ونحنُ نشربُ قَهْوَهْ

فقلت: [المجتث]

لأنه ذو قُصُورٍ فَغَطَّ بالعُذْرِ سَهْوَهْ

ولَمَّا أَزْمَعْتُ العَوْد[1] إلى مصر أوائل شوال سنة ١٠٣٧ خاطبني بقوله ـ حفظه الله! ـ: [الكامل]

أبدًا إليكَ تَشَوُّقي وحنيني وإلى جَنَابِكَ، ما عَلِمْتَ، سكوني
ولديكَ قلبي لا يزالُ رهينةً غَلِقَتْ وتَعلمُ ذمّةَ المرهون
وعليكَ قد حُبِسَتْ شواردُ مدحتي لَمّا رأيتُكَ فوقَ كلِّ قَرينِ
قلبي كقلبكَ في المحبّةِ والهَوَى إذ كان في الأشواق دِينُكَ ديني
وَلَّيْتَه بهواكَ أرفعَ رتبةٍ وغَدَوْتَ تعزلُ عنه كلَّ خَدِينِ
وأطاعَ أمْرَكَ في الودادِ فلو أشا منه ـ وحاشا ـ سلوةً يَعْصِيني
ما كنتُ أحسب قبل طبعك أن أرى يومًا عُطَاردَ ناطقًا بِفُنُون
حتى رأيْتُكَ فاسْتَبَنْتُ بأنه يروي أحاديثَ العُلا بشجون
ويفيدُ سمعي معجزًا بَهَرَ النُّهَى ويُري عيوني آيةَ التكوين
يا مَنْ غَدَا يُحْيي القلوبَ بلفظه ويردِّدُ الأنفاسَ عن جِبْرِينِ[2]
أَحْيَيْتَ بالوَحْيِ المبينِ قلوبَنَا وحْيٌ ـ لَعَمْرُ اللَّه ـ جِدُّ مُبِينِ
هذي دمشق، لَعَمْرُ خُلْقِكَ، روضةٌ قد جادَ طَبْعُكَ دَوْحَهَا بمعين
قد زارَها غيثُ الندى فَبَهارُها أضحى يلوحُ بِحُلّةِ النّسْرينِ
لو لم تكنْ بَدْرًا لَمَا أَحْرَزْتَ ما قد خُصَّ في الأنوارِ بالتلوينِ
حَقَّقْتَ ما قد قِيلَ حين حَلَلْتَها إنَّ المكانَ مُشَرَّفٌ بمَكِينِ[3]
هي غادةٌ حَلَّيْتَها فَتَزَيَّنَتْ ما كان أحْوَجَها إلى التزيين

(١) في طبعة دار صادر: «على العَوْد إلى مصر أوائل شهر شوال..».
(٢) جبرين: لغة في جبريل.
(٣) المَكِيْنُ: المستقرّ الثابت. لسان العرب (مكن).

مولاي أحمدُ يا سليلَ بني العلا ... يا فوقَ مدحي فيك أو تحسيني
أغنى وجودُكَ وهو عينُ الدِّين عن ... عَلاَّمةِ الدنيا لسانِ الدين[1]
أُنْظُرْهُ تستغني به عن غيره ... وإلى العيانِ آرغَبْ عن المظنون
تَلْقَى علومَ الناس في أوراقهم ... وعلومُهُ في صَدْرِهِ المشحون
فبعلمه آعْبرْ كلَّ بحرٍ زاخرٍ ... وبفهمه آسْبِرْ غامضَ المخزون
وبحلْمِهِ آرْغبْ عن تحلُّم أحنفٍ ... وبعزمه آصْحَبْ بأسَ لَيثِ عرين
لَمَّا رأيْتُكَ فاسْتَقَمْتُ لِقِبْلَتي ... أدعو وأشكرُ وارداتِ شؤوني
أَلْفَيْتُ قطركَ يَمْنَتِي فأفادني ... فضلَ اليمين على اليسارِ يَقيني
فسقى الحَيَا للمقَّريِّ أخي العُلا ... بلدًا بأقصى الغرب جِدَّ هَتُونِ
بلدًا تَبَيَّنْتُ الهلالَ بِأُفْقِهِ ... ورأيتُ منه قرَّةً لعيوني
لولا هلالُ الغرب نَوَّرَ شَرْقَنا ... بِتْنا بليلِ الحَدْسِ والتخمين
يا راحلاً رحلَ الفؤادُ بعزمه ... رفقًا بقلبٍ للوفاء ضمين
أستودعُ اللَّهَ العظيمَ، وإنني ... مستودِعٌ منه أجلَّ أمين
إنِّي أُوَدِّعُ يومَ بَيْنِكَ مهجتي ... وشبيبتي وتصبُّري وسكوني
وأعودُ مِنْ توديعِ وجهك عَوْدَةً ... خَلَطَتْ يقيني في الهوى بِظُنُونِ
حتى كأني قد فقدتُ تمائمًا ... تقضي عليَّ بحالةِ المجنون
وتودُّ نفسي أنها لو حَرَّمَتْ ... أبدًا سكوني للهوى وركوني
أَوْشَكْتُ أَقْتُلُ بين مُعْتَرَكِ الهَوَى ... نفسي ومعتركُ الهوى بيميني
ولقد وَدَدْتُ بأنني مُتَحَمِّلٌ ... تلك الخطا بمحاجري وجفوني
كيف السبيلُ إلى الحياةِ ومهجتي ... في قبضة الأشواق كالمسجون
ما أنتَ إلاَّ البدرُ لاحَ بأُفْقِنَا ... شهرًا وكان ضياؤه يَهْديني
وإليكَهَا يا شيخَ دهري غادةً ... غَنِيَتْ عن التحسينِ والتزيين
جاءتْكَ تَعْرِضُ في الودادِ كمالَها ... وإذا لَحَظْتَ جمالَها يكفيني
هي بنتُ لحظتك التي تؤوي النُّهى ... لا بنتُ ليلتيَ التي تؤويني
ما الفخرُ في دعوى البديهةِ عندها ... الفخرُ قولك إنها ترضيني
حسبي أبا العباس منك إصاخةٌ ... تفضي بموت عِدَايَ أو تُحْييني

(١) يريد لسان الدين ابن الخطيب صاحب كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة.

يـا لَـهْفَ نـفسي كـيف أبـلغُ مـدحـةً ... أضـمـرتـهـا فـي سِـرِّيَ الـمـكـنـون
فـلسـانُ حبِّي بـالـغٌ أقصى الـمـدى ... ولـسـانُ مـدحي في القـصـور يلينـي
مـا الشعـرُ يستـوفي حقـوقكم ولـو ... أهـديتُ من نـظمي عقـودَ سنيني[1]
حَـلَّقْتُ أصـطادُ الـنجـومَ، وإنـهـا ... تـزهـو[2] بعِقْـدٍ فـي عُـلاكَ ثـمـين
فـرأيْتُ في الـعَيُّوق طبعـكَ سيـدي ... نَـسْـرًا أسَفَّ لـعـجـزه شـاهـينـي
قـد خَفَّ شعـري مِنْ قصـورِ طبيعتي ... ولـربـمـا قـد كـان جِـدَّ ركـينِ
يكفيـكَ أحمـدُ يـا ابنَ شـاهينٍ بـأنْ ... أَحْـرَزْتَ خَـصْـلَ السَّبْق دون الـدون
وإذا عَجـزْتَ عن الـفـرائضِ جـاهـدًا ... فـادْأَبْ عَسـاكَ تفـوزُ بـالـمسنـون
هـو قِبْلتـي فـلأغـتـدي مُـتَـمَسِّكًـا ... منـه بـحـبـلٍ فـي الـنـجـاة مـتـين
واسْـلَمْ فـديـتُـكَ زائـرًا ومُـشَـرِّفًـا ... أفـدي مـواطـىء نَـعْـلِهِ بـجـبـينـي
وكـذلـك عـمـري في هـواكَ مُـقَـسَّمٌ ... بـيـن الـدعـاء الـجـدّ والـتـأمـينِ

وقال حفظه اللّه تعالى في ذلك: [الطويل]

حَنَـانَيـكَ إنَّ الـدَّمْـعَ بـالـودِّ مُعْـرِبٌ ... وإنـيَ فـي شَـرْقٍ وأنـتَ مُـغَـرِّبُ
ورُحْـمَـاكَ بـي إنـي قـتـيـلُ صبـابـةٍ ... بـمـن هـو أوفـى في الـفـؤاد وأنـجـبُ
ووَعْـدُكَ لـي بـالـعَـوْد إنِّـي مُـعَـلَّلٌ ... بـه مـهـجـةً قـد أوشكـتْ تـتـصـوَّبُ
وَهَـبْتُـكَ قـلبي مـا حـييتُ ولـم أقـلْ ... «ولكنْ مِنَ الأشيـاء مـا ليس يُـوْهَبُ»[3]
فـلو كنـتَ شيـخًـا واحـدًا هـدَّ صَـدُّهُ ... فـكـيـف بـشـيـخٍ لـم يـكـنْ مِـثْـلَهُ أبُ
وإنَّـا بـحـمـد الـلّه لَـمَّـا خَـصَـصْـتَـنـا ... بـزورةِ ذي ودٍّ دعـاهُ الـتـحـبّـبُ
فَـرَشْـنـا لـه مِنَّـا الـخـدودَ مـواطِئًـا ... وعُـدْنـا بـه شـوقًـا نـجيء ونـذهـب
وقـلْنـا دمـشـقُ أنـتَ فـيـهـا مُـحَـكَّـمٌ ... وأشـرافُـهـا ودُّوا وجَـدّوا وأوجـبـوا[4]

---

(١) في طبعة دار صادر: «حقوقك لي ولو أهديت في نظمي..».
(٢) في الطبعة نفسها: «تزهى».
(٣) عجز هذا البيت هو عجز بيت للمتنبي من قصيدة قالها في مدح كافور الإخشيدي، وصدره هو:
ولـو جـاز أن يَـحْـوُوا عُـلاكَ وَهَـبْـتـهـا
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٠٦).
(٤) في طبعة دار صادر: «وجدّوا ورحّبوا».

وأنــتَ لـهــا روحٌ ومــولــى ومـفــخــرٌ ... وقـد زنتَ شـرقًـا مثل مـا ازدانَ مغـرب

وفخــرًا عــظيمًــا يــا ابنَ شــاهيـنَ إنــه ... غــدا وَكْـرُنــا نسرُ السمــا فيــه يــرغب

فنحـن، ونحـن النــاس، خُــدّام نَـعْـلِهِ ... فــلا غَــرْوَ أنْ يـقلي الـغَضَـنْـفَــرَ أكْـلُبُ

ومــا نـقـمــوا مــنــه ســوى أنــه آمــرؤ ... لــيــأكــلُ فــيــمــا قَــدَّرُوهُ ويــشــرب

هــو الشيخُ شيخُ الدهـرِ أحمـدُ مَنْ غَـدَتْ ... دمـشقُ ومَـنْ فـيـهــا بـعـليـاه تـخـطب

هـــو الـمقَّــرِيُّ الـعــالــمُ الـعَـلَمُ الــذي ... إليــه تنــاهى الفضــلُ والـمجــدُ يُنْسَبُ

ومــا هـــو إلاَّ الــشــمسُ أَزْمَــعَ رحــلةً ... وإنّــا لــفـــي لــيــلٍ إذا هــي تــغــرب

أو الـغَيثُ قــد وافى فــأَمْــرَعَـتِ النُّهَى ... بــه وانـثنى والصــدرُ بــالــودِّ مُـعْـشِبُ

أو الــطائــرُ الـعـنـقــاء جــاء مُـشَــرِّقًــا ... فــأغـربَ والعنقــاءُ في الــطيــر مُغْــرِبُ

وإنّــك لَــلْخِــلُّ الــوفــيُّ وإنــه ... هـــو الــواحــدُ الـمطلوبُ إنْ عَــزَّ مـطلبُ

وإنــك بــالـتحـقـيـقِ في كــلِّ حــالــة ... لأَسْــنَــى وأَنْــدَى ثــم أَوْفــى وأغــربُ

رعـى اللَّهُ وجـهًــا رُحْتَ تــرغـبُ نحــوه ... وأيُّ أخــي جِــدٍّ لــه أنــتَ تــرغــب

وحَـيًّــا الحَـيَــا أرضًــا وَطِئْتَ تُــرابَـهــا ... فـأصبحَ مِسْكًــا وهي بــالمجــدِ تخصب

ولا فــارَقَــتْ يــومًــا عُــلاكَ كِـلاءةٌ[1] ... مــن الــلَّه أنَّــى كــنــتَ والــلَّه أغــلب

مَــدَى الـدهــرِ مـا حَنَّتْ جـوانـحُ والِــه ... مَـشُــوْقٍ فــأمسى للحـقـيـقــةِ يــطرب

ولَمَّا قرأ عليَّ ـ أدام اللَّه تعالى عزتـه، وحرس حَـوْزته! ـ عقيـدتي المسمّاه بـ« إضـاءة الدجنّة، في عقائد أهل السنّة» سألني أن أجيزه فيهـا وفي غيرهـا، فكتبْتُ إليه[2] بمـا نصُّه: [الرجز]

أحــمــدُ مَـنْ أطــارَ فـي جَــوّ الـعُــلا ... صِيتَ ابنِ شــاهينَ الــذي زان الحِلَى

وراشَ مــنــه لـلمعــالــي أَجْـنِـحَــهْ ... نــالَ بهــا فضــلاً غــدا مُسْتَمْنِحَــهْ

وأســكــنَ الــبــيــان مــن أوكــارِ ... أفــهــامِـهِ بِــقُــنَّــةِ[3] الأفــكــارِ

فــاصْــطادَ كــلَّ شــاردٍ بــمِـخْــلَبِ ... أبــحــاثــه ومَـنْ يُـعَــارِضْ يُـغْــلَبِ

---

(١) الكِلاءة، بكسر الكاف: الحفظ والحراسة والرعاية. القاموس المحيط (كلأ).

(٢) في طبعة دار صادر: «له».

(٣) القُنّة: الجبل الصغير، وقُنّة الأفكار: أعلاها وأجودها. محيط المحيط (قنن).

والصقرُ لا يُقاس بالبَغاثِ[1] والحقُّ ممتازٌ عن الأضغاثِ
نشكرُ مَنْ بَلَّغَهُ مُناهُ على نَوالِهِ الذي سَنّاهُ
ونتجي نَهْجَ صلاةٍ باديا لِخَيرِ مَنْ جاءَ الأنامَ هاديا
مُبَيِّنًا دلائلَ التوحيدِ ومُوضِحًا طرائقَ التسديدِ
محمدٍ خيرِ البرايا المنتقى أَجَلِّ مَنْ خافَ الإلَهَ واتَّقى
صَلَّى عليه اللَّهُ مع أصحابِهِ وآلِهِ الراوينَ عَنْ سَحَابِهِ
ما اعترفَ العبدُ الفقيرُ ذو العَدَمْ للربِّ باستغنائِهِ وبالقِدَمْ
وبَعْدُ، فالعلومُ والعوارفْ مَنْ أَمَّها يأوي لظلٍّ وارِفْ
وروضةٍ أزهارُها تَضَوَّعَتْ لأنها أفنانُها تَنَوَّعَتْ
وليس يحتاطُ بها نبيلُ إذ ذاكَ أَمْرٌ ما لَهُ سبيلُ
فَلْيَصْرِفِ القولَ إلى ما يَنْفَعُهْ دنيا وفي أوجِ الأجورِ يَرْفَعُهْ
وإنَّ في علمِ أصولِ الدِّينِ هدًى وخَيرًا جَلَّ عن تبيينِ
لأنه أصلٌ يعمُّ النفعُ به وكلُّ ما سواهُ فرعُ
وكيف يَعْبُدُ الإلَهَ مَنْ لا يعرفُهُ وعن رشادٍ ضلَّا
فهو الذي لا تُقْبَلُ الأعمالُ إلَّا به وتُنْجِحُ الآمالُ
وإنني كنت نَظَمْتُ فيهِ لطالبٍ عقيدةً تَكْفِيهِ
سَمَّيْتُها «إضاءةَ الدُّجُنَّهْ» وقد رَجَوْتُ أن تكون جُنَّهْ[2]
وبَعْدَ أنْ أَقْرَأْتُها بمصرِ ومكَّةٍ بَعْضًا مِنَ آهلِ العَصْرِ
دَرَّسْتُها لَمَّا دخلْتُ الشاما بجامعٍ في الحُسْنِ لا يُسامى
وكان في المجلس جمعٌ وافرُ مِنْ جلَّةٍ بُدُورُهُمْ سوافرُ
منهمْ فريدُ الدهرِ ذو المعالي فخرُ دمشقَ الطيِّبُ الفعالِ
أحمدُ مَنْ راح لعلمٍ واغْتَدَى وشامَ أنوار[3] الفهوم فاهتدى
العالمُ الصدرُ الأجلُّ المَوْلَى مَنْ وَصْفُهُ الممدوحُ يُعْيِي القَوْلا
وهو ابنُ شاهينَ وما أدراكا مَنْ بَذَّ جنسَ العُرْبِ والأتراكا

(١) البِغاث، بكسر الباء: طائر بطيء الطيران، وفي المثل: «إنَّ البِغاث بأرضنا تستنسر» أي مَنْ جاورنا عزَّ بنا. محيط المحيط (بغث).

(٢) الجُنَّة، بضم الجيم: ما استترْتَ به من سلاح. مختار الصحاح (جنن).

(٣) في طبعة دار صادر: «أنوارًا لفهمٍ..».

ورام مِنْ مثلي بِحُسْنِ الظَّنِّ ... إجازةً فيما رواهُ عنِّي
فحرتُ في أمرينِ قد تناقضا ... بالنفي والإثباتِ إذ تعارضا
تركُ الإجابة لوصفي بالخَطَلْ ... وبالخطا والجِيدُ مني ذو عَطَلْ
وكم فرائضٍ بعجزٍ تسقطُ ... فكيف غيرُها وهذا أَحْوَطُ
أو فِعْلها بحسبِ الإمكانِ ... رَعْيًا لودٍّ مُحْكَمِ الأركانِ
منه وما له مِنَ الحقوقِ ... ولا يُجَازِي البرَّ بالعقوقِ
وبَعْدَ ما مَرَّ مِنَ الترداد ... أَسْعَفْتُهُ بمقتضى الودادِ
وسِرْتُ في طُرْقٍ مِنَ التساهلِ ... معترفًا بالجهلِ لا التجاهلِ
معْ أنه الأهلُ(1) لأنْ يجيزا ... لا أنْ يُجازَ إذ حوى التبريزا
ومَنْ رأى عيبي بعينِ للرِّضَا ... لم يَقْفُ نَهْجَ مَنْ غَدَا مُعْتَرِضَا
فَلْيَرْوِ عني كلَّ ما أسمعْتُهُ ... إياه بالشرطِ وما جَمَعْتُهُ
مَعَ القصورِ راجيًا للأجرِ ... مِنَ الفنونِ نَظْمِهَا والنثرِ
كهذه القصيدةِ السديدهْ ... والنعلِ ذاتِ المِدَحِ العديدهْ
كذاك ما ألفتُ في عِمامَهْ ... مَنْ خُصَّ بالإسراء والإمامَهْ
والفقهِ والحديثِ والنحوِ وفي ... أسرارِ وَفْقٍ وهو بالقصد وفي
وغيرها ممّا به الوهّاب مَنّ ... على فقيرٍ عاجزٍ في غير فَنّ
وما أخذتُ في بلاد المغربِ ... عن كلّ فَذٍّ في العلوم مُغْرِبِ
ولي أسانيدُ إذا سردْتُها ... طالتْ وفي كُتْبِيَ قد أوردْتُها
وقد أخذتُ الجامعَ الصحيحا ... وغَيْرَهُ عَمَّنْ حَوَى الترجيحا
عمِّي سعيدٌ عن سُفَينٍ وَهْوَ عَنْ ... الْقَلْقَشَنْدِيِّ عن الواعي السننْ
العسقلاني الشهابِ بن حَجَرْ ... بما له من الرواياتِ اشتهرْ
وقد أَجَزْتُهُ بكلِّ ما لي ... يَصِحُّ مِنْ ذاك بلا احتمالِ
على شروطٍ قرّروها كافيهْ ... ليست على أفكاره بخافيهْ
وقال هذا المقَّرِيُّ الخطَّا ... والعِيُّ عَمَّ لفْظَهُ والْخَطَّا(2)

---

(١) في طبعة دار صادر: «أهلٌ».
(٢) الخَطّا في صدر البيت: أصلها الخطّاء أي الكثير الخطأ. والخَطّا في عجز البيت: الخطّ، وأراد أنّ خطّه غير واضح.

عامَ ثلاثين وألف بَعْدَها ... سَبْعٌ أتمَّتْ في السنينَ عَدَّها
وكان ذا في رمضانَ السامي ... بحضرةِ السَّعْدِ دمشق الشام
واللَّهَ نرجو أنْ يتيحَ الخَتْما ... بالخيرِ كي نُعْطَى القبولَ حَتْما
بجاهِ خَيْرِ العالمينَ أحمدا ... صلَّى عليه اللَّهُ ما طال الْمَدَى
وآلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ زكا ... فنالَ مِنْ حُسْنِ الختامِ مَدْرَكا

وتذكَّرْتُ بهذه الإجازة نظيرتَهَا التي سألني فيها مولانا عينُ الأعيان، مفتي الأنام في مذهب النعمان، مولانا الشيخ عبد الرحمن العِمَادي مفتي الشام ـ حفظه اللّٰه تعالى! ـ لأولاده الثلاثة، وكتب لي أصغرهم سنًّا استدعاء لذلك: [الرجز]

أَحْمَدُ مَنْ شَيَّدَ بالإسنادِ ... بَيْتَ العلومِ السامِيَ العمادِ
وعَمَّ مَنْ خَصَّصَ بالروايَهْ ... بنورِها النافي دُجَى الغوايَهْ
وزانَ صَدْرَ النُّبَهَا كلَّ زمنِ ... بجوهرِ الإجازة الغالي الثمنِ
نَحْمَدُهُ سُبْحانه أنْ عَرَّفا ... مِنَ الحديثِ ما به قد شَرَّفا
ونسألُ المزيدَ مِنْ صَلاَتِهِ ... لمن أُتِيحَ القصدُ مِنْ صِلاَتِهِ
ملجؤنا المعصومُ أعلى سندِ ... لنا برغمِ جاحدٍ مُفَنِّدِ
كَهْفُ الضعيفِ والقويِّ المرتجى ... بابُ الهدايات وليس مُرْتَجا[1]
مَنْ جاءنا بالجامعِ الصحيحِ مَنْ ... كلامُهُ الهادي إلى نَهْجٍ أمِنْ
مَنْ فَضْلُهُ ما شكَّ فيه مسلمُ ... مِنْ حُبِّهِ بكلِّ خيرٍ معلمُ
نبيُّنا المرسلُ ذو الخُلْق الحسنْ ... والمعجزُ المفحمُ أربابَ اللَّسَنْ
محمدُ المرفوعُ قَدْرُهُ على ... سائرِ خلقِ اللَّهِ جَلَّ وعَلاَ
صلَّى عليه ربُّنا وسلَّما ... أزكى صلاةٍ نَنْتَحِيها معلما
مع آله وصحبه ومَنْ روى ... آثارَهُ عن صحّةٍ وما غَوَى
وبَعْدُ فالعلمُ عظيمُ القَدْرِ ... وليس مَنْ يدري كمن لا يدري
ولم تزلْ هِمَّةُ أهلِ المجدِ ... مَنُوطةً بِنَيلِ علمٍ مُجْدِي
ومنه علمُ السُّنَّةِ الشريفَهْ ... لأنه ظلالُهُ وَرِيفَهْ
فمنْ دَرَى الأخبارَ والشمائِلْ ... لم يكُ عن صَوْبِ الهدى بمائلْ

(١) مُرْتَجًا: مُغْلَقًا؛ يقال: أَرْتَجَ البابَ إذا أغلقه. مختار الصحاح (رتج).

وكم سَمَيْدَعٍ[1] لأجله رَفَضْ ... أوطانَهُ وثَوبَ ترحالٍ نَفَضْ
وكيف لا وهو أجلُّ ما طَلَبْ ... مُوَفَّقٌ يرومُ حُسْنَ المنقلبْ
لأنه وسيلةُ السعادهْ ... والعِزِّ في الإبداء والإعادهْ
وإنني لَمَّا انْتَحَيْتُ المَشْرِقا ... مُيَمِّمًا بَدْرَ اهتداءٍ مشرقا
أَلْقَيْتُ في مصرَ عَصَا التسيارِ ... بَعْدَ بُلُوغي أشرفَ الديارِ
وبَعْدَ ذا جئْتُ دِمَشْقَ الشامِ ... مَسْكَنَ مَنْ يزدانُ باحتشامِ
فشاهَدَتْ عينايَ فيها ما ملا ... قلبي سرورًا إذ بَلَغْتُ مأملا[2]
مدينةٌ فيّاضةُ الأنهارِ ... فضفاضةُ الأثوابِ بالأزهارِ
أرجاؤها زاكيةُ العَبيرِ ... ومَدْحُها يجلُّ عنْ تعبيرِ
وجُلُّ أهليها بحبي دانوا ... مَعْ أنَّ مثلي منهمُ يزدانُ
فلاحظوا بالأعينِ الكليلهْ ... عبدًا غدا تقصيرُهُ دليلهْ
وقابلوا عَيْبِي بما اقتضاهُ ... فضلٌ لهمْ رَبُّ الوَرَى ارتضاهُ
خصوصًا المولى الكبير المعتبرْ ... قُرَّةُ عَينِ مَنْ رآهُ واختبرْ
مُفْتي الورى في مذهب النعمانِ ... بها الوجيهُ عابدُ الرحمنِ
ابنُ عمادِ الدِّينِ مَنْ تُعْيي القلمْ ... أوصافُهُ اللاتي كنورٍ في علمْ
حاوي طرافِ المجدِ والتِّلادِ[3] ... نالَ المُنَى في النفسِ والأولاد
وكنتُ في مكةَ قد أبصرْتُ ... منه عُلاً عن مدحِهِ قَصَّرْتُ
جلالةً ومحتدًا وعلمَا ... ورفعةً وسؤددًا وحلما
مَعَ التواضع الذي قد زانَهْ ... حُسْنُ اعتقادٍ مُثْقِلٍ ميزانَهْ
فحثَّ مَنْ في الشام مِنْ أخيارِ ... لم يسلكوا مناهجَ الأغيارِ
أنْ يأخذوا بعضَ الفنون عني ... بما اقتضاهُ منه حُسْنُ الظَّنِّ
مع أنني واللَّه لستُ أهلا ... لذاك، والتصديرُ ليس سهلا
وكان مِنْ جملتهمْ أبناؤه ... عمادُ دِينٍ قد عَلاَ بناؤه
وصِنْوُه الشهابُ مَنْ تَوَقَّدا ... فهمًا وإبراهيمُ سَبّاقُ المَدَى

---

(١) السَّمَيْدَعُ، بفتح السين: السّيِّد. مختار الصحاح (سمدع).

(٢) في طبعة دار صادر: «المأملا».

(٣) الطراف والطريف: المستحدث من المال. التِّلاد والتليد: القديم الموروث. لسان العرب (طرف) و (تلد).

وهو الذي قد ابتغى الإجازهْ   لهمْ بوَعْدٍ طالبًا إنجازَهْ
وكَتَبَ القصيدةَ الطّنّانَهْ   في ذاك لي مهتصرًا أفنانَهْ
وإنهمْ كحلْقةٍ قد أُفْرِغَتْ   دامتْ لهمْ آلاءُ فَيْضٍ سُوِّغَتْ
فلم أجدْ بُدًّا مِنَ الإجابهْ   مع كونِ جهلي سادلاً حجابَهْ
فقد أجزتهمْ بما رويْتُهُ   طُرًّا، وما ارتجلْتُ أوْ رَوَّيتُهُ
وكلُّ ما صَنَّفْتُ في الفنونِ   مُؤَمِّلُ التحقيقِ للظنونِ
وما أخذتُ عن شيوخِ المغربِ   وغيرهمْ مِنْ كلِّ حَبْرٍ مُغْرِبِ
ولي أسانيدُ يطولُ شَرْحُها   شِيدَ على تقوى الإلّه صَرْحُها
ولو سَرَدْتُ كلَّ مَرْوياتي   هنا لطال القولُ في الأبياتِ
وكلُّ طُولٍ غالبًا مملولُ   وحَدُّ مَنْ يُعْنَى به مفلولُ
فلنقتصرْ إذَنْ على القليلِ   تبرُّكًا بالمطلبِ الجليلِ
وقد أخذتُ جامعَ البخاري   عن عَمِّيَ الحائزِ للفخارِ
المقري سعيد الإمام عنْ   محمد يُدْعَى خروفًا حين عَنّ
التونسيُّ الطيِّبُ الأنفاسِ   نزيلُ حضرةِ الملوكِ فاسِ
عن الكمالِ القادريِّ المرتضى   عن الحجازيِّ عن الحبر الرِّضا
نجل أبي المجدِ عن الحجاري   عن الزبيديِّ بنقلٍ جاري
عن مُسْنِدِ الإسلامِ عبدِ الأوّلِ   عن الشهير الداوديِّ المعتلي
عن السَّرَخْسِيِّ عن الفِرَبْرِي   عن البخاريِّ الإمامِ الحبرِ
وفَضْلُهُ أظهرُ من أنْ يُذْكَرْ   وعلْمُهُ المعروفُ غيرُ المنكرْ
ومسلمٍ بِهِ إلى الكمالِ   عن عَلَمِ الدين أخي الجلالِ
منسوبِ بَلْقِينَ عن التَّنُوخي   عن ابنِ حمزةٍ عن الشيوخِ
كابنِ المقيرِ عن ابن ناصرْ   عن ابن مندةَ اللبيب القاصرْ(١)
عن جَوْزَقيٍّ قد روى عن مكِّي   عن مُسْلم نافِي دياجي الشَّكِّ
فليخبروا عنّي بذا والباقي   مِنْ ستةٍ حائزة السباقِ
كذا مُوَطَّأُ الإمامِ مالكِ   إمامنا مُنِيرِ كلِّ حالكِ
ومسند الفذِّ الرضا ابن حنبلِ   والدارميِّ ذي الثناءِ الأجملِ

(١) في طبعة دار صادر: «عن ابن مندة وهو القاصر».

والطبراني وما أرويه | من المعاجيم[1] بما تحويهِ
وكلها تشملُهُ الإجازهْ | بشرطها عند الذي أجازهْ[2]
فلتقبلوه فهْيَ من جَهْدِ المُقِلّ | إذ لستُ بالمطلوب مني أستقلّ
ومن أسانيدي عن القَصّارِ | مفتي الأنام بهجة الأعصارِ
عن شيخه خروفٍ الراقي الدرجْ | عن الشريف الطحطحائيّ فرجْ
قال: سمعت المصطفى في النومِ | صلّى عليه اللّهُ كلَّ يومِ
يقول: مَنْ أصبحَ، يعني آمنًا | في سربه، الحديثَ فاعْرِفْ كامنا
ولْنُمْسِكِ العنانَ في هذا الأربْ | مُصَلِّيًا على الذي زان العربْ
وآلِهِ وصَحْبِهِ الأعلامِ | ومَنْ تَلاَ من أنجمِ الإسلامِ
وخَطَّ هذا المقَّريُّ العاصي | أجيرُ يوم الأخذ بالنواصي
سنةَ سبعٍ وثلاثين تَلَتْ | ألفًا لهجرة بياسين عَلَتْ
عليه أزكى صلوات تستتمّ | نَرْجُو بها الزُّلْفَى وحسن المختتمْ

ونصّ الاستدعاء المشار إليه هو: [السريع]

فازتْ دمشقُ الشامِ بالمَقَّري | الألمعيِّ اللوذعي العبقري
عَلّامةِ العَصْرِ بلا مفترًى | وواحدِ الدهرِ بلا مُمْتري
كم سَمِعَتْ أخبارَ أوصافِهِ | فَقَصَّرَ المخبرُ عن منظرِ
جامع علمٍ بَثَّ إملاءه | بالشام ملءَ الجامعِ الأكبرِ
يقري فتقري السمعَ أنفاسُهُ | أنفسَ ما يقري وما قد قُري
مولاي يا من دُرُّ ألفاظِهِ | صحاحُها تُزْري على الجوهري[3]
إجازة نَرْفلُ من فضلها | في ثوبِ عزٍّ وَرِدَا[4] مَفْخَرِ
مسبلةُ الذيلِ على أكبرِ | وأوسطِ الإخوة والأصغرِ
أطلَّ لنا إنشاءها بل أَطِبْ | وانظمْ لنا مِنْ دُرِّها وانْثُرِ
لا زلتَ في نفعِ الورَى دائبًا | تجودُ جَودَ العارضِ المُمْطِرِ

(١) في طبعة ليدن: «من المعاجم».
(٢) في طبعة دار صادر: «الذي أجادَهْ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «الجوهرِ».
(٤) الرِّدا، بكسر الراء: أصلها الرِّداء، وقد قصره للضرورة الشعرية.

العبد الداعي إبراهيم العمادي، انتهى.

ومن الإجازات التي قلْتُها بدمشق الشام ما كتبْتُه للأديب الحسيب سيّدي يحيىٰ المحاسني[1] حفظه اللّٰه تعالى: [الرجز]

أحمدُ مَنْ زَيَّنَ بالمحاسنِ ... دمشقَ ذاتَ الماءِ غيرِ الآسنِ
وأطلعَ النجومَ من أعيانِ ... بأُفْقِها السامي مَدَى الأحيانِ
فكلُّ أيامِهِمُ مواسِمُ ... مِنَ الصفا ثُغُورُها بَوَاسمُ
وذِكْرُهُمْ قد شاعَ بين الأحيا ... إذ قَطْرُهُمْ به الكمالُ يَحْيا
وبِشْرُهُمْ حديثُهُ لا يُنكَرُ ... ومُسْنَدُ الجامعِ عنهمْ يُذْكَرُ
وقد حكتْ جوارحُ الذي ارتحلْ ... إليهمُ صحيحَ ما له انتحلْ
فَسَمْعُهُ عن جابرٍ، والعين عَنْ ... قُرَّةَ تَرْوي، واللسانُ عن حَسَنْ
فحلَّ من أتاحهمْ آلاءه ... حتى أبانَ نُورُهُمْ لألاءه
نحمدُه سبحانَه أنْ أَسْدَى ... مِنَ الأمانِ ما أنالَ القَصْدَا
وننتحي صَوْبَ صلاةٍ باهره ... إلى الرسول ذي السجايا الطاهره
أجلُّ مَنْ خاف الإِلٰه واتَّقى ... محمدُ الهادي الرسولُ المُنْتَقى
صلَّى عليه اللّٰه طولَ الأبدِ ... مع آلِهِ وصحبِهِ والمُقْتَدي
وبَعْدُ، فالعلمُ أساسُ الخيرِ ... وكيف لا وهو مُزِيحُ الضَّيرِ
وهْوَ مُوَصِّلٌ إلى منهاجِ ... هُدًى ورشدٍ ما له من هاجي
وما بغير العلمِ يبدو العَلَمُ ... وليس مَنْ يدري كمن لا يَعْلَمُ
خصوصًا الحديثَ عن خيرِ البشرْ ... فإنَّ فضله على الكلِّ انتشرْ
ولم يزلْ يُعْنَى به كلَّ زمنْ ... من الرواة كلُّ صَدْرٍ مُؤْتَمَنْ
وإنني عند دخولِ الشامِ ... لَقِيتُ مَنْ بها مِنَ الأعلامِ
وشاهدتْ عيناي مِنْ إنصافهمْ ... ما حَقَّقَ المحكيَّ عن أوصافهمْ
وإنَّ مِنْ جملتهمْ أوجَ الذكا ... والنيِّر المزري سناهُ بذُكَا[2]

---

(١) هو يحيىٰ بن أبي الصفا بن أحمد، المعروف بابن محاسن، دمشقي حنفي، درس على مفتي دمشق عبد الرحمن بن عماد الدين العمادي وغيره من أشياخ دمشق، ولمّا ورد المقري دمشق لازمه. توفي سنة ١٠٥٣ هـ. خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٤٦٣).

(٢) ذُكا: اسم الشمس، وأصله «ذكاء» بالمدّ، وقد قصره للضرورة الشعرية. لسان العرب (ذكا).

ابنُ المحاسنِ الذي قد طابقا — منه مُسَمَّى الاسم إذ تَسابقا
اللوذعيُّ الألمعيُّ يحيىٰ — لا زال رسمُ المجدِ منه يحيا
وهو الذي أغراهُ حُسْنُ الظنِّ — على انتمائِهِ لأخذٍ عنِّي
وكان قارئَ الحديثِ النبوي — لديَّ في الجامع، أعني الأموي
بمحضرِ الجمعِ الغزيرِ الوافرْ — مِمَّنْ وجوهُ فَضْلِهِمْ سوافرْ
وبَعْدَ ذاك استمطرَ الإجازهْ — مِنْ نَوءِ وَعْدي واقتضى إنجازهْ[1]
فلم أجد بُدًّا مِنَ الإجابهْ — مع أنني لستُ بذي النجابهْ
وإنْ أكنْ أَجَبْتُ أمرًا يمتثلْ — منه ففي ذلك تصديقُ المثلْ
فيمن دَرَى شيئًا وغابت أشْيا — عنه ومَنْ أهدى لِصَنْعَا[2] وَشْيا[2]
فَلْيَرْوِ عَنِّي كلَّ ما يَصِحُّ لي — بِشَرْطِهِ الذي يزينُ كالحلي
وقد أخذتُ جامعَ البخاري — عن عَمِّيَ الإمامِ ذي الفخارِ
سعيد الذي نأى عن دَنَسِ — عن شيخه الحبرِ الشهيرِ التِّنَسي
أعني أبا عبد الإلٰه وهو عَنْ — والدِهِ محمدٍ راوي السننْ
عنِ ابنِ مرزوقٍ محمدِ الرضا — عن جدِّه الخطيبِ عَنْ بدرٍ أضا
الفارقيِّ عن إمامٍ يُدْعَى — بابن عساكرَ الجميلِ المسعى
بما له من الروايات التي — على علوِّ قَدْرِهِ قد دَلَّتِ
ولْيَرْوِ عَنِّي ما انتمى للنَّووي — بذا إلى السابقِ ذي النهج السوي
أعني ابنَ مرزوقٍ الخطيبَ الراوي — عن شيخه يحيىٰ الرضي المغراوي
وهو رَوَى عن صاحبِ التمكينِ — النوويِّ الشيخِ مُحْيي الدين
وخطَّ هذا أحمدُ البادي الوَجَلْ — المَقَّرِيُّ المالكي على خجل[3]
في عام ألفٍ وثلاثين خَلَتْ — من هجرةِ الهادي وسبعةٍ تَلَتْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «واقتضى انتجازه».

(٢) في الطبعة نفسها: «بصنعا . . .». ومعنى صدر البيت أخذه من قول أبي نواس: [البسيط]

قُلْ لمن يَدَّعي في العلم فلسفةً — حفظْتَ شيئًا وغابتْ عنك أشياءُ

ديوان أبي نواس (ص ١٧). وفي عجز البيت يشير إلى قولهم: «كمهدي الوشي إلى صنعاء»؛ لأنه كان بصنعاء دارٌ لعمل الثياب المنسوبة إليها، وإليها ينسب الوشي. الروض المعطار (ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠) ونزهة المشتاق (ص ٥٤).

(٣) في طبعة دار صادر: «الذي ارتجل».

أَلْبَسَهُ اللَّهُ البرودَ الضافيهْ[1] مِنْ مَنِّهِ وعَفْوِه والعافيهْ
بجاهِ سَيِّدِ البرايا طُرًّا ملجإ مَنْ إلى الكروبِ اضْطُرًّا
عليه أسنى صلواتٍ تُسْدِي حُسْنَ الختام ببلوغِ القَصْدِ

وسأل منِّي بعض ساكني دمشق المحروسة أن أُقَرِّظَ له على شرحه لرسالة العارف باللَّه تعالى سيدي الشيخ أرسلان، فكتبت ما صورته[2]: [الرجز]

أحمدُ مَنْ خَصَّصَ بالأسرارِ قُدُمًا من الصوفيّةِ الأبرارِ
أتاحَهُمْ عوارفَ المعارفِ والحِكَمَ السابغةَ المطارفِ
فهمْ بهمْ تُسْتَمْطَرُ الأنواءُ وتظهرُ الأنوارُ والأضواءُ
ومِنْ أجلِّهمْ سناءً وسَنَى مَنْ ذادَ عن عَينِ المعالي الوَسَنَا
شيخُ الشيوخِ العارفُ الكبيرُ الشيخُ أَرْسَلانُ الشهيرُ
فكم إشاراتٍ له أبانا بها عُلومًا مِنْ حُلاَها ازدانا
وكم عباراتٍ تلا آياتها تَعْيا الفحولُ عن مَدَى غاياتها
ومن رأى رسالةَ التوحيدِ له انتحى مناهجَ التسديدِ
فهي تنادي مَنْ أبى أن يَسْلُكَا يا مُعْرِضًا شِرْكٌ خفيٌّ كلُّكا
ومَنْ أضلَّ القَصْدَ في مَهَامِهِ[3] هَدَتْهُ للخروجِ عن أوهامِهِ
وكم بها من بابِ مَعْنًى مغلقْ عَمَّنْ يُقَيِّدُ الوجودَ المطلقْ
فما بغيرِ الفتحِ يُدْرَى الباطنُ ووارِدُ الفَيضِ له مَواطِنُ
وقد رأيتُ في دمشقَ الشامِ شَرْحًا لها أنبأ عن إلهامِ
للكَلْشَنيِّ ذي الوفا بالوعدِ شمسِ العُلاَ محمدِ بنِ سعدِ
لا زالَ في أَوْجِ التجلِّي صاعدًا وعونُ رَبِّنا له مُساعِدَا
ومُذْ أَجَلْتُ ناظري في حُسْنِهِ أَلْفَيْتُهُ مستبدعًا في فَنِّهِ
ودلَّ ما أَبْداهُ من معاني على شهودٍ بالهدى مُعَاني

---

(١) في طبعة دار صادر: «الصافية».

(٢) الأرجوزة لمحمد بن سعد الكلشني كما سيأتي في البيت الرابع عشر منها، وهو من أدباء الصوفية بدمشق، وكانت وفاته سنة ١٠٣٧ هـ. خلاصة الأثر (جـ ٣ ص ٤٦٨).

(٣) المهامه: جمع مَهْمَه وهو الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (مهمه).

لأنـه أجـادَ فـي تـقـريـرِ ... مـا اعتـاصَ بـالإتقـان والتحـريـرِ

وأبـرزَ الأبـكـارَ مِـنْ خـدورِ ... أفـكـارِهِ حـالـيـةَ الـصُّـدُورِ

فـالـلّه يـجـزيـهِ الـجـزاءَ الأوفـى ... في يـومِ تُبْـدي الأنبيـاءُ الخَـوْفـا

وخطَّ هـذا الـمـقَّـريُّ مِـنْ وَجَـلْ ... مـرتـجـيًـا مـن ربِّـه عَـزَّ وجَـلّ

كَشْفَ كُـرُوبٍ عـقْـدَ صَبْـرٍ حُلَّتْ ... مـنـه وغُـفْـرانَ ذنـوبٍ جَـلَّتْ

بـجـاهِ طـه الـهـاشـميِّ أحـمـدا ... عـلـيـه أزكـى صـلواتٍ سَـرْمَـدا

عـاطـرةَ الـنَّـشْـرِ بـلا اكـتـتـامِ ... تـأرَّجَتْ بـالمِسْـكِ في الـختـامِ

وخاطبني السريُّ الحسيبُ الماجدُ فخر المدرسين الأعيان مولانا الشمس محمد ابن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقي[1] حفظه اللّه تعالى بقوله: [الكامل]

شَمْسَ المحـاسنِ شَـرِّقِي أو غَـرِّبي ... سعـدَتْ منـازلُـنـا بشمسِ المَغْـربِ

شمسٌ لنـا منهـا شـمـوسُ فضـائـلٍ ... وسَنَـا هـدًى قـد راح غَيـرَ مُحَجَّبِ

الـمقَّـريُّ الـعـالـمُ الـنَّـدْبُ الـذي ... لسـوى اسمـه دَرْجُ الحجـا لـم يُكْتب

بـدرٌ ولـم تَبْـدُ الـبـدورُ بـمـشـرقٍ ... إلاَّ بَـدَتْ مِـنْ قبـلٍ ذاك بـمـغـرب

لسـوى اكتسـابِ سنـاهُ لم تغـربْ ذُكَـا ... فَلَوَ انّهـا شَـعَـرَتْ بـه لـم تَـغْـرُبِ

عَـلاَّمَـةٌ مـلأ الـبـلادَ بِـفَـضْـلِهِ ... وأفـاده لِـمُـشـرِّقٍ ومُـغَـرِّبِ

عمري هو البحرُ المحيطُ فضائلاً ... إنْ قِيْسَ بالعذبِ الذي لم يَعْذُب

مـولًـى لـه سَـنَـدٌ قـويٌّ فـي الـعُـلاَ ... فـعن الـجـدودِ روى الـعُـلا وعَنِ الأبِ

نَسَبٌ لـه المجـدُ المؤثَّـلُ في الـوَرَى ... والـمجـدُ لـم يـكـسـبْ إذا لـم يـوهـبِ

هـو في جبين الـفضـلِ أضحى غـرَّةً ... يُـجْلَى بـهـا للجهـلِ ظلمـةُ غَيْهَبِ

آمـالُـنـا قَـطَعَـتْ ببشـرِ جـبـيـنـه ... أنْ لا تـرى لـلدهـرِ وَجْـهَ مُقَـطِّبِ[2]

بَـدْرٌ بـه زُهِـيَـتْ دمـشـقُ وأهـلـهـا ... أحْبِبْ ببـدرٍ، حيثُ حـلَّ، مُحَبَّبِ

طَـوْدُ الـفـضـائـلِ بـاكـرتْ أرجـاءه ... دِيَمُ الحجـا فغـدا كـروضٍ مُخْصِبِ

بَـحْـرُ الـهُـدَى والـعـلم إلاَّ أنـه ... صَفْـوٌ من الأكـدارِ عـذبُ المشـربِ

هـو قـطبُ دائـرةِ الفضـائـلِ في الـورى ... فـيـكـادُ يُـخْـبـرنـا بـكـلِّ مُغَـيَّبِ

---

(١) محمد بن يوسف بن كريم الدمشقي تلميذ المقري والعمادي وغيرهما؛ أتقن الفارسية والتركية، وله ديوان شعر. توفي سنة ١٠٦٨ هـ. خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٢٧٣).

(٢) المُقَطِّبُ: العابس، الكالح. لسان العرب (قطب).

في الفضلِ ما جاولْتُ يومًا مثله		كَلّا ولا قستُ البدورَ بكوكب
أنّى يُجَارى في الفضائل مَنْ له انـ		ـقادَ الزمانُ بأدهمٍ وبأشهبِ[1]
سُنَنٌ لمدحِ الغَيْرِ تسقطُ عندنا		فله العُلا تَقْضي بفرضٍ أَوْجبِ
ما روضةٌ حَلَّى أزاهرَها الحَيَا		فافْتَرَّ فيها كلُّ ثَغْرٍ أَشْنَبِ
ومَشَتْ بها خود الصّبا فتعطَّرَتْ		أذيالُها مِنْ كلِّ عَرْفٍ طيِّب
للنّور فيها جدولٌ أخذتْ به		شُهْبَ المجرَّةِ حَيرَةُ المتعجِّبِ
باتتْ تُناشدني بها ذِكْرَ الهوى		وُرْقُ الأراكِ بكلِّ صوتٍ مُطْرب
تشكو إليَّ بمثل ما أشكو لها		شكوى المُعَذَّبِ في الهوى لِمُعَذَّب
فعلمْتُ ما قد حلَّ مِنْ وجدٍ بها		وجهلن، وهو الفرق، ما قد حَلَّ بي
لم تَلْقَ فيها مِنْ عليلٍ يشتكي		إلاَّ النسيمَ وذا الهوى إنْ تطلبِ
بأغضَّ حُسْنًا مِنْ ربا آدابِ مَنْ		حَيَّا رياضَ حِجَاه أَلْطَفُ صَيِّب
طبعٌ أرقُّ مِنَ النسيمِ ومنطقٌ		مستعذبٌ، وكذاك كلُّ مُهَذَّب
لو جاد صوبُ حجاه قفْرًا مجدبًا		لنعمْتُ منه بكلِّ روضٍ مُعْشِبِ
مولاي عُذْرًا فالزمانُ يَعُوقُني		عن مطلبي والآن مَدْحُكَ مطلبي
عَفْوًا إذا أخَّرْتُ مدحك سيدي		فَعَوَائقُ الأيام عُذْرُ المذنب
وكذاك يفعلُ بالأديبِ زمانُه		فَلِذَا يطولُ على الزمانِ تعتُّبِي
لم أَلْقَ يومًا مِنْ يديهِ مهربًا		إلاَّ ثناك، وحبّذا مِنْ مَهْربِ
لولاك ما جالَ القريضُ بخاطري		فالدهرُ يوجبُ للقريضِ تجنُّبِي
لولاك لم ينهضْ جوادُ قريحتي		في[2] كلِّ وادٍ للضّلالةِ متعبِ
فاسمعْ، ولستُ بآمرٍ، نَظْمًا غَدَا		في عِقْدِ مدحك لؤلؤًا لم يُثْقَبِ
كالراحِ يلعبُ بالعقول لِلُطْفِهِ		لكنْ بغيرِ مسامعٍ لم يُشْرَبِ
مِنْ كلِّ قافيةٍ غدتْ مِنْ حُسْنِها		مَثَلاً لغيرك في العُلا لم يُضْرَبِ
خُودٌ تَقَلَّدُ[3] من ثناك قلائدًا		بِكْرٌ لغيرك في الورى لم تُخْطبِ

---

(١) الأدهم: الأسود، وأراد به الليل. الأشهب: ما يخالطه بياض، وأراد به النهار. لسان العرب (دهم) و(شهب).

(٢) في طبعة دار صادر: «من».

(٣) الخُوْدُ، بضم الخاء وسكون الواو: المرأة الشابة الناعمة. لسان العرب (خود). تقلَّدُ: تتقلَّد.

غَـنِـيَـتْ بـمـدحِـكَ زيـنَـةً ولــربـمــا يُغْني الجمــالُ عن الـوشــاح المُــذْهَبِ
هي بعضُ أوصـافٍ لـذاتــك قـد غَــدَتْ كــالـبـحـرِ عَــذْبًـا مـاؤه لـم يـنـضـبِ
جــاءتــك تـســألــك القَبُــولَ وحَسْبُهــا فخـرًا قبـولـك وهــو جُـلُّ الـمـطلب
وتــرومُ مــنــك إجــازةً فــاقــتْ بــمــا تــرويــه بــالسَّنَـدِ القـويِّ عن النبي
حسبي الإجــازةُ مـنــك جــائــزةً ولـم ألُ قَـبْـلُ غيـرَ الـفضـلِ بـالـمتـطلّب
لا بــدْعَ والإيــجــاز إطـنــابـًا غــدا[1] فــي مَـدْحِــهِ إنْ لـم أُطِـلْ أو أُسْــهب
هـيـهــات لا تُـحْـصَـى مــآثــرُ فـضــلـه بــالـمـدحِ إنْ أُطْنِبْ وإنْ لـم أُطْنِـبِ

خدمة الداعي محمد بن يوسف الكريمي، انتهى.

فأجزته بما صورته ونصُّه[2]: [الرجز]

أحـمــدُ مَنْ أطـلعَ شـمسَ الـديــنِ فــي أُفُــقِ الـروايــةِ الـمُـبِــيــنِ
وخَصَّ فــضــلاً مــنــه بــالإسـنــادِ أُمَّــةَ طــه مُــذْهِــبِ الـعــنــادِ
فـلـم يـكــنْ عَـصْــرٌ مِــنَ الأعـصــارِ إلَّا وفــيــه أهــلُ الاِسْــتِـبْـصَــارِ
يَـنْفُــونَ عَـنْ حَــوْزةِ[3] دينِ اللَّه مــا يــرومُ مَــنْ عـلـيــه رشــدُ أَبْـهَــمـا
وأنــتــحــي سُـبْــلَ صــلاةٍ كــامـلَـةْ على الــذي لــه العـطايــا الـشـامـلَةْ
محمـدُ المـرْسَــلُ بـالشــرعِ الحَسَنْ ذو المعجـز المفحـم أربــابَ اللُّسَنْ
مَــعْ حـزبِـهِ مِنْ صَحْبِهِ وعِتْـرَتِـهْ[4] ومَــنْ تَــلاَ مــؤمِّــلاً لأثــرتِـــهْ
وبَـعْــدُ فــالعـلمُ أجــلُّ مــا اعْـتَـمَـدْ مُــوَفَّــقٌ مِـنْ فَـيض مــولاه استـمـدّ
خصـوصًــا الـحـديثَ عن خيـر الـوَرَى صــلّى عــلـيــه الــلَّهُ مــا زَنْــدٌ وَرَى
ولــم يــزل ذوو النُّهَى يَسْـعَــونَ فـي تـحـصـيـله إذ فـضـلُهُ غـيــرُ خـفــي
وإنَّ مــولانــا الـشـهـيــرَ الـســامـي الـمــاجــدَ المــولى نبيــهَ الشــامِ

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر هي:
لا بــدع والإطــنــابُ إيــجــازًا غــدا
(٢) في طبعة دار صادر: «فأجزته بما نصُّه».
(٣) الحوزة: حمى الدين. لسان العرب (حوز).
(٤) عِتْرَةُ الرجل: عشيرته وجماعته وأتباعه. لسان العرب (عتر).

سالكَ نهجِ السُّنَّةِ القويمِ محمدَ بنَ يوسفَ الكريمي
لا زالَ في عِزٍّ وفي أمانِ مُبَلَّغًا مِنْ قَصْدِهِ الأماني
وَجَّهَ لي لَمَّا حللتُ الشاما وبَرْقَ حُسْنِ الظَّنِّ مني شاما
قصيدةً بليغةً مُسْتَعْذَبَهْ غريبةً في فنِّها مُهَذَّبَهْ
يسألُ من مثلي بها الإجازهْ بشرطها عند الذي أجازهْ
مُسْتَمْسِكًا بعُرْوَةِ الصوابِ ولم أجدْ بُدًّا مِنَ الجوابِ
فَلْيَرْوِ عنِّي ما سمعْتُ كلَّهْ وما جمعتُ في الفنون جُمْلَهْ
على شروطٍ قُرِّرَتْ في الفنِّ مُرْتَجِيًا حصولَ كلِّ مَنِّ
وصنوهُ الأكملُ قد أبَحْتُهُ ذاك على الوجه الذي شرحْتُهُ
وإن أكنْ فيما ابتغى مقصِّرا فذو الرضا ليس لعيبٍ مبصرا
ولي أسانيدُ أبىٰ وقتيَ عَنْ تفصيلها لما من الرحلةِ عَنّ
والعذرُ بادٍ والكريمُ يَقْبَلُ والصفحُ نَهْجٌ يقتفيه الأنبلُ
وخَطَّ هذا المقَّرِيُّ الجاني أَمَّنه اللَّهُ مِنَ الأشجانِ
في عام ألفٍ وثلاثين قَفَا سَبْعًا لهجرةِ النبيِّ المصطفى
عليه أزكى صلواتٍ تُغْتَنَمْ يَزْكُو بها مفتتح[1] ومختتمْ

وكتب إليّ الفاضل الخطيب، الفهّامة الأديب، وارث الفضل عن الأعلام ذوي اللَّسَنِ، سيدي الشمس محمد المحاسني[2] سبط شيخ الإسلام مولانا البوريني حسن، حفظه اللَّه تعالى، بقوله: [المجتث]

يا سَيِّدي ومَلَاذي وعالِمَ الثَّقَلَينِ
ومَنْ غَدا بمكانٍ عَلَا على النَّيِّرَينِ
أجَزْتَ بالدرسِ قَومًا فاقوا به الفرقدينِ
فَزَيِّنِ العَبْدَ أيضًا من مثلِ ذاك بزينِ
إن[3] لم يكنْ في ختامٍ فذاك قُرَّةُ عَيْني

---

(١) في طبعة دار صادر: «مبتدأ ومُخْتَتَم».

(٢) هو محمد بن تاج الدين بن أحمد المحاسني الدمشقي الحنفي؛ درس على علماء دمشق، ومنهم العمادي والمقري. توفي سنة ١٠٧٢ هـ. خلاصة الأثر (جـ٣ ص ٤٠٨).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وإنْ»، وهكذا ينكسر الوزن.

فأجزته بما نصُّه: [الرجز]

أحمدُ مَنْ أطلعَ مِنْ محاسنِ   دمشقَ ما أرْبى على المحاسنِ
وزانها بالجِلَّةِ الأعيانِ   الرافلينَ في حُلَى التبيانِ
الراغبينَ في الحديث النبوي   السالكينَ في الْهدَى النَّهْجَ السوي
وبَعْدُ فالعلمُ أَجَلُّ زِينَهْ   وسُبْلُهُ في الرشد مستبينَهْ
وإنَّ عِلْمَ السُّنَّةِ الشريفهْ   ظلالُهُ ضافيةٌ وَريفَهْ
لذاك كان باعتناءٍ أَجْدَرَا   مِنْ كلِّ ما يمليه مَنْ تَصَدَّرا
وإنَّ ذا الفضلِ الأديبَ البارعْ   سابقَ ميدانِ الذكا المسارعْ
الماجدُ المسدَّدُ السامي الحَسَبْ   محمد مَنْ للمحاسنِ انْتَسَبْ
ابنُ الشهيرِ الصدرِ تاجِ الدينِ   لا زالَ في عِزٍّ وفي تمكينِ
وجدُّهُ لأمِّه الشيخُ الحسنْ   وذاك بُوْرينيهِمْ مُعْطَى اللَّسَنْ
يسألني إجازةً بكلِّ ما   أرويه عنوانًا بحالي معلما
وها أنا أجبْتُهُ غيرَ بَطَلْ   مستغفرًا من خطإٍ ومِنْ خَطَلْ
فَلْيَرْوِ عنِّي كلَّ ما يَصِحُّ   على شروط غَيْثها يسحُّ
وهي عن الشروط لن تريما   وليس يخفي علْمُهُ الكَرِيمَا
وكلّ ما أَلَّفْتُ أو جَمَعْتُ   نَظْمًا ونَثْرًا مثلَ ما أَسْمَعْتُ
ولي أسانيدُ يضيقُ الوقتُ   عن سَرْدِهَا وبَعْضها قد سقْتُ
في غيرِ هذا فَلْيُحَقِّقْ ذلكْ   مُقْتَفِيًا لأوضحِ المسالكْ
وقد أخذْتُ جامعَ البخاري   ومسلمٍ عَنْ حائزِ الفخارِ
عمِّي سعيدٍ وهو عَمَّنْ يُدْعَى   بالتُّنَسِيِّ قد أفادَ الجَمْعَا
عن حافظِ الغرب الرضا أبيه   عن ابن مرزوقٍ عن النبيهِ
الحافظِ المبجَّلِ العراقي   وقد سما في سُلَّم المراقي
وما له من الرواياتِ عُلِمْ   مِنْ كُتْبِهِ التي حَوَتْ خَيْرَ الكَلِمْ
وخَطَّ هذا المَقَّرِيُّ عن عجلْ   مُؤَمِّلًا مِنْ ربِّه عَزَّ وجَلّ
غفرانَ ما جَنَى مِنَ الذنوبِ   والصفحَ عن مَعَرَّةِ العُيُوبِ
بجاهِ خيرِ العالمين أحمدا   صلَّى عليه اللَّهُ دأبًا سرمدا
وآلِهِ وصَحْبِهِ الأخيارِ   ومَنْ تلا لآخرِ الأعصارِ

ولمّا سألني في الإجازة الفاضل الأديب[1] سيدي محمد بن علي ابن مولانا عالم الشام الشهير الذكر شيخ الإسلام سيدي ومولاي الشيخ عمر القاري[2] ـ حفظه اللّه تعالى! ـ وأنا مستوفز للسفر؛ كتبت له عن عجل ما صورته: [الرجز]

أحمدُ مَنْ زَيَّن بالآثارِ ... جِيدًا من الراوي النبيهِ القاري
وشاد للعيـاءِ في أوجِ السَّنَدْ ... منازلاً لم يُبْلِهَا طولُ الأمدْ
ومَيَّزَ الواعينَ للحديثِ ... بالفضلِ في القديمِ والحديثِ
وزانَ منهمُ سماءَ الدينِ ... فأشرقتْ بالحفظِ والتبيينِ
فَهُمْ بها للمهتدي نجومُ ... وإنها للمعتدي رُجُومُ
فكم أزاحوا عن حديث المجتَبى ... صلَّى عليه اللَّه ما هَبَّتْ صَبَا
تحريفَ ذي غلٍّ مضلٍّ غالي ... شانٍ لمنهاجِ الرشادِ قالي[3]
وبَعْدُ فالإسنادُ للروايهْ ... وسيلةٌ تزحزح الغوايهْ
واللَّه قد خَصَّصَ هذي الأمَّهْ ... به امتنانًا وأزاح الغُمَّهْ
هذا ولولا ذاك قال من شا ... ما شاءه فهو بحقٍّ مَنْشَا
فلم يزل أهلُ النهى كلَّ زَمَنْ ... يَسْعَونَ في تحصيله عن مؤتمنْ
وإنَّ مِنْ جملة مَنْ تَحَرَّى ... لجملة من العلوم غرًّا[4]
الفاضلُ المسدَّدُ النجيبُ ... الواصلُ المُمَجَّدُ الأريبُ
محمدٌ سليلُ ذي المجد علي ... ابن الإمام العالم الحبرِ الولي
عمرُ الشيخُ الشهيرُ القاري ... طودُ السكون هَضْبَةُ الوقارِ
شيخُ الشيوخِ في دمشق الشامِ ... لا زال مَحْفوفًا بعزٍّ سامي
فكان من جملة مَنْ عنِّي روى ... بعضَ الصحيحِ ظافرًا بما نوى
وبَعْدَ ذاك اقترحَ الإجازهْ ... منِّي ووَعْدَها اقتضى إنجازَهْ

---

(١) في طبعة ليدن: «الأريب».

(٢) هو محمد بن علي بن عمر، المشهور بابن القاري؛ درس الحديث على المقري، وكان مدرّسًا بالمدرسة الشامية الجوانية، وكان بينه وبين أحمد الشاهيني مودّة ومراسلات. خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٥٤).

(٣) الشاني والقالي: بمعنى واحد، وهو المبغض.

(٤) رواية عجز البيت في طبعة دار صادر هي:

ومن يَسْبِقِ للعلوم غرّا

فـانعجمَتْ[1] نفسي عن الإجـابـهْ إذ لسـتُ فـي ذا الأمـر ذا نـجـابَـهْ
مَـعَ أنـنـي مُـقَـصِّـرٌ ذو عـيِّ في مثـلِ هـذا المـطلبِ المـرعيِّ
وخـفْـتُ أن آتـيَـهـا شـنـعـاءَ بـحـمـليَ الـوَشْـيَ إلـى صـنـعـاءَ
وبـعـد ذا أجـبـت[2] قَـصْـدَ الأجـرِ مـرتـجـيًـا بـذاك ربـحَ الـتَّـجْـرِ
وقـد أجـبْـتُـهُ وإنِّـي أَعْـلَـمُ أنِّـي مِـنْ خـوفِ الـخـطا لا أسلمُ
فَـلْيَـرْوِهـا بـبـالـغِ الـتمـنِّـي جـمـيـعَ مـا يَـصِـحُّ لي وعـنِّـي
مِـنْ ذلـك الـجـامـعُ لـلبـخـاري عَـنْ عَـمِّـيَ الـشـهـيـرِ ذي الـفَـخـارِ
سـعـيـدٍ الآخـذِ عـن سُـقَـيـنِ عـن قَلْقَـشَـنْـدِيٍّ مـزيـحِ الـمَـيـنِ
عن حـافظِ الإسـلامِ أعني ابنَ حجـرْ بـمـا لـه مـن الـروايـاتِ اشـتـهـرْ
وبَعْضُـهـا في صَـدْرِ فتـحِ البـاري مُـبَـيَّـنٌ لـطالـبِ الأخـبـارِ
ولـي أسـانـيـد يـطولُ شـرحُـهـا والـروضـةُ الغنّـاءُ يـكفـي نَفْـحُـهـا
ومـن روايـاتـي عـن الـقَـصَّـارِ مُـفْـتـي الـبـرايـا بـهـجـةِ الأعـصـارِ
حَـدَّثَـنـا خـروفُ الـذاكـي الأرجْ عن الشـريـف الـطحـطحـائي فَـرَجْ
سـمـعْـتُ فـي الـمـنـام طَـهَ يُـمْـلي حـديـثَ مَنْ أصبـحَ وَفْـقَ الـنـقـلِ
أي آمـنًـا فـي سِـرْبـه مـعـافـى في جسـمـه مـع قـوتِ يـومٍ وافـى
وكـلُّ مـا أَلّـفْـتُ فـي الـفـنـونِ أرجـو بـه الـتـحـقـيـقَ لـلظنـونِ
فَلْيَـرْوِهِ عـنِّـي بشـرطٍ مـعـتـبـرْ وربـمـا يـصـدّق الْـخُـبْـرُ الْـخَـبَـرْ
ولـي تـآلـيـف عـلى الـعـشـريـنـا زادتْ ثـمـانـيًـا حَـوَتْ تـعـنـيـنـا
فَلْيَـرْوِهـا إنْ شَـا بـلا اسـتـثـنـاءِ والـلّه أرجـو نَـيْـلَ قَـصْـدٍ نـائـي
بـجـاهِ مَـنْ شُـرِّفَ بـالإدنـاءِ صـلّى عـلـيـه الـلّهُ فـي الآنـاءِ
أحـمـدَ خيـرِ الـمـرسلينَ الهـادي غَـوْثِ الـبـرايـا مـلجـإ الأشـهـادِ
عـليـه أَسْـنَـى صـلواتٍ زاكـيـهْ مَـعْ صَحْبه ذوي الـمـزايـا الـزاكيهْ
ومَـنْ تَـلا مِـمَّـنْ أطـابَ عَـمَـلَهْ فـنـالَ مـن رجـائـه مـا أَمَّـلَهْ
وشَـمَّ مِـنْ عَـرْفِ قـبـولٍ أرَجَـا فـنـالَ مِنْ حُسْنِ الـخـتـام مـا رجـا

---

(١) انعجمتْ نفسي عن الإجابة: لم تستطع الإجابة. لسان العرب (عجم).

(٢) في طبعة دار صادر: «أجزْتُ».

وخاطبني من أهلها أيضًا خادم الشيخ الأكبر ابن عربي محيي الدين، وهو الشيخ الأكرمي سيدي إبراهيم[1]، سلك اللّه بي وبه سبل المهتدين! بقوله: [مجزوء الكامل]

فَكَّرْتُ في فضلِ الإما ... م المقَّرِيِّ الحبْرِ حِيْنا
فوجدْتُهُ بِكْرَ الزما ... ن وواحدَ الدنيا يقينا
ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعْـ ... ـتُ بمثله في العالمينا
وافى دمشقًا زائرًا ... لو أنه[2] أضحى قطينا
وأتى عجيبُ الاتفا ... قِ بفطرِ شهرِ الصائمينا
فكأنَّ غُرَّتَه الهلا ... لُ ونحن كُنّا ناذرينا
والعلمُ قال مؤرخًا ... أدَّى بها فضلًا مبينا

وخاطبني أيضًا منهم الفقيه النبيه سيدي مصطفى بن محب الدين[3] حفظه اللّه تعالى بقوله: [الطويل]

فضائلُ قطبِ الغربِ في العلم والفضلِ ... هو المَقَّرِيُّ الأصلِ حائزةُ الخَصْلِ
حَوَى كلَّ علمٍ كلَّ عن بعضه السِّوَى ... فلا غَرْوَ أن أضحى فريدًا بلا مثلِ
وحازَ فنونًا من ضروبِ معارفٍ ... ومن فضلِ تحقيقٍ ومن منطقٍ فَصْلِ
توخَّى دمشقَ الشامِ فافْتَرَّ ثَغْرها ... سرورًا به وازَّيَّنَتْ من حلى الفضلِ
وشَرَّفَ مصرًا قبلها فاكْتَسَتْ به ... ملابسَ فخرٍ زانَها كرمُ الأصلِ
لقد أشرقتْ مِنْ أُفْقِ غَرْبٍ شُمُوسُهُ ... وناهيكَ أُفْقًا نُورُه قَدْرَه يعْلي[4]
نفاسَتُهُ فيها تنافَسَتِ الوَرَى ... بما قد غَدَا مِنْ دُرِّ ألفاظه يملي
مَليٌّ[5] من التحقق إنْ عَنَّ مشكلٌ ... تَكَفَّل بالتبيانِ والشرحِ والحلِّ

---

(١) هو إبراهيم بن محمد الدمشقي الصالحي، المعروف بالأكرمي؛ شاعر مشهور في عصره، توفي سنة ١٠٤٧ هـ. خلاصة الأثر (جـ ١ ص ٣٩).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ألو أنّه».

(٣) هو مصطفى بن أحمد بن منصور بن إبراهيم بن محمد بن سلامة بن محبّ الدين الدمشقي؛ أديب، سافر مرتين إلى مصر ودرس في الجامع الأزهر، ثم تولّى التدريس بجامع بني أمية بدمشق، وكانت وفاته سنة ١٠٦١ هـ. خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٣٦٥).

(٤) في طبعة دار صادر: «مُعْلي».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «مليءٌ».

إذا مـا أدار الـدرَّ مِـنْ كـأس لـفـظِهِ ... سقـانـا عُقـارَ الفض عَـلاًّ على نَهْـلِ
نـظامٌ لـه يـحـكـي قـلائـدَ عَسْجَـدٍ ... وثـغـرٌ مليـحٌ فـائقُ الـحُسْـن والـدلِّ
وأسـجـاعُـهُ إنْ حـاكَ وَشْيَ نـسيـجِهـا ... حكتْ حِبَـرًا حِيكَتْ نـمـارقَ من غـزل
لـه الـقَـلَـمُ الأعـلى بـشـرقٍ ومـغـربٍ ... له الموضـعُ الأسمى على الكلِّ في الكـلِّ
فـيـا سيّـدًا حـازَ الـمفـاخـرَ والـعُـلا ... وفـاقتْ حِلَى الآداب مـنـه على الـحلي
إلـيـكَ من الـعـبـدِ الـحـقـيـرِ تـحـيـةً ... لقـد نشأتْ عن خـالص الـودِّ من خـلِّ
مُـوَالٍ يـوالـي الحبَّ والقُـرْبَ مـنكُـمُ ... بـظاهـرِ غَيْبٍ لا يحيـدُ عن الـوصـلِ
فـلا زلـتَ مـحـبـوًّا بـسـابـغ نـعـمـةٍ ... وفـضـلِ نـعـيـمٍ وافـرٍ وارفِ الـظِّلِّ
ودُمْتَ لـدى الأسفـار في نُجْـحِ أوبـةٍ ... وجَمْـعٍ لشمـلٍ بـالمـواطن والأهـلِ

وخاطبني أيضًا الشيخُ سيدي محمد بن سعد الكلشني بقوله: [الخفيف]

شـهـرُ شعبـانَ جـاءنـا ليهنّي[1] ... بقـدومِ الأستـاذِ كنـزِ الفضـائـلْ
بهجـةِ الـكـونِ روضِ علمٍ وحـلمٍ ... وهـو مُغْني اللبيب إنْ جـاءَ سـائـلْ
بـمصـابيـحِ فضـلِهِ قـد أضـاءتْ ... سـاحـةُ الجـامـعِ الكبيـرِ لآمـلْ
وبـمـخـتـارِ لـفـظه صـارَ يَـحْـوي ... لـحـديثٍ مُسَلْسـلٍ عنْ أفـاضـلْ
ومن الـغـربِ حيـن وافـى لـشـرقٍ ... فـاقَ بَـدْرَ الـتمـام وَسْطَ الـمنـازلْ
حَـلَّ مني في القـلب والـطرفِ لَمَّـا ... لاحَ سعـدُ السعـود لي غَيـرَ آفـلْ
وغَـدَا بـالأمـانِ والـسَّـعْـدِ أرِّخ ... أحمدُ المقّريُّ في[2] الشام قـائـلْ

وقال أيضًا شكر اللّه تعالى نيّته، وبلغه أمنيته: [الطويل]

أتـاكِ دمـشـقَ الـشـامِ أكْـرَمُ واردِ ... فقـرِّي بـه عينًـا وللحسنِ شـاهـدي
وهُـزِّي دلالاً فـي أزاهـر روضِـهِ ... معـاطفَ لينٍ كـالغصـونِ الأمـالـدِ[3]
لـكِ البِشْرُ يـا عيني ظفـرتِ بـأمجـدٍ ... رفيـعِ الـذرى من فـوقِ فَرْقِ الفـراقـد
لـقـد شـاعَ بيـن النـاس واسـعُ فـضله ... فكمْ قـاصـدٍ يسعى لِنَيـلِ الفـوائـد

---

(١) في طبعة دار صادر: «ليهنّا».
(٢) في الطبعة نفسها: «بالشام».
(٣) الأمالد: جمع أملود وهو اللّيّن الناعم من الغصون. لسان العرب (ملد).

من العَلَم [1] الفرد المفيد الذي له | أيادٍ سَمَتْ بالجُود تولى لقاصد
وذاك أبو العباس أحمد مَنْ صفتْ | مناهلُهُ دَومًا إلى كلِّ وارد
تراه إذا وافيتَهُ متهلِّلاً | ويبسمُ حُبًّا في وجوهِ الأماجد
إمامٌ سَمَا قدرًا على النجم رفعةً | أرى وصفه في بيت نظم مشاهد
لديه ارتفاعُ المشتري وسعودُهُ | وسطوةُ بَهْرَامٍ وظرفُ عُطَارد
شهدْتُ بأنَّ اللَّه أولاهُ منحةً | بنقلِ حديثٍ في جميع المساجد
ومذ حَلَّ في وادي دمشقَ ركابُهُ | وسؤددُهُ وافى بأعدلِ شاهد
حَوَى كلَّ أفضالٍ وكلَّ فضيلةٍ | بها يُهْتَدَى حَقًّا لِنَيلِ المقاصد
وماذا عسى في مَدْحه أنا قائلٌ | ولو جئتُ فيه مطنبًا بالقصائد
إذا رُمْتَ أنْ تلقى نظيرًا لمثله | عجزْتَ وربُّ الناسِ عن عَدٍّ واحد
فكم من معانٍ حازها ببيانه | وفكرته قد قَيَّدَتْ للشوارد
ومنطقهُ حاوي الشِّفا بجواهر | صحاحٍ بها يزدانُ عِقْدُ القلائد
من الغرب وافى نحو شرقٍ فأشرقتْ | شموسُ علومٍ أسفرتْ عن محامد
فناديْتُهُ يا سيدي مَنْ بفضله | تواترتِ الأخبارُ عن غيرِ واحد
عسى عطفةٌ منكمْ عليَّ بنظرةٍ | فأنتَ لموصولِ الْجَدَا [2] خيرُ عائد
وأنتَ على رَيْبِ الزمان مُساعدي | وأنتَ يميني للحسودِ وساعدي
فلا زلتَ تُوْلي كلَّ من هو آملٌ | لبغيته من صادرٍ ثم وارد
وتَبْقى مدى الأيام في المسجد رافلاً | بثوبِ الهنا تُكْفَى شرورَ الحواسد
وهاكَ عروسًا تجتلي في حُلِيِّهَا | إليك أتتْ في زيّ عذراءَ ناهد
تُهَنِّي بعيدِ الفطرِ مِنْ بَعْدِ صومكمْ | بخيرٍ جزيلٍ مِنْ لذيذِ الموائد
وترجو جميلَ السترِ إنْ هي مُثِّلَتْ | بحضرتك العلياءِ يا خيرَ ماجد
وعِشْ في أمانِ اللَّهِ بالعزِّ دائمًا | مدى الدهرِ ما سَحَّ الحَيَا في الفدافد [3]
وما دارتِ الأفلاكُ مِنْ نحو قطبها | وما بزغتْ شمسُ الضحى للمشاهد

---

(١) في طبعة دار صادر: «من العالم».

(٢) الجَدَا، بالفتح: العطيّة. مختار الصحاح (جدى).

(٣) سَحَّ الحَيَا: هطل، والحَيَا: المطر. الفدافد: جمع فَدْفَد وهو الفلاة والأرض المستوية. محيط المحيط (سحح) و (حيي) و (فدفد).

وقال أيضًا زاده اللَّه تعالى من فضله: [مخلع البسيط]

ظَبْيٌ بوسطِ الفؤادِ قائلْ ... أَعْجَزَ بالوصفِ كلَّ قائلْ

ظبيٌ بأجفانه سَباني ... وسِحْرُها ينتمي لبَابِلْ

يرمي بسهمِ اللحاظِ لَمّا ... يرنو فيُصْمِي الفؤادَ عاجلْ

قد فَتَنَ العقلَ مذ تَجَنَّى ... عليَّ حتى غدوْتُ ذاهلْ

له قَوامٌ كخُوطِ بانٍ ... أو كالقنا السَّمْهَريِّ عادلْ

بَدْرٌ بَدَا كاملَ المعاني ... في القلبِ والطرفِ عاد نازلْ

قد أَسَرَ القَلْبَ في هواه ... بقيدِ حُسْنٍ وفرعٍ سابلْ

وما بقي منه لي خلاصٌ ... سوى مديحي رضا الأفاضلْ

أعني به المقَّرِيَّ مَنْ قد ... سَمَا على البدرِ في المنازلْ

أحمدُ مولى له أيادٍ ... كالغَيْث يُغْني لكلِّ سائلْ

عَلَّامَةٌ حازَ كلَّ فضلٍ ... سبقًا ومن بالعلومِ عاملْ

مَنْ قد نَشَا في العلوم طُرًّا ... وحازَ علمَ البيان كاملْ

طويلُ باعٍ بسيطُ فضلٍ ... مديدُ جُودٍ لكلِّ آملْ

ووافرُ العقلِ راح يهدي ... سريعَ فضلٍ لكلِّ فاضلْ

وجامعُ العلم في ابتهاجٍ ... بمنطقٍ في الأصول حافلْ

وهكذا في الكلام مهما ... أفاده في الدروس شاملْ

يروي صحيحَ الحديثِ دأبًا ... بالسَّنَدِ الواصلِ الدلائلْ

وكم علومٍ أفادَ مَنْ قد ... أتاهُ في مشكلِ المسائلْ

وحَلَّ إبهامَ كلِّ شكلٍ ... من فنِّ وَفْقٍ[1] إلى الوسائلْ

وغاصَ في لُجَّةِ المعاني ... واستخرج الدُّرَّ في المحافلْ

وفي فنون البديع أضحى ... جِناسُهُ قد حوى رسائلْ

وكم دليلٍ أقام لَمَّا ... بُرْهانُهُ أَبْهَتَ المعازلْ

إنْ كان وافى لنا أخيرًا ... فهو الذي فاخَرَ الأوائلْ

بحرٌ محيطٌ يفيضُ منه ... على رياضٍ بكلِّ ساحلْ

---

(١) يشير هنا إلى عنوان كتاب للمقري هو: «في الوفق المخمَّس الخالي الوسط».

وافى من المغرب نحو شرقٍ يجوبُ من فوقِ مَتْنِ بازلْ[1]
في مَهْمَهٍ صَحْصَحٍ مَهُولٍ وحَزْنُهُ كم به غوائلْ[2]
وحَثَّ فيه المسيرَ حتى خَلَّفَهُ مِنْ وراء كاهلْ
وجاء باليُمْنِ في أمانٍ وصحةِ الجسمِ والشمائلْ
وحَلَّ في الشام عند قومٍ مِنْ أكرم الناس في القبائلْ
ذاك ابنُ شاهينَ ذو المعالي ربُّ الندى للألوف باذِلْ
كأنه الشمسُ جاء يهدي للبدرِ نورًا وليس آفلْ
بل كان غَيْثًا لهمْ وكانوا رَوضًا أريضًا[3] لشكر وابلْ
فبجَّلُوهُ وعَظَّمُوهُ وادّخروا عاجلًا لآجلْ
جزاهُمُ اللّهُ كلَّ خيرٍ وصانهمْ من جدالِ جاهلْ
وأحمدُ دامَ في أمانٍ المَقَّرِيُّ الرضا المعاملْ
لربِّه في دُجَى الليالي ويرشدُ الناسَ في الأصائلْ[4]
لا زال في نعمةٍ وخيرٍ وفي أمانٍ يعودُ عاجلْ

وخاطبني الأديب الفاضل، الشيخُ أبو بكر العمري[5] شيخ الأدباء بدمشق، حفظه اللّه تعالى بقوله: [الرجز]

تاهتْ تِلِمْسَانُ على مُدْنِ الدنى بعالمٍ في العالمينَ يحمدُ
المقَّرِيُّ أحمدُ ربُّ الحجا الكاملُ البحرُ الخضمُّ المُزْبِدُ
مالكُ هذا العصر شافعيُّهُ أحمدُهُ نُعْمانُه المسدَّدُ
مذ حَلَّ مصرَ أذعنتْ أعلامُها لِفَضْله وبَجَّلُوا ومَجَّدوا
وفي دمشقِ الشامِ دامَ سعدُها كان له بها المقامُ الأسعدُ

(١) البازل: المسنّ القويّ من الإبل. لسان العرب (بزل).
(٢) الصحصح: المستوي من الأرض. الحَزْن: الغليظ من الأرض. الغوائل: المهلكات. لسان العرب (صحصح) و (حزن) و (غول).
(٣) الروض الأريض: المُؤْنق المعجب الزكي. لسان العرب (أرض).
(٤) الأصائل: جمع أصيل وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب. مختار الصحاح (أصل).
(٥) هو أبو بكر بن منصور بن بركات بن حسن بن علي العمري الدمشقي؛ شاعر له اليد الطولى في الموشح والزجل والدُّوبَيْت. توفي سنة ١٠٤٨ هـ. خلاصة الأثر (جـ١ ص ٩٩).

العُلماءُ أجمعوا جميعُهُمْ على معاليه التي لا تُجْحَدُ
أقامَ شهرًا أو يزيد وانثنى وفي الحشا منه المُقيمُ المُقْعِدُ
سالتْ على فراقه دموعُنَا وفي القلوب زَفْرَةٌ لا تخمد
لو قيل من يُحْمَدُ في تاريخه ما قلْتُ إلَّا المقَّرِيُّ أحمد
لا برحتْ أوقاتُه مفيدةً ما صاح فوق عُوده مُغَرِّدُ

قلت: وذكري لكلام أعيان دمشق ـ حفظهم اللّه تعالى! ـ ومديحهم لي، ليس ـ علم اللّه ـ لاعتقادي في نفسي فضلاً، بل أتيتُ به دلالة على فضلهم الباهر، حيث عاملوا مثلي من القاصرين بهذه المعاملة، وكَسَوْهُ حلل تلك المجاملة، مع كوني لست في الحقيقة له بأهل، لما أنا عليه من الخطإ والخطل والجهل.

ولقد خاطبْتُ من مصر مفتي الشام صدر الأكابر، وارث المجد كابرًا عن كابر، ساحب أذيال الكمال، صاحب الخلال المبلغة الآمال، مولانا شيخ الإسلام الشيخ عبد الرحمن العمادي الحنفي، بكتاب لم يحضرني منه الآن غير بيتين في أوله، وهما: [السريع]

يا حاديَ الأظْعَانِ نحو الشَّآمِ بَلِّغْ تحياتي لتلك الخِيام[1]
وابْدأْ بِمُفْتِيْها العِمَادِيِّ الرِّضَا دام به شَمْلُ الهنا[2] في التئام

فأجابني بما نصه: [السريع]

إلى أهالي مِصْرَ أهْدِي السَّلام مُبْتَدِئًا بالمَقَّرِيِّ الهُمَامْ
مَنْ ضاعَ نَشْرُ العلمِ مِنْ عَرْفِهِ ولم يَضِعْ منه الوفا للذِّمَامْ

أهدي تحف التحيّة، إلى حضرته العليّة، وذاته ذات الفضائل السنيّة الأحمديّة، التي مَنْ صَحِبها لم يزل موصولاً بطرائف الصِّلات والعوائد، الأوحديّة الجامعة التي لها منها عليها شواهد[3]: [السريع]

ولَيْسَ للّه بِمُسْتَنْكَرٍ أن يجمعَ العالَمَ في واحدِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الفئام».
(٢) في طبعة ليدن: «شمل الهوى».
(٣) البيت لأبي نواس. ديوان أبي نواس (ص ٤٥٥).

فيا من جذب قلوب أهل عصره إلى مصره، وأعجز عن وصف فضله كلَّ بليغ ولو وصل إلى النَّثْرة[1] بنثره، أو إلى الشِّعْرَى بشعره، ومن زرع حَبَّ حُبِّه في القلوب فاستوى على سُوْقِه، وكاد كل قلب يذوب بَعْدَ بُعْدِه مِنْ حرِّ شوقه، وظهرت شمس فضله من الجانب الغربي فبهرت بالشروق، وأصبح كلُّ صَبٍّ وهو إلى بهجتها مَشُوق، زار الشام ثم ما سلَّم حتى وَدَّع، بعد أن فرعَ بروضها أفنان الفنون فأبدع، وأسهم لكلٍّ مِنْ أهلها نصيبًا من وداده، فكان أوفرهم سهمًا هذا المحب الذي رفع بصحبته سمْكَ عماده، وعلق بمحبّته شغاف فؤاده، فإنه دنا من قلبه فتدلّى، وفاز مِنْ حُبِّه بالسهم المُعَلّى، أدام اللَّه تعالى لك البقا، وأحسن لنا بك الملتقى، ومَنَّ علينا منك بنعمة قرب اللقا، آمين بمنّه ويمنه. هذا، وقد وصل من ذلك الجناب[2] الوفيّ، كتابٌ كريم هو اللطف الخفيّ، بل هو من عزيز مصر القميصُ اليوسفي، جاء به البشير ذو الفضل السني، الخلّ الأعزّ الأجلّ التاج المحاسني، مشتملاً على عقود الجواهر، بل النجوم الزواهر، بل الآيات البواهر، تكاد تقطر البلاغة من حَوَاشيه[3]، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لمُوَشِّيه، فليت شعري بأي لسان، أُثْني على فصوله الحسان، العالية الشان، الغالية الأثمان، التي هي أنفس من قلائد العِقْيَان، وأبدع من مقامات بديع الزمان، فطفقت أرتَعُ من معانيها في أمتع رياض، وأقطع بأنَّ في منشئها اعتياضًا لهذا العصر عن عياض[4]: [البسيط]

لَيْتَ الكواكِبَ تدنو لي فأَنْظِمَها ... عُقُودَ مَدْحٍ فلا أرضى لهَا كَلِمي

ولا سيما فصل التعزية والتسلية، المشتمل على عقد التخلية بل عقود التحلية، لتلميذكم الولد إبراهيم، فإنه كان له كرُقْية السليم، بعد أن كاد يهيم، فجاء ولِلَّه دَرُّهُ في

---

(١) النَّثْرَةُ: كوكبان بينهما قدر شبر. محيط المحيط (نثر).

(٢) في طبعة دار صادر: «الخلّ الوفيّ».

(٣) في طبعة ليدن: «حوايته».

(٤) هذا البيت للفقيه أبي محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن ريدان بن أحمد الحكمي اليمني، الملقب بنجم الدين، الشاعر المشهور، المتوفَّى سنة ٥٦٩ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٤٣١) وصبح الأعشى (جـ ٣ ص ٥٧٠، ٦٠٣). والبيت من قصيدة يمدح بها الفائز ابن الظافر الفاطمي ووزيره الصالح ابن رُزّيْك، ومطلعها:

الحمد للعِيْس بعد العَزْمِ والهِمَمِ ... حَمْدًا يقومُ بها أَوْلَتْ به النِّعَمُ

البيت المذكور ضمن قصيدة في وفيات الأعيان (ص ٤٣٣).

أحسن المحالّ، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عِقَال: [الرمل]

وإذا الشيء أتى في وَقْتِه زادَ في العَيْن جمالاً لجمالِ

فجزاكم اللّه تعالى عنّا أحسن الجزاء، ثم أحسن لكم جميل العزاء، فيمن ذكرتم من كريمَتَي الأصل والفرع، وأبقى منكم ماكثًا[1] في الأرض مَنْ به للناس أعمّ النفع. وأمّا من كان وليي وسميي ومنجدي، الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدي، فإنها وإنْ أصابتْ منّا ومنكم الأخوين، فقد عَمَّت الحرمين، بل طمت الثَّقَلَيْن، ولقد عُدَّ مصابه في الإسلام ثُلْمة، وفقد به في حرم اللّه تعالى من كان يدعى للملمّة، ولم يبق بعده إلاّ من يدعى إذا يُحَاسُ الحَيْس[2]، واستحقّ أن ينشد في حقِّه وإن لم يُقَسْ به قيس[3]: [الطويل]

وما[4] كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

فاللّه تعالى يرفع درجاته في علِّيّين، ويبقى وجودكم للإسلام والمسلمين، وتلامذتكم الأولاد، يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الأمداد، ويُهْدُون أكمل التحيّة، إلى حضرتكم العليّة، ونبلغكم دعاء صاحب السعادة، أدام اللّه تعالى إسعادكم وإسعاده، ونحن من صحبته الشهيّة، في رياض فنون أدبية، أبهاها لمعات محاضرة في ذكر شمائلكم الجميلة، تنور الْمَجَالس، وأشهاها نَسَمات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة، تعطر الْمُجَالِس، وسلام جملة الأصحاب من أهل الشام، وعامّة الخواصّ والعام، والدعاء على الدوام ـ المخلص الداعي عبد الرحمن العمادي، مفتي الحنفيّة، بدمشق المحميّة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ماكنًا».

(٢) الحَيْسُ: الطعام المتّخذ من التمر والسمن والأَقِط. يُحاسُ: يُخْلَطُ. وقوله: «إذا يُحاس الحَيْسُ» من قول زُرافة الباهليّ، أو من قول هُنَيّ بن أحمر الكناني: [الكامل]

ولِجُنْدَبٍ سهلُ البلادِ وعَذْبُها ولي المِلاحُ وحَزْنُهُنَّ المُجْدِبُ

وإذا تكون كريهةٌ أُدْعَى لها وإذا يُحاس الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

لسان العرب (حيس).

(٣) هذا البيت من جملة مرثية عَبَدَة بن الطبيب، التي رثى بها قيس بن عاصم التميمي، الذي قدم من البادية على النبيّ، ﷺ، في وفد بني تميم في سنة تسع للهجرة، وأسلم. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٨٣).

(٤) في وفيات الأعيان: «فما كان..».

ووردت عليَّ مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام، حفظهم اللّٰه تعالى؛ فمنها من الصديق الحميم، الرافل في حلل المجد الصميم، الخطيب، الأديب، سيدي الشيخ المحاسني يحيىٰ، أسمى اللّٰه تعالى قدره في الدِّين والدنيا، كتابان نَصُّ أولهما: باسمه سبحانه: [الطويل]

لئنْ حَكَّمَتْ أيدي النَّوَى أو تعرَّضَتْ عوارضُ بَيْنٍ بَيْنَنَا وتَفَرُّقُ
فطرفي إلى رؤياكُمُ متشوِّفٌ وقلبي إلى لقياكُمُ مُتَشَوِّقُ

يقبل الأرض الشريفة لا زالت مركزًا لدائرة التهاني، وقطبًا لفلك تجري المجرّة في حُجْرَته على الدقائق والثواني، ولا برحتْ ألسنُ البلاغة عن تمييز براعة يراعة[1] حامي حماها معربة، وبلابل الآداب على الأغصان في رياض فضله بمثاني[2] الثناء صادحة وبألحان سجعها مطربة: [الكامل]

أرْضٌ بها فَلَكُ المعالي دائرٌ والشمسُ تُشْرِقُ والبدورُ تَحُومُ
ولها مِنَ الزَّهْرِ المُنَضَّدِ أَنْجُمٌ ولها على أُفُقِ السماءِ نجومُ

عَمَّر اللّٰهُ تعالى بالمسرّات محلّها، وعمَّ بالخيرات مَنْ حَلَّها، ويبتدىء بسلام يخبر عن صحيح وُدِّه السالم، ومزيد غرام يؤكّد حُبَّه الذي هو للولاء حازم، وينعت شوقًا يحرّك ما سكن صميم الضمير، من صدق حبّ سَلِمَ جمعُه من التكسير، ويؤكّد السلام بتوابع المدح والثناء، ويُعْرب عن محبّة مشيدة البناء، ويُنْهِي أنّ السبب في تسطيرها، والباعث على تحريرها، أشواق أضرم نارها في الفؤاد، ومحبّة لو تجسّمت لملأت البلاد، وأقول: [البسيط]

شوقي لذاتك شوقٌ لا أزال أرى أَجَدَّهُ يا إمامَ العصرِ أَقْدَمَهُ
ولي فَمٌ كاد ذكرُ الشوقِ يُحْرِقُه لو كان من قال: نارٌ، أحرقتْ فَمَهُ

هذا وإنْ تفضّل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باقٍ على ما تشهد به[3] الذات اللطيفة العلية، من صدق المحبة ورِقِّ العبودية، ولم يزل يزين أفق المجالس بذكركم، ولا

---

(١) البراعة: القصب، والجمع يَراع. مختار الصحاح (يرع).
(٢) المثاني: من أوتار العود. محيط المحيط (ثنى).
(٣) في طبعة دار صادر: «تشهد الذات العلية».

يقتطف عند المحاضرة إلاَّ مِنْ زهركم، ولم يَنْسَ حلاوة العيش في تلك الأوقات التي مضت في خدمتكم المحروسة بعناية الملك المتعال، وليالي الأنس التي قيل فيها: «وكانت بالعراق لنا ليالٍ[1]» [البسيط]

واهًا لها من ليالٍ هل تعودُ كَمَا كانت، وأيُّ ليالٍ عاد ماضِيها
لم أنْسَها مذ نأتْ عنّي بِبَهْجَتِهَا وأيُّ أُنْسٍ مِنَ الأيام يُنْسِيها

فنسأل اللّٰه تعالى أن يمنّ بالتلاق، ويفصل مانعة الجمع[2] بطيٍّ شقة الفراق، إن ذلك على اللّٰه يسير، وهو على جَمْعهم إذا يشاء قدير. وبَعْدُ، فالمعروض على مسامع سيدي الكريمة، لا زالت من كل سوء سليمة، أنه وصلنا مكتوبكم الكريم، صحبة العمّ المحب القديم، فحصل لهذا العبد به جَبْرٌ عظيم، وأُنْسٌ جسيم، كما شهد بذلك السميع العليم، فعزمت على ترك الإجابة، لعدم الإجادة، ومتى تبلغ الألفاظ المذمومة ما بلغته الألفاظ المقَّرِيَّة؟ وأين يصل صاحب الزَّمْر كما قيل إلى الدقات الخليلية؟ ولكنّني خشيْتُ من ترك الإجابة توهّم نقض ما أبنيه من رق العبوديّة وصحّة الوداد، ومن انقطاع برق شيخي الذي هو لبيتِ شرفي العُمْدة والعِمَاد، فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب، وإن كان خطؤه أكثر من الصواب، وأرسلته قبل ذلك بعشرة أيام، ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان: أحدهما من مُحِبّكم شيخ الإسلام المفتي العمادي، والآخر من مُحبكم أحمد أفندي الشاهيني، وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التامّ، ولا تؤاخذونا في هذا المكتوب فإني كتبته عَجِلاً، ومن جنابكم خَجِلاً، دام خيركم على الدوام، إلى قيام الساعة وساعة القيام، وحرّرهُ يوم الاثنين ١١ من جمادى الثانية سنة ١٠٣٨، الفقير الداعي يحيىٰ المحاسني، انتهى.

ونصُّ الكتاب الثاني من المذكور أسماه اللّٰه باسمه سبحانه: مخلصك الذي مَحَضَ[3] لك وداده، ومُحِبّك الذي أسلم لمحبّتك قِيَاده، بل عبدك الذي لا يروم الخروج عن رِقِّك، وتلميذك الذي لم يزل مغترفًا من فيض علومك معترفًا بحقّك، مَنْ أسكنك لُبَّه، وأخلص لك

---

(١) هذا صدر بيت هو: [الوافر]

وكانت بالعراق لنا ليالٍ سَرَقْناهُنَّ مِنْ طِيْبِ الزمانِ

(٢) مانعة الجمع: من اصطلاحات علماء المنطق.

(٣) مَحَضَ ودادَهُ: أخلصه ولم يشبه بشائبة. لسان العرب (محض).

حُبَّهُ، واتّخذك من بين الأنام ذخرًا نافعًا، وكهفًا مانعًا، ومولى رفيعًا، وشهابًا ساطعًا، وتشبَّثَ بأسباب علومك وتمسّك، يهدي إليك سلامًا كأنما تعطَّر بِمِسْك ثنائك وتمسّك[1]، واكتسب من لطف طبعك الرقّة، واستعار من سَنَا وجهك حلّة مستحقّة، وتحيّة لم يكن مناه إلاّ أن تكون بالمواجهة، والمحاضرة والمشافهة، على أنَّ فؤاده لم يبرح لك سكنًا، وأحشاءه لك موطنًا، ويبدي دعواتٍ يحقّق الفضلُ أنها من القضايا المنتجة[2]، وأن أبواب القَبُول لها غير مُرْتَجة[3]، مُقَبِّلًا أياديك التي وكَفَتْ[4] بوابل جودها، وكَفَتِ المهمَّ بنتائج سُعُودها، وحاكت الوشي المرقوم، وسَلَكَتِ الدُّرَّ المنظوم، فهذا يرفل في حللها، وهذا يتحلّى بعقودها: [الكامل]

فَهْيَ التي تَعْنُو الرِّياضُ لِرَقْمِهَا ... ويَغَار منها الدُّرُّ في تَنْضِيدِها
ويَحارُ أربابُ البيانِ لنظمها ... فهمُ بحضرتها كبعضِ عبيدها

متمسّكًا من ولائك بوثيق العُرَا، متمسّكًا من ثنائك الذي لا يزال الكون منه معنبرا، متشوّقًا للقائك الذي بالمهج يُسْتَام وبالنفوس يُشْتَرَى، متشوّقًا إلى ما يرد من أنبائك التي تسرُّ خبرًا، وتحمد أثرا، أعني بذلك المولى الذي أقام بفِناء الفسطاط مخيّمًا، وانتجع حماه رائد الفضل ميمّمًا، وشُدَّتْ لفضائله الرِّحال، ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال، وطلعت شموس علومه في سماء القاهرة، فاخْتَفَتْ نجومُ فضلائها والأشعة باهرة: [الطويل]

هو الشمسُ عِلْمًا والجميعُ كواكبٌ ... إذا ظهرتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ[5]

فهو العالم الذي سَرَى ذكره في الآفاق، مسير الصَّبا جاذب ذيلَها النسيمُ الخفّاق، الذي أطلع شمس التحقيق من أفق بيانه، وأظهر بَدْر التدقيق من تبيانه، فلهذا عُقِدَتْ عليه الخناصرُ بين علماء عصره، وانقطعتْ إليه الأواصرُ من فضلاء مصره، فلا يُضَاهيه في ذلك

---

(١) تمسَّكَ: تعطَّر بالمِسْك. لسان العرب (مسك).
(٢) القضايا المنتجة: التي تَصحُّ نتيجتُها باطّراد. وهذا من اصطلاحات أهل المنطق.
(٣) مُرْتَجَةٌ: مُغْلقة؛ يقال: أرتج الباب إذا أغلقه. محيط المحيط (رتج).
(٤) وَكَفَتْ: سالتْ. الوابل: المطر الغزير. لسان العرب (وكف) و (وبل).
(٥) هذا من قول النابغة الذبياني من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان ويمدحه: (الطويل)
فإنك شمسٌ، والملوكُ كواكب ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ
ديوان النابغة الذبياني (ص ٤٧).

أحد في زمانه، وينسق ما نسقه من درّه ومرجانه، فهو المُعَوَّل عليه في مشكلات العلوم، معقولها ومنقولها والمنطوق والمفهوم، الذي لم تسمح بمثله الأزمان والعصور، ولم يأت بنظيره تتابُعُ الأعصار والدهور، مَنْ عجز لسان القلم، عن التصريح باسمه الشريف في هذا الرقَم، لا زالت المدارسُ مشرقة بإلقائه فيها الدروس، ولا برحت البقَعُ عامرة بوجوده بعد الدُّروس، ما سُطِّرت آيات الأشواق في الصحائف والطروس[1]، وأُرسلت من تلميذ إلى أستاذ بسبب نِسبته إليه فحصل على المطلوب من شرف النفوس، هذا، والذي يُبْدِي لحضرتكم، ويُنْهي لطلعتكم، أن الراقم لهذه الصحيفة، المشرّفة ببعض أوصافكم اللطيفة، المرسلة لساحة فضائلكم المنيفة، هو تلميذكم من تشرّف بدرسكم، وافتخر بإجازتكم، يبدي لكم تلهّفه لنيران أشواقه التي التهبت، وتأسّفَه على الأيام السالفة مذهبة في خدمتكم لا ذهبت، وتوجُّعه لهذه الأزمان التي استرجعت بالبعد عنه من ذمّته ما وهبت، وتطلّعه إلى ما يُشَنِّفُ به الأسماعَ من فضائله التي سلبت العقول وانتهبت، فلم يزل يسأل الرواة عنها، ليلتقط منها، وقد تحقّق أنّ فرائدها لا يُلْفِي لها نظيرًا ولا يدركُ لها كُنْهًا، وكيف لا ومنها يتعلّم الفاضل اللبيب، وإليها يفتقر السعيد ويتودّد حَبيبٌ، وعليها يعتمد ابن العميد، ولم تنفكَّ راقيةً في دَرَج المزيد، وعبدُ الحميد عبدُ الحميد، وعِلْم شيخي محيطٌ بصدق محبتي وإخلاصها، وشدّة حرصي على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها، وأنني لا أزال ذاكرًا لمحاسنه التي ليست في غيره مجموعة، ومتطفّلاً على ثمار أفكاره التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة، وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك، فلا يحتاج هذا العبد إلى بيّنة لدى مولانا الأستاذ المالك، وحقيق على من فارق تلك الأخلاق الغُرَّ، والشمائل الزُّهْر، والعِشْرة المعشوقة، والسجايا الموموقة، والفضائل الموفورة، والمآثر المشهورة، أن يشقّ جَيْبَ الصَّبْر، ويجعل النار حَشْوَ الصَّدْر[2]: [الطويل]

وإني لَتَعْرُوني لذكراك هَزَّةٌ   كما انْتَفَضَ العصفورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

---

(١) الطُّرُوسُ: جمع طِرْس وهو الصحيفة. لسان العرب (طرس).

(٢) البيت لأبي صخر الهذلي، وهو في ديوان الهذليين (ص ٣٢٠) وينسب أحيانًا إلى غيره.

ولو مَلَكْتُ مرادي، لَمَا اخْضَرَّ إلَّا في ذراه مرادي، بل لو دار الفلك على اختياري، لَمَا نَضَوْتُ[1] إلَّا عنده ليلي ونهاري[2]: [الوافر]

ولــو نُعْــطَى الخِيــارَ لَمَــا افْتَــرَقْنَــا ... ولٰــكِــن لا خِــيَــارَ مَــعَ الــزَّمَــانِ

* * *

[الطويل]

وتَحْتَ ضُلُوعي لــوعــةٌ لــو كَتَمْتُهــا ... لَخِفْتُ على الأحشــاء أنْ تَتَـضَــرَّمَــا

ولــو بُحْتُ في كتبي بمــا في جَــوَانحي ... لأنْــطَقْـتُهَــا نــارًا وأبـكـيْـتُـهــا دَمَــا

وأنا لا أقترح على الدهر إلَّا لقياه، ولا أقطع حاضرَ الوقت إلَّا بذكراه، وما أعد أيامي التي سَعِدْتُ فيها بلقائه إلَّا مفاتح السرور، ومَطَالع السعود والحبور، ولستُ أعيبُها إلَّا بقلّة البقاء، وسرعة الانقضاء، وكذلك عمر السرور قصير، والدهر بتفريق الأحبّة بصير، وربما نَضَر[3] العود بعد الذبول، وطلع النجم بعد الأفول، وأُدِيْلَ الوصال من الفراق، وعاد العيشُ المرُّ حُلْوَ المذاق: [الطويل]

وَمَــا أنــا مــنْ أنْ يَجْـمَــعَ الــلَّه شَـمْـلَنَــا ... كــأَحْـســنِ مــا كُــنَّــا عــلــيــه بــآيِسِ

فأمَّا الآن فلا أزَجِّي الوقت إلَّا بقلب شديد الاضطراب، وجوانح لا تفيق من التوقّد والالتهاب، وكيف لا وحالي حالُ مَنْ وَدَّعَ صَفْوَ الحياة يوم وَدَاعه، وانقطع عنه الأنسُ ساعة انقطاعه، وطوى الشوقُ جوانحَه على غليل، وحلَّ أضلاعه على كمد دخيل، وأغرى بي فلزمني ولزمته، وألف بيني وبين الوجد فألِفَني وألفْتُه، فلا أسلك للعزاء طريقًا إلَّا وجدْتُه مسدودًا، ولا أقصد للصبر بابًا إلَّا ألفيْتُه مردودًا، ولا أعدُّ اليوم بعد فراق سيّدي إلَّا شهرًا، والشهر دون لقائه إلَّا دَهْرًا، ولستُ بناسٍ أيامَنَا التي هي تاريخ زماني، وعنوان الأماني، إذ ماء الاجتماع عذب، وغصن الازديار[4] رطب، وأعْيُنُ الحواسد راقدة، وأسواق صروف الدهر كاسدة، فما كانت إلَّا لمحة الطَّرف، ووثبة الطِّرْف، ولمعة البرق الخاطف، وزَوْرَة

(١) نَضَوْتُ ليلي ونهاري. قطعتهما. لسان العرب (نضا).

(٢) سيرد هذا البيت في الجزء الثامن.

(٣) في طبعة دار صادر: «اهتزَّ العود».

(٤) الأزديار: الزيارة. لسان العرب (زدر).

الخيال الطائف، وما تَذَكَّرَ تلك الأيام في أكناف فضائله ونَضْرَتها، ورياض علومه في ظلّه وخضرتها، إلاّ أوجب على عينه أن تدمع، وانثنى على كبده خَشْية أن تَصَدَّع[1]، ثم لَمَّا ورد على عبدكم مكتوبكم الكريم، صحبة حضرة العمّ المحبّ القديم، فكان كالعافية للصبّ السقيم، كما يشهد بذلك السميع العليم، فوقف له منتصبا، وخفّف عنه برؤيته وَصَبًا[2] وذكر أيام الجمع فهام وَجْدًا بها وصَبَا[3]، فاستخفّه الإعجاب طربا، وشاهد صدوره فقال: هكذا تكون الرياض، وعاين لطفه فقال: هكذا تكون الصَّبا، وقبَّل كل حرف منه ووضعه على الراس، وحصل له بعد ترقّبه غايةُ المجاورة والاستئناس، فعند ذلك أنشد قول بعض الناس: [الكامل]

وَرَدَ الكتابُ فكان عند وروده ... عِيدًا، ولكنْ هَيَّجَ الأشواقا
أَلِفاتُهُ قد عانَقَتْ صاداتِهِ ... كعِناقِ مُشْتاقٍ يخافُ فراقا
فكأنما النُّوناتُ فيه أَهِلَّةٌ ... وكأنما صاداتُهُ أَحْداقا
فعسى الإلهُ كما قضى بفراقنا ... يَقْضِي لنا يومًا بأنْ نَتَلاقى

فجعلته نصب عيني أتسلّى به عند استيلاء الشوق على قلبي، وأطفىء بتأمّله نيران وجدي إذا التهبت في صدري، وسُرِرْتُ به سرور مَنْ وَجَدَ ضالّةَ عمره، وأدركَ جميع أمانيه من دهره، وأنِسْتُ بتصفّحه أنسَ الرياض بانهلال القطر، والساري بطلوع البدر، والمسافر بتعريسة[4] الفجر، وكيف لا وقد أصبح في وجه الأماني خدّا، بل في خدّها وردا، وصار حسنة من حسنات دهري، لا يمحو مرور الأيام موضعها من صدري، وطلعت طوالع السرور وكانت آفلة، واهتزّت غصون الفرح وكانت ذابلة، لا سيما لما تضمّن من البشارة السارّة بصحّة المولى وسلامته، وحلوله في منازل عزّه وكرامته، وموعده الكريم بعَوْدِهِ إلى دمشق الشام، كساها ثوب الفخام[5] مرة ثانية، ويتمّ افتخارها على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهية،

---

(١) يشير هنا إلى قول يزيد بن الطثرية، وقيل للصمّة بن عبد الله القشيري: [الطويل]
وأذكر أيامَ الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أنْ تقطَّعا
وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٣٧١). ويروى: أنْ تصدّعا.

(٢) الوَصَبُ، بالفتح: التعب. لسان العرب (وصب).

(٣) صَبَا: عشق. لسان العرب (صبا).

(٤) في طبعة دار صادر: «بتعريس».

(٥) في الطبعة نفسها: «سقاها صوب الغمام».

نسأل اللّه تعالى أن يحقّق ذلك، وأن يسلك بسيدي أحسن المسالك، إنه سبحانه وتعالى سامع الأصوات، ومجيبُ الدعوات، فإنَّ عَوْدَكم يا سيّدي واللّه مرّة أخرى هو الحياة الشهيّة، والأمنية التي ترتجي النفسُ بلوغَها قبل المنيّة، وما أنا من اللّه بآيس من أن يتيح سببًا، يعيد المزار مقتربًا، والشمل مجتمعًا، وحبلَ البَين منقطعًا. ثم ليعرض على مسامع سيّدي الكريمة، لا زالت من كل سوء سليمة، أنّا أوصلْنا مكاتيبكم كما أمرتم لأربابها، لا سيما مكتوب شيخ الإسلام سيدي عبد الرحمن أفندي المفتي بالشام، ومكتوب المولى الأعظم، والهمام الأفخم، أحمد أفندي الشاهيني، أعزّه اللّه تعالى! فإنه وقع عنده الموقع العظيم، وحصل له به السرور المقيم، كما يدلّ على ذلك جوابه الكريم، المحفوف بالتعظيم والتكريم، غير أنه قد ساءنا ما اتّصل بمولانا من نفوذ قضاء اللّه تعالى الذي يعمّ، في البنت والأم، فجعل اللّه تعالى في عمر سيدي البركة! وكان له في السكون والحركة! وماذا عسى أن يُذْكر لجنابكم في أمر التعزية ويقرَّر، ومنكم يستفاد مثله وعنكم يُحَرَّر[1]، والأستاذ أدرى بصروف الدهر وتفنّنها، وأحوال الزمان وتلوّنها، وأعرف بأنَّ الدنيا دار لها بسكانها مَدَار، وأنَّ الحياة ثوب مستعار، ونعيم الدنيا وبؤسها ما لواحد منهما فيها قَرَار، وأنَّ لكل طالع أفولاً، ولكل ناضر ذبولاً، ووراء كل ضياء ظلامًا، ولكل عروة من عُرَا الدنيا انفصامًا، فهو محلٌّ لأن يقوى في العزاء عزائمه، ويصغر في عينه نوائبُ الدهر وعظائمه، ويغنيه عن عِظَة تجد له مقالاً، وتحلُّ عن عقله عِقالاً، وهو يتلقّى المصائب، بفكر ثاقب، وفهم صائب، وصبر يقصر عنه الطَّوْد الأشمّ، وعزم ينفلق دونه الصخر الأصمّ، وحلم يَرْجَحُ إذا طاشت الأحلام، وقَدَمٍ تثبُت إذا زلَّت الأقدام، ومدّ المقال في ضرب الأمثال، إلى جنابكم الشريف نوعٌ من تجاوز حدّ الإجلال، وأنا أسأل اللّه تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمة، ولا يُريه بعدها إلَّا دولة قائمة ونعمة دائمة، وأن يحرسه من غِيَر[2] الليل والنهار، ويجعله وارث الأعمار بجاه نبيّنا محمد المختار، صلَّى اللّه عليه وسلَّم وعلى آله وصحبه الأطهار، بمنّه وكرمه. ثم أبلغ سيدي ـ أطال اللّه عمره، وشرح صدره، ونشر بالخير ذكره! ـ السلامَ التامّ، المقرون بألف تحيّة وإكرام، من أهل البلدة جميعًا، لا سيما مِنْ مفتيها العِمَادي، حرس اللّه ذاته التي هي منهل للصادي والغادي، وأولاده الكرام، المستحقّين

---

(١) في طبعة ليدن: «يستفاد مثله ويحرر. . ».

(٢) غِيَرُ الليل والنهار: أحداثهما المتغيّرة. لسان العرب (غير).

للإعزاز والإكرام، ومن كبيرها، ومدبِّرها ومشيرها، أحمد أفندي الشاهيني، أعزّه اللّٰه تعالى بعزّه، وجعله تحت كَنَفه وحِرْزه! ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسي، ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين، وجميع المحبّين الداعين لذلكم الجناب، والمتمسّكين بتُرَاب تلكم الأعتاب، ومن الوالد والعمّ، واللّٰه يا سيدي إنه ناشرٌ لواءَ الثناء والمحامد، وداعٍ لذلك الجناب الكاسب للمفاخر والمحامد، وحضرة شيخنا شيخ الإسلام، وبركة الشام، مولانا وسيّدنا الشيخ عمر القاري، أبقى اللّٰه تعالى وُجُوده! وضاعف علينا إحسانه وَجُوده! وأولاده يسلّمون عليكم السلام الوافر، وينهون لكم الشوق المتكاثر، وحُرِّر في ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨، المحبّ الداعي يحيىٰ المحاسني، انتهى.

وكتب إليَّ عمُّه الفاضل الأسمى ما صورته: باسمه سبحانه وتعالى: [الطويل]

وإنّي لَمُشْتاقٌ إلى وَجْهِك الذي ... تَهَلُّلُه أهدى السناء إلى البَدْرِ[1]
وأخلاقك الغرّ اللواتي كأنها ... تساقط أنداء الغَمَام على الزَّهْرِ

سيدي الذي عُبُوديتي إليه مَصْروفة، ودواعي محبّتي لديه موفورة وعليه موقوفة، علم اللّٰه سبحانه أنني لا أزجِّي أوقاتي إلاّ بذكراه، ولا أُرجِّي اليمنَ من ساعاتي إلاّ باستنشاق نسيم رَيَّاه، وأنني إلى طلعته أَشْوَقُ من الصادي إلى ماء صَدّاء[2]، ومن كثير عزّة إلى نوء تيماء: [الوافر]

يُرَنّحني إليك الشوقُ حَتَّى ... أميلَ من اليمين إلى الشمالِ
ويأخذني لذكراك اهْتِزَازٌ ... كما نشط الأسيرُ من العِقَال

ولي على صدق هذه الدعوى من نَبَاهة لُبّه شاهدٌ مُعَدَّل، ومن نزاهة قلبه مُزَكٍّ غير ملوم ولا مُعَذّل، كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه، وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه، وهو بحر العلم الذي لا يُقْتَحَمُ بسفن الأفكار، وجَبَل الحلم الذي رسخ بالهيبة والوقار: [الطويل]

لو اقْتَسَمَتْ أخلاقه الغرّ لم تجدْ ... مَعِيبًا ولا خلْقًا من الناس عائبا

(١) تَهَلُّلُهُ: طلاقته وبِشْره. السناء: أصله السنا، وقد مدّه للضرورة الشعرية، ومعناه النور والضياء. لسان العرب (هلل) و(سنا).

(٢) صَدّاء وصَدَاء: ركيّة لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها، والرَّكِيَّةُ هي البئر ذات الماء، ومنه المثل: «ماء ولا كَصَدّاء». لسان العرب (صدد) ومجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٧٧).

ومـاذا عسى أصف به مـولانا وقـد عجز عن وصفـه لسان كـلٍّ واصف، وحـار في بثّ فضائله أرباب المعارف والعوارف: [المجتث]

فـلو نَـظَمْـتُ الـثـرَيَّـا والـشِّـعْـرَيَيْنِ قَـرِيضَـا
وكـاهـلَ الأرض ضَـرْبًـا وشَعْبَ رَضْـوَى عَـرُوضَـا
وَصَـفْـتُ لـلدُّرِّ ضـدًّا ولـلـهـواء نـقـيـضـا

ولكنني أقـول: الثناء منجـح أنَّى سلك، والسخيُّ جُوْدُه بمـا ملك، وإن لم يكن خمرٌ فخلٌّ[١]، وإن لم يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ[٢]، هذا، وقد أوصلْنا مكاتيبَكم الشريفة لأربابها، فكانت لديهم أكرم قادم، وأشرف منادم، وقد تَدَاوَلَها الأفاضلُ وشهـدوا أنها من بنـات الأفكار، التي لم يكشف عنها لغير سيدي حُجُب الاستتار، وقد وَجَدْنا كُلًّا منهم ملتهبًـا بجمرات الشـوق، متجاوزًا حدّ الصبابة والتَّوْق، ليس لهم شغل إلَّا ذكـر أوصافكم الحميـدة، وبَثّ ما أبـديتموه بدروسكم المفيدة، وما منهم إلَّا ويرجو بَلَّ الصَّدَى ونَقْع الظَّمَا برؤية ذلـك المُحَيَّا، والتملِّي بتلك الطلعة العليا، وإن سأل سيدي عن أخبار دمشق المحروسة، دامتْ ربوعها المـأنوسـة، فهي ولله الحمد منتظمة الأحوال، أمنها اللّه من الشرور والأهوال، ولـم يتجدّد من الأخبـار ما نُعْلم به ذلكم الجناب، لا زال ملحـوظًا بعين عنـاية ربِّ الأربـاب، وأنا أسـأل اللّه تعالى أن يصون جوهرَ تلك الذّات من عوارض الحدثـان، وأن يحمي تلك الحضرة العليّـة من طوارق حكم الدوران[٣]: [البسيط]

آمـين آمـيـن لا أرْضَـى بـواحِـدَةٍ حتى أُضِـيفَ إلـيهـا ألـفَ آمـينـا

وهذا دعاء للبريّة شـامل[٤] ـ العبـد الداعي، بجميـع البواعث والـدواعي، تاج الـدين المحاسني، عفا اللّه تعالى عنه! انتهى.

وبالهامش مـا صورتـهُ: وكاتب الأحـرف العبد الـداعي محمد المحـاسني يُقَبِّلُ يَـدَكم الشريفة، ويخصّكم بالسلام الوافر، ويبثُّ لديكم الشوق المتكاثر، غيـر أنه قـد نازعتْـه نفسُه

---

(١) مثل يضرب للاكتفاء بالقليل إذا لم يوجد الكثير. لسان العرب (خلل).

(٢) هذا القول مأخوذ من قول اللّه تعالى: ﴿ فإنْ لم يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٢٦٥.

(٣) تقدّم هذا البيت في الجزء الأول.

(٤) هذه الجملة عجز بيت هو: [الطويل]

بَقِيْتَ بقـاء الـدَّهْـر يـا كَـهْفَ أهـلِهِ وهـذا دعـاءٌ لـلبـريّـة شـامـلُ

في ترك المعاتبة، لسيّده الذي لم يُسْعِد عبدَه منه بالمكاتبة، على أنها مكاتبة تُحْكِم عقدَ العبودية، ولا تخرج رقَبَته من طوق الرقِّيَةِ، والمطلوب أن يخصّه سيّدُه وشيخُه بدعواته المستطابة، التي لا شكَّ أنها مستجابة، كما هو في سائر أوقاته، وحسبان ساعاته، ودمتمْ، وحرِّرَ في رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨، انتهى.

وكتب سيدي التاج المذكور لي ضمن رسالة من بعض الأصحاب ما صورته: [المجتث]

يا فاضلَ العصرِ يا مَنْ   لِلشَّرْق والغرب شَرَّفْ
يا أحْمَدَ الناس طُرًّا   في كلِّ ما يتصرَّفْ
يُهْدِي إليكَ مُحِبٌّ   دُمُوعُهُ تَتَذَرَّفْ
شوقًا وودًّا قديمًا   مُنَكَّرًا يَتَعَرَّفْ

ولنختم مخاطبات أهل دمشق لي بما كتبه لي أوحد الموالي الكرام[1]، السريّ، عين الأعيان، صدر أرباب البلاغة والبيان، مولانا أحمد الشاهيني السابق الذكر في هذا التأليف مرّات، ضاعف اللّه تعالى لديه أنواع المبرّات والمسرّات، آمين، ليكون مِسْكًا للختام، إذ محاسنُه ليس بها خفاء ولا لها اكتتام[2]، ونصُّ محلِّ الحاجة منه هو الفياض: [السريع]

يا سيدًا أَحْرَزَ خَصْلَ العُلاَ   بالبأس والرأي السَّديد الشَّديدْ[3]
ومَنْ على أهل النُّهَى قد عَلاَ   بطَبْعِه السامي المجيد المجيدْ
ومن يَزِينُ الدهرَ منه حلى   قولٍ نظيمٍ كالفريدِ النَّضيدْ
ومن صَدَا فكري منه جَلاَ   نَظْمٌ له القَلْبُ عميدٌ حميدْ
ومَنْ له من يومَ قالوا «بلى»[4]   في مهجتي حُبٌّ جديدٌ مزيدْ
ومَنْ غدا بَيْنَ جميع المَلاَ   بالعلم والحلم الوحيد الفريدْ
أفديك بالنفس مَعَ الأهل لا   بالمالِ، والمالُ عَتِيدٌ عديدْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «الموالي الكبراء».

(٢) في الطبعة نفسها: «انكتام».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «والرأي الشديد السديد».

(٤) يشير هنا إلى الوقت الذي أخذ اللّه العهدَ على ذرّيّة آدم فقال لهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. سورة الأعراف ٧، الآية ١٧٢.

أُقسم باللَّه الذي عَلَتْ كلمته، وعَمَّتْ رحمته، وسحَرتِ القلوبَ والعقولَ رأفتُه ومحبّتُه، وجعل الأرواحِ جنودًا مُجَنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، أنني أَشْوَقُ إلى تقبيل أقدام شيخي من الظمآن للماء، ومن الساري لطلعة ذُكاء[1]، وليس تقبيل الأقدام، ممّا يدفع عن المشوق الأُوام[2]، وقد كانت الحال هذه وليس بيني وبينه حاجز إلّا الجِدار، إذ كان حفظه اللَّه تعالى جارَ الدار، فكيف الآن بالغرام، وهو حفظه اللَّه تعالى بمصر وأنا بالشام، وليس غيبة مولانا الأستاذ عَنَّا، إلَّا غيبة العافية عن الجسم المضني، بل غيبة الروح، عن الجسد البالي المطروح، ولا العيشة بعد فراقه، وهجر أحبابه ورفاقه، إلَّا ـ كما قال بديع الزمان ـ عيشة الحوت في البَرِّ، والثلج في الحرّ، وليس الشوق إليه بشوق، وإنما هو العظم الكسير، والنزع العسير، والسمّ يسري ويسير، وليس الصبر عنه بصبر، وإنما هو الصاب[3] والمصاب، والكبد في يد القصّاب، والنفس رهينة الأوصاب[4]، والحين الحائن وأين يصاب، ولا أعرف كيف أصفُ شَرَف الوقت الذي وَرَد فيه كتابُ شيخي بخطِّه، مزيّنًا بضبطه، بلى، قد كان شرف عُطارد، حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندي كل شارد، وأمّا خطّه فكما قال الصاحب ابن عباد: أهذا خطّ قابوس، أم جناح الطاووس؟ أو كما قال أبو الطيب[5]: [الكامل]

مِنْ[6] خَطِّهِ في كلِّ قلبٍ شَهْوَةٌ حتى كأنَّ مِدادَهُ الأهواءُ

وأنا أقول ما هو أبدع وأبرع، وفي هذا الباب أنفع وأجمع: بل هو خطّ الأمان من الزمان، والبراءة من طوارق الحدثان، والحرز الحريز، والكلام الحر الإبريز، والجوهر النفيس العزيز، وأمّا الكتاب نفسه فقد حسدني عليه إخواني، واستبشر به أهلي وخِلّاني، وكان تقبيلي لأماليه، أكثر من نظري فيه، شوقًا إلى تقبيل يد وَشَّتْهُ وحَشَّتْه[7]، واعتيادًا للثم

---

(1) ذُكاء، بضم الذال: اسم للشمس. محيط المحيط (ذكا).

(2) الأُوام، بضم الهمزة: حَرُّ العطش. مختار الصحاح (أوم).

(3) الصاب: عصارة شجر مرّ. مختار الصحاح (صوب).

(4) الأوصاب: جمع وَصَب وهو المرض. مختار الصحاح (وصب).

(5) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ١٢٤).

(6) في المصدر نفسه: «في خطّه من كلٍّ..».

(7) حَشَّتْهُ: أراد أنها كتبت حواشيه.

أنامل جسَّتْه ومَسَّتْه، وأمَّا اليراعة، فلا شكّ أنها ينبوع البراعة، حتى جرى من سحر البلاغة منها ما جرى: [المتقارب]

فجـاء الكتـابُ كسحـرِ العيـونِ بـمـا راحَ يسبي عـقـولَ الـوَرَى

ويُنَادي بإحراز خَصْل السبق(١) من الثريا إلى الثرى، ولم أرَ كتابًا قبلُ تكونُ محاسنُه متداخلة مترادفة، ولطائفُه وبدائعُه متضاعفة متراصفة، وذلك لأنه سرد من غرر درره الأحاسن، وورد على يد رأس أحبابنا تاج بني محاسن: [الطويل]

أولئـك قـومٌ أحـرزوا الـحُسْـنَ كُـلَّه فـمـا منهـمُ إلَّا فـتًى فـاقَ فـي الحُسْنِ

وكما قلت فيهم أيضًا: [مجزوء الكامل]

فـبنـو الـمحـاسـنِ بَـينَـنـا كبني المُنَجِّم في النَّجـابَـهْ
فـهُـمُ الـقـرابـةُ إن عـدمْـ ـتَ من الأنـام هـوى القـرابَهْ
فـيـهـمْ محـاسِـنُ جَـمَّـةٌ منهـا الخـطابـةُ والكتـابَـهْ

ثم لم يكتف سيدي وشيخي بما أنعم به، وأحسن بكتبه، من كتابه المزين بخطّه، المبين بضبطه، المسمّى بين أهل الوفاء، بكتاب الأصفياء(٢)، حتى أضاف إليه كتاب الشفاء، في بديع الاكتفاء، كأنه لم يَرْضَ طبعه الشريف المفرد المستثنى، إلَّا أن تكون حسناته لدى أحبابه مَثْنَى مَثْنَى، حتى كأنّ مراده بتضعيف هذا الإكرام والإحسان، تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان وعقد اللسان، إذ لست ذا لسانين، حتى أُؤدِّي شكر إحسانين، وغايةُ البليغ في هذا المضمار الخطير، أنْ يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير.

ومن فصول هذا الكتاب ما نصُّه: ومن باب إدخال السرور على سيدي وشيخي وبركتي خبر المدرسة الداخلية التي تصدّى لها ذلك المولى العظيم، والسيّد الحكيم، صدرُ الموالي، ورَوْنَقُ الأيام والليالي، سيدي وسندي، وعمادي ومعتمدي، الفهّامة شيخي

---

(١) في طبعة دار صادر: «خَصْلِ سحرِ البيان من..».
(٢) في طبعة بولاق: «بكتاب الاكتفاء والاصطفاء».

أفندي، المعروف بالعلامة، حفظه اللّه، ووقاه وأبقاه! الذي صدق عليه وعليّ قول الأول: [المنسرح]

ولي صديقٌ ما مَسَّنِي عَدَمٌ ... مذ وَقَعَتْ عَيْنُهُ على عَدَمي
أغنى وأَقْنَى[1] فما يُكَلِّفني ... تقبيلَ كفٍّ له ولا قَدَمِ
قام بأمري لما قَعَدْتُ به ... ونمت عن حاجتي ولم ينم

وقول الثاني: [مجزوء الوافر]

صديقٌ لي له أدبٌ ... صداقةُ مِثْلِهِ نَسَبُ
رَعَى لي فوق ما يُرْعَى ... وأوجَبَ فوق ما يجبُ
فلو نُقِدَتْ خلائقُهُ ... لَبَهْرَجَ عندها الذهبُ[2]

ولعمري إنه كذلك قد تصدَّى لحاجتي فقَضَاها، ولحجّتي فأمضاها، ولم يكن لي في الروم سواه وسواها، وما أصنع بالروم، إذا تخلّف عني ما أروم، أبى اللّه إلاَّ أن ينفعني ذلك الحرُّ الكريم بنهيه وأمره، وأن يكون بياني وبناني مرتبطين بحمده وشكره، وهذه حاجة في نفسي قضيتُها، وأمنيةٌ رضيتُ بها وأرضيتها، وللّه الحمد. ولست أُحْصي، ولا أستقصي، يا سيّدي ومولاي، شَوْقَ أخيكم سيدي ومولاي المفتي العمادي، حفظه اللّه تعالى وإياكم! وقد بلغ به شوقه وغرامه، وتعطّشه وهُيامه[3] وأُوامه، أن أفرد لجناب مولانا كتابًا، يستجلب مفخرًا وجوابًا، إذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام، وكذلك أولاده الكرام، تلامذتكم يُقَبِّلُونَ الأقدام. وأما مُحِبّكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الإسلام مولانا عمر القاري فقد بلغته سلامَ سيدي، فكان جوابه الدعاء والثناء، مع العزيمة عليَّ بأن أبالغ لجنابكم الكريم في تأدية سلامه، وتبليغ ما يتضمّنه من المحبّة الخالصة فصيح كلامه. وأما الكريمّيان[4] ولدكم محمد أفندي وأخوه سيدي أكمل الدين، فهما لتقبيل أقدامكم من المستعدين. وكذلك لا أُحصي ما هما عليه من الدعاء والثناء لجنابكم الكريم العالي، تلميذاكم بل عبداكم ولدنا الشيخ يحيىٰ ابن سيدي أبي الصفاء، وولدنا الشيخ محمد ابن

---

(١) أَقْنَى: أعطى. مختار الصحاح (قنا).
(٢) نُقِدَتْ خلائقُه: اخْتُبِرَتْ. بَهْرَجَ الذهبُ: ظهر زيفه وفساده. لسان العرب (نقد) و (بهرج).
(٣) كلمة «وهُيامُه» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٤) في طبعة بولاق: «الكريمان».

سيدي تاج الدين المحاسنيان. وأمّا عبداكم وتلميذاكم ولداي الشيخان الداعيان الأخَوان الشيخ عبد السلام والقاضي نعمان، فليس لهما وظيفة إلاَّ الدعاء والثناء، في كل صبح ومساء؛ لأن كلاًّ منهما خليفتي، والاشتغال بالدعاء لسيدي وظيفتي، ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين، ولا بُدَّ من تقبيل القدمين المباركتين. وبعد، فلا ينقضي عجبي من بلاغة كتابكم الشريف الوارد لجناب أخيكم المفتي العمادي حفظكم اللّٰه تعالى وإيّاه! ولا كان مَنْ يَشْنَاك ويَشْناه[1]! وعجبه به أعظم وأكبر، إذ هو - حفظه اللّٰه! - بفهم كلام سيدي أحقُّ وأجدر، فلا عدمنا تلك الأنفاس الملكيّة الفلكيّة، من كل منكما إذ هي واللّٰه البغية والأمنيّة، كما قلت: [الخفيف]

ليس فخري ولا اعتدادي بدهرٍ ... غير دهر أراكُما مِنْ بَنِيهِ

اللهم اختم هذا الكلام، للقبول التامّ، بالصلاة على سيّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين!.

ومن فصول هذا الكتاب ما صورته: أطال اللّٰه يا سيدي بقاءك! ولا كان من يكره لقاءك! ورعاك بعين عنايته ووقاك! وأدامك وأبقاك! وضمن لك جزاء الصبر! وعوّضك عن مصابك [illegible]ير والأجر! ولقد كنتُ عَزَمْتُ على أن أجعل في مصاب سيدي بأمِّه، مَتَّعه اللّٰهُ بعمره وعلمه! ودفع عنه سَوْرَةَ همِّه وغمِّه! قصيدة تكون مرثية، تتضمّن تعزية وتسلية، فنظرْتُ في مرثية أبي الطيب المتنبي لأمِّه، واكتفيْتُ بنظمها ونثرها، وعقدها وحلّها، وانتخبْتُ قوله منها[2]: [الطويل]

لَكِ اللّٰه مِنْ مَفْجُوعةٍ بحبيبها ... قتيلةِ شَوْقٍ غيرِ مكسبها[3] وَصْمَا

ومنها:

ولو لم تكوني بنتَ أكرم والدٍ ... لكان أباك الضخمَ كَوْنُكِ لي أُمَّا

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشامِتِينَ بيومِها ... لقد وَلَدَتْ مني لآنفهمْ رَغْمَا

---

(١) يَشْناك: يكرهك ويبغضك، وأصله مهموز، ويجوز تخفيف الهمز.

(٢) البيت والبيتان التاليان في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ١٧٥، ١٧٨).

(٣) في المصدر نفسه: «مُلْحِقِها وَصْمَا».

فقلت: هذه حال مولانا الراغم لأنوف الأعدا، المجدّد لأسلافه حَمْدًا ومَجْدا، القاتل بشوقه لا خطأً ولا عَمْدا، ثم إني لمَّا رأيتُ قوله في مرثية أخت سيف الدولة[1]: [الخفيف]

إن يكنْ صَبْرُ ذي الرزيّة فَضْلاَ ... تكُنِ الأفْضَلَ الأَعَزَّ الأجَلَّا

أنت يا فوقَ أنْ تُعَزَّى عن الأحـ ... ـباب فوق الذي يُعَزِّيكَ عَقْلاَ

وبألفاظكَ اهْتَدَى فإذا عَزَّا ... كَ قال الذي له قُلْتَ قَبْلا

قد بَلَوْتَ الخُطوبَ حُلْوًا ومُرًّا[2] ... وسَلَكْتَ الأيامَ حَزْنًا وسَهْلا

وقتلْتَ الزمانَ علمًا فما يُغْـ ... ـرِبُ قولاً[3] وما يُجَدِّد فِعْلا

قلت: هذه والله حِلَى مولانا الأستاذ الذي عرف للزمان فعله، وفهم قوله، قد استعارها أبو الطيّب وحَلّى بها مخدومه سيف الدولة، وكيف أستطيع إرشاد شيخي لطريق الصبر، وأُذَكِّره بالثواب والأجر، وكيف وأنا الذي اسْتَقَيْتُ مِنْ دِيَمِهِ[4]، واهتديْتُ إلى سبيل المعروف بشِيَمه، وسلكْتُ جادة البراعة بهداية ألفاظه، وارتقيْتُ إلى سماء البلاغة برعاية ألحاظه، وهل يكون التلميذ معلّمًا، وهل يرشد الفرخ قَشْعَمًا[5]، وكيف يعضد الشبلُ الأسد، وهو ضعيف المُنَّة والمدد، ومن يعلِّم الثغرَ الابتسام، والصَّدْرَ الالتزام، ويختبر الحسام، وهو مجرّب صَمْصَام، وهل تفتقر الشمس في الهداية إلى مصباح؟ وهل يحتاج البدر في سُرَاه إلى دلالة الصباح؟ ذلك مثل شيخي ومثل من يرشده إلى فَلَاح أو نجاح، وإنما نأخذ عنه ما ورد في ذلك من الكتاب والسّنّة، ونحذو حذوه في الطريق الموصِّلة إلى الجنّة، ثم لَمَّا وصلت في هذه القصيدة إلى قول أبي الطيب[6]: [الخفيف]

إنَّ خَيْرَ الدموعِ عَيْنًا[7] لَدَمْعٌ ... بَعَثَتْهُ رعايةٌ فاسْتَهَلَّا

---

(١) الأبيات في المصدر السابق (ص ٤٢٧).

(٢) في الديوان: «مُرًّا وحُلْوًا».

(٣) في المصدر نفسه: «ولا يجدّد».

(٤) الدِّيَمُ: جمع دِيْمة وهي السحابة الممطرة. لسان العرب (ديم).

(٥) القَشْعَمُ: المُسِنُّ من النُّسور والرجال. مختار الصحاح (قشعم).

(٦) البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٢٨).

(٧) في المصدر نفسه: «عَوْنًا».

رأيته قد أبدع فيه كلَّ الإبداع، ونظم ما كاد[1] يجري الدمع من طريق السماع، فقلت: إنّا لله! وأكثرْتُ الاسترجاع[2]، وقلت في نفسي: إنّ ذلك الدمع الذي بعثته رعاية الحقوق، هو دمع شيخي الذي حمى الله قلبه الشفوق من العقوق، للمصيبة في الأمّ، التي حزنُها يغمّ، ومصابُها يعمّ، وكيف لا يعمّنا مصابها، وقد كمل للمصيبة كفاها الله بموتها نصابها، هذا مع الفقد للسليلة[3] الجليلة، والكريمة الخليلة وأي دمع لم تبعثه تلك الرعاية؟ وأي نفس لا تتمنّى أن تكون لسيّدنا مِنْ كلِّ ما يكره وقاية؟ وأي كبد قاسية، لم تكن لأحبابها مُوَاسية؟ وأنّى يَتَسَنّى، للعبد المُعَنّى، تسلية شيخه وهو الصبور الشكور، العارف بالأمور، العالم بتصاريف الدهور؟ وما ظننْتُ أن بَنَاني، يساعدني على تحرير بياني، لتعزية شيخي، حفظه الله تعالى، في أصله وفَرْعِه، وضَرْعه وزَرْعه، وفرعه ونبته، وأمّه وبنته، أما الوالدة الماجدة فإني إنْ أمسكْتُ عن بيان كرم أصلها، يسمو بها كرم فرعها ونسلها، فرحم الله تعالى سَلَفَهَا، وأبقى خَلَفَهَا، ولا حرم سيدي ثمرة رضاها، ورضي عنها وأرضاها! وأمّا المخدَّرة[4] الصغيرة، فالمصيبة بها[5] كبيرة، إذ العمومة مَقّرِية، والخؤولة وَفَائية، فهي ذات النِّجارَيْن[6]، وحائزة الفخارين، كأنّ سيدي ـ أعزّه الله تعالى! ـ لم يَرْضَ لها كفوًا ومهرًا، فاختار القَبْرَ أن يكون له صِهْرًا، وخِطْبة الحِمام لا يمكن ردّها، وسطوة الأيام لا يستطاع صدّها، كما قال أبو الطيب المتنبي أيضًا[7]: [الخفيف]

خِطْبَةٌ لِلحِمامِ لَيسَ لَها رَدٌّ ... وإن كانَتِ المُسَمَّاةَ ثُكْلا

وإذا لَم تَجِدْ مِنَ النّاسِ كُفوًا ... ذاتُ خِدْرٍ أرادتِ المَوتَ بَعْلا

أسأل الله تعالى أن تكون هذه الخِطْبة قافيةَ الخطوب، وهذا النَّدَبُ[8] المبرِّحُ آخِرَ الندوب، وأن يعوّض سيدي عن حبيبه المبرقع المُقَنّع، حبيبًا مُعَمّمًا تتحرّى النجابة منه

---

(١) في طبعة دار صادر: «ما يكاد».

(٢) الاسترجاع: هو قول الله تعالى: ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٥٦.

(٣) السليلة: أراد ابنته.

(٤) المخدّرة: الباقية في الخدر. لسان العرب (خدر).

(٥) في طبعة دار صادر: «فيها».

(٦) النِّجار: الأصل. لسان العرب (نجر).

(٧) البيتان في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٣٠).

(٨) النَّدَبُ، بالفتح: أثر الجرح، جمعه ندوب. محيط المحيط (ندب).

المصنع، وأن يبدله عن ذات الخمار والخضاب، بمن يَصُولُ بالحِراب، ويسطو باليراع ويشتغل بالكتاب[1]: [الوافر]

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عَيبٌ ... ولا التذكيرُ فَخْرٌ للهلالِ

ولو كان النساء كَمَنْ فَقَدْنا ... لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجالِ

اللهمَّ يا أرحم الراحمين، إني أتوسَّل إليك بنبيِّك محمد ﷺ وآله الطيبين الطاهرين، أن تأخذ بيد عبدك شيخي المقّريِّ في كلِّ وقت وحين، آمين.

ومن فصول هذا الكتاب ما صورته: ولَمَّا وصلني سيدي بهديته التي أحسن بها من كتاب الاكتفاء، داخَلَ طبعي الصفاء، ونشطت إلى نظم بيتين فيهما التزام عجيب لم أَرَ مثله، وهو أن يكون اللفظُ المكتفى به بمعنى اللفظ المكتفى منه، فإنَّ الاحتفاء والاحتفال بمعنى الاعتناء، كما أفاده شيخي، فيكون على هذا الاكتفاء وعدمه على حدّ سواء، إذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لأغنى عنه لفظ الاحتفاء، مع تسمية النوع فيهما، وهما: [السريع]

إنَّ احتفالَ المَرْءِ بالمرءِ لا ... أحِبُّهُ إلَّا مَعَ الاكتفا

مبالَغاتُ الناسِ مذمومةٌ ... فاسْلُكْ سبيلَ القَصْدِ في الاحتفا

وقد انقطع الثلج أيام الخريف، وكانت الحاجة إليه شديدة بعد غيبة سيدي حفظه اللّٰه تعالى عن دمشق، فتذكَّرْتُ شغف شيخي به، فزاد على فقده غرامي، وفاض عليه تعطّشي وأُوَامي[2]، فجعلت في ذلك عدة مقاطيع، وأحببت عرضها على سيدي، أوّلها: [الخفيف]

ثلجُ، يا ثلجُ، يا عظيمَ الصفاتِ ... أنتَ عندي من أعظم الحسناتِ

ما بياضٌ بَدَا بوجهك إلَّا ... كبياضٍ بَدَا بوجهِ الحياةِ

ثانيها: [الرجز]

قد قلتُ لَمَّا ضَلَّ عنِّي رشدي ... وما رأيتُ الثلجَ يومًا عندي

لا تقطعِ اللهمَّ عن ذا العبدِ ... أعظمَ أسبابِ الثنا والحَمْدِ

---

(١) البيتان للمتنبي، وهما في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢٧٤) من قصيدة رثاء والدة سيف الدولة، وسيرد البيت الأول في الجزء السادس، والبيت الثاني ساقط من طبعة دار صادر.

(٢) الأُوام، بضم الهمزة: حَرُّ العطش. مختار الصحاح (أوم).

ثـالثـها: [الخفيف]

ثـلجُ، يـا ثلج، أنـتَ مـاءُ الـحيـاةِ ... ضَـلَّ مَنْ قـال ضَـرٌّ ذاكَ لَهـاتـي[1]

مـا بـيـاضٌ بَـدَا بـوجْـهِـك إلَّا ... كـبـيـاضٍ قـد لاحَ فـي الـمِـرآة

قـد رأى النـاسُ وَجْهَهُمْ في الْمَـرَايَا ... وأنـا فيـكَ شِمْـتُ وَجْـهَ حيـاتـي

وما عللتُ سيدي هذا التعليل، إلاَّ لأشوقه إلى نسيم دمشقَ الـذي خلَّفه سيـدي حفظه اللَّه عليـلاً، وهو على الصحّـة غير عليـل، ولم يُشْفِ أعزّه اللَّه تعـالى منه الغليـل، ولسيدي الدعاء بطول البقاء والارتقاء، وهذه أبيات أَحْدَثَها العبدُ في وصف القهوة، طالبًا من سيِّده أن يغفر خطأه فيها وسَهْوه: [الرجز]

وقَـهْـوَةٍ كـالـعَـنْـبَـر الـسـحـيـقِ ... سَـوْدَاءَ مـثـلِ مُقْـلَةِ المـعشـوقِ

أتـتْ كـمـسـكٍ فـائـحٍ فَـتِـيـقِ ... شَبَّهْتُهـا في الـطعمِ بـالـرَّحـيق

تُـدْني الصديقَ من هـوى الصـديق ... وتـربطُ الـودَّ مـع الـرفـيـقِ

فـلا عَـدِمْتُ مَـزْجَهَـا بـرِيقِ

وما زلتُ الهجُ بما أَفَادَنِيهِ شيخي من أماليه، وأتصفّح الدهـر الذي جمعتـه فيه[2]، من أسافله إلى أعاليه، وأستشكل على الأحباب والأصحاب في أثناء المسامرة، ما أفادَنِيهِ سيـدي من تسميـة المرحـوم القاضي التنـوخي كتابـه «نشوار المحـاضرة» حتى ظفـرت بـأصلهـا في القاموس في مادة «نشر»، فإذا هي عربية محضة، فإنه قال: «ونَشْوَرَتِ الدابّة نِشْـوارًا: أبقت من علفها» ولقد تعجَّبْتُ من بلاغة هذه التسمية وعُذوبتها، وحُسْنِ المجاز فيها مـع سلاستهـا وسهولتها، وأحببْتُ عَرْضها على شيخي حفـظه اللَّه تعالى ليفـرح لي بين تلامـذته كمـا فرح طبعي به حفظه اللَّه تعالى بين أساتذته، وليعلم أنِّي لم أَنْسَ ما أفادنيه في خلال المحـاورة، أيـام المؤانسـة والمجـاورة، فـواللَّه إنـه سميـري، في ضميـري، وكليمي، مـا بين عـظمي وأديمي[3]: [الطويل]

يُـدِيـرُونَـنِي عـن سـالم وأُديـرهـمْ ... وجِلْدَةُ بَيْـنَ العَينِ والأنـفِ سـالمُ[4]

* * *

(١) اللَّهاة، بالفتح: اللحمة المشرفة على الحَلْق في أقصى سقف الفم. محيط المحيط (لها).

(٢) في طبعة دار صادر: «جمعته عنه».

(٣) الأديم: الجِلْد. محيط المحيط (أدم).

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، ولم يرد في ديوانه. وسالم هو ابنه وكان جميل الوجه.

لا ذَنْبَ لنا حديثنا لذَّ فطالْ	الطِّرْسُ[1] طما وما مَضَتْ قصّتنا

وحرّر يوم السبت المبارك غرّة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمانٍ وثلاثين بعد الألف، أحسن اللَّه ختامها بحرمة محمد وآله الطيّبين الطاهرين، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، والحمد للَّه وحده، عبده الفقير الحقير المشتاق، المذنب المقصّر لسيّده عن اللحاق، الذي لم يبرح عن العهد المتين، أحمد الشامي ابن شاهين، انتهى.

ولو تتبَّعْتُ ما له حفظه اللَّه تعالى من النظم والنثر، اللذين غلب فيهما بُلَغَاءَ أهل العصر، بالشام ومصر، وغيرهما من الأقطار، لا زال مقامه مقضيَّ الأوطار، لاستوعبت الأسفار، وفي الإشارات ما يُغْني عن الكلم، وقد تقدّم في خطبة هذا التأليف[2]، ذكر شيء من نظمه ونثره وأنه هو السبب الداعي إلى جمع هذا التصنيف[3]، واللَّه سبحانه يديم جنابه السريّ الشريف، ويُبَوّئه من العزِّ الظلِّ الْوَرِيف، فلقد أولى من الحقوق ما لا نؤدِّي بعضه فضلاً عن كلِّه، وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلاً على شرفه وفضله.

ورسالته هذه إليَّ كانت جوابًا عن مكتوب كتبْتُه إليه من جملته: [السريع]

في الجوِّ فاصطادَ الشريدَ الشديدْ	يا مَنْ له طائرُ صيتٍ عَلاَ
تملَّ بالعزِّ الطويلِ المديدْ	يا نجلَ شاهينَ البديعَ الحِلَى
وسِرْ بنهجٍ للمعالي سديدْ	وفُزْ بخَصْلِ السَّبْقِ بين الملا
مُنْتظمًا من الأماني البديدْ[4]	ورِدْ مع الأحبابِ عَذْبًا حَلاَ
مسرّةٍ راقتْ وعِزٍّ جديدْ	وارفلْ على طول المدى في مُلاَ
بِعُدَّةِ الخلق ولا بالعديدْ	والوالدُ المحروس باللَّه، لا

ومن نثرها: سيدي الذي في الأجياد من عَوَارفه أطْوَاق[5]، وفي البلاد من مَعَارفه ما تشد به الفِطَر[6] السليمة والأذواق، وتشتدُّ إلى مَجْده المطنب الذي لا يحطّ له رِواقٌ

(١) الطِّرْسُ: الصحيفة. لسان العرب (طرس).

(٢) في الطبعة نفسها: «هذا التأليف».

(٣) في طبعة دار صادر: «هذا التضيف».

(٤) رِدْ: فعل أمر من ورد؛ يقال: وَرَدَ الماءَ يَرِدُهُ إذا بلغه. البديد: المشتت. لسان العرب (ورد) و (بدد).

(٥) الأجياد: جمع جِيْد وهو العنق. العوارف: جمع عارفة وهي المعروف. الأطواق: جمع طَوْق وهو غلٌّ يُجْعَلُ في العنق. لسان العرب (جيد) و (عرف) و (طوق).

(٦) في طبعة دار صادر: «الفِطْرة».

الأشواق، وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الأسواق، وتنقطع دون نَـدَاه السحب السواكب، وتَقْصُر عن مَدَاه في السُّمُو الكواكب، واللّه سبحانه له واق، المولى الذي ألقت إليه البـلاغة أفلاذها، واتّخذت البراعـة طاعتـه عصمتها ومَـلاَذها، إذ بـذَّ(١) أفرادَهـا وأفذاذَهـا، وأمطرت سماء أفكاره، على كل محبٍّ أو كارِه، طائر في جـوّ أو مستقرّ في أوكـاره، صَيِّبها ورذاذهـا، وفاخرت دمشقُ بعُلاه وحلاه أقطارَ البسيطة وبغذاذها(٢).

ومنهـا: أبقاه اللّه تعـالى وحقيقـة وعـوده ينمّقهـا النجـاز، وحقيقـة سعـوده لا يـطرقهـا المجاز.

ومنها: فأنت الذي نَفّسْتَ عنِّي مُخَنَّقا، وأصفيتَ مشربي وكان مُرَنَّقا(٣)،وكاثرت بما بـه آثرت، وما استأثرت ـ رمل النقا(٤)، فلو رآك المأمون ابن الرشيد، لعلم أنك المتمنَّى ببيتَيِ الغناء الذي غنّى به والنشيد: [الطويل]

وإني لَمُـشْتَـاقٌ إلـى قـرب صـاحبٍ يَـرُوقُ ويـصفـو إن كـدرْتُ لَـدَيْـهِ
عـذيـري من الإنسـان لا إنْ جَفَـوْتـه صفـا لي، ولا إن كنت طَـوْعَ يَـدَيـهِ

ولم يقل: أعطني هذا الصديق وخُذ مني الخلافة، وأنا أقول: قد ظفرنا بـه بحمد اللّه ولم أجد أحدًا في دهره وافَقَ الغرضَ فلم نَرَ خلافه.

ومنها: فهذه يا ابنَ شاهين أياديك البِيض، تُفْـرِخ لك الشكـر وتبيض، فلا دليـل على ولائي، كإملائي، ولا شاهد لمـا في أحنائي(٥)، كثنـائي، ولا حجّة على ودادي، كتكـراري ذكرك وترددادي.

وهي طويلة، لا يحضرني الآن منها سوى ما ذكرته.

ولنقتصـر من مكاتبـات أعيان العصـر من أهل دمشق المحـروسة على هـذا المقـدار، ونسأل اللّه تعالى أن يحفظهم جميعًا في الإيراد والإصدار.

---

(١) بَذَّ: فاق وغلب. لسان العرب (بذذ).
(٢) بغذاذ: لغة في بغداد.
(٣) مُرَنَّق: مُكَدَّر. لسان العرب (رنق).
(٤) رملَ النقا: مفعول به للفعل «كاثرت».
(٥) الأَحْناء: جمع حِنْو وهو الضلع. لسان العرب (حنا).

وفي تاريخ ورود هذه المكاتيب الشامية السابقة عليَّ، اتفق ورودُ كتب من المغرب، وجَّهها جماعة من أعيانه إليَّ.

فمن ذلك كتاب كتبه لي الأستاذ المجوِّدُ الأديبُ الفهّامةُ مُعَلمُ الملوكِ سيدي الشيخ محمد بن يوسف المراكشي التامليّ[1] نصُّه: الحمد للّه تعالى، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد تتوالى، من المُحبِّ المخلص المشتاق، إلى السيّد الذي وَقَع على محبّته الاتّفاق، وطلعت شموس معارفه في غاية الإشراق، وصار له في مَيدَان الكمال حُسْنُ الاستباق، الصدر الكامل، والعالم العامل، الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه وعَمَله، البليغ الذي تقتدي البلغاء ببَرَاعة[2] قلمه، ناشر ألوية المعارف، ومُسْدِي أنواع العَوَارف، العلّامة إمام العصر، بجميع أدوات الحصر، سيدي أحمد بن محمد المَقّري قدّس اللّهُ السلف! كما بارك في الخلف. سلامٌ من النسيم أرقّ، وألْطَفُ من الزهر إذا عَبِق.

وبَعْدُ، فإنَّ أخباركم دائمًا تَرِدُ علينا، وتَصِلُ إلينا، بما يسرّ الخاطر، ويقرّ الناظر، مع كل وارد وصادر، والعبد يحمد اللّه تعالى على ذلك، ويدعو اللّه بالاجتماع معكم هنالك: [البسيط]

ويرحم اللّه عبدًا قال آمينا

كتبْتُه إليكم أيها السيد من الحضرة المراكشية مع كثرة أشواق، لا تسعها أوراق، كتبكم اللّه سبحانه فيمن عنده، كما جعلكم مِمَّنْ أخلص في مُوَالاة الحقّ قَصْدَه، وودِّي إليكم غَضُّ الحدائق، مُسْتَجْلٍ في مطلع الوفاء بمنظر رائق، لا يحيله عن مركز الثبوت عائق، وحقيق بمودّة ارتبطت في الحقّ وللحقّ مَعَاقِدُها[3]، وأُسِّست على المحبّة في اللّه قواعدُها، أن يزيد عَقْدُها على مَرِّ الأيام شدّة، وعهدها وإنْ شطَّ المزار جِدَّة، وأن تدّخر للأخرى عُدَّة، وإني ويعلم اللّه تعالى لمِمَّنْ يعتقد محبَّتكم وموالاتكم عَمَلاً صالحًا يقرّب من اللّه تعالى ويُزْلِف[4] إليه، ويعتمدهما وَزَرًا يعوّل في الآخرة يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه عليه، فإنكم

(١) ترجم ابن فضل اللّه المحبي للشيخ محمد بن يوسف المراكشي التاملي في خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٢٧١) وقال: إنني لم أقف على تاريخ وفاته. وفيه «التاولي» بالواو.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «بيراعه وقلمه».

(٣) في طبعة دار صادر: «معاهدها».

(٤) يُزْلف إليه: يُقَرِّب إليه. لسان العرب (زلف).

واليتم فأخلصتم في الولاَ، وعرفتم اللّه تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا، معرضين في تلكم الأخُوَّة عن غرض[1] الدنيا وعَرَضها، موفين بشروط[2] نفلها ومفترضها، إلى أن قضى اللّه تعالى بافتراقنا، وحقوقُكم المتأكّدة دَيْنٌ علينا، والأيام تَمْطُلُ بقضائها عنّا، وتوجّه الملام إلينا، فآونةً أقف فأقرع السِّنَّ على التقصير ندمًا، وآونة أستنيم إلى فضلكم، فأتقدّم قُدُمًا، وفي أثناء هذا لا يخطر بالبال حقّ لكم سابق، إلاّ وقد كرّ عليه منكم آخر له لاحق، حتى وقفت موقف العجز، وضاقت عليّ العبارة عن حقيقة مقامكم في النفس فكدت لا أتكلّم إلاّ بالرمز، إجلالاً لحقّكم الرفيع، وإشفاقًا من التقصير المضيع، وقد كنت كتبت ـ أعزّكم اللّه تعالى! ـ إليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عُجَالة قصائد كالعصائد[3]، لا كالثريد من الكلام كلامكم[4] السلس الكثير الفوائد، فَعُذْرًا مِمَّنْ كان أخرس من سمكة، وأشدّ تخبّطًا من طائر في شبكة، فما عرفت أَوَصَلَ شيءُ من ذلك، أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك؟ وما رأيت غير رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يومًا بالحضرة المراكشية فقال لي: الشيخ الإمام المقريُّ يسأل عنك، وقد أرسل معي كتابًا إليك، فوقع في البحر مع جملة ما وقع، فقلت له: لا غرابة في ذلك فقد رجع إلى أصله، ومن ظلمة البحار تُسْتخرج الدررُ، وقد جاءني كتاب من بعض الأخلاّء الصديقين وهو الحاج الصالح السيّد أبو بكر من مكّة المكرّمة شرّفها اللّه تعالى، وذكر لي فيه أنه متّعه اللّه تعالى بلقائكم، وأخبرني بسؤالكم عنّي كثيرًا، وإلى الآن يا نعم السيّد إنما عَرَّفْتُهُ بما كتبْتُه لسيادتكم تعريف تذكُّر لا تعريفَ منّة، فأنصفونا في الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الأدباء شريعة وسنّة، وبالجملة ففؤادي لمجدكم صحيح لا سقيم، واعتدادي بودّكم مُنتج غير عَقيم، واللّه تعالى يجعل الحبّ في ذاته الكريمة، ويقضي عن الأحبّة دين المحبّة، فَيُوفي كلَّ غريم غريمه، ويصلكم إن شاء اللّه تعالى هذا المرقوم، وبه سؤال منظوم، لتتفضّلوا بالجواب عنه بعد حمد اللّه، والصلاة والسلام على مولانا رسول اللّه، ﷺ: [الطويل]

إلى المقّريِّ الْحَبْرِ[5] صَدْرِ الأئمةِ	من المخلصِ الوداد أزكى تحيةِ
فذلكَ يا صَدْرَ الصدور عُجَالةٌ	لِتَسْمَحَ بالجواب عمَّا أَكَنَّتِ

(١) في طبعة عبد الحميد: «عرض».

(٢) في طبعة ليدن: «بشروطها».

(٣) العصائد: جمع عصيدة وهي دقيق يُعْقَدُ بالطبيخ. لسان العرب (عصد).

(٤) في الأصل: «ككلامكم»، وقد حذفنا كاف التشبيه لأنه الأصوب.

(٥) الحَبْرُ، بفتح الحاء وسكون الباء: العالِم. لسان العرب (حبر).

فتى قد رأى عند العذارَى فتية مُحَرَّمة عند الزوال فَحَلَّتِ
وعادتْ حَرَامًا عند عَصْرٍ فعندما عشاءُ أتى عادَتْ حلالًا تجلَّتِ
وفي صُبح ثاني اليوم عادتْ مُحَرَّمًا وزالتْ زوالًا منه في غير مِرْيَةِ
وفي ظُهْره حَلَّتْ فطابتْ قريرةً وفي عَصْره مُحَرَّمًا قد تَبَدَّتِ
وعند العشاءِ بالضَّرورة حُلِّلت وذلك بعد غرمِ مالٍ كفديةِ
وفي صُبْحِه عادت حَرامًا ترى به بروقَ سيوفٍ لامعاتٍ بسنَّةِ
وكان يضيقُ حَسْرَةً وتأسُّفًا وحلَّت له وقتَ العشاءِ وتَمَّتِ
وعن أمَةٍ أيضًا يموت سريُّهَا قَدَ آوْلَدَها في مُلْكه بعد وطأةِ
وعادت لمملوكِ السريِّ حليلةً بعَقْدِ نكاحٍ بَعْدُ من غير شُبْهةِ
فجاءت ببنت، هل لها من تزوّج بنَجْلِ السريِّ؟ بَيِّنوا ليَ قصَّتي
فإنَّ السيوري مانعٌ من تزوُّج له بابنةٍ منها بتلك القضيَّةِ
وما الفرق بينها وبين التي أتى بها ابنُ أبي زيد بأوضح حُجَّةِ
وعن مُشْتَرٍ مملوكةً غيرَ محرم ومُسلمة شِرًا[1] صحيحًا بشرعة
وليس بِمُلْكه له وطؤها يرى جَوازًا على التأبيد من حين حلّتِ[2]
وما طالقٌ من عِدَّةٍ خرجت ولا يجوزُ على التأبيد في خير ملّةِ
نكاحُ لها من واحدٍ ومُطَلّق لها غير معصوم ترى في الشريعةِ
وتمَّت بحمد اللّه مُبْدِيةٌ لكم سَلامًا كما أَبْدَتْهُ في صدرِ طلعةِ

وتقرير السؤال الثاني: أمَة أولدها سيِّدُها فصارتْ حرّةً، فمات عنها السيد، ثم تزوّجها عبدُ سيِّدها، فأتت ببنتٍ، أما لولد سيدها أن يتزوّج هذه البنت؟ فإن الرجل له أن يتزوّج بنت زوجة أبيه من رجل غيره، وهذه سُرِّيَّة أبيه، فإن الإمام السيوري يمنع هذه المسألة، وما الفرق بينهما؟ وتصلكم أيضًا إنْ شاء اللّه تعالى عُجَالة رجزية، في مآثركم السنيّة، ضمنتها أشطارًا من الألفية، فتفضّلوا بالإغضاء، وحُسْن الدعاء، أن يجمع اللّه شملنا بكم في تلك الأماكن المشرّفة، ثم المأمول من سيِّدنا ومولانا أن يتفضّل علينا بكتاب «طبقات القراء» للإمام الحافظ الداني، إذ ليس عندنا منه نسخة، وأمّا تأليفكم الكثير الفوائد المسمّى

(١) شِرًا: أصلها شراء، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٢) في طبعة دار صادر: «التأبيد تأخير جلّة».

بـ «أزهـار الريـاض، في أخبار عيـاض، وما ينـاسبها مِمَّـا يحصل بـه للنفس ارتيـاح وللعقـل ارتيـاض» فقد انتشـر في هذه[1] الأقـطار المراكشيـة، وانْتُسخت منه نسـخ عديـدة من نسخة المرحوم سيدي أحمد بن عبد العزيز ابن الولي سيدي أبي عمرو، وكسا اللّٰه سبحانه تأليفكم المذكور جلبـاب القبول، فمـا رآه أحد إلّا نسخـه، وعندي النسخـة التي كتبها بخـطِّه السيد أحمـد المـذكـور بخطّ حسن، وعلى هـامشهـا في بعض الأمـاكن خـطّكم الـرائق، وبعض التنبيهات من كلامكم الفائق، وأعلمونا بتأليفكم الذي سمّيتموه «قـطف المهتصر، من أفنـان المختصر[2]» هل خرج من المبيضة أم لا؟ وودنـا لو اتصلنـا منه بنسخـة، وقد اشتـاق فقهاء هذا الإقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة مُحبّكم سيدي عيسى وغيره من أخلّاء خليل، في كل محفل جليل، إلى أن قال: وأنـا أتمثّل بكـلام مولانـا عليٍّ كرم اللّٰه وجهـه حيث يقول، تبرّكًا به: [المتقارب]

رضيـتُ بـمـا قَسَـمَ الـلّٰهُ لـي ... وفَـوَّضْـتُ أمـري إلى خـالـقـي
كـمـا أَحْسَـنَ اللّٰهُ فـيـمـا مَضَـى ... كـذلـك يُـحْسِـنُ فـيـمـا بـقـي

ولي حفـظكم اللّٰه تعـالى تخميس على البيتين، وذلـك أنـه نـزلتْ بي شـدّة لا يمكن الخلاصُ منها عادة، فما فرغت من تخميسهما إلّا وجاء الفرج في الحين، ونصُّه:

إذا أَزْمَـةٌ نَـزَلَـتْ قِـبَـلي ... وضِـقْتُ وَضَـاقَـتْ بـهـا حِيَـلي
تَـذَكَّـرْتُ بَـيْـتَ الإمـام عـلي ... رضـيـت بـمـا قسـم الـلّٰه لـي
وفَـوَّضْتُ أمـري إلى خـالـقي
لأنَّ الإلـٰه الـلطيـفَ قَـضَـى ... على خَلْقـه حكمَـهُ الـمُـرْتَضى
فـسلِّم وَقُـلْ قـولَ مَـنْ فَـوَّضَـا ... كـمـا أَحْسَـنَ اللّٰهُ فـيـمـا مَـضَـى
كـذلـك يُـحْسِـنُ فيـمـا بقـي

فعذرًا ـ أعزّكم اللّٰه سبحانه ونفع بإخائكم! ـ عن إغباب[3] المراسلة بالمكـاتبة عـذرًا، وصَبْـرًا على بُعْد اللقـاء صَبْرًا، فـإن يُقدر في هـذه الدار نلْنـا فيها مـا نتمنّى، وإلّا فلن نعدم

---

(١) في الطبعة نفسها: «بهذه».
(٢) في خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٢٧١): «قطف المهتصر في شرح المختصر».
(٣) إغباب المراسلة: إرسال الرسائل يومًا وتركها يومًا. لسان العرب (غبب).

بفضل اللّه جزاء الحسنى، ولقاء لا يَبيدُ ولا يَفْنَى، مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، إيقانًا بالوعد وتحقيقًا، فمن أوجب له محبّته، أدخله جنّته، وأحضره مأدبته، وكَمَّلَ له أمنيته، جعلنا اللّه من المتحابِّين في جلاله، بكرمه وإفضاله! وكتَبَهُ مُحِبُّكم ومعظِّمكم، الواصل حبل ودِّه بودّكم، المشرِّف لعهدكم، المنوّه بفخركم ومجدكم، العبد الفقير الحقير، المُشْفق على نفسه من التقصير والذنب الكبير، محمد بن يوسف التاملي، غفر اللّه ذنبه! وستر عيبه! وجبر قلبه! وجمعه بمن أحبَّه! بالنبيِّ ﷺ، في عاشوراء المحرّم فاتح سنة ثمانية وثلاثين وألف، انتهى.

وصحبة هذا المكتوب ورقة نصُّها: بسم اللّه الرحمن الرحيم، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1]: [الرجز]

لـلّه درُّ العالمِ الْجَيَّاني	كأنما يَنْظُرُ بالعِيَانِ
للمقَّرِيِّ العالم المِفْضالِ	مُنَظِّرا بأَحْسَنِ المِثالِ
وعالمٌ بأنني مِنْ بَعْدِهِ	أُشِيرُ في نظامِنا لِقَصْدِهِ
وها أنا باللّه أستعينُ	مُضَمِّنًا ورَبُّنَا المعينُ
بالشطرِ مِنْ ألفيةِ ابنِ مالك	أَيَّدنا اللّه لنسج ذلك
قال محمد عبيد المالك	وسالكُ الأحسن من مَسالك
نُشِيرُ بالتضمين للنحريرِ	المَقَّرِيِّ الفاضلِ الشهيرِ
ذاك الإمام ذو العلاء والهمم	(كعَلَم الأشخاص لفظًا وهو عمّ)
فلن تَرَى في علمه مثيلا	(مستوجبًا ثنائيَ الجميلا)
ومَدْحُهُ عندي لازمٌ أتى	(في النظم والنثرِ الصحيحِ مثبتا)
أوصافُ سيدي بهذا الرجز	(تقرّب الأقصى بلفظٍ موجز)
فهو الذي له المعالي[2] تعتزي	(وتبسطُ البذلَ بوعدٍ مُنْجِزِ)
رتبته فَوقَ العُلاَ يا من فهم	(كلامُنا لفظٌ مفيدٌ كاستقم)
وكم أفادَ دَهْرُهُ مِنْ تحف	(مبدي تأوّلٍ بلا تكلّف)

(١) ورد بعض هذه الأرجوزة في خلاصة الأثر (جـ ٤ ص ٢٧١).

(٢) في طبعة دار صادر: «المعاني تعتزي». وتعتزي: تنتسب. لسان العرب (عزا).

لقد رَقَى على المَقامِ الطاهر[1] (كطاهرِ القلب جميلِ الظاهر)
وفضله للطالبينَ وجدا (على الذي في رفعه قد عَهدا)
قد حَصّل العلمَ وحَرَّرَ السير (وما بإلّا أو بإنما انحصر)
في كلِّ فنّ ماهرٍ صفه ولا (يكون إلّا غاية الذي تلا)
سِيرَتُهُ جَرَتْ[2] على نَهْجِ الهُدَى (ولا يلي إلّا اختيارًا أَبَدا)
وعِلْمُه وفَضْلُه لا يُنْكَرُ (ممَّا به عنه مُبِينًا يخبرُ)
يقولُ دائمًا بصدر انشرح (اعرف بنا فإنّنا نِلْنا المنح)
يقولُ مرحبًا لقاصديه مَنْ[3] (يَصِلْ إلينا يستعنْ بنا يُعَنْ)
صدّق مقالتي وكُنْ مُتَّبعا (ولم يكنْ تصريفُهُ مُمْتنعا)
وانهضْ إليه فهو بالمشاهده (الخبر الجزء المتمّ الفائده)
والْزَمْ جنابَهُ وإيّاكَ الملل (إنْ يستطل وصل وإن لم يستطل)
واقصدْ جنابَهُ ترى مآثرَهْ (واللّه يقضي بهباتٍ وافرهْ)
وانسبْ له فإنه ابن مُعْطِي (ويقتضي رضًا بغير سخْطِ)
واجعلْهُ نُصْبَ العَين والقلبِ ولا (تعدلْ به فهو يضاهي المثلا)
قد طالما أفادَ علمَ مالك (أحمدُ ربِّي اللّه خير مالك)
وحاسد له ومُبْغِض زمن (وهالك ومَيِّت به قمن)
وليس يشفى مبغضٌ له أعلّ (عَينًا وفي مثل هَرَاوة جعل)
يقول عبدُ ربِّه محمدُ (في نحو خيرِ القولِ إني أحمدُ)
وهو بدهرِهِ عظيمُ الأمل (مُرَوَّعُ القلبِ قليل الحيل)
فادْعُ له وسادةٍ قد حضروا (وافعلْ أوافق نغتبط إذ تشكر)
واجبرْهُ بالدُّعا عساهُ يغتنم (فجره وفتحَ عينه التزم)
أَنْشَدْتُ فيكم ذا وقالَ قائل (في نحوِ نِعْمَ ما يقول الفاضل)
أدعو لكم بالستر في كلِّ زمن (لكونه بمضْمَرِ الرفع اقترن)
مآثر لكم كثيرة سوى (ما مرَّ فاقبل منه ما عَدْلٌ رَوَى)

(١) في خلاصة الأثر: «إلى المقام الباهر».
(٢) في المصدر نفسه: «سارت».
(٣) في المصدر نفسه: «لقاصد ومن».

قـد انتهى تعـريـفُ ذا المعـرّفِ (وذو تمـام مـا بـرفـعٍ يكتفي)
لأنتم تـاجُ الأئـمّـة الأول (ومـا بـجمْعِـهِ عُنِيتُ قـد كمـل)
فـاللَّهُ يُبْقيكم لـدينَـا وكَفَى (مصلّيًـا على الرسـول المصطفى)
تَتْـرَى عليـه دائمًـا منـعـطفـا (وآلـهِ المستكمِلينَ الشَّـرَفـا)

ومن ذلك ما كتبه لي بعض الأصحاب مِمَّنْ كان يقرأ علي بالمغرب[1]، وصورته: سيّدنا وسيّد أهل الإسلام، حامل راية علوم الأمّة الأحمديّة، على صاحبها الصلاة والسلام، آية اللّه في المعاني والمعالي، وحسنة الأيام والليالي، وواسطة عقود الجواهر واللآلي، إمام مذهب مالك والأشعري والبخاري، والواقدي والخليل، العلاّمة القدوة السيد الكبير الشهير الجليل، ذو الأخلاق العذبة المَذَاق، والشمائل المُفْصِحَة عن طيب الأصول والأعراق، كبير زمانه دون منازع، وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع، شيخنا ومعلّمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرِيُّ المغربي التلمساني نزيل فاس ثم الديار المصرية، حفظه اللّه تعالى في مواطن استقراره! ورفع درجته بإشادة فخاره على مناره! عن شوق يودُّ له الكاتب أن لو كان في طي كتابه، وتَوقٍ إلى مشاهدتكم هو الغاية في بابه، بعد إهداء السلام المحفوف بأنواع التحيّات والكرامات والبركات، الدائم ما دامت في الوجود السكنات والحركات، لمقامكم الأكبر، ومَحْفِلكم الأشهر، ومن تعلّق بأذيالكم أو كان مستمطرًا لنوالكم، أو صبَّت عليه شآبيب أفضالكم، من أهل ومُحِبٍّ وصاحب وخديم، هذا وإنه ينهي إلى الوداد القديم، أن أهل المغرب الأدنى والأقصى حاضرة وبادية، كلّهم يتفكّهون بل يتقوتون بذكركم، ويشتاقون لرؤية وجهكم[2]، ويتلذّذون بطيب أخباركم، وإن كان المغرب الآن في تفاقم أحوال، وتراكم أهوال، في الغاية مدائن وبوادي، لا سيما مدينة فاس فإنها في شرّ عظيم، وأميرها مولاي عبد الملك مات في السنة السابعة والثلاثين بل في ذي الحجّة قبلها، وفي المحرم من سنة سبع وثلاثين، توفي ملك المغرب السلطان أبو

(١) يتبيّن من خاتمة هذه الرسالة أنَّ كاتبها هو علي بن عبد الواحد الأنصاري؛ وهو فقيه محدّث، استوطن الجزائر آخر عمره، وفيها كانت وفاته سنة ١٠٥٤ هـ. صفوة من انتشر من أعيان القرن الحادي عشر (ص ١٣٥).

(٢) في طبعة ليدن: «وجوهكم».

المعالي زيدان[1] وبويع من بعده ابنه مولاي عبد الملك، وتقاتل مع أخويه الأميرين الوليد وأحمد وهزمهما، وإلى اللّٰه عاقبة الأمور. وأهل داركم بفاس بخير وعافية، ونعم ضافية، سوى ما أدركهم من طول الغيبة، نسأل اللّٰه تعالى أن يملأ بقدومكم العَيْبة، ومُحبّكم الأكبر، ووليّكم لأصغر، سيّد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة، والمربي في سلوك أهل الحقيقة، العارف باللّٰه الشيخ الرباني، ذو المقامات والكرامات سيّدي محمد بن أبي بكر الدلائي[2]، يُحَيِيكم، ويعظّم قدركم، ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر، وهو على خير، وقد اجتمعت عليَّ من بركتكم في مدينة سلا جماعة من طلاب العلم وفتح اللّٰه تعالى عليّ بتآليف عديدة منها «كفاية الطالب النبيل، في حلّ ألفاظ مختصر خليل» ومنها شرحٌ على المنهج المنتخب للزّقّاق في قواعد مالك، ومنظومة في أكثر من ألف بيت في السِّيَر والشمائل، ومنها في رجال البخاري ولا كنسخ[3] الكلاباذي، ومنها خطب، وغير ذلك، والكل من بركتكم، ونسبته إليكم في صحيفتكم، والسلام من ولدكم المقرّ بفضلكم تراب نعالكم علي بن عبد الواحد الأنصاري، لطف اللّٰه تعالى به، وحامله كبير كبراء قومه مِمَّنْ يُحِبّكم ويعزكم[4]، وما تفعلوا من خير فلن تُكْفَرُوهُ، والسلام، انتهى.

ومنها كتاب وافاني من عَلَم قُسَمطينة[5] وصالحها وكبيرها ومُفْتيها سُلالة العلماء الأكابر، ووارث المجد كابرًا عن كابر، المؤلّف العلّامة سيدي الشيخ عبد الكريم الفَكُّون[6] حفظه اللّٰه، نصُّه:

---

(١) هو أبو المعالي زيدان بن أحمد المنصور، وقد بويع بعد وفاة والده سنة ١٠١٢ هـ، وخاض حروبًا كثيرة ضدَّ الطامعين بالحكم في كل من مراكش وفاس وضدَّ الإسبان. وبوفاته سنة ١٠٣٧ هـ، يتولّى ابنُه عبد الملك، وكان فاسد السيرة، فثار عليه أخواه الوليد وأحمد فهزمهما، وقتله العلوج بمراكش سنة ١٠٤٠ هـ. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (جـ ٦ ص ٣ ـ ٧٨).

(٢) محمد بن أبي بكر الدلائي من أعظم شيوخ الزاوية الدلائية، كان عالمًا في التفسير والحديث والكلام. الاستقصا (جـ ٦ ص ٩٦).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «كنسج».

(٤) في طبعة دار صادر: «ويعرفكم».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «قسنطينة».

(٦) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفَكُّون القسمطيني؛ له مؤلفات كثيرة، ووفاته سنة ١٠٧٣ هـ. صفوة من انتشر من أعيان القرن الحادي عشر (ص ١٣٦) واليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة (جـ ١ ص ٢٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على من أُنزل عليه في القرآن ﴿ وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾[1] وآله وصحبه وسلّم أفضل التسليم، من مُدَنَّس الإزار، المتسربل بسرابيل الخطايا والأوزار[2]، الراجي للتنصّل منه رحمةَ العزيز الغفّار، عبد الله ـ سبحانه ـ[3] عبد الكريم بن محمد الفَكون، أصلح الله بالتقوى حاله! وبلّغه من متابعة السنّة النبويّة آماله! إلى الشيخ الشهير، الصدر النحرير، ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير، الأحبّ في الله المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقَّريّ، أحمد الله عاقبتي وعاقبته! وأسبل على الجميع عافيته! أمّا بعد فإني أحمد الله إليك، وأُصلّي على نبيّه سيدنا محمد ﷺ، ولا أريد إلّا صالح الدعاء وطلبه منكم، فإنّي أَحْوَجُ الناس إليه، وأشدّهم في ظنّي إلحاحًا عليه، لما تحققت من أحوال نفسي الأمّارة، واستبطنت من دخيلائها المشابِرَة على حبِّ الدنيا الغَرَّارة، كأنها عميت عن الأهوال، التي أشابَتْ رؤوسَ الأطفال، وقطعتْ أعناقَ كُمّل الرجال، فتراها في لُجَج هواها خائضة، وفي مَيْدان شهواتها راكضة، طغت في غيِّها وما لانت، وجَمَحَتْ فما انقادتْ ولا استقامتْ، فوَيْلي ثم ويلي من يومٍ تَبْرُزُ فيه القبائح، وتنشر الفضائح، ومُنَادي العدل قائمٌ بين العالمين: ﴿ وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَينا بها وكَفَى بنا حاسِبِينَ ﴾[4]، فالله أسأل حسن الإلطاف، والستر عَمّا ارتكبناه مِنَ التعدِّي والإسراف، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم، ومِمَّنْ يُحْشَر تحت لواء خلاصته الكريم، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم، ولنكفَّ من القلم عنانه، لما أرجو من أجله ثواب الله سبحانه، وقد اتّصل بيدي جوابكم، أطال الله في العلم بقاءكم، فرأيت من عذوبة ألفاظكم، وبلاغة خطابكم، ما يذهل من العلماء فحولها، وينيلها لدى الجثوِّ لسماعه سؤلها ومأمولها، بيد ما فيه من أوصاف مَنْ أمره قاصر، وعن الطاعة والاجتهاد فاتر، وأصدق قول فيه عند مَخْبره ومَرْآه، أن «تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه[5]»، لكن يجازيكم المولى بحسن النيّة، البلوغَ في بحبوحة الجِنَان غاية الأمنية، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقلّ من أن أوصفَ بمثلها، على

---

(١) سورة القلم ٦٨، الآية ٤.

(٢) الأوزار: جمع وزر وهو الذنب. لسان العرب (وزر).

(٣) كلمة «سبحانه» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٤) سورة الأنبياء ٢١، الآية ٤٧.

(٥) «تسمع بالمعيديّ خيرٌ مِنْ أنْ تراه»: مثل يضرب لمن خبرُه خيرٌ من مرآه. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٢٩).

أنِّي غير قائم بفَرْضها ونَفْلها، فاللَّه تعـالى يُمِدُّكم بمعـونته، ويجعلكم من أهـل مناجـاته في حضرته، ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتّع منه بلذيذ مُنَادمته، وقـد ساعـد البنان الجنـان، في إجابتكم بوَزْنها وقافيتهـا، والعُذْرُ لي أنني لست من أهـل هذا الشـان، والاعتراف بـأنني جبـان وأيُّ جبان، والكمـال لكم في الرضـا والقبول، والكـريم يُغْضِي عن عَـورات الأحمق الجَهُول، وظنُّنا حقّقه اللَّه تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعني «إضاءة الدجُنَّـة»[1] تقييـدًا، أرجو من اللَّه تـوفيقًا وتسـديدًا، بحسب قـدري لا على قدركم، وعلى مثـل فكـري القاصر لا على عظيم فكركم، وإن ساعد الأوان، وقضى بتيسيره ربُّ الزمـان، فآتي بـه إن شاءَ اللَّه الآجِلَ[2] معي لأنني بالأشواق، إلى حضرة راكب البراق، ومختـرق السبع الـطباق. وكنت عـازمًـا على أن أبعث لكم من الأبيـات آكثـر من الـواقـع، إلَّا أن الـرفقة أعجلت، وصادفتني أيام موت قعيده[3] البيت، فلم يتيسّر عاجـلًا إلَّا ما ذكـر وعلى اللَّه قصد السبيـل، وهو حسبي ونعم الوكيل: [مخلع البسيط]

يـا نُخْبـةَ الـدهـر في الـدرايـه — عـلْمًـا تُـعـاضِـدُهُ الـروايـهْ
لا زلـتَ بـحـرًا بـكـلِّ فـنٍّ — يـروي بـه الـطالبـونَ غـايـهْ
لـقـد تَصَـدَّرْتَ في الـمـعـالي — كـمـا تعـاليـتَ في الـعـنـايـهْ
مِـنْ فيـكَ تـستـنـظمُ المعـاني — بُـلِّغْتَ فـي حُسْنـهـا الـنـهـايـهْ
رَقَّـاكَ مـولاكَ كـلَّ مَـرْقًـى — تـحـوي بـه القـربَ والـولايـه
أعـجـوبـة مـا لـهـا نـظيـر — فـي الحـفظ والفـهـم والـهـدايـه
يـا أحـمـدُ الـمـقَّـرِيُّ دامـتْ — بُـشْـراك تصحبُـهـا الـرعـايـه
بـجـاهِ خَـيـرِ الـعِـبـادِ طُـرًّا — والآلِ والـصـحـب والـنُّـقَـايـه
صـلَّى عـليـه الإلَـه تَـتْـرَى — نُـكْفَـى بـهـا الـشّـرَّ والـغـوايـهْ

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيِّدنا رسـول اللَّه، ﷺ، وكتب بغايـة عجلة، يومَ السبت سـابع أو ثـامن رجب، من عام ثمـانية وثـلاثين وألف للهجرة على صـاحبهـا الصـلاة والسلام! انتهى.

---

(١) اسم المنظومة بالكامل هو: «إضاءة الدُّجُنّـة بعقائـد أهل السّنـة» وهي منظومـة للمقري أَلّفهـا ودرسها في الحجاز والشام، وقد طبعت بمصر سنة ١٣٠٤ هـ بهامش شرح عليش على العقيدة السنّيَّة.

(٢) يريد العام الآجل.

(٣) القعيدة: المرأة لقعودها في البيت. محيط المحيط (قعد).

والمـذكور عـالم المغرب الأوسط غيـر مدافـع، وله سلف علماء ذوو شهرة، ولهم في الأدب الباعُ المديد، غير أن المذكور مـائل إلى التصـوّف، ونِعْمَ ما فعـل، تَقَبَّلَ اللَّهُ تعـالى عملي وعمله! وبلغ كـلاً منّا أمله! ولأشهـر أسلافـه العـلاّمـة الشيـخ حسن بن علي بن عمـر الفَكـون القسمطيني[1] أحـد أشياخ العبـدري صاحب الـرحلة قصيدة مشهـورة عنـد العلمـاء بالمغرب، وهي من درّ النظام، وحُرِّ الكـلام، وقد ضمَّنهـا ذكر البـلاد التي رآها في ارتحـاله من قسمطينة[2] إلى مراكش، وأوّلها: [الوافر]

أَلاَ قُـلْ لـلسَّـرِيِّ ابْـنِ الـسَّـرِيِّ ... أبـي البَـدْرِ[3] الـجـوادِ الأَرْيَحِـيِّ

ومـنـهـا:

وكـنـت أظـنُّ أنَّ الـنـاسَ طُـرًّا ... سِـوَى زيـدٍ وعـمـروٍ غـيـر شَـيِّ
فـلـمَّـا جئْتُ مَـيـلَةَ[4] خـيـرَ دار ... أمـالـتـنـي بـكـلِّ رشـا أبـيِّ
وكـم أورت ظـبـاء بـنـي ورارٍ[5] ... أُوَارَ الـشـوق بـالـرِّيـق الـشَّـهـيِّ
وجئـتُ بـجـايـة فَـجَـلَتْ بـدورًا ... يَـضِيقُ بـوصفهـا حـرفُ الـرويِّ
وفـي أرض الـجـزائـر هـامَ قـلبـي ... بـمعْسُـولِ الـمـراشـف كـوثـريِّ
وفـي مِـلْيـانـةٍ قـد ذُبْـتُ شَـوقًـا ... بـلـينِ الـعِـطْفِ والـقَـلْبِ الـقـسـيِّ
وفـي تَنَسٍ نـسيتُ جميـلَ صبـري ... وهِـمْـتُ بـكـلِّ ذي وجـهٍ وضـيِّ
وفـي مـازونـةٍ مـا زلـتُ صَـبًّـا ... بـوسنـانِ الـمـحـاجـرِ لَـوْذعـيِّ
وفـي وَهْـرَانَ قـد أمسيـتُ رهـنًـا ... بـظـامـي الـخـصـرِ ذي ردف رَوِيِّ
وأبـدتْ لـي تِـلِمْـسَـانٌ بـدورًا ... جَـلَبْنَ الـشـوقَ لـلقـلبِ الـخـلـيِّ
ولَـمَّـا جئتُ وَجْـدة هِـمْـتُ وَجْـدًا ... بـمنـخـنثِ الـمـعـاطـفِ مـعـنـويِّ
وحـلَّ رَشَـا الـربـاط رِشَـا ربـاطي ... وتـيَّـمـنـي بـطـرفٍ بـابـلـيِّ
وأطـلعَ قـطرُ فـاسٍ لـي شـمـوسًـا ... مـغـار بُـهُـنَّ فـي قـلـب الـشـجـيِّ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «القسنطيني».
(٢) في الطبعة نفسها: «قسنطينة».
(٣) هو أبو البدر بن مردنيش، وإليه كتب ابن فكّون هذه القصيدة. رحلة العبدري (ص ٣٠).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «ببلة».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «بني أوار».

وما مكناسة إلاَّ كِناسٌ | لأحوَى الطرف ذي حُسْنٍ سنيٍّ
وإنْ تسألْ عَنَ آرض سلا ففيها | ظباءٌ كاسراتٌ للكَمِيٍّ
وفي مراكشٍ يا ويح قلبي | أتى الوادي فَطَمَّ على القَرِيِّ[1]
بدورٌ بل شموسٌ بل صباحٌ | بَهِيٌّ في بَهِيٍّ في بَهِيٍّ
أبَحْنَ مصارعَ العُشّاق لَمّا | سَعَينَ به فكم مَيْتٍ وَحِيٍّ[2]
بقامةِ كلِّ أسمرَ سَمْهَرِيٍّ | ومُقْلَةِ كلِّ أبيضَ مشرفيٍّ
إذا أنْسَيْنَني حُسْنًا فإني | أنَسِّيهِمْ هوى غَيلانِ مَيٍّ[3]
فها أنا قد تخذْتُ الغربَ دارًا | وأُدْعَى اليوم بالمراكشيِّ
على أنَّ اشتياقي نحو زيدٍ | كشوقكَ نحو عمروٍ بالسويِّ
تقسّمني الهوى شرقًا وغربًا | فيا للمشرقيِّ المغربيِّ
فلي قلبٌ بأرض الشرقِ عانٍ[4] | وجسمٌ حلَّ بالغرب القصيِّ
فهذا بالغُدُوِّ يهيمُ غربًا | وذاك يهيمُ شرقًا بالعشيِّ
فلولا اللّه متُّ هوًى وشوقًا | وكم للّه من لطفٍ خفيٍّ

وقد خرجْنا بالاستطراد إلى الطول، وذلك منّا استرسال مع جاذب الأدب، فَلْنُمْسِكِ العنان، واللّٰه المستعان.

وما عددناه من القصائد والمقطوعات في مدح دمشق الشام فهو غَيضٌ من فَيض، وفي نيّتي أن أجمع في ذلك كتابًا حافلاً أسمّيه «نَشْق عَرْف دمشق» أو «مشق قلم المدح لدمشق» ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الأكابر: [الخفيف]

نحن في مصرَ رَهْنُ شوقٍ إليكمْ | هل لديكمْ بالشام شوقٌ إلينا
فعجزْنا عن أن تَرَوْنا لديكمْ | وأبيتمْ عن أنْ نراكمْ لدينا
حفظ اللّٰهُ عهدَ مَنْ حفظَ العهـ | ـدَ ووفّى به كما قد وَفَينا

---

(١) القَرِيُّ: مسيل الماء إلى التلاع، وهو مثل يضرب للأمر العظيم يغطّي على صغَائر الأمور. لسان العرب (قرا).

(٢) الوَحِيُّ: السريع؛ يريد الموت السريع. مختار الصحاح (وحي).

(٣) غيلان: هو ذو الرمّة الشاعر. وميّ: محبوبته.

(٤) العاني: الأسير. محيط المحيط (عني).

وقول ابن الصائغ: [المجتث]

وددتُ لو أنَّ عيني مكانَ كُتْبي إليكُمْ
حتى أراكمْ وأُمْلِي أخبارَ شوقي عليكمْ

رجع إلى ابن جبير رحمه اللَّه تعالى:

ومن شعره قوله: [السريع]

إيّاكَ والشهرة في مَلْبس والْبَسْ من الأثواب أسمالَها[1]
تواضُعُ الإنسانِ في نَفْسِهِ أَشْرَفُ للنَّفْس وأسْمَى لها

وقال: [الطويل]

تَنَزَّهْ عن العوراء[2] مَهْما سَمِعْتَها صِيانَةَ نَفْسٍ فَهْوَ بالحُرِّ أَشْبَهُ
إذا أنتَ جاوبْتَ السَّفيهَ مُشَاتِمًا فَمَنْ يتلقَّى بالشتمِ أسْفَهُ

وقال: [الطويل]

أقولُ وقد حانَ الوداعُ وأَسْلَمَتْ قلوبٌ إلى حكم الأسى ومدامعُ:
أيا ربِّ، أَهْلي في يديك وديعةٌ وما عَدِمَتْ صونًا لديك الودائعُ

وقال أبو عبد اللَّه بن الحاج[3] المعروف بِمَدْغَلِّيس[4] صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور: [الكامل]

لأبي الحسين مكارمٌ لو أنَّها عُدَّتْ لَمَا فرغتْ ليوم المحشرِ
وله عليٌّ فضائلُ قد قَصَّرَتْ عن بعضِ نُعْماها عظامُ الأبحرِ

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها[5]: [الرمل]

يا وفودَ اللَّهِ فُزْتُمْ بالمُنَى فهنيئًا لكمُ أهلَ مِنَى

(١) الأسمال: جمع سَمَل وهو الثوب البالي. لسان العرب (سمل).

(٢) العوراء: الكلمة القبيحة. مختار الصحاح (عور).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الحجاج».

(٤) مدغليس: هو أبو عبد اللَّه أحمد بن الحاج الزجّال؛ سار على طريقة ابن قزمان في الزجل. كان في دولة بني عبد المؤمن الموحدين. المغرب (جـ ٢ ص ٢١٤) والعاطل والحالي والمرخص الغالي (ص ١٨).

(٥) الأبيات في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦١٤) وبعضها في المغرب (جـ ٢ ص ٣٨٥)، قالها يهنىء حُجّاجًا اجتمع بهم في مكة، ويتشوّق إليهم.

قد عَرَفْنا عرفاتٍ بعدكمْ[1] فلهذا برَّح الشوقُ بنا
نحن في الغرب ويجري ذكركمْ بغُروبِ الدمع يجري هُتَّنا[2]

ومنها:

فيناديه على شَحْطِ النَّوَى مَنْ لنا يومًا بقلبٍ[3] مَلَّنَا
سِرْ بنا يا حاديَ الركب[4] عسى أن نُلاقي يومَ جَمْعٍ سِرْبَنَا
ما[5] دعا داعي النوى لَمَّا دعا غيرَ صَبٍّ شَفَّه بَرْحُ العنا
شِمْ لنا البرقَ إذا لاح[6] وقُلْ جمعَ اللَّهُ بجمعٍ شَمْلَنَا
عَلَّنا نلقي خيالاً منكمُ بلذيذِ الذكرِ وَهْنًا عَلَّنا[7]
لو حَنَا الدهرُ علينا لَقَضَى باجتماعٍ بكمُ بالمنحنى
لاح بَرْقٌ مَوْهِنًا من نحوكمْ فلعمري ما هَنَا العَيشُ هُنَا
أنتمُ الأحبابُ نشكو بُعْدكم هل شكوتمْ بُعْدَنا مِنْ بَعْدِنا

وله رحمه اللَّه تعالى من قصيدة مطوّلة أوّلها: [المتقارب]

لعلَّ بشيرَ الرِّضا والقبولِ يُعَلِّلُ بالوصلِ قلبَ الخليلِ

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرّفة، على صاحبها الصلاة وأتمّ السلام! وهي ثلاثة وثلاثون بيتًا من الغر، أولها[8]: [المتقارب]

أقولُ وآنَسْتُ بالليلِ نارا لعلَّ سِراجَ الهُدَي قد أنارا
وإلَّا فما بالُ أُفْقِ الدُّجَى كأنَّ سَنا البرق فيه اسْتَطارا
ونحن من الليلِ في حِنْدِسٍ فما بالُهُ قد تجلَّى نهارا

(١) في الذيل والتكملة: «معكم» بدل «بعدكم».
(٢) في المصدر نفسه: «نحن بالمغرب نُجْري.. فغروب.. تجري».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «فقلْتُ».
(٤) في الذيل والتكملة: «حادي العِيْس».
(٥) في المصدر نفسه: «ما عنى».
(٦) في المصدر نفسه: «إذا هَبَّ».
(٧) هذا البيت والأبيات التالية غير واردة في الذيل والتكملة.
(٨) الأبيات في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٠٢) والإحاطة (جـ ٢ ص ٢٣٥).

وكان أبو الحسين بن جُبَير المترجم به قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها.

وَقال صاحب «الملتمس» في حقِّه: الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جُبَير، مِمَّنْ لقيتُه وجالسْتُه كثيرًا ورويتُ عنه، وأصله من شاطِبَة، وكان أبوه أبو جعفر من كُتَّابها ورؤسائها، ذكره ابنُ الْيَسَع في تاريخه، ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه، وتولَّع بغَرْناطة، فسكن بها، قال: ومِمّا أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد بإشبيلية: [الوافر]

أبا عمرانَ قد خَلَّفْتُ قلبي ... لديكَ وأنتَ أهلٌ للوديعَهْ
صَحِبْتُ بك الزمانَ أخا وفاءٍ ... فها هُوَ قد تَنَمَّرَ[1] للقطيعهْ

قال: وكان من أهل المروءات، عاشقًا في قضاء الحوائج، والسعي في حقوق الإخوان، والمبادرة لإيناس الغرباء، وفي ذلك يقول: [الرمل]

يَحْسَبُ الناسُ بأنِّي مُتْعَبٌ ... في الشَّفاعاتِ وتكليفِ الوَرَى
والذي يُتْعِبُهُمْ مِنْ ذاك لي ... راحةٌ في غيرها لن أُفْكِرا
وبودِّي لو أُقَضِّي العُمْرَ في ... خدمةِ الطلّاب حتى في الكَرَى

قال: ومن أبدع ما أنشده رحمه اللّه تعالى أول رحلته: [الخفيف]

طالَ شوقي إلى بقاعٍ ثلاثٍ ... لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إليها
إنَّ للنفس في سماء الأماني ... طائرًا لا يَحُومُ إلاَّ عليها
قُصَّ منه الجناحُ فهو مَهِيضٌ[2] ... كلَّ يومٍ يرجو الوقوعَ لديها

وقال[3]: [المتقارب]

إذا بلغ العبدُ أرضَ الحجازِ ... فقد نالَ أفضلَ ما أمَّ لَهْ[4]
فإنْ زارَ قبْرَ نبيِّ الهُدَى ... فقد أكْمَلَ اللّه ما أمَّلَهْ[5]

---

(١) تَنَمَّرَ: أصبح كالنمر، وأراد: تنكَّر وغدر. لسان العرب (نمر).
(٢) الجناحُ المَهِيْضُ: المكسور مرة بعد مرة. لسان العرب (هيض).
(٣) البيتان في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٠٤) والإحاطة (جـ ٢ ص ٢٣٧).
(٤) في المصدرين السابقين: «إذا بلغ المرء... ما أمَّلَهْ».
(٥) في الذيل والتكملة: «وإنْ زار... ما أمَّ لهْ». وفي الإحاطة: «وإنْ زار...».

وعاد رحمه اللّٰه تعالى إلى الأندلس بعد رحلته الأولى التي حلّ فيها دمشق والموصل وبغداد، وركب إلى المغرب من عكا مع الإفرنج، فعطب في خليج صقلية الضيق، وقاسى شدائد إلى أن وصل الأندلس سنة ٥٨١، ثم أعاد المسير إلى المشرق بعد مدّة إلى أن مات بالإسكندرية كما تقدّم.

ومن شعره أيضًا: [الخفيف]

لي صديقٌ خسرتُ فيه ودادي ... حين صارتْ سلامتي منه ربحا
حَسَنُ القول سيئُ الفعل كالجزْ ... زارِ سَمَّى وأَتْبَعَ القولَ ذَبْحا

وحدّث رحمه اللّٰه تعالى بكتاب «الشفاء» عن أبي عبد اللّٰه محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض، ولَمّا قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيىٰ بن علي القرشي.

وتوفي ابن جُبَير بالإسكندرية يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤، والدعاء عند قبره مستجاب، قاله ابن الرقيق رحمه اللّٰه تعالى. وقال ابن الرقيق: في السنة بعدها.

وقال أبو الربيع بن سالم: أنشدني أبو محمد عبد اللّٰه بن التميمي البجائي، ويُعْرَف بابن الخطيب، لأبي الحسين ابن جبير، وقال: وهو ممَّا كتب به إليَّ من الديار المصرية في رحلته الأخيرة لَمّا بلغه ولايتي قضاء سَبْتَة، وكان أبو الحسين سكنها قبل ذلك، وتوفيتْ هنالك زوجته[1] بنت أبي جعفر الوَقَّشِي فدفنها بها: [المتقارب]

بسبتةَ لي سَكَنٌ[2] في الثَّرى ... وخِلٌّ كريمٌ إليها أتى
فلو أستطيعُ ركبْتُ الهوا ... فزرتُ بها الحيَّ والمَيِّتا

وأنشد ابنُ جبير، رحمه اللّٰه تعالى، لنفسه عند صدوره عن الرحلة الأولى إلى غَرْنَاطة، أو في طريقها قوله[3]: [البسيط]

لي نحو أرضِ المنى من شرقِ أندلسِ ... شوقٌ يؤلِّفُ بين الماءِ والْقَبَسِ

---

(١) زوجته هي أم المجد عاتكة بنت الوزير أحمد بن عبد الرحمن الوقشي؛ توفيت سنة ٦٠١ هـ، فقام ابن جبير بعد وفاتها برحلته الثالثة، فوصل مكة سنة ٦٠٢ هـ.

(٢) السَّكَن، بالفتح: الزوجة. لسان العرب (سكن).

(٣) الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٠٤).

إلى آخرها.

ومن شعره قوله: [مخلع البسيط]

يـا خَـيْـرَ مـولًـى دعـاهُ عَـبْـدٌ ... أَعْـمَـلَ فـي الـبـاطـلِ اجـتـهـادَهْ
هَـبْ لـيَ مـا قـد عـلـمْـتَ مـنِّـي ... يـا عـالـمَ الـغَـيـبِ والـشـهـادَهْ

وقال رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

وإنِّـي لأوثـر مَـنْ أصـطـفـي ... وأُغْـضِي عَـلَى زَلَّـةِ الـعـاثـرِ
وأهـوى الـزيـارةَ مِمَّنْ أُحِـبُّ ... لأعـتـقـدَ الـفـضـلَ لـلـزائـرِ

وقال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

عجبتُ للمـرء فـي دنيـاه تُـطْمِـعُـهُ ... في العيشِ والأجَـلُ المحتومُ يَقْـطَعُـهُ
يُمْسي ويصبحُ في عَشْوَاءَ يَخْبِـطُهـا[١] ... أعمى البصيـرةِ والآمـالُ تخـدعُـهُ
يَغْتَـرُّ بـالـدهـرِ مسـرورًا بصحبتـه ... وقـد تَـيَقَّـنَ أنَّ الـدهـرَ يـصـرعُـهُ
ويجمـعُ المـالَ حـرصًـا لا يفـارقُـه ... وقـد درى أنـه لـلغيـر يـجـمـعُـهُ
تـراه يُشْفِـقُ من تـضييـعِ درهمـه ... ولـيس يُـشْـفِـقُ مـن دِينٍ يُـضَـيِّـعُـه
وأسـوأُ النـاسِ تـدبيـرًا لـعـاقبـةٍ ... مَنْ أنفقَ العمـرَ فيـمـا ليس ينفـعُـهُ

وقـال: [الطويل]

صَبَـرْتُ على غَـدْرِ الـزمـانِ وحقـدِهِ ... وشـابَ ليَ السمَّ الـزُّعَـافَ بشَهْـدِهِ[٢]
وجَـرَّبْـتُ إخـوانَ الـزمـانِ فـلم أجـدْ ... صـديقًـا جميـلَ الغَيبِ في حـال بُعْـدِهِ
وكـم صـاحبٍ عـاشـرْتُـهُ وألِـفْـتُـهُ ... فمـا دام لي يـومًـا عـلى حُسْنِ عَهْـدِهِ
وكـم غَـرَّني تـحسيـنُ ظـنِّي بـه فـلم ... يُضيءْ لي على طـولِ اقتـداحي لـزنـده
وأغـربُ من عَنْقـاءَ في الـدهـر مُغْـرِبٍ ... أخـو ثـقـةٍ يـسـقـيـكَ صـافـي ودّه
بـنـفـسـك صـادمْ كـلَّ أمـرٍ تـريـدُهُ ... فـليس مـضـاءُ الـسيـفِ إلَّا بـحـدِّه

---

(١) يخبطها: يضربها بشدّة، ويخبط خَبْطَ عَشْواء: يشار إلى الناقة التي لا تُبْصر أمامها، وهو مثل يضرب لمن يتصرّف في الأمور على غير بصيرة. محيط المحيط (خبط).

(٢) شابَ السمَّ: خلطه، والسمُّ الزُّعـاف: السريع القتل. الشَّهْدُ: العسل. لسـان العرب (شـوب) و (زعف) و (شهد).

وعَــزْمَــكَ جَــرِّدْ عــنــد كــلِّ مــهــمَّــةٍ فمــا نــافــعٌ مُكْثُ الحســام ِ بغِمْــدِهِ
وشــاهــدْتُ في الأسفــار كــلَّ عجيبــةٍ فــلم أرَ مَــنْ قــد نــال جَــدًا بــجِــدِّه
فكــن ذا اقــتــصــادٍ في أمــورِكَ كــلِّهــا فــأَحْسَنُ أحــوال الـفتى حُسْنُ قَصْــدِهِ
ومــا يُـحْــرَمُ الإنســانُ رزقًــا لِـعَـجْــزِهِ كـمــا لا ينــالُ الــرزقَ يــومًــا بكَــدِّهِ
حــظوظُ الـفـتـى مِنْ شقــوةٍ وسعــادةٍ جَــرَتْ بــقــضــاءٍ لا ســبــيــلَ لــردِّه

وقـــال: [البسيط]

النــاسُ مثلُ ظــروفٍ حَشْوُهَــا صَبِرٌ[1] وفَــوْقَ أفــواهــهــا شيءٌ مِنَ الـعَـسَــلِ
تَــغُــرُّ ذائِـقَــهــا حــتــى إذا كُـشِـفَــتْ لــه تَـبَيَّــنَ مــا تَـحْــويــه من دَخَــلٍ[2]

وقـــال: [المتقارب]

تَغَيَّــر إخــوانُ هــذا الــزمــانِ وكــلُّ صــديــقٍ عَــرَاه الخـلـلْ
وكــانــوا قــديمًــا على صحّــةٍ فقــد داخَلَتْهُم حــروف الـعللْ
قَضَيْتُ الـتـعجُّبَ مِنْ أمــرهــمْ فصرْتُ أُطــالــع بــابَ البــدلْ

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجهٍ آخر أول ترجمة المذكور[3]، ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر، وهو قوله: [المتقارب]

ثَكِلْتُ أخِــلاَّء هــذا الــزمــانِ فــعنــديَ ممّــا جَـنَــوْه خــللْ
قَضَيتُ التـعجُّبَ من شــأنـهمْ فصرتُ أطــالــع بــاب البــدلْ

ولابن جبير رحمه اللّٰه تعالى[4]: [الطويل]

مِنَ اللّٰهِ فــاسْــأَلْ كــلَّ أمــرٍ[5] تــريــدُهُ فــمــا يَمْلِكُ الإنســانُ نـفعًــا ولا ضُــرّا
ولا تــتــواضــعْ لــلولاةِ فــإنــهــمْ من الكِبْــرِ في حــالٍ تمــوجُ بهمْ سُكْــرا
وإيــاكَ أنْ تــرضــى بــتــقــبــيــلِ راحــةٍ فقــد قيــل عنهــا إنهــا السجــدةُ الصغــرى

---

(١) الصَّبِرُ، بفتح الصاد وكسر الباء: الدواء المرّ. مختار الصحاح (صبر).
(٢) الدَّخَلُ، بالفتح: العيب مختار الصحاح (دخل).
(٣) انظر (ص١٤٠) من هذا الجزء.
(٤) الأبيات في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦١٣).
(٥) في الذيل والتكملة: «كلَّ شيء».

وهو نحو قول القائل[1]: [الخفيف]

قـل لنصـرٍ والمـرءُ في دولـة السلـ ـطانِ أعـمى مـا دامَ يُـدْعَـى أمـيـرَا
فـإذَا زَالَـتِ الْـوِلَايَـةُ عَـنْـهُ وَاسْتَـوَى بِـالـرِّجَـال عَـادَ بَصِيـرَا

وقال ابن جبير، رحمه اللّه تعالى[2]: [الخفيف]

أيُّهَـا المُسْتَطِيـلُ بِـالْبَغْي أَقْصِـرْ رُبَّـمـا طَـأْطَـأَ الـزَّمَـانُ الـرُّؤوسَـا
وتَـذَكَّـرْ قـول الإلَـه تـعـالـى ﴿ إنَّ قـارونَ كـان مِنْ قـوم مـوسى ﴾[3]

وقال، وقد شهد العيد بِطَنْدَتَةَ من قرى مصر: [الطويل]

شهـدْنا صـلاة العيـد في أرض غُـرْبَـةٍ بـأحـوازِ مصـرٍ والأحبَّـةُ قـد بـانـوا
فقلتُ لِخِلِّي في النـوى جُـدْ بمـدمـعٍ فـليس لنـا إلَّا الـمـدامـعَ قـربـانُ

وقـال: [السريع]

قـد أحدثَ النـاسُ أمـورًا فـلا تعمـلْ بـهـا إنّي امـرؤ نـاصـحُ
فـمـا جِمـاعُ الـخيـرِ إلَّا الـذي كـان عـليـه السَّلَفُ الصـالـحُ

وقـال: [المديد]

ربِّ إن لـم تُـؤْتـنـي سـعـةً فـاطْـوِ عنِّي فـضلةَ الـعُـمُـرِ
لا أحـبُّ الـلبـثَ فـي زمـنٍ حـاجـتي فـيـه إلى الـبشـر
فَـهُـمُ كَـسْـرٌ لِـمُـنْـجـبرٍ مـا هُـمُ جبـرٌ لـمـنـكـسرِ

ولَمَّا وصل ابن جبير ـ رحمه اللّه تعالى! ـ إلى مكّة في ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التي أولها: [المتقارب]

بَلَغْتَ المُنَى وحَلَلْتَ الْحَـرَمْ فعـادَ شبـابُـكَ بعـد الهَـرَمْ
فـأهـلاً بـمكّـةَ أهـلاً بـهـا وشكـرًا لمـن شكْـرُهُ يُـلْتَـزَمْ

وهي طويلة، وسيأتي بعضها.

---

(١) هذان البيتان لم يردا في طبعة دار صادر، وأوردهما المحقق في الحاشية.
(٢) في طبعة دار صادر: «وهو نحو قول القائل».
(٣) عجز هذا البيت هو الآية ٧٦ من سورة القصص ٢٨.

وقال رحمه اللّه تعالى عند تحرّكه للرحلة الحجازية: [الوافر]

أقــولُ وقــد دعــا لــلـخـيــرِ داعٍ ... حَـنَـنْـتُ لــه حَـنِـيـنَ الـمُـسْـتـهـامِ
حــرامٌ أن يــلذَّ لــي اغـتـمــاضٌ ... ولـم أرحــلْ إلـى الـبـيـت الـحــرامِ
ولا طــافـتْ بــي الآمــالُ إنْ لــم ... أطـفْ مــا بـيــن زَمْـزَمَ والـمــقــامِ
ولا طــابـتْ حــيــاةٌ لــي إذا لــم ... أزرْ فــي طَـيْـبَـةٍ خَـيْـرَ الأنــامِ
وأُهْــديــه الــســلامَ وأقــتـضـيــه ... رضًــا يُـدْنــي إلــى دارِ الــســلامِ

وقــال(١): [المتقارب]

هـنيئًـا لـمن حَـجَّ بيتَ الهُـدَى ... وحَطَّ عــن الـنَّـفْسِ أوزارَهــا
وإنَّ الــسـعــادةَ مـضـمـونـةٌ ... لِـمَـنْ حَـجَّ طَـيْـبَـةَ أو زارَهــا

ولنختم ترجمته بقوله: [الطويل]

أُحِبُّ النبيَّ المصطفى وابنَ عَمِّه ... عليًّا وسِبْطَيه وفاطمةَ الزَّهْرا
هُمُ أهـلُ بيتٍ أُذْهِبَ الرجسُ عنهمُ ... وأطلعهمْ أفْقُ الهدى أنجمًا زُهْرا
مُـوَالاتهمْ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ ... وحُبُّهُمُ أسنى الذخائرِ للأخرى
ومــا أنــا للصَّحْبِ الكرامِ بمبغضٍ ... فــإنِّي أرى البغضاءَ في حقِّهم كفـرا
هُمُ جـاهـدوا في اللّه حقَّ جهـاده ... وهم نصروا دين الهدى بالظُّبَا نَصْرا
عـليهمْ سـلام اللّه مـا دام ذكـرهُـمْ ... لـدى الملإ الأعلى وأكْـرِمْ به ذِكْـرا

وقوله في آخر الميمية: [المتقارب]

نــبـيٌّ شــفــاعــتُــهُ عِـصْـمَـةٌ ... فـيــومَ الـتـنــادي(٢) بــه يُعْتَصَمْ
عــسـى أن تُـجـابَ لـنــا دعــوةٌ ... لــديــه فَـنُـكْـفَـى بـهــا مــا أهــمّ
ويَــرْعَــى لــزواره فــي غــدٍ ... ذِمَــامًــا فمــا زال يَــرْعَى الــذِّمَمْ
عـليــه الـســلامُ، وطُـوْبَى لمن ... أَلَــمَّ بـتـربـتِــهِ فــاسْـتـلـم
أخــي كــم نُـتَـابــعُ أهــواءنــا ... ونـخبط عَـشْـواءهــا في الـظُّلَمْ
رُوَيـدَكَ جُـرْتَ فَعُـجْ واقْتَصِـدْ ... أمــامَــكَ نـهــجُ الـطريق الأعــمّ
وتُـبْ قـبــلَ عَضِّ بــنــانِ الأسـى ... ومِنْ قَبْـلِ قَـرْعِـكَ سِنَّ الـنــدم

(١) البيتان في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٦٠٤) والإحاطة (جـ ٢ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

(٢) يوم التنادي: يوم القيامة.

ومنـها:

وقُلْ رَبِّ هَبْ رحمةً في غدٍ | لعبدٍ بِسِيمَا العُصاة اتَّسَمْ
جَرَى في ميادين عصيانِهِ | مُسِيئًا ودانَ بكفرِ النِّعَمْ
فيا ربِّ صَفْحَكَ عمَّا جَنَى | ويا ربِّ عَفْوَكَ عمَّا اجْتَرَمْ

١٨٠ ـ ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر بن عيشون[١].

قال الفتح: رجلٌ حَلَّ المُشَيَّدَات والبلاقع، وحكى النسرين الطائر والواقع، واستدَرَّ خِلْفَي البؤس والنعيم، وقعد مَقْعَد البائس والزعيم، فآونة في سماط، وأخرى بين درانك وأنماط، ويومًا في ناووس، وأخرى[٢] في مجلس مأنوس، رحل إلى المشرق فلم يحمد رحلته، ولم يعلق بأمل نحلته، فارتدّ على عقبه، ورُدَّ من حبالة الفوت إلى منتظره ومرتقبه، ومع هذا فله تحقّقٌ بالأدب، وتدفّق طبع إذا مدح أو نسب، وقد أثبتُّ له ما تعلَمُ حقيقة نفاذه، وترى سرعة وَخْده[٣] في طريق الإحسان وإغذاذه[٤].

ثم قال: وأخبرني أنه دخل مصر وهو سارٍ في ظُلَم البوس، عارٍ من كلِّ لبوس، قد خلا من النقد كيسه، وتخلّى عنه إلّا تعذيره[٥] وتنكيسه، فنزل بأحد شوارعها لا يفترشُ إلّا نكده، ولا يتوسَّدُ إلّا عضده، وبات بليلة ابن عبدل[٦]، تهبُّ عليه صرصر لا ينفح منها عنبر ولا مندل، فلمَّا كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان[٧] فأشفق لحاله، وفرط إمحاله،

(١) ترجمة أبي عامر بن عيشون في قلائد العقيان (ص ٢٨٦).
(٢) في قلائد العقيان: «وآخر».
(٣) في المصدر نفسه: «وخذه في طرق».
(٤) الوَخْدُ والإغذاذ: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و (غذذ).
(٥) في قلائد العقيان (ص ٢٨٧): «إلّا تقديره».
(٦) هو الحكم بن عَبْدل بن جبلة بن عمرو بن حبال الأسدي الكوفي؛ شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية. توفي في حدود المائة. ترجمته في الأغاني (جـ ٢ ص ٣٩٦) ووفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٢٠١) وفوات الوفيات (جـ ١ ص ٣٩٠). وهنا يشير ابن خاقان إلى قوله: [المنسرح]
قد بات هـمِّي قِرْنًا أكابِدُهُ | كأنما مَضْجعي على حَجَرِ
الأغاني (جـ ٢ ص ٤١٦).
(٧) هكذا في قلائد العقيان. وفي طبعة دار صادر: «ابن طوفان».

وأعلمه أن الأفضل [ابن أمير الجيوش][1] استدعاه، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيها لـه لأخْصَبَ مَرْعَاه، فصنع[2] له في حينه: [البسيط]

قِلْ لـلملوك وإنْ كـانتْ لهـمْ هِمَمٌ ... تـأوي إليهـا الأمـاني غيـرَ مُتَّئِـدِ
إذا وَصَلْتُ بشـاهِنْشَـاهَ[3] لي سَبَبًـا ... فلَنْ أُبـالي بمنْ منهـمْ نَفَضْتُ يـدي
مَنْ وَاجَـهَ الشمسَ لم يَعْـدِلْ بهـا قمـرًا ... يعشـو إلى ضوئـه لـو كـان ذا رَمَـدِ

فلمّا كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالاً مصرية وكسوة وأعلمه أنه غنّاه، وجَوَّدَ الإظهار للفظه ومعناه، وكرّره، حتى أثبته في سَمْعه وقرّره، فسأله عن قائله فأعلمه بقلته، وكلّمه في رفع خَلَّته[4]، فأمر له بذلك.

وله أيضًا رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

قَـصَـدْتُ عـلـى أنَّ الـزيـارةَ سُـنَّـةٌ ... يـؤكِّـدُهَـا فَـرْضٌ مِـنَ الـودِّ واجـبُ
فـألـفَـيـتُ بـابًـا سَـهَّـلَ الـلَّهُ إذْنَـهُ[5] ... ولٰكِنْ عليـه مِنْ عُبُـوسِـكَ حـاجـبُ
مَـرِضْـتَ ومَـرَّضْـتَ الـكـلامَ تـثـاقـلاً ... إلـيّ إلـى أن خِـلْـتُ أنـك عـاتِـبُ[6]
فـلا تـتـكـلَّفْ لـلـعـبـوسِ مَـشَـقَّـةً ... سأرضيك بـالهجران إذ أنت غـاضب
فـلا[7] الأرضُ تُـدْمِـيـرُ ولا أنت أهلُهـا ... ولا الـرزقُ إنْ أعْـرَضْـتَ عنِّـيَ جـانـب

وله يستعتبني[8]: [الطويل]

كـتـبـتُ ولـو وَفَّـيْـتُ بِـرَّكَ حَـقَّـهُ ... لمـا اقتصرتْ كفِّي على رَقْمِ قـرطـاسِ
ونـابَـتْ عن الـخطِّ الـخُـطَا وتـبـادرتْ ... فـطَورًا عـلى عيـني وطـورًا عـلى راسي

---

(١) ما بين قوسين لم يرد في قلائد العقيان.
(٢) في قلائد العقيان: «فصعد».
(٣) في المصدر نفسه: «بشاهشاه».
(٤) الخَلَّةُ، بفتح الخاء وتشديد اللام المفتوحة: الحاجة والفقر. مختار الصحاح (خلل).
(٥) في قلائد العقيان: «فَتْحَهُ».
(٦) في المصدر نفسه: «عائبُ».
(٧) في المصدر نفسه: «فما».
(٨) ضمير الغائب يعود إلى ابن خاقان الذي ينقل عنه المقري. وترتيب هذه الأبيات في قلائد العقيان قبل الأبيات السابقة.

سَلِ الكأسَ عنّي هل أُدِيرَتْ فلم أصُغْ مديحَكَ ألحانًا يسُوغُ بها كاسي
وهل نَافَحَ الآسُ الندامى فلم أُذِعْ ثنائيَ[1] أذكى مِنْ منافحة الآسِ

١٨١ ـ ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطُّبْني، وهو عبد الملك بن زيادة اللَّه[2].

قال في الذخيرة: كان أبو مروان هذا أحَدَ حُمَاة سَرْح الكلام، وحَمَلة ألوية الأقلام، من أهل بيتٍ اشتهروا بالشعر، اشتهارَ المنازلِ بالبَدْرِ، أراهم طرأُوا على قُرْطُبة قبل افتراق الجماعة، وانتثار[3] شَمْل الطاعة، وأناخوا في ظلِّها، ولحقوا بسَرَوَات[4] أهلها، وأبو مضر أبوه زيادة اللَّه بن علي التميمي الطُّبْني هو أوّل من بنى بيتَ شرفهم، ورفع في[5] الأندلس صوته بنباهة سلفهم.

قال ابنُ حيان: وكان أبو مُضَر، نديمُ محمد بن أبي عامر، أمتعَ الناس حديثًا ومشاهدةً، وأنصعهم[6] ظرفًا، وأَحْذَقَهم بأبواب الشَّحْذ والملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك والجِلَّة، وأنظمهم لشمل إفادة ونُجْعة، انتهى المقصود منه.

ثم قال في الذخيرة: فأمّا ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية، ورحل إلى المشرق، وسمع من جماعة من المحدّثين بمصر والحجاز، وقُتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة[7]، انتهى.

وقد ذكر قِصّة قتله المستبشعة واتّهم باغتياله ابنه.

---

(١) في قلائد العقيان: «فلم أدع ثناءك».

(٢) ترجمة عبد الملك بن زيادة اللَّه الطبني في جذوة المقتبس (ص ٢٨٤) وبغية الملتمس (ص ٣٧٨) والمغرب (جـ ١ ص ٩٢) والصلة (ص ٥٢٨) والذخيرة (ق ١ ص ٥٣٥) وبغية الوعاة (ص ٣١٢) وفيه: «الطيني».

(٣) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة (ص ٥٣٦): «وانتشار».

(٤) سَرَوات القوم، بفتح السين والواو: سادتهم ورؤساؤهم. محيط المحيط (سرا).

(٥) في الذخيرة: «بالأندلس».

(٦) هكذا في طبعة دار صادر وفي الذخيرة. وفي طبعة عبد الحميد: «وأنصفهم».

(٧) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: توفي بعد الخمسين وأربعمائة مقتولاً. وفي بغية الوعاة: قُتل سنة ٤٥٦ هـ.

ومن نظم أبي مروان الطُّبْنِي المذكور ما وجده صاحب الذخيرة في بعض التعاليق بخطٍّ بعض أدباء قرطبة قال: لَمّا عَدَا أبـو عامـر أحمد بن محمـد بن أبي عامـر على الحَذْلَميّ في مجلسـه وضربـه ضربًـا موجعًـا وأقَرَّ بـذلك أعينَ مـطالبيه، قـال أبو مـروان الـطُّبْنِي فيـه[1]: [المنسرح]

شكرتُ للعامريِّ ما صَنَعَا ... ولم أقلْ للحُذَيلِمِيِّ لَعَا
ليثُ عَرِينٍ عَدَا بعزّته[2] ... مفترسًا في وِجاره ضَبُعَا
لا بَرِحَتْ كفُّه مُمَكَّنَةً ... مِنَ الأماني فَنِعْمَ ما صَنَعا
وَدِدْتُ لو كنتُ شاهدًا لهما ... حتى ترى العينُ ذُلَّ ما[3] خضعا
إنْ طال منه سجودُهُ فلقد ... طالَ لغير السجودِ ما ركعا

قال ابن بسام: وابن رشيق القائل قبله[4]: [البسيط]

كم رَكْعَةٍ ركَعَ الصَّفْعَانُ[5] تحت يدي ... ولم يَقُلْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهْ

ثم قال ابن بسام في الذخيرة ما نصُّه: والعَرَبُ تقول «فلان يركع لغير صلاة»[6] إذا كَنَوا عن عَهْر الخَلْوَة. ومن مليح الكناية لبعض المتقدّمين يخاطب امرأته[7]: [الكامل]

قلت التَّشَيُّعُ حُبُّ أصْلَعِ[8] هاشمٍ ... فترفَّضِي إنْ شئتِ أو فتشيَّعي
قالت: أصَيلِعُ هاشمٍ، وتنفَّسَتْ ... بأبي وأمي كلّ شيءٍ أصلعِ

ولَمَّا صنْتُ كتابي هذا من[9] شين الهجاء، وأكبرته[10] أن يكون ميدانًا للسُّفهاء،

---

(١) الأبيات في الذخيرة (ص ٥٤٣).
(٢) في الذخيرة: «لعزّته».
(٣) في المصدر نفسه: «من خضعا».
(٤) البيت في الذخيرة (ص ٥٤٣) وفي ديوان ابن رشيق (ص ٥٩).
(٥) الصَّفْعان: الذي يُصْفَعُ دائمًا. محيط المحيط (صفع).
(٦) في الذخيرة (ص ٥٤٤): «والعرب تقول: فلان يخبأ العصا وفلان يركع لغير صلاة».
(٧) البيتان في الذخيرة دون تغيير عمّا هنا.
(٨) أصلع هاشم: هو الإمام علي كرّم اللّه وجهه.
(٩) في الذخيرة: «عن شين».
(١٠) في طبعة عبد الحميد: «وكبرته».

أجريتُ ههنا طَلَقًا[1] من مليح التعريض، في إيجاز القـريض، مِمّا لا أدب على قـائليه، ولا وَصْمَـةَ عـظمى[2] على من قيـل فيـه، والهجـاء ينقسم قسمين: فقسم[3] يُسَمّـونَـهُ هَجْـوَ الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابًا مُقْذِعًا، ولا هجوًا[4] مُسْتَبْشَعًا، وهو طَأْطَـأَ قديمًـا من الأوائل، وثَلَّ عَرْشَ القبائل، إنما هو توبيخٌ وتعيير، وتقديمٌ وتأخيـر، كقول النجـاشي [5] في بني العَجْلَان، وشهرة شعـره، منعتني[6] عن ذكره، واستعْـدَوا عليه عمـر بن الخطاب، رضي اللّٰه تعـالى عنه، وأنشـدوه قول النجـاشي فيهم، فدرأ الحَـدَّ بالشُّبُهـات. وفعـل ذلـك بالزّبْـرقان[7] حين شكا الحطيئةَ، وسأله أن يُنْشد ما قاله فيه، فأنشده قوله[8]: [البسيط]

دَعِ المكـارمَ لا تَـرْحَـلْ لبغيتهـا وَاقْعُدْ فإنـك أنتَ الطاعمُ الكـاسي

فسـأل عن ذلك كعبَ بن زهيـر، فقال: واللّٰه مـا أودُّ بمـا قـال لـه حُمْـرَ النَّعَم. وقـال حسـانُ[9]: لم يَهْجُه، ولكن[10] سَلَحَ عليـه بعـد أن أكـل الشُّبْـرُمَ، فهمَّ عمـرُ، رضي اللّٰه تعالى عنه، بعقابه، ثم استعطفه بشعره المشهور.

وقال عبد الملك بن مـروان يومًـا: أحسابكم[11] يا بني أمية، فمـا أودّ أن يكون لي مـا طلعت عليه الشمس وأنَّ الأعشى قال فيَّ[12]: [الطويل]

تبيتـون في المَشْتَى مِـلاءً بـطونُكُمْ وجـاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خمـائصـا[13]

(١) في الذخيرة: «طَرَفًا».
(٢) في المصدر نفسه: «أعظمُ».
(٣) في المصدر نفسه: «قسم».
(٤) في المصدر نفسه: «هُجْرًا».
(٥) هو قيس بن عمرو بن مالك النجاشي الحارثي، وقصته مع بني العجلان في الشعر والشعـراء (ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠).
(٦) في الذخيرة: «تُغْني عن ذكره..».
(٧) قصة الزِّبْرقان والحطيئة في الشعر والشعراء (ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥).
(٨) هكذا ورد البيت في الذخيـرة (ص ٥٤٥) والشعر والشعـراء (ص ٢٤٥)، وسيرد في الجـزء الخامس من نفح الطيب.
(٩) في الذخيرة: «حسان بن ثابت».
(١٠) في المصدر نفسه: «وإنما».
(١١) في الذخيرة: «احْفظوا أحسابكم».
(١٢) هكذا ورد البيت في الذخيرة.
(١٣) المَشْتَى: زمان الشتاء ومكانه. غَرْثَى: جائعة. الخمائص: جمع خميص وهي الضامرة البطن، وأراد بها=

ولَمَّا سمع علقمةُ بن عُلاثَة هذا البيت بكى، وقال: أنحن نفعلُ هـذا بجاراتنـا؟! ودعا عليه، فما ظَنُّكَ بشيءٍ يُبكي[1] علاثة، وقد كان عندهم لو ضُرِب بالسيف ما قال حَسِّ؟

وقد كان الراعي يقول: هجوتُ جماعةً من الشعراء، وما قلتُ فيهم ما تستحيي العذراءُ أن[2] تنشده في خدرها.

ولما قال جرير: [الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنكَ مِنْ نُمَيرٍ   فلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كلابا

أطفأ مصباحه ونام، وقد كان بات ليلَته يتململ؛ لأنه رأى أنه[3] قد بلغ حاجته وشفى غيظه.

قال الراعي: فخرجْنا من البصرة فما وردْنا ماء من مياه العرب إلَّا وسمعْنا البيت قد سَبَقَنا إليه، حتى أتينا حاضرَ بني نُمَير فخرج إلينا النساءُ والصِّبْيان يقولون: قبّحكم اللَّه وقبّح ما جِئْتُمُونا به!

والقسم الثاني: هو السباب الذي أحدثه جريرٌ أيضًا[4] وطبقته، وكان يقول: إذا هجوتم فأضحكوا، وهذا النوعُ منه لم يَهْدِمْ قطُّ بيتًا، ولا عُيِّرَتْ به قبيلة، وهو الذي صُنَّا هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيءٌ منه، فإنَّ أبا منصور الثعالبيّ كتب منه في يتيمته ما شانَهُ اسمُه[5]، وبقي عليه إثمه.

ومن مليح التعريض لأهل أفقنا[6] قولُ بعضهم في غلامٍ كان يَصْحَبُ رجلًا يُسمَّى[7] بالبَعُوضة: [المتقارب]

أقولُ لِشادِنِكُمْ قَوْلَةً   ولكنَّها رَمْزَةٌ غامِضَهْ
لُزُومُ البعوضِ له دائمًا   يَدُلُّ على أنها حامِضَهْ

= هنا الناحلة من شدّة الجوع. لسان العرب (شتا) و (غرث) و (خمص).

(١) في الذخيرة: «يبكي علقمة بن علاثة».
(٢) في المصدر نفسه: «العذراء من إنشاده:».
(٣) في المصدر نفسه: «أنْ».
(٤) كلمة «أيضًا» ساقطة من الذخيرة.
(٥) في الذخيرة (ص ٥٤٦): «وَسْمُهُ».
(٦) أي لأهل أفق ابن بسام صاحب الذخيرة.
(٧) في الذخيرة: «يُعْرَفُ».

وأُنْشِدْتُ في مثله قول بعض أهل الوقت: [البسيط]

بَيْني وبَينَكَ سِرٌّ لا أبوحُ به[1] الكلُّ يَعْلَمُهُ واللَّهُ غافِرُهُ

وحكى أبو عامر بن شُهَيد عن نفسه قال[2]: عاتبْتُ بعض الإخوان عتابًا شديدًا عن أمرٍ أَوْجَعَ فيه قلبي، وكان آخرَ الشعر الذي خاطبْتُه به هذا البيت: [الطويل]

وإني على ما هاج صَدْري وغاظني لَيَأْمَنُني مَنْ كان عندي له سِرُّ

فكان هذا البيت أشدَّ عليه من عَضِّ الحديد، ولم يزل يَقْلَقُ به حتى بكى إليَّ منه بالدموع. وهذا الباب ممتدُّ الأطناب، ويكفي ما مرَّ ويمرُّ منه في أضعاف هذا الكتاب. انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه.

ولا خفاء أنه عارض بالذخيرة يتيمَةَ الثعالبي، ولذا قال في خطبة الذخيرةِ[3]: أمَّا بَعْدَ حمد اللّه وليِّ الحمدِ وأهلِه، والصلاةِ على سيِّدنا محمد خاتم رُسْله، فإنَّ ثمرةَ هذا الأدب، العالي الرُّتَب، رسالةٌ تُنْثَرُ وتُرْسَلُ، وأبياتٌ تُنْظَمُ وتُفَصَّلُ، تنثالُ تلك انثيال القِطَار[4]، على صفحات الأزهار، وتتّصل هذه اتّصالَ القلائد، على نُحور الخرائد، وما زال في أُفقنا هذا الأندلسي القصيِّ إلى وقتنا هذا من فرسانِ الفَنَّين، وأئمّة النوعَين، قومٌ هم مَا هم طيبَ مَكاسِر، وصفاءَ جواهر، وعذوبةَ مَوَارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام المشقّق، لعب الدُّجَى[5] بجُفُون المؤرَّق، وحَدَوا[6] بفنون السِّحْر المنمَّق، حُداءَ[7] الأعشى ببنات المُحَلَّق، فصبُّوا على قوالب النجوم، غرائبَ المنثور والمنظوم، وباهَوا غُرَرَ الضُّحَى والأصائل، بعجائبِ الأشعار والرسائل؛ نَثْرٌ لو رآه البديع[8] لنسي اسمه، أو اجتلاه ابنُ

(١) كلمة «به» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٢) النص بما فيه البيت الشعري في الذخيرة (ص ٥٤٧) دون تغيير عمّا هنا.

(٣) الذخيرة (ق ١ ص ١١ - ١٣).

(٤) تنثال: تتتابع. القِطار: جمع القَطْر وهو المطر. محيط المحيط (ثال) و (قطر).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «الدجن».

(٦) في الطبعة نفسها: «وجدّوا».

(٧) في الطبعة نفسها: «جدّ الأعشى». والأعشى هو ميمون بن قيس، أحد شعراء الجاهلية الكبار، أدرك الإسلام في آخر عمره، وسمّي «صنّاجة العرب» لأنه أول من ذكر الصنج في شعره. الشعر والشعراء (ص ١٧٨) ومعجم الشعراء (ص ١٢).

(٨) البديع: هو بديع الزمان الهمذاني مخترع المقامات.

هلال لولاهُ حُكْمَه، ونظمٌ لو سمعه كُثَيِّر[1] ما نَسَبَ ولا مدح، أو تَتَبَّعَهُ جَرْوَلٌ[2] ما عوى ولا نبح، إلَّا أن أهل هذا الأفق أبَوا إلَّا متابعةَ أهـل الشرق، يـرجعون إلى أخبـارهم المُعَادة[3]، رجوعَ الحديث إلى قَتَادة[4]، حتى لو نَعَق بتلك الآفاق غُرَاب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذُبـاب، لَجَثَوْا على هـذا صَنَمًا، وتَلَوا ذلـك كتابًـا مُحْكَمًا، وأخبـارُهم البـاهـرة، وأشعـارُهم السائرة، مَرْمَى القَصِيَّة، ومُناخُ الرَّذِيَّة[5]، لا يعمر بها جَنانٌ ولا خَلَدٌ، ولا يُصَرَّفُ فيها لسـانٌ ولا يـد. فغاظني منهم ذلـك، وأنِفْتُ مِمّـا هنـالـك، وأخـذْتُ نفسي بجَمْـع مـا وجـدْتُ مِنْ حسنات دهري، وتَتَبُّع محاسن أهل بلدي وعصري، غَيرَةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بُـدُورُهُ أَهِلَّة، وتُصْبح بحورُه ثِمادًا مُضْمَحِلَّة[6]، مع كثرة أدبائه، ووُفُورِ علمائه، وقديمًا ضَيَّعوا العلمَ وأهلَه، ورُبَّ[7] مُحْسِنٍ مات إحسانُهُ قبله، وليت شعري مَنْ قصر العلمَ على بعض الزمـان، وخَصَّ أهلَ المشرق بـالإحسان؟ وقـد كتَبْتُ لأرباب هـذا الشان، من أهـل الوقت والـزمان، محـاسنَ تَبْهر الألبـاب، وتَسْحَـرُ الشعـراء والكُتّـاب. ولـم أعـرِضْ لشيء من أشعـار الـدولـة المروانية، ولا المـدائحِ العـامريـة؛ إذ كان ابن فـرج الجَيَّاني[8] قـد رأى رأيي في النَّصَفَة، وذهب مذهبي من الأنفة، فـأملى في محاسن أهـل زمانـه كتابَ «الحـدائق» معارضًـا لكتاب «الزهرة» للأصبهاني[9]، فأضربْتُ أنا عَمّا ألَّف، ولم أعـرض لشيء مِمَّا صنَّف، ولا تعـدَّيْتُ أهل عصري، مِمّا شاهدْتُه بعمري، أو لحقه[10] أهل دهري، إذ كلُّ مُرَدَّدٍ ثقيل، وكل متكرّر مملول، وقد مَجَّت الأسماع: [البسيط]

يـا دار مـيّـة بـالعليـاءِ فـالسنـدِ

---

(١) كُثَيِّر: هو كثير بن عبد الرحمن، المشهور بكثير عزَّة.

(٢) جَرْول: هو الحطيئة.

(٣) في الذخيرة (ص ١٢): «المعتادة».

(٤) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي؛ من حفّاظ أهل زمانه، ومن علماء الناس بالقرآن والفقه. توفي سنة ١١٧ هـ. تهذيب التهذيب (جـ ٨ ص ٣٥١).

(٥) الرَّذِيَّة: الناقة المهزولة من السير؛ يعني أن أخبارهم وأشعارهم منبوذة. محيط المحيط (رذي).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «مضحملة».

(٧) في الذخيرة: «ويا رُبَّ».

(٨) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني، صاحب كتاب «الحدائق»، وقـد مرَّ التعـريف به والإشـارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٩) هـو محمد بن داود الـظاهري الأصبهـاني، وقد صنّف كتـاب «الزهـرة» في عنفـوان شبـابـه. تـوفي سنـة ٢٩٧ هـ. تاريخ بغداد (جـ ٥ ص ٢٥٦) ووفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٢٥٩).

(١٠) في الذخيرة (ص ١٣): «لحقه بعض أهل. .».

إلى أن قال بعد ذكره أنه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضي عبد الوهاب والوزير ابن المغربي وغيرهم مِمَّنْ يطول، ما صورته: وإنما ذكرت هؤلاء ائتساءً بأبي منصور، في تأليفه المشهور، المترجم بـ «يتيمة الدهر، في محاسن أهل العصر». انتهى المقصود منه.

قلت: وتذكّرت بما أنشده في الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبي العباس أحمد الغفجومي الشهير بالْجَوَاري[1] وعامّةُ الغرب يقولون الجراوي، يهجو قومه بني غفجوم وهم بربر بِتادَلا، متوصّلاً بذلك إلى هجو أُصلاء فاس بني الملجوم، ومستطردًا في ذلك ما هو في اطراده كالماء السجوم، وهو قوله: [الكامل]

يا ابنَ السبيل إذا مَرَرْتَ بِتادَلا	لا تنزلنَّ على بني غفجومِ
أرضٌ أغارَ بها العدوُّ فلن ترى	إلَّا مجاوبةَ الصدى للبُوم
قومٌ طووا ذِكْرَ السماحةِ بينهمْ	لكنهمْ نشروا لواءَ اللُّومِ
لا حظَّ في أموالهمْ ونوالهمْ	للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون إذا اسْتُبيح حريمُهُمْ	إلَّا الصُّرَاخَ بدعوة المظلوم
يا ليتني مِنْ غيرهم ولو انّني	من أرضِ فاسٍ من بني الملجوم

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن أحد بني الملجوم، قضاة فاس وأصَلاّئها، بيعت أوراق كتبه التي هي غير مجلّدة بل متفرّقة بستة آلاف دينار، ويكفيك ذلك في معرفة قدر القوم، ومع ذلك هجاهم بهذا، واللّه سبحانه يغفر الزلات.

رجع إلى ما كُنّا فيه من ذكر من ارتحل من علماء الأندلس إلى البلاد المشرقية المحروسة، فنقول:

١٨٢ ـ ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان[2].

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي؛ دخل الأندلس وتردّد على مدنها، وكان عالمًا بالآداب. توفي سنة ٦٠٩ هـ بإشبيلية. التكملة (ص ١٢٨).

(٢) ترجمة حبيب بن الوليد في التكملة (ص ٢٧٧) والمقتبس بتحقيق مكي (ص ٤٩).

من أهل قرطبة، ويُعْرف بدَحُّون، [رحل إلى المشرق، وكان فقيهًا عالمًا، أديبًا شاعرًا محسنًا، و][1] رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم، وحجَّ، ولقي أهل الحديث فكتب عنهم، وقدم[2] بعلم كثير، وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها، وهو يلبس الوشي الشامي، إلى أن أوصى إليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك، فتركه، وتوفي بعد المائتين.

ومن شعره قوله: [الكامل]

قال العَذُولُ: وأين قلبك؟ كلّما ... رُمْتُ اهتداءك لم يزلْ متحيّرا

قلتُ: اتَّئِدْ فالقلبُ أول خائن ... لمّا تغيَّرَ مَنْ هَويتُ تغيّرا

ونأى فبانَ الصَّبْرُ عنّي جملة ... وبقيتُ مسلوبَ العزاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام، وكان أديبًا عالمًا فقيهًا، رحم الله تعالى الجميع!.

ودخل دمشق وطنهم الأقدم وعاملها يومئذ للمعتصم ابن الرشيد عمر بن فرج الرُّخَّجي، فوافق دخوله إيّاها غلاءً شديدًا ومجاعةً أشكت أهلها، فضجّوا إلى الرُّخَّجي أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد، فأمر بالنداء في المدينة على كل مَنْ بها مِنْ طارىء وابن سبيل ليخرجوا عنها، وضرب لهم أجلاً ثلاثة أيام أوعد من تخلّف منهم بعدها بالعقاب، فابتدر الغرباء الخروجَ عنها، وأقام دَحُّون لم يتحرّك، فجيء به إلى الرُّخَّجي بعد الأجل، فقال له: ما بالك عصيت أمري؟ أَوَ ما سمعْتَ ندائي؟ فقال له دَحُّون: ذلك النداء الذي وقَفني، فقال له: وكيف؟ فانتمى له، فقال له الرُّخَّجِي: صدقت والله إنك لأحَقُّ بالإقامة فيها منّا، فأقم ما أحببْتَ، وانصرفْ إذا شِئْتَ.

وكان لدحُّون هذا ابنٌ يقال له بشر بن حبيب، ويُعْرف بالحبيبي، وهو من المشهورين بقرطبة، وأُمُّه المدنيّة الراوية عن مالك بن أنس، رضي الله تعالى عنه! وبنته عَبْدَة بنت بشر مشهورة، ولها رواية عنه، رحم الله تعالى الجميع!.

١٨٣ - ومنهم بهلول بن فتح[3]، من أهل أُقليش، له رحلة حجّ فيها، وكان رجلاً صالحًا خيِّرًا، حكى عن نفسه أنه رأى في منامه بعد قدومه من الحجّ كأنه بمكّة وقائل يقول:

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٢) في طبعة دار صادر: «وقفل».

(٣) ترجمة بهلول بن فتح في التكملة (ص ٢٢٧).

انْطَلِقْ بنا نُصَلِّ مع النبي ﷺ، قال: فكنت أقول لرجل من جيراني بأُقليش: يا أبا فلان، انطلقْ بنا نُصَلِّ مع النبيّ ﷺ، فيقول لي: لست أجد إلى ذلك سبيلاً، فكنت أتوجّه وأصلّي مع الناس والنبيّ ﷺ إمامنا، فلمّا سلّم من الصلاة رجع إليَّ وقال لي: من أين أنت؟ قلتُ له: من الأندلس، فكان يقول: من أي موضع؟ فكنت أقول: من مدينة أُقْليش، فيقول لي: أتعرف أبا إسحاق البَوّاني؟ فكنت أقول: هو جاري، وكيف لا أعرفه؟ فيقول لي: أَقْرئه منّي السلام.

١٨٤ ـ ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولي، الشاطبي[١].

روى عن أبي زيد عبد الرحمن بن يعيش المهري[٢]، ورحل حاجًّا، فسمع منه بالإسكندرية أبو الحسن بن المفضل المقدسي، وحدّث عنه بالحديث المسلسل في الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبي محمد عبد العزيز بن عبد اللّه بن سعيد بن خلف الأنصاري عن أبي الحسن طاهر بن مُفَوِّز، وعليه مداره بالأندلس، عن نصر السمرقندي بإسناده، وفيه بعد، قال الحافظ ابن الأبّار: وقد رويتُه مسلسلاً من طرق بعضها عن ابن المفضل، وأنبأني به ابن أبي جَمْرة[٣] عن أبي بحر الأندلسي[٤]، عن نصر السمرقندي، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه مِمَّنْ سمعه منّي، والحمد للّه تعالى، انتهى.

١٨٥ ـ ومنهم أبو أحمد جعفر بن لُبِّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون، اليحصبي[٥].

سكن شاطبة، وأصله من أنشيان عملها، ويكنى أبا الفضل أيضًا، حجَّ وسمع أبا طاهر بن عوف والحافظ السِّلَفي وأبا عبد اللّه بن الحضرمي وأبا الثناء الحراني وبدر بن عبد اللّه الحبشي وأبا الحسن ابن المفضل وغيرهم، وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة، حسن الخطّ، جيّد الضبط، سمّاه التُّجيبي في معجم مشيخته وهو في عداد أصحابه لاشتراكهما في السماع بإسكندرية وتركه هنالك، ثم قدم عليه تلمسان من

---

(١) ترجمة ثابت بن أحمد الشاطبي في التكملة (ص ٢٣٦).

(٢) في طبعة بولاق وفي التكملة: «الهروي».

(٣) في طبعة بولاق: «حمزة».

(٤) في طبعة دار صادر: «الأسدي» بدل «الأندلسي».

(٥) ترجمة جعفر بن لب اليحصبي في التكملة (ص ٢٤٢).

شاطبة في أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة، وحكى مِمَّا أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد اللَّه الكيزاني[1] ـ وكان شاعرًا مجيدًا ـ أتته امرأة مات ولدها، فسألته أن يرثيه، فقال: [المجتث]

تبكي عليه بشَجْوٍ فقلْتُ لا تَنْدُبِيهِ
هذا زمانٌ عجيبٌ قد عاش مَنْ ماتَ فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم وقال: إنه توفي بعد التسعين وخمسمائة، رحمه اللَّه تعالى!.

١٨٦ ـ ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد اللَّه بن محمد بن سيدبونه، الخزاعي، العابد[2].

من أهل قسطنطانية عمل دانية، أخذ القراءات عن ابن هذيل، وسمع منه ومن ابن النعمة ببَلَنْسِية، ورحل حاجًّا فأدّى الفريضة، ودخل الإسكندرية مرافقًا لمن سمع من السِّلَفي، ولم يسمع منه هو شيئًا، قال ابن الأبار: فيما علمت، وقفل إلى بلده مائلاً إلى الزهد والإعراض عن الدنيا، وكان شيخ المتصوّفة في وقته، وعلا ذكره، وبعد صيته في العبادة، إلاّ أنه كانت فيه غفلة، قال ابن الأبار: ورأيته إذ قدم بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة، وتوفي عن سنّ عالية تقارب المائة، منتصف ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة، وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتّى، وانتاب الناسُ قبره دهرًا طويلاً يتبرّكون بزيارته إلى حين إجلاء الروم مَنْ كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التي تغلّبوا عليها، وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة.

١٨٧ ـ ومنهم أبو جعفر النحوي[3].

أندلسي نزل مصر، وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو، ومِمَّن له حال جليلة، ذكره الطُّبْني فيما حكاه ابن الأبار.

(١) هو أبو عبد اللَّه محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المصري، المعروف بابن الكيزاني؛ فقيه واعظ، وشاعر مشهور، له ديوان شعر أكثره في الزهد. توفي سنة ٥٦٢ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٦١) والوافي بالوفيات (جـ ١ ص ٣٤٧) والمغرب ـ قسم مصر (جـ ١ ص ٢٦١).
(٢) ترجمة جعفر بن عبد اللَّه ابن سيدبونة الخزاعي في التكملة (ص ٢٤٤) والإحاطة (جـ ١ ص ٤٦١). وسيترجم له المقري ثانية في هذا الجزء من نفح الطيب (رقم ٢٤١).
(٣) ترجمة أبي جعفر النحوي في التكملة (ص ٢٤٤).

١٨٨ ـ ومنهم أبـو الحسن جابـر بن أحمد بن عبـد اللّه، الخزرجي، القـرطبي، وكنّـاه بعضهم أبا الفضل[١].

سمع ببلده من أبي محمد بن عتاب وغيره، ورحل حاجًّـا فأدّى الفـريضة، وكـان أديبًا ناظمًا، كتب عنه أبو محمد العثماني بالإسكندرية بعض شعره.

١٨٩ ـ ومنهم أبو الحسن جَهْوَر بن خلف بن أبي عمر بن قاسم بن ثابت المَعَافري[٢].

رحل حاجًّا إلى المشرق فأدّى الفريضـة، وسمع بـالإسكندريـة من أبي طاهـر السِّلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وسمع أيضًا من غيره، وطال مكْثُه هنالك، وهـو ـ فيما رجّحـه بعضهم[٣] ـ من أهل غرب الأندلس.

١٩٠ ـ ومنهم أبو علي الحسن بن حَفْص بن الحسن، البَهْراني، الأندلسي[٤].

رحل وتجوّل ببلاد المشرق، فسمع أبا محمد عبد اللّه بن حَمُّوَيْه وأبـا حامـد أحمد بن محمد بن رجاء بسَرَخْسَ، وأبا محمد بن أبي شُرَيح بِهَرَاة، وأبا عبد اللّه الحسين بن عبد اللّه المفلحي بالأهواز، وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمـد بن الخليل وأبـا حاتم حـامد بن العبـاس وأبا محمـد الحسن بن رشيق بمصر، وقـدم دمشق فـروى عنـه من أهلهـا تمام بن محمد، وبنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره.

ذكره ابن عساكر وقال: أخبرنا أبـو عبد اللّه الحسين بن أحمـد بن علي بن فطيمـة وأبو القـاسم زاهر بن طـاهر قـالا: أنا أبـو بكر أحمـد بن منصور، أنـا أبو علي الحسن بن جعفـر القضـاعي، وأنا الحسن بن رشيق بمصـر، أنا المفضـل بن محمد الجنـدي، أنا أبـو مصعب أحمـد بن أبي بكر الـزهري، قـال: سمعْتُ مالـك بن أنس يقول: لا يُحْمَـلُ العلم عن أهل البِدَع كلّهم، ولا يحمل العلم عَمَّنْ لم يُعْرف بالطلب ومجالسة أهل العلم، ولا يُحْمَلُ عَمَّن يكذب في حديث الناس، وإن كان في حديث رسول اللّه ﷺ، صادقًا؛ لأن الحـديث والعلم

(١) ترجمة جابر بن أحمد الخزرجي القرطبي في التكملة (ص ٢٤٦).

(٢) ترجمة جهور بن خلف المعافري في التكملة (ص ٢٥٤).

(٣) قال ابن الأبار في التكملة: «أحسبه من أهل غرب الأندلس».

(٤) ترجمة الحسن بن حفص البهراني الأندلسي في التكملة (ص ٢٥٥) وتهـذيب تاريـخ ابن عسـاكـر (جـ ٤ ص ١٧٢).

إذا سُمع من العالم فقد جُعل حجّة بين الذي سمعه وبين اللّه تبارك وتعالى. وإنما قال فيه «القضاعي» لأنَّ بَهْرَاءَ من قُضَاعة.

١٩١ - ومنهم أبو علي الحسن بن خلف بن يحيىٰ بن إبراهيم بن محمد، الأموي[١].

من أهل دانِيَةَ، ويُعْرف بابن بَرَنْجَال، سمع من أبي بكر ابن صاحب الأحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما، وله رحلة حجَّ فيها وسمع من أبي إسحٰق إبراهيم بن صالح القروي، وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة، وبعَسْقَلَان من أبي عبد اللّه محمد بن الحسن بن سعيد التُّجِيبي، وأخذ عنه كتاب «الوقف والابتداء» لابن الأنباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه، وكان فقيهًا على مذهب مالك، وولي الأحكام ببلده، وحدّث، وأُخذ عنه، وسمع الناسُ منه بالإسكندرية سنة تسع وستين، ثم بدانِيَةَ سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وتوفي في نحو الخمسمائة، رحمه اللّه تعالى!.

١٩٢ - ومنهم أبو علي الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تَقي[٢]، الجُذَامي، المالقي[٣].

روى بقُرْطُبة عن أبي محمد بن عَتَّاب، وعن ابن[٤] سُكّرة الصَّدَفي بمُرْسِية سنة ثمان وخمسمائة، وصحب أبا مروان بن مَسَرَّةَ، وكان من أهل الرواية والتقييد، وكانت له رحلة سمع فيها من أبي طاهر السِّلَفي مجالسه التي أملاها بسَلَمَاس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما أُلفي بخطِّ السلفي، وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البَطَلْيَوسي نزيل مكة، وحدّث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتَّنُوخي من أهل الإسكندرية بكتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر، وأجاز له إجازة عامّة في السنة السابقة، وقال ابن عساكر في تاريخه، وذكر أبا ذر[٥] الْهَرَوي: سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المُرَادي الحافظ

---

(١) ترجمة الحسن بن خلف الأموي في التكملة (ص ٢٥٧).

(٢) في طبعة بولاق: «بقي».

(٣) ترجمة الحسن بن إبراهيم المالقي في التكملة (ص ٢٥٨) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٨١).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «أبي سكرة».

(٥) في طبعة ليدن: «أبو ذرّ».

الأندلسي بنيسابور يقول: سمعت أبا علي الحسن بن علي الأنصاري البطليوسي، قال ابن عساكر: وقد لقيتُه، ولم أسمعْها منه، قال: سمعْتُ أبا علي الحسن بن إبراهيم بن تقي الجذامي المالَقِي يقول: سمعْتُ بعضَ الشيوخ يقول: قيل لأبي ذر الهروي: أنت من هَرَاة، فمن أين تمذهبْتَ لمالك والأشعري؟ فقال: إني قدمتُ بغداد أطلب الحديث، فلزمْتُ الدارقطني، فلمّا كان في بعض الأيام كنت معه، فاجتاز به القاضي أبو بكر ابن الطيب، فأظهر الدارقطني من إكرامه ما تعجَّبْتُ منه، فلمّا فارقه قلتُ: أيها الشيخ الإمام، مَنْ هذا الذي أظهرت من إكرامه ما رأيت؟ فقال: أَوَ ما تعرفه؟ قلت: لا، فقال: هذا سيف السّنّة أبو بكر الأشعري، فلزمْتُ القاضي منذ ذلك، واقتديتُ به في مذهبه، انتهى.

١٩٣ ـ ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر، الأنصاري، البَطَلْيَوسي[١].

رحل إلى المشرق، فأدّى الفريضة، وتجوَّل هناك، ولقي أبا الحسن بن المُفَرِّج الصقلي وأبا عبد اللّٰه الفراوي، فسمع منهما الصحيحين بعلوّ، وسمع من أبي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود، وحَدّث بالموطإ عن أبي بكر الطُّرْطوشي، وله أيضًا رواية عن زاهر بن طاهر الشَّحّامي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري[٢]؛ سمع منه مقاماته الخمسين بِبُسْتانه من بغداد، ونزل بمكّة، وجاور بها، وحدّث فيها وفي غيرها، وأسنّ، وكان ثقة مسندًا يروي عنه أبو عبد اللّٰه بن أبي الصيف اليمني وأبو حفص[٣] بن شراحيل الأندلسي وأبو عبد اللّٰه محمد بن إبراهيم الإرْبلي، وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة، وقد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ وروى عنه.

١٩٤ ـ ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري[٤].

---

(١) ترجمة الحسن بن علي البطليوسي في التكملة (ص ٢٦٠).

(٢) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، صاحب المقامات الخمسين، وقد سار فيها على طريقة بديع الزمان الهمذاني. توفي سنة ٥١٦ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٦٣) ومعاهد التنصيص (جـ ٣ ص ٢٧٢) وبغية الوعاة (ص ٣٧٨).

(٣) في طبعة دار صادر: «وأبو جعفر».

(٤) ترجمة الحسن بن محمد الأنصاري في التكملة (ص ٢٦١).

من أهل لرية[1] عمل بَلَنْسِية، ويُعْرف بابن الرَّهْبِيل[2]، سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرًا، واختصّ به، وعنه أخذ القراءات، وسمع من ابن هذيل أيضًا، ثم رحل حاجًّا، فلقي بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السِّلَفي وأبا عبد الله بن الحَضْرَمي، وسمع منهما، وجاور بمكّة، وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري، وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي عن أبيه، وسمع أيضًا من أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي ببجَايَةَ عند صدوره في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وقفل إلى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والإقبال على ما يَعْنيه، وكان قد خطب به قبل رحلته، وحكى التُّجيبي أنَّ طلبة الإسكندرية تزاحموا عليه لسماع «التيسير» لأبي عمرو المقرىء منه بروايته عن ابن هُذيل سماعًا في سنة ثلاث وخمسين، وصارت له بذلك عندهم وجاهة، وبعد قُفوله أصابه خَدَر منعه من التصرّف، وكان الصلاح غالبًا عليه، وتوفي غدوة الجمعة لثمانٍ خَلَوْنَ من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله تعالى!.

١٩٥ ـ ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حيّ، التُّجِيبي، القرطبي[3].

أخذ علم العدد والهندسة عن أبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن بُرْغُوث[4]، وكان كلفًا بصناعة التعديل، وله زيجٌ مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه، وحكى أنه خرج من الأندلس في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بعد أن نالته بها وبالبحر مِحَنٌ شداد، ولحق بمصر، ثم رحل عنها إلى اليمن، واتّصل بأميرها، فحظي عنده، وبعثه رسولاً إلى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد، ونال هناك دنيا عريضة، وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة- ست وخمسين وأربعمائة، رحمه الله تعالى!

١٩٦ ـ ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد، الكُلَاعي[5].

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ألمرية».
(٢) في التكملة: «الرهبيل».
(٣) ترجمة الحسين بن أحمد التجيبي القرطبي في التكملة (ص ٢٧٣) وطبقات الأمم (ص ٧٣).
(٤) كان ابن برغوث عالمًا بالرياضيات والفلك، وكانت وفاته سنة ٤٤٠ هـ. طبقات الأمم (ص ٧١).
(٥) ترجمة حماد بن الوليد الكلاعي في التكملة (ص ٢٨٥).

أخذ بقُرْطُبة عن أبي المطرف القنازعي وغيره، ورحل إلى المشرق، وحدّث بالإسكندرية فسمع منه بها يحيىٰ بن إبراهيم بن عثمان بن شبل «شرح الاعتقاد» من تأليفه، ورسالة «قمع الحِرص، وقَصْر الأمل، والحث على العمل»، وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، ولقيه هنالك أبو مروان الطُّبْني، فسمع منه بعض فوائده.

١٩٧ ـ ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد اللَّه بن جُبَير[١].

من أهل طُرْطُوشة، يُعْرف بالجُبَيري، وهو والد أبي عبيد القاسم بن خلف الجبيري الفقيه، وكانت له رحلة إلى المشرق، ومعه رَحَل ابنهُ وهو صغير، وكان من أهل العلم والنزاهة، وعليه نزل القاضي مُنْذِر بن سعيد بطرطوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية، قال أبو عبيد: نزل القاضي مُنْذِر بن سعيد على أبي بطُرْطوشة، وهو يومئذ يتولّى القضاء في الثغور الشرقية قبل أن يلي قضاء الجماعة بقرطبة، فأنزله في بيته الذي كان يسكنه، فكان إذا تفرّغ نظر في كتب أبي، فمرَّ على يديه كتاب فيه أرجوزة[٢] ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر عليًّا فيهم، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مَرْوَان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلمَّا رأى ذلك منذر غضب وسَبَّ ابن عبد ربه، وكتب في حاشية الكتاب: [الكامل]

أوَمَا عليٌّ، لا بَرِحْتَ مُلَعَّنًا ... يا ابنَ الخبيثة! عندكُمْ بإمامِ
رَبُّ الكساءِ[٣] وخَيرُ آلِ محمدٍ ... داني الولاءِ مُقَدَّمُ الإسلامِ

قال أبو عبيد: والأبيات بخطه في حاشية كتاب أبي إلى الساعة، وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين وثلثمائة.

---

(١) ترجمة خلف بن فتح بن جبير في التكملة (ص ٢٩٢).

(٢) أغلب الظن أن ابن الأبار يخلط هنا بين الأرجوزة التاريخية التي قالها ابن عبد ربه في عبد الرحمن الناصر، وبين أرجوزة أخرى قد يكون ابن عبد ربه قالها في الخلفاء الراشدين وذكر فيها معاوية دون أن يذكر علي بن أبي طالب. وإذا كان لا بدَّ من وجود أرجوزة ثانية قالها ابن عبد ربه في الخلفاء ـ وقد ضاعت ولم تصلنا ـ فلا يمكننا أن نصدّق أنه حذف منها اسم علي؛ لأنه ذكر في كتابه «العقد» فضائله وأثنى عليه، بعد أن ذكر أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، ولم يذكر معاوية إلَّا بعد الحسن بن علي. راجع العقد الفريد (جـ ٤ ص ٢٥٥ ـ ٣٦١).

(٣) الكَساء، بفتح الكاف والسين: المجد والشرف والرفعة. محيط المحيط (كسا).

١٩٨ ـ ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف، الغَرْناطي[١].

له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق، وحدّث عنه أبو العباس بن عيسى الداني[٢] «بالتلقين» للقاضي عبد الوهاب.

١٩٩ ـ ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون[٣]، القَنْطَري[٤].

من قنطرة السيف، وسكن بطَلْيَوسَ ويُعْرف بابن الروية، رحل حاجًّا فأدّى الفريضة، ولقي بمكّة رُزَيْن بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في «تجريد الصحاح» سنة خمس وخمسمائة، وفيها حجَّ وقَفَلَ إلى بلده بعد ذلك، وكان فقيهًا مُشَاوَرًا، حدّث عنه ابن خير في كتابه إليه من بَطَلْيَوس في نحو الثلاثين وخمسمائة.

٢٠٠ ـ ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسي[٥].

رحل حاجًّا إلى المشرق، وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلثمائة وأبا بكر مَسَرَّة بن مسلم الصدفي، حدَّث، وأخذ عنه.

٢٠١ ـ ومنهم طاهر الأندلسي[٦]، من أهل مالَقَةَ، يكنى أبا الحسين[٧].

رحل إلى قرطبة، وخرج منها لَمّا دخلها البرابر عَنْوَة سنة ثلاث وأربعمائة، فلم يزل بمكّة إلى حدود الخمسين وأربعمائة، وكان من أصحاب أبي عمر الطَّلَمنكي وملازميه لقراءة القرآن، وطلب العلم مع أبي محمد الشَّنْتِجَالي وأبي أيوب الزاهد إمام مسجد الكوَّابين[٨] بقرطبة، وجاور بمكّة طويلًا، وأقرأ على مَقْرُبة من باب الصفا، وكان الشَّيبيون يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام، ذكره الطُّبْني، قال ابن الأبار: وأحسبه

(١) ترجمة خلف بن محمد الغرناطي في التكملة (ص ٢٩٩).
(٢) في طبعة بولاق: «الدالي».
(٣) في طبعة ليدن: «فحلون».
(٤) ترجمة خلف بن فرج بن فحلون في التكملة (ص ٣٠٢).
(٥) ترجمة زرارة بن محمد بن زرارة في التكملة (ص ٣٣٤).
(٦) ترجمة طاهر الأندلسي في التكملة (ص ٣٤٠).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «الحسن».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «الكوائين».

المذكور في برنامج الخولاني، والذي قرأ لهم أكثر المدوّنة على أبي عمر[1] أحمد بن محمد الزيات، انتهى.

٢٠٢ ـ ومنهم أبو الطاهر الأندلسي، من أهل لَبْلَة[2].

نـزل مصر، وكـانت له حلقـة بجامـع عمرو بن العـاص، وكان ـ رحمـه اللّه تعـالى! ـ نحويًا، له شعر وترسيل وتعلّق بالملوك للتأديب بالنحو، ثم ترك ذلك.

٢٠٣ ـ ومنهم أبو محمد[3] طارق بن موسى بن يعيش، المَنْصَفِي، المخزومي[4]،

والمَنْصَفِي نسبة إلى قرية بغربي بَلَنْسية، ويكنى أيضًا أبا الحسن، رحل قبـل العشرين وخمسمـائة، فـأدّى الفريضـة، وجاور بمكّـة، وسمع بهـا من أبي عبـد اللّه الحسين بن علي الطبري، ومن الشريف أبي محمد عبد الباقي الـزهري المعـروف بشُقْرَان؛ أخـذ عنه كتـاب «الإحياء» للغزالي عن مؤلفه، وسمع بـالإسكندريـة من أبي بكر الـطرطوشي وأبي الحسن بن مشرف وأبي عبد اللّه الرازي وأبي طاهر السِّلَفي وغيرهم، ثم قفـل إلى بلده فحدَّث، وأخـذ الناسُ عنه، وسمعوا منه، وكان شيخًا صالحًا عالي الرواية ثقة. قال ابن عياد: لم أَلْقَ أفضل منه، وكان مُجَابَ الدعوة، وحدّث عنه بالسمـاع والإجازة جِلَّةٌ؛ منهم أبـو الحسن بن هذيـل وأبـو محمد القَلَّني[5] وأبـو مروان بن الصَّيقَـل وأبو العبـاس الإقليشي وأبو بكـر بن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبـد الحق الإشبيلي وأبو بكـر بن جُزَيّ وغيـرهـم، ثم رحل ثـانية إلى المشـرق مع صهـره أبي العباس الإقليشي وأبي الـوليد بن خَيْـرة الحافظ سنـة اثنتين وأربعين وخمسمـائة، وقـد نَيَّف على السبعين، فأقـام بمكّة مجـاورًا إلى أن توفي بهـا عن سنّ عاليـة ـ رحمه اللّه تعالى! ـ سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

٢٠٤ ـ ومنهم محمد بن إبراهيم بن مُزَينٍ الأودي[6].

---

(١) في طبعة ليدن: «أبي أحمد».

(٢) ترجمة أبي الطاهر الأندلسي في التكملة (ص ٣٤٢).

(٣) كنيته في الجزء الثاني: «أبو الحسن».

(٤) ترجمة طارق بن موسى بن يعيش المنصفي القرطبي في التكملة (ص ٣٤٣).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «القُقُلّني».

(٦) ترجمة محمد بن إبراهيم بن مزين في التكملة (ص ٣٥٥) والذيل والتكملة (جـ ٦ ص ١٠٥).

من أهل أكشونبة[1] غربي الأندلس، يكنى أبا مضر، ولّاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة، وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة، وأقام أشهرًا، ثم استعفى فأعفاه، ورحل حاجًّا فأدّى الفريضة، وسمع في رحلته إمامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سنّ عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة، وذكره ابن شعبان في الرواة عن مالك، وحكى أنه روى عنه: من قطع لسانه اسْتُؤني به عامًا، وأنّ مالكًا قال له: قد بلغني أن بالأندلس مَنْ نَبَتَ لسانه فإن لم ينبت أقيد، انتهى.

٢٠٥ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد حَيَّاز، الشاطبي، الأوسي.

قدم مصر، وكان قد أخذ عن ابن بُرْطُلة وابن البراء وغيرهما، وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم، وحجَّ وعاد إلى بلده، ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثماني عشرة وسبعمائة، رحمه اللّه تعالى وغفر له!.

٢٠٦ ـ ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة، اللّخْمي، الأندلسي، الإشبيلي[2].

قال أبو شامة[3]: هو من بيت كبير بالأندلس يُعْرف ببني الباجي مشهور، كثير العلماء والفضلاء، وأصلهم من بَاجَة القيروان، وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه، فإنه من بيت آخر من باجة الأندلس، وقدم أبو مروان حاجًّا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة، ونزل عندنا بالمدرسة العادِلِيَّة، وجَدُّه الأعلى أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن علي قدم إلى الديار المصرية، وحجّ منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويُعْرف بصاحب الوثائق، وسمعا بها من جماعة من العلماء، وذكر أبو عبد اللّه الحميدي أحمدَ بن عبد اللّه هذا في «جذوة

---

(١) هكذا في الروض المعطار (ص ٣٤٢)، وفي طبعة عبد الحميد ومعجم البلدان (جـ ١ ص ٢٤٠). أكشونية، بالياء.

(٣) ترجمة محمد بن أحمد بن عبد الملك الإشبيلي اللخمي مكرّرة، وقد مرَّت برقم ١٧٣.

(٣) النص في ذيل الروضتين (ص ١٦٤).

المقتبس»[١]، وكنّاه أبا عمر، وذكر أنه سكن إشبيلية وأثنى عليه كثيرًا، وقال: مات في حدود الأربعمائة، وروى عنه ابن عبد البر وغيره[٢].

وأبوه عبد اللّه بن محمد بن علي يُعْرف بالرواية، ذكره الحميدي أيضًا[٣].

وذكر ابن بَشْكُوال في «الصلة»[٤] عبد الملك بن عبد العزيز جَدَّ هذا الشيخ القادم وأثنى عليه، وقال: توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلاً متواضعًا محسنًا، وسمعته يقول، وقد سئل إعارة شيء، فبادر إليه، ثم قال: عندي في قوله تعالى: ﴿ ويَمْنَعُونَ الماعُونَ ﴾[٥] هو كل شيء.

واستفدْنا من هذا الشيخ فائدة جليلة، وهي معاينة قَدْرِ مُدِّ النبيِّ ﷺ، وهو عندهم مُتَوَارَثٌ، وَقد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه «المحلّى» وعايرت بذلك المدِّ المُدَّ الذي لنا بدمشق حينئذ، وهو الكيل الكبير، فوجدْتُ مُدَّنا يسع صَاعَين إلاَّ يسيرًا، ووجدْتُه ممسوحًا يسع صاعًا ونصفًا وشيئًا فيكون مدّان ممسوحان ثلاثَةَ آصُعٍ[٦] زائدة، وقرأت في كتاب «المحلّى» لابن حزم، قال أبو محمد[٧]: وخُرِط لي مُدٌّ على تحقيق المُدّ المتوارث عند آل عبد اللّه بن علي الباجي، وهو عند أكثرهم[٨] لا يفارق داره، أخرجه إليَّ ثقتي الذي كلفته ذلك علي بن عبد اللّه بن أحمد بن عبد اللّه بن علي المذكور، وذكر[٩] أنه مُدُّ أبيه، وأنَّ جدّه أخذه وخرطه[١٠] على مُدِّ أحمد بن خالد، وأخبره أحمد بن خالد أنه خرطه[١٠] على

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «المقتبس».

(٢) جذوة المقتبس (ص ١٢٨) وبغية الملتمس (ص ١٨٤).

(٣) جذوة المقتبس (ص ٢٥٠) وبغية الملتمس (ص ٣٣١).

(٤) الصلة (ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤).

(٥) سورة الماعون ١٠٧، الآية ٧.

(٦) لم يرد هذا الجمع في معاجم اللغة، وجاء فيها: أَصْوُع، وأَصْؤُع، وصُوْع، وصِيْعان، وأصواع. لسان العرب ومحيط المحيط (صوع).

(٧) المحلى لابن حزم (جـ ٥ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٨) في المحلى وذيل الروضتين: «أكبرهم».

(٩) في المحلى: «وذكر أنه مُدُّ أبيه وجدِّه وأبي جدِّه، خرطه..».

(١٠) في طبعة ليدن: «وخرجه».

مُدٌّ يحيىٰ بن يحيىٰ، على مُدِّ مالك، قال أبو محمد: ولا أشكُّ[1] أن أحمد بن خالد صحّحه أيضًا على مُدِّ محمد بن وضاح الذي صحّحه ابن وضاح بالمدينة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام! قال أبو محمد: ثم كِلْتُه بالقمح الطيب، ثم وزنْتُه فوجدْتُه رطلًا ونصف رطل بالفلفلي لا يزيد حبّة، وكِلْتُه بالشعير إلَّا أنه لم يكن بالطيب فوجدْتُه رطلًا واحدًا ونصف أوقية، وسألْتُ عن الرطل الفلفلي، فقيل لي: هو ست عشرة أوقية، كلُّ أوقية عشرة دراهم، وفي تقدير ابن حزم نظر.

وتوفي هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحجّ، رحمه اللَّه تعالى! انتهى كلام أبي شامة، وبعضه بالمعنى.

٢٠٧ ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد، الواعظ، الإشبيلي، ثم المصري[2].

فاضلٌ شَرَحَ الصدور بلفظه، ومتكلّم أَحْيا القلوبَ بوعظه، أحوالُه مشهورة، ومجالسُه بالذكر معمورة، وله معرفة بالأدب، وخبرة بالشعر والخطب، وكلامٌ وَجْهُهُ حسن، ونظمٌ يمتاز به على كثير من أرباب اللّسَن، قاله ابن حبيب الحلبي، قال: وهو القائل[3]: [البسيط]

مَنْ أنتَ محبوبُهُ مَنْ ذا يُغَيِّرُه	ومَنْ صَفَوتَ له مَنْ ذا يُكَدِّرُهُ
هيهات عنكَ مِلَاحُ الكون تَشْغَلني	والكلُّ أعراضُ حسنٍ أنت جوهرُهُ

وقال[4]: [الرمل]

اِكْشِفِ البرقعَ عن بكر العقارِ	واخْلُ في ليلك مَع شمس[5] النهارِ
وانْهَبِ العيشَ ودَعْهُ[6] غلطًا	ينقضي ما بين هَتْكٍ واستتار

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ولا شكَّ».

(٢) هو زين الدين كتاكت المصري الواعظ؛ أصل أهله من إشبيلية، ووُلد بتنيس سنة ٦٠٥ هـ، وعلى هذا لا يصحُّ أن يدرج اسمه بين الراحلين من الأندلس. ترجمته في فوات الوفيات (جـ ١ ص ١١٩) والوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٣٣٣) والنجوم الزاهرة (جـ ٧ ص ٣٦٤).

(٣) البيتان في النجوم الزاهرة (جـ ٧ ص ٣٦٥).

(٤) الأبيات في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٣٣٣).

(٥) في الوافي بالوفيات: «مع بكر العقارِ. .».

(٦) في المصدر نفسه: «ودَعْهُ ينقضي غلطًا. .».

إنْ تكن[1] شَيْخَ خلاعاتِ الصِّبا فالْبَسِ الصبوةَ في خَلْعِ العذار
وارْضَ بالعار وقُلْ: قد آن لي[2] في هوى خَمَّارِ كاسي لُبْسُ عاري

وقال: [السريع]

حُثُّوا إلى نَجْدٍ نِيَاقَ الهَوَى فَثَمَّ وَادٍ جَوُّهُ مُعْشِبُ
وَانْتَظِرُوا حتى يلوحَ الحمى فالعيشُ فيه طَيِّبٌ طَيِّبُ

وتوفي سنة أربع وثمانين وستمائة، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب، ثمّ بعد كتبها حصل لي شك: هل هو مِمَّنْ ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر وإنما ارتحل إليها بعض سلفه؟ والله تعالى أعلم.

٢٠٨ ـ وكذا ذكر آخَرَ بقوله في سنة سبع وثمانين وستمائة: وفيها توفي الإمام زكي الدين أبو إسحٰق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيىٰ بن علي الإشبيلي المالكي[3]. محدّث، عالم، زاهد فيما ليس بدائم، كثير الخير، جزيل الميرِ، كان حسن المناهج، قاضيًا للحوائج، مُحْسِنًا إلى الصامت والمعرب، مَقْصِدًا لمن يَرِدُ من الحجاز والمغرب، سمع بمصر ودمشق وحلب، وأفتى ودرس، مفيدًا لذوي الطلب، ولم يبرح يعين بأياديه ويغيث، وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث، وكانت وفاته بدمشق عن نيف وسبعين سنة، انتهى.

٢٠٩ ـ ومنهم الأحق بالسبق والتقدّم، بَقِيُّ بن مَخْلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، القرطبي، الأندلسي، الحافظ، أحد الأعلام، وصاحب التفسير والمسند[4].

أخذ عن يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي ومحمد بن عيسى الأعشى، وارتحل إلى المشرق، ولقي الكبار، وسمع بالحجاز مُصْعَبًا[5] الزهري وإبراهيم بن المنذر وطبقتهما، وبمصر يحيىٰ بن بَكِير وزهير بن عَبَّاد وطائفة، وبدمشق إبراهيم بن هشام الغساني، وصَفْوَان بن

---

(١) في المصدر نفسه: «إنْ يكنْ شيخٌ . . ».
(٢) في الوافي بالوفيات: «قد لَذَّ لي . . ».
(٣) ترجمة إبراهيم بن عبد العزيز الإشبيلي المالكي في شذرات الذهب (جـ ٥ ص ٤٠) والنجوم الزاهرة (جـ ٧ ص ٣٧٨) وفيهما أنَّ نسبته هي «اللوري»، نسبة إلى لورة وهي قلعة من أعمال إشبيلية.
(٤) مرَّ التعريف ببقي بن مخلد والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.
(٥) في تاريخ علماء الأندلس (ص ١٦٩): «أبو المصعب الزهري وإبراهيم بن المندر الخزامي . . ».

صالح وهشام بن عمار وجماعة، وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته، وبالكوفة يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني ومحمد بن عبد اللّٰه بن نمير وأبا بكر[1] بن أبي شَيْبة وطائفة، وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد، وعُني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها، وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلاً، وكان إمامًا، زاهدًا، صَوَّامًا، صادقًا، كثير التهجّد، مجاب الدعوة، قليل المثل، مجتهدًا، لا يقلّد، بل يُفْتي بالأثر.

ولد في رمضان سنة إحدى ومائتين، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين.

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير[2] ولا غيره، وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي، صاحب الأندلس، محبًّا للعلوم عارفًا بها، فلمّا دخل بقي بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شَيْبة وقرىء عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه، وقام جماعة من العامة عليه، ومنعته[3] من قراءته، فاستحضره الأمير محمد وإياهم، وتصفّح الكتاب جزءًا جزءًا حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظرْ في نَسْخه لنا، وقال لبقي: اُنْشُرْ علمك، وارْوِ ما عندك، ونهاهم أن يتعرّضوا له.

قال ابن حزم: مسند[4] بقيّ روى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيِّف، ورتّب حديث كلّ صاحب على أبواب الفقه فهو مُسْنَد ومُصَنَّف[5]، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث، وله مصنّف في فتاوى الصحابة والتابعين مِمَّنْ ذكرهم أرْبى فيه على مُصَنَّف أبي بكر بن أبي شَيْبة وعلى مصنَّف عبد الرزَّاق[6] وعلى مصنَّف سعيد بن منصور.

---

(١) في تاريخ علماء الأندلس: «وعبد اللّٰه بن أبي شيبة».

(٢) في جذوة المقتبس (ص ١٧٧) وبغية الملتمس (ص ٢٤٥): «محمد بن جرير الطبري».

(٣) في طبعة دار صادر: «ومنعوه».

(٤) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: «مصنّفه الكبير».

(٥) الفرق بين «المسند» و«المصنف» أن «المسند» يُرَتَّب فيه الحديث بحسب رواته من الصحابة، و«المصنف» يرتّب فيه الحديث بحسب أبواب الفقه.

(٦) في جذوة المقتبس وبغية الملتمس: «عبد الرزاق همّام».

ثم ذكر تفسيره فقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيّرًا لا يقلّد أحدًا، وكان جاريًا في مِضْمَار البخاري ومسلم والنسائي.

وذكر القُشَيري[1] أن امرأة جاءته فقالت له: إن ابني قد أسرته الفرنج، وإني لا أنام الليل من شوقي إليه، ولي دُوَيرة أريد أن أبيعها لأفْتَكَّه بها، فإنْ رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكاكه، فليس لي ليل ولا نهار، ولا صبر ولا قَرَار، فقال: نعم، انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء اللّه تعالى، وأطرق الشيخ وحرّك شفتيه يدعو اللّه، عزَّ وجلَّ، لولدها بالخلاص، فذهبت، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها، فقالت: اسْمَعْ خبرَهُ يرحمك اللّه تعالى! فقال: كيف كان أمرك؟ فقال: إني كنت فيمن يخدم الملك، ونحن في القيود، فبينا أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيدُ من رجلي، فأقبل عليَّ الموكل بي فشتمني، وقال: فَكَكْتَ القَيدَ من رجليك، فقلت: لا واللّه ولكن سقط ولم أشعر، فجاءوا بالحدَّاد فأعاده، وسَمَّر مسماره وأيّده، ثم قمت، فسقط أيضًا، فسألوا رُهْبَانهم، فقالوا: ألك والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنه قد استجيب دعاؤها له، فأطلِقُوه، فأطلقوني وخفروني[2] إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام، فسأله بقيٌّ عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها، فرحمه اللّه تعالى.

٢١٠ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيىٰ بن يوسف الأندلسي[3] الأزدي، المعروف بالمَغَامي[4].

من أهل قُرْطبة، وأصله من طلَيْطلة، وهو من ذرّيّة أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه!.

سمع من يحيىٰ بن يحيىٰ وسعيد بن حسان، ورَوَى عن عبد الملك بن حبيب مصنّفاته، وارتحل إلى مصر، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي، وعاد إلى الأندلس، وكان فقيهًا، نبيلاً، فصيحًا بصيرًا بالعربية، ثم بعد عَوْده من مصر أقام بقرطبة أعوامًا، ثم عاد إلى مصر، وأقام بها، وسمع الناس منه، وعظم أمره بالبلاد المشرقية، ثم إنه عاد إلى

---

(١) هذه الحكاية في المصدرين السابقين، مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) خفروه: أرسلوا معه حرسًا يحميه حتى يصل إلى بلاد الإسلام. لسان العرب (خفر).

(٣) كلمة «الأندلسي» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) ترجمة يوسف بن يحيىٰ المغامي في جذوة المقتبس (ص ٣٧٣) وبغية الملتمس (ص ٤٩٦) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٩٣٣). والمغامي: نسبة إلى مغام وهي قرية من أعمال طليطلة.

المغرب فتوفي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين، وبَيَّنَ بمصر «الواضحة» لابن حبيب[1]، وصنَّف شيئًا في الردّ على الشافعية في عشرة أجزاء، وألّف كتاب «فضائل مالك» رضي اللّه تعالى عنه. والذي يرتضى أنَّ مَنْ قلَّد إمامًا من المجتهدين لا ينبغي له أن يَغُضَّ من قدر غيره، وإن كان ولا بدَّ من الانتصار لمذهبه وتقوية حجّته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمّة، رضي اللّه تعالى عنهم! فإنهم على هُدًى من ربهم، وقد ضَلَّ بعض الناس فحمله التعصّبُ لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حقّ العلماء الذين هم نجومُ المِلَّة، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم، وقد حكى أبو عبد اللّه الوادي آشي ـ حسبما رأيته بخطِّه ـ أن القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألّف كتابًا لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء، وسمّاه «النصرة، لمذهب إمام دار الهجرة» فوقع الكتابُ بخطِّه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر، فغرّقه في النيل، فقضى اللّه تعالى أن السلطان فَرَجَ بن برقوق سافر إلى الشام ومعه القضاة[2] الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد، فلم يستطع شيئًا، وهُزم إلى مصر، وتفرّقت العساكر، وأُخذ القضاة والعلماء أسَارَى ومن جملتهم ذلك القاضي، فبقي في أسر تيمورلنك إلى أن ارتحل عن الشام، فأخذه معه أسيرًا إلى أن وصل إلى الفرات، فغرق فيه، أعني القاضي، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور، والجزاء من جنس العمل، واللّه تعالى أعلم.

وقد نَجَّى اللّه تعالى من هذه الوَرْطَة قاضيَ القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب «العبر، وديوان المبتدإ والخبر، في تاريخ العرب والعجم والبربر، ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة، فلمّا أُدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون[3]: قدّموني للكلام تنجوا إن شاء اللّه تعالى، وإلّا فأنتم أخبر، فقدّموه وعليه زيّ المغاربة، فلما رآه تيمورلنك قال: ما أنت من هذه البلاد؟ وتكلّم معه فخلبه[4] ابن خلدون بلسانه، وكان آية اللّه الباهرة، ثم قال لتيمورلنك: إنّي أَلَّفْتُ كتابًا في تاريخ العالم، وحلّيته بذكرك، أو كما قال، ويقال: إنَّ تيمورلنك هو الذي قال له: بلغني أنّك أَلَّفْتَ كتابًا في تاريخ العالم، ثم قال له تيمورلنك:

---

(١) كتاب «الواضحة» هو للفقيه عبد الملك بن حبيب السلمي، وكان المغامي يرويه للناس.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «القضاء».

(٣) أخبار ابن خلدون مع تيمورلنك في التعريف بابن خلدون (ص ٣٦٦ وما بعدها).

(٤) خلبه بلسانه: خدعه بقوله واستمال قلبه. لسان العرب (خلب).

كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع أننا خربنا العالم؟ فقال له ابن خلدون: أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة، أو نحو هذا من العبارات، فأعجبه ذلك، وقيل: إنه لَمَّا أنس بابن خلدون قال له: يا خُوَنْدُ، ما أسفي إلاَّ على كتاب ألّفته في التاريخ، وأنفقْتُ فيه أيام عمري، وقد تركْتُه بمصر، وإن عمري الماضي ذهب ضياعًا حيث لم يكن في خدمتك وتحت ظلِّ دولتك، والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب وأرجع سريعًا حتى أموت في خدمتك، ونحو هذا من الكلام، فأذن له، فذهب ولم يعد إليه. وقال بعض العلماء: إنه لم يَنْجُ من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر، وقد ذكر ذلك ابنُ عرب شاه في «عجائب المقدور»[1] وقد طال عهدي به فليراجع. وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمَعَ العلماء فقال لهم على عادته في التعنّت: قُتِلَ منّا ومنكم جماعة، فمن الذي في الجنّة قَتْلانا أو قتلاكم؟ وكان مراده إبراز سبب لقتلهم؛ لأنّهم إنْ قالوا أحد الأمرين هلكوا، فقال بعض العلماء، وأظنه ابن الشُّحْنَة: دعوني أُجِبْه وإلاَّ هلكتم، فتركوه، فقال له: يا خُوَنْدُ، هذا السؤال أجاب عنه رسول اللّٰه ﷺ، حين سئل عنه، فغضب تيمورلنك وقال: كيف يمكن أن يجيب عن هذا السؤال رسول اللّٰه ﷺ، ونحن لم نكن في زمانه؟ أو كلامًا هذا معناه، فقال العالم المذكور: روينا في الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ، سُئِلَ عن الرجل يقاتلُ شجاعة ويقاتل حَمِيَّةً ويقاتل لِيُذْكَر ويُرى مكانه، فمن الذي في الجنّة؟ فقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا فهو الذي في الجنة» أو كما قال ﷺ، فتعجّب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت، وحُقَّ له أن يتعجّب منه، فإن هذا من الأجوبة التي يقلّ نظيرها، فيها المخلَص على كل حال بالإنصاف، وقد وفّق اللّٰه تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى بتخلّص على يده أولئك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذي جعل اللّٰه تعالى فتنته في الإسلام وفتنة جَنْكِزْخَانَ وأولاده من أعظم الفتن التي وَهَى بها المسلمون.

وذكر بعض العلماء أنَّ ابن خلدون لَمَّا أقبل على تيمورلنك قال له: دعني أُقَبِّل يدك، فقال: ولِمَ؟ فقال له: لأنها مفاتيح[2] الأقاليم، يشير إلى أنه فتح خمسة أقاليم، وأصابع يده خمسة: فلكلٍّ أصبع إقليم، وهذا أيضًا من دهاء ابن خلدون.

(١) في طبعة عبد الحميد: «القدور». واسم الكتاب كاملاً هو: «عجائب المقدور في نوائب تيمور» وهو كتاب في التاريخ، وقد ألّفه أحمد بن محمد المعروف بابن عرب شاه، ويظهر التكلف والسجع عليه بسبب طغيان الصنعة في تلك الفترة وهي القرن التاسع الهجري.

(٢) في طبعة دار صادر: «مفتاح».

وقد كِدْنا نخرج عن المقصود في هذه الترجمة فلنصرف العنان، واللَّه سبحانه المستعان.

٢١١ ـ ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر بن عطية، رحمه اللَّه تعالى! [١].

قال الفتح: شيخ العلم، وحامل لوائه، وحافظ حديث النبي ﷺ، وكوكب سمائه، شرح اللَّه تعالى لحفظه [٢] صدره، وطاول به عمره، مع كونه في كل علم وافر النصيب، مُياسرًا [٣] بالمُعَلَّى والرقيب [٤]، رحل إلى المشرق لأداء الفرض، لابسَ بُرْدٍ من العمر الغضّ [٥]، فروى وقيَّد، ولقي العلماء وأسند، وأبقى تلك المآثر وخلَّد، نشأ في بيئة [٦] كريمة، وأُرُومَة من الشرف غير مرومة [٧]، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلامُ عِلْم، وأرباب مجد ضخم، قد قيّدت مآثرهم الكتب، وأطلعتهم التواريخ كالشُّهب، وما برح الفقيه أبو بكر يتسنّم كواهل المعارف وغَوَاربها، ويقيّد شوارد المعاني وغرائبها، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه، وعمر برهةً من شبيبته رُبُوعَه، وبرز فيه تبريز الجواد المستولي على الأمَد، وجَلَّى عن نفسه به كما جلّى الصقال عن النصل الفَرَد [٨]، وشاهِدُ ذلك ما أثبته من نظمه الذي يروق جملةً وتفصيلاً، ويقوم على قوّة العارضة دليلاً، فمن ذلك قوله يحذّر من خُلَطاء الزمان، وينبّه على التحفّظ من الإنسان [٩]: [الرمل]

كُنْ بذئبٍ صائدٍ مُسْتأنِسًا وإذا أَبْصَرْتَ إنسانًا فَفِرّ

---

(١) هو الوزير الفقيه غالب بن عبد الرحمن بن عطية، وترجمته في قلائد العقيان (ص ٢٠٥) والصلة (ص ٦٦٧) وأزهار الرياض (جـ ٣ ص ٩٩).

(٢) في القلائد: «لتحفّظه».

(٣) في قلائد العقيان: «مباشرًا».

(٤) المُياسر: لاعب الميسر. المعلَّى والرقيب: قدحان من قداح الميسر. لسان العرب (يسر) و (علا) و (رقب).

(٥) لابسُ بُرْدٍ من العمر الغضّ: كناية عن أنه في مقتبل العمر.

(٦) في القلائد: «بنية كريمة».

(٧) الأرُومَةُ: الأصل. غير مرومة: لا يوصل إليها. لسان العرب (أرم) و (رام).

(٨) في القلائد: «المنصل». والفَرَدُ: الذي لا مثيل له. لسان العرب (فرد).

(٩) هذه الأبيات والتي بعدها في قلائد العقيان (ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

إنـمـا الإنـسـانُ بـحـرٌ مـا لـه ... سـاحـلٌ فـاحـذَرْه إيـاكَ الغَـرَرْ[1]

واجْعَلِ الناسَ كشخصٍ واحـدٍ ... ثم كُنْ من ذلـك الشـخصِ حَـذِرْ

وله في الزهد: [الرمل]

أيـهـا الـمـطرودُ مـن بـاب الـرضـا ... كـم يـراكَ الـلَّه تـلهـو مُـعْـرِضـا

كـم إلى كـم أنتَ في جـهـلِ الـصِّبـا ... قـد مـضى عُـمْـرُ الصِّبـا وانْقَـرَضـا

قُـمْ إذا الـلـيـل دَجَـتْ ظـلـمـتُـهُ ... واسْـتَـلذَّ الـجـفـنُ أن يـغـتـمـضـا

فَـضَـعِ الـخَـدَّ عـلى الأرض ونُـحْ ... واقْـرَعِ السِّنَّ عـلى مـا قـد مـضـى

وله في هذا المعنى: [مخلع البسيط]

قـلبيَ يـا قـلبيَ الـمُـعَـنَّـى ... كـم أنـا أُدْعـى فـلا أُجِـيـبُ

كـم أتـمـادَى عـلى ضـلالٍ ... لا أَرْعَـوي لا ولا أُنِـيـبُ

ويـلاهُ مِـنْ سـوءِ مـا دهـانـي ... يـتـوبُ غـيـري ولا أتـوبُ

وأسـفـي كـيـف بُـرْءُ دائـي ... دائـي كـمـا شـاءه الـطبـيـبُ

لـو كـنتُ أدنـو لـكـنـت أشـكـو ... مـا أنـا مِـنْ بـابـه قـريـب

أبْـعَـدَنـي مـنـه سـوءُ فـعـلي ... وهـكـذا يُـبْـعَـدُ الـمـريـب

مـا لـيَ قَـدرٌ وأي قـدر ... لـمـن أخَـلَّتْ[2] بـه الـذنـوب

وله في هذا المعنى أيضًا: [الكامل]

لا تجعَلَنْ رمضـانَ شَهْـرَ فكـاهـةٍ ... تُلْهيـك فيـه من القبيـحِ فنـونُـهُ

واعْلَمْ بـأنـك لا تنـالُ قَبُـولَـهُ ... حتى تكـونَ تصـومُـهُ وتصـونُـهُ

وله في مثل ذلك[3]: [الطويل]

إذا لم يكـنْ في السَّمْـعِ منِّي تَصَـاوُنٌ ... وفي بَصَـري غَضٌّ وفي مِقْـولي[4] صَمْتُ

فحظِّي إذًا مِنْ صَوْمِيَ الجوعُ والظَّمَـا ... وإنْ قلتُ إنِّي صُمْتُ يـومًـا فمـا صُمْتُ

---

(١) الغَرَرُ، بالفتح: التعريض للهلكة. محيط المحيط (غرر).

(٢) في القلائد: «أحلَّتْ» بالحاء المهملة.

(٣) ورد البيتان أيضًا في أخبار وتراجم أندلسية (ص ٣١).

(٤) في أخبار وتراجم أندلسية: «منطقي».

وله في المعنى الأول: [الطويل]

جفوتُ أناسًا كنت آلَفُ وصلهمْ ... وما في الجفا عند الضرورة مِنْ باسِ
بلوتُ فلم أحمدْ، وأصبحْتُ آيسًا ... ولا شيء أشفى للنفوس مِنَ الياس[1]
فلا تعذلوني في انقباضي فإنني ... رأيتُ جميعَ الشَّرِّ في خِلْطَةِ[2] الناس

وله يعاتب بعض إخوانه: [الوافر]

وكنت أظنُّ أنَّ جبالَ رَضْوَى ... تزولُ وأنَّ وُدَّكَ لا يزولُ
ولكنَّ الأمورَ لها اضطرابٌ ... وأحوالُ ابنِ آدمَ تستحيلُ
فإنْ يَكُ بيننا وَصْلٌ جميلٌ ... وإلَّا فليكنْ هَجْرٌ طويلُ

وأما شعره الذي اقتدحه من مَرْخ الشباب وعَفَاره[3]، وكلامه الذي وشحه بمآرب الغَزَل وأوطاره، فإنه نسي إلى ما تناساه، وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه، فممّا وقع[4] من ذلك قوله: [الكامل]

كيف السُّلُوُّ ولي[5] حبيبٌ هاجرٌ ... قاسي الفؤاد يَسُومُني تعذيبا
لَمَّا دَرَى أنَّ الخيالَ مُواصلي ... جَعَلَ السُّهادَ على الجفونِ رقيبا

وله أيضًا: [مخلع البسيط]

يا مَنْ عهودي لَدَيْكِ تُرْعَى ... أنا على عَهْدِكِ الوثيقِ
إنْ شِئْتِ أن تسمعي غرامي ... مِنْ مُخْبِرٍ عالمٍ صدوق
فاسْتخبري قلبَكِ المُعَنَّى ... يُخْبِرْكِ عن قلبيَ المَشُوق

انتهى كلام الفتح.

---

(١) في قلائد العقيان: «الباس».
(٢) في المصدر نفسه: «خلطا».
(٣) المَرْخُ، بفتح الميم وسكون الراء: شجر سريع الوَرْي يُقْتَدَحُ به، الواحدة مَرْخة. العَفار، بفتح العين والفاء: شجر يُتَّخذ منه الزناد، ونارهما أسرع نار وأعظمها. محيط المحيط (مرخ) و(عفر).
(٤) في القلائد: «فما وقع إليّ من..».
(٥) في المصدر نفسه: «وكلّ حب هاجر..».

وأبو بكر بن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق[١] بن عطية صاحب التفسير الشهير، رحم اللّٰه تعالى الجميع!.

قال في الإحاطة في حقّه ما ملخّصه[٢]: هو الشيخ الإمام المفسّر عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي؛ فقيه عالم بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب، حسن التَّقْييد، له نظم ونثر، ولي قضاء ألْمَرِية سنة تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم، وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهمُّم بالعلم، سَرِيَّ الهِمّة في اقتناء الكتب، توخّى الحقَّ، وعدل في الحكم، وأعزَّ الخطّة. روى عن أبيه وأبوي علي الغساني والصدفي وطبقتهما، وألّف كتابه «الوجيز» في التفسير، فأحسن فيه وأبدع، وطار بحسن نيّته كلَّ مَطَار، وبرنامجًا ضمّنه مَرْوياته وأسماء شيوخه فحرَّر وأجاد.

ومن نظمه يندب عهد شبابه[٣]: [البسيط]

سَقْيًا لعهدِ شبابٍ ظَلْتُ أَمْرَحُ في ... رَيْعانه وليالي العَيش أَسْحَارُ

أيامُ روضِ الصِّبا لم تَذْوِ أَغْصُنُهُ ... ورَوْنَقُ العُمْرِ غضٌّ والهوى جار[٤]

والنفسُ تُرْكِضُ في تضميرِ شِرَّتِها ... طِرْفًا له في زمان اللَّهْوِ إحضارا[٥]

عهدًا كريمًا لَبِسْنا فيه أرديةً ... كانت عيانًا ومَحَّتْ فهي آثار[٦]

مَضَى وأبقى بقلبي منه نارَ أَسًى ... كُوني سلامًا[٧] وبَرْدًا فيه يا نار

أبعد أن نَعِمَتْ نفسي وأصبح في ... ليلِ الشبابِ لِصُبْحِ الشَّيْبِ إسفار

---

(١) مرَّ التعريف بعيد الحق بن عطية والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٢) هذا النص في ترجمة عبد الحق بن غالب بن عطية في الإحاطة (جـ٣ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠) وفي روايته بعض اختلاف عمّا هنا.

(٣) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٠٨) والإحاطة (جـ٣ ص ٥٤٠).

(٤) في الإحاطة: «حمار».

(٥) في القلائد: «في رهان اللهو». وفي الإحاطة: «تركض في تضمين ثرّتها..». والشِّرَّة: الجِدّة والنشاط. والطِّرْفُ، بكسر الطاء وسكون الراء: الفرس. والإحضار: ضرب من السَّيْر السريع. لسان العرب (شرر) و (طرف) و (حضر).

(٦) في الإحاطة: «لبسنا منه... ومُحِيَتْ فهي آثارٌ».

(٧) في المصدر نفسه: «أو بردًا».

وقــارَعَتْني الليــالي فــانثنتْ كِسَــرًا[1] عَـنْ ضَيــغـمٍ مــا لــه نــابٌ وأظــفــار
إلَّا ســلاحَ خِــلالٍ أُخْــلِصَــتْ فــلهــا في منـهــل الـمـجـدِ إيــرادٌ وإصــدار
أصبــو إلى روض عيشٍ رَوضُــه خَضِــلٌ أو ينثـني بي عـن الـعَـلْيـاء إقـصــار[2]
إذًا[3] فـعَــطَّلْتُ كَـفِّــي مـن شَـبَـا قـلم آثــاره فــي ريــاض الـعِـلْم أزهــارُ

مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائـة، وتوفي في الخـامس والعشرين من شهـر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة بِلُورَقَة، قصد مَيُورقة[4] يتولَّى قضاءَها فصُدَّ عن دخولها وصُرِفَ منها إلى لُورَقَةَ اعتداء عليه، رحمه اللَّه تعالى! انتهى.

وقال الفتح في حقِّه ما نصُّه [5] : فتى العمر كهل العلاء، حديث السنّ قديم السنـاء، لبس الجلالة بُرْدًا ضافيًا، وورد ماء الأصالة صـافيًا، وأوضـح للفضل رَسْمًـا عافيًـا، وثنى من ذهنه للأغراض فنَنًا قَصَدًا، وجعل فهمه شهابًا رَصَدًا، سمـا إلى رُتَب الكهول صغيـرًا، وشنَّ كتيبَة ذهنه على العلوم مُغيرًا، فسَبَاهـا معنًى وفَصْلًا، وحـواها فَـرْعًا وأصـلًا، وله أدبٌ يسيـل رَضْراضًا [6] ، ويستحيل ألفاظًا مبتدعة وأغراضًا.

وقال أيضًا فيه[7]: نَبْعةَ دَوح العَلاء، ومحرزُ ملابس الثناء، فَذُّ الجلالة، وواحد العصر والأصالة، وقارٌ كما رسا الهضب، وأدب كما اطَّرد السَّلْسَلُ العذب، وشيمٌ تتضاءلُ لهـا قطع الـرياض، وتبـادر الظنّ بـه[8] إلى شريف الأغـراض، سابَقَ الأمجـاد فـاستولى على الأمـد

---

(١) رواية صدر البيت في الإحاطة هي:
ونــازعتني الليــالي وانثنتْ كِسْــرًا
(٢) رواية صدر البيت في القلائد هي:
أصبــو إلى خَـفْض عيشٍ دَوْحُــهُ خَـضِــلٌ
وفي الإحاطة: «عن اللقيا إقصارُ». والخَضِلُ: النديُّ المبتلُّ. لسان العرب (خضل).
(٣) في الإحاطة: «إذا تَعَطَّلْتُ».
(٤) في الإحاطة (ص ٥٤١): «قصد مرسية».
(٥) هذا النص غير وارد في قلائد العقيان ومطمح الأنفس المطبوعين.
(٦) الـرَّضْراض: في الأصـل الحصـا الـدقـاق في مجـاري المـاء، وهنـا: الصـافي الـرائق. لسـان العـرب (رضرض).
(٧) النص والأبيات الثلاثة في قلائد العقيان (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨).
(٨) في القلائد: «ويبادر به الظَّنُّ».

بعباه[1]، ولم يَنْضُ ثوب شبابه[2]، أدْمَن التعب في السؤدد جاهدًا، فتى[3] تناول الكواكب قاعدًا، وما اتّكل على أوائله، ولا سكن إلى راحات بُكَرِه وأصائله، أثره[4] في كل معرفةٍ عَلَمٌ في رأسه نار، وطوالعه في آفاقها صُبْحٌ أو منار[5]، وقد أثبتُّ من نظمه المستبدع ما ينفح عَبيرًا، ويتّضح منيرًا، فمن ذلك قوله من قصيدة: [البسيط]

ولَيلةٍ جُبْتُ فيها الجِزْعَ مُرْتَدِيًا ... بالسيف أسحبُ أذيالاً مِنَ الظُّلَمِ
والنجم حيرانُ في بحر الدجى غَرِقٌ ... والبرقُ في[6] طيلسان الليلِ كالعَلَمِ
كأنما الليلُ زنجيٌّ بكاهله ... جرحٌ فيثْعَبُ[7] أحيانًا له بدم

انتهى المقصود منه.

وهو ـ أعني أبا بكر ـ أحدُ مشايخ عياض، حسبما ألمعت به في «أزهار الرياض».

٢١٢ ـ ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فَرْح ـ بالحاء المهملة ـ ابن أحمد بن محمد، الإمام، الحافظ، الزاهد، بقية السلف، اللّخْمي، الإشبيليّ، الشافعي [8]، أسره الإفرنج سنة ست وأربعين وستمائة، وخلص، وقدم مصر سنة بضع وخمسين، وقيل: إنه تمذهب للشافعي، وتفقّه على الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام قليلاً، وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري الحموي، والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزوز [9] والنجيب بن الصيقل وابن عَلّاق[10]، وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق، وعني بالحديث، وأتقن ألفاظه، وعرف رُوَاته وحفّاظه، وفهم معانيه، وانتقى لُبَابه[11] ومبانيه.

---

(١) في المصدر نفسه: «بعلائه».
(٢) نضا الثوبَ: خلعه. محيط المحيط (نضا).
(٣) في القلائد: «حتى».
(٤) في المصدر نفسه: «آثاره».
(٥) في المصدر نفسه: «نهار».
(٦) في المصدر نفسه: «والبرق فوق رداء الليل».
(٧) يثعب: يجري ويسيل. لسان العرب (ثعب).
(٨) ترجمة أحمد بن فرح الإشبيلي في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٢٨٦) وشذرات الذهب (جـ ٥ ص ٤٤٣) وأعيان العصر وأعوان النصر (الورقة ١٠٥).
(٩) في طبعة عبد الحميد: «عزون».
(١٠) في الطبعة نفسها: «علان».
(١١) في طبعة ليدن: «لآليه».

قال الصفدي[1]: وكان من كبار أئمة هذا الشان، وممَّن يجري فيه وهو طَلْقُ اللسان[2]، هذا إلى ما فيه من ديانة، وورع وصيانة، وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الأموي يلازمها، ويَحُومُ عليه من الطلب حوائمها، سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبي، واستفاد منه، وروى في تصانيفه عنه، وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فأباها، ولم يقبل حِبَاها[3]، وكان بزيِّ الصوفية، ومعه فَقَاهة بالشافعية[4]، ولم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح، وتقدّم إلى اللّه وسرح، وشيع الخلق جنازته، وتولّوا وضعه في القبر وحيازته، وتوفي رحمه اللّه تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة، ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة.

وله قصيدة غزلية في ألقاب الحديث سمعها منه الدُّمْيَاطي واليُونِيني، وسمع منه البِرزالي والمقاتلي والنابلسي وأبو محمد بن الوليد، ومات بتربة أم الصالح بالإسهال.

والقصيدة المذكورة هي هذه[5]: [الطويل]

غَرَامي صحيحٌ والرَّجا فيكَ مُعْضَلُ ... وحزني ودَمْعِي مُطْلَقٌ ومُسَلْسَلُ[6]
وصبريَ عنكُمْ يشهدُ العقلُ أنه ... ضعيفٌ ومتروكٌ، وذُلِّيَ أجملُ
ولا حَسَنٌ إلاَّ سماعُ حديثكُمْ ... مشافهةً يُمْلَى عليَّ فأنقل
وأمريَ موقوفٌ عليك، وليس لي ... على أحدٍ إلاَّ عليك المُعَوَّلُ
ولو كان مرفوعًا إليكَ لَكُنْتَ لي ... على رغم عُذّالي تَرِقُّ وتعدل
وعَذْلُ عَذُولي مُنْكَرٌ لا أسيغه ... وزورٌ وتدليسٌ يُرَدُّ ويُهْمَلُ
أُقَضّي زماني فيك متّصل الأسى ... ومُنْقطعًا عَمّا به أَتَوَصَّلُ
وها أنا في أكفانِ هَجْرك مُدْرَجٌ ... تُكَلّفني ما لا أطيقُ فأحملُ

---

(١) النص في أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي.

(٢) في أعيان العصر: «العنان».

(٣) أصل القول: «حباءها»، وقد حذف الهمزة مراعاة للسجع. والحِباء، بكسر الحاء: العطاء. محيط المحيط (حبا).

(٤) في أعيان العصر: «بالشامية».

(٥) ورد البيت الأول فقط في الوافي بالوفيات.

(٦) رواية عجز البيت في الوافي بالوفيات هي:

ودمعي وحزني مُرْسَلٌ ومسلسلُ

وأجْرَيْتُ دَمْعِي بالدماء مُدَبَّجًا[1] ... وما هو إلاَّ مُهْجتي تَتَحَلَّلُ
فمتّفقٌ سُهْدِي[2] وَجَفني وعَبْرَتي ... ومُفْتَرِقٌ صَبري وقلبي المُبَلْبَلُ
ومُؤْتلف شَجْوِي[3] ووَجْدي ولَوْعَتي ... ومُخْتَلف حظِّي وما منكَ آمل
خُذِ آلوَجْدَ عني مُسْنَدًا وَمُعَنْعَنًا ... فغيرِيَ موضوعُ الهوى يتحيّلُ
وذي نُبَذٌ مِنْ مبهمِ الحبِّ فاعتبرْ ... وغامِضُهُ إن رُمْتَ شرحًا أُحَوِّلُ
عزيزٌ بكمْ صَبٌّ ذليلٌ لغيركُمْ ... ومشهور أوصاف المحبِّ التذلّل
غريبٌ يُقاسي البُعْد عنك، وما له ... وحَقِّ الهوى عَنْ دارِهِ مُتَحَوَّلُ
فرفقًا بمقطوع الوسائل، ما له ... إليك سبيلًا لا ولا عنك مَعْدِلُ
فلا زلتَ في عِزٍّ منيعٍ ورفعة ... وما زلتَ تعلو بالتجنّي فأنزل
أوَرِّي[4] بسُعْدَى والرَّبابِ وزَينَب ... وأنْتَ الذي تُعْنَى وأنتَ المؤَمَّلُ
فخذْ أوَّلًا من آخر ثم أولاً ... من النِّصْف منه فَهْوَ فيه مكمَّلُ
أبرُّ إذا أقسمْتُ أني بحبِّه ... أهِيمُ وقَلْبي بالصبابة يُشْغَلُ

وقد ذكرت شرحها في الجزء الثلاثين من تذكرتي، انتهى كلام الصفدي.

وظاهر كلامه أنه ابن فَرَح ـ بفتح الراء ـ والذي تلقّيناه عن شيوخنا أنه بسكون الراء، وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم، وهي وحدها دالّة على تمكّن الرجل، رحمه اللّه تعالى!

٢١٣ ـ ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر، أبو الأصبغ، الأموي، الأندلسي[5].

سمع بمكّة وبدمشق ومصر وغيرها، وحدّث عن سليمان بن أحمد بن يحيىٰ بسنده إلى جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ لكل بني أب عَصَبَةً ينتمون إليها، إلاَّ ولد فاطمة فأنا وليُّهم وأنا عَصَبَتُهم، وهم عِتْرَتي، خُلقوا مِنْ طينتي، ويل للمُكَذِّبين بفضلهم، مَنْ أحبّهم أحبّه اللّه، ومن أبغضهم أبغضه اللّه». وحدَّث عن أبي العباس

---

(١) دَبَّجه: زوّقه، والمُدَبَّجُ هنا: المخلوط. لسان العرب (دبج).
(٢) في أعيان العصر: «فَمُتَّفِقٌ جفني وسهدي..».
(٣) في المصدر نفسه: «ومؤتلفٌ وجدي وشجوي..».
(٤) أُوَرِّي: أريد شيئًا وأُظْهر غيره. محيط المحيط (وری).
(٥) ترجمة عبد العزيز بن عبد الملك في تاريخ علماء الأندلس (ص ٤٧٢) وفيه أنه يعرف بابن الصفار.

أحمد بن محمد البرذعي بسنده إلى عبد اللّه بن المبارك قال: كنت عند مالك بن أنس وهو يحدّثنا، فجاءت عقرب فلدغتْه ست عشرة مرّة، ومالك يتغيّر لونه ويتصبّر، ولا يقطع حديث رسول اللّه ﷺ، فلمّا فرغ من المجلس وتفرّق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد اللّه، قد رأيت منك عجبًا، قال: نعم، أنا صبرت إجلالاً لحديث رسول اللّه ﷺ.

ولد أبو الأصبغ المذكور بقُرْطُبة وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥.

قال الحاكم أبو عبد اللّه: رأيت أبا الأصبغ في المنام في بستان فيه خضرة ومياه جارية وفُرُش كثيرة، وكأنّي أقول: إنها له، فقلْتُ: يا أبا الأصبغ، بماذا وصلت إليه؟ أبالحديث؟ فقال: إي واللّه، وهل نجوت إلاّ بالحديث؟ قال: ورأيته أيضًا وهو يمشي بزيّ أحسن ما يكون، فقلت: أنت أبو الأصبغ؟ فقال: نعم، قلت: ادْعُ اللّه تعالى أن يجمعني وإياك في الجنّة، فقال: إن أمام الجنّة أهوالاً، ثم رفع يديه وقال: اللّهمّ اجْعَلْهُ معي في الجنّة بعد عمر طويل، انتهى.

٢١٤ ـ ومنهم القاضي أبو البقاء خالد، البَلَوي، الأندلسي، رحمه اللّه تعالى[1].

وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، البلوي، ووصفه الشاطبي بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل، انتهى.

وهو صاحب الرحلة المسمّاة: «تاج المَفْرِق، في تحلية أهل المشرق»، ومِمّا أنشده رحمه اللّه تعالى فيها لنفسه: [الكامل]

ولقد جَرَى يومَ النَّوَى دَمْعي دَمًا ... حتى أشاعَ الناسُ أنك فاني
واللّه إنْ عاد الزمانُ بِقُرْبِنا ... لَكَفَفْتُ عن ذكر النوى وكفاني

وهذه الرحلة المسمّاة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد، وقد قال رحمه اللّه تعالى فيها في ترجمة الولي نجم الدين الحجازي، رضي اللّه تعالى عنه، ما نصُّه[2]: وذكر لي، رضي اللّه تعالى عنه قال: مِمّا وَصَّى به الجدّ الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور ـ يعني سيدي أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم

---

(١) ترجمة خالد البلوي الأندلسي في الإحاطة (جـ ١ ص ٥٠٠) والكتيبة الكامنة (ص ١٣٤) وفي المصدر الأخير أنه «أبو يزيد».

(٢) النص في تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، المعروف برحلة البلوي (الورقة ١٤٠).

الأقصري القطب الغوث، رضي اللّٰه تعالى عنه، وأعاد علينا من بركاته ـ خواصّه وأصدقاءَهُ، قال: إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا: حسبي اللّٰه، ربي اللّٰه يعلم أنني في ضيق، قال: وذكر لي أيضًا، رضي اللّٰه تعالى عنه قال: رأى هذا الجدّ يوسف المذكور النبيَّ ﷺ، في النوم، بعد أن سأل اللّٰه تعالى ذلك، وقد كان أصابتْه فاقة، فشكا إلى النبيِّ ﷺ، فقال له رسول اللّٰه ﷺ: «قل يا بَرُّ[1] يا رحيم، يا بَرُّ يا رحيم، الْطُفْ بي في قضائك، ولا تولِّ أمري أحدًا سواك، حتى ألقاك» فلمّا قالها أذهب اللّٰه تعالى عنه فاقَته. قال: وكان، رحمه اللّٰه تعالى، يُوصي بها أصحابه وأحبابه، انتهى.

ونسب بعضُهم القاضيَ خالدًا المذكور إلى انتحال كمال العماد في «البرق الشامي»، لأنَّ خالدًا أكثر في رحلته من الأسجاع التي للعماد، فلذا قال لسان الدين ابن الخطيب فيه: [الطويل]

خليليَّ، إنْ يُقْضَ اجتماعٌ بخالد ... فقولا له قولاً ولن تَعْدُوَا الحَقَّا
سَرَقْتَ العمادَ الأصبهانيَّ بَرْقَهُ ... وكيف تَرَى في شاعر سَرَقَ البَرْقا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفًا عنه، ولذلك قال في كتابه «خطرة الطيف، ورحلة الشتاء والصيف»[2] عندما جرى ذكر قَنْتُورية[3] وقاضيها خالد المذكور ما صورته[4]: لم يتخلّف ولد عن والد، وركب قاضيها ابن أبي خالد، وقد شهرته النزعة الحجازية، ولبس من خشن الحِجَا زِيَّة، وأرخى من البياض طيلسانًا، وتَشَبَّه بالمشارقة شكلًا ولسانًا، والبداوة تَسِمُه على الخُرْطوم، وطبع الماء والهواء يقوده قودَ الجمل المخطوم، انتهى.

ومن نظم أبي البقاء خالد البَلَوي المذكور قوله[5]: [الطويل]

أتى العيدُ واعتاد الأحبّةُ بعضهم ... ببعض وأحبابُ المُتَيَّم قد بانوا
وأَضْحَى وقد ضَحُّوا بقُرْبَانهمْ وما ... لديه سوى حُمْرِ المدامع قربانُ

---

(١) في طبعة بولاق وفي تاج المفرق: «قُلْ يا ربِّ يا رحيم، ويا ربُّ يا رحيم..».
(٢) كتاب «خطرة الطيف» منشور في كتاب «مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب» (ص ٢٥ ـ ٥٣).
(٣) قَنْتوريه، بالإسبانية Cantoria: مدينة واقعة جنوبي برشانة Purchena في مقاطعة ألمرية.
(٤) النص في مشاهدات لسان الدين (ص ٣٦ ـ ٣٧).
(٥) يتأثر البلوي في هذين البيتين ببيتي ابن جبير اللذين وردا في هذا الجزء (ص ٢٤١)، فانظرهما.

وقال في رحلته: إنه قال هـذين البيتين بديهةً بمصلّى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

ومن نظمه أيضًا قوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

ومُسْتَنْكِرٍ شَيْبِي وما ذَهَبَ الصِّبا ... ولا جَفَّ إيناعُ الشبيبة مِنْ غصني
فقلتُ فراقي للأحبّةِ مؤذن ... بشيبي وإن كنت ابنَ عشرين مِنْ سنّي

ومحاسنه ـ رحمه اللّه تعالى! ـ كثيرة، وفي الرحلة منها جملة.

٢١٥ ـ ومنهم برهان الدين أبو إسحٰق ابن الحاج إبراهيم، النميري، الغَرْنَاطي[١].

وهو أيضًا مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير اسمه[٢] هنا، وقال رحمه اللّه تعالى في رحلته: أخبرني شيخنا ـ يعني الشيخ الإمام الصالح أبا عبد اللّه محمد المعروف بخليل التوزَرِي إمام المالكية بالحرم الشريف، رضي تعالى عنه ـ قال: اعتكفْتُ بجامع عمرو بن العاص كَفًّا لشرَّتي عن الناس، خصوصًا أذى الغيبة، نحو خمسين ليلة، أردْتُ أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة، كلٌّ بحسب ظنّي فيه يومئذ، فأدركتني حيرة في التمييز والتخصيص، فأُلهِمْتُ أنْ قلْتُ بديهة: [المتقارب]

شَهِدْنا بتقصير ألبابنا ... فَحُسْنُ اختيارك أولىٰ بنا
وأنتَ البصيرُ بأعدائنا ... وأنتَ البصير بأحبابنا

قال: ثم أردفْتُها بدعاء، وهو: اللّهمَّ يا من لا يعلم خيره إلاَّ هو، أنت أعلم بأعدائنا وأوِدَّائنا[٣]، فافعلْ بكلٍّ منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا، حسبما علمته منّا، وكفى بك عليمًا، وكفى بك قديرًا، وكفى بك بصيرًا، وكفى بك لطيفًا، وكفى بك خبيرًا، وكفى بك نصيرًا، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا.

وقال ابن الحاج المذكور في الرحلة المذكورة: إذا التقى الرجلُ بعدوّه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف (كهيعص، حمعسق) وليعقد بكلٍّ حرف منها إصبعًا، يبدأ بإبهام يده

---

(١) ترجمة ابن الحاج النميري في الإحاطة (جـ ١ ص ٣٤٢). وفي الجزء التاسع من نفح الطيب ترجمة ضافية له مع إيراد جملة من شعره.

(٢) في طبعة دار صادر: «ذكره هنا».

(٣) الأوِدّاء: جمع وَدِيْد وهو المُحِبُّ. محيط المحيط (ودد).

اليمنى، ويختم بإبهام يده اليسرى، فإذا قرب من عدوّه فليقرأ في نفسه سورة الفيل، فإذا وصل إلى قوله (ترميهم) فليكرّرها، وكلّما كرّرها فتح إصبعًا من أصابعه المعقودة تجاه العدوّ، فيكرّرها عشر مرّات، ويفتح جميع أصابعه، فإذا فعل ذلك أمن من شرّه إن شاء اللّه تعالى، وهو مجرّب، انتهى.

ومن بديع نظم أبي إسحٰق ابن الحاج النميري المذكور قوله: [الكامل]

يا رُبَّ كاسٍ لم يَسِحَّ[1] شَمُولُهَا ... فاعْجَبْ لها جسمًا بغير مِزاجِ
لَمَّا رأيْنا السِّحْرَ من أشكالها ... جُمَلاً نسبْناه إلى الزجاج[2]

وله فيما أظن: [الوافر]

له شَفَةٌ أضاعوا النَّشْرَ فيها ... بِلَثْمٍ حين سَدَّتْ ثغر بَدْرِ
فما أشهى لقلبي ما أضاعوا ... (ليومِ كريهةٍ وسداد ثَغْرِ)[3]

وهو تضمين حسن.

٢١٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، النَّفْزِي، الأثري، الغَرْنَاطي[4].

قال ابن مرزوق الخطيب في حقّه: هو شيخ النحاة بالديار المصرية، وشيخ المحدّثين بالمدرسة المنصورية، انتهت إليه رياسة التبريز في علم العربية واللغة والحديث، سمعت عليه وقرأت، وأنشدني الكثير، وإذا أنشدني شيئًا ولم أقيِّدْه استعاده منّي، فلم أحفظه، فأنشدني وكنت أظنّه لنفسه ارتجالاً إلى أن أخبرني أحد أصحابنا عنه أنه أخبره أنهما لأبي

---

(١) في طبعة دار صادر: «لم يشجَّ». وشجَّ الشرابَ بالماء: مزجه به. وسحَّ: سال. والشَّمُوْل: الخمر. لسان العرب (شجج) و (سحح) و (شمل).

(٢) في البيت تورية بكتاب «الجمل في النحو» لأبي القاسم بن عبد الرحمن الزجاجيّ. ترجمة الزجاجي في وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٥٠).

(٣) عجز البيت هو عجز بيت للعرجي، والبيت هو:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ

وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٣٩٩) وجذوة المقتبس (ص ١٦) وبغية الملتمس (ص ٢٠).

(٤) ترجمة أبي حيان محمد بن يوسف النفزي الغرناطي في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤٣) والوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٦٧) والكتيبة الكامنة (ص ٨١) وبغية الوعاة (ص ١٢١).

الحسن التِّجَانِي أنشدهما له ببيته بالمدرسة الصالحية رحمه اللّٰه تعالى: [السريع]

إن الـذي يَـرْوي ولـكـنّـه   يَـحْـفَظُ مـا يـروي ولا يـكـتـبُ
كـصـخـرةٍ تـنـبـعُ أمـواجُـهَـا   تـسقـي الأراضي وَهْـيَ لا تشـرب

قـال: ورويت عنـه تـآليف ابن أبي الأحـوص: منهـا «التبيـان، في أحكـام القـرآن» و«المعـرب المفهم، في شرح مسلم» ولم أقف عليـه، و«الوسـامة، في أحكـام القَسَـامـة» و«المشرع[1] السلسل، في الحديث المسلسل» وغير ذلك.

وحدّثني بسنن أبي داود عن ابن خطيب المِزَّة عن أبي حفص بن طَبَرْزَدٍ عن أبي البـدر الكرخي[2] ومفلح الرومي عن أبي بكر بن ثابت الخطيب عن أبي عمر الهاشمي عن اللؤلؤي عن أبي داود، وبسنن النسائي عن جماعة عن ابن باقا عن أبي زرعة عن ابن حميـد الدُّوسي عن أبي نصر الكسار عن ابن السني عن النسائي، وبالموطإ عن أبي جعفر بن الطباع بسنده.

وشكوْتُ إليه يومًا ما يلقاه الغريب مِنْ أذاةِ العُدَاة، فأنشدني لنفسه[3]: [الطويل]

عُـدَاتـي[4] لهـمْ فَضْـلٌ عـليَّ ومِنَّـةٌ   فـلا أذهَبَ الـرحمنُ عنِّي الأعـاديـا
هُمُ بَحَثُـوا عن زَلَّتي فـاجْتَنَبْتُـهَـا[5]   وهم نـافَسُـوني فـاكتَسَبْتُ المعـاليـا

وأنشدني أيضًا من مُدَاعباته، وله في ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله: [البسيط]

عُـلِّقْتُـه سَبَجِـيٌّ[6] الـلونِ قـادِحَـهُ   مـا ابيضَّ منه سـوى ثَغْـرٍ حكى الـدُّرَرَا
قـد صـاغَـهُ مِنْ سـواد العين خـالقُـهُ   فـكـلُّ عَيـنٍ إليـه تُـدْمِنُ الـنَّـظَرَا

وأنشدني في جاهل لبس صُوفًا وزها[7] فيه: [الطويل]

أيـا كـاسيًـا مِنْ جَيِّـدِ الصـوف نَفْسَـهُ   ويـا عـاريًـا مِنْ كـلِّ فَضْـل ومِنْ كَيس
أتـزهى بصـوفٍ وهـو بـالأمس مصبـحٌ   عـلى نعجـةٍ واليـوم أمـسى عـلى تَيس

(١) في طبعة عبد الحميد: «والمشرع».
(٢) في طبعة دار صادر: «الكروخي».
(٣) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٨٥) وبغية الوعاة (ص ١٢٢).
(٤) في بغية الوعاة: «عداي».
(٥) في الكتيبة الكامنة «فسترْتُها».
(٦) السبجي: نسبة إلى السَّبَج وهو خرز أسود. لسان العرب (سبج).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «ورُهى».

انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب ابن مرزوق.

وأنشد الرحالة ابن جابر الوادي آشِي لأبي حَيَّان قوله: [الطويل]

وقَصَّر آمالي مَآلي إلى الردى ... وأنّي وإنْ طال المدى سوف أَهْلِكُ
فَصُنْتُ بماء الوَجْهِ نَفْسًا أبيّةً ... وجادتْ يميني بالذي كنت أَمْلِكُ

ووقفت على «أعيان العصر، وأعوان النصر» للصفدي، فوجدْتُ فيه ترجمة أبي حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد، وهي:

الشيخ، الإمام، العالم، العلامة، الفريد، الكامل، حجّة العرب، مالك أزمَّة الأدب، أثير الدين، أبو حيان الأندلسي الجيَّاني ـ بالجيم، والياء آخر الحروف مشدّدة، وبعد الألف نون ـ وكان أمير المؤمنين في النحو، والشمس السافرة شتاء في يوم الصَّحْو، والمتصرّف في هذا العلم فإليه الإثبات والمحو، لو عاصر أئمّة البصرة لبصَّرهم، أو أهل الكوفة لكفّ عنهم اتباعهم السواد وحذّرهم، نزل منه كتاب سيبويه في وطنه بعد أن كان طريدًا، وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مفيدًا، وجعل سَرْحَة شرحه وَجْنَةً راقت النواظر توريدًا، ملأ الزمان تصانيف، وأمال عُنُقَ الأيام بالتآليف، تخرّج به أئمّة في هذا الفنّ، ورَوّق لهم في عصره منه سُلافة الدَّنّ، فلو رآه يونس بن حبيب[1] لكان بغيضًا غير مُجيب، أو عيسى بن عمر لأصبح من تقصيره وهو محذَّر، أو الخليل[2] لكان بعينه قَذَاه، أو سِيبَويه لَمَّا تردّى من مسألته الزنبورية بِرَدَاه، أو الكسائي لأعراه حلّة جاهه عند الرشيد وأناسه؛ أو الفَرَّاء لَفَرَّ منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مَدَاسِه، أو اليزيدي لما ظهر نقصه من مكامنه، أو الأخفش لأخفى جملةً من محاسنه، أو أبو عُبَيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية، أو أبو عَمْرٍو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلّق بعربية، أو السكريّ لما راق كلامه في المعاني ولا حلا، أو المازني لَمَا زانه قولُه «إنَّ مُصَابكم رجلا» أو قطرب لَمّا دبَّ في العربية ولا دَرَج، أو ثعلب لاستكن بمكره في وَكْره ولما خرج، أو المبرّد لأصبحت كُوَاه مقترة، أو الزجّاج لأمست قواريره مكسرة، أو ابن الوزان لعدم نقده، أو الثمانيني لما تجاوز حدّه، أو ابن باب لعلم أن قياسه ما اطَّرد، أو ابن دُرَيْد ما بلع ريقه ولا ازْدَرَد، أو ابن قتيبة لأضاع رَحْله، أو ابن السراج

---

(1) هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي البصري، النحوي، المتوفَّى سنة ١٨٢ هـ، وقيل: سنة ١٨٣ هـ. بغية الوعاة (ص ٤٢٦).

(2) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب كتاب «العين».

لمشى[1] إذ رأى وَحَله، أو ابن الخشاب لأضرم فيه نارًا، ولم يجد معه نورًا، أو ابن الخباز لما سَجَّر له تنورًا، أو ابن القوّاس لما أغرق في نَزْعه، أو ابن يعيش لأوقعه في نزعه، أو ابن خروف لما وجد له مرعًى، أو ابن إياز لما وجد لأوزاره وقعًا، أو ابن الطراوة لم يكن نحوه طريًّا، أو الدباج[2] لكان من جلّته الرائقة عريًّا، وعلى الجملة فكان إمام النحاة في عصره شرقًا وغربًا، وفريد هذا الفنّ الفذّ بعدًا وقربًا، وفيه قلت: [السريع]

سلطانُ علمِ النَّحْوِ أستاذُنا الـ شيخُ أثيرُ الدِّينِ حَبْرُ[3] الأنامْ
فلا تَقُلْ زيدٌ وعمروٌ، فما في النَّحْوِ مَعْهُ لسواهُ كلامْ

خدم هذا العلم مدّة تقارب الثمانين، وسلك من غَرَائبه وغوامضه طرقًا متشعّبة الأفانين، ولم يزل على حاله إلى أن دخل في خبر كان، وتبدّلت حركاته بالإسكان، وتوفي، رحمه اللّٰه تعالى، بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة في يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة، ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر، وصُلّي عليه بالجامع[4] الأموي بدمشق صلاة الغائب في شهر ربيع الآخر، ومولده بمدينة مَطَخْشَارَش[5] في أخريات شوال سنة أربع وخمسين وستمائة.

وقلت أنا أرثيه رحمه اللّٰه تعالى[6]: [السريع]

مات أثير الدين شيخُ الورى فاسْتَعَرَ البارقُ واسْتَعْبَرَا
ورَقَّ مِنْ حزنٍ[7] نسيمُ الصَّبا واعْتَلَّ في الأسحار لمَّا سَرَى
وصادحاتُ الأيْكِ في نوحها رَثَتْهُ في السَّجْعِ على حرف را
يا عَينُ، جُودي بالدموع التي يَرْوَى بها ما ضَمَّهُ مِنْ ثرى
واجري دمًا فالخَطْبُ في شأنه قد اقْتَضَى أكثرَ مِمَّا جَرَى

---

(١) في طبعة دار صادر: «لمشاه».
(٢) في الطبعة نفسها: «ابن الدباج لكان من حُلّته..».
(٣) الحَبْرُ، بفتح الحاء وسكون الباء: العالِمُ. لسان العرب (حبر).
(٤) في طبعة دار صادر: «في الجامع».
(٥) مَطَخْشارش: موضع بغرناطة. انظر هذا الجزء (ص ٣٠٥). وفي بغية الوعاة (ص ١٢١): مطخشارش مدينة من حضرة غرناطة.
(٦) القصيدة في بغية الوعاة (ص ١٢٢ - ١٢٣).
(٧) في بغية الوعاة: «من حُسْنٍ..».

مـاتَ إمـامٌ كـان فـي فـنِّـه[1] يُـرَى إمـامًـا والـوَرَى مِـنْ ورا
أمـسـى مُـنـادًى لـلـبـلـى مـفـردًا فـضـمَّـهُ الـقـبـرُ عـلـى مـا تـرى
يـا أسـفـا كـان هُـدًى[2] ظـاهـرًا فـعـاد فـي تـربـتـه مُـضْـمـرا
وكـان جَمْـعُ الفـضـل في عَـصْـره صـحَّ فـلـمَّـا أنْ قـضـى كُـسِّـرَا
وعُـرِّف الـفـضـلُ بـه بُـرْهَـةً والآن لَـمَّـا أنْ مـضـى نُـكِّـرا
وكـان مـمـنـوعًـا مِنَ الـصَّـرْف لا يـطرقُ مَـنْ وافـاه خَـطْبٌ عَـرَا
لا أفـعـلُ الـتـفـضـيـلِ مـا بَـيْـنَـهُ وبَـيـنَ مـن أعـرفـه فـي الـورى
لا بَـدَلٌ عـن نـعـتـه بـالـتُّـقـى فـفـعْـلُه كـان لـه مـصـدرا
لـم يُـدَّغَـمْ فـي الـلحـد إلّا وقـد فـكَّ مـن الـصـبـر وثـيـقَ الـعُـرَا
بـكـى لـه زيـدٌ وعـمـرو فـمـن أمـثـلة الـنـحـو ومِـمَّـنْ قـرا
مـا أعـقـدَ التـسـهـيـلَ مِنْ بـعـده فـكـم لـه مـن عـسـرةٍ[3] يَـسَّـرَا
وجَـسَّـرَ الـنـاسَ عـلى خَـوْضِـهِ إذ كـان في النحـو قـد استبْحَـرَا
مِـنْ بَـعْـدِهِ قـد حـالَ تـمـيـيـزُهُ وحَـظُّه قـد رَجَـعَ الـقَـهْـقَـرَى
شـاركَ مَـنْ قـد[4] سـاد في فـنِّـه وكـم لـه فـنٌّ بـه اسـتـأثـرا
دأبُ بـنـي الآداب أن يـغـسـلوا بـدمـعـهـمْ فـيـه بَـقَـايـا الـكَـرَى
والـنـحـو قـد سـار الـردى نـحـوه والـصـرفُ للتـصـريـف قـد غـيَّـرا
والـلغـةُ الفُـصْحـى غَـدَتْ بـعـده يلغى الـذي في ضبـطـهـا قـررا[5]
تـفسـيـره البـحـرُ المحـيط الـذي يـهـدي إلـى وُرّاده الـجـوهـرا
فـوائـدٌ مِـنْ فـضـله جَـمَّـةٌ عـلـيـه فـيـهـا نعـقـدُ[6] الْخِـنـصَـرَا
وكـان ثَـبْـتًـا نَـقْـلُهُ حُـجَّـةٌ مـثـلَ ضـيـاءِ الـصـبـح إنْ أسـفـرا
ورحـلةٌ فـي سُـنَّـة الـمـصـطفـى أصـدقُ مـن يـسـمـعُ إنْ أخْـبـرا[7]

---

(١) في المصدر نفسه: «في علمه. . ».
(٢) في المصدر نفسه: «هديًا».
(٣) في بغية الوعاة: «من عثرة. . ».
(٤) في المصدر نفسه: «من ساواه في. . ».
(٥) في المصدر نفسه: «يلفى. . قرا».
(٦) في المصدر نفسه: «يعقد».
(٧) في طبعة دار صادر: «ورحله. . ». وفي بغية الوعاة: «ورحلة. . . من تبسمع أن يخبرا».

لـه الأسـانيـدُ التـي قـد علـتْ فـاسْتَفَلَتْ عنهـا سـوامي الـذُّرا[١]
سـاوى بهـا الأحفـادُ أجـدادَهُـمْ فـاعجبْ لماضٍ فـاته مَنْ طَـرَا[٢]
وشـاعـرًا فـي نـظمـه مـفـلقـا كـم حَـرَّرَ الـلفظَ وكـم حَـبَّـرَا
لـهـا مـعـانٍ كـلَّمـا خَـطَّهـا تـسـتـرُ مـا يـرقـمُ في تُسْتَـرا[٣]
أفـديـه مـن مـاضٍ لأمـر الـردى مـسـتـقـبَلاً مـن ربِّـه بـالـقِـرَى
مـا بـاتَ فـي أبـيضٍ أكـفـانـه إلاَّ وأضـحـى سُـنْـدُسًـا أخـضـرا
تُـصـافِـحُ الـحُـورُ لـه راحـةً كـم تَـعِـبَـتْ فـي كـلِّ مـا سـطَّرا
إنْ مـات فـالـذكـرُ لـه خـالـد يـحـيـا[٤] بـه مـن قبـل أن يُـنْـشـرا
جـاد ثَـرًى وافـاه غَـيْـثٌ إذا مَـسَّـاهُ[٥] بـالـسُّـقْـي لـه بَـكَّـرَا
وخَـصَّـه مِـنْ رَبِّـه رحـمـةٌ تـوردُهُ فـي حـشـره الـكـوثـرا

وكان قد قرأ القراآت على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد اللَّه نحوًا من عشرين ختمة إفرادًا وجمعًا، ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر أحمد الغَرْنَاطي المعروف بالطباع بغرناطة، ثم قرأ السبعة إلى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ أبي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص بمالَقَةَ، ثم إنه قدم الإسكندرية، وقرأ القراءات على عبد النصير بن علي بن يحيىٰ المريوطي[٦]، ثم قدم مصر فقرأ بها القراءات على أبي الطاهر إسماعيل بن هبة اللَّه المليحي، وسمع الكثير على الجمِّ الغفير بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية والإسكندرية وديار مصر والحجاز، وحَصَّل الإجازات من الشام والعراق وغير ذلك، واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة، ولم أَرَ في أشياخي أكثر اشتغالاً منه؛ لأنِّي لم أره قطّ إلاَّ يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك، وله إقبال على الطلبة الأذكياء، وعنده تعظيم لهم، ونظم ونثر، وله الموشحات البديعة، وهو

---

(١) اسْتَفَلَ: هبط إلى الأسفل. السوامي: جمع سامٍ وهو المرتفع. الذُّرى: جمع ذروة وهي أعلى الشيء وقمّته. لسان العرب (سفل) و(سما) و(ذرا). وفي بغية الوعاة: «فاسْتَسْفَلَتْ عنها..».

(٢) في بغية الوعاة: «أحرارهم» بدل «أجدادهم». وقوله: «طَرَا»: أصلها «طرأ»، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(٣) تُسْتَر: مدينة بخوزستان، مشهورة بصناعة النسيج المرقوم. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٢٩).

(٤) في بغية الوعاة: «يحيي».

(٥) في المصدر نفسه: «ماءه».

(٦) نسبة إلى «مَرْيوط» وهي قرية ساحلية من قرى مصر قرب الإسكندرية. معجم البلدان (جـ ٥ ص ١١٩).

ثَبت فيما ينقله، محرّر لما يقوله، عارف باللغة، ضابط لألفاظها، وأمَّا النحو والصرف، فهو إمام الناس كلِّهم فيهما، لم يذكر معه في أقطار الأرض غيره في حياته، وله اليدُ الطُّولَى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم، خصوصًا المغاربة، وتقييد أسمائهم على ما يتلفّظون به من إمالة وترقيق وتفخيم؛ لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم، وألقابهم كذلك، وقيَّده وحرّره، وسأله شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلّق بذلك، وأجابه عنها.

وله التصانيف التي سارت وطارت، وانتشرت وما انتثرت، وقرئت ودريت ونسخت وما فسخت، أخملَتْ كتب الأقدمين، وألهت المقيمين بمصر والقادمين، وقرأ الناس عليه، وصاروا أئمّة وأشياخًا في حياته، وهو الذي جَسَّر الناس على مصنّفات ابن مالك رحمه اللّٰه تعالى، ورغّبهم في قراءتها[1]، وشرح لهم غامضها، وخاض بهم لُجَجها، وفتح لهم مقفلها، وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب[2]: هذه نحو الفقهاء، وكان التزم أن لا يقرىء أحدًا إلّا إن كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه، ولَمَّا قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين، رحمه اللّٰه تعالى، كثيرًا، وأخذ عنه كتب الأدب. وكان شيخًا حسن العمّة، مليح الوجه، ظاهر اللون، مُشْرَب الحمرة[3]، منور الشيبة، كبير اللحية، مسترسل الشعر فيها لم تكن كَثّة، عبارته فصيحة بلغة الأندلس، يعقد حرف القاف قريبًا من الكاف، على أنه لا ينطق بها في القرآن إلّا فصيحة، وسمعْتُه يقول: ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف.

وكانت له خصوصية بالأمير سيف الدين أرغون كافل الممالك، ينبسط معه، ويبيت عنده في قلعة الجبل، ولَمَّا توفيت ابنته نُضَار طلع إلى السلطان الملك الناصر محمد، وسأل منه أن يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقوقية، فأذن له في ذلك، وكان أولًا يرى رأي الظاهرية، ثم إنه تمذهب للشافعي، رضي اللّٰه تعالى عنه؛ بحث على الشيخ علم الدين العراقي «المحرّر» للرافعي، و«مختصر المنهاج» للنووي، وحفظ «المنهاج» إلّا يسيرًا، وقرأ

---

(١) في طبعة دار صادر: «ورغَّبهم فيها وفي قراءتها».

(٢) هو الفقيه جمال الدين أبو عمر عثمان بن عمر ابن الحاجب الكردي؛ مقرىء نحوي أصولي، من مؤلفاته في النحو كتاب «الكافية». توفي بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. بغية الوعاة (ص ٣٢٣).

(٣) في طبعة دار صادر: «مشربًا حمرة».

أصـول الفقه على أستـاذه أبي جعفـر بن الـزبيـر، بحث عليـه من «الإشـارة» للبـاجي، ومن «المستصفى» للغـزالي، وعلى الخـطيب أبي الحسن بن فَضِيلة، وعلى الشيـخ علم الـدين العـراقي، وعلى الشيخ شمس الـدين الأصبهاني، وعلى الشيـخ علاء الـدين الباجي، وقـرأ شيئًا[1] من أصول الدين على شيخه ابن الزبير، وقرأ عليه شيئًـا من المنطق، وقـرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادي، وقرأ عليـه شيئًا من «الإرشـاد» للعميدي في الخلاف، ولكنّه بـرع في النحو، وانتهت إليـه الريـاسة والمشيخـة فيه، وكـان خاليًـا من الفلسفـة والاعتزال والتَّجْسيم، وكـان أولاً يعتقـد في الشيـخ تقي الـدين بن تيميـة وامتـدحـه بقصيدة، ثم إنه انحرف عنه لَمَّـا وقف على كتاب «العـرش» له. قـال الفاضـل كمال الـدين الأدفوي: وجرى على مذهب كثير من النحويين في تعصّبه للإمام علي بن أبي طالب، رضي اللّه تعـالى عنه، التعصّب المتين، قـال: حكي لي أنه قـال لقـاضي القضـاة بـدر الـدين بن جمـاعة: إنّ عليًّـا، رضي اللّه تعالى عنـه، عهد إليـه النبيّ ﷺ، أن لا يحبّـك إلاّ مؤمن ولا يبغضـك إلاّ منافق، أتـراه ما صـدق في هذا! فقـال: صدق، قـال فقلت له: فـالـذين سَلُّوا السيوفَ في وجهه يبغضونه أو يحبّونه أو غير ذلك؟ قال: وكان سيِّىء الظن بالناس كافّة، فإذا نُقل له عن أحد خبر[2] لا يتكيّف بـه وينثني عنه حتى عَمَّنْ هـو عنده مجـروح، فيقع في ذمِّ من هو بألسنة العالم ممدوح، وبسبب ذلك وقع في نفس جمع كبير منه ألم كثير، انتهى.

قلت: أنـا لم أسمع منـه في حقِّ أحد مِنَ الأحيـاء والأموات إلاّ خيـرًا، وما كنت أنقم عليه شيئًا إلاّ ما كان يبلغني عنه من الحطّ على الشيخ تقي الـدين بن دقيق العيد، على أنني أنـا ما سمعت في حقِّـه شيئًا، نعم كـان لا يثق بهؤلاء الذين يـدّعون الصـلاح حتى قلت لـه يومًا: يا سيدي، فكيف تعمل في الشيخ أبي مَدْيَن؟ فقال: هو رجلٌ مسلمٌ دَيِّنٌ، وإلاّ ما كان يطير في الهواء، ولا يصلِّي الصلوات الخمس في مكة كما يدعي فيه هؤلاء الأغمار.

وكـان فيه ـ رحمـه اللّه تعالى! ـ خشـوع، يبكي إذا سمع القـرآن، ويجري دمعـه عند سماع الأشعار الغزلية، وقال كمال الـدين المذكـور: قال لي: إذا قـرأتُ أشعار العشق أميـل إليها، وكذلك أشعار الشجاعة تستميلني، وغيرهما، إلاّ أشعار الكرم ما تؤثر فيَّ، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «أشياء».

(٢) في طبعة ليدن: «خير».

قلت: كان يفتخر بالبخل، كما يفتخر غيره بالكرم، وكان يقول لي: أوصيك، احْفَظْ دراهمك ويقال عنك بخيل، ولا تحتجْ إلى السفل.

وأنشدني من لفظه لنفسه: [الطويل]

رجاؤك فلسًا قد غَدَا في حَبَائلي	قنيصًا رجاءٌ للنُّتاج مِنَ العُقْمِ
أأتعبُ في تحصيله وأضيِّعه؟	إذن كنت معتاضًا[1] من البرْء بالسُّقْم

قلت: والذي أراه فيه أنه طال عمره، وتغرَّب، وورد البلاد ولا شيء معه، وتعب حتى حصَّل المناصبَ تعبًا كثيرًا، وكان قد جرّب الناس، وحلب أشْطُرَ الدهر[2]، ومرَّت به حوادث، فاستعمل الحزم، وسمعْتُه غيرَ مرّة يقول: يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس: يشتري له بائتة بفلسين، وبفلس زبيبًا، وبفلس كوز ماء، ويشتري ثاني يوم ليمونًا بفلس يأكل به الخبز، وكان يعيب على مشتري الكتب ويقول: اللّه يرزقك عَقْلًا تعيش به، أنا أيّ كتاب أردْتُه استعرْتُه من خزائن الأوقاف، وإذا أردت من أحد أن يعيرني دراهم ما أجد ذلك، وأنشدني له إجازة: [الكامل]

إنَّ الدراهمَ والنساءَ كلاهما	لا تَأْمَنَنَّ عليهما إنسانا
يَنْزَعْنَ ذا اللبِّ المتين عن التُّقَى	فترى إساءةَ فِعْلِهِ إحسانا

وأنشدني له من أبيات[1]: [الطويل]

أتى[2] بشفيع ليس يمكن رَدُّهُ	دراهمُ بيضٌ للجروحِ مَرَاهِمُ
تُصَيِّر صُعبَ الأمرِ أهونَ ما يُرَى[3]	وتقضي لُبانَاتِ الفتى وهو نائم

ومن حزمه قوله[6]:

عِدَاتي لهم فضل ـ البيتين

---

(١) في طبعة ليدن: «عن البرء».
(٢) حَلَبَ أَشْطُرَ الدهرِ: أي جرَّب الأيام. محيط المحيط (شطر).
(٣) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٨٤).
(٤) في الكتيبة الكامنة: «أجلُّ شفيعٍ..».
(٥) في المصدر نفسه: «الأمر أسهل ما أرى..».
(٦) تقدم البيتان في هذا الجزء (ص ٢٨٩).

وقد مدحه كثير من الشعراء، والكبار الفضلاء، فمنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله: [الكامل]

قد قلتُ لَمَّا أنْ سمعتُ مَباحِثًا ... في الذات قَرَّرَها أجلُّ مفيدِ
هذا أبو حيانَ قلتُ صدقْتُمُ ... وبررتُمُ هذا هو التوحيدي[1]

وكان قد جاء يومًا إلى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجدْه، فكتب بالجص على مصراع الباب، فلمّا رأى ابن الوكيل ذلك قال: [الكامل]

قالوا أبو حيانَ غيرَ مُدافعٍ ... ملكُ النحاة فقلْتُ بالإجماعِ
اسم الملوكِ على النقودِ وإنّني ... شاهدْتُ كنيته على المصراعِ

ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها: [الطويل]

إليكَ أبا حيانَ أعْمَلْتُ أيْنُقِي[2] ... ومِلْتُ إلى حيثُ الركائبُ تلتقي
دعاني إليك الفضلُ فانقَدْتُ طائعًا ... ولَبَّيتُ أحدُوها بلفظي المصدقِ

ومدحه نجمُ الدين إسحٰق بن ألمي[3] التركي، وسأله تكملة شرح التسهيل بقصيدة، وأرسلها إليه من دمشق، وأولها: [الطويل]

تَبَدَّى فقلْنا وجْهُهُ فَلَقُ الصُّبْحِ ... وكَمَّلَهُ باليُمْن فيه وبالنُّجْحِ
وسَهَّلْتُ تسهيلَ الفوائدِ مُحْسِنًا ... فكنْ شارحًا صدري بتكملةِ الشَّرْحِ

ومدحه مجبر الدين عمر بن الملطي[4] بقصيدة أولها: [السريع]

يا شيخَ أهلِ الأدبِ الباهرِ ... من ناظمٍ يُلْفَى ومن ناثرِ

---

(١) التوحيدي: المنسوب إلى التوحيد وهو علم الكلام. وفي البيت تورية بأبي حيان التوحيدي علي بن محمد التوحيدي البغدادي، صاحب المؤلفات الشهيرة، ومنها «الامتاع والمؤانسة» و«الصديق والصداقة» و«المقابسات». وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ١١٢) وبغية الوعاة (ص ٣٤٨).
(٢) الأيْنُق: جمع ناقة. محيط المحيط (نوق). وفي طبعة عبد الحميد: «أنْيُقي» وهو خطأ.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «إسحٰق بن المَنِّي..».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «اللمطي».

ومدحه نجم الدين يحيىٰ الإسكندري بقصيدة أولها: [البسيط]

ضَيفٌ أَلَمَّ بنا مِنْ أَبْرَعِ الناسِ   لا ناقضٌ عَهْدَ أيامي ولا ناسي
عارٍ مِنَ الكِبْرِ[1] والأدناس ذو شرفٍ   لكنه مِنْ سَرَابيلِ العُلَا كاسي

ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين أول الأولى: [الرمل]

أتراهُ بَعْدَ هجرانٍ يصلْ   ويُرَى في ثوبِ وصلٍ مبتذلْ
قَمَرٌ جارَ على أحلامنا   إذ تولّاها بقدٍّ معتدلْ

وأول الثانية: [الرمل]

اعْذُرُوهُ فكريمٌ مَنْ عَذَرْ   قَمَرَتْهُ[2] ذاتُ وجهٍ كالقمرْ

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة أولها: [البسيط]

[إنَّ الأثيرَ أبا حيانَ أحيانا   بنشره طيَّ عِلْمٍ مات أحيانا

ومدحه القاضي ناصر الدين شافع بقصيدة أولها][3]: [الطويل]

فَضَضْتُ عن العَذْبِ النَّمير خِتامَها   وفَتَّحْتُ عن زَهْرِ الرياض كِمامَها

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم، وكتبت أنا إليه من الرحبة سنة ٧٢٩: [البسيط]

لو كنتُ أَمْلِكُ مِنْ دهري جَنَاحَينِ   لَطِرْتُ لكنّه فيكُمْ جَنَى حَيْنِي
يا سادةً، نلْتُ في مصرٍ بهمْ شرفًا   أرقى به شرفًا ينأى عن العَينِ
وإن جرى لسَما كيوانَ ذِكْرُ عُلًا   أَحَلَّني فضلُهُمْ فوق السِّماكين
وليس غيرُ أثيرِ الدين أثَّلَهُ   فشادَ ما شاد لي حَقًّا بلامَينِ[4]
حَبْرٌ ولو قلْتُ إنَّ الباء رتْبَتُها   مِنْ قَبْلُ صَدَّقَكَ الأقوامُ في ذَينِ
أَحْيَا علومًا أماتَ الدهرُ أكْثَرَها   مذ جُلِّدَتْ خُلِّدت ما بين دفَّينِ
يا واحد العصرِ ما قولي بِمُتَّهَمٍ   ولا أُحاشي امرءًا بين الفريقين

---

(١) الكِبْرُ، بكسر الكاف وسكون الباء: الإثم الكبير. محيط المحيط (كبر).

(٢) قَمَرَهُ: غلبه في لَعِبِ القمار. مختار الصحاح (قمر).

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٤) المَيْنُ: الكذب. لسان العرب (مين).

هـذي العلوم بَـدَتْ مِنْ سيبـويـه كمـا قـالـوا وفيـكَ انتهتْ يـا ثـانيَ اثنين
فـدم[1] لهـا وبـودِّي لـو أكـون فِـدًى لِـمَـا ينـالُـكَ فـي الأيـام مِنْ شَـينِ
يَـا سِيبويـه الورى في الـدهـر لا عَجَبٌ إذا الخليـل غَـدَا يَفْـدِيكَ بـالعَينِ[2]

يُقَبِّلُ الأرضَ وينهي ما هو عليه من الأشواق التي بَرَّحَتْ[3] بألمها، وأجرت الدموع دمًا، وهذا الطِّرْسُ[4] الأحمر يشهد بدمها، وأربت بسَحِّها على السحائب، وأين دوام هذه من دِيَمها، وفرقت الأوصال[5] على السقم لوجود عدمها: [الطويل]

فيـا شـوقُ مـا أبقى، ويـا لي مِـنَ النـوى ويـا دمـعُ مـا أجـرى، ويـا قلبُ مـا أصْبَى

ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الأرض الحمائم، ويسير تحت لوائه مَسِيرَ الرياح بين الغمائم، وثناءه الذي يتضوّع كالزهر بين الكمائم، ويتَنَسَّم تَنَسُّمَ هامات الرُّبا إذا لبست من الربيع ملوّنات العمائم، ويشهد اللَّه على ما قد قلته واللَّه سبحانه نِعْمَ الشهيد.

فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم منِّي.

وأنشدْتُه يومًا لنفسي: [الخفيف]

قـلـتُ لـلكـاتـب الـذي مـا أراه قطُّ إلَّا ونَـقَّطَ الـدمـعُ شَـكْـلَهْ
إن تخطَّ الـدمـوعُ في الـخَـدِّ شيئًـا مـا يـسمـى؟ فـقـال خَطُّ ابـنِ مُـقْـلَهْ

وأنشدني هو من لفظه لنفسه: [الخفيف]

سَبَقَ الـدمـعُ بـالمسيـر المَـطايـا إذ نـوى مَـنْ أُحِـبُّ عـنِّـيَ نُـقْـلَهْ
وأجـاد الخـطوطَ في صفحـة الخَـدْ دِ ولـمْ لا يُـجيـدُ وهـو ابـنُ مُـقْـلَهْ

وأنشدني في مليح نوتيّ: [الطويل]

كـلفـتُ بـنـوتـيٍّ كـأنَّ قـوامَـهُ إذا يـنثـني خُـوطٌ مـن البـان نـاعِـمُ
مـجـاذفُـهُ في كـلِّ قـلـبٍ مَـجـاذبٌ وهَـزَّاتُـهُ لـلعـاشـقـينَ هـزائـمُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «قدم».
(٢) في البيت تورية بالخليل بن أحمد الفراهيدي وبكتابه «العين».
(٣) بَرَّحَتْ: آلمتْ، أوجعتْ. لسان العرب (برح).
(٤) الطِّرْس، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة. مختار الصحاح (طرس).
(٥) الأوصال: المفاصل. مختار الصحاح (فصل).

وأنشدته أنا لنفسي : [الخفيف]

إنَّ نـوتـيَّ مـركـبٍ نـحـن فـيـه ... هـام فيـه صَبُّ الفؤادِ جـريحُـهْ
أقلعَ القلبُ عن سلوِّيَ لَمَّا ... أنْ بـدا ثَغْرُهُ وقـد طـابَ ريحُـهْ

وأنشدته لنفسي أيضًا : [مخلع البسيط]

نـوتـيُّـنـا حُـسْـنُـهُ بـديـعٌ ... وفـيـه بَـدْرُ السـمـاء مُغْـرَى
مـا حَـكَّ بَـرًّا إلَّا وقُـلْـنـا ... يـا لـيـت أنَّـا نـحـكُّ بَـرًّا

فأعجباه رحمه اللَّه تعالى، وزهزه لهما.

وأنشدني هو لنفسه في مليح أحدب : [المتقارب]

تَعَشَّقْتُـه أَحْـدَبًـا كَـيِّسًـا[1] ... يحـاكي نـحيبًـا حنينَ النَّعـامِ
إذا كـدْتُ أسـقطُ مـن فـوقـه ... تَـعَلَّقْتُ مِنْ ظهـره بـالسَّنَـامِ

فأنشدته لنفسي : [السريع]

وأحـدبٍ رُحْـتُ بـه مُـغْـرَمًـا ... إذ لـم تُشـاهِـدْ مِثْلَهُ عَـيـنـي
لا غَـرْوَ أنْ هـامَ فـؤادي بـه ... وخَـصْـرُهُ مـا بـيـن دفَّـيـنِ

وأنشدني من لفظه لنفسه في أعمى : [البسيط]

مـا ضَـرَّ حُسْنَ الـذي أهـواه أنَّ سَنَـا ... كـريمتيـه بـلا شَيـنٍ قـد احْتَجَبَـا
قـد كـانتـا زهـرتي روضٍ وقـد ذَوَتَـا ... لكنَّ حُسْنَهمـا الفتّـانَ مـا ذهبـا
كـالسيف قـد زال عنـه صَقْلُه فَغَـدَا ... أنكى وآلـمَ في قـلبِ الـذي ضـربـا

وأنشدته لنفسي في ذلك : [السريع]

ورُبَّ أعْمَى وَجْهُـهُ روضـةٌ ... تَنَـزُّهِي فيهـا كثيـرُ الـديـونْ
وخَـدُّه وَرْدٌ غـنِـيْـنـا بـه ... عن نـرجسٍ مـا فتحتـه العيـونْ

---

(١) الكَيِّسُ: الظريف. مختار الصحاح (كيس).

وأنشدته أيضًا لنفسي في ذلك: [الطويل]

فيا حُسْنَ أعمى لم يخفْ حَدَّ طرفه ... مُحِبٌّ غدَا سَكْرَانَ فيهِ وَمَا صَحَا
إذا صادَ خِلٌّ بَاتَ يَرْعَى حُدُودَهُ ... غدا آمنًا مِنْ مقلتيه الجوارحا

وكتبت إليه استدعاءً، وهو[1]: المسؤول من إحسان سيّدنا الإمام العالم العلّامة، لسان العرب، ترجمان الأدب، جامع الفضائل، عُمْدة وسائل السائل، حجّة المقلِّدين، زين المقلَّدين، قطب المؤملين[2]، أفضل الآخرين، وارث علوم الأوّلين، صاحب اليد الطولى في كل مكان[3] ضيق، والتصانيف التي تأخذ بمجامع القلب فكلُّ ذي لُبٍّ إليها شَيِّقٌ، والمباحث التي أثارت الأدلّة الراجحة من مكامن أماكنها، وقنصت أوابدها الجامحة من مواطىء مواطنها، كشّاف مُعْضلات الأوائل، سَبّاق غايات قصّر عن شأوها سَحْبانُ وائل، فارع هَضَبات البلاغة في اجتلاء اجتلابها وهي في مَرْقًى مرقدها، سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فوق[4] فَرْقَدها، حتى أبرز كلامه جَنَانٌ[5] فكلُّ جَنَّانٍ من بعده عن الدخول إليها جَبَان، وأتى ببراهين وجوه حورها لم يَطْمِثهنّ إنسٌ قبله ولا جانٌّ، وأبدعَ خمائل نظمٍ ونثرٍ لا تصل إلى أفنان فنونها يدُ جان، أثير الدين أبي حيانٍ، [لا زال ميت العلم يُحْييه، وهل عجيب ذلك من أبي حيان][6]: [الكامل]

حتى ينالَ بنو العُلُومِ مَرَامَهُمْ ... ويحلَّهُمْ دارَ المُنى بأمانِ

إجازةُ كاتبِ هذه الأحرف ما رواه - فسح اللَّه تعالى في مدّته - من المسانيد والمصنّفات والسنن والمجاميع الحديثية، والتصانيف الأدبية، نظمًا ونثرًا، إلى غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها، وتبايُن أجناسها وأنواعها، مِمّا تَلَقّاه ببلاد الأندلس وإفريقية والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية وغيرها من البلدان، بقراءة أو سماع

---

(1) النص في الوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٧٦ - ٢٨١) باختلاف يسير عمّا هنا.
(2) في الوافي: «قطب المولين».
(3) في المصدر نفسه: «مقام ضيّق».
(4) في المصدر نفسه: «من فرق».
(5) الجَنان، بالفتح: القلب. مختار الصحاح (جنن).
(6) ما بين قوسين جاء في الوافي بالوفيات بيت شعر، وقد ورد قبل البيت التالي هكذا: [الكامل]
لا زال مَيْتُ العلم يُحْييه ولا ... عجبٌ لذلك من أبي حيانِ

أو مناولة أو إجازة خاصّة أو عامّة، كيفما تأدّى ذلك إليه، وإجازة ما له ـ أدام اللّٰه إفادته ـ من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والأدبية وغيرها، وما له من نظم ونثر إجازةً خاصّةً، وأن يُثْبت بخطّه تصانيفَهُ إلى حين هذا التاريخ، وأن يجيزه إجازةً عامةً لما يتجدّد له من بعد ذلك على رأي مَنْ يراه ويجوّزه، منعمًا متفضلاً إن شاء اللّٰه تعالى.

فكتب الجواب رحمه اللّٰه تعالى: أعزك اللّٰه! ظننتَ بإنسان[1] جميلاً فغاليتَ، وأبديْتَ من الإحسان جزيلاً وما باليتَ، وصَفْتَ مَنْ هو القَتَام[2] يظنّه الناس سماء، والسرابُ يحسبه الظمآنُ ماء، يا ابن الكرام وأنت أَبْصَرُ من يَشِيم[3]، أَمَعَ الروض النضير يُرْعى الهشيم[4]؟ أما أغْنَتْكَ فضائلك[5] وفواضلك، ومعارفك وعوارفك، عن نُغبة من دأماءَ[6]، وتربة من يَهْمَاءَ[7]، لقد تبلّجتِ المهارقُ من نور صفحاتك، وتأرّجت الأكوانُ من أريج نفحاتك، ولأنت أعرف مَنْ يُقْصَدُ[8] للدراية، وأنقدُ من يعتمد عليه في الرواية، لكنك أردْتَ أن تكسو من مطارِفك، وتتفضّل من تالدك وطارفك، وتجلو الخامل في منصّة النباهة، وتُنْقذه من لَكَنِ الفَهَاهة[9]، فتشيد له ذكرًا، وتُعْلي له قدرًا، ولم يمكنه إلاّ إسعافك فيما طلبْتَ، وإجابتك فيما إليه ندبْتَ، فإنَّ المالك لا يُعْصَى، والمتفضّل المُحْسِن لا يُقْصَى، وقد أجزْتُ لك ـ أيّدك اللّٰه تعالى! ـ جميعَ ما رويْتُه عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك، بقراءةٍ أو سماعٍ أو مناولةٍ أو إجازة بمشافهة وكتابة ووَجادة[10]، وجميعَ ما أجيز لي أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك، وجميعَ ما صنَّفْتُه واختصرْتُه وجمعْتُه وأنشأته نظمًا ونثرًا[11]، وجميعَ ما سألت في هذا الاستدعاء؛ فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة

---

(١) في طبعة ليدن وفي الوافي: «بالإنسان».

(٢) القَتام، بالفتح: الغبار. مختار الصحاح (قتم).

(٣) يشيم: ينظر. مختار الصحاح (شيم).

(٤) الهشيم: اليابس من كل عشب وكل شجر. لسان العرب (هشم).

(٥) في الوافي بالوفيات: «فواضلك وفضائلك».

(٦) النُغْبة، بضم النون وسكون الغين: الجرعة. الدأماء: البحر. لسان العرب (نغب) و (دأم).

(٧) اليَهْماء: الفلاة لا يُهْتَدَى فيها. محيط المحيط (يهم).

(٨) في الوافي: «بمن تقصد».

(٩) الفهاهة: العَيُّ. محيط المحيط (فهه).

(١٠) الوَجادة، بالفتح: هي أن تجد أحاديث بخطٍ يُعْرَف كاتبه. محيط المحيط (وجد). وفي طبعة دار صادر: «ووجازة».

(١١) في الوافي: «نثرًا ونظمًا».

السبعة على جماعة من أعلاهم الشيخ المسنِد المعمَّر فخر الدين أبو الطاهر[1] إسماعيل بن هبة اللَّه بن علي بن هبة اللَّه المصري ابن المليحي[2]، آخر من روى القرآن بالتلاوة[3] على أبي الجود، والكتب الستّة والموطأ ومسند عَبْدِ بن حُمَيد ومسند الدارميّ ومسند الشافعي ومسند الطَّيَالسي والمعجم الكبير للطَّبَراني والمعجم الصغير له وسُنَن الدارقطني وغير ذلك.

وأما الأجزاء فكثيرة جدًا، ومن كتب النحو والآداب فأروي بالقراءة كتاب سيبويه، والإيضاح، والتكملة، والمفصَّل، وجُمَل الزجاجي، وغير ذلك، والأشعار الستة والحماسة وديوان حبيب[4] والمتنبي والمعري[5]. وأمَّا شيوخي الذين رويتُ عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير، وأذكر الآن منهم جماعة: فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي، والمقرىء أبو جعفر أحمد بن سعيد[6] بن أحمد بن بشير الأنصاري، وإسحٰق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك بن دِرْبَاس، وأبو بكر بن عباس بن يحيىٰ بن غريب القَوَّاس البغدادي، وصفي الدين الحسين بن أبي منصور بن ظافر الخزرجي، وأبو الحسين محمد بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري، ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الأزدي بن الدَّهَّان، وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني، ورضي الدين محمد بن علي بن يوسف الأنصاري الشاطبي اللغوي، ونجيب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني[7]، ومكي بن محمد بن أبي القاسم بن حامد الأصبهاني الصَّفَّار، ومحمد بن عمر بن محمد بن علي السعدي الضرير ابن الفارض، وزين الدين أبو بكر محمد بن إسماعيل بن عبد اللَّه بن الأنماطي، ومحمد بن إبراهيم بن ترجم بن حازم المازني، ومحمد بن الحسين بن الحسن بن إبراهيم الداريّ[8] ابن الخليلي، ومحمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف

---

(١) في الوافي: «أبو الظاهر» بالظاء المعجمة.

(٢) في المصدر نفسه: «ابن المليجي» بالجيم المعجمة.

(٣) في طبعة ليدن: «عن».

(٤) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

(٥) في الوافي: «وديوان المتنبي وديوان المعري».

(٦) في المصدر نفسه: «سعد».

(٧) في المصدر نفسه: «الهمذاني» بالذال المعجمة.

(٨) في طبعة بولاق: «ابن الدارمي».

الأنصاري ابن الخيمي، ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر العنسي، عُرِف بابن النِّنِّ[1]، وعبد الله بن محمد بن هارون بن عبد العزيز الطائي القرطبي، وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان بن فتيان بن كامل الخزمي، وعبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن فارس التميمي، وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيىٰ بن يوسف ابن خطيب المزة، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلي المصري السكري، وعبد العزيز بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن الصيقل الحراني، وعبد العزيز بن عبد القادر بن إسماعيل الفيالي الصالحي الكَتَّاني، وعبد المعطي بن عبد الكريم بن أبي المكارم بن مَنْجَى الخزرجي، وعلي بن صالح بن أبي علي بن يحيىٰ بن إسماعيل الحسني البهنسي المجاور، وغازي بن أبي الفضل بن عبد الوهاب الحلَاوي، والفضل بن علي بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجي، ويوسف بن إسحٰق بن أبي بكر الطبري المكي، واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القُشَيري، ومؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي، وشامية بنت الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد التيمية، وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي.

وممن كتبت عنه من مشاهير الأدباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي بن الفرج[2] المالَقِي بن المرحّل[3]، وأبو الحسن[4] بن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري القرطاجني، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن يحيىٰ بن عبد الله الهذلي التطيلي، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن زنُّون[5] المالَقِي، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جبير الجلياني العكّي المالَقِي، وأبو الحسين يحيىٰ بن عبد العظيم بن يحيىٰ الأنصاري الجزّار، وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تُولُو القرشي، وأبو حفص عمر[6] بن محمد بن أبي علي الحسن المصري الوراق، وأبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن

---

(١) في الطبعة نفسها: «ابن التين».

(٢) في الوافي بالوفيات: «الفرح».

(٣) في طبعة ليدن: «أبو المرحل».

(٤) في الوافي: «وأبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري».

(٥) هكذا في الوافي بالوفيات. وفي طبعة دار صادر: «ذنون» بالذال المعجمة.

(٦) في طبعة بولاق: «عمرو».

ياسين[1] الكومي التلمساني، وأبو العباس أحمد بن أبي الفتح نصر اللّٰه بن باتكين القاهري، وأبو عبد اللّٰه محمد بن سعيد [بن محمد][2] بن حمّاد بن محسّن الصنهاجي البوصيري، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم العزازي.

ومِمَّنْ أخذْتُ عنه من النحاة أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخشني الأَبَّذِي[3]، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي بن الضائع[4]، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفي، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفِهْرِي اللَّبْلي، وأبو عبد اللّٰه محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر الحلبي ابن النحاس.

ومِمَّنْ لقِيْتُه من الظاهرية أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأنصاري الإشبيلي الزاهد، وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهري الشَّنْتَمَرِي.

وجملة الذين سمعْتُ منهم نحو من أربعمائة شخص وخمسين. وأما الذين أجازوني فعالم كثير جدًا من أهل غَرْنَاطة ومالَقَة وسَبْتَةَ وديار إفريقية وديار مصر والحجاز والعراق والشام. وأما ما صَنَّفْتُه فمن ذلك «البحر المحيط» في تفسير القرآن العظيم. «إتحاف الأريب[5]، بما في القرآن من الغريب». كتاب «الأسفار، الملخّص من كتاب الصَّفَّار» شرحًا لكتاب سيبويه. كتاب «التجريد لأحكام سيبويه». كتاب «التذييل والتكميل، في شرح التسهيل». كتاب «التنخيل، الملخّص من شرح التسهيل». كتاب «التذكرة». كتاب «المبدع» في التصريف. كتاب «الموفور». كتاب «التقريب». كتاب «التدريب». كتاب «غاية الإحسان». كتاب «النكت الحسان». كتاب «الشذا، في مسألة كذا». كتاب «الفضل، في أحكام الفصل». كتاب «اللمحة». كتاب «الشذرة». كتاب «الارتضاء، في الفرق بين الضاد والظاء». كتاب «عقد اللآلي». كتاب «نكت الأمالي». كتاب «النافع، في قراءة نافع». «الأثير، في قراءة ابن كثير». الْمَورِد الغَمْر، في قراءة أبي عمرو». «الروض الباسم، في

(١) في الوافي بالوفيات: «ياتيين».
(٢) ما بين قوسين غير وارد في طبعة دار صادر.
(٣) في الوافي: «الأبذي».
(٤) في طبعة ليدن: «ابن الصائغ».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «الأديب».

قراءة عاصم». «المزن الهامر، في قراءة ابن عامر». «الرمزة، في قراءة حمزة». «تقريب النائي، في قراءة الكسائي». «غاية المطلوب، في قراءة يعقوب». قصيدة «النيِّر الجليّ، في قراءة زيد بن عليّ». «الوهّاج، في اختصار المنهاج». «الأنور الأجلى، في اختصار المحلَّى». «الحلل الحالية، في أسانيد القرآن العالية». كتاب «الإعلام، بأركان الإسلام». «نثر الزهر، ونظم الزهر». «قَطْرالْحَبيِّ[1]، في جواب أسئلة الذهبي». «فهرست مسموعاتي». «نوافث السحر، في دمائث الشعر»[2]. «تحفة النَّدُس، في نحاة الأندلس». «الأبيات الوافية، في علم القافية». «جزء في الحديث». «مشيخة ابن أبي المنصور». كتاب «الإدراك، للسان الأتراك». «زهو الملك، في نحو الترك». «نفحة المسك، في سيرة الترك». كتاب «الأفعال، في لسان الترك». «منطق الخرس، في لسان الفرس». ومِمّا لم يكمل تصنيفه: كتاب «مسلك الرشد، في تجريد مسائل نهاية ابن رشد». كتاب «منهج السالك، في الكلام على ألفية ابن مالك». «نهاية الإغراب[3]، في علمي التصريف والإعراب». رجز «مجاني الهصر، في آداب وتواريخ لأهل العصر». «خلاصة التبيان، في علمي البديع والبيان». رجز «نور الغَبَش، في لسان الحبش». «المخبور، في لسان اليخمور» قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان.

وأنشدني الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه في صفات الحروف: [الخفيف]

أنا هاوٍ لمستطيلٍ أَغَنٍّ ... كلّما اشتدَّ صارتِ النفسُ رَخْوَهْ

أهمسُ القولَ وهو يَجْهَرُ سَبِّي ... وإذا ما انخفضْتُ أظهر علوه

فتح الوصلَ ثم أطبقَ هجرًا ... بصفيرٍ والقلبُ قَلقَلَ شجوه

لان دهرًا ثم اغتدى ذا انحرافٍ ... وفشا السِّرُّ مذ تكررت نحوه

وأنشدني أيضًا لنفسه: [الوافر]

يقولُ ليَ العذولُ ولم أُطِعْهُ ... تسلَّ فقد بَدَا للحِبِّ[4] لِحْيَهْ

تَخَيَّلَ أنها شانتْ حبيبي ... وعندي أنها زينٌ وحِلْيَهْ

---

(١) في طبعة بولاق: «نظر الحسبي». والحَبِيُّ، بفتح الحاء وكسر الباء وتشديد الياء: السحاب الذي يشرف من الأفق على الأرض. محيط المحيط (حبا).

(٢) في طبعة ليدن: «في دمياث الشعر».

(٣) في طبعة بولاق: «نهاية الإعراب».

(٤) الحِبُّ، بكسر الحاء: المحبوب. لسان العرب (حبب).

وأنشدني لنفسه أيضًا: [البسيط]

شوقي لذاك المُحَيَّا الزاهرِ الزاهي ... شوقٌ شديدٌ وجسمي الواهِنُ الواهي
أسهرْتُ طرفي وولّهتُ الفؤادَ هوًى ... فالطرفُ والقلبُ مني الساهرُ الساهي
نَهَبْتَ قلبي وتَنْهَى أنْ أبوحَ بما ... يَلْقاه واشَوْقَهُ للناهبِ الناهي
بَهَرْتَ كلَّ مليحٍ بالبهاء فما ... في النَّيِّرَين شبيهُ الباهرِ الباهي
لَهِجْتَ[1] بالحبِّ لَمّا أنْ لَهَوْتَ به ... عن كلِّ شيءٍ فويح اللاّهجِ اللاهي

وأنشدني من لفظه لنفسه: [السريع]

راضَ حبيبي عارضٌ قد بَدَا ... يا حُسْنَهُ مِنْ عارضٍ رائضِ
وظنَّ قومٌ أنَّ قلبي سلا ... والأصلُ لا يعتدُّ بالعارضِ

وأنشدني من لفظه لنفسه: [الطويل]

تَعَشَّقْتُهُ شيخًا كأنَّ مَشِيبَهُ ... على وَجْنتيه ياسمينٌ على وردِ
أخا العقلِ يدري ما يُراد مِنَ الهوى ... أمنتُ عليه من رقيبٍ ومن صدّ
وقالوا الورى قسمان في شِرْعةِ الهوى ... لسودِ اللحى ناسٌ وناسٌ إلى المرد
ألَا إنني لو كنتُ أصبو لأَمْردٍ ... صبوتُ إلى هيفاءَ مائسةِ القَدّ
وسودُ اللحى أبصرْتُ فيهمْ مشاركًا ... فأحببتُ أن أبقى بأبيضهمْ وحدي

وأنشدني من لفظه لنفسه: [الطويل]

ألَا إنَّ ألحاظًا بقلبي عوابثًا ... أظنُّ بها هارُوتَ أصبحَ نافثا[2]
إذا رام ذو وَجْدٍ سلوًّا مَنَعْنَهُ ... وكُنَّ على دين التصابي بواعثا
وقَيَّدْنَ مَنْ أضحى عن الحبِّ مطلقًا ... وأَسْرَعْنَ للبلوى بمن كان رائثا[3]
بروحي رَشًا مِنْ آل خاقانَ راحلٌ ... وإن كان ما بين الجوانح لابثا
غدا واحدًا في الحُسْن للفضل ثانيًا ... وللبَدْرِ والشمسِ المنيرة ثالثا

---

(١) لَهِجَ بالحب: أولع به. لسان العرب (لهج).

(٢) النافث: الساحر. لسان العرب (نفث).

(٣) الرائث: المُبْطِىء. لسان العرب (ريث).

وأنشدني لنفسه، ومن خطِّه نقلت: [الطويل]

أسحرٌ لتلك العَين في القلب أم وَخْزُ؟ ... ولِينٌ لذاك الجسمِ في اللمس أم خَزُّ
وأملودُ ذاك القَدِّ أم أسمرٌ غدا[1] ... له أبدًا في قلب عاشقه هَزُّ
فتاةٌ كَساها الحُسْنُ أَفْخَرَ حُلَّةٍ ... فصار عليها من محاسنها طَرْزُ
وأهدى إليها الغصنُ لِينَ قوامِهِ ... فمَاسَ كأنَّ الغصنَ خامَرَه العزُّ
يضوعُ أديمُ الأرض مِنْ نَشْرِ طِيبها ... ويَخْضَرُّ مِنْ آثار تُرْبَتِها الْجُرْزُ[2]
وتختالُ في بُرد الشباب إذا مضتْ ... فَيُنْهِضُها قدٌّ ويُقْعِدُها عَجْزُ
أصابتْ فؤادَ الصَّبِّ منها بنظرةٍ ... فلا رُقْيةٌ تُجْدي المصابَ ولا حِرْزُ

وأنشدني إجازة في مليح أبرص، ومن خطِّه نقلت: [الطويل]

وقالوا الذي قد صِرْتُ طَوْعَ جمالِهِ ... ونفسكَ لاقتْ في هواه نِزاعَها
به وَضَحٌ[3] تأباهُ نَفْسُ أُوْلي النُّهَى ... وأفظعُ داءٍ ما يُنافي طِباعَها
فقلتُ لهمْ لا عَيبَ فيه يَشِينُهُ ... ولا عِلَّةٌ فيه يرومُ دفاعها
ولكنها شمسُ الضحى حين قابلتْ ... محاسِنَهُ أَلْقَتْ عليه شُعاعها

وأنشدني من لفظه لنفسه في فحّام: [الطويل]

وعُلِّقْتُهُ مُسْوَدَّ عَينٍ ووفرةٍ ... وثوبٍ يُعاني صَنْعَةَ الفَحْمِ عَنْ قَصْدِ
كأنَّ خطوطَ الفحمِ في وَجَناتِه ... لطاخةُ مِسْكٍ في جَنِيٍّ مِنَ الورد

وأنشدني إجازة، ومن خطِّه نقلت: [الخفيف]

سألَ البَدْرُ هل تَبدَّى أخوه ... قلتُ يا بدرُ لن تطيقَ طلوعا
كيف يبدو وأنت يا بَدْرُ بادٍ ... أوَ بَدْرانِ يطلعانِ جميعا

وأنشدني من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمساني[4]:

---

(١) الأملود: الناعم الليّن من الناس والغصون. الأسمر: الرمح. لسان العرب (ملد) و(سمر).
(٢) الأرض الجُرْز: التي لا تنبت. لسان العرب (جرز).
(٣) الوَضَحُ، بالفتح: البَرَصُ. محيط المحيط (وضح).
(٤) هذه الموشحة تامة تتكوّن من ستة أقفال وخمسة أبيات، وهي على البحر المديد.

عَـاذلـي فـي الأهـيـفِ الأَنس ِ   لـو رآه الآن قـد عَـذَرَا[1]

رَشَـأٌ قـد زانـه الـحَـوَرُ

غُـصُـنٌ مـن فـوقـه قَـمَـرُ

قَـمَـرٌ مِنْ سُـحْبـه الـشَّـعَـرُ

ثَـغَـرٌ مِـنْ فـيـه أمْ دُرَرُ

حـال بـيـن الـدّرِّ والـلَّعَس ِ[2]   خَـمْـرَةٌ مَـنْ ذَاقَـهَـا سَـكِـرَا

رَجَّـةٌ بـالـرِّدْفِ أم كَـسَـلُ؟

ريـقـةٌ بـالـثـغـرِ أم عَـسَـلُ؟

وردةٌ بـالـخَـدِّ أم خَـجَـلُ؟

كَـحَـلٌ[3] بـالـعيـن أم كُـحُـلُ؟

يـا لـهـا مِـنْ أَعْـيُـنٍ نُـعُس ِ   جَـلَبَـتْ لـلنـاظِـرِ الـسَّـهَـرَا

مـذ نـأى عـن مقـلتيَّ سَـنِـي

مـا أُذِيـقـا لَـذَّة الـوَسَـنِ

طـال مـا ألـقـاه مِـنْ شَـجَـنِ

عَـجَـبًـا ضِـدَّانِ فـي بَـدَنِ

بـفـؤادي جَـذْوَةُ الـقَـبَس ِ   وبِعَـيـنـي الـمـاءُ مـنـفـجـرا

قـد أتـانـي الـلّـه بـالـفَـرَجِ

إذ دنـا مـنّـي أبـو الـفـرجِ

قَـمَـرٌ قـد حَـلَّ في الـمُـهَـجِ

كـيف لا يـخـشـى مِـنَ الـوَهَـجِ ؟

غَـيـرُهُ لـو صـابَـهُ نَـفَـسِـي   ظَـنَّـهُ مِـنْ حَـرِّهِ شَـرَرَا

نَـصَـبَ الـعـيـنـيـن لـي شَـرَكَـا

فـانـثـنـى والـقَـلْبَ قـد مَـلَكـا

(١) في طبعة عبد الحميد: «الأهيف الآنس. . . قد عَذَّرا»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة. لسان العرب (لعس).

(٣) الكَحَلُ، بفتح الكاف والحاء: سواد يعلو الأجفان خلقة، ومنه: «ليس التكحل في العين كالكَحَل». لسان العرب (كحل).

قَمَرٌ أضحى له فَلَكَا
قال لي يومًا وقد ضحكا
أَتَجي[1] من أرض أندلسٍ نحو مصرٍ تعشقُ القمرا

وأما موشحة ابن التلمساني فهي[2]:

قَمَرٌ يجلو دُجَى الغَلَسِ بَهَرَ الأبصارَ مذ ظهرا
آمنٌ مِنْ شُبْهَةِ الكَلَفِ
ذُبْتُ مِنْ عَيْنَيْهِ بالكَلَفِ
لم يَزَلْ يَسْعَى إلى تَلَفِي
بركاب الدَّلِّ والصَّلَفِ
آه لولا أَعْيُنُ الحَرَسِ نِلْتُ منه الوَصْلَ مقتدرا
يا أميرًا جارَ مذ وَلِيَا
كيف لا ترثي لمن بُلِيا
فبثغرٍ منك قد جُلِيا
قد حلا طَعْمًا وقد حليا
وبما أُوتيتَ مِنْ كَيَسٍ جُدْ فما أَبْقَيتَ مُصْطَبِرا
بَدْرُ تِمٍّ في الجمال سَنِي
ولهذا لَقَّبُوهُ سَنِي
قد سباني لذَّة الوَسَنِ
بِمُحَيًّا باهرٍ حَسَنِ
هو خِشْفِي[3] وهو مُفْترسي فارْوِ عن أعجوبتي خَبَرًا
لك خَدٌّ يا أبا الفَرَجِ
زِينَ بالتوريدِ والضَّرَجِ
وحديثٌ عاطرُ الأَرَجِ
كم سبى قَلْبًا بلا حَرَجِ

(١) أصلها: «أتجيء»، وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.
(٢) الموشحة تامة وهي على البحر المديد.
(٣) الخِشْفُ: ولد الغزالة أول ما يولد. لسان العرب (خشف).

لــو رآكَ الـغُـصْـنُ لـم يَـمِـسِ　　أو رآكَ الـبَـدْرُ لاسْـتَـتَـرا

يــا مــذيبًــا مهــجتــي كَـمــدا

فُـقْتَ فـي الحُسْنِ الـبـدورَ مَـدَى

يــا كــحيــلاً كُــحْـلُهُ اعْـتَـمَـدا

عَــجَــبًــا أن تــبــرىء الــرَّمَـدا

وبسقــمِ النــاظـرين كُـسِـي　　جَـفْنُـك الـسّحّـارُ وانْكَـسَـرا

وأنشدني من لفظه لنفسه أيضًا[1]:

إن كــان لـيــلٌ داجْ　　وخــانـنــا الإصبــاحْ　　فـنـورُهــا الـوَهَّـاجْ　　يُغْني عن المصبــاحْ

سُــلافــةٌ　　تَـبْــدُو　　كــالــكــوكــبِ　　الأَزْهَــرْ

مِــزاجُــهــا　　شَــهْــدُ　　وَعَــرْفُــهــا　　عَــنْـبَـرْ

وحَــبَّــذا　　الــوَرْدُ　　مــنــهــا　　وإنْ　　أَسْــكَـرْ

قلبي بـهـا قـد هـاجْ　　فـمـا تـراني صـاحْ　　عن ذلـك المنهـاجْ　　وعن هَـوًى يا صـاحْ

وبــي　　رَشًــا　　أَهْــيَــفْ　　قــد لَـجَّ　　فــي　　بُــعْــدِي

بَــدْرٌ　　فــلا　　يُــخْــسَــفْ　　مــنــه　　سَــنَــا　　الــخَــدِّ

بِــلَحْــظِهِ　　الــمُــرْهَــفْ　　يَــسْــطو　　عــلى　　الأُســدِ

كـسـطوة الـحــجّـاجْ　　في النــاسِ والسّفّــاحْ　　فمـا تـرى من نــاجْ　　مِنْ لَحْـظِهِ السّفّــاحْ

عَــلَّلَ　　بــالــمُــسْــكِ　　قَــلْبَ　　رشًــا　　أحــورْ[2]

مُــنَــعَّــمِ　　الــمَــسْــكِ　　ذي　　مَــبْــسَــمٍ　　أَعْــطَرْ

ريَّــاه　　كــالــمِــسْــكِ　　وريــقُــه　　كَــوْثَــرْ

غُـصْنٌ عـلى رَجْـرَاجْ　　طــاعــتْ لــه الأرواحْ　　فـحــبّـذا　　الآراجْ　　إنْ　　هَــبَّــتِ الأرواحْ

مــهــلاً　　أبــا　　الــقــاســمْ　　عــلى　　أبــي　　حــيــانْ

مــا　　إنْ　　لــه　　عــاصــمْ　　مِــنْ لــحــظك الــفَــتّــانْ

وهَــجْــرُكَ　　الــدائــمْ　　قــد طــال بــالــهــيــمــانْ

---

(١) الموشحة تامة، وكل قفل من أقفالها يتكون من أربعة أجزاء مفردة، أما البيت منها فهو يتكون من ثلاثة أجزاء مركبة، وهي على غير أوزان العرب.

(٢) عَلَّل القلبَ بالمُسك: شغله به، والمُسُك، بالضم: البخل. محيط المحيط (علل) و (مسك).

فَـدَمْـعُـهُ أمـواجْ وسِـرُّهُ قـد بـاحْ لـكـنّـه مـا عـاجْ ولا أطـاعَ الـلاحْ[1]

يـا رُبَّ ذي بُـهْـتَـانْ يَـعْـذلُ فـي الـراحِ

وفـي هـوى غـزلانْ دافَـعْـتُ بـالـراحِ

وقـلـتُ لا سُـلْوَانْ عـن ذاك يـا لاحِ

سَبْعُ الوجـوهْ والتاجْ هـي مُنْيَـة الأفـراحْ فـاخترْ لي يـا زَجَّـاجْ قمْصَال وزُوجْ أقداح[2]

وأنشدني من لفظه لنفسه القصيدة الدالية التي نظمها في مدح النحو والخليل وسيبويه، ثم خرج منها إلى مديح صاحب غَرْنَاطة وغيره من أشياخه، وأولها: [الطويل]

هـو العِلْمُ لا كـالعِلْمِ شـيء تـراودُهْ لقـد فـاز بـاغِيهِ وأنجـحَ قـاصِـدُهْ

وهي قصيدة جيدة تزيد على مائة بيت.

وحكي لي أنَّ الشيخ أثير الدين، رحمه اللّٰه تعالى، ضعف فتوجّه إليه جماعة يعودونه، وفيهم شمس الدين بن دانيال، فأنشدهم الشيخ، رحمه اللّٰه تعالى، القصيدة المذكورة، فَلمَّا فرغت قال ابن دانيال: يا جماعة، أُخْبركم أنَّ الشيخ قد عُوفي، وما بقي عليه بأس؛ لأنه لم يَبْقَ عنده فضلة، قوموا باسم اللّٰه.

وأنشدني من لفظه لنفسه، رحمه اللّٰه تعالى، قصيدته السينية التي أولها: [الطويل]

أهاجَكَ رَبْـعٌ حائِـلُ الرَّسْمِ دارِسُـهْ كوَحْيٍ كتابٍ أضعَفَ الخَطَّ دارِسُـهْ

انتهى نَصُّ الصفدي. وما ذكره، رحمه اللّٰه تعالى، في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لِمَا ذكره في الوافي أنه ولد بغَرْنَاطَةَ، إلَّا أنَّ قوله «بمدينة مَطَخْشَارَش» فيه نظر؛ لأنه يقتضي أنها مدينة، وليس كذلك، وإنما هي موضع بغرناطة، ولذا قال الرعيني: إنَّ مولد أبي حيان بمَطَخْشَارَشَ من غرناطة، ونحوه لابن جماعة، انتهى، وهو صريح في المراد، وصاحب البيت أدرى [بالذي فيه][3] على أنه يمكن أن يرد كلام الصفدي لذلك[4]، واللّٰه تعالى أعلم.

---

(١) اللاحْ: أي اللاحي وهو اللائم. محيط المحيط (لحى).

(٢) القمصال: وعاء يستعمل للشرب. ملحق المعاجم العربية لدوزي (قمصل).

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «لذاك».

وذكر في الوافي أنه تولّى تدريس التفسير بالقبّة المنصورية، والإقراء بالجامع الأقمر؛ قال الصفدي: وقال لي: لم أَرَ بَعْدَ ابنِ دقيق العيد أفصحَ من قراءتك، وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة، انتهى.

وما وقع في كلام كثير من أهل المغرب أن أبا حيان توفي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر؛ لأن أهل المشرق أعرف بذلك، إذ توفي عندهم، وقد تقدّم أنه توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة، فعلى كلام أهل المشرق في هذا المُعَوّل، واللّه أعلم.

وكانت نُضَار بنت أبي حيان حَجَّتْ، وسمعتْ بقراءة العَلَم البرزالي على بعض الشيوخ، وحَدَّثت بشيء من مروياتها، وحضرتْ على الدمياطي، وسمعتْ على جماعة، وهي بضم النون وتخفيف الضاد، وأجازها من المغرب أبو جعفر بن الزبير، وحفظتْ مقدمة في النحو، ولَمَّا توفيت عمل والدها فيها كتابًا سماه «النُّضَار، في المَسْلاَة عن نُضَار» وكان والدها يثني عليها كثيرًا، وكانت تكتب وتقرأ. قال الصفدي: قال لي والدها: إنها خَرَّجَتْ جزءًا لنفسها، وإنها تُعْرب جيدًا، وأظنّه قال لي: إنها تنظم الشعر، وكان يقول دائمًا: ليت أخاها حيان كان مثلها، وتوفّيت، رحمها اللّه تعالى، في جمادى الآخرة سنة ٧٣٠، في حياة والدها، فوجد[1] عليها وَجْدًا عظيمًا ولم يثبت، وانقطع عند قبرها بالبرقية[2]، ولازمه سنة، ومولدها في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢، قال الصفدي: وكنت بالرحبة لَمَّا توفيت، فكتبت لوالدها بقصيدة أولها: [الوافر]

بَكَينا باللُّجَينِ على نُضَارِ ... فسَيلُ الدَّمْع في الخَدَّينِ جاري
فيالـلّه جاريـةٌ تَوَلَّتْ ... فَنَبْكِيها بأدْمُعِنا الجواري

وقال الفقيه المحدّث أبو عبد اللّه محمد بن سعيد الرعيني الأندلسي في برنامجه، عند ذكره شيخَه أبا حيان زيادةً على ما قدَّمْناه، ما ملخَّصُه: إن أبا حيان قال: سمعْتُ بغرناطة ومالقة وبلش وألمرية وبجاية وتونس والإسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلّة وطهرمس والجيزة ومنية بني[3] خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وبعيذاب من بلاد السودان وبينبع

---

(١) وجد عليها: حزن. لسان العرب (وجد).
(٢) في طبعة بولاق: «بالبرقوقية».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «ابن خصيب».

ومكّة شرّفها اللّه تعالى وجدة وأيلة، ثم فَصَّل من لقيه في كل بلد إلى أن قال: وبمكّة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد اللّه بن عساكر، إلى أن قال: فهذه نبذة من شيوخي، وجملة من سمعت منهم[1] نحو خمسمائة، والمجيزون أكثر من ألف، وعدَّ من كتب القراءات التي أخذ تسعة عشر كتابًا، وقال في حقّ ابن المليحي: إنه أعلى شيوخي في القراءات وإنّ آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذري اللّخْمي، وإجازته منه سنة ٦٠٤، قال: وقرأت البخاري على جماعة أقدمهم إسنادًا فيه أبو العز الحراني قرأته عليه بلفظي إلاّ بعض كتاب التفسير من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ ﴾[2] إلى قوله سبحانه ﴿ ولولا فَضْلُ اللّه عليكُمْ ورَحْمَتُهُ ﴾[3] في سورة النور، فسمعته بقراءة غيري، قال: أنبأنا به أبو المعالي أحمد بن يحيىٰ بن عبيد اللّه الخازن البيع سماعًا عليه سنة ستمائة ببغداد، أنبأنا أبو الوقت بسنده، وكمل له رحمه اللّه تعالى جامع الترمذي بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغَرْنَاطة، وسمعه على محمد بن ترجم، أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكرخي[4] بسنده، وقرأ السنن لأبي داود بغرناطة على أبي زيد عبد الرحمن الربعي، عُرف بالتونسي، أنبأنا به سهل بن مالك، وقرأه بالقاهرة على أبي الفضل عبد الرحيم ابن خطيب المزة عن أبي حفص بن طبرزد عن أبي بدر الكرخي[4] ومفلح الرومي عن أبي بكر بن ثابت الخطيب، أنبأنا أبو عمر الهاشمي أنبأنا اللؤلؤي أنبأنا أبو داود، وقرأ الموطأ على أبي حفص[5] بن الطباع عن أبي القاسم بن بقي عن ابن عبد الحقّ عن ابن الطلاع بسنده، وهذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث في عصره. وسمع أبو حيان الأجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحامليات والثقفيات وسداسيات الرازي بعلو، قرأها على صفي الدين عبد الوهاب بن الفرات عن أبي الطاهر إسماعيل بن ياسين الجيلي، وهو آخر من حدّث عنه، عن أبي عبد اللّه الرازي سماعًا، وقرأ جزء الأنصاري على أبي بكر بن الأنماطي بسماعه حضورًا في الرابعة على أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي، أنبأنا أبو بكر محمد بن

---

(١) في الطبعة نفسها: «سمعت منه خمسمائة».

(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٢٢٢.

(٣) سورة النور ٢٤، الآية ١٠.

(٤) في طبعة دار صادر: «الكروخي».

(٥) في طبعة بولاق: «أبي جعفر».

عبد الباقي البزار سنة ٥٣٢، أنبأنا إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي قراءة عليه في رجب سنة ٤٤٥، أنبأنا عبد اللّٰه بن إبراهيم بن ماس، أنبأنا أبو مسلم الكشي البصري، أنبأنا محمد بن عبد اللّٰه الأنصاري، وقرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس المشهور بالنحو في مصر والشام، بقراءته على علم الدين أبي محمد القاسم بن أحمد بن الموفق، بقراءته على التاج أبي اليمن الكندي، أنبأنا أبو محمد عبد اللّٰه بن علي بن أحمد البغدادي مؤلّف كتاب «المبهج»، أنبأنا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب، عُرف بابن الدبَّاس، أنبأنا أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن عمر بن برهان الأسدي، أنبأنا أبو القاسم[1] علي بن عبيد اللّٰه الرقيقي، أنبأنا علي بن عيسى بن عبد اللّٰه الرماني، أنبأنا أبو بكر بن السراج، أنبأنا أبو العباس المبرد، أنبأ أبو عمر الجرمي وأبو عثمان المازني، قالا: أنبأنا أبو الحسن الأخفش، أنبأنا سيبويه، قال الشيخ أبو حيان: ولا أعلم راويًا له بمصر والشام والعراق واليمن والمشرق غيري، ورويته عن الأساتيذ أبوي علي بن الضائع وابن أبي الأحوص وأبي جعفر اللَّبْلي عن أبي علي الشلوبين، وسنده مشهور بالمغرب. ووقع لأبي حيان تساعيات كثيرة، وأغرب ما وقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين رسول اللّٰه ﷺ، فيها ثمانية، أخبره المحدّث نجيب الدين[2] محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني[3] بقراءته عليه والجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي قراءةً عليها وهو يسمع، قالا: أنبأنا أبو الفخر أسعد بن سعيد بن روح في كتابه، أخبرتْنا فاطمة بنت عبد اللّٰه بن أحمد الجوزدانية، أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد اللّٰه بن ريدة الضبي الأصبهاني، أنبأنا الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطر اللخمي الطبراني، أنبأنا عبيد اللّٰه بن رماحس القيسي برمادة الرملة سنة ٢٧٤، أنبأنا أبو عمر زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة، قال: سمعت أبا جَرْوَل زهير بن صرد الجشمي يقول: لمّا أسَرَنا رسولُ اللّٰه ﷺ، يوم هوازن أتيتُه فقلت: [البسيط]

امننْ علينا رسولَ اللّٰه في كَرَمٍ … فإنّك المرءُ نرجوه وننتظرُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «أنبأنا القاسم»، وقال المحقق في الحاشية: «كذا في الأصول، ولعلّه أبو القاسم».

(٢) في الأصل: «نجيب» أي سقطت كلمة «الدين»، وقد أثبتناها هنا، كما تقدم في هذا الجزء ٢٩٦).

(٣) في الوافي بالوفيات (جـ ٥ ص ٢٧٨): «الهمذاني» بالذال المعجمة.

امنُنْ على بيضةٍ قد عاقها قَدَرٌ مُشَتَّتٌ شَمْلُها في دهرها غِيَرُ[1]
أَبْقَتْ لنا الدهرَ هَتَّانًا على حَزَنٍ علا قلوبَهُمُ الغَمَّاءُ والغمرُ
إن لم تداركْهُمُ نعماءُ تنشرها يا أرجحَ الناس حلمًا حين يُخْتَبَرُ
امننْ على نسوةٍ قد كنتَ ترضعها إذْ فُوكَ تملؤه من مَحْضِها الدرر
إذ أنت طفلٌ صغير كنت ترضعها وإذ يريبكَ ما تأتي وما تذر
لا تجعلنّا كَمَنْ شالتْ[2] نعامَتُهُ واسْتَبْقِ منّا فإنّا معشرٌ زُهُرُ
إنا لنشكرُ للنعماءِ إذ كُفِرَتْ وعندنا بعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألبِسِ العفوَ مَنْ قد كنتَ ترضعه من أُمّهاتك إنَّ العَفْوَ مشتهرُ
يا خيرَ مَنْ مَرِحَتْ كُمْتُ[3] الجياد به عند الهياجِ إذا ما استوقد الشررُ
إنّا نؤمِّلُ عَفْوًا منكَ تلبسه هذي البريةُ إذ تعفو وتنتصرُ
فَاعْفُ عفا اللَّه عَمَّا أنت راهبُهُ يومَ القيامة إذ يُهْدى لك الظفرُ

فلما سمع، صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، هذا الشعر قال: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقالت قريش: ما كان لنا فهو للَّه ولرسوله، وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو للَّه ولرسوله. قال أبو القاسم الطبراني: لا يُرْوَى عن زهير إلاَّ بهذا الإسناد، وتفرّد به عبيد اللَّه بن رماحس، وبالإسناد إلى الطبراني: أنبأنا جعفر بن حميد بن عبد الكريم بن فَرُّوخ بن دَيْزَج بن بلال بن سعد بن بلال بن سعد الأنصاري الدمشقي، قال: حدّثني جدّي لأُمّي عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدني، قال: أراني أنس بن مالك الوضوء: أخذ رَكْوَة[4] فوضعها عن يساره، وصبَّ على يده اليمنى فغسلها ثلاثًا، ثم أدار الركوة عن يده اليمنى وصبَّ على يساره فغسلها ثلاثًا وثلاثًا، ومسح برأسه ثلاثًا وأخذ ماء جديدًا لصِماخَيْه[5] فمسح صِمَاخَيْه، فقلت له: قد مسحت أُذنيك، فقال: يا غلام، هل رأيت

---

(١) غِيَرُ الدهرِ: أحداثه المتغيّرة ومصائبه. لسان العرب (غير).

(٢) شالت نعامتُه: مات. محيط المحيط (شول).

(٣) الكُمْتُ: جمع كميت وهو الفرس بين الأسود والأحمر. لسان العرب (كمت).

(٤) الرَّكْوة: شبه دلو صغير. لسان العرب (ركا).

(٥) الصِّماخ، بكسر الصاد: خَرْق الأذن الباطن الذي يؤدي إلى الرأس، وقيل: الأذن نفسها. لسان العرب (صمخ).

وفهمت أو أعيد عليك؟ فقلت: قد كفاني، وقد فهمت، قال: فكذا رأيت رسول اللّه ﷺ، يتوضّأ، قال الطبراني: لم يَرْوِ عمر بن أبان عن أنس حديثًا غير هذا، وبالإسناد إلى الطبراني: حدّثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصري، أنبأنا دينار بن عبد اللّه مولى أنس بن مالك، حدّثني أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: «طُوبى لمن رآني وآمن بي، ومن رأى من رآني وآمن بي، ومن رأى من رأى من رآني».

ثم قال الرعيني: وتصانيف أبي حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير، ثم قال الرعيني: وخرج أبو حيان من الأندلس مفتتح سنة ٦٧٩، واستوطن القاهرة بعد حجّه، وأنشد لشيخه أبي الحسن الزَّجَّاج[١]: [الطويل]

رضيتُ كفافي رتبةً ومعيشةً ... فلستُ أُسامي مُوسِرًا ووجيها
ومَنْ جَرَّ أثْوابَ الزمانِ طويلَةً ... فلا بُدَّ يومًا أنْ سَيَعْثُرُ فيها

وأنشد بإسناده لموسى بن أبي تليد: [المنسرح]

حالي مَعَ الدهر في تَقَلُّبه ... كطائرٍ ضَمَّ رِجْلَهُ شَرَكُ
فَهَمُّهُ في خلاصِ مُهْجَته ... يرومُ تخليصَها فتشتبكُ

ثم أورد الرعيني جملة من نظم الإمام أبي حيان، منها قوله: [الطويل]

أريدُ من الدنيا ثلاثًا وإنها ... لَغَايَةُ مطلوبٍ لمن هو طالبُ
تلاوةُ قرآنٍ، ونَفْسٌ عفيفةٌ، ... وإكثارُ أعمالٍ عليها أواظبُ

وقوله[٢]: [البسيط]

أرَحْتُ روحي مِنَ الإيناس بالناسِ ... لَمّا غنيتُ عن الأكياسِ بالياسِ[٣]
وصِرْتُ في البيت وحدي لا أرى أحدًا ... بناتُ فكري وكُتْبي هُنَّ جُلّاسي

---

(١) في طبعة ليدن: «الدجاج».
(٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٨٤).
(٣) في الكتيبة الكامنة: «أرَحْتُ نفسي... كما غنيتُ..». والأكياس: جمع كَيِّس وهو الظريف. لسان العرب (كيس).

وقوله[1]: [الطويل]

وزَهَّـدنـي في جَـمْعيَ الـمـالَ أنـه ... إذا مـا انتهى عنـد الفتى فـارقَ العُمْـرا
فـلا رُوحَـهُ يـومًـا أراحَ مِـنَ الْعَـنَـا ... ولم يَكْتَسِبْ حمـدًا ولم يَـدَّخِـرْ أَجْـرا

وقـــوله: [الوافر]

يـظنُّ الغَمْـرُ[2] أنَّ الكُتْبَ تُجْـدي ... أخـا ذِهْـنٍ لإدراكِ الـعـلـومِ
ومـا يـدري الجَهُـولُ بـأنَّ فيهـا ... غـوامضَ حَيَّـرَتْ عَقْـلَ الفهـيمِ
إذا رُمْـتَ الـعـلوم بـغيـر شيـخٍ ... ضللتَ عن الـصـراط المـستـقيـم
وتَـلْتَـبِسُ الأمـورُ عـليـك حـتـى ... تصيـرَ أضـلَّ من تُـومَـا الحكيم[3]

وله لغز في قيراط زاعمًا أنه لا يُفَكُّ: [الطويل]

ومـا اسمٌ خمـاسيٌّ إذا مـا فَكَـكْتَـهُ ... يصيـرُ لنـا فعـلينِ أَمْـرًا ومـاضـيـا
بـعكسٍ وهـو كـلٌّ وجـزءٌ وجَـمْعُـهُ ... بـإبـدال عَينٍ حـاز[4] فيـه التنـاهيـا
ومـع كـونـه فـردًا وجَـمْعًـا فـأولُ ... وآخـره أضـحى لـشخص مـعـاديـا
وفي عَكْسـه صـوتٌ فتبنيـه صيغـةً ... وتـبني بمـعـنـاه ومـا أنت بـانـيـا
فـكم فـيـه مِنْ مَـعْنًى خفيٍّ وإنمـا ... عنيتُ بـذكـري للذي ليس خـافيـا

ثم قال الرعيني: وهو شيخ فاضل، ما رأيت مثله، كثير الضحك والانبساط، بعيد عن الانقباض، جيِّد الكلام، حسن اللقاء، جميـل المؤانسة، فصيـح الكلام، طلق اللسـان، ذو لِمة[5] وافرة، وهمّـة فاخـرة، له وجـه مستديـر، وقامتـه معتدلـة التقديـر، ليس بالـطويل ولا بالقصير. انتهى ما لخّصْتُه من كلام الرعيني.

ولَمّا قدم الأستاذ أبو حيان إلى مصر أوصى أهله بقـوله: ينبغي للعـاقل أن يعـامل كـل أحد في الظاهر معاملة الصديق، وفي الباطن معـاملة العدوّ في التحفّظ منـه والتحرّز، وليكن

(١) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٨٤).
(٢) الغَمْرُ: من لم يجرّب الأمور. محيط المحيط (غمر).
(٣) توما الحكيم: هو الذي يضرب فيه المثل بالجهل.
(٤) في طبعة دار صادر: «حار» بالراء المهملة.
(٥) اللِمَّةُ، بكسر اللام وفتح الميم: الشعر الذي يجاوز شَحْمَةَ الأذن. مختار الصحاح (لمم).

في التحرّز من صديقه أشدّ من التحرّز من عدوّه، وأن يعتقد أنَّ إحسان شخص إلى آخر وتودّده إليه إنما هو لغرض قام له فيه يتعلّق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص، وينبغي أن يترك الإنسان الكلام في ستة أشياء: في ذات اللّه تعالى، وما يتعلّق بصفاته، وما يتعلّق بأحوال أنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين! وفي التعرّض لِمَا جَرَى بين الصحابة، رضي اللّه تعالى عنهم أجمعين! وفي التعرّض أيضًا لأئمّة المذاهب، رحمهم اللّه تعالى ورضي عنهم! وفي الطعن على صالحي الأُمّة، نفع اللّه بهم، وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه، وأن لا يقصد أذى أحد من خلق اللّه سبحانه وتعالى إلّا على حسب الدَّفْع عن نفسه، وأن يعذر الناس في مباحثهم وإدراكاتهم، فإن ذلك على حسب عقولهم، وأن يضبط نفسه عن المراء والاستزراء والاستخفاف بأبناء زمانه، وأن لا يبحث إلّا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث، وأن لا يغضب على مَنْ لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه، وأن يلتمس مَخْرَجًا لمن ظاهر كلامه الفساد، وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببادي الرأي، وأن يترك الخوض في علوم الأوائل، وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة، وأن لا ينكر على الفقراء، وليسلم لهم أحوالهم، وينبغي للعاقل أن يُلْزِم نفسه التواضع لعبيد اللّه سبحانه وتعالى، وأن يجعل نُصْبَ عينيه أنه عاجز مفتقر، وأن لا يتكبّر على أحد، وأن يُقِلَّ من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه، وأن يتظاهر لكلٍّ بما يوافقه فيما لا معصية للّه تعالى فيه ولا خَرْمَ[1] مروءة، وأن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور، وأن لا يظهر الشكوى لأحد من خلق اللّه تعالى، وأن لا يعرض بذكر أهله، ولا يجري ذكر حرمه بحضرة جليسه، وأن لا يُطْلع أحدًا على عمل خير يعمله لوجه اللّه تعالى، وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التغاضي، وأن لا يركن إلى أحد إلّا إلى اللّه تعالى، وأن يُكْثِرَ منْ مطالعة التواريخ فإنها تلقح عقلًا جديدًا، واللّه سبحانه وتعالى أعلم. انتهت وصيّة أبي حيان الجامعة النافعة، وقد نقلْتُها من خَطِّ الشيخ العلّامة أبي الطيب بن علوان التونسي المالكي الشهير بالمصري، وهو مِمَّنْ أخذ عن تلامذة الشيخ أبي حيان، رحمه اللّه تعالى.

قلت: وبما في هذه الوصيّة من نَهْيه عن الطعن في صالحي الأُمّة نفع اللّه تعالى بهم وأمره بالتسليم لأحوالهم وعدم الإنكار عليهم؛ تعلم أن ما نقله الصفدي عنه فيما تقدّم من

---

(١) خَرْمُ المروءة: انتقاصها وكسرها. لسان العرب (خرم).

قوله: «إنَّ الشيخ أبا مدين إلى آخره» كلامٌ فيه نظر؛ لأن أبا حيان، رضي اللّٰه تعالى عنه، لا ينكر كرامات الأولياء، كيف وقد ذكر، رحمه اللّٰه تعالى، منها كثيرًا، فمن ذلك ما حكى عنه تلميذه الرعيني بسنده إلى الفقيه المقرىء الصالح أبي تمام غالب بن حسن بن أحمد ابن سيد بونة الخزاعي، حدّث أنه زار قبر أبي الحسن بن جالوت، ولم يكن زاره قَبْلُ، فاشتبه عليه فتركه، فسمع النداء من قبر معين: يا غالب، أتمشي وما زُرْتني؟ فزار ذلك القبر، وقعد عنده، ثم جاء ابن أبي الحسن المذكور، فسأله عن القبر، فقال: هو الذي قعدت عنده، وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبي أحمد جعفر[1] ابن سيد بونة الخزاعي، وهو من أصحاب الشيخ أبي مَدْين، انتهى. فكيف ينكر أبو حيان كرامات الصالحين وهو[2] ينهى عن الطعن فيهم، ويحكي كراماتهم، نَعَم قول الصفدي قبل ذلك الكلام: «إنه كان ينكر على فقراء الوقت» كلامٌ صحيح في الجملة؛ لكثرة الدعاوى الباطلة مِمَّنْ ليس من أهل الصلاح، وأما إنكار الكرامات مطلقًا فمقام أبي حيان يجلّ عن ذلك[3]، واللّٰه تعالى أعلم.

وقد أورد ابن جَمَاعة له من قطعة قوله في أهل عصره: [الوافر]

وَمَنْ يَكُ يَدَّعِي منهمْ صلاحًا ... فزنديقٌ تَغَلْغَلَ في الضلالِ

وأول هذه القطعة:

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ زمانًا ... وأغناني العِيانُ عن السؤالِ
فما أَبْصَرْتُ مِنْ خِلٍّ وَفِيٍّ ... ولا ألفيتُ مشكورَ الخلال
ذئابٌ في ثيابٍ قد تَبَدَّتْ ... لرائيها بأشكالِ الرجال
ومَنْ يَكُ يَدَّعي منهمْ صلاحًا ... فزنديقٌ تَغَلْغَلَ في الضلال
ترى الجهّالَ تَتْبَعه وترضى ... مشاركةً بأهلٍ أو بمال
فينهبُ ما لهمْ ويصيبُ منهمْ ... نساءَهُمُ بمقبوحِ الفعالِ
ويأخذ[4] حاله زورًا فيرمي ... عمامته ويهربُ في الرمال
ويجرون التيوس وراءَ رجسٍ ... تَقَرْمَطَ[5] في العقيدة والمقال

(١) كلمة «جعفر» ساقطة من طبعة بولاق.
(٢) في طبعة دار صادر: «وهو يوصي على من ينهى عن الطعن فيهم. . .».
(٣) في الطبعة نفسها: «يجلّ عن إنكارها».
(٤) في طبعة دار صادر: «وتأخذ».
(٥) تَقَرْمَطَ: اعتقد رأي القرامطة.

أي اعتقدوا رأي القَرامطة، ومذهبهم مشهور، فلا نطيل به، فظهر بما ذكر أنَّ أبا حيان إنما أنكر على أهل الدعاوى، لا على غيرهم، واللَّه تعالى أعلم.

وقد أورد قاضي القضاة ابن جماعة للشيخ أبي حيان من النظم غيرَ ما قدَّمْنا ذكره وهو[1] قوله[2]: [الطويل]

أَمَا إنه لولا ثلاثٌ أُحِبُّهَا ... تمنَّيتُ أني لا أُعَدُّ مِنَ الأحْيَا

فمنها رجائي أن أفوزَ بتوبةٍ ... تُكَفِّرُ لي ذَنْبًا وتُنْجِحُ لِي سَعْيا

ومنهنَّ صَوني النفسَ عن كلِّ جاهلٍ ... لئيمٍ فلا أمشي إلى بابه مشيا

ومنهنَّ أخذي بالحديث إذا الورى ... نَسُوا سُنَّةَ المختار واتَّبعوا الرأيا

أتترك نَصًّا للرسول وتَقْتَدِي ... بشخصٍ؟ لقد بُدِّلْتَ بالرُّشْدِ الغَيَّا

وقوله[3]: [الخفيف]

سَالَ في الخَدِّ للحبيب عِذَارٌ ... وَهْوَ لاَ شَكَّ سائلٌ مرحومُ

وسألْتُ التِثَامَه فتجنَّى ... فأنا اليومَ سائلٌ محرومُ

وقوله: [الطويل]

أَمُدَّعيا عِلْمًا ولَسْتَ بقارىءٍ ... كتابًا على شيخٍ به يسهلُ الحَزْنُ[4]

أتزعمُ أنَّ الذهنَ يوضحُ مشكلا ... بلا موضحٍ؟ كلا لقد كذبَ الذهنُ

وإنَّ الذي تبغيه دون مُعَلِّمٍ ... كمُوقِدِ مصباحٍ وليس له دُهْنُ

وقوله «عُداتي ـ البيتين»[5] قال: وأخذ هذا المعنى من قول الطغرائي[6]: [الكامل]

مَنْ خَص بالوُدِّ الصِّحابَ فإنني ... أَحْبُو بخالصِ وُدِّيَ الأعداءَ[7]

---

(١) كلمة «وهو» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ٣٩٨).

(٣) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٨٥).

(٤) الحَزْن، بفتح الحاء وسكون الزاي: الصَّعب. لسان العرب (حزن).

(٥) تقدما في هذا الجزء (ص ٢٨٢).

(٦) هو مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد، المعروف بالطغرائي؛ فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر، وله ديوان شعر جيد. توفي سنة ٥١٥ هـ. وفيات الأعيان (جـ٢ ص ١٨٥).

(٧) أحبو بخالص ودّي الأعداءَ: أمنحهم ودِّي. لسان العرب (حبا).

جعلوا التنافس في المعالى دَيْدَنِي حتى وطئْتُ بأخمصي[1] الجوزاءَ
وَنَعَوا إليَّ مثالبي فحذرْتُها ونفيتُ عن أخلاقيَ الأقذاء
ولربما انتفع الفتى بعدوِّه كالسمِّ أحيانًا يكون دواءَ

ومن نظم أبي حيان: [البسيط]

يا مُنْضِيَ الطِّرْفِ في ميدان لذّته وناضيَ الطَّرْف بين الراح والرودِ[2]
ستشربُ الروحُ راحَ الوقتِ كارهةً ويذهبُ الجسمُ بين الترب في الدودِ

وله رحمه اللّه تعالى قصيدة سمّاها بـ «المورد العذب، في معارضة قصيدة كعب» وقصيدة في مدح الإمام الشافعي مطلعها: [الطويل]

غذيْتُ بعلم النحو إذ دَرَّ لي ثَدْيَا

وله، رحمه اللّه تعالى، من قصيدة في مدح أُمِّ ولده حَيَّان: [الطويل]

جُنِنْتُ بها سوداءَ لونٍ وناظرٍ ويا طالما كان الجنونُ بسوداءِ
وَجَدْتُ بها بَرْدَ النعيم وإنْ يكن فؤاديَ منها في جحيم ولأْواءِ[3]
وشاهدْتُ معنى الحُسْن فيها مُجَسّدًا فأَعْجِبْ لمعنًى صارَ جوهرَ أشياءِ
أطاعنةً مِنْ قَدِّها بمثقّفٍ أَصَبْتِ وما أغنى الفتى لُبْسُ حصداء[4]
لقد طَعَنَتْ والقلبُ ساهٍ فما درى أبالقَدِّ منها أم بِصَعْدَةِ سمراء

ثم غير البيت الأول، وأنشد: [الطويل]

جُنِنْتُ بها سوداءَ شَعْرٍ وناظرٍ وسمراء لونٍ تزدري كلَّ بيضاءِ

وقال يهنىء، قال ابن جماعة: خاطبني به ارتجالاً عند ولادة ابني عمر بعد بنتين: [المتقارب]

حُبيتَ بريحانَتَيْ روضةٍ وبعدهما جاء نَجْلٌ أغرّ

---

(١) الأخمص: باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض فلا يصيبها. لسان العرب (خمص).

(٢) الطِّرْف، بكسر الطاء وسكون الراء: الفرس الجواد. الرود: الفتاة الشابة. لسان العرب (طرف) و (رود).

(٣) اللأواء: الشدّة. مختار الصحاح (لأي).

(٤) الحصداء: الدرع. محيط المحيط (حصد).

وَسَمَّيْتَه آسْمَ إمامٍ إذا ... رآه أبو مُرَّةٍ منه فَرّ[1]
ولا عَجَبٌ منكَ عبدَ العزيز ... إذا كان نجلُك يُسْمَى عمرْ
تَفَرَّعتما من إمام الهدى ... وبَدْرِ الدُّجَى ورئيسِ البشرْ
فلا زال يُوضِحُ سُبْلَ الهُدَى ... ولا زلْتُما تَقْفُوَانِ الأثرْ

وقال: [الطويل]

لقد زادني بالناس عِلْمًا تَجَارِبِي ... ومَنْ جَرَّبَ الأيامَ مثلي تَعَلَّما
وإني وتَطْلاَبِي من الناس راحةً ... لكالمبتغي وَسْطَ الجحيم تَنَعُّما
سأزهَدُ حتى لا أرى لي صاحبًا ... وأُنْجِدُ حتى لا أُلاقي مُتْهِمَا[2]

قال ابن جماعة: وقال في إمْلاك[3] علي ابن قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي، وكان جميل الصورة، على أُختي شقيقتي فاطمة: [الطويل]

هنيئًا بتأليفٍ غريبٍ نظامُهُ ... لقد حار في أوصافه نَظْمُ عارفِ
غَدَتْ شمسَ حُسْنٍ بنتُ بَدْرٍ سيادةً ... تُزَفُّ لبدرٍ نَجْلِ شمسِ معارفِ
سميّان للزهرا البَتُول وللرضا ... عليّ ونجلا الأكرمين الغطارفِ[4]
فدام عليٌّ عاليَ الجدّ سيّدًا ... ولا زال في ظلٍّ مِنَ العَيش وَارِفِ

وقال يخاطب شيخَه ابن النحاس وقد أغبَّ زيارته: [الطويل]

أَعَينَ حياتي والذي ببقائه ... بقائي لقد أصبحْتُ نحوك شَيِّقَا
أَقَمْتَ بقلبي غير أنَّ لمقلتي ... برؤيتك الحظَّ الذي يُذْهِبُ الشقا
وما كان ظنّي أنكَ الدهرَ تاركي ... ولو أنني أصبحتُ بين الورى لَقَا
لطائفُ معنًى في العِيان ولم تكنْ ... لِتُدْرَكَ إلَّا بالتزاور واللِّقا

---

(١) أبو مُرَّة: كنية إبليس. محيط المحيط (مرر).

(٢) أَنْجَدَ: أتى نَجْدًا. أَتْهَمَ: أتى تهامة.

(٣) الإملاك: التزويج. مختار الصحاح (ملك).

(٤) الزهرا: هي فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. والغطارف: السادة، واحدها غِطْريف. محيط المحيط (غطرف).

وقال يخاطب قاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي، وقد أُعيد إلى منصب القضاءِ، وكان يتطلّع إليه رجل يدعى نجم الدين: [الطويل]

ذَوُو العلم في الدنيا نجومٌ زواهرٌ ... وإنك فيها الشمسُ حَقًّا بلا لَبْسِ
إذا لُحْتَ أخفى نورُكُمْ كلَّ نَيِّرٍ ... ألم تَرَ أنَّ النجمَ يَخْفَى مع الشَّمْسِ

وقال: [الخفيف]

لم أؤخِّرْ عَمَّنْ أُحِبُّ كتابي ... لِقِلًى[1] فيه أو لتركِ هواهُ
غيرَ أنِّي إذا كتبتُ كتابًا ... غَلَبَ الدمْعُ مُقْلَتي فمحاهُ

وقال: [البسيط]

تذكُّري للبلى في قَعْرِ مُظْلمةٍ ... أصارني زاهدًا في المال والرُّتَبِ
أنّي أُسَرُّ بحالٍ سوف أُسْلبها ... عمّا قريبٍ وأبقى رمّةَ التربِ

وقال: [الطويل]

أتيتُ وما أُدْعى وأَقْبَلْتُ سامعًا ... فوائدَ مولى سيدٍ ماجدٍ نَدْبِ
وأحضرُ جمعًا أنت فيه جمالُهُ ... أُشَنِّفُ سمعي منك باللؤلؤ الرَّطْبِ

وقال: [البسيط]

لنا غرامٌ شديدٌ في هوى السُّودِ ... نختارهنَّ على بِيضِ الطُّلا الغِيدِ
لونٌ به أشرقتْ أبصارنا وحكى ... في اللون والعَرْفِ نَفْحَ المِسْكِ والعُودِ
لا شيءَ أَحْسَنُ مِنْ آسٍ تركُّبه ... في آبنوسٍ[2] ولا أشفى لمبرود
لا تَهْوَ بيضاءَ لون الجصِّ واسْمُ إلى ... سوداءَ حسناءَ لون الأعينِ السود
في جِيدها غَيَدٌ، في قَدِّها مَيَدٌ ... في خَدِّها صَيَدٌ، مِنْ سادةٍ صِيدِ
من آل حامٍ حَمَتْ قلبي بنارِ جَوًى ... مِنْ هَجْرِها وابتلتْ عيني بتسهيدِ

وقال في عكسه: [الوافر]

إذا مالَ الفتى للسُّودِ يومًا ... فلا رأيٌ لديه ولا رَشَادُ

---

(١) القِلَى: الكراهية والبغض. لسان العرب (قلا).

(٢) الأبنوس: شجر يعظم كالجوز له ثمر كالعنب. محيط المحيط (أبنوس).

أتَهْوَى خُنْفُساءَ كأنَّ زفتًا كسا جلدًا لها وهو السَّوادُ
وما السوداءُ إلَّا قِدْرُ فرنٍ وكانونٍ وفحمٌ أو مدادُ
وما البيضاءُ إلَّا الشمسُ لاحتْ تنيرُ العينُ منها والفؤادُ
سبيكةُ فِضَّةٍ حُشِيَتْ بوردٍ يلذُّ السُّهْدُ مَعْها والرقادُ
وبين البيض والسودان فَرْقٌ لدى عقلٍ به اتَّضح المراد
وجوه المؤمنين بها ابيضاضٌ ووجه الكافرين به اسوداد

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

أعاذلُ، ذَرْني[1] وانفرادي عن الورى فلستُ أرى فيهمْ صديقًا مصافيا
نداماي كُتْبٌ أستفيدُ علومَهَا أحِبَّايَ تغني عن لقائي الأعاديا
وآنَسُها القرآنُ فهو الذي به نجاتي إذا فكرْتُ أو كنت تاليا
لقد جُلْتُ في غرب البلاد وشرقها أُنَقِّبُ عَمَّنْ كان للّه داعيا
فلم أرَ إلَّا طالبًا لرياسةٍ وجَمَّاعَ أموالٍ وشيخًا مرائيا
قبضتُ يدي عنهمْ وآثرْتُ عُزْلةً عن الناس واستغنيتُ باللّه كافيا

قال العز بن جماعة: وخاطَبَ والدي وقد أبلَّ[2] من ضعف أشيع فيه موته مهنئًا له: [المتقارب]

أدامَ الإلَهُ لكَ العافيهْ وصَيَّرَ دُورَ العِدَا عافيهْ
إذا لاح مِنْ بَدْرِكُمْ نُورُهُ فكلُّ النجوم به خافيهْ
تخذتَ كلامَ الإلَه الدوا فآياتُهُ كانتِ الشافيهْ
تَشَوَّفَ[3] ناسٌ لمنصبكمْ ورتْبَتُهُمْ للعُلا نافيهْ
فأين العلومُ وأين الحلومُ[4] وخُلْقٌ مواردُهُ صافيهْ
هُمُ عصبةٌ لا تنالُ العلا ولو أنها قد سعتْ حافيهْ

---

(١) ذَرْني: دَعْني، فعل أمر لفعل «وذر». مختار الصحاح (وذر).
(٢) أَبَلَّ: شفي. لسان العرب (بلل).
(٣) تشوَّف: تطلَّع. لسان العرب (شوف).
(٤) الحلوم: جمع حِلْم وهو العقل. لسان العرب (حلم).

إذا كان خَرْقٌ تداركْتَهُ ... وليستْ لِمَا مَزَّقَتْ رافِيَهْ[1]
فإن عَنَّ خَطْبٌ ثبتَّ له ... وآراؤُهُمْ عنده هافيهْ
سجاياك لِينٌ ورفْقٌ بنا ... وأخلاقُهُمْ كلُّها جافيهْ
تصلّي على سَبْعَةٍ منهُمُ ... وثامنهم نَفْسُهُ طافيهْ
يقيمونَ في تُرْبهمْ هُمَّدًا ... وتَسْفِي على قبرهمْ سافيه
فلا زلتَ في صِحَّةٍ دائما ... تجرُّ ذيولَ السنى ضافيهْ
ويوردكَ اللَّهُ عَينَ الحياة ... فَتَحْيا بها مائةً وافيهْ
فإن زادَ عشرًا فذاك المنى ... وعشرون أيضًا هي الكافيهْ
وهٰذِي القوافي أتتْ كُمَّلاً ... فلم تَبْقَ لي بعدها قافيهْ

وقال رحمه اللَّه تعالى أيضًا: [المديد]

خُلِقَ الإنسانُ في كَبَدِ ... بوجودِ الأهلِ والولدِ
كلُّ عضوٍ فيه نافِعُهُ ... غيرَ عضوٍ ضَرَّ للأبدِ
منتجٌ ذلًّا وفقدَ غِنًى ... وفراخًا جَمَّةَ العددِ
مَنْ يَمُتْ منهمْ يُذِقْهُ أسىً ... أو يعشْ ألقاه في نكدِ
عاش في أَمْنٍ فتًى عَزَبٌ ... مستريحُ الفكرِ والجسدِ

وقال رحمه اللَّه تعالى أيضًا: [الخفيف]

جُنَّ غيري بعارضٍ فترجَّى ... أهلُهُ أنْ يُفيقَ عَمَّا قريبِ
وفؤادي بعارضين مصابٌ ... فهو داءٌ أَعْيا دواءَ الطبيبِ

وقال: [الطويل]

سَعَتْ حَيَّةٌ مِنْ شَعْرِهِ نحو صُدْغِهِ ... وما انفصلتْ من خدِّه، إنَّ ذا عَجَبْ
وأعجبُ مِنْ ذا أنَّ سلسالَ رِيْقِهِ ... بَرُودٌ[2] ولكنْ شَبَّ في قلبيَ اللَّهَبْ

وقال: [البسيط]

طالعْ تواريخ مَنْ في الدهر قد وُجِدُوا ... تَجِدْ خطوبًا تسلّي عنك ما تجدُ

---

(١) الرافية: المُصْلِحَةُ ما فسد من الثوب. لسان العرب (رفا).

(٢) البَرُوْدُ: البارد. لسان العرب (برد).

تجدْ أكابرهمْ قد جرعوا غُصَصًا ... من الرزايا بها كم فُتِّتَتْ كبدُ
عزلٌ ونهبٌ وضربٌ بالسياط وحبـ ... ـسٌ ثم قتلٌ وتشريدٌ لمن ولدوا
وإنْ وُقِيتَ بحمد اللّه شِرَّتَهُمْ[1] ... فلتحمدِ اللّه فالْعُقْبَى لمن حَمِدُوا

وقال رحمه اللّه تعالى يمدح البخاري وكتابه الصحيح : [الطويل]

أسامِعَ أخبارِ الرسولِ لك البُشْرَى ... لقد سُدْتَ في الدنيا وقد فُزْتَ في الأخرى
تُشَنِّفُ آذانًا بعقدِ جواهرٍ ... تَوَدُّ الغواني لو تُقَلِّدُه النَّحْرا
جواهِرُ كم حَلَّتْ نفوسًا نفيسةً ... فحلَّتْ بها صَدْرًا وحَلَّتْ بها قَدْرا
هل الدينُ إلاَّ ما روتْه أكابرٌ ... لنا نقلوا الأخبارَ عن طَيِّبٍ خبرا
وأدَّوا أحاديثَ الرسولِ مصونةً ... عن الزَّيْفِ والتصحيف فاستوجبوا الشكرا
وإنَّ البخاريَّ الإمامَ لَجامعٌ ... بجامعه منها اليواقيتَ والدُّرّا
على مَفْرِقِ الإسلام تاجٌ مُرَصَّعٌ ... أضاءَ به شمسًا ونارَ به بَدْرا
وبحرُ علومٍ يلفظُ الدُّرَّ لا الْحَصَا ... فأَنْفِسْ بها دُرًّا وأَعْظِمْ به بَحْرا
تصانيفُهُ نُورٌ ونَورٌ لناظرٍ ... فقد أشرقتْ زُهْرًا وقد أينعتْ زَهْرا
نحا سُنَّةَ المختار يَنْظِمُ شَتَّهَا ... يُلَخِّصُها جمعًا ويُخْلِصُها تبرا
وكم بَذَلَ النفسَ المصونةَ جاهدًا ... فجاز لها بَحْرًا وجَابَ لها بَرّا
فطورًا عراقيًّا وطورًا يمانيًّا ... وطورًا حجازيًّا وطورًا أتى مصرا
إلى أنْ حوى منها الصحيحَ صحيفةً ... فوافى كتابًا قد غدا الآيَةَ الكبرى
كتابٌ له مِنْ شَرْعِ أحمدَ شِرْعَةٌ ... مُطَهَّرَةٌ تعلو السِّماكين والنَّسْرا[2]

قلت : وتتّصل روايتي عن الإمام أبي حَيَّان من طُرق عديدة : منها عن عمي وليِّ اللّه العارف به شيخ الإسلام مفتي الأنام الخطيب الإمام مُلْحِق الأحفاد بالأجداد سيدي سعيد بن أحمد المقَّري التِّلِمْسَاني ، عن شيخه العالم أبي عبد اللّه التَّنَسِي ، عن والده حافظ عصره سيدي محمد بن عبد اللّه بن عبد الجليل التَّنَسي ثم التلمساني الأموي ، عن عالم الدنيا أبي عبد اللّه بن مرزوق ، عن جدِّه الرئيس الخطيب سيدي أبي عبد اللّه محمد بن مرزوق ، عن

---

(١) الشِّرَّةُ، بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة : الشَّرُّ وحدّته. محيط المحيط (شرر).
(٢) النَّسْرُ : كوكب، وهما اثنان؛ يقال لأحدهما النَّسْر الواقع وللآخر النَّسْر الطائر. محيط المحيط (نسر).

الأثير أبي حيان بكلِّ مروياته: فمنها أنَّ أبا حيان قال: حدّثنا ابن أبي الأحوص عن قاضي الجماعة أبي القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه الإمام بقي بن مخلد عن أبي بكر المقدمي عن عمر بن علي وعبد اللّٰه بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد اللّٰه بن عمرو[١] أن النبيَّ ﷺ، مَرَّ بمجلسين أحدهما يدعون اللّٰه ويدعون إليه، والآخر يتعلّمون العلم ويعلمونه، فقال: «كل المجلسين خير، وأحدهما أفضل من الآخر، أمّا هؤلاء فيتعلّمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل، وأمّا هؤلاء فيدعون اللّٰه ويرغبون إليه إنْ شاء أعطاهم وإنْ شاء منعهم، وأنا بُعِثْتُ معلّمًا»[٢]، ثم جلس معهم.

قال أبو حيان: قلت: لا أعرف حديثًا اجتمعت فيه رواية الأبناء عن الآباء بعدد ما اجتمع في هذا إلَّا ما أخبرنا به أبو الحسن محمد بن محمد بن الحسن بن مامة بقراءتي عليه، أنبأنا أبو المعالي الأبرموي أنبأنا أبو بكر بن عبد اللّٰه بن محمد بن سابور القلانسي، أنبأنا أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي، أنبأنا رزق اللّٰه بن عبد الوهاب التميميّ، قال: سمعت أبي أبا الفرج عبد الوهاب يقول: سمعت أبي أبا الحسن عبد العزيز يقول: سمعت أبي أبا بكر الحارث يقول: سمعت أبي أسدًا يقول: سمعت أبي الليثَ يقول: سمعت أبي سليمان يقول: سمعت أبي الأسود يقول: سمعت أبي سفيان يقول: سمعت أبي يزيد يقول: سمعت أبي أكيمة يقول: سمعت أبي الهيثم[١] يقول: سمعت أبي عبدَ اللّٰه يقول: سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «ما اجتمع قوم على ذكر إلَّا حَفَّتهم الملائكة وعمّتهم الرحمة» انتهى.

قلت: قال الحافظ ابن حَجَر في فوائده: ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء أكثر من هذا، انتهى.

ورأيت بخطِّ بعض الحفّاظ على قول أبي أكيمة ما صورته: صوابه أكينة، انتهى، فليحرّر.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «عمر». وهو عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص.

(٢) في طبعة دار صادر: «الهشيم».

ومنها أن أبا حيان قال: أنبأنا الأستاذ أبو جعفر ابن[1] الزبير صاحب الصلة، أنبأنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الأزدي، أنبأنا عبدُ الله بن محمد بن حسن بن عطية، ح قال أبو حيان: وأنبأنا الأصولي أبو الحسين ابن القاضي أبي عامر بن ربيع الأشعري، عن أبي الحسن أحمد بن علي الغافقي، قال: أنبأنا عياض، ح وكتب لنا الخطيبُ أبو الحجاج يوسف بن أبي ركانة، عن القاضي أبي القاسم أحمد بن عبد الودود بن سمحون[2] عن عبد الله بن عطية قال هو وعياض: أنبأنا القاضي أبو بكر بن العربي، أنبأنا أبو محمد هبة الله الأكفاني[3]، أنبأنا الحافظ عبد العزيز الكناني الدمشقي، أنبأنا أبو عصمة نوح بن الفرغاني قال: سمعت أبا المظفر عبد الله بن محمد بن عبد الله بن قَتٍّ الخزرجي وأبا بكر محمد بن عيسى البخاري قالا: سمعْنا أبا ذر عمّار بن محمد بن مخلد التميمي يقول: سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخاري يقول: لَمّا عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن يزيد الهمداني عن قضاء الريّ وَرَدَ بخارى سنة ٣١٨ لتجديد مودّة كانت بينه وبين أبي الفضل البلعمي، فنزل في جوارنا، فحملني معلمي أبو إبراهيم إسحٰق بن إبراهيم الخُتُلّي إليه فقال له: أسألك أن تحدّث هذا الصبي ما سمعْتَه من مشايخك فقال: ما لي سماع، فقال: وكيف وأنت فقيه؟ فما هذا؟ قال: لأني لَمّا بلغْتُ مبلَغَ الرجال تاقتْ نفسي إلى طلب الحديث ورواية الأخبار وسماعها، فقصدْتُ محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى صاحب التاريخ والمنظور إليه في علم الحديث، وأعلمْتُه مرادي، وسألْتُه الإقبال على ذلك، فقال لي: يا بني، لا تدخل في أمر إلاّ بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره، فقلت: عَرِّفني ـ رحمك الله تعالى! ـ حدود ما قصدتك له، ومقادير ما سألتك عنه، فقال لي: أعلمْ أنّ الرجل لا يصير محدِّثًا كاملاً في حديثه إلاّ بعد أن يكتب أربعًا مع أربع كأربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع على أربع عن أربع لأربع، وكل هذه الرباعيات لا تتمُّ إلاّ بأربع مع أربع، فإذا تمّتْ له كلُّها هان عليه أربع، وابتلي بأربع، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع، قلت له: فَسِّر لي[4] ـ رحمك الله تعالى! ـ ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات من قلب صافٍ بشرح كافٍ

(١) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٢) في طبعة بولاق: «سمحون بن عبد الله».
(٣) تقدّم في الجزء الثاني رقم ١٠٥: «هبة الله بن الأكفاني».
(٤) كلمة «لي» ساقطة من طبعة دار صادر

وبيان شافٍ طلبًا للأجر الواف[1]، فقال: نعم، أما الأربع التي تحتاج إلى كتبها فهي أخبار الرسول ﷺ، وشرائعه، والصحابة، رضي اللّٰه تعالى عنهم، ومقاديرهم، والتابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتواريخهم، مع أسماء رجالهم وكُناهم وأمكنتهم وأزمانهم، كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع التوسُّل والبسملة مع السورة، والتكبير مع الصلوات، مثل المسندات والمرسلات، والموقوفات والمقطوعات، في صغره وفي إدراكه، وفي شبابه وفي كهولته، عند فراغه وعند شغله، وعند فقره وعند غناه، بالجبال والبحار، والبلدان والبَراري، على الأحجار والأخزاف، والجلود والأكتاف، إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق، عَمَّنْ هو فوقه وعَمَّن هو مثله وعَمَّن هو دونه، وعن كتاب أبيه يتيقّن أنه بخطِّ أبيه دون غيره، لوجه اللّٰه تعالى طلبًا لمرضاته، والعمل بما وافق كتاب اللّٰه، عَزَّ وجَلَّ، منها، ونشرها بين طالبيها ومُحِبِّيها، والتأليف في إحياء ذكره بعده، ثم لا تتمّ له هذه الأشياء إلاّ بأربع، هي من كَسْب العبد، أعني معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو، مع أربع هي من إعطاء اللّٰه تعالى، أعني القدرة والصِّحّة والحرص والحفظ، فإذا صَحَّت له هذه الأشياء كلُّها هان عليه أربع: الأهل، والولد، والمال، والوطن. وابتلي بأربع: بشماتة الأعداء، وملامة الأصدقاء، وطعن الجهلاء، وحَسَد العلماء، فإذا صبر على هذه المحن أكرمه اللّٰه، جَلَّ وعلا، في الدنيا بأربع: بعزِّ القناعة، وبَهيبَة النفس، وبلذَّة العلم، وبحياة الأبد، وأثابه في الآخرة بأربع: بالشفاعة لمن أراد من إخوانه، وبظل العَرْض حيث لا ظلَّ إلاَّ ظلّه، وبسقي من أراد من حَوْض نبيِّه ﷺ، وبجوار النبيين في أعلى علِّيين في الجنّة، فقد أعلمتك يا بني بمُجْمَلات جميع ما سمعت من مشايخي متفرقًا في هذا الباب، فأقبل الآن[2] على ما قصدتني له أو دَعْ. فهالني قوله، فسكتُّ متفكِّرًا، وأطرقْتُ متأدِّبًا، فلمّا رأى ذاك منّي قال: وإن لم تطق حمل هذه المشاق كلّها فعليك بالفقه، يمكنك تعلّمه وأنت في بيتك قارٌّ ساكنٌ لا تحتاج إلى بُعْد الأسفار، ووطء الديار، وركوب البحار، وهو ذا ثمرة الحديث، وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدِّث في الآخرة، ولا عزّه بأقلَّ من عزِّ المحدّث، فلما سمعت ذلك نُقِضَ[3] عزمي في طلب الحديث، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلّمه إلى أنْ صرْتُ فيه متقدّمًا، ووقفْتُ منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق اللّٰه تعالى ومنّته، فلذلك لم يكن

---

(١) الواف: أي الوافي، وقد حذف الياء مراعاة للسَّجْع.

(٢) في طبعة دار صادر: «إلى ما قصدني . . .».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «نقص».

عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا إبراهيم، فقال له أبو إبراهيم: إنَّ هذا الحديث الواحد الذي لا يوجد عند غيرك خيرٌ للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك، انتهى.

وجاء أبو حيان إلى ابن تَيمية والمجلس غاصٌّ فقال يمدحه ارتجالاً: [البسيط]

لَمَّا أتينا تقيَّ الدين لاحَ لَنَا	داعٍ إلى اللَّه فَرْدٌ ما له وَزَرُ
على مُحَيّاه مِنْ سِيمَا الألى صحبوا	خيرَ البريّةِ نورٌ دونه القمرُ
حَبْرٌ تسربلَ منه دهرُهُ حِبَرًا[1]	بَحْرٌ تقاذفُ مِنْ أمواجه الدُّرَرُ
قام ابنُ تيميّةٍ في نصر شرعتنا	مقامَ سيّدِ تَيمٍ[2] إذ عَصَتْ مُضَرُ
فأظهر الحقَّ إذ آثارُه درست	وأخمد الشَّرَّ إذ طارتْ له الشرر
كنا نحدَّثُ عن حَبْرٍ يجيء فها	أنت الإمامُ الذي قد كان يُنْتَظَرُ

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تيمية، ومات وهو على انحرافه، ولذلك أسباب: منها أنه قال له يومًا: كذا قال سيبويه، فقال: يكذب سيبويه، فانحرف عنه، رحم اللَّه تعالى الجميع!.

وحضر الشيخ أبو حيان مع ابن بنْتِ الأعز في الروضة فكتب إلى أبي حيان ووجَّهه مع بعض غلمانه: [الرجز]

حَيَّيتُ أثيرَ الدين شيخَ الأدبا	أقضي له حَقًّا كما قد وَجَبا
حَيَّيتُ فتًى بطاقِ آسٍ نَضِرٍ	كالقَدِّ بَدَا ملئْتُ منه طربا

قال: فأنشدته: [البسيط]

أَهْدَى لنا غُصُنًا مِنْ ناضرِ الآسِ	أقْضَى القُضَاةِ حليفُ الجُود والباسِ
لَمَّا رأى سَقَمي أهداه مَع رشأٍ	حلْوِ التثّني فكان الشافيَ الآسي

ولَمَّا أنشد الشيخ أبو حيان قول نور الدين القَصْري في روضة مصر: [الخفيف]

ذاتُ وجهين فيهما قُسِمَ الحُسْـ	ـن فأضحتْ بها القلوبُ تهيمُ
ذا يَلِي مصرَ فَهْوَ مصرٌ وهذا	يتولَّى وسيم فهو وسيمُ
قد أعادت عصرَ التصابي صباها	وأبادتْ فيها الغمومَ الغيومُ

---

(١) الحَبْرُ: العالم. الحِبَرُ: جمع حِبَرَة وهي ضرب من برود اليمن. محيط المحيط (حبر).

(٢) سيِّدُ تَيْم: هو أبو بكر الصديق رضي اللَّه عنه.

زاد فيها بيتًا، وهو: [الخفيف]

فَبِلُجِّ البحارِ يسبحُ نُونٌ[1] وبِفَجِّ القفارِ يَسْفَحُ رِيمُ

قال أبو حيان: وكنت ماشيًا بين القصرين مع ابن النحاس، فعبر علينا صبيٌّ يُدْعى بجمال، وكان مصارعًا، فقال البهاء: لينظم كلٌّ منا فيه، ثم قال: [البسيط]

مُصارعٌ تصرعُ الآسادَ شمرتُهُ تِيهًا فكلُّ مليحٍ دونه سَمِجُ
لَمَّا غدا راجحًا في الحُسْنِ قلتُ لهمْ عن حُسْنه حدّثوا عنه ولا حَرَجُ

فنظمت أنا: [الطويل]

سباني جمالٌ مِنْ مليحٍ مُصَارعٍ عليه دليلٌ للملاحةِ واضحُ
لئن عَزَّ منه المثلُ فالكلُّ دونه وإنْ خَفَّ منه الخَصْرُ فالرِّدْفُ راجحُ

وسمع العزازي نظمنا فقال، وأنشدنيه: [السريع]

هل حَكَمٌ يُنْصفني في هَوَى مُصارعٍ يصرعُ أُسْدَ الشَّرَى[2]
مذ فَرَّ عنِّي الصبرُ في حُبِّه حكى عليه مدمعي ما جَرَى
أباح قتلي في الهوى عامدًا وقال كم لي عاشق في الورى
رَمَيتُهُ في أَسْرِ حبِّي ومِنْ أجفانِ عينيه أخذْتُ الكرى

وقال لسان الدين في الإحاطة[3]: كان أثير الدين أبو حيان نسيجَ وَحْدِهِ في ثقوب الذهن، وصحّة الإدراك، والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية، إمام النحاة في زمانه غيرَ مُدَافع، نشأ في بلدِه غَرْنَاطة مشارًا إليه في التبريز بميدان الإدراك، وتغبير السوابق في مضمار التحصيل، ونالته نَبْوَة[4] لحقَ بسببها بالمشرق، واستقرّ بمصر، فنال بها ما شاء مِنْ عزّ وشهرة وتأثّلٍ وافر وحُظْوة، وأضحى لمن حَلَّ بساحته من المغاربة ملجأ وعُدَّة، وكان شديد البسط مهيبًا جهوريًا مع الدُّعَابة والغزل وطرح التَّسَمُّتِ، شاعرًا، مكثرًا، مليح الحديث، لا يملُّ وإن أطال، وأسنَّ جدًا فانتفع به، قال لي بعضُ أصحابنا: دخلْتُ عليه

---

(١) النُّوْنُ: الحوت. لسان العرب (نون).

(٢) الشَّرَى، بالفتح: مأسدة يضرب بها المثل. محيط المحيط (شري).

(٣) النص في الإحاطة (جـ٣ ص٤٣ ـ ٤٤).

(٤) النَّبْوَةُ: الجَفْوَةُ. لسان العرب (نبا). وسيروي المقري بعد قليل سبب هذه النبوة.

وهو يتوضّأ، وقد استقرَّ على إحدى رجليه لغسل الأخرى كما تفعل البرك والإوزّ، فقال لي: لو كنتُ اليوم جار شُلَير[1] ما تركني لهذا العمل في هذا السّنّ. ثم قال لي بعد كلام حدّثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى والمقّري الخطيب أبي جعفر الشَّقُوري والشريف أبي عبد اللَّه بن راجح وشيخنا الخطيب أبي عبد اللَّه بن مرزوق قال: حدّثنا شيخنا أبو حيان في الجملة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القَصْرَين بمنزله، حدّثنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعًا من لفظه وكتبه من خطِّه بغرناطة، عن الكاتب أبي إسحٰق بن عامر الهمداني الطُّوسي ـ بفتح الطاء ـ حدّثنا أبو عبد اللَّه بن محمد العنسي القرطبي، وهو آخر من حدّث عنه، أنبأنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجَيَّاني، أنبأنا حكم بن محمد، أنبأنا أبو بكر بن المهندس، أنبأنا عبد اللَّه بن محمد، أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر، سمعت أبا أُمامة الباهلي يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ، يقول «اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنّة، إذا حدَّث أحدكم فلا يكذب، وإذا ائْتُمِنَ فلا يَخُنْ، وإذا وَعَدَ فلا يخلفْ، غضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم».

ثم قال ابن الخطيب[2]: إنَّ أبا حيان حملته حِدّة الشبيبة على التعرّض للأستاذ أبي جعفر الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة، فنال منه، وتصَدَّى للتأليف في الردّ عليه وتكذيب روايته، فرفع[3] أمره للسلطان، فامتعض له، ونفذ الأمر بتنكيله، فاختفى، ثم أجاز البحر مختفيًا، ولحق بالمشرق يلتفت خلفه.

ثم قال: وشعره كثير يتّصف بالإجادة وضدّها، فمن مطوَّلاته قوله[4]: [البسيط]

لا تَعْذلاه فما ذو الحُبِّ معذولُ ... العقلُ مختبلٌ والقلبُ متبولُ
هَزَّتْ له أسمرًا مِنْ خُوطِ قامتها ... فما انثنى الصَّبُّ[5] إلَّا وهو مقتول
جميلةٌ فُصِّلَ الحُسْنُ البديعُ لها ... فكمْ لها جُمَلٌ منه وتَفْصِيلُ

(١) هو جبل شُلَيْر المطلّ على غرناطة والذي تغطّيه الثلوج على مدار السنة، وقد مرّ الحديث عنه في الجزء الأول.
(٢) النص في الإحاطة (ص ٤٤).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «فرع».
(٤) الأبيات في الإحاطة (ص ٤٧).
(٥) في طبعة عبد الحميد «الصلب». وفي الإحاطة: «للصَّبِّ».

فـالنحرُ مـرمـرةٌ، والنشـر عنبـرةٌ، والثغـرُ جـوهـرة، والـرِّيقُ معسـول
والـطَّرْفُ ذو غَنَجٍ ، والعَـرْفُ ذو أَرَجٍ ، والخَصْرُ مختطفٌ، والمَتْنُ[١] مجدول
هيفـاءُ ينطقُ في الخصـر الـوشـاحُ لهـا درماءُ تخْرس في السـاقِ الخلاخيـلُ[٢]
مِـنَ اللواتـي غـذاهُنَّ الـنعـيـمُ فـمـا يشقين، آبـاؤهـا الصِّيـدُ البَهَـاليـلُ[٣]

إلى أن قال: وقوله[٤]: [الكامل]

نـورٌ بـخـدِّكَ أم تَـوَقُّـدُ نـارِ؟ وضَنًى بـجَـفْـنِـكَ أم فُـتُـور[٥] عُـقَـارِ
وشَـذًا بِـريـقـك أم تـأَرُّجُ مِـسْـكـةٍ وسَـنًـى بـثـغـرِكَ أم شُـعـاعُ دراري
جُمِعَتْ معاني الحُسْن فيك فقد غدتْ[٦] قَـيْـدَ الـقـلـوبِ وفـتـنـةَ الأبـصـار
مُـتَـصَـاوِنٌ خـفـرًا[٧] إذا نـاطـقْـتَـهُ أغـضـى حـيـاءً فـي سـكـونٍ وقـار
فـي وجهـه زهـراتُ روضٍ[٨] تـجـتـلى مـن نـرجسٍ مـع وردةٍ وبَـهَـارِ
خـافَ اقتـطافَ الـورد من وجنـاتهـا فـأدارَ مـن آسٍ سِـيَـاجَ عِـذارِ[٩]
وتَـسَـلَّلَتْ نَـمْـلُ الـعِـذار بـخـدِّه لِـيَـرِدْنَ شَـهْـدَةَ رِيـقـهِ الـمِـعْـطار
وبـخـدِّهِ[١٠] نـارٌ حَـمَـتْـهُ وِرْدَهَـا فَـوَقَـفْـنَ بـيـن الـوِرْدِ والإِصْـدار
كـم ذا أُداري[١١] في هَـوَاه مَـحَـبَّـتي ولـقـد وَشَـى بـي فـيـه فَـرْطُ أُوَارِي

وقال ابن رشيد: حدّثنا أبو حيان قال: حدّثنا التاجر أبو عبد الله البرجوني بمدينة عَيذَاب من بلاد السودان، وبَرْجونة قرية من قرى دار السلام، قال: كنت بجامعِ لَوْلَم من

(١) في الإحاطة: «والعُنُقُ مجدول».
(٢) في الإحاطة: «هيفاء يَنْبِسُ... ردمًا تخرس في..». والمرأة الدَّرْماء: التي لا تستبين كعوبُها ومرافقُها من الشحم واللحم. محيط المحيط (درم).
(٣) الصِّيْدُ، بكسر الصاد وسكون الياء: جمع أَصْيد وهو الرجل الذي يرفع رأسه كبرًا. البهاليل: جمع بُهْلُول وهو السّيّد الجامع لكل خير. محيط المحيط (صيد) و (بهلل).
(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٨٣ ـ ٨٤) والإحاطة (ص ٥٧).
(٥) في الكتيبة الكامنة: «كؤوس عُقار».
(٦) في المصدر نفسه: «فيك فأصبحتْ..».
(٧) في الكتيبة الكامنة والإحاطة: «خفرٌ».
(٨) في الإحاطة: «زهراتُ لفظٍ..».
(٩) في المصدر نفسه: «من جنباتها.. من أسر سياج عذار».
(١٠) في الإحاطة والكتيبة: «وبخدِّه وردٌ حَمَتْها..».
(١١) في المصدرين السابقين: «كم ذا أواري..».

بلاد الهند ومعنا رجل مغربي اسمه يونس، فقال لي: اذكرْ لنا شيئًا، فقلت له: قال علي، رضي اللَّه تعالى عنه «إذا وضع الإحسان في الكريم أثمر خيرًا، وإذا وضع في اللئيم أثمر شرًّا، كالغيث يقع في الأصداف فيثمر الدّرّ، ويقع في فم الأفاعي فيثمر السّمّ»، فما راعنا إلّا ويونس المغربي قد أنشد لنفسه: [السريع]

صنائعُ المعروف إنْ أُودِعَتْ عند كريمٍ زَكَّتِ النِّعْما
وإن تكنْ عند لئيمٍ غَدَتْ مَكْفُورَةً موجِبَةً إثما
كالغَيْثِ في الأصداف دُرٌّ، وفي فَمِ الأفاعي يُثْمِرُ السّمّا

قال أبو حيان: فلمّا سمعت هذه الأبيات نظمت معناها في بيتين، وهما: [الطويل]

إذا وُضِعَ الإحسانُ في الخَبِّ[1] لم يُفِدْ سوى كفرهِ، والحرُّ يَجْزِي به شكْرَا
كَغَيثٍ سَقَى أَفْعَى فجاءتْ بسمِّها وصاحَبَ أصدافًا فأثمرتِ الدُّرَّا

قال أبو حيان: وأنشدنا الأمير بدر الدين أبو المحاسن يوسف ابن سيف الدولة أبي المعالي بن رمّاح الهمداني لنفسه بالقاهرة: [الوافر]

فلا تَعْجَبْ لِحُسْنِ المَدْحِ منِّي صِفاتُكَ أظهرتْ حُكْمَ البوادي
وقد تُبْدي لك المِرآةُ شَخْصًا ويُسْمِعُكَ الصَّدَى ما قد تُنادي

وبعد كَتْبي ما نقله ابن رشيد عن أبي حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذي ذكره ابن رشيد ليس هو أبو حيان النحوي الأندلسي، وإنما هو شخص آخر، وفيه عندي نظر لا يخفى، والذي أعتقده ولا أرتاب فيه أنه أبو حيان النحوي.

وقال ابن رشيد: وأنشدني أبو حيان لنفسه: [الطويل]

إذا غاب عن عيني أقولُ سَلَوْتُه وإنْ لاح حَالَ[2] اللونُ فاضطربَ القَلْبُ
يُهَيِّجُني عيناهُ والمَبْسِمُ الذي به المِسْكُ منظومٌ به اللؤلؤُ الرطبُ

---

(١) الخَبُّ، بفتح الخاء وتشديد الباء: الخدّاع. محيط المحيط (خبب).
(٢) حالَ اللونُ: تغيَّر. لسان العرب (حول).

وقال الشريف ابن راجح :رأيت أنَّ ما وضعه الشيخ أبو حيان في تقديم[1] لسان الأتراك تضييع لعمره، وقلت: [السريع]

نـفـائسُ الأعـمـار أنْـفَـقْـتُـهَـا ... أنـا وأمْـثَـالـي عـلى غـيـر شَـيْ
شيـوخُ سـوءٍ ليس يـرضـى بمـا ... تـرضى بـه من المخـازي صَبِيْ

ومن نظم أبي حيان قوله : [الخفيف]

إنَّ عـلمًـا تـعـبْتُ فيـه زمـانـي ... بـاذلاً فـيـه طـارفـي وتِـلادِي
لَـجَـدِيـرٌ بـأنْ يكـون عـزيـزًا ... ومَـصُـونًـا إلَّا عـلى الأجـوادِ

وقـولـه : [الطويل]

ومـا لـكَ والإتعـابَ نفسًـا شـريفـةً ... وتكليفَهَا في الدهـر ما ليس يَعْـذُبُ
أَرِحْهـا فعن قربٍ تـلاقي حِمَـامَهَـا ... فَـتَنْـعَمَ فـي دارِ البَـقـا أو تُعَـذَّبُ

واستشكل هذان البيتان بأن ظاهرهما خلاف الشرع، وأجيب بأن مراده أمر الـرزق، لا أمر التكليف.

وأفـاد غيرُ واحـد أنَّ سبب رحلة الشيخ أبي حيـان عن الأندلس أنـه نشأ شـرٌّ بينه وبين شيخه أحمد بن علي بن الطباع فـألّف أبو حيـان كتابًـا سمّاه «الإلمـاع، في إفساد إجـازة ابن الطباع» فرفع ابنُ الطباع أمره للأميـر محمد بن نصـر المدعـوّ بالفقيـه، وكان أبـو حيان كثيـر الاعتراض عليه أيام قراءتـه عليه، فنشـأ شرّ عن ذلـك، وذكر أبـو حيان أنـه لـم يُقِمْ بفاس إلَّا ثلاثة أيام، وأدرك فيها أبا القاسم المزياتي، وخرج أبو حيـان من الأندلس سنـة تسع وسبعين وستمائة.

* * *

٢١٧ ـ وكـان جماعـة من أعلام الأنـدلس رَحَلوا منها، فلمـا وصلوا إلى العُدْوَة أقـاموا بها، ولم يذهبوا إلى البلاد المشرقية، منهم الشيخ النحوي الناظم الناثر أبو الحسن حـازم بن

---

(١) في طبعة دار صادر: «في تقدّم..».

محمد القرطاجَنِّي[1]، وهو القائل يمدح أمير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس[2]:
[الطويل]

أمن بارقٍ أَوْرَى بجنح الدُّجى سقطا ... تذكرتَ مَنْ حَلَّ الأَجَارِع[3] فالسِّقْطا

وبانَ ولكنْ لم يَبِنْ عنكَ ذِكْرُهُ ... وشَطَّ ولكنْ طَيفُهُ عنكَ ما شَطَّا

حبيبٌ لَوَ انّ البدرَ جاراه في مدًى ... من الحُسْن لاستدنى مَدَى البَدْرِ واستَبْطا

إذا انتجعتْ مرعًى خصيبًا ركابه ... غدا لَحْظُ عيني يشتكي الجدبَ والقَحْطا

لقد أَسْرَعَتْ عنّي المطيُّ بشادنٍ ... تَسَرَّعَ في قتلِ النفوسِ وما أَبْطا

ظننتُ الفلا دارَ ابنِ ذي يَزَنٍ بها ... وخِلْتُ المحاريبَ الهوادجَ والغُبْطا

فكم[4] دميةٍ للحُسْن فيها وصورةٍ ... تَروقُ وتمثالٍ مِنَ الحُسْن قد خُطَّا

حمائلُ[5] لاحتْ كالخمائل بهجةً ... سقيطُ الحَيَا فيهنَّ لا يسأمُ السقطا

توسَّدُ غزلانُ الأوانسِ والْمَهَا ... به الوشيَ والديباجَ لا السِّدْرَ والأَرْطى[6]

ولم يَسْبِ قلبي غيرُ أبهرِها سنًى ... وأطولِها جِيدًا وأخفقِها قُرْطَا

أيا رَبَّةِ الأحداجِ سيري فتعلمي[7] ... وما بك جهلٌ، أنَّ سهمك ما أخطا

قفي تستبيني ما بعينيكِ مِنْ ضَنًى ... كجسمي وعنوانَ الهوى فيه مختطًّا

فلم أرَ أعدى منك لحظًا وناظرًا ... لقلبي ولا أعدى عليه ولا أسطى[8]

سقى الله عيشًا قد سقانا من الهوى ... كؤوسا بمعسول اللَّمَى خُلِطَتْ خلطا

وكم جَنَّةٍ قد رُدْتُ في ظلِّ كافرٍ ... فلم أجْزِ ما أولاهُ[9] كُفْرًا ولا غَمْطَا

وكم ليلةٍ قاسيتُها نابِغِيَّةٍ[10] ... إلى أن بَدَتْ شِيبًا ذوائبُها شُمْطَا

---

(١) مرَّ التعريف بحازم القرطاجني والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص٨٦).

(٢) القصيدة في ديوان حازم القرطاجني (ص ٦٨ - ٧٣).

(٣) في الديوان: «الأبارق».

(٤) في المصدر نفسه: «وكم».

(٥) في المصدر نفسه: «شمائل».

(٦) الأَرْطَى: شجر نَوْرُهُ كنور الصفصاف وثمره كالعنّاب. محيط المحيط (أرطى).

(٧) رواية صدر البيت في الديوان هي:

فيا ربّة الأحداج عوجي لتعلمي

(٨) أسطى: أقوى سطوة. لسان العرب (سطا).

(٩) في الديوان: «ما أهداه».

(١٠) ليلة نابغية: قاسية شديدة. لسان العرب (نبغ).

وبتُّ أظنُّ الشُّهْبَ مثلي لها هَوًى وأغبطها في طول أُلْفتها غبطا
على أنها مثلي عزيزةُ مَطْلَبٍ ومن ذا الذي ما شاء من دهره يُعْطَى
كأنَّ الثُّرَيَّا كاعبٌ أزْمَعَتْ نَوًى وأَمَّتْ بأقصى الغرب منزلةً شحطا[1]
كأنَّ نجوم الهقعةِ الزُّهْرَ هَوْدَجٌ لها عن ذَرَا الْحَرْفِ الْمُنَاخَةِ قد حُطَّا
كأنَّ رشاءَ الدلوِ رشوةُ خاطبٍ لها جُعِلَ الأشراطُ في مهرها شرطا
كأنَّ السُّهَا قد دقَّ مِنْ فرطِ شوقه إليها كما قد دقَّق الكاتبُ النَّقْطَا
كأن سُهَيلاً إذ تناءتْ وأنجدتْ غدا يائسًا منها فأتْهَمَ وانحطَّا
كأنَّ خُفُوقَ القَلْبِ قَلْبُ مُتَيَّمٍ تعدَّى عليه الدهرُ في البَينِ واشْتَطَّا
كأنّ كلا النَّسْرَينِ قد رِيعَ[2] إذ رأى هلالَ الدجى يهوي له مخلبًا سلطا
كأنَّ الذي ضَمَّ القوادِمَ منهما هَوَى واقِعًا للأرضِ أو قصَّ أو قطَّا
كأنَّ أخاه رامَ فَوتًا أمامَهُ فلم يَعْدُ أنْ مَدَّ الجناحَ وأنْ مَطَّا
كأنَّ بياضَ الصبح مِعْصَمُ غادةٍ جَنَتْ يَدُها أزهارَ زُهْرِ الدُّجَى لقطا
كأنَّ ضياءَ الشمس وَجْهُ إمامِنا إذا ازداد بشرًا في الوغى وإذا أعطى
محمدٌ الهادي الذي أنطق الوَرَى ثناءً بما أسدى إليهمْ وما أنطى[3]
إمامٌ غدا شمسَ المعالي وبَدْرَها وقد أصبحتْ زُهْرُ النجوم له رَهْطَا
جميلُ المُحَيَّا مجملٌ طِيبُ ذكره يُعاطي سرورًا كالحميَّا ويُسْتَعْطَى
إذا ما الزمانُ الجَعْدُ أبدى تجهُّمًا[4] أرانا الحَياءَ الطَّلْقَ والخُلُقَ السَّبْطا
كلا أَبَوَيْ حَفْصٍ نماه إلى العلا فأصبح عن مرقاته النجمُ مُنْحَطَّا
بِسِيماهُ تدري أنّ كعبًا جدودُه وإنْ هو لم يذكر رزاحًا ولا قرطا
إذا قبض الروعُ الوجوهَ فوجهُهُ يزيدُ، لكون النصر نصلاً له، بسطا
به تُتْرَكُ الأبطالُ صَرْعَى لدى الوغى كأنْ قد سُقُوا من خَمْر بابلَ إسْفَنْطا[5]
تراه إذا يعطي الرغائبَ باسمًا له جَذَلٌ يُرْبِي على جَذَلِ[6] المُعْطَى

(١) في طبعة عبد الحميد: «تخطى».
(٢) في الديوان: «مذ رأى».
(٣) أنطى: لغة في «أعطى».
(٤) في الديوان: «أبدى عبوسه».
(٥) الإسْفَنْطُ: الخمر. محيط المحيط (إسفنط).
(٦) الجَذَلُ: الفَرَحُ. لسان العرب (جذل).

وكم عُنُقٍ قد قُلِّدَتْ بنواله فريدًا وقد كانت قلادَتُها لطًّا[1]

متى ما تَقِسْ جُودَ الكرام بجوده فبالبحر قايَسْتَ الوقيعةَ والوقطا[2]

يشفُّ له عن كلِّ غيبٍ حِجابه فتحسبه دون المُحَجَّبِ ما لطًّا[3]

تطيعُ الليالي أَمْرَهُ في عُصاتِهِ وتردي أعاديه أساوِدُها نشطا[4]

وتُمْضي عليهمْ سَيفَهُ وسِنانَهُ فتبري الكُلَى طَعْنًا وتفري الطُّلَى قَطًّا

فكيف ترجَّتْ غِرَّةً منه فِرْقةٌ غدا عِزُّها ذُلًّا ورفعتُها هَبْطا

وكم بالنُّهى والحلم غطَّى عليهمُ إلى أن جَنَوا ذنبًا على العلم قد غطَّى

فأمطاهُمُ دُهْمَ الحديد وطالما أنالهُمُ دُهْمَ الجياد وما أمطى

ورامَ لهمْ هَدْيًا ولكنهمْ أبَوا بِغَيِّهِمُ إلَّا الضلالةَ والخبطا

وكان لهمْ يبغي المَثُوبَةَ والرضا ولكنْ أَبَوا إلَّا العقوبةَ والسّخْطا

ولو قوبلتْ بالشكر منه مآربُ لَمَا اعتاضَ منها أهلُها الأَثْلَ والْخَمْطَا[5]

هو الناصرُ المنصورُ والملكُ الذي أعادَ شبابَ الدهرِ من بعد ما اشْمَطَّا

أصاختْ له الأيامُ سَمْعًا وطاعةً وأحكمتِ الدنيا له عَهْدَها ربطا

فلا بُدَّ من أن يملكَ الأرضَ كلَّهَا وأن تملأ الدنيا أيالته قِسْطا[6]

ويغزوَ في آفاق أندلسَ العِدَا بجيش تخطُّ الأرضَ ذُبَّلُهُ خَطَّا

وكلّ جواد خَفَّ سنبكه فما يمسّ الثرى إلَّا مخالسةً فَرْطا[7]

يؤمّ بها الأعداءَ مُلْكُ أمامه مِنَ الرُّعْبِ جيشٌ بُسْرع السيرَ إنْ أبطا

ويرمي جبالَ الفتح مِنْ شطِّ سَبْتَةٍ بها فتوافي سُبَّقًا ذلك الشَّطَّا

بحيث الْتقَى بالخضرِ موسى، وطارقٌ وموسى به رَحْلًا لغزو العدا حطّا

وسَعْيُكَ يُنْسي ذكرَ سَعْيِهما به ويوسعُ سَعْيَ[8] المشركين به حبْطا

(١) اللَّطُّ: القلادة من حب الحنظل. محيط المحيط (لطط).

(٢) الوقيعة: نقرة يستقرّ فيها الماء. الوقط: حوض يستنقع فيه الماء. لسان العرب (وقع) و (وقط).

(٣) لَطَّ: أسدل دونه الحجاب. لسان العرب (لطط).

(٤) في الديوان: «أمره في عصابةٍ..». والنَّشْطُ: اللَّدْغ. لسان العرب (نشط).

(٥) في الديوان: «بالشكر جنّة بابه..». والأَثْلُ: شجر صلب الخشب جيّده يكثر قرب الماء في الأراضي الرملية. الخمط: كل شجر لا شوك له. لسان العرب (أثل) و (خمط).

(٦) القِسْطُ، بكسر القاف وسكون السين: العدل. مختار الصحاح (قسط).

(٧) فَرْطًا: سبقًا وإسراعًا. لسان العرب (فرط).

(٨) في الديوان: «مسعى».

ويـوقـعُ فـي الأعـداء أعـظمَ وَقْعَـةٍ ... بهـا تمـلأ الأسمـاءَ طيرُ المـلا لغـطا
تجـاوبُ سُحْمُ الطيـر فيـه[1] وشُهْبهـا ... كمـا راطَنَ الـزنـجُ النبيطَ أو القبـطا
وتـنـكـرُ فـيـهـا الـجـوَّ والأرضَ أعـينٌ ... تـرى الجـوَّ نـارًا والصعيـدَ دَمًـا عبـطا[2]
فتخضبُ منهـمْ من أشـابتْ بخَـوفِهَـا ... نصـولٌ تـرى منهـا بفَـوْدِ الـدُّجَى وخـطا
ويحسـمُ أدواءَ العـدا كـلُّ صـارمٍ[3] ... حـسـامٍ إذا لاقـى الـطُّلَى حَـدُّهُ قَـطَّا
وكـلُّ كـميٍّ كـلّمـا خَطَّ صـفـحـةً ... بسيفٍ غـدا بـالـرمـح ينقط مـا خَـطَّا
شجـاع إذا التفَّ الرمـاحـان مثـل مـا ... تُقَلْقِـلُ[4] في أسنـان مُشْطٍ يـدٌ مشـطا
إذا مـا رجَـتْ مـنـه أعـاديـه غِـرَّةً ... رأتْ دون مـا تـرجـو القَتـادَةَ والخَـرْطَـا
فـيـجـدعُ آنـافَ الـعُـداة بسيـفـه ... ويُنْشِقُهـا بالـرمـح ريحَ الـردى سمـطا[5]
يـبـيـدُ الأعـادي سـطوةً ومـكـيـدةً ... فَيَحْكي الأسودَ الغُلْبَ والأذؤُبَ المعطا[6]
سَـرَى في طِـلابِ المَعْلُواتِ فـلم يـزلْ ... يمـدُّ يـدًا مبسـوطـةً ونـدى بسـطا[7]
ولـو نـازعتْ يُمْنـاه جـذبًـا شمـالَـهُ ... لبـوسًـا من المـاذيِّ لانـعَـقَّ وانـعـطَّا
يـصـولُ بـخـطيٍّ لـكـلٍّ[8] مـرشَّـةٍ ... بـه أثـرٌ يـعـزوه لـلحـيَّـة الـرَّقْـطَا
قنًـا تبـصـر الأكـام فُـرْعًـا كـواسيًـا ... بـهـنَّ وقـد أبْصِـرْنَ عـاريـةً مُـرْطـا
إذا نُـسـبـتْ لـلخَطِّ أو لـرُدَيـنَـةٍ ... نُسِبْنَ إلى العَـلْيـا رُدَينَـةَ والخَـطَّا
كُـمـاةٌ حُـمـاةٌ مـا يـزال إلى الـوغى ... حنينٌ لهـمْ مـا حَنَّ نِضْـوٌ ومـا أطَّـا[9]
عـليهـمْ نسـيـجُ السـابـغـاتِ كـأنهـا ... جلودٌ عن الحيّـات قـد كُشِـطَتْ كشـطا
إذا لُـمَـعُ لـلشـمس لاحتْ عـليهـمُ ... رأيـتَ صِـلالاً أُلْـبِسـت حُـلَلاً رُقْـطَا

---

(١) في الديوان: «فيها».

(٢) في الديوان: «وتنكر فيها الجنّ.. ترى الجنّ..».

(٣) في المصدر نفسه: «كل ضارب».

(٤) في المصدر نفسه: «تغلغل».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «قسطا».

(٦) في الطبعة نفسها: «الملطا».

(٧) رواية عجز البيت في الديوان هي:

يمـدُّ خـطى مبسـوطـة ويـدًا بسـطا

(٨) في طبعة عبد الحميد: «فكلٌّ».

(٩) أطَّ يئطُ أطيطًا: صَوَّتَ. لسان العرب (أطط).

تَـرَجْـرَجُ كـالـزاروق[1] لـينًـا ومـثـله تـرى نقـطةً من بعـد مـا طـرحتْ خـطّا
جيـوش إذا غـطّى الـبـلادَ عـبـابُـهـا وأمـواجها غَـطَّتْ نفوسَ العـدا غـطّا
فكم قـد حكتْ في حَصْرِ حِصْنٍ ومعقلٍ وشـاحًـا على خصرٍ فـآسَفْنَـهُ[2] ضغـطا
وخَـيـلٍ كـأمـثـال الـنَّـعـام تـخـالـهـا لإفـراطِ لـوكِ اللُّجْم تبغي لها سرطـا[3]
تـخـيَّـلُهـا فُـتْـخًـا إذا ارْتَـفَـعَـتْ[4] وإن سَبَحْـنَ بمـاءٍ خِلْتَهـا خـفّـةً بَـطّا
فـيـنعـقُّ مـنـهـا مَـرْطُ كـلِّ عـجـاجـةٍ مـوازِع[5] لا يـسـأمْنَ مَـرًّا ولا مَـرْطـا
وكم خـالـطتْ سُمْـرَ الـرمـاحِ وأوردتْ ميـاهًـا غَـدَتْ حُمْرُ الـدمـاءِ لهـا خلطا
يجـرّونهـا لـيـلَ الـسُّـرى فـإذا دَعَـوا نَـزَالِ آمْتَطَوْا منهنّ أفضـل مـا يُمْـطى[6]
فكم جنبـوهـا خـلف معتـادة الـسُّـرى عـوارف لم تسمـع لهـا أذنٌ نحـطا [7]
وقـد وسـمـت[8] أعـنـاقـهـن أزمَّـةٌ بـطول السُّـرى حتى تـظنّ لهـا عـلطا
إذا أوقـدتْ نـارًا بِقَـذْف الحصـا حَكَتْ وبَحْرُ الـدُّجَى طـامٍ[9] سفينًـا رَمَتْ نَفْطَا
إمـامَ الـهـدى أَعْلَيْتَ للدِّين مَـعْـلَمًـا وسُمْتَ العـدا مِنْ بـعـد رفعتهـمْ حَـطّا
وألْقَحْتَهُمْ[10] عُقْمَ المنى عـن حِيـالـهـا فمـا ولـدتْ عقمًـا ولا نتـجتْ سـقـطا
وصـيـرتمُ[11] في عقـلةٍ سـارحَ الـعـدا وسـرحْـتُمُ الآمـالَ مـن عُقْلهـا نَشْـطا
ومن كـان يشكـو سطوةَ الـدهرِ قد غدا بِعَـدْلِـكَ لا يُعْـدَى عـليـه ولا يُسْـطَى
ففي كـلِّ حـالٍ تؤثـرُ القسطَ جـاريًـا على سَنَنِ التَّقْـوى وتجتنبُ القسـطا
فبـوركتَ سِبْـطًا جَـدُّه عُمَـرُ الـرضـا وبُـورِكَ من جـدٍّ غَـدَوْتَ لـه سِبْـطا[12]

---

(١) في الديوان: «تدحرج كالزاووق..».

(٢) في الديوان: «فأَوْسَعْنَه ضغطا».

(٣) سَرَطَهُ سَرَطًا: ابتلعه. محيط المحيط (سرط).

(٤) في الديوان: «.. فُتْخًا إذا انبعثت..». والفُتْخُ: العُقاب. لسان العرب (فتخ).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «موادع».

(٦) في طبعة دار صادر وفي الديوان: «يجمّونها ليل السُّرى.. أشرف ما يُمْطى».

(٧) في الديوان: «وكم جنبوها... غوارب لم تعرف زفيرًا ولا نحطا».

(٨) في الديوان: «وقد وسعت..».

(٩) الطامي: الممتلىء؛ يقال: طمى البحر إذا ارتفع. لسان العرب (طما).

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «وألحفتهم».

(١١) في طبعة دار صادر: «وصيرهم».

(١٢) السِّبْطُ: ولد الولد. لسان العرب (سبط).

تلوتَ الإمامَ العدل يحيىٰ فلم تزلْ تزيدُ أمورَ الخلقِ من بعده ضبطا
فزدتُمْ وضوحًا بعده واستقامةً وتوطئةً نهجَ السبيل الذي وَطّا
وما كان أبقى غايةً غير أنه حُبيتَ بما لم يُحْبَ خلقٌ ولم يُعْطا
إذا دُرَرُ[1] الأملاكِ في الفخر نُظِّمَتْ على نَسَقٍ عِقْدًا فدولتُكَ الوسطى

وله أيضًا فيه[2]: [الكامل]

في كل أُفقٍ مِنْ صباحِ دجاكُمُ نورٌ جلا خَيطَ الظلامِ بخيطِهِ
راقتْ محاسنُ مجدكُمْ فَبَهَرْنَ ما كُسِيَتْهُ مِنْ حِبَرِ المديح ورَيطِهِ[3]

وله ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ عدة تآليف، وولد سنة ٦٠٨، وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس، ومِمَّن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري، وذكره في رحلته وأثنى عليه، كما أثنى عليه العبدري في رحلته، فقال: حازم، وما أدراك ما حازم، وقد عَرَّفْتُ به في «أزهار الرياض» مِمّا يُغْني عن الإعادة، وكان هو والحافظ أبو عبد اللّٰه بن الأبار فَرَسَيْ رِهان، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية.

٢١٨ ـ وهو الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن أبي بكر بن عبد اللّٰه بن أبي بكر، القضاعي، الأندلسي، الْبَلَنْسي[4]. كتب ببلنسية عن السيد أبي عبد اللّٰه ابن السيد أبي حفص ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم كتب عن الأمير ابن[5] مردنيش. ولَمّا نازل الطاغية بَلَنْسِية بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حَفْص وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدوّ، فأنشد السلطانَ قصيدته السينية التي مطلعها[6]: [البسيط]

أَدْرِكْ بخيلِكَ خَيلِ اللّٰه أندلُسَا إنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتها دَرَسَا

---

(١) في الديوان: «إذا دولُ الأملاك..».
(٢) البيتان في ديوان حازم القرطاجني (ص ٧٣).
(٣) الرَّيْطُ: جمع رَيْطة وهي المُلاءة. مختار الصحاح (ريط).
(٤) مرَّ التعريف بابن الأبار والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٥٣).
(٥) في طبعة بولاق: «أبي مردنيش».
(٦) البيت في اختصار القدح المعلى (ص ١٩١) وتاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٦٠١) وسيرد في الجزء الرابع من نفح الطيب وفي الجزء السادس ضمن ٦٧ بيتًا.

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع. ثم لَمّا كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشَّحه لكَتْب علامته في صدور مكاتباته، فكتبها مدّة، ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها، فكتبها مدّة بالخطّ المشرقي، وكان آثر عند السلطان من المغربي، فسخط ابن الأبار أنفَةً من إيثار غيره عليه، وآفتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها، فجاهر بالردّ، ووضعها استبدادًا وأنفة، وعوتب على ذلك، فاستشاط غضبًا، ورمى بالقلم، وأنشد متمثّلًا: [الخفيف]

أُطْلُبِ العِزَّ في لَظًى وذَرِ الذُّلْـ ـلَ ولو كان في جِنان الخلودِ[1]

فنُمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليفٍ رفَعه إليه عدّ فيه مَنْ عُوتب من الكُتّاب، وأعتبه، وسماه «إعتاب الكُتّاب» واستشفع فيه بابنه المستنصر، فغفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة، ولَمّا توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبّض عليه، وبُعِث إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألفى أثناءها، فيما زعموا، رقعةً بأبيات أولها: [المجتث]

طَغَى بتونس خَلْفٌ[2] سَمَّوهُ ظُلْمًا خَلِيفَهْ

فاستشاط السلطان لها، وأمر بامتحانه، ثم بقتله، فقُتل قَعْصًا[3] بالرماح وسط محرّم سنة ٦٥٨، ثم أُحْرق شِلْوُه، وسِيقَتْ مجلّدات كتبه وأوراقُ سماعه ودواوينه فأُحْرقت معه، وكان مولده ببَلَنْسية سنة ٥٩٥.

وقال في حقه ابن سعيد في «المغرب» ما ملخَّصُه[4]: حامل راية الإحسان، المشار إليه في هذا الأوان، ومن شعره قوله يصف الياسمين[5]: [مجزوء الوافر]

حديقةُ ياسمينٍ لا تهيمُ بغيرها الحَدَقُ

(١) البيت للمتنبي وهو في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ١٧) وفيه: «فاطْلُبِ العِزَّ..».
(٢) الخَلْفُ، بفتح الخاء وسكون اللام: ذو الشَّرّ. لسان العرب (خلف).
(٣) القَعْصُ: القتل بالرمح بسرعة. لسان العرب (قعص).
(٤) النص النثري غير وارد في المغرب المطبوع.
(٥) الأبيات في المغرب (جـ٢ ص ٣١٠) واختصار القدح المعلى (ص ١٩١).

إذا جَفْنُ الغَمامِ بكى ... تَبَسَّم ثغرُها اليَقَقُ[1]
فأطرافُ[2] الأهِلَّة سا ... ل في أثنائها الشَّفَقُ

وكتب إلى الوزير أبي عبد اللّه بن أبي الحسين بن سعيد يستدعي منه منشورًا[3]: [الطويل]

لك الخيرُ أَتْحِفْني بخيريٍّ روضةٍ ... لأنفاسِهِ عند الهجوم[4] هُبُوبُ
أليس أديبُ الروضِ[5] يجعلُ ليلَه ... نهارًا فيذكو تحته ويَطِيبُ
ويُطْوَى مع الإصباح منشورُ نَشْرِه[6] ... كما بان عن ربع المحبِّ حبيب
أهيمُ به عن نِسْبَةٍ أدبيَّةٍ ... ولا غَرْوَ أن يهوَى الأديبَ أديبُ

وقوله في الخسوف[7]: [المتقارب]

نَظَرْتُ إلى البدر عند الخسوفِ[8] ... وقد شِينَ مَنْظَرُهُ الأَزْيَنُ
كما سَفَرَتْ صفحةٌ للحبيـ ... ـب يَحْجُبُها[9] بُرْقُعٌ أَدْكَنُ

وقوله في المعنى[10]: [الوافر]

ألم تَرَ للخُسُوفِ وكيف أَبْدَى[11] ... ببدرِ التِّمِّ لَمَّاعَ الضياءِ
كمرآةٍ جَلاَها القَينُ[12] حتى ... أنارتْ ثم رُدَّتْ في غِشاءِ

---

(1) اليَقَقُ، بالفتح: الشديد البياض. مختار الصحاح (يقق).
(2) في المغرب واختصار القدح: «كأطراف».
(3) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ٣١٠). وفي اختصار القدح (ص ١٩٢) عدا البيت الأخير.
(4) في المصدرين السابقين: «عند الهُجُوْعِ . . .».
(5) في المصدرين السابقين: «أديب النَّوْرِ. . .».
(6) في المغرب: «منثور نشره».
(7) البيتان في المغرب واختصار القدح.
(8) في اختصار القدح: «عند الكسوف».
(9) في المغرب: «فَحَجَّبَها».
(10) البيتان في المغرب واختصار القدح.
(11) رواية صدر البيت في المصدرين السابقين هي:
عجبتُ من الخسوف وكيف أودى
(12) في المغرب: «جلاها الصَّقْلُ». وفي اختصار القدح: «جلاها العقلُ».

وقــولــه: [الخفيف]

والثُّرَيَّـا بجـانـبِ البَـدْرِ تَحْكي ‏ ‏ راحــةً أومــأتْ لــتـلطمَ خَــدًّا

وقــولــه[1]: [الكامل]

مَنْ عــاذري مِنْ بــابليّ طَــرْفُــهُ ‏ ‏ ولَعَمْــرُهُ مـا حــلَّ يــومًــا بــابِــلا
أعْتــدُّهُ خُــوطًــا لِعَيشِــيَ نــاعمًــا ‏ ‏ فيعــودُ خَــطِّيًّــا لـقتـلـيَ ذابــلا[2]

وهو حافظ مُتْقن، له في الحديث والأدب تصانيف، وله كتاب في متخير الأشعار سمّاه «قـطع الـريــاض» و«تكملة الصِّلة» لابن بَشْكُـوال، و«هــدايــة المعتسف[3]، في المؤتلف والمختلف» وكتاب التاريخ، وبسببه قتله صاحبُ إفريقية، وأُحْرقت كتبه على ما بلغنا، رحمه اللّه تعالى! وله «تحفة القادم في شعر[4] الأندلس» و«الحلة السِّيَراء، في أشعار الأمراء».

ومن شعره قوله: [مجزوء الكامل]

أمــري عـجـيـبٌ فـي الأمــورِ ‏ ‏ بــيـن الــتــواري والـظهــورِ
مُـسْـتَـعْـمَـلٌ عـنــد الـمـغـيــ ‏ ‏ ـب ومُهْمَــلٌ عنــد الحـضــورِ

وسبب هـذا أن ملك تونس كـان إذا أشكـل عليـه شيء أو وَرَدَ عليه لغزٌ أو مُعَمًّى أو مترجم بعث به إليه، فيحلّه، وإذا حضر عنده لا يكلّمه ولا يلتفت إليه، ووجد في تعاليقه مـا يَشِينُ دولَـة صاحب تـونس، فأمـر بضربـه، فضُرب حتى مـات، وأُحرقت كتبـه، رحمـه اللّه تعـالى! وكان أعـداؤه يلقّبـونـه بـالفـار، وحصلت بينـه وبين أبي الحسن علي بن شلبـون[5] المَعَافري البَلَنْسي مُهاجاةٌ، فقال فيه[6]: [الكامل]

---

(١) البيتان في المغرب (ص ٣١٢) واختصار القدح (ص ١٩٣).

(٢) الخُوْطُ: الغصن الناعم. الخَطِّيُّ: الرمح المنسوب إلى الخطّ وهو موضع باليمامة. لسان العرب (خـوط) و (خطط).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «المعترف».

(٤) في طبعة دار صادر: «شعراء».

(٥) تـرجمة علي بن شلبـون المعافـري البلنسي في الذيـل والتكملة (جـ ٥ ص ٢٧٤) والمقتضب من كتـاب تحفة القادم (ص ٢٠٣).

(٦) البيتان في الذيل والتكملة (ص ٢٧٤).

لا تَعْجَبُوا لِمَضَرَّةٍ نالتْ جميـ ـع الناسِ[1] صادرةٍ عن الأَبّارِ
أَوَ لَيْسَ فارًا خِلْقَةً وخَليقةً؟ والفارُ مجبولٌ على الإضرارِ

فأجابه ابن الأبار[2]: [الكامل]

قل لابن شَلْبون مقالَ تَنَزُّهٍ غيري يُجاريكَ الهجاءَ فَجَارِ
(إنا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بيننا فحملْتُ بَرَّةَ واحتملْتَ فَجَارِ)[3]

وهذا مضمَّنٌ من شعر النابغة الذبياني، انتهى ما لخَّصْناه من كلام ابن سعيد في حقِّه.

ومن شعر ابن الأبار أيضًا: [الكامل]

لو عَنَّ لي عونٌ من المقدارِ لَهَجَرْتُ للدارِ الكريمةِ داري
وحللتُ أطيبَ طيبة من طَيْبَةٍ جارًا لمن أوصى بحفظِ الجار
حيث استبانَ الحقُّ للأبصار لَمَّا استثار حفائظَ[4] الأنصار
يا زائرين القَبْرَ قبرَ محمدٍ بشْرَى لكمْ بالسَّبْقِ في الزوَّار
أوضَعْتمُ لنجاتكمْ فوضعتُمُ ما آدكمْ[5] من فادحِ الأوزار
فوزُوا بسبقكُمُ وفوهوا بالذي حُمِّلْتُمُ شوقًا إلى المختارِ
أدُّوا السلامَ سلمْتُمُ وبِردِّهِ أرجو الإجارةَ من ورودِ النارِ

اللهمّ أجرْنا منها يا رحيم يا رحمٰن يا كريم!.

ولنختم ترجمته بقوله: [الوافر]

رجوتُ اللّه في اللأْواءِ[6] لَمَّا بلوتُ الناسَ مِنْ ساهٍ ولاهي
فمن يكُ سائلاً عني فإني غنيت بالافتقار إلى إلٰهي

---

(١) في الذيل والتكملة: «لمضرّةٍ عَمَّتْ جميع الخلق..».
(٢) البيتان في الذيل والتكملة (ص ٢٧٤).
(٣) هذا البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه (ص ١٢٠).
(٤) الحفائظ: جمع حفيظة وهي الغضب. لسان العرب (حفظ).
(٥) آده: ثقل عليه وأتعبه. لسان العرب (أدا).
(٦) اللأواء: الشِّدّة. مختار الصحاح (لأي).

وقد جوّدْتُ ترجمته في «أزهار الرياض، في أخبار عياض» فليراجع ذلك فيه من شاء.

رجعٌ إلى ما كُنّا فيه من ذكر المرتحلين من الأندلس إلى المشرق:

٢١٩ ـ ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مُسدي[١].

وهو أبو بكر محمد، ويقال: أبو المكارم، ابن أبي أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مُسَدِّي، المهلبي، الأزدي، الأندلسي.

شيخ السّنّة، وحامل راياتها، وفريد الفنون، ومحكم آياتها، عرف الأحاديث، وميّز بين شهرتها وغرابتها، وكان المتلقّي لراية السّنّة بيمين عَرَابتها، طلع بمغربه شمسًا قبل بزوغه بأفق المشرق، وملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفّق، وأفعمها بنورهِ الْمُشْرِق، وطاف البلاد الإسلامية، المغربية والمشرقية، فعُقِدَت على كماله الْخَنَاصر، وجعله أربابُ الدراية لمقلة الدين الباصِرَ، ولقي أعيان الشيوخ في القُطْرين، وأخذ عنهم ما تقرُّ به العين، ويدفع به عن القلب الرَّيْن[٢]، مع فصاحة لسان، وطلاقة بيان وبنان، وخلال حِسان، وبلاغة سحبته على سَحْبان، وظهر أزهار بان، وفُوّضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال: [الكامل]

هذا السِّوار لمثل هذا المعصمِ

فكم وَشّى بها من مَطَارفَ للبلاغة وكم عَنَّم، حتى يظنّ الرائي عودَ منبره من وعظه مائسًا، ولئن مال من سجع الحمام رطبًا فقد مال من سجع هذا الإمام يابسًا، وترجم على من لقي من الأعيان بسحر البيان، وفَصَّل أحوالَهم بأحسن تبيان، وعدَّتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل في أرسان، وأرى تحقيق قول القائل: جمع اللّه تعالى العالم في إنسان، وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر، وله مُسْنَد غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدّمين والمتأخرين[٣]، وهو أشهر من نارٍ على عَلَم، وكان يكتب بالقلمين المغربي والمشرقي، وكلاهما في غاية الجودة، ومثل هذا يُعَدُّ نادرًا، توفي شهيدًا مطعونًا من أناس كانوا يحسدونه، فختم اللّه تعالى له بالشهادة، وبُوِّىء بها دار السعادة، وتوفي سنة ٦٦٣ بمكّة، ومولده سنة ٥٩٨، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه ونفعنا بأمثاله!

---

(١) مرّ التعريف بابن مُسدي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني

(٢) الرَّيْنُ: الدَّنس. مختار الصحاح (رين).

(٣) في طبعة ليدن: «المتقدمين والمتقدمين...».

٢٢٠ - ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القَبْتَورِي[١] - بفتح القاف، وسكون الباء الموحدة، وفتح التاء ثالثة الحروف، وسكون الواو، وبعدها راء - الإشبيلي المولد والمنشأ.

ولد في شوال سنة ٦١٥، وقرأ على الأستاذ الدباج كتابَ سيبويه والسبع، وله باع مَديد في الترسُّل مع التقوى والخير، وله إجازة من الرضي بن برهان والنجيب بن الصيقل، وكتب لأمير سِبْتَة، وحدّث بتونس عن الغرافي[٢]، وجاور زمانًا، وتوفي بالمدينة سنة ٧٠٤، وحجَّ مرتين. قال أبو حيان: قدم القاهرة مرّتين، وحَجَّ في الأولى، وأنشدني من لفظه لنفسه: [الوافر]

أسِيلي الدمعَ يا عيني ولكن ... دمًا، ويقلُّ ذلك لي، أسيلي
فكم في التُّرْبِ من طرفٍ كحيل ... لِتِرْبٍ[٣] لي ومن خَدٍّ أسِيلِ

وقال: [البسيط]

ماذا جَنَيتُ على نَفْسي بما كتبتْ ... كَفِّي، فيا وَيحَ نفسي من أذَى كَفِّي
ولو يشاء الذي أجرى عليَّ بذا ... قضاءه الكفَّ عنه كنت ذا كفِّ

وقال[٤]: [البسيط]

واحَسْرَتا لأمورٍ ليس يبلغها ... مالي وهُنَّ مُنَى نفسي وآمالي
أصبحْتُ كالآل لا جَدْوَى لديَّ وما ... ألَوْتُ جَهدًا ولكن جَدِّيَ الآلي[٥]

وقال العلامة فتح الدين ابن سيد الناس: إنه أنشده لنفسه بالحرم الشريف النبوي سنة ثلاث وسبعمائة[٦]: [الطويل]

رَجَوتُكَ يا رحمنُ إنك خيرُ مَنْ ... رجاهُ لِغُفْرانِ الجرائمِ مُرْتَجِي

---

(١) ترجمة خلف بن عبد العزيز القَبْتَوْري في بغية الوعاة (ص ٢٤٢) وفيه: «القبثوري».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «العراقي».
(٣) التِّرْبُ: ما كان مماثلًا لآخر في السِّنِّ، جمعه أتراب. لسان العرب (ترب).
(٤) سيرد هذان البيتان في الجزء الخامس وفيه: «آليتُ جدًا» بدل «ألوت جهدًا».
(٥) ألوت جهدًا: قصَّرت. جَدِّي الآلي: حظي المقصِّر. لسان العرب (ألا) و(جدد).
(٦) البيتان في بغية الوعاة (ص ٢٤٣).

فَرَحْمَتُكَ العُـظْمى التي ليس بابُهـا وحاشاكَ في وجه المسيءِ بمُرْتَجِ [١]

وقد أنشد له أبو حيان كثيرًا من نظمه، رحمه اللّٰه تعالى!.

٢٢١ ـ ومنهم أبـو العبـاس أحمـد بن محمـد بن مفـرج بن أبي الخليـل، الأمـوي، الإشبيلي، النباتي، المعروف بابن الرومية[٢].

كان عارفًا بالعُشْب والنبات، صنَّف كتابًا حسنًا كثير الفائـدة في الحشائش، ورتَّب فيـه أسماءها على حروف المعجم، ورحل إلى البلاد، ودخل حلب، وسمـع الحديث بـالأندلس وغيرها.

وقال البرزالي في حقِّه: إنه كان يعرف الحشائش معرفة جيِّدة، وسمع الحديث بدمشق من ابن الْحَـرَسْتاني، وابن مـلاعب، وابن العطّار، وغيـرهم. وقـال بعضهم: اجتمعْتُ بـه، وتفاوضْتُ معه في ذكر الحشائش، فقلت له: قصب الذريرة قد ذُكر في كتب الطب، وذكروا أنه يستعمل منه شيء كثير، وهذا يدلّ على أنه كان موجودًا كثيرًا، وأما الآن فـلا يوجـد، ولا يخبر عنه بخبر[٣]، فقال: هو موجـود، وإنما لا يعلمـون أين يطلبـونه، فقلت لـه: وأين هو؟ فقال: بالأهواز منه شيء كثير، انتهى.

وأجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد اللّٰه بسَبتَة فلم يتهيّأ لـه ذلك، وحـجّ ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ في رحلته الأولى، ولقي كثيرًا، وروى عن عدد من الرجال[٤] والنسـاء ضمّنهم التـذكرة لـه، وله مختصـر كتاب «الكـامل» لأحمـد بن عدي في رجـال الحديث، ولـه كتاب «المعلم، بما زاده البخاري على كتاب مسلم». ويُعْرف بالنباتي لمعرفته بالنبات، ومولده في نحو سنة ٥٦١، وتوفي، رحمه اللّٰه تعالى، بإشبيلية مُنْسَلخ ربيع الثاني سنة ٦٣٧، وقـد رثاه أناس من تلامـذته، وألّف بعضهم في التعـريف به، وسمـع من ابن زرقون وابن الجـدّ وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الحبشي، وسمع ببغداد من جماعة، وحدّث بمصر أحـاديث[٥] من

(١) المُرْتَجُ: المُغْلَقُ؛ يقال: أَرْتَجَ البابَ إذا أغلقه. مختار الصحاح (رتج).

(٢) ترجمة أحمد بن محمد ابن الرومية في التكملة (ص ١٢١) واختصار القدح المعلى (ص ١٨١) والإحاطة (جـ ١ ص ٢٠٧).

(٣) في طبعة دار صادر: «عنه مخبر».

(٤) في الطبعة نفسها: «من رجال ونساء..».

(٥) في طبعة دار صادر: «الأحاديث».

حفظه، ويقال له «الحَزْمي» بفتح الحاء - نسبة إلى مذهب ابن حَزْم؛ لأنه كان ظاهريّ المذهب، وكان زاهدًا صالحًا، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالسًا في دكانه بإشْبِيلِيَة يبيع الحشائش وينسخ، فاجتاز به الأمير أبو عبد اللَّه بن هُودٍ سلطان الأندلس، فسلّم عليه، فردّ عليه السلام، واشتغل بنسخه، ولم يرفع إليه رأسه، فبقي واقفًا منتظرًا أن يرفع إليه رأسه ساعة طويلة، فلمّا لم يحفلْ به ساق فرسه ومضى، وله كتابان حسنان في علم الحديث: أحدهما يقال له «الحافل، في تكملة الكامل» لابن عَدِيّ[1] وهو كتاب كبير. قال ابن الأبار: سمعْتُ شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثني عليه ويستحسنه، والثاني اختصر فيه الكامل لأبي أحمد بن عدي كما سبق في مجلّدين، وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وأبي الفتح بن البطي وأبي عبد اللَّه الغراوي وغيرهم من الأئمة، وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق، وكان متعصّبًا لابن حَزْم بعد أن تفقّه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين، وطالت صحبته له، وكان بصيرًا بالحديث ورجاله، كثير العناية به، واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك، وغيره أضبط منه، وفاق أهل زمانه في معرفة النبات، وقعد في دكان لبيعه، قال ابن الأبار: وهنالك رأيته ولقيته غير مرّة، ولم آخذ عنه، ولم أستجزْه، وسمع منه جُلُّ أصحابنا، ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧[2]، وتوفي بإشبيلية ليلة الاثنين مستهلَّ ربيع الآخر سنة ٦٣٧، وقال ابن زرقون: منسلخ شهر ربيع الأوّل، وحكى ذلك عن ولده أبي النور محمد بن أحمد، انتهى.

٢٢٢ - ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام، الغافقي، الإشبيلي، الشهير بالمسيلي[3].

رحل حاجًّا، وقفل إلى بلده، وحدّث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب، وروى عن أبي محمد بن أبي السعادات المروروذي الخراساني، وأنه أنشده بثغر الإسكندرية عند وَدَاعه إيّاه، قال: أنشدني أبو تراب جندل[4] عند الوداع لبعضهم: [مخلع البسيط]

---

(١) هو أبو أحمد عبد اللَّه بن عَديّ بن عبد اللَّه الجرجاني؛ علاّمة بالحديث، من مؤلفاته «الكامل في معرفة الضعفاء والمتروكين من الرواة». توفي سنة ٣٦٥ هـ. الأعلام (جـ ٤ ص ١٠٣ ومصادر حاشيته).

(٢) في التكملة: «سنة إحدى وستين وخمسمائة».

(٣) ترجمة أحمد بن عبد السلام المسيلي في التكملة (ص ٦٠).

(٤) في التكملة: «ابن جندل».

السُّمُّ مِنْ أَلْسُنِ الأفاعي　　أعذبُ من قُبْلَةِ الوَداعِ
وَدَّعتهمْ والدموعُ تجري　　لَمّا دعا للوَداع داعي

٢٢٣ - ومنهم أبو العباس - ويقال: أبو جعفر - أحمد بن معدّ بن عيسى بن وكيل، التجيبي، الزاهد، ويُعْرف بابن الأُقليشي(١).

صاحب كتاب «النجم، من كلام سيد العرب والعجم»، ﷺ، عارض كتاب(٢) القضاعي، وأصل أبيه من أُقليش، وضبطها بعضهم بضم الهمزة، وسكن دانِيَة، وبها ولد ونشأ، سمع أباه أبا بكر(٣) وأبا العباس بن عيسى، وتَلْمذ له، ورحل إلى بَلَنْسِية فأخذ العربية والآداب عن أبي محمد البَطَلْيَوسي، وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبي بكر بن العربي وأبوي(٤) الوليد: ابن خيرة وابن الدباغ، ولقي بألمَرِيّة أبا القاسم بن ورد وأبا محمد عبد الحق بن عطية ووليّ اللّه سيدي أبا العباس بن العريف، ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وجاور بمكة سنين، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامعَ الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ثم كَرَّ راجعًا إلى الغرب، فقُبِضَ في طريقه، وحدّث بالأندلس والمشرق، وكان عالمًا، عاملاً، متصوّفًا، شاعرًا مجوّدًا، مع التقدّم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها، والإقبال على العلم والعبادة، وله تصانيف: منها كتاب «الغُرَر، من كلام سيّد البشر»، وكتاب «ضياء الأولياء» وهو أسفار عدّة، وحمل الناس عنه مُعَشَّراته في الزهد، وكتبها الناس، وكان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارىء فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه، وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله، وقد وصف غير واحد إمامته وعلمه ووَرَعه وزهده، وروى عنه أبو الحسن(٥) بن كوثر وابن بيبش وغيرهما.

ومن شعره قوله(٦): [الطويل]

أسيرُ الخطايا عند بابكَ واقفُ　　له عن طريق الحقِّ قلبٌ مخالفُ

---

(١) ترجمة أحمد بن معد ابن الأقليشي في التكملة (ص ٦٠) وأخبار وتراجم أندلسية (ص ٢٤) ومعجم البلدان (جـ ١ ص ٢٣٧، مادة أقليش).

(٢) في طبعة دار صادر: «شهاب القضاعي».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وأبا بكر».

(٤) في الطبعة نفسها: «وأبي».

(٥) في طبعة دار صادر: «أبو الحسين».

(٦) الأبيات في التكملة (ص ٦١).

قـديمًـا عَصَـى عمـدًا وجهـلاً وغِـرَّةً ... ولـم ينـهـه قلبٌ مـن اللّه خـائـفُ
تـزيـدُ سِـنُـوهُ وهـو يـزدادُ ضـلّةً ... فهـا هـو في ليـل الضـلالـةِ عـاكـف
تَـطَلَّعَ صبـح الشَّـيبِ والـقـلبُ مـظلم ... فمـا طـاف منـه من سَنَى الحقِّ طـائف
ثـلاثـون عـامًـا قـد تـولَّتْ كـأنهـا ... حـلومٌ تَـقَـضَّـتْ أو بـروق خـواطـف
وجـاء الـمشيب الـمنـذر الـمـرءَ أنـه ... إذا رحـلتْ عـنـه الـشـبـيـبـةُ تـالـف
فيـا أحمـد الخـوَّان قـد أدبـر الصِّبـا ... ونـاداك مِـنْ سِـنِّ الـكـهـولـة هـاتـف
فهـل أرّق الـطرفَ الـزمـانُ الـذي مضى ... وأبـكـاهُ ذَنْـبٌ قـد تَـقَـدَّمَ سـالـف
فَجُـدْ بـالـدمـوع الحمـر حزنًـا وحسرةً ... فـدمـعـك يُـنْـبـي أنَّ قـلبـكَ آسـف

وقد وافق في أول هذه القطعة قول أبي الوليد بن الفَرَضي، أو أخـذه منه نقـلاً، وتوفي في صـدوره[1] عن المشرق بمـدينة قُـوصَ من صعيد مصـر في عشر الخمسين وخمسمـائة، ودفن عند الجميزة التي في المقبرة التاليـة لسوق العـرب، وقال ابنُ عيـاد[2]: إنه تـوفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين بعدها ـ رحمه اللّه تعالى! ـ وقد نيّف عن الستين.

٢٢٤ ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر، المعافري، الْمُرْسي[3].

وأصله من طلْبِيرَة، ويُعْرف بـابن إفرنـد[4]، روى عن أبي الحسين الصفدي[5] وغيـره كالقاضي الحافظ أبي بكر بن العربي وأبي محمد الرشاطي وأبي إسحٰق بن حبيش وغيـرهم، وله رحلة حَجٌ فيها، ولقي أبا الفتح بن الرندانقاني ـ بلدٍ بين سَرْخَس ومَرْو ـ من أصحاب أبي حامد الغزالي، وأنشد عنه مِمّا قاله في وداع إخوانه بالبيت المقدس: [الطويل]

لئـن كـان لـي مِـنْ بَـعْـدُ عَـوْدٌ إلـيكُـمُ ... قـضـيـتُ لُـبَـانَـاتِ الـفـؤادِ لـديـكُـمُ
وإن تَـكُـنِ الأخـرى ولـم تَـكُ أَوبَـةٌ ... وحـانَ حِـمَـامـي فـالـسـلامُ عـليكُـمُ

وقـد روى هذين البيتين أبـو عمر بن عيـاد[6] وابنه محمـد عن ابن إفرنـد هذا، وكـان صالحًا زاهدًا متصوّفًا، رحمه اللّه تعالى!.

(١) في طبعة دار صادر: «صَدَرِهِ».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «عباد».
(٣) ترجمة أحمد بن عمر المعافري المرسي في التكملة (ص ٧٢).
(٤) في التكملة: «إفرندو».
(٥) في التكملة: «روى عن أبي علي بن سكرة وهذا هو الصفدي».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «عباد».

٢٢٥ ـ ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيىٰ، الضبي[١].

من أهل لُورَقَة، رحل حاجًا، وكان منقبضًا زاهدًا صوامًا قوامًا، وأقرأ القرآن، وأسمع الحديث، ومِمَّن حدّث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد بن حَوْط اللَّه، ولقيه أبو سليمان[٢] بلورقة سنة ٥٧٥، وتوفي رحمه اللَّه تعالى سنة ٥٧٧، وقد قارب المائة.

٢٢٦ ـ ومنهم أبو عمر بن عات، وهو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي[٣].

من أهل شاطبة، سمع أباه وأبا الحسن بن هذيل، وأبا عبد اللَّه بن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة، ورحل إلى المشرق فأدّى الفريضة، وسمع أبا الطاهر السِّلَفي وأبا الطاهر بن عوف وغيرهما مِمَّن يطول ذكره، وأجاز له أبو الفرج بن الجوزي وغيره مِمَّنْ أخذ عنه وسمع منه، وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة صالحة من مَرْوِياته عنهم برنامجيه اللذين سمّى أحدهما بـ «النزهة، في التعريف بشيوخ الوجهة» وهو كتاب حافل[٤] جامع، والآخر بـ «ريحانة النفس[٥] وراحة الأنفس، في ذكر شيوخ الأندلس». قال ابن عبد الملك المراكشي في الصلة[٦]: حدّثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن علي بن القطان، وكان من أكابر المحدّثين، وجلّة[٧] الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة، يسرد الأسانيد والمتون ظاهرًا فلا يخلّ بحفظ شيء منها[٨]، متوسّط الطبقة في حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل، إذ لم يُعْنَ بذلك عنايته بغيره، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوي عمر: ابن عبد البر وابن عات، وكان على سَنَن السلف الصالح في الانقباض، ونزارة الكلام، ومتانة الدين، وأكل الحشف[٩]، ولزوم التقشّف[١٠]، والتقلّل من الدنيا، والزهد فيها، والمثابرة

(١) ترجمة أحمد بن عبد الملك الضبي في التكملة (ص ٧٩). والمقري هنا ينقل عن التكملة.

(٢) أي أبو سليمان بن حوط اللَّه.

(٣) ترجمة أحمد بن هارون بن عات في التكملة (ص ١٠١) والذيل والتكملة (جـ ١ ص ٥٥٦).

(٤) في الذيل والتكملة (ص ٥٥٩): «حفيل».

(٥) في طبعة دار صادر: «التنفس» وهكذا سمّاه السيوطي في مقدمة كتابه: بغية الوعاة (ص ٢).

(٦) الصواب: في الذيل والتكملة، والقول في المصدر المذكور (ص ٥٦٠).

(٧) في طبعة ليدن: «وجملة الحفاظ». وفي الذيل والتكملة: «الجلّة الحفّاظ..» بدون واو العطف.

(٨) في الذيل والتكملة: «منها، عدلاً ثقةً مأمونًا مرضيًا، متوسّط الطبقة..».

(٩) في المصدر نفسه: «الجَشْب». والجَشْبُ هو غليظ الطعام. والحَشَف: التمر الرديء. محيط المحيط (جشب) و (حشف).

(١٠) في المصدر نفسه: «ولباس الخشن ولزوم التقشف».

على كثير من أفعال البِرّ كالأذان والإمامة وبذل المعروف والتوسّع بالصدقات على الضعفاء والمساكين.

وحكي[1] أنه حضر في جماعة من طلبة العلم لسماع السِّيَر على بعض شيوخهم، فغاب الكتاب أو القارىء بكتابه، فقال أبو عمر: أنا أقرأ لكم، فقرأ لهم من حفظه، وقال أبو عمر عامر بن نذير: لازمته مدة ستة أشهر، فلم أرَ أحفظ منه، وحضرت إسماع الموطأ وصحيح البخاري منه، فكان يقرأ من كلٍّ واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضًا بلفظه كلّ يوم عقب صلاة الصبح، لا يتوقّف في شيء من ذلك، انتهى.

وقال بعض المؤرخين[2]: إنه كان آخر [3] الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهرًا لا يخلّ بحفظ شيء منها، موصوفًا بالدراية والرواية، غالبًا عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يلبس الْخَشِنَ، ويأكل الحَشَف [4]، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالّة على سَعَة حفظه، مع حظّ من النظم والنثر، وشهد وقعة العقاب [5] التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها، وكانت السبب الأقوى في تَحَيُّفِ الروم[6] بلادَهَا حتى استولت عليها، ففقد حينئذ ولم يوجد حيًّا ولا ميتًا، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة، ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، قاله ابن الأبار: وهو مِمَّنْ أجاز له المذكور فيما رواه أو ألّفه، رحمه اللّه تعالى!.

٢٢٧ ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حَنون، البهراني[7].

من ساكني إشبيلية، وأصله من لَبْلَة، روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن

---

(١) النص في الذيل والتكملة (ص ٥٦٠)، والنقل عن السقطي.
(٢) النص لابن الأبار في التكملة.
(٣) في التكملة: «أحد».
(٤) في المصدر نفسه: «الجشب».
(٥) في طبعة دار صادر: «وقيعة». وكانت وقيعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ بين المسلمين والفرنج، هُزم فيها المسلمون شرَّ هزيمة. وسيتحدث المقري عن هذه المعركة في الجزء السادس.
(٦) تَحَيُّفُ الرومِ بلادها: أي انتقاصهم إيّاها بلدًا بعد بلد بالاستيلاء عليها. لسان العرب (حيف).
(٧) ترجمة أحمد بن تميم ابن حنون في التكملة (ص ١١٢). وسيتحدث عنه المقري في الجزء الرابع.

طبرزد، وبخراسان من المؤيد الطوسي، وبهَرَاةَ من أبي روح عبد المعز، وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني، ومن جماعة غير هؤلاء، وسمع أيضًا بدمشق من أبي الفضل الْحَرَسْتاني وسواه، وبها توفي قبل العشرين وستمائة، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة، وقال غيره: إنه مات سنة خمس وعشرين وستمائة.

٢٢٨ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد، المخزومي[١].

من أهل قُرْطُبة، ويعرف أبوه بكوزان[٢]، روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده، ورحل حاجًّا فلقي بالإسكندرية أبا الحسن بن المقدسي وسمع منه، وأنشد من لفظه بعض أصحاب ابن الأبار[٣]، قال: أنشدني شرف الدين أبو الحسن علي بن الفضل[٤] المقدسي، قال: أنشدتني تقية[٥] بنت غيث بن علي الأرمنازي لنفسها: [السريع]

لا خَيرَ في الخمر، على أنها ... مذكورةٌ في صفة الجَنَّهْ
لأنها إنْ خامرتْ عاقلاً ... خامَرَهُ في عَقْلِهِ جِنَّهْ
يخاف أن تقذفه من عَلٍ[٦] ... فلا تقي مُهْجَتَهُ جُنَّهْ

٢٢٩ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش، الكناني، المُرْسِي[٧].

سمع من ابن بَشْكُوال موطأ مالك رواية يحيىٰ بن يحيىٰ والقعنبي وابن بكير بقراءة محمد بن حَوط الله، ورحل إلى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة، فحجّ سنة ثمانين بعدها، وأقام بالحجاز والشام مدّة، ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه، ومِمّا أفاد وزاد في قول الحريري: [المتقارب]

إذا ما حويت جنى نخلة

---

(١) ترجمة أحمد بن إبراهيم المخزومي في التكملة (ص ١١٢).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «بكوران». وفي التكملة: «بكوزاز».
(٣) في طبعة بولاق: «أصحاب الآثار».
(٤) في طبعة دار صادر: «المفضل».
(٥) في طبعة ليدن: «بقية».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «عُلاً».
(٧) ترجمة أحمد بن محمد بن عياش في التكملة (ص ١١٨).

الأبيات ـ قوله: [المتقارب]

ولا تَأْسَفَنَّ على خارجٍ إذا ما لَمَحْتَ سنى الداخلِ
ولا تكثر الصمت في معشر وإنْ زدت عِيًّا على باقِلِ[1]

وسمع من أبي القاسم ابن عساكر السنن للبيهقي، ومن أبي حفص الميانشي جامع الترمذي، وقفل إلى الأندلس في سنة سبع وتسعين، وحدّث بيسير، وكان يحسن عبارة الرؤيا، وكُفَّ بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها، وتوفي على إثر ذلك، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، رحمه اللّٰه تعالى!

٢٣٠ ـ ومنهم أبو إسحٰق إبراهيم بن عبد اللّٰه بن حصن بن أحمد بن حَزْم، الغافقي، ويقال فيه: إبراهيم بن حصن بن عبد اللّٰه بن حصن[2].

أندلسي، سكن دمشق، وولي الحِسْبَةَ بها، ويكنى أبا إسحٰق، سمع ببغداد من أبي بكر بن مالك القطيعي وطبقته، وبدمشق من عبد الوهاب الكلابي ويوسف بن القاسم الميانجي، وبمصر من أبي طاهر الذُّهْلي[3] وأبي أحمد الغطريفي، وله أيضًا سماع بالرملة وأطرابلس والدينور وغيرها من البلدان، وحدَّث بيسير؛ روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن عبد اللّٰه الجبّان[4] من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكناني، وكان مالكيًا، وقيل: إنه يذهب إلى الاعتزال، وكان صارمًا في الحِسْبَة، ووليها سنة خمس وتسعين وثلثمائة في أيام الحاكم العُبَيدي، وتوفي بدمشق في ذي الحجّة سنة أربع وأربعمائة، قيل: ثاني عيد الأضحى، وقيل غير ذلك، ذكره ابن عساكر، رحمه اللّٰه تعالى!.

قلت: ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا، ولعلّه كان مالكيًا بالمغرب، فلمّا دخل في خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال، فاللّٰه تعالى أعلم.

٢٣١ ـ ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد، الغافقي[5].

---

(١) باقل: مضرب المثل في العِيّ والفهاهة؛ قيل: كان بيده غزال فسئل بكم اشتراه، فتركه وفتح أصابع يديه ومدَّ لسانه، مشيرًا إلى العدد ١١، فهرب الغزال. محيط المحيط (بقل).
(٢) ترجمة إبراهيم بن عبد اللّٰه بن حصن في التكملة (ص ١٣٣).
(٣) في التكملة: «الذهبي».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «الجياني».
(٥) ترجمة إبراهيم بن منبه الغافقي في التكملة (ص ١٤٩).

من أهل ألمَرية، ونزل مُرْسِيَة، سمع ببلده من ابن شفيع، وأخذ عنه القراءات، ومن الحافظ ابن سُكرة وابن زغيبة[1] وعبد القادر بن الحناط، وبقُرْطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبي بحر الأسدي وابن مغيث وغيرهم، ورحل حاجًا، فسمع بمكّة من أبي عليّ بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وعشرين، وسمع أيضًا من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي، وقَفَل إلى بلده، وانتقل بعد الحادثة عليه إلى مُرْسِية، وولي القضاء والخُطْبة هنالك، وحَدَّث، وأُخِذَ عنه، وكان فقيهًا مُشَاوَرًا، وقيل: إنَّ ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية، وأسمع صحيح البخاري آخر ذي[2] الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وكان يحدِّث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية، وحكى رحمه اللَّه تعالى عن أبي ذرٍّ الهروي أنه قال عند موته: عليكم بكريمة فإنها تحمل كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم، رحم اللَّه تعالى الجميع!

٢٣٢ - ٢٣٣ - ومنهم أبو القاسم بن فورتش، وهو إسماعيل بن يحيىٰ بن عبد الرحمن، السَّرَقُسْطِي[3]، وأخوه القاضي محمد بن يحيىٰ، وكانا جميعًا زاهدين، لهما رحلة سمعا فيها من أبي ذر الهروي بمكة، وعادا إلى بلدهما، وولي محمد منهما القضاء، وقد لقيهما القاضي الحافظ أبو علي بن سُكّرة ولم يسمع منهما، ويرويان عن أبي عمر الطلمنكي وأبي الحزم بن أبي درهم[4]، وتوفي أبو القاسم في نحو الخمسمائة.

٢٣٤ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر، القُرَشي، العلوي، الإشبيلي[5].

رحل حاجًا، ودخل العراق والموصل، وقيّد الكثير ورواه، وسمع من أبي حَفْص المَيَانشي بمكة سنة ٥٧٠، وحدّث بالموطإ عن أبي الحسن علي بن هابيل الأنصاري عن أبي الوليد الباجي، وحدّث أيضًا عن غيره بما دلّ على أنه كان يخلط ولا يضبط، وكذلك قال أبو الصبر: كان له في الموطإ إسناد عالٍ جدًا، فتصفَّحْتُه فوجدْتُه ينقص منه رجل واحد، فاستربت في الرواية عنه بعد تحسين الظنّ به، ولم يتنبّه أبو الصبر؛ لأنَّ ابن هابيل

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «رغيبة».

(٢) كلمة «ذي» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٣) ترجمة إسماعيل بن يحيىٰ بن فورتش وأخيه محمد بن يحيىٰ بن فورتش في التكملة (ص ١٨٢).

(٤) في طبعة بولاق: «أبي الحزم بن درهم».

(٥) ترجمة إسماعيل بن أحمد العلوي الإشبيلي في التكملة (ص ١٨٥) وفيه: «إسماعيل بن عمر بن أحمد».

وغيره من شيوخه مجهولون، وأبو الصبر مِمَّنْ روى عن المذكور، وهو أبو الصبر السبتي، والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل.

٢٣٥ ـ ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن خليل، النفزي[١]، الحميري، التاكُرُنِّيُّ.

قال في تاريخ إربِلَ: كان شابًا متأدبًا فاضلاً، قدم مصر، وله شعر حسن، وقال الحافظ عبد العظيم المنذري: أنشدنا المذكور لنفسه: [الكامل]

يا قلبُ، ما لك لا تفيقُ من الهوى ... أو ما يَقَرُّ بك الزمانَ قرارُ
ألِكُلِّ ذي وجه جميل صبوة[٢] ... ولِكُلِّ عهد سالف تذكار

وله: [البسيط]

يا ربَّ أضحيةٍ سوداءَ حالكةٍ ... لم تَرْعَ في البِيد إلَّا الشمس والقمرا
تخالُ باطنَهَا في اللون ظاهرها ... فَهْيَ الغداةَ كزنجيٍّ إذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكُرُنَّا من بلاد الأندلس، وهي من نظر قرطبة، وتوفي بأرْزَن من ديار بكر سنة ٦٢٩، عائدًا من آمد[٣]، رحمه الله تعالى!.

ومن بديع شعره: [البسيط]

إن أودَعَ الطِّرْسَ ما وَشَّاه خاطره ... أبدى لعينيك أزهارًا وأشجارا
وإنْ تهدَّد فيه أو يَعِدْ كرمًا ... بَثَّ البريَّةَ آجالاً وأعمارا

وتاكُرُنَّا ـ بضم الكاف والراء وتحقيقها، وشدّ النون ـ وورد المذكور إربِلَ سنة سبع وعشرين وستمائة، وله أبيات أجاز فيها أبيات[٤] شرف الدين عمر بن الفارض في غلام اسمه بركات، قال الأسدي الدمشقي، ومن خطِّه نقلت: كنت حاضرًا[٥] هذه الواقعة بالقاهرة

---

(١) في طبعة بولاق: «النقري».
(٢) في طبعة دار صادر: «حنّة».
(٣) آمِدُ، بكسر الميم: أعظم مدن ديار بكر وأجلّها قَدْرًا وأشهرها ذكرًا، تقع على نشز دجلة. معجم البلدان (جـ ١ ص ٥٦)
(٤) في طبعة دار صادر: «قول شرف الدين..».
(٥) في الطبعة نفسها: «حاضِرَ..».

بالجامع الأزهر، إذ قال ابن الفارض: [الكامل]

بَرَكاتُ يحكي البدرَ عند تمامه حاشاه، بل شمسُ الضُّحَى تحكيهِ

فقال أبو الروح، وأنشدني ذلك: [الكامل]

هذا الكمالُ فَقُلْ لمن قد عابه حسدًا وآية كلِّ شيء فيهِ

لم تَذْوِ إحدى زهرتيه، وإنما كملت بذاك ملاحة التشبيهِ

وكأنه رام يُغَلِّقُ جَفْنَه ليصيبَ بالسهمِ الذي يرميه

وقال ابن المستوفي في تاريخ إربل: أنشدني أبو الروح لنفسه: [الكامل]

أوصيتُ قلبي أنْ يفرَّ عن الصِّبَا ظنًّا بأنِّي قد دعوتُ سميعا

فأجابني لا تَخْشَ منِّي بعد ما أفْلَتُّ مِنْ شَرَكِ الغَرَام وقوعا

حتى إذا نادى الحبيب رأيته آوى إليه ملبيًّا ومطيعًا

كذُبَالةٍ[1] أخمدتها فإذا دنا منها الضرامُ تَعَلَّقَتْهُ سريعًا

قال: وأنشدني: [البسيط]

وزائرٍ زارني والليلُ مُعْتَكِرٌ والطِّيبُ يفضحه والحَلْيُ يشهرُهُ

أمسكتُ قلبيَ عنه وهو مُضْطَرِبٌ والشوقُ يبعثه والصَّونُ يزجره

فبتُّ أصْدَى إلى من لا يحلّئني[2] والوِرْدُ صافٍ ولا شيء يكدّره

تراه عيني وكَفِّي لا تلامسه حتى كأنيَ في المرآة أنظره

قال: وأنشدني [قال: أنشدني][3] الإمام أبو عمرو بن غياث الشريشي لنفسه رحمه الله تعالى: [الطويل]

صَبَوتُ وهل عارٌ على الحُرِّ إنْ صبا وقَيَّدَ ثَغْرَ الأربعين إلى الصِّبا

وقالوا مشيبٌ قلتُ واعجبا لكم أيُنْكَرُ صبحٌ قد تخلَّل غَيهَبَا[4]

وليس مشيبًا ما ترون، وإنما كُمَيتُ الصِّبا لَمَّا جَرَى عاد أشهبا

---

(١) الذُّبالة: الفتيلة. مختار الصحاح (ذبل).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «يحللني».

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٤) الغَيْهَبُ: الظلمة. لسان العرب (غهب).

وتوفي أبو عمرو سنة ٦٢٠، عن تسعين سنة.

قال ابن المستوفي: وأنشدني أبو عمرو أيضًا لنفسه[١]: [السريع]

أَوْدِعْ فؤادي حسرةً أو دَعِ نَفْسَكَ تؤذي أنت في أضلعي
أَمْسِكْ سهام اللحظ أو فارْمِها أنت بما ترمي مصابٌ معي
موقعها القلبُ وأنت الذي مَسْكَنُهُ في ذلك الموضعِ

قال: وأنشدني قال: أنشدني مطرف الغرناطي: [الخفيف]

أنا صَبٌّ كما تشاء وتهوى شاعرٌ ماجدٌ كريمٌ جوادُ
سُنَّة سَنَّهَا قديمًا جميلٌ[٢] وأتى المحدَّثُونَ مثلي فزادوا

قال: وأنشدني أيضًا المطرف: [السريع]

وفي فروع الأيك وُرْقٌ إذا[٣] بَلَّ الندى أعطافَهَا تَسْجَعُ
أو هَزَّها نَفْحُ نسيمِ الصَّبا شاقَكَ منها غُرَّدٌ شُرَّعُ
كأنما رَيطَتُهَا مِنْبَرٌ وَهْيَ خطيبٌ فوقه مِصْقَعُ
إنْ شَبَّهَا في طَرَفٍ لوعة جرى لها في طرفٍ مَدْمَعُ

أخذه من قول عبد الوهاب بن علي المالَقِيِّ الخطيب: [المتقارب]

كأنَّ فؤادي وطَرْفي مَعًا هما طَرَفا غُصُنٍ أخضرِ
إذا اشْتَعَلَ النارُ في جانب جرى الماءُ في الجانب الآخرِ

٢٣٦ - ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوي اللغوي نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن حمدون، الحميري، الأندلسي، المالَقِي.

قال شرف الدين الصابوني: أنشدنا المذكور لنفسه سنة ٦٦٧: [الطويل]

فؤادٌ[٤] بأيدي النائبات مُصَابُ وجَفْنٌ لفيض الدمع فيه مَصَابُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وأنشدني المذكور قال: أنشدني أبو عمر أيضًا لنفسه:». وسترد الأبيات في الجزء الثامن ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) هو جميل بن معمر، الشاعر الغزل الذي علق بثينة فعُرف بها.

(٣) الأيْكُ: الشجر الكثير الملتفّ. الوُرْقُ: جمع ورقاء وهي الحمامة. لسان العرب (أيك) و(ورق).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «فؤادي».

تـنـاءتْ ديـارٌ قـد أَلِـفْـتُ وجـيـرَةٌ ... فـهـل لي إلـى عهـد الـوصـال إيـابُ
وفـارقـتُ أوطـانـي ولـم أبـلغ الـمـنـى ... ودون مـرادي أبْـحُـرٌ وهِـضـاب
مـضى زمـني والـشَّـيـبُ حـلَّ بمـفـرقـي ... وأَبْـعَـدُ شـيء أن يُـرَدَّ شَـبـاب
إذا مَـرَّ عـمـرُ الـمـرء لـيس بـراجـع ... وإنْ حَـلَّ شَـيبٌ لـم يُـفِـدْهُ خـضـاب
فحـلَّ حمـام الشَّيب في فَـرْق لِمَّتِي[1] ... وقـد طـار عـنهـا لـلشـبـاب غـرابُ
وكـم عِـظَـةٍ لـي فـي الـزمـان وأهـلِهِ ... وبـيـن فـؤادي والـقَـبُـولِ حـجـاب
فَـدَعْ شَهَـواتِ النفس عنـك بـمعـزِلٍ ... فعَـذْبُ الـليـالي مـقـتضـاه عَـذَاب
وسَـلِّ فـؤادًا عـن ربـابٍ وزيـنـبٍ ... فـمـا الـقـصـدُ مـنـهـا زيـنبٌ وربـابُ
وأنـوي مـتـابًـا ثـم أنـقُضُ نـيّـتـي ... فـرَبْـعُ صـلاحـي بـالفسـاد خَـرَابُ
أُقِـرُّ بتقـصيـري وأطـمـعُ في الـرضـا ... ومـا الـقـصـدُ إلاَّ مـرجـعٌ ومـتـاب
ويَعْتِبُني في الـعجـزِ خِـلٌّ وصـاحـبٌ ... وهـل نـافـعٌ في الجـامـدات عتـاب
أُطَـهِّـرُ أثـوابـي وقـلـبـي مُـدَنَّسٌ ... وأزعـمُ صـدقًـا والـمـقـالُ كِـذَابُ
وفـارقْـتُ مِنْ غَـرْبِ الـبـلادِ مـواطنًـا ... فـيسقَّى رُبَـا غَـرْبِ الـبـلادِ سَحـابُ
فبـالقـلب مِنْ نـارِ الـتشـوُّق حُـرْقـةٌ ... وبـالعَينِ مِنْ فَيضِ الـدمـوع عُبَـابُ[2]
ومـا بـلغ الـمـملوكُ قـصـدًا ولا مُـنًـى ... ولا حُـطَّ عـن وَجْـهِ الـمـراد نِـقـابُ
وأخـشى سـهـامَ الـمـوتِ تـفجـأُ غَـفْلَةً ... ومـا سـار بي نحـو الـرسـول ركـاب
وقـلـبـيَ مـعـمـورٌ بِـحُـبِّ مـحـمـدٍ ... فـمـا ليَ فـي غـيـر الـحجـازِ طِـلاب
يـحـنُّ إلـى أوطـانـه كـلُّ مـسـلمٍ ... فَـقُـدِّسَ مـنـهـا مـنـزلٌ وجـنـاب
فـأَسْـعَـدُ أيـامـي إذا قـيـل هـذه ... مـنـازلُ مـن وادي الـحـمـى وقـبـابُ
فجسميَ فـي مصـرٍ[3] وروحـي بـطيبـةٍ ... فـللروح عـن جـسـمي هـنـاك مَـنَـابُ
على مثـل هـذا العجـزِ والعمـرُ منْقضٍ ... تُـشَـقُّ قـلـوبٌ لا تُـشَـقُّ ثـيـاب
وأرجـو ثـوابًـا بـامـتـداحي محـمـدًا ... ومـا كـلُّ مُـثْـنٍ فـي الـزمـان يُـثـاب
بـه أُخْـمِـدَتْ من قـبـلُ نيـرانُ فـارسٍ ... وحُـقِّـق مـن ظـبـي الـفَـلاَة خـطـاب
وكم قـد سقى من كفِّـه الجيشَ فـارتَـوَوْا ... وكـم قـد شفى مـنـه الـعيـونَ رُضَـابُ

---

(١) اللِّمَّة، بكسر اللام وتشديد الميم المفتوحة: الشعر الذي يجاوز شَحْمَةَ الأذن. مختار الصحاح (لمم).

(٢) العُباب، بضم العين: معظم السيل أو موجه. محيط المحيط (عبب).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «بمصر».

أُجِيبَ لما يختارُ في حضرة العلا ... وما كلُّ خلقٍ حيث قال يجاب
فلم تُلْهِهِ دنياه عن خوفِ ربِّه ... ولا شَغَلَتْهُ عن رضاه كَعاب[1]
محمدٌ المختارُ أعلى الورى نَدًى ... وأكرمُ مبعوثٍ أتاه كتاب
أتحسبُ أن تحصى بِعَدٍّ صفاتُهُ ... وهيهاتِ ما يُحْصِي علاه حسابُ
ثناءُ رسول اللَّه خيرُ ذخيرةٍ ... وقد ذلَّ جبّارٌ وخِيفَ عقابُ
وقد نُصِبَ الميزانُ واللَّهُ حاكمٌ ... وذلَّتْ لأحكامِ الإلهِ رقابُ
فكلّ ثناءٍ واجبٌ لصفاته ... فما مدحُ مخلوقٍ سواه صوابُ
إليكَ، رسولَ اللّه، أُنْهي مدائحي ... وإنَّ رجائي راحةٌ وثواب
إذا قيل مَنْ تعني بمدحك كلّه ... فأنتَ إذا خبرتَ عنه جواب
(فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غِضاب)[2]
فأنت أَجَلُّ العالمين مكانةً ... وأكرمُ مدفونٍ حواه ترابُ

وله يرثي العزّ بن عبد السلام: [الكامل]

أَمَدُ الحياةِ كما عَلِمْتَ قصيرُ ... وعليك نَقّادٌ بها وبصيرُ
عجبًا لِمُغْتَرٍّ بدارِ فنائِهِ ... وله إلى دارِ البقاء مَصيرُ
فسليمُها للنائباتِ مُعَرَّضٌ ... وعزيزُها بيد الرَّدَى مقهورُ
أيظنُّ أنَّ العُمْرَ ممدودٌ له ... والعُمْرُ فيه على الردى مقصورُ

وهي طويلة، ولم يحضرني سوى ما ذكرته.

٢٣٧ - ومنهم عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الغسّاني، الوادي آشي، أبو محمد[3].

وله أخبار كثيرة في الحماسة وعلوّ الهمّة.

---

(١) الكَعاب، بالفتح: الفتاة التي كعب ثهدياها ونَهَدا. لسان العرب (كعب).

(٢) البيت لأبي فراس الحمداني في مدح سيف الدولة الحمداني وعتابه. شرح ديوان أبي فراس الحمداني (ص ٦٨).

(٣) ترجمة عبد البر بن فرسان الوادي آشي في المغرب (جـ ٢ ص ١٤٢) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٦٨). وفي المصدر الأخير أنه توفي سنة ٦١١ هـ.

ومن نظمه لَمَّا تعمّم مخدومُهُ ابنُ غانية[1] بعمامة بيضاء ولبس غفارة حمراء على جبّة خضراء: [الطويل]

فَـدَيتُـكَ بـالنَّفس التي قـد مَلَكْتَهـا ... بمـا أنتَ مُـوليهـا مِنَ الكَـرَم الغَضِّ
تـردَّيتَ للحُسْنِ الحقيقيِّ بهجـةً ... فصـار لهـا الكليُّ في ذاك كـالبعضِ
ولَـمَّـا تَـلالأ نـورُ غُـرَّتـك التـي ... تُقَسَّمُ في طـول البلادِ وفي عَـرْضِ
تَلَفَّعْتَهـا[2] خضـراءَ أَحْسَنَ نـاظـرٍ ... نَبَتْ عنك إجـلالاً وذاك من الفـرضِ
وأسـدلْتَ حمـراء المـلابس فـوقهـا ... بمفـرق تاج المجـد والشرف المحض
فـأصبحْتَ بـدرًا طـالعًـا في غمـامـة ... عـلى شَفَـقٍ دانٍ إلى خـضـرة الأرض

وقال رحمه اللَّه تعالى[3]: [الطويل]

أَجُبْنـا ورُمْحي نـاصـري وحُسـامي ... وعجـزًا وعـزمي قـائـدي وإمـامي
ولي منـك بَـطَّاشُ اليـدين غَضَنْفَـرٌ ... يُحـاربُ عن أشبـالـه ويُحـامي

وقال رحمه اللَّه تعالى لَمَّا أسنَّ يستأذن مخدومه في الحجِّ والزيارة[4]: [الكامل]

اُمْـنُـنْ بـتسـريـح عـليَّ فَعـلَّهُ[5] ... سَبَبُ الـزيـارةِ للحَـطِيمِ ويَـثْـرِبِ
ولَئِنْ تَقَـوَّلَ كـاشـحٌ[6] أنَّ الـهَـوَى ... دَرَسَـتْ معـالِـمُـهُ وأنكَـرَ مـذهبي
فـمـقـالـتـي مـا إنْ مَـلِلْتُ وإنـمـا ... عُمْـري أَبَى حَمْـلَ النِّجـاد ومنكبي[7]
وعجـزتُ عن أن أستثيـر كمينَهـا ... وأَشُقَّ بـالصَّمْصَام[8] صَـدْرَ المـوكبِ

---

(١) هو أبو زكريا يحيىٰ بن إسحٰق بن محمد بن علي المسوفي؛ ثار على المنصور بن عبد المؤمن الموحدي وعلى من بعده من الموحدين. توفي سنة ٦٣٣ هـ. الأعلام (جـ ٨ ص ١٣٧ ومصادر حاشيته).

(٢) في طبعة ليدن: «تلففْتُها».

(٣) سيرد هذان البيتان في الجزء الخامس.

(٤) الأبيات في المغرب (جـ ٢ ص ١٤٣). وسترد في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وفعله».

(٦) الكاشح: المبغض الذي يضمر العداوة. لسان العرب (كشح).

(٧) في المغرب: «بمنكبي».

(٨) الصَّمْصام: السيف. محيط المحيط (صمصم).

وقال رحمه اللّه تعالى، ولا خفاء ببراعته[1]: [الطويل]

نَـدًى مُخْضِـلاً ذاك الجَنـاحَ المُنَمْنَمَـا ... وسَقْيًـا وإنْ لم تَشْـكُ يـا سـاجعًـا ظَمَـا
أَعِـدْهُنَّ ألحـانًـا على سمـعِ مُعْـرِبٍ ... يُـطارحُ مرتـاحًـا على القُضْبِ مُعْجِمـا
وطِرْ[2] غير مقصـوصِ الجناحِ مُـرَفَّهًا ... مُسَـوَّغَ أشتـاتِ الحُبُـوبِ مُـنَعَّمـا
مُـخلًّى وأفـراخًـا بـوَكْـرِكَ نُـوَّمًـا ... ألا لـيت أفـراخـي مَعِـي كُـنَّ نُـوَّمـا

وقال رحمه اللّه تعالى[3]: [الطويل]

كَفَى حَـزَنًـا أنَّ الـرمـاحَ[4] صقيلة ... وأنَّ الشَّبَـا رَهْنُ الصَّـدَى بـدمـائِـهِ
وأنَّ بَيَـاذِيقَ[5] الجـوانب فَـرْزَنَـتْ ... ولم يَعْـدُ رُخُّ الـدَّسْـت بيتَ بنـائـه

وكان ـ رحمه اللّه تعالى! ـ من جِلّة الأدباء، وفحـول الشعراء، وبَـرَعَة الكُتّـاب، كتب عن ابن غانية الأمير أبي زكريـا يحيىٰ بن إسحٰق بن محمد بن علي المسـوفي الميرقي الثـائر على منصـور بني[6] عبد المؤمن، ثم على مَنْ بعـده من ذرّيّته إلى أيـام الرشيـد منهم، وكان منقطعًا إليه، وممَّنْ صحبه في حركاته، وكان آيةً في بُعْد الهمّـة، والذهـاب بنفسه، والغنـاء في مواقف الحرب، والجنسيـةُ علّة الضم، إذ ابنُ غانيـة كان غـاية في ذلـك أيضًا، ووجَّهـه الميـرقي المذكـور عشية يـوم من أيام حـروبه إلى المـأزق، وقد طـال العراك، وكـاد الناس ينفصلون عن الحرب إلى أنْ يباكروها من الغـد، فلمّا بلغ الصـدر اشتدَّ على النـاس وذَمَّر[7] أربابَ الحفيظة، وأنهى إليهم العزم من أميرهم في الحملة، فانهزم عدوُّهم شَرَّ هـزيمة، ولم يعد أبو محمد إلاَّ في آخر الليـل بالأسـلاب والغنيمة، فقـال له الأميـر: وما حملك على مـا صنعت؟ فقال: الذي عملت هـو شأني، وإذا أردت مَنْ يصـرف الناس عن الحـرب ويُذْهب ريحهم[8] فانظر غيري.

---

(١) الأبيات في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٦٨).
(٢) في المقتضب: «فَطِرْ..».
(٣) البيتان في المقتضب (ص ١٦٩).
(٤) في المقتضب: «أنَّ الزجاج صقيلة..».
(٥) في المصدر نفسه: «بياديق» بالدال المهملة.
(٦) في طبعة بولاق: «بن».
(٧) ذَمَّرَ: حثَّ وحضَّ. لسان العرب (ذمر).
(٨) في طبعة دار صادر: «ريحه».

وتشاجر له ولد صغير مع تِرْبٍ له من أولاد أميره أبي زكريا فنال منه ولدُ الأمير، وقال: وما قَدْرُ أبيك؟ فلمَّا بلغ ذلك أباه خرج مُغْضَبًا لحينه، ولقي ولدَ الأمير المخاطِبَ لولده فقال: حفظك اللّه تعالى! لستُ أشكُّ في أني خديم أبيك، ولكني أحب أن أعرفك بنفسي ومقداري ومقدار أبيك، اعْلَمْ أنَّ أباك وَجَّهني رسولاً إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه فلمَّا بلغْتُ بغداد أُنْزلت في دار اكتريتْ لي بسبعة دراهم في الشهر، وأُجْري عليَّ سبعة دراهم في اليوم، وطُولع بكتابي، وقيل: مَنِ الميرقي الذي وجَّهه؟ فقال بعض الحاضرين: هو رجل مغربي ثائر على أستاذه، فأقمت شهرًا، ثم اسْتُدْعِيتُ، فلمَّا دخلْتُ دار الخلافة وتكلَّمْتُ مع مَنْ بها مِنَ الفضلاء وأرباب المعارف والآداب اعتذروا إليَّ، وقالوا للخليفة: هذا رجل جُهل مقداره، فأعِدْتُ إلى محلّ اكْتُري لي بسبعين درهمًا، وأُجْري عليَّ مثلها في اليوم، ثم اسْتُدْعِيتُ فودعت الخليفة، واقتضيت ما تيسّر من حوائجه وصدر لي شيء له حظّ من صِلَته، وانصرفْتُ إلى أبيك، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند مَنْ يعرف الأقدار، والثانية كانت على قدري. وترجمته رحمه اللّه تعالى واسعة[1].

٢٣٨ ـ ومنهم عبد المنعم بن عمر الغساني، الوادي آشي[2].

المؤلِّف، الرحّالة، المتجوّل ببلاد المشرق سائحًا، صاحب المؤلّفات الكثيرة التي منها «جامع أنماط السائل، في العروض والخطب والرسائل»[3].

ومن نظمه قولُه رحمه اللّه[4]: [الطويل]

أَلاَ إنما الدنيا بحارٌ تلاطمتْ	فما أكثر الغَرْقَى على الجَنَبَاتِ
وأكثرُ[5] من لاقيت يُغْرِقُ إلْفَهُ	وقلَّ فتًى يُنْجي مِنَ الغَمَراتِ

توفي سنة ٦٠٣، رحمه اللّه تعالى!

٢٣٩ ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد، القرطبي، الخزرجي.

---

(١) في طبعة دار صادر: «متّسعة».

(٢) مرَّت ترجمة عبد المنعم بن عمر الغساني في الجزء الثاني رقم ٥٤، وسيترجم له المقري ترجمة ضافية في هذا الجزء رقم ٢٦٣.

(٣) في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٥٧): «جامع أنماط الوسائل في القريض والخطب والرسائل».

(٤) البيتان في الذيل والتكملة، وسيردان في الجزء السادس من نفح الطيب.

(٥) في الذيل والتكملة: «ما لاقيْتُ».

كان إمامًا في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعَرُوض والطبّ، وله تآليف حسان، وشعر رائق، فمنه قوله رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

وفي الـوَجَنَات مـا في الروض لكنْ ... لـرونَقِ زَهْـرِهـا معنًى عـجيـبُ
وأعـجبُ مـا الـتعـجُّبُ عـنـه أني ... أرى الـبستـانَ يَحْـمِلُهُ قـضيـبُ

وتوفي رحمه اللّٰه تعالى سنة ٦٠١.

٢٤٠ ـ ومنهم أبو العباس القرطبي، صاحب «المفهم، في شرح مسلم» وهو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري، المالكي، الفقيه، المحدّث، المدرس، الشاهد بالإسكندرية[1].

ولد بقُرْطُبة سنة ٥٧٨، وسمع الكثير هنالك، ثم انتقل إلى المشرق، واشتهر وطار صيته، وأخذ الناس عنه، وانتفعوا بكتبه، وقدم مصر، وحدّث بها، واختصر الصحيحين، وكان بارعًا في الفقه والعربية، عارفًا بالحديث، ومِمَّن أخذ عنه القرطبي صاحب التذكرة، ومن تصانيفه رحمه اللّٰه تعالى «المفهم، في شرح مسلم» وهو من أجلِّ الكتب، ويكفيه شرفًا اعتماد الإمام النووي، رحمه اللّٰه تعالى، عليه في كثير من المواضع، وفيه أشياء حسنة مفيدة، ومنها اختصاره للصحيحين كما مرَّ، وله غير ذلك، وتوفي رحمه اللّٰه تعالى بالإسكندرية رابع ذي القعدة سنة ٦٥٦[2]. وكان يُعْرف في بلاده بابن المزيِّن، وله كتاب «كشف الإقناع[3]، عن الوَجْد والسماع» أجاد فيه وأحسن، وكان يشتغل أولاً بالمعقول، وله اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال.

قال الشيخ شرف الدين الدمياطي: أخذت عنه، وأجاز لي مصنّفاته، رحمه اللّٰه تعالى! وحدّث بالإسكندرية وغيرها، وصنّف غير ما ذكرناه، وكان إمامًا عالمًا جامعًا لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها.

---

(١) ترجمة أحمد بن عمر الأنصاري في الذيل والتكملة (جـ ١ ص ٣٤٨) والوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ٢٦٤) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (ص ٦٨).

(٢) في الديباج المذهب: سنة ٦٢٦ هـ. وبعد أن ذكر ابن فرحون هذا التاريخ قال: «وفي كتاب الذيل والتكملة لقاضي الجماعة أبي عبد اللّٰه محمد بن عبد الملك المراكشي أنه توفي سنة ست وخمسين فانظره». قلت: لا يوجد شيء من هذا في الذيل والتكملة.

(٣) في الوافي بالوفيات: «كشف القناع».

٢٤١ ـ ومنهم العارف الكبير، الولي الصالح الشهير، أبـو أحمد جعفـر بن عبد اللّه بن محمد ابن سيد بُونَة، الخزاعي، الأندلسي(١).

أحـد الأعلام المنقـطعين المقرّبين أُوْلي الهـداية، كـان ـ رضي اللّه تعالى عنـه ونفعنا به! ـ كثير الأتباع، بعيد الصِّيت، فَذًّا شهيرًا.

قال الحافظ ابن الزبير: هو أحد الأعلام المشاهير فضلاً وصلاحًا، قـرأ ببَلَنْسِيَةَ وتفقّـه، وحفظ نصف المُدَوَّنة، وأقرأها، وكـان يؤثر التفسيـر والحديث والفقـه على غيرهـا، أخذ عن أبوي الحسن بن النعمة وابن هذيل، وحجَّ، ولقي في رحلته من الأندلس جِلَّة أكبرهم الـولي الكبير سيدي أبـو مدين شعيب، أفـاض اللّه تعالى علينـا من أنواره! وانتفـع به، ورجـع عنه بعجائب، فشهر بالعبادة، وتبرّك الناس به، فظهرت عليه بـركته، تـوفي رحمه اللّه تعـالى في شوال سنة ٦٢٤، وعاش نيفًا وثمانين سنة.

وله ترجمة في الإحاطة ملخّصها ما ذكرناه(٢).

٢٤٢ ـ ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب، الخـزرجي، الأنصاري، الشـاطبي، الفقيه، القاضي، الصَّدْر، المتفنّن، المحصل، المجيد(٣).

لـه علم محكم، وعقد صحيـح مُبْرم، رحـل إلى المشرق وحـجّ، وكانت رحلتـه بعـد تحصيله، فزاد فضلاً إلى فضل، ونُبْلاً إلى نبل، وكان متثبتًا في فقهه، لا يستحضر من النقل الكثير، ولكنه يستحضر ما يحتاج إليه، وكـان له علم بـالعربيـة وأصول الفقـه، ومشاركـة في أصول الدين، لـه شرح على الْجُـزُولية، وكـان أبوه قـاضيًا، وبيتهم بيت قضـاء وعلم وسؤدد متوارث ومجد مكسوب ومنسوب، ثم ولي قضاء بجَايَةَ، فكان في قضائه على سَنَن الفضـلاء وطريق الأولياء العقلاء بالحقّ مع الصدق، معارضًا للولاة، وكان يرى أن لا يُقَـدَّمَ الشهودُ إلاَّ عند الحاجة، وأما إنْ حصل مَنْ تحصُل به الكفاية فلا يقدم غيره، ويرى أنّ الكثرة مفسـدة، وقد طلب منه الملك أن يقـدم رجلاً من أهـل بجايـة، فقال لـه مشافهـة: إنْ شئتم قدمتمـوه وأخرتموني(٤). وكان إذا جرى الأمر في مجرى الشهادة وما قاله القـاضي ابن العربي أبو بكر

(١) ترجمة جعفر بن عبد اللّه بن سيدبونه مكررة، انظر ما تقدّم في هذا الجزء رقم ١٨٦.

(٢) الإحاطة (جـ ١ ص ٤٦١ ـ ٤٦٣).

(٣) ترجمة محمد بن عبد الرحمن الشاطبي في عنوان الدراية (ص ٦٧) وفيه أنه توفي سنة ٦٩١ هـ.

(٤) في طبعة بولاق: «وأخَرْتموه» وهو تحريف.

وغيره من أنها «قبول قول الغير على الغير بغير دليل» يرى أنَّ هذا من الأمر العظيم الذي لا يليق أن يمكن منه إلَّا الآحاد الذين تَبيَّنَ فضلُهم في الوجود، وكان يرى أنَّ جنايات الشاهد إنما هي في صحيفة مَنْ يقدمه من باب قوله، عليه الصلاة والسلام، «من سن سنة حسنة، ومن سن سنة سيئة» وقد سئل[1]: مَنْ أولياء اللّٰه؟ فقال: شهود القاضي؛ لأنهم لا يأتون كبيرة، ولا يواظبون على صغيرة، وإن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شيء أجلّ منها، وإن كانت خطّة لا صفة فلا شيء أخس منها، ولما كانت واقعة مرين[2] بطنجة عرض عليه أهلُها أن يتقدم وأن يبايعوه، فقال: واللّٰه لا أفسد ديني، ولَمَّا توفي عجز القاضي الذي تولّى بعده عن سلوك مَنْحَاه، واقتفاء سَنَنه الذي اقتفاه، قال هذا كلّه بمعناه وبعضه بحروفه الغبرينيُّ في «عنوان الدراية في علماء بجاية».

٢٤٣ ـ ومنهم محمد بن يحيىٰ الأندلسي، اللبسي ـ بلام فموحدة فسين ـ قاضي القضاة، أخذ عن الحافظ ابن حجر، ونوَّه به عند الأشراف، حتى ولّاه قضاء المالكية[3] بحماة، وسار سيرة السلف الصالح، ثم حنق على نائبها في بعض الأمور، وسافر إلى حلب مظهرًا إرادة السماع على حافظها البرهان.

ووصفه ابن حجر في بعض مجاميعه بقوله: الشيخ، الإمام، العالم، العلّامة في الفنون، قاضي الجماعة. وقال: إنه إنسان حسن إمامٌ في علوم منها الفقه والنحو وأصول الدين، يستحضر علومًا كأنها بين عينيه، ووصفه أيضًا بعلامة دهره، وخلاصة عصره، وعين زمانه، وإنسان أوانه، جامع العلوم، وفريد كل منثور ومنظوم، قاضي القضاة، لا زالت رايات الإسلام به منصورة، وأعلام الإيمان به منشورة، ووجوه الأحكام الشرعية بحسن نظره محبورة، ولد سنة ٨٠٦، وتوفي ببرُسًا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ٨٨٤، قاله السخاوي «في الضوء اللامع».

٢٤٤ ـ ومنهم الوزير الشهير أبو عبد اللّٰه ابن الحكيم، الرندي، ذو الوزارتين[4].

---

(١) في عنوان الدراية: «وقد سئل الجنيدُ».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ابن مرين».

(٣) في الطبعة نفسها: «المالكيمة».

(٤) مرَّ التعريف بذي الوزارتين أبي عبد اللّٰه ابن الحكيم الرندي والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٢٠).

رحل إلى مصر والحجاز والشام، وأخذ الحديث عن جماعة، وقد ترجمناه في باب مشيخة لسان الدين عند تعرّضنا لذكر ابنه الشيخ أبي بكر ابن الحكيم، ولا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك، فنقول[1]: إنَّ من مشايخه بُرُنْدَة الشيخ الأستاذ النحوي أبا الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح، أخذ عنه العربية، وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع، وأخذ عن الخطيب بها أبي القاسم بن الأيسر، وأخذ ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ عن جماعة[2] من أعلام الأندلس، وأخذ في رحلته عن الْجِلَّة الذين يضيق عن أمثالهم الحصر، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن بن عساكر، لقيه بالحرم الشريف، وانتفع به، وأكثر من الرواية عنه، والشيخ أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم الحرّاني المعروف بابن هبة اللّٰه، والشيخ الشرف أبو العباس أحمد بن عبد اللّٰه بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري ـ جزائر المغرب ـ نزيل بغداد والشيخ أبو الصفاء خليل بن أبي بكر المرادي الحنبلي، لقيه بالقاهرة، والشيخ رضي الدين أبو بكر القسمطيني، والشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث وحافظها ومؤرخها، والشهاب ابن الخيمي، قرأ عليه قصيدته البائية الفريدة التي أولها[3]: [البسيط]

يا مَطْلَبًا ليس لي في غيره أَرَبُ ... إليك آلَ التقصِّي وانتهى الطَّلَبُ

وفيها البيت المشهور الذي وقع النزاع فيه[4]: [البسيط]

يا بارقًا بأعالي الرقْمَتَيْنِ بَدَا ... لقد حكَيتَ ولكنْ فَاتَكَ الشَّنَبُ[5]

والشيخ جمال الدين أبو صادق محمد بن يحيىٰ القرشي، ومن تخريجه «الأربعون المروية بالأسانيد المصرية» وسمع الحلبيات من ابن عماد الحراني والشيخ أبي الفضل عبد الرحيم خطيب الجزيرة، ومولده سنة ٥٩٨، وزينب بنت الإمام أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، وتكنى أم الفضل، وسمعت من أبيها. ومن أشياخ ذي الوزارتين ابن الحكيم المذكور الملك الأوحد يعقوب ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن

---

(١) المقري يلخّص هنا ما جاء في الإحاطة لابن الخطيب (جـ ٢ ص ٤٤٧ ـ ٤٥٢).

(٢) في طبعة دار صادر: «عن جملة».

(٣) البيت في الإحاطة (ص ٤٤٨)، وسيرد في الجزء السابع وفيه: «التقضي» بالضاد المعجمة.

(٤) البيت في الإحاطة (ص ٤٤٩)، وسيرد أيضًا في الجزء السابع.

(٥) في الإحاطة: «السبب».

الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، والشيخ عبد الرحمن بن سليمان بن طرخان وأخوه محمد بن سليمان، في طائفة كبيرة من مشايخ مصر والشام والعراق وغيرها من البلاد يطول تعدادهم، وأخذ ببجاية عن خطيبها أبي عبد الله بن رحيمة الكناني، وبتونس عن قاضيها أبي العباس بن الغماز البَلَنْسي، وأخذ العربية عن قدوة النحاة أبي الحسين عبد الله[1] بن أحمد بن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي.

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم المذكور قوله[2]: [الرمل]

هل إلى رَدِّ عَشِيّاتِ الوصالِ ... سَبَبٌ أم ذاك من ضَرْبِ المحالِ
حالة يَسْري بها الوَهْمُ إلى ... أنها تُثْبِتُ بُرْءًا باعتلالِ
وليالٍ[3] ما تبقّى بعدها ... غيرُ أشواقي إلى تلك الليالي
إذ مَجَال الوصل فيها مسرحي ... ونعيمي آمرٌ فيها وَوَال
ولحالاتِ التراضي جولةٌ ... مَرِحَتْ[4] بين قَبُول واقتبال
فبوادِي الْخَيفِ خوفي مُسْعَدُ ... وبأكنافِ مُنًى أسنى موال[5]
لست أنسى الأنسَ فيها أبدًا ... لا ولا بالعَذْل في ذاك أُبالي
وغَزَالٍ قد بدا لي وجهُه ... فرأيتُ البدرَ في حال الكمال
ما أمالَ التِّيهُ من أعطافه ... لم يكنْ إلاّ على خصل[6] اعتدال
خُصَّ بالحسن فما أنت ترى ... بعده للناس حَظًّا في الجمال
مَنْ تسلّى عن هواه فأنا ... بسواهُ عَنْ هَواه غيرُ سال
فلئن أتعبني حُبِّي له ... فلكم نِلْتُ به أَنْعَمَ حال
إذ لآلي[7] جِيدِهِ مِنْ قِبَلِي ... ووشاحاهُ يميني وشمالي

---

(١) في الإحاطة (ص ٤٥٢): «عبيد الله».
(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٦٠). وسيرد مطلعها في الجزء الثامن من نفح الطيب.
(٣) في الإحاطة: «وليالي».
(٤) في المصدر نفسه: «مزجت».
(٥) في الإحاطة: «نوال».
(٦) في المصدر نفسه: «فضل».
(٧) في الإحاطة: «لآلىء».

خَـلَّفَ الـنـومُ لـي الـسُّـهـدَ بـه ... وتـرامى الشخصُ لا طيفُ الخيـال
فـتـداوى[1] بـلَمَـاه ظـمـإي ... مَـزْجَكَ الصهبـاءَ بـالمـاء الـزلال
أو إشـادات[2]، بـنـاء الـمـلك الـ ... أوْحَـدِ الأسمى الهُمـام الـمُتَـعَـالي
مَـلِكٌ إن قـلـتَ فـيـه مَـلَكًـا ... لـم تـكـنْ إلَّا مـحـقًّـا فـي الـمـقـال
أَيَّـد الإسـلامَ بـالـعـدل فـمـا ... إن تـرى رَسْمًـا لأصحـابِ الضـلال
ذو أيـادٍ شَـمَـلَتْ كـلَّ الـوَرَى ... ومـعـالٍ يـا لـهـا خـيـرُ مَـعـال
هِـمَّـةٌ هـامـتْ بـأحـوالِ الـتقـى ... وصـفـاتٌ بـالـجـلالاتِ جِـوال
وقـف الـنَّـفْسَ عـلى إجـهـادهـا ... بـيـن صـومٍ وصـلاةٍ ونـوالِ

وهي طويلة، ومنها:

أيـهـا الـمـولى الـذي نعـمـاؤه ... أعجـزتْ عن شكرهـا كُنْهَ المقـالِ
هـا أنـا أُنْـشـدكـمْ مـهـنَّـئًـا ... من بـديع النظم بالسِّحْر الحـلال
فـأنـا الـعـبـد الـذي حُـبُّكُـمُ ... لـم يـزلْ واللَّه فـي قلبـي وبـالـي
أَوْرَقَـتْ روضـةُ آمـالـي بـكـمْ ... مـذ تـولَّاهـا الـرَّبـابُ المتـوالي[3]
واقـتـنيت الـجـاه مِنْ خِـدْمـتكـمْ ... فهي مـا أذخـره من كنـزِ مـالِ[4]

ومنـــها:

يـا أمـيـرَ الـمـسـلمـيـن هـذه ... خـدمة[5] تنبىء عن أصـدق حـالِ
هـي بـنـتُ سـاعـةٍ أو لَـيْـلَةٍ ... سَهُلَتْ بـالحُبِّ في ذاك الجـلال
مـا عليهـا إذ أجـادتْ مَـدْحَهَـا ... من بعيـدِ الفهمِ يُـلْغِيـهـا وقـالِ
فَـهْيَ فـي تـأديـة الشـكـر لـكـمْ ... أبـدًا بـين احـتـفـاء واحـتـفـالِ

وكتب رحمه اللَّه تعالى يخاطب أهله من مدينة تونس[6]: [الخفيف]

حيِّ حَيِّي بـالـلَّه يـا ريـحَ نَـجْـدِ ... وتـحـمَّـلْ عـظيـمَ شـوقي ووجْـدي

---

(١) في المصدر نفسه: «فيداوى».
(٢) في المصدر نفسه: «أو أشادت ثنا الملك..».
(٣) في المصدر نفسه: «لكم وتولّاها الكبير المُتعال».
(٤) لم يرد هذا البيت في طبعة ليدن. وفي الإحاطة: «فهو ما ادّخره».
(٥) في طبعة دار صادر: «خدمتي».
(٦) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١).

وإذا مـا بَـثَـثْـتَ حـالـي فـبـلِّغْ　　　مـن سـلامي لـهـمْ عـلى قَـدْرِ وُدِّي
مـا تـنـاسَيـتُهُـمْ وهـل في مـغيـبي　　　قـد(1) نسوني على تـطاول بُعْـدي
بـيَ شـوقٌ إلـيـهـمُ لـيس يُعْـزَى　　　لـجميـلٍ(2) ولا لِسُكّـان نـجـد
يـا نسيـمَ الصَّـبـا إذا جئْتَ قـومًـا　　　مُـلِئَتْ أرضُـهُـمْ بـشِيـحٍ ورَنْـدِ
فـتلطَّفْ عـنـد الـمـرور عـليهـمْ　　　وحـقـوقًـا لـهـمْ عـليَّ فـأدِّ
قـلْ لهمْ قـد غـدوتُ مِنْ وَجْـدهمْ في　　　حـالِ شـوقٍ لـكـلِّ رنْـد وَزنْـد
وإنِ اسـتـفـسـروا حـديثـي فـإنـي　　　بـاعـتـنـاء الإلّـه بُـلِّغْـتُ قَـصْـدي
فـلـه الـحـمـدُ إذ حَـبَـانـي بـلطفٍ　　　عـنـده قـلَّ كـلُّ شـكـرٍ وحَـمْـدِ

وافتتح مخاطبته لأخيه الأكبر أبي إسحٰق إبراهيم بقصيدة أولها(3): [الكامل]

ذَكَـرَ الـلِّوَى شَـوقًـا إلـى أقـمـارِهِ　　　فـقَضَـى أسًـى أو كـاد مِـنْ تَـذْكـارِهِ
وعـلا زفـيـرُ حـريقِ نـارِ ضـلوعِـهِ　　　فـرمـى عـلى وَجَـنَـاتـه بـشَـراره
لـو كـنتَ تُـبْـصـر خـطّه فـي خـدِّه　　　لـقـرأتَ سِـرَّ الـوَجْـد مِنْ أسـطاره
يـا عـاذليْـه أقْصِـروا فلشـدَّ مـا(4)　　　أفـضـى عـتـابُكُـمُ إلـى إضـراره
إن لـم تعيـنـوه عـلى بُـرَحَـائـه(5)　　　لا تـنـكـروا بـالـلّه خَـلْعَ عـذاره
مـا كـان أكـتَمَـه لأسـرار الـهـوى　　　لـو أنَّ جُـنْـدَ الصَّـبْـرِ مِنْ أنـصـاره
مـا ذنـبُـه والـبَـيـنُ قـطَّع قَـلْبَـهُ　　　أسـفًـا وأذكـى الـنـارَ فـي أعـشـاره
بخـلِّ اللوى بـالسـاكنيـه وطيـفهـمْ　　　وحـديـثـه ونـسـيـمـه ومَـزارِهِ
يـا بـرقُ خُـذْ دمعي وعَـرِّجْ بـاللِّوَى　　　فـاسْـفـحـه فـي بـانـاتـه وعَـرَاره
وإذا لـقيـتَ بـهـا الـذي بـإخـائـه　　　ألْـقَى خـطوبَ الـدَّهْـر أو بـجـوارِهِ
فَـاقْـرَ السـلامَ عليـه قَـدْرَ محبَّتي　　　فـيـه وتـرفـيـعي إلـى مـقـداره

(1) في الإحاطة: «هم نسوني».
(2) أراد جميل بن معمر، صاحب بثينة.
(3) القصيدة في الإحاطة (جـ٢ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢)، وسيرد البيتان الأول والثاني في الجزء الثامن من نفح الطيب.
(4) في الإحاطة: «اقصروا فلربما..».
(5) في المصدر نفسه: «برجائه».

والْمُمْ[1] بســائـر إخــوتي وقــرابتي مَـنْ لم أكـنْ لـجـوارهـمْ بــالـكــاره
مــا مــنـهـــمُ إلاَّ أخٌ أو ســيّــدٌ أبــدًا أرى دأبــي عــلى إكـبــاره
فــابـثُـثْ لــذاك الـحـيِّ أنَّ أخــاهُـمُ في حفظِ عهــدهُمُ عـلى اسْتبصــارِهِ

وقال رحمه اللّٰه تعالى في غرض كلفه سلطانه القولَ فيه[2]: [الوافر]

أَلاَ واصِــلْ مــواصــلةَ الـعُــقــارِ ودَعْ عـنــكَ الـتـخـلُّقَ بــالــوقــارِ
وقُــمْ واخْـلَعْ عِــذارَكَ فـي غَــزَالٍ يــحـقُّ لــمـثـلـه خـلعُ الــعــذار
قـضـيـبٌ مــائسٌ مِنْ فـوق دِعْصٍ تَـعَمَّـمَ بــالــدُّجى فــوق الـنـهــار
ولاحَ بــخــدِّه ألــفٌ ولامٌ فـصــار مُعَــرَّفًــا بـيـن الــدراري
رمــانـي قــاسمٌ والـسـيـنُ صــادٌ بــأشـفــارٍ تنــوبُ عـن الـشِّفــار
وقــد قُسِمَـتْ محــاسـنُ وجنـتيــه عــلى ضــدّيــن مــن مــاء ونــار
فــذاكَ الـمــاءُ من دَمْـعـي عـلـيـه وتلك الـنــارُ من فــرطِ استـعــاري
عَجِبْتُ لــه أقــامَ بِــرَبْــعِ قلبي عــلى مــا شَبَّ فـيــه مـن الأُوَار
أَلِـفْتُ الـحبَّ حـتى صــار طبعًــا فـمــا أحـتــاجُ فـيــه إلى ادِّكــار
فـمــا لي عـن مــذاهـبــه ذهــابٌ وهــذا فـيــه أشعــاري شِعــاري

وقال العلامة ابن رشيد في «ملء العيبة»[3]: لما قدمْنا المدينة سنة ٦٨٤ كان معي رفيقي الوزير أبو عبد اللّٰه بن أبي القاسم بن الحكيم، وكان أرمد[4]، فلمّا دخلْنا ذا الحُليفَة أو نحوها نزلْنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتسابًا لتلك الآثار، وإعظامًا لمن حلَّ تلك الديار، فأحسَّ بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله[5]: [الطويل]

ولَـمَّــا رأينــا مـن ربــوعِ حـبيـبنــا بيَثْــرِبَ أعــلامًــا أَثَــرْنَ لنــا الحُبَّــا
وبــالـتُّـرْبِ منهــا إذ كَحَلْنـا جفــونَنــا شُفينـا فـلا بــأسًـا نخــافُ ولا كــربــا

---

(١) في الإحاطة: «وألمم».
(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٢) دون اختلاف عمّا هنا.
(٣) ما يزال النقل مستمرًا عن الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣).
(٤) الأرمد: المصاب بمرض الرمد. لسان العرب (رمد).
(٥) الأبيات في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٣).

وحين تَبَدَّى للعيونِ جمالُها ... ومن بُعْدها عنّا أُديلت لنا قُرْبا
نزلنا عنِ الأكوار نمشي كرامة ... لمن حَلَّ فيها أن نُلِمَّ به رَكْبا
نُسِحُّ سِجالَ الدمعِ في عَرَصَاتها ... ونَلْثِمُ من حُبٍّ لواطئه التُّرْبا
وإنَّ بقائي دونه لخسارةٌ ... ولو أنَّ كفِّي تملأ الشرقَ والغَرْبا
فيا عجبًا مِمَّنْ يُحِبُّ بزعمه ... يُقيمُ مع الدعوى ويستعملُ الكتبا
وزَلَّاتُ مثلي لا تُعَدَّدُ[1] كثرةً ... وبُعْدي عن المختار أعْظَمُها ذنبا

انتهى[2].

وخطُّ الوزير ابن الحكيم في غاية الحسن، وقد رأيته مرارًا، وملكت بعض كتبه، ونثرِه ـ رحمه اللَّه تعالى! ـ أعلى من شعره كما نبَّه عليه لسان الدين في الإحاطة.

ومن نثره في رسالة طويلة كتبها عن سلطانه، ما صورته[3]: وقد تقرّر عند الخاصّ والعامّ، من أهل الإسلام، واشتهر في آفاق الأقطار، اشتهار الصباح في سواد الظلام، أنّا لم نزلْ نبذلُ جهدنا في أن تكون كلمة اللَّه هي العليا، ونَسْمَح في ذلك بالنفوس والأموال رجاءَ ثوابِ اللَّه لا لعَرَض الدنيا. وأنّا ما قصرْنا في الاستنفار والاستنصار[4]، ولا أقصرنا عن الاعتضاد بكلٍّ من أملنا معاملته والاستظهار، ولا اكتفينا بمُطَوَّلات الرسائل وبنات الأفكار حتى اقتحمْنا بنفسنا لُجَجَ البحار، فسمحنا بالطارف من أموالنا والتِّلاد، وأعطينا رجاء نصرة الإسلام موفورَ الأموال والبلاد، واشترينا بما أنعم اللَّه به علينا ما فرض اللَّه على كافّة أهل الإسلام من الجهاد، فلم يكن بين تلبية المدعوّ وزهده، ولا بين قبوله وردِّه، إلّا كما يحسو الطائر ماء الثماد، ويأبى اللَّه أن يَكِل نُصْرَة الإسلام بهذه الجزيرة إلى سواه، ولا يجعل فيها شيئًا[5] إلّا لمن أخلص لوجهه الكريم عَلانيته ونَجْواه، ولَمَّا أسلم الإسلام بهذه الجزيرة الغريبة إلى مُناويه، وبقي المسلمون يتوقّعون حادثًا ساءت ظنونُهم لمباديه، ألقينا إلى الثقة باللَّه تعالى يدَ الاستسلام، وشَمَّرْنا عن ساعد الجِدِّ[6] في جهاد عَبَدَة الأصنام، وأخذْنا

(١) في الإحاطة: «لا تعدُّ..».
(٢) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) الرسالة في الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨).
(٤) في الإحاطة: «في الاستنصار والاستنفار».
(٥) في طبعة ليدن: «فيها سببًا». وفي الإحاطة (جـ ٢ ص ٤٦٨): «وأن يجعل فيها سببًا».
(٦) في الإحاطة: «الجِدّ والاجتهاد..».

بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وأَنْفِقُوا في سبيلِ اللَّهِ ﴾[1] أخذ الاعتزام، فأمَدَّنا اللَّه تعالى في ذلك بتوالي البشائر، ونصرنا بألطاف أغنى فيها خلوصُ الضمائر عن قود العساكر، ونفَّلنا[2] على أيدي قوّادنا ورجالنا من السَّبايا والغنائم ما غدا ذكره في الآفاق كالمثل السائر ﴿ وإنْ تَعدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها ﴾[3]. وكيف يُحْصِيها المحصي أو يحصرها الحاصر، وحين أبدتْ لنا العناية الربّانيّة وجوه الفتح سافرةَ المُحَيَّا، وانتشقْنا نسائم النصر[4] الممنوح عَبِقَة الرَّيّا، استخرْنا اللَّه تعالى في الغزو بنفسنا[5] ونِعْمَ المستخار، وكتبْنا [بما قد علمتم][6] إلى ما قرب من أعمالنا بالحَضّ على الجهاد والاستنفار، وحين وافى مَنْ خفَّ للجهاد من الأجناد والمطّوعين، وغَدَوا بحكم رغبتهم في الثواب على طاعة اللَّه مجتمعين، خرجْنا بهم ونصرُ اللَّه تعالى أهدى دليل، وعناية اللَّه تعالى بهذه الفئة المفردة من المسلمين تقضي بتقريب البعيد من آمالنا وتكثير القليل، ونحن نسأل اللَّه تعالى أن يحملنا على جادّة الرضا والقَبُول، وأن يرشدنا إلى طريق تُفْضِي إلى بلوغ الأمنية والمأمول.

وهذه رسالة طويلة سُقْنا بعضها كالعنوان لسائرها.

ونال ابن الحكيم ـ رحمه اللَّه تعالى! ـ من الرياسة والتحكّم في الدولة ما صار كالمثل السائر، وخدمَتْه العلماءُ الأكابر، كابن خميس[7] وغيره، وأفاض عليهم سجال خيره، ثم ردت الأيام منه ما وهبت، وانقضت أيامه كأن لم تكن وذهبت، وقُتل يوم خُلع سلطانه، ومُثِّل به سنة ٧٠٨، رحمه اللَّه تعالىٰ! وانتهب من أمواله وكتبه وتحفه ما لا يعلم قدره إلاَّ اللَّه تعالى، أثابه اللَّه تعالى بهذه الشهادة بجاه نبيّنا محمد (صلَّى اللَّه عليه وسلَّم) وشرف وكرم ومجد وعظم.

٢٤٥ ـ ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبي علي الحسن بن عبد العزيز بن هلال، اللخمي، الأندلسي.

---

(١) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٥.

(٢) نَفَّلَ القائدُ جُنْدَهُ: أعطاهم ما غنموه. لسان العرب (نفل).

(٣) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٣٤.

(٤) في الإحاطة: «نسيم النصر الممنوح عَبِقَ..».

(٥) في المصدر نفسه: «بأنفسنا».

(٦) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة.

(٧) هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر الرعيني التلمساني، المعروف بابن خميس، وترجمته في بغية الوعاة (ص ٨٦) وأزهار الرياض (جـ ٢ ص ٣٠١). وسيترجم له المقري في الجزء السابع من نفح الطيب.

ولد سنة ٥٧٧ تقريبًا، ورحل فسمع بمكة من زاهر بن رستم، وببغداد من أبي بكر أحمد بن سكينة وابن طبرزد وطائفة، وبواسط من أبي الفتح بن المنداني[١]، وبأصبهان من عين الشمس الثقفية وجماعة، وبخراسان من المؤيّد الطوسي وأبي روح وأصحاب الفراوي وهذه الطبقة، وخطُّه مليحٌ مغربي في غاية الدقة، وكان كثير الأسفار، دَيِّنًا متصوِّفًا كبير القدر، قال الضياء في حقّه: رفيقنا وصديقنا، توفي بالبصرة عاشر رمضان سنة ٦١٧، ودفن إلى جانب قبر سَهْل التُّسْتري، رضي الله تعالى عنه! وما رأينا من أهل المغرب مثله. وقال ابن نقطة: كان ثقة فاضلًا، صاحب حديث وسنّة، كريم الأخلاق. وقال مفضل القرشي: كان كثير المروءة غزير الإنسانية. وقال ابن الحاجب: كان كيِّسَ الأخلاق، محبوب الصورة، ليّن الكلام، كريم النفس، حلو الشمائل، محسنًا إلى أهل العلم بماله وجاهه، وقيل: إنه أوصى بكتبه للشرف المُرْسِي، رحمه الله تعالى!

٢٤٦ - ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد، أبو بكر بن العربي الإشبيلي[٢]، حفيد القاضي الحافظ الكبير أبي بكر بن العربي.

قرأ لنافع على قاسم بن محمد الزقاق صاحب شريح، وحجَّ فسمع من السِّلَفي وغيره، ثم رحل بعد نيِّف وعشرين سنة إلى الشام والعراق، وأخذ عن عبد الوهاب بن سكينة وطبقته، ورجع فأخذوا عنه بقرطبة وإشبيلية، ثم سافر سنة ٦١٢، وتصوّف وتعبّد، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦١٧. قاله الذهبي في تاريخه الكبير.

٢٤٧ - ومن المرتحلين من الأندلس يحيىٰ بن عبد العزيز، المعروف بابن الخرّاز أبو زكريا، القرطبي[٣].

سمع[٤] من العتبي وعبد الله بن خالد ونظرائهما من رجال الأندلس. ورحل فسمع بمصر من المُزَني، والربيع بن سليمان المؤذن، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ويونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن عبد الله بن ميمون، وعبد الغني بن أبي عقيل، وغيرهم. وسمع بمكة من علي بن عبد العزيز. وكانت رحلته[٥] ورحلة سعيد بن عثمان الأعناقي

---

(١) في طبعة بولاق: «ابن الميداني».

(٢) ترجمة الحفيد أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي الإشبيلي في التكملة (ص ٦٠٣).

(٣) ترجمة يحيىٰ بن عبد العزيز بن الحراز في تاريخ علماء الأندلس (ص ٩٠٧).

(٤) ينقل المقري هنا عن تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (ص ٩٠٧ - ٩٠٩).

(٥) في تاريخ علماء الأندلس: «وكانت رحلته ورحلة سعد بن مُعاذ، وسعيد بن عثمان الأغناقي...».

وسعيد بن حميد وابن أبي تمام واحدة. وسمع[1] الناس من يحيىٰ المذكور مُخْتصر المُزني، ورسالة الشافعي، وغير ذلك من علم محمد بن عبد اللّٰه بن عبد الحكم، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الشافعي. وكان مُشَاوَرًا مع عبيد اللّٰه بن يحيىٰ وأضرابه[2]. وحدّث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم، وابن بشر[3]، وابن عبادة، وغير واحد. ولم يسمع منه ابنه محمد لصغره. وتوفي سنة ٢٩٥[4]، رحمه اللّٰه تعالى ورضي عنه!.

٢٤٨ ـ ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل الكامل الزاهد الورع، العلّامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّٰه، البكري، الشريشي، المالكي.

كان من أكابر الصالحين المتورّعين، ومولده سنة ٦٠١ بشَرِيش، وتوفي برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ٦٨٥ في ٢٤ رجب، ودفن قُبَالة الرباط، وله المصنّفات المفيدة، تولّى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف، وقدم دمشق، وتولّى مشيخة الرباط الناصري، فلمّا توفي قاضي القضاة جمال الدين المالكي ولّوه مشيخة المالكية بدمشق، وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل، وبقي في المشيخة إلى أن توفي، رحمه اللّٰه تعالى ونفعنا به وبأمثاله! آمين.

٢٤٩ ـ ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ الصالح أبو بكر بن محمد بن علي بن ياسر، الجَيَّاني، المحدّث الشهير.

ذكره ابن السمعاني وغيره، سافر الكثير، وورد العراق، وطاف في بلاد خراسان، وسكن بَلْخَ، وأكثر من الحديث، وحصَّل الأصول، ونسخ بخطِّه ما لا يدخل تحت حَصْر. قال ابن السمعاني: وله أُنْسٌ ومعرفة بالحديث، لقيتُه بسمرقند، وكان قدمها سنة ٥٤٩ مع جماعة من أهل الحجاز لدَين له عليهم، وسمعْتُ منه جزءًا خَرَّجه من حديث يزيد بن هارون مِمّا وقع له عاليًا، وجزءًا صغيرًا من حديث أبي بكر بن أبي الدنيا، وأحاديث أبي بكر الشافعي في أحد عشر جزءًا، المعروف بالغَيلانيات بروايته عن ابن الحصين عن ابن

---

(١) في المصدر نفسه: «سمع منه الناس مختصر..».
(٢) في المصدر نفسه: «ونظرائه في أيام الأمير عبد اللّٰه».
(٣) في المصدر نفسه: «وأحمد بن بشر الأغبش، وأحمد بن عبادة، وغيرهم».
(٤) في المصدر نفسه: «وتوفي ـ رحمه اللّٰه ـ في شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين ومائتين».

غيلان[1]، وكان مولده بجَيّان سنة ٤٩٣ [أو في التي بعدها، الشكّ منه، ثم لقيته بنَسَف في أواخر سنة خمسين][2] ولم أسمع منه شيئًا، ثم قدم علينا في بخارى في أوائل سنة إحدى وخمسين وسمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهَنَّاد بن السَّرِي الكوفي بروايته عن أبي القاسم سهل بن إبراهيم المسجدي عن الحاكم أبي عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذياخي عن الحاكم أبي الفضل محمد بن الحسين الحدّادي عن حماد بن أحمد السلمي عن مصنّفه. وأخبرنا الجيَّاني بسمرقند، أنبأنا أبو القاسم هبة اللَّه بن محمد بن الحصين الكاتب ببغداد، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد اللَّه الشافعي، أخبرنا محمد بن مسلمة، أنبأنا يزيد بن هارون، أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صُهَيب عن النبي ﷺ، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ناداهم منادٍ: يا أهل الجنّة، إن لكم عند اللَّه موعدًا لم تَرَوهُ، قالوا: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنّة ويُنْجِنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فواللَّه ما أعطاهم شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه»، ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزيادةٌ ﴾[3].

وقال ابن السمعاني أيضًا: وأخبرنا الجيَّاني المذكور بسمرقند، أنبأنا هبة اللَّه بن محمد بن عبد الواحد ببغداد، أنبأنا أبو طالب بن غيلان، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا أبو بكر عبد اللَّه بن محمد بن أبي الدنيا القرشي، أنبأ محمد بن حسان، أنبأنا مبارك بن سعيد، قال: أردْتُ سفرًا، فقال لي الأعمش: سَلْ ربَّكَ أنْ يرزقك صحابة صالحين، فإنَّ مجاهدًا حدّثني قال: خرجْتُ من واسط فسألْتُ ربي أن يرزقني صحابة، ولم أشترط في دعائي، فاستويت أنا وهم في السفينة فإذا هم أصحاب طَنَابير.

وقال ابن السمعاني أيضًا: أخبرنا أبو بكر الجياني المغربي بسمرقند، سمعْتُ الإمام أبا طالب إبراهيم بن هبة اللَّه ببلخ يقول: قرأت على أبي يعلى محمد بن أحمد العبدي بالبصرة قال: قرأتُ على شيخنا أبي الحسين بن يحيىٰ في كتاب «العين» بإسناده إلى الخليل بن أحمد أنه أنشد قول الشاعر: [الخفيف]

إنَّ في بيتنا ثلاثَ حَبَالَى ... فوددْنا أنْ قد وَضَعْنَ جميعا

(١) في طبعة عبد الحميد: «غيلان عنه».

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة ليدن.

(٣) سورة يونس ١٠، الآية ٢٦.

زوجتي ثم هرّتي ثم شاتي ... فإذا ما وَضَعْنَ كُنَّ ربيعا
زوجتي للخبيص[1]، والهرّ للفا ... ر، وشاتي إذا اشتهينا مجيعا

قال أبو يعلى: قال شيخنا ابن يحيىٰ: وذكر عن الخليل بن أحمد في «العين» أن المجيع أكل التمر باللبن، انتهى.

٢٥٠ ـ ومنهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم، الأندلسي، المري[2].

ذكره الحُمَيدِي في تاريخه وأثنى عليه، وقال: كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمّة العالية [في طلب العلم][3]، كتب[4] بالأندلس فأكثر، ورحل إلى المشرق فاحتفل[5] في العلم والرواية والجمع.

وذكره الحافظ الخطيب أبو بكر [أحمد بن علي][6] بن ثابت البغدادي، وقال: هو من بيت جَلَالة وعلم ورياسة، وأخرج عنه في غير موضع من مصنّفاته، وقدم بغداد ودمشق وحدّث فيهما، ثم عاد إلى المغرب فتوفي ببلده ألمَرِيَّة سنة ٤٥٤، وحدّث عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري، ويُعْرف بابن الإفليلي، الأندلسي النحوي وغيره، وكان صدوقًا ثقة، رحمه اللّٰه تعالى!.

٢٥١ ـ ومنهم العالم الحسيب أبو حفص عمر بن الحسن الهوزَني[7].

ذكره ابن بَسَّام في «الذخيرة» والحجاري في «المسهب» ولمَّا تولَّى المعتضد بن عباد، والد المعتمد، خاف منه فاستأذنه في الحجّ سنة ٤٤٤، ورحل إلى مصر وإلى مكة، وسمع

---

(١) الخبيص: نوع من الحلواء. لسان العرب (خبص).
(٢) ترجمة العلاء بن عبد الوهاب بن حزم في جذوة المقتبس (ص ٣١٧) وبغية الملتمس (ص ٤٢٩) والصلة (ص ٦٤٧).
(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة بولاق.
(٤) في طبعة دار صادر: «وكتب».
(٥) في جذوة المقتبس: «فاحتفل في الجمع والرواية».
(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة بولاق.
(٧) ترجمة أبي حفص عمر بن الحسن الهوزني مكررة، وقد تقدمت في الجزء الثاني رقم ٥٠. وقد تكرّرت نصًّا في معظمها مع بعض الاختلافات وبعض الزيادات. والترجمة هنا ساقطة من طبعة دار صادر.

في طريقه كتاب صحيح البخاري، وعنه أخذه أهل الأندلس، ورجع فسكن إشبيلية، وخدم المعتضد، فقتله، ومن خاف من شيء سلط عليه، وكان قتله يوم الجمعة لليلة خلت من ربيع الأوّل سنة ٤٦٠، رحمه الله تعالى!

ومن شعره يحرّضه على الجهاد قوله(١): [الطويل]

أَعَبَّادُ، جَلَّ الرُّزْءُ والقَومُ هُجَّعُ ... على حالةٍ مِنْ مِثْلِها يُتَوَقَّعُ
فَلَقِّ كِتابي مِنْ فَراغِكَ ساعةً ... وإنْ طافَ فالموصوفُ للطُّولِ مَوْضِعُ
إذا لم أَبُثَّ الداءَ رَبَّ شِكايةٍ ... أَضَعْتُ، وأَهْلٌ للمَلامِ المُضَيِّعُ

ووصله بنثر، وهو: وما أخطأ السبيلَ من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجأ الدليلَ من نَاطَ الأمورَ بأربابها، ولَرُبَّ أَمَلٍ بين أثناء المحاذير مدبج، ومحبب في طي المكاره مُدْرَج، فانتَهِزْ فرصتها فقد بان من غيرك العَجْز، وطَبِّق مفاصلها فكأن قد أمكنك الحزّ، ولا غَرْوَ أن يستمطر الغمام في الجدب، ويستصحب الحسام في الحرب.

ولـه(٢): [المديد]

صَرَّحَ الشَّرُّ فلا يُسْتَقَلُّ ... إنْ نَهَلْتُمْ جاءَكُمْ بَعْدُ عَلُّ
بَدْءُ صَعْقِ الأرضِ رَشٌّ(٣) وطَلٌّ ... ورياحٌ ثم غيمٌ أَبَلُّ
خَفِّضوا فالداءُ رُزْءٌ أَجَلّ(٤) ... واغْمِدوا سَيفًا عليكُمْ يُسَلُّ

وبسبب قتل بني عباد لأبي حفص الهَوْزَني المذكور تسبّب ابنه أبو القاسم في فساد دولة المعتمد بن عباد، وحرّض عليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب المغرب حتى أزال مُلْكه، ونثر سِلْكه، وسبب هُلْكه، كما ذكرناه في غير هذا الموضع من هذا الكتاب غير

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٨٣) والمغرب (جـ ١ ص ٢٤٠)، وقد تقدمت في الجزء الثاني من نفح الطيب.
(٢) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٨٩ ـ ٩٠)، وتقدمت في الجزء الثاني من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.
(٣) في الذخيرة: «نشء».
(٤) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:
نَقِّبوا فالداءُ رُزْءٌ يَحُلُّ

مرّة، فليراجعه من أراده في محاله، وبيت بني الهَوْزَني المذكور بالأندلس بيت كبير مشهور، ومنهم عدّة علماء وكبراء، رحم اللّه تعالى الجميع!

٢٥٢ ـ ومنهم أبو زكريا يحيىٰ بن قاسم بن هلال، القرطبي، الفقيه المالكي[١].

أحد الأئمة الزهاد، كان يصوم حتى يعجز[٢]، توفي سنة ٢٧٢، وقيل: سنة ٢٧٨[٣]. ورحل إلى المشرق، وسمع من عبد اللّه بن نافع صاحب مالك بن أنس، ومن سحنون بن سعيد، وغيرهما، وكان فاضلًا فقيهًا عابدًا عالمًا بالمسائل، وروى عنه أحمد بن خالد، وكان يفضّله ويصفه بالفضل والعلم، وهو صاحب الشجرة. قال عباس بن أصبغ: كانت في داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد، قاله ابن الفرضي رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه، ونفعنا به!.

٢٥٣ ـ ومنهم أبو بكر يحيىٰ بن مجاهد بن عَوَانة، الفزاري، الإلبيري، الزاهد[٤].

سكن قرطبة، قال ابن الفرضي: كان منقطع القرين في العبادة، بعيد الاسم في الزهد، حجَّ، وعُني بعلم القرآن والقراءات والتفسير، وسمع بمصر من الأسيوطي وابن الورد وابن شعبان[٥] وغيرهم. وكان له حظٌّ من الفقه والرواية، إلَّا أن العبادة غلبت[٦] عليه، وكان العمل أملك به، ولا أعلمه حدَّث. توفي، رحمه اللّه تعالى، سنة ست وستين وثلثمائة، ودفن في مقبرة الرَّبَض، وصلَّى عليه القاضي محمد بن إسحٰق بن السَّليم، ثم صلَّى عليه حَيَّان مرّة ثانية، رحمه اللّه تعالى! وأفاض علينا من أنوار عنايته! آمين.

٢٥٤ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم، الصدفي، الإشبيلي، الأديب البارع[٧].

---

(١) ترجمة يحيىٰ بن قاسم بن هلال القرطبي في جذوة المقتبس (ص ٣٧٨) وبغية الملتمس (ص ٥٠٦) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٩٠٤).

(٢) في طبعة دار صادر: «حتى يخضر». وفي تاريخ علماء الأندلس: «حتى يحتضر».

(٣) هكذا في تاريخ علماء الأندلس. وفي جذوة المقتبس وبغية الملتمس: سنة ٢٧٢ هـ، أو ٢٩٢ هـ.

(٤) ترجمة يحيىٰ بن مجاهد بن عوانة الفزاري في جذوة المقتبس (ص ٣٧٩) وبغية الملتمس (ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٩١٨).

(٥) في تاريخ علماء الأندلس: «ومحمد بن القاسم بن شعبان».

(٦) في المصدر نفسه: «كانت أغلب عليه، والعمل كان أملك به . . ».

(٧) ترجمة محمد بن أحمد الصدفي في الوافي بالوفيات (جـ٢ ص ١٣٥).

له نظم حسن، وموشحات رائقة، قرأ على الأستاذ الشلوبين وغيره، ومدح الملوك، ورحل من الأندلس فقدم ديار مصر، ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم، فوصله بنزر يسير، فكرَّ راجعًا إلى المغرب، فتوفي ببَرقة، رحمه اللّه تعالى! وكان من النجباء في النحو وغيره.

ومن نظمه من قصيدة[1]: [البسيط]

ما بي مَوَارِدُ أمرٍ[2] بل مَصَادرُه	اللحظُ أوّلُه واللَّحْدُ آخِرُهُ
أرسلتُ طرفيَ مرتادًا فطَلَّ دمي	روضٌ من الحُسْن مطلولٌ أزاهرُهُ
رَعَيْتُ في خَصْبِهِ لحظي فأعقبني	جدبًا بجسميَ ما يرويه هامرُهُ
وبي وإن لم أكن بالذكرِ أشهره	فالوصفُ فيه لِفَقْدِ المثْل شاهرُهُ

وهي طويلة، وأثنى عليه أثير الدين أبو حَيَّان، وأورد جملة من محاسن كلامه وبدائع نظامه، رحم اللّه تعالى الجميع!.

٢٥٥ - ومنهم أبو يحيىٰ زكريا بن خطاب، الكلبي، التُّطِيلي[3].

رحل سنة ٢٩٣، فسمع بمكة كتاب «النسب» للزبير بن بكار، من الجرجاني الذي حدّث به عن علي بن عبد العزيز بن الجمحي عن الزبير، وروى موطأ مالك بن أنس رواية أبي مصعب أحمد بن عبد الملك الزهري عن إبراهيم بن سعيد الحذّاء[4]. وسمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيباني والقزاز[5] في آخرين. وقدم الأندلس فكان الناس يرحلون إليه إلى تُطِيلَةَ للسماع منه، واستقدمه المستنصر الحكم وهو وليُّ عهدٍ فسمع منه أكثر مرويّاته. وسمع منه جماعة من أهل قرطبة. وكان ثقة مأمونًا، وليَ قضاء بلده[6] تُطِيلة إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف ابن الإمام.

---

(١) البيتان الأول والثاني في الوافي بالوفيات.

(٢) في طبعة دار صادر: «أمسٍ». وفي الوافي بالوفيات: «حُبّي».

(٣) ترجمة زكريا بن خطاب التطيلي في جذوة المقتبس (ص ٢١٨) وبغية الملتمس (ص ٢٩٣) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٤٤٠). والنقل هنا عن تاريخ علماء الأندلس.

(٤) في تاريخ علماء الأندلس: «الحداد».

(٥) هو أحمد بن زيد بن هارون القزاز كما في المصدر السابق.

(٦) في طبعة عبد الحميد: «بلدة».

٢٥٦ ـ ومنهم سعد الخير بن محمد بن سهل[١]، أبو الحسن، الأنصاري، البَلَنسي، المحدّث[٢].

رحل إلى أن دخل الصين، ولـذا كان يكتب البَلَنسي الصيني، وركب البحار، وقاسى المشاق، وتفقّه ببغداد على أبي حامد الغزالي، وسمع بها أبا عبد اللّه النّعّال[٣] وطرادًا وغيرهما، وبأصبهان أبا سعد المطرز، وسكنها وتزوّج بها وولدت له فاطمة بها، ثم سكن بغداد، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وأبو موسى المديني وأبو اليمن الكندي وأبو الفرج بن الجوزي وابنته فاطمة بنت سعد الخير في آخرين، وتأدّب على أبي زكريا التبريزي، وتوفي في المحرم سنة ٥٤١، رحمه اللّه تعالى! ببغداد، وصلّى عليه الغزنوي والشيخ الواعظ بجامع القصر، وكان وصيّه، وحضر جنازته قاضي القضاة الزينبي والأعيان، ودفن إلى جانب عبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل رضي اللّه تعالى عنهم أجمعين بوصيّة منه.

٢٥٧ ـ ومنهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون، الإستجي[٤].

سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وابن أبي دليم وغيرهما، ورحل فسمع بمكة من ابن الأعرابي، وببغداد من أبي علي الصفار وجماعة، وبها مات[٥].

٢٥٨ ـ ومنهم أبو عثمان سعيد الأعناقي، ويقال: العناقي، القرطبي[٦].

كان ورعًا زاهدًا عالمًا بالحديث بصيرًا بعلله، سمع من محمد بن وضاح وصحبه ومن يحيىٰ بن إبراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشني وغيرهم، ورحل فلقي جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى وغير ذلك من كتبه،

---

(١) في الطبعة نفسها: «سعد».

(٢) ترجمة سعد الخير الأنصاري البلنسي في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٦) والتكملة (رقم ٢٠١١).

(٣) في طبعة ليدن: «النعالي».

(٤) ترجمة سعيد بن نصر بن خلفون في جذوة المقتبس (ص ٢٣٤) وبغية الملتمس (ص ٣١٣) والصلة (ص ٣٢٦).

(٥) في مصادر ترجمته أنه توفي ببخارى سنة ٣٥٠ هـ.

(٦) هو سعيد بن عثمان بن سعيد بن سليمان بن عبد اللّه التجيبي الأعناقي، وترجمته في جذوة المقتبس (ص ٢٣٠) وبغية الملتمس (ص ٣٠٨) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٢٩٥).

ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والحارث بن مسكين في آخرين، وحدّث عنه أحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد بن قاسم وابن أبي زيد في عدد كبير، ومولده سنة ٢٣٣، وتوفي سنة ٣٠٥ بصفر.

والأعناقي: نسبة إلى موضع يقال له أعناق وعناق.

٢٥٩ ـ ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف، التجيبي، الأُقليشي[١].

روى عن أبي عثمان سعيد بن سالم المجريطي وأبي ميمونة دراس[٢] بن إسماعيل فقيه فاس، ورحل حاجًّا سنة ٣٤٩، فسمع بمكة[٣] من أبي بكر الآجري وأبي حفص الجمحي، وبمصر من أبي إسحٰق بن شعبان، وروى عنه كتاب «الزاهي» جميعه وقد قرىء عليه جميعه، وحُمل عنه، ومولده سنة ٣٠٣[٤] رحمه الله تعالى!

٢٦٠ ـ ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن علي، المعروف بابن الطحان، الإشبيلي، المقرىء[٥].

ولد بإشبيلية سنة ٤٩٨، ورحل فدخل مصر والشام وحلبًا، وتوفي بحلب بعد سنة ٥٥٩، وله كتاب «نظام الأداء، في الوقف والابتداء» ومقدمة في مخارج الحروف، ومقدمة في أصول القراءات، وكتاب «الدعاء». وكان من القراء المُجَوِّدين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات، وسمع الحديث على شريح بن محمد بن أحمد بن شريح الرعيني خطيب إشبيلية وأبي بكر يحيىٰ بن سعادة القرطبي.

وله شعر حسن منه قوله: [مجزوء الوافر]

دَعِ الدُّنْيا لعاشِقِها ... سيصبحُ مِنْ رشائِقِها

---

(١) ترجمة عبد الرحمن بن خلف التجيبي الأقليشي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٤٥٥) وعنه ينقل المقري.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «دارس».

(٣) في تاريخ علماء الأندلس: «فسمع بمكة من أبي بكر بن الحسين الآجري، وأبي حفص عمر بن محمد بن أبي أحمد الجمحي».

(٤) في المصدر نفسه: «سنة ثلاثمائة».

(٥) ترجمة عبد العزيز بن علي ابن الطحان في التكملة (رقم ١٧٥٩) وغاية النهاية في طبقات القراء (جـ ١ ص ٣٩٥).

وعـادِ الـنَّـفْسَ مُـضْـطِـرًا وَنَـكِّـبْ عـن خـلائـقـهـا[1]
هَـلاكُ الـمَـرْءِ أنْ يُـضْـحِـي مُـجِـدًّا فـي عـلائـقـهـا
وذو الـتـقـوى يُـذَلِّـلُهـا فَـيَـسْـلَمَ مِـنْ بـوائِـقـهـا[2]

وأخـذ القراءات ببلده عن أبي العباس بن عَيشُون وشـريح بن محمـد، وروى عنهما وعن أبي عبد اللّٰه بن عبد الـرزاق الكلبي، وروى مصنّف النسائي عن أبي مـروان بن مسرّة، وتصدَّى للإقراء، ثم انتقل إلى فـاس، وحجَّ ودخـل العراق، وقـرأ بواسط القـراءات وأقرأهـا أيضًا، ودخل الشـام واشتهر ذكـره، وجلَّ قَـدْرُه، وروى عنه أبـو محمد عبـد الحق الإشبيلي الحـافظ، وعلي بن يـونس. قـال بعضهم: سمعت غيـر واحـد يقـول: ليس بـالغـرب أعلم بالقراءات من ابن الطحان، قـرأ عليه الأثيـر أبو الحسن محمـد بن أبي العلاء وأبـو طالب بن عبد السميع وغيرهما، رحم اللّٰه تعالى الجميع!.

٢٦١ ـ ومنهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف، المَعَافري[3].

قدم مصر سنة ٥٠٢، وولد سنة ٤٤٨، وحدّث بالموطإ عن سليمان بن أبي القـاسم، أنبأنا أبو عمر بن عبد البرّ، أنبـأنا سعيـد بن نصر، عن قـاسم بن أصبغ عن محمـد بن وضاح عن يحيىٰ بن يحيىٰ عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة، رضي اللّٰه تعالى عنه!

٢٦٢ ـ ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد اللّٰه بن ثعلبة، السعدي، الشاطبي[4].

قدم مصر ودمشق طالبَ علم، وسمع أبا الحسن بن أبي الحديد وأبا منصـور العكبري وغيـرهما، وصنّف[5] غـريب الحديث لأبي عبيـد القـاسم بن سـلاّم على حـروف المعجم، وسمعه عليه أبو محمد الأكفاني[6]، وتوفي بأرض حوران من أعمـال دمشق في رمضان سنـة ٤٦٥، رحمه اللّٰه تعالى ورضي عنه!

---

(١) نَكِّبْ عن خلائقها: مِلْ عنها؛ يقال: نَكَّبَ عن الطريق إذا مال عنها. لسان العرب (نكب).
(٢) البوائق: جمع بائقة وهي الشّرُّ. لسان العرب (بوق).
(٣) ترجمة عبد العزيز بن خلف المعافري في التكملة (رقم ١٧٤٢).
(٤) ترجمة عبد العزيز بن عبد اللّٰه السعدي الشاطبي في التكملة (رقم ١٧٣٩).
(٥) في التكملة: «ورتب غريب الحديث» وهو أصحّ.
(٦) هو هبة اللّٰه الأكفاني كما تقدّم في هذا الجزء (ص ٣٢١).

٢٦٣ - ومنهم الحكيم الطبيب أبو الفضل [أو أبو][(١)] محمد عبد المنعم، الغساني، الجلياني[(٢)].

وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد اللّه بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان، ولد بقرية جليانة من أعمال غَرْنَاطة سابع المحرم سنة ٥٣١، وقدم إلى القاهرة، وسار إلى دمشق فسكنها مدّة، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ٦٠١، ونزل بالمدرسة النظامية، وكتب الناسُ عنه كثيرًا من نظمه، وكان أديبًا فاضلاً، له شعر مليح المعاني أكثره في الحكم والإلّهيات وآداب النفوس والرياضات، وكان طبيبًا حاذقًا، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن، وله كلام مليح على طريق القوم، وكان مليح السَّمْتِ، حسن الأخلاق، لطيفًا، حاضر الجواب، ومات بدمشق سنة ٦٠٢، وكان يقال له: حكيم الزمان، وأراد القاضي الفاضل أن يَغُضَّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب: كم بين جليانة وغَرْنَاطة؟ فقال: مثل ما بين بيسان وبيت المقدس.

ومن شعره قوله: [الطويل]

خَبَرْتُ بني عصري على البَسْطِ والقَبْض ... وكاشَفْتُهُمْ كَشْفَ الطبائعِ بالنَّبْضِ
فأنتجَ لي فيهمْ قياسي تَخَلِّيًا ... عن الكلِّ إذْ همْ آفةُ الوقتِ والعِرْضِ
أُلازِمُ كِسْرَ البيتِ خِلْوًا، وإن يكنْ ... خروجٌ ففردًا ملصقَ الطَّرْف بالأرض
أرى الشخصَ مِنْ بُعْدٍ فأُغْضي تغافلاً ... كمشدوهِ بالٍ في مَهَمَّتِهِ يَمْضي
ويحسبُني في غَفْلَةٍ وفِراستي ... على الفورِ مِنْ لمحي بما قد نوى تقضي
أجانِبُهُمْ سِلْمًا ليسلمَ جانبي ... وليس لحِقْدٍ في النفوس ولا بُغْضِ
تَخَلَّيتُ عن قومي ولو كان ممكني ... تخلَّيتُ عن بَعْضي ليسلَم لي بعضي

وقال: [الكامل]

قالوا نراكَ عن الأكابر تُعْرِضُ ... وسواكَ زَوَّارٌ لهمْ مُتَعَرِّضُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «أبو الفضل محمد عبد المنعم». وفي طبعة عبد الحميد: «أبو الفضل محمد بن عبد المنعم..»، وهو خطأ على الوجهين، وقد أضفْنا «أو أبو» ووضعناه بين قوسين؛ لأن اسمه كما تقدم رقمي ٥٤ و٢٣٨ هو «عبد المنعم».

(٢) تقدمت ترجمة الطبيب أبي الفضل عبد المنعم الغساني الجلياني مرتين تحت رقمي ٥٤ و٢٣٨.

قــلتُ الــزيــارةُ لـلزمــانِ إضــاعــةٌ وإذا مـضـى زَمَــنٌ فـمــا يَــتَـعَــوَّضُ
إنْ كــان لـي يــومًــا إليـهمْ حــاجــةٌ فَبِقَــدْرِ مــا ضِمْنَ القضــاءِ تُـقَيَّضُ[1]

وقـــال: [الكامل]

حـــاوِلْ مَـفَــازَكَ قـبــل أن يـتـحــوَّلا فــالـحــالُ آخــرُهــا كـحـالــكَ أوَّلا
إنَّ الــمـنــيَّ مِـنَ الــمـنـيَّـةِ لَـفْـظُهُ لتــدلَّ في أصــلِ البنـاء على البلى

وسمّاه بعضهم عبد المنعم، وذكره العماد في «الخريدة» وقال: هو صاحب البديع البعيد، والتوشيح والترشيح، والترصيع والتصريع، والتجنيس والتطبيق، والتوفيق والتلفيق، والتقريب والتقرير، والتعريف والتعريب، وهو مقيم بدمشق، وقد أتى العسكر المنصور الناصري سنة ٥٨٦ بظاهر ثغر عكا، وكتب إلى السلطان صلاح الدين وقد جُرح فرسه: [الطويل]

أيــا مَلِكًــا أَفْنَى العُــدَاةَ حُسَــامُــهُ ومُنْتَجَعًــا أَقْنَى[2] العُفــاةَ ابتســامُــهُ
لقــاؤكَ يــومًــا في الــزمــان سعــادةٌ فكيف بثــاوٍ في حمــاكَ جِمــامُــهُ
وعَبْــدُكَ شــاكٍ دَيـنَــهُ وهــو شــاكِرٌ نَــداكَ الــذي يُغْني الغمــامَ غمــامُهُ
ولــي فَــرَسٌ أصمــاهُ سـهمٌ فــردُّه أثــافيَّ ربــعٍ بــالثــلاثِ قيــامُــهُ[3]
تعمَّــر فيــه بــالجــراحــة ســاحــة وعُــطِّلَ منه سَــرْجُــهُ ولجــامُــهُ
أتينــا لِمَــا عَــوَّدْتَنــا منْ مكــارمٍ يلوذُ بهــا الــراجي فيشفى غــرامُهُ
فَــرُحْمــاك غــوثٌ لا يغيبُ نصيــرُه ونعمــاك غَيثٌ لا يُغِبُّ[4] انسجامُــهُ

وله رحمه اللّه تعالى غير هذا، وترجمته واسعة.

٢٦٤ ـ ومنهم الأستاذ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القُدّوس القرطبي، مؤلّف «المفتاح» في القراءات، ومقرىء أهل قرطبة[5].

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «نُقَيَّض» بالنون.
(٢) أقناهم: أغناهم؛ يقال: أقناه اللّه إذا أعطاه ما يُقْتَنَى. مختار الصحاح (قنا).
(١) أصماه: في الأصل: أصابه فقتله، وهنا جاء بمعنى: جرحه وعطّل قائمة من قوائمه. الأثافي: الأحجار التي توضع عليها القِدْر، واحدتها أثفية. محيط المحيط (صمى) و(ثفى).
(٤) لا يُغِبُّ: لا ينقطع؛ يقال: أَغَبَّ الزائرُ القومَ إذا جاءهم يومًا وترك يومًا. محيط المحيط (غبب).
(٥) ترجمة عبد الوهاب بن محمد بن عبد القدوس القرطبي في الصلة (ص ٥٥٦) وغاية النهاية (جـ ١ ص ٤٨٢).

رحل وقرأ القراءات على أبي علي الأهوازي، وبحرَّانَ على أبي القاسم الزَّيدِي، وبمصر على أبي العباس بن نفيس، وبمكة على أبي العباس الكازريني، وسمع بدمشق من أبي الحسن بن السمسار، وكان عجبًا في تحرير القراءات ومعرفة فنونها، وكانت الرحلة إليه في وقته، ولد سنة ٤٠٣، ومات في ذي القعدة سنة ٤٦١[١]، قرأ عليه أبو القاسم خلف بن النحاس وجماعة، رحمه اللَّه تعالى!

٢٦٥ ـ ومنهم عبيد اللَّه، وقيل: عبد اللَّه، بغير تصغير، ابن المظفر بن عبد اللَّه بن محمد، أبو الحكم، الباهلي، الأندلسي[٢].

ولد بالْمَرِية سنة ٤٨٦، وحجَّ سنة ٥١٦ وحجّ أيضًا سنة ٥١٨، ودخل دمشق وقرأ بصعيد مصر وبالإسكندرية، ثم مضى إلى العراق، وأقام ببغداد يعلّم الصبيان وخدم السلطان محمود بن ملك شاه سنة ٥٢١، وأنشأ له في معسكره مارستانًا يُنْقل على أربعين جملًا، فكان طبيبه، ثم عاد إلى دمشق ومات بها سنة ٥٤٩، ودفن بباب الفراديس، وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وله ديوان شعر سمّاه «نهج الوضاعة، لأولي الخلاعة» ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ونصر الهيتي وغيرهما كعرقلة، وفيه نزهات أدبية، ومفاكهات غريبة، ممزوج جِدُّها بسخفها، وهَزْلُها بظرفها، ورثى فيه أنواعًا من الدواب وأنواعًا من الأثاث وخلقًا من المغنّين والأطراف، وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الْحكم الملقب بأفضل الدولة، وكان كثير الهَزْل والمداعبة، دائم اللهو والمطايبة، وكان إذا أتاه الغلام وما به شيء فيجسّ نبضه ثم يقول له: تصلح لك الهريسة، وكان أعور فقال فيه عرقلة[٣]: [السريع]

لنا طبيبٌ شاعرٌ أعورٌ ... أراحنا مِنْ طبِّهِ اللَّهُ[٤]
ما عاد في صبحةِ يومٍ فتًى ... إلَّا وفي باقيه رثَّاهُ

---

(١) في الصلة: «سنة اثنتين وستين وأربعمائة».
(٢) ترجمة أبي الحكم الباهلي الأندلسي مكررة، انظر رقم ٧٥ في الجزء الثاني.
(٣) البيتان في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٦١٥) وقال ابن أبي أصيبعة إن عرقلة هو أبو الندى حسان بن نمير الكلبي.
(٤) في المصدر نفسه: «شاعر أشتر... من شخصه اللَّهُ».

وله أيضًا يرثيه[1]: [البسيط]

يا عينُ، سُحِّي بدمعٍ ساكبٍ ودمٍ	على الحكيم الذي يُكْنى أبا الحكمِ
قد كان لا رَحِمَ الرحمنُ شيبته	ولا سقى قَبْرَهُ مِنْ صَيِّبِ الدِّيَمِ
«شَيخًا يرى الصلواتِ الخمسَ نافلةً	ويستحلُّ دم الحجاجِ في الحرمِ»

ومن كنايات أبي الحكم المستحسنة قوله: [الوافر]

ألم ترني أكابدُ فيك وَجْدِي	وأحملُ منك ما لا يُسْتَطاعُ
إذا ما أنجمُ الجوّ استقلَّتْ	ومالَ الدلْوُ وارتفعَ الذراعُ

ومن شعره قوله: [السريع]

محاسنُ العالمِ قد جُمِّعَتْ	في حُسْنِهِ المستكملِ البارعِ
(وليس لله بِمُسْتَنْكَرٍ	أنْ يجمعَ العالم في الجامعِ)[2]

٢٦٦ ـ ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافي، الغَرْنَاطي، القيساني.

وقيسانة من عمل غَرْنَاطة.

الفقيه المالكي؛ ولد سنة ٥٦٤، وقدم القاهرة وناب في الحِسْبَة، وله شعر حسن، توفي بالقاهرة سنة ٦٣٤، رحمه الله تعالى!.

٢٦٧ ـ ومنهم طالوت بن عبد الجبار، المَعَافري، الأندلسي[3].

دخل مصر، وحجّ ولقي إمامنا مالك بن أنس، رضي الله تعالى عنه، وعاد إلى قُرْطُبة، وكان مِمَّنْ خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل رَبَضِ شَقُنْدَة[4] يريد خلعه وإقامة أخيه المنذر، وزحفوا إلى قصره بقرطبة، فحاربهم، وقتلهم، وفرَّ مَنْ بقي منهم، فاستتر الفقيه طالوت عامًا عند يهودي، ثم ترامى على صديقه أبي البسَّام الكاتب ليأخذ له أمانًا من الحكم، فوشى به إلى الحكم، وأحضره إليه فعنّفه ووبّخه، فقال له: كيف يحلّ لي

(١) الأبيات في المصدر السابق دون تغيير عمّا هنا.

(٢) البيت كله لأبي نواس ما عدا قافيته.

(٣) مرَّ التعريف بطالوت بن عبد الجبار المعافري الأندلسي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٤) شقندة، بالإسبانية Secunda: قرية بعدوة نهر قرطبة قبالة قصرها. الروض المعطار (ص ٣٤٩).

أن أخرج إليك وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول: سلطان جائرٌ مدّةً خيرٌ من فتنة ساعة؟ فقال: ألّله تعالى لقد سمعتَ هذا من مالك؟ فقال طالوت: اللهم إني قد سمعته، فقال: انصرف إلى منزلك وأنت آمن، ثم سأله: أين استتر؟ فقال: عند يهودي مدة عام، ثم إني قصدت هذا الوزير فغدر بي، فغضب الحكم على أبي البسّام وعزله عن وزارته، وكتب عهدًا أن لا يخدمه أبدًا، فرؤي أبو البسام بعد ذلك في فاقة وذلّ، فقيل: استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت، رحمه اللّه تعالى!

٢٦٨ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد، ضياء الدين ونظامه، ابن خروف الأديب، القيسي، القرطبي، القيذافي، الشاعر[1].

قدم إلى مصر، ثم سار إلى حلب ومات بها مترديًا في جبّ حنطة سنة ٦٠٣[2] وقيل: في التي بعدها، وقيل: سنة خمس وستمائة. وله شرح كتاب سيبويه[3]، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار، وله شرح جُمل الزجاجي، وكتبٌ في الفرائض وردٌّ على أبي زيد السهيلي، وغير ذلك. ومدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومدح الظاهر ابن الناصر أيضًا:

وشعره جيد، فمنه قوله في كأس[4]: [مجزوء الرمل]

أنا جسمٌ للحُمَيّا والحُمَيّا ليَ روحُ
بين أهل الظَّرْف أغدو كلَّ يومٍ وأروحُ

---

(١) يخلط المقري هنا بين الاسمين؛ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خروف الحضرمي النحوي الإشبيلي، المتوفَّى بإشبيلية سنة ٦٠٩ هـ، وقيل ٦١٠ هـ - ترجمته في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٣١٩) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٣٣٥) وجذوة الاقتباس (ص ٣٠٧) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٨٤) وبغية الوعاة (ص ٣٥٤) وفي المصدرين الأخيرين خلط بين الرجلين - وبين أبي الحسن نظام الدين علي بن محمد بن يوسف بن مسعود بن خروف القيسي القرطبي الشاعر، المتوفَّى سنة ٦٢٠ هـ، والذي ترجمته في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٣٩٦) ووفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٩٤).

(٢) في طبعة دار صادر: «سنة ٦٠٢».

(٣) شرح كتاب سيبويه اسمه «تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب» كما في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٣٢٠). وهكذا فإن صاحب هذا الكتاب وغيره من الكتب اللغوية المذكورة هو ابن خروف النحوي لا الشاعر.

(٤) البيتان في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٨٥) وجذوة الاقتباس (ص ٣٠٨) وبغية الوعاة (ص ٣٥٤).

وقال في صبيّ حبس[1]: [الوافر]

أقاضي المسلمين، حكَمْتَ حُكْمًا   غَدَا[2] وجهُ الزمان به عَبُوسا
حَبَسْتَ على الدراهم ذا جمالٍ   ولم تسجنه[3] إذ سلبَ النفوسا

وقال[4]: [البسيط]

ما أعجبَ النيلَ ما أحلى شمائلَهُ   في ضَفَّتَيه مِنَ الأشجارِ أدواحُ[5]
من جنّة الخلد فيّاضٌ على تُرَعٍ   تهبُّ فيها هبوبَ الريح أرواحُ
ليستْ زيادتُهُ ماءً كما زعموا   وإنما هي أرزاقٌ وأرباحُ[6]

والقيذافي: بقاف، ثم ياء آخر الحروف، بعدها ذال معجمة، ثم ألف، وفاء.

وله رسالة كتب بها إلى بهاء الدين بن شداد بحلب يطلب منه فروة، وهي[7]: [مجزوء الوافر]

بَهاءَ الدِّينِ والدُّنْيا   ونُورَ[8] المَجْدِ والحَسَبِ
طَلَبْتُ مخافةَ الأنوا   ءِ مِنْ جَدْوَاك[9] جِلْدَ أبي
وفَضْلُكَ عالِمٌ أنّي   خَرُوفٌ بارعُ الأدب
حَلَبْتُ الدهرَ أشْطُرَهُ   وفي حلبٍ صَفَا حَلَبي

ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سير السيراء، ويحبُّ النحاة[10] من أجل الفَرّاء، ويمنّ على الخروف النبيه، بجلد أبيه، قَانِيَ الصباغ، قريب عهد بالدباغ، ما

---

(١) البيتان في فوات الوفيات، وسيردان في الجزء الثامن من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في فوات الوفيات: «أتى».
(٣) في المصدر نفسه: «ولم تحبسْه».
(٤) الأبيات في فوات الوفيات (ص ٨٦) وبغية الوعاة (ص ٣٥٤).
(٥) في بغية الوعاة: «أرواح».
(٦) في المصدر نفسه: «وأرواحُ».
(٧) الأبيات في فوات الوفيات (جـ ٣ ص ٨٦) ووفيات الأعيان (جـ ٧ ص ٩٤)، وسترد في الجزء الخامس من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.
(٨) في فوات الوفيات: «ونوء».
(٩) في فوات الوفيات ووفيات الأعيان: «من نعماك».
(١٠) في طبعة ليدن: «ويحب النجاة من أجل القراء» وهو تصحيف.

ضلّ طالب قَرَظِهِ ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه وضَاع[1]، إذا طهر إهابه، يخافه البرد ويهابه، أثيث خمائل الصوف، يهزأ بكل هَوجَاء عصوف، ما في اللباس له ضريب، إذا نزل الجليد والضريب[2]، ولا في الثياب له نظير، إذا عري من ورقه الغصنُ النَّضير، والمولى يبعثه فرجيُّ النوع، أرجيُّ الضوع، يكون تارة لحافًا وتارة بُرْدًا، وهو في الحالين يحيي حَرًّا ويميت بَرْدًا، لا كطَيلَسان ابن حرب، ولا كجلد عمرو الممزّق بالضرب، إن عزاه السواد إلى حام فحام، أو نماه البياض إلى سام فسام، كأنه من جلد جمل الحرباء، الذي يرعى القمر والنجم، لا من جلد السَّخْلة الجرباء، التي ترعى الشجر والنجم، لا زال مهديّه سعيدًا، ينجز للأخيار وعدًا وللأشرار وعيدًا، بالمنّة والطَّول، والقوة والحَول.

٢٦٩ ـ ومنهم مالك بن مالك، من أهل جيان، رحل حاجًّا فأدّى الفريضة، وسكن حلبَ[3]، ولقي عبد الكريم بن عمران، وأنشد له قوله: [البسيط]

يا رَبِّ خُذْ بيدي مِمّا دُفِعْتُ له ... فلسْتُ منه على وِرْدٍ ولا صَدَرِ
الأمرُ ما أنتَ رائيه وعالِمُهُ ... وقد عتِبْتُ ولا عَتْبٌ على القدر
من يكشفُ السوءَ إلّا أنت بارئنا ... ومن يزيلُ بصَفْوٍ حالَةَ الكدر

٢٧٠ ـ ومنهم أبو علي بن خميس، وهو منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم، اللخمي من أهل ألمرية[4].

سمع من أبي عبد اللّٰه البوني[5] وابن صالح، وأخذ عنهما القراءات، وروى أيضًا عن الحافظ القاضي أبي بكر بن العربي، وأبوي القاسم ابن رضا وابن ورد وأبي محمد الرشاطي وأبي الحجاج القضاعي وأبي محمد عبد الحق بن عطية وأبي عمرو الخضر بن عبد الرحمن وأبي القاسم عبد الحق[6] بن محمد الخزرجي وغيرهم. ورحل حاجًّا فنزل الإسكندرية، وسمع منه أبو عبد اللّٰه بن عطية الداني سنة ٥٩٦، وحدّث عنه بالإجازة أبو العباس العزفي وغيره.

---

(١) ضاع المسك ونحوه يضوع: تحرّك فانتشرت رائحته. لسان العرب (ضوع).
(٢) الضريب: الثلج والصقيع. لسان العرب (ضرب).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «حلبًا».
(٤) ترجمة منصور بن خميس اللخمي في التكملة (ص ٧١١).
(٥) في التكملة: «البونتي».
(٦) في طبعة دار صادر: «وأبي القاسم عبد الرحمن». وفي التكملة: «وأبي القاسم عبد الرحيم».

٢٧١ ـ ومنهم منصور بن لُبِّ بن عيسى، الأنصاري[١].

من أهل ألمرية، يكنى أبا علي، أخذ القراءات ببلده عن ابن خميس المذكور قبله، ورحل بعده، فنزل الإسكندرية، وأجازه أبو الطاهر السِّلَفي في صغره، وقد أخذ عنه فيما ذكر بعضهم، ومولده سنة ٥٧١، رحمه اللّٰه تعالى!

٢٧٢ ـ ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج، المَعَافري[٢].

من أهل قرطبة، وهو جَدُّ ابن مفرج صاحب كتاب «الاحتفال، بعلم الرجال»، صحب المذكور محمد بن وضاح في رحلته الثانية، وشاركه في كثير من رجاله، وصَدَرَ عن المشرق معه، فاجتهد في العبادة، وانتبذ عن الناس، ثم كَرَّ راجعًا إلى مكة عند موت ابن وضاح، فنزلها واستوطنها إلى أن مات، فقبره هنالك.

وقال في حقِّه أبو عمر عفيف: إنه كان من الصالحين، رحل فحجَّ وجاور بمكة نحو عشرين سنة إلى أن مات بها، رحمه اللّٰه تعالى!

٢٧٣ ـ ومنهم محب بن الحسين[٣]، من أهل الثغر الشرقي، كانت له رحلة حجّ فيها، وسمع بالقيروان من أبي عبد اللّٰه بن سفيان الكتاب[٤] «الهادي في القراءات» من تأليفه، وكان رجلًا صالحًا، حدّث عنه أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد الملك التجيبي من شيوخ أبي مروان بن الصيقل.

٢٧٤ ـ ومنهم مساعد بن أحمد بن مساعد، الأصبحي[٥].

من أهل أوريولة، يكنى أبا عبد الرحمن، ويُعْرف بابن زعوقة، روى عن ابن أبي تليد وابن جَحْدر، والحافظين أبي علي الصدفي وأبي بكر بن العربي، وكتب إليه أبو بكر بن غالب بن عطية، ورحل حاجًّا في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، فأدَّى الفريضة سنة خمس بعدها، ولقي بمكة أبا عبد اللّٰه الطبري، فسمع منه صحيح مسلم، مشتركًا في السماع مع

---

(١) ترجمة منصور بن لبّ الأنصاري في التكملة (ص ٧١٢).
(٢) ترجمة مفرج بن حماد بن مفرج المعافري في التكملة (ص ٧٢٠) وفيه أنَّ ابن مفرج يُعْرف بالقبشي.
(٣) ترجمة محب بن الحسين في التكملة (ص ٧٣٤).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «الكناني».
(٥) ترجمة مساعد بن أحمد بن مساعد الأصبحي في التكملة (ص ٧٣٤).

أبي محمد بن جعفر الفقيه، ولقي أبا محمد بن العرجاء وأبا بكر بن الوليد الطرطوشي وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي وأبا عبد اللّٰه المازري وجماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيختهم[1]، وانصرف إلى بلده فسمع منه الناسُ، وأخذوا عنه لعلوّ روايته، وكان من أهل المعرفة والصلاح والورع، ومِمَّنْ حدَّث عنه من الجلّة أبو القاسم بن بَشْكُوَال، وأبو الحجاج الثغري الغرناطي، وأبو محمد عبد المنعم بن الفرس وغيرهم، وأغفله بن بَشْكُوال فلم يذكره في الصلة مع كونه روى عنه، وقال تلميذه أبو الحجاج الثغري الغرناطي: أخبرني أبو سليمان بن حَوط اللّٰه وغيره عنه، قال: أخبرني الحاج أبو عبد الرحمن بن مساعد، رضي اللّٰه تعالى عنه: أنه لقي بالمشرق امرأة تُعْرف بصباح عند باب الصفا، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير، فجاء بيت شعر شاهد، فسألْتُ: هل له صاحب؟ فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء، فقال الشيخ: لا أذكر له صاحبًا، فأنشدَتْ: [الخفيف]

طَلَعَتْ شمسُ مَنْ أَحَبَّكَ ليلاً ... واستضاءتْ فما لها من مغيبِ
إنَّ شمسَ النهارِ تَغْرُبُ بالليـ ... ـل وشمسُ القلوبِ دون غروبِ

ولد في صفر سنة ٤٦٨، وتوفي بأوريولة سنة ٥٤٥، قاله ابن شعبان[2].

٢٧٥ - ومنهم أبو حبيب نصر بن القاسم[3].

قال ابن الأبار: أظنّه من أهل غَرْنَاطة، له رحلة حجَّ فيها، وسمع من أبي الطاهر السِّلَفي، وحدّث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهري، انتهى.

٢٧٦ - ومنهم النعمان بن النعمان، المَعافري[4].

من أهل مَيُورْقَة، منسوب إلى جدّه، رحل حاجًّا فأدَّى الفريضة وجاور بمكة ثم قفل إلى بلده، واعتزل الناس، وكان يُشَار إليه بإجابة الدعوة، وتوفي سنة ٦١٦ رحمه اللّٰه تعالى! ونفعنا به!.

٢٧٧ - ومنهم نعم الخلف بن عبد اللّٰه بن أبي ثور، الحضرمي[5].

---

(١) في طبعة دار صادر: «مشيخته».
(٢) في الطبعة نفسها: «ابن سفيان».
(٣) ترجمة أبي الحبيب نصر بن القاسم في التكملة (ص ٧٤٨).
(٤) ترجمة النعمان بن النعمان المعافري في التكملة (ص ٧٥٣).
(٥) ترجمة نعم الخلف بن عبد اللّٰه بن أبي ثور الحضرمي في التكملة (ص ٧٥٧).

من أهل طُرْطوشة أو ناحيتها، رحل إلى المشرق، وأدّى الفريضة، ولقي بمكة أبا عبد اللّه الأصبهاني، فسمع منه سنة ٤٢٢، حدّث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير.

٢٧٨ - ومنهم نابت - بالنون - ابن المفرج بن يوسف، الخثعمي[١].

أصله من بَلَنْسِيَة، وسكن مصر، يكنى أبا الزهر. قال السِّلَفي: قدم مصر بعد خروجي منها، وتفقّه على مذهب الشافعي، وتأدّب، وقال الشعر الفائق، وكتب إليَّ بشيء من شعره، ومات في رجب سنة ٥٤٥ بمصر.

٢٧٩ - ومنهم ضمام بن عبد اللّه، الأندلسي[٢].

رحل إلى المشرق، ودخل بغداد، وهو ممن يروي[٣] عن عبد السلام بن مسلمة[٤] الأندلسي، ومِمَّن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الخشاب البغدادي من شيوخ الدارقطني. قال ابن الأبار: هكذا وقع في نسخة عتيقة من تأليف الدارقطني في الرواة عن مالك في باب مَسْلَمة منه ضمام - بالضاد المعجمة - وهكذا ثبت في رواية أبي زكريا بن مالك بن عائذ[٥] عن الدارقطني، وقال فيه غيره: هَمَّام بن عبد اللّه - بالهاء وتشديد الميم - وفي حرف الهاء أثبته أبو الوليد بن الفرضي من تاريخه، والأول عندي أصح، واللّه تعالى أعلم، انتهى.

٢٨٠ - ومنهم ضرغام بن عروة بن حجاج بن أبي فُرَيعة[٦]، واسمه زيد، مولى عبد الرحمن بن معاوية والداخل معه إلى الأندلس، من أهل لَبْلَة، له رحلة إلى المشرق، وكان فقيهًا، ذكره الرازي.

---

(١) ترجمة نابت بن المفرج الخثعمي في التكملة (ص ٧٥٨).

(٢) توفي ضمام بن عبد اللّه الأندلسي نحو سنة عشرين وثلاثمائة، وترجمته في جذوة المقتبس (ص ٢٤٦) وبغية الملتمس (ص ٣٢٥) والتكملة (ص ٧٧٠) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٤٥) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٨٩٣). وفي المصدر الأخير: «همام بن عبد اللّه» بالهاء.

(٣) في طبعة ليدن: «روى».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «مسلم».

(٥) في طبعة ليدن: «عائد» بالدال المهملة.

(٦) ترجمة ضرغام بن عروة بن أبي فريعة في التكملة (ص ٧٧٠) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٤٥). وفي المصدر الأخير: «قريعة» بالقاف.

٢٨١ ـ ومنهم عبد اللّٰه بن محمد بن عبد اللّٰه بن عامر بن أبي عامر، الْمَعَافري[١].

من أهل قرطبة، وأصله من الجزيرة الخضراء، وهو والد المنصور بن أبي عامر ويكنى أبا حفص، سمع الحديث، وكتبه عن محمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم، ورحل إلى المشرق فأدَّى الفريضة، وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجي وقال: كان لي خير صديق أنتفع به وينتفع بي، وأقابل معه كتبه وكتبي، ومات مُنْصَرَفَه من حجّه، ودفن بمدينة طرابلس المغرب، وقيل: بموضع يقال له رَقَّادة، وكان رجلاً عالمًا صالحًا، وقال بعضهم: إنه توفي في آخر خلافة عبد الرحمن الناصر.

٢٨٢ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّٰه بن حمود، الزبيدي، الإشبيلي، ابن عم أبي بكر محمد بن الحسن، الزبيدي، اللغوي[٢].

كان[٣] من مشاهير أصحاب أبي علي البغدادي، ورحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس، ولازم السيرافي في بغداد إلى أن توفي، فلازم بعده صاحبه أبا علي الفارسي ببغداد والعراق، وحيثما جال، واتّبعه إلى فارس، وحكى أبو الفتوح الجرجاني[٤] أن أبا علي البغدادي غَلَّس لصلاة[٥] الصبح في المسجد، فقام إليه أبو محمد الزبيدي من مِذْود كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو أدلج إليه ليكون أول وارد عليه، فارتاع منه، وقال: ويحك! من تكون؟ قال: أنا عبد اللّٰه الأندلسي، فقال له: إلى كم تتبعني؟ واللّٰه إنه ليس على وجه الأرض أنحى منك[٦]. وكان من كبار النحاة وأهل المعرفة التامّة والشعر، وجمع شرحًا لكتاب سيبويه، ويقال: إنه توفي ببغداد سنة ٣٧٢[٧].

---

(١) ترجمة عبد اللّٰه بن محمد بن أبي عامر المعافري في التكملة (ص ٧٨١).

(٢) ترجمة عبد اللّٰه بن حمود الزبيدي الإشبيلي في التكملة (ص ٧٨٣) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٢٢٠) وإنباه الرواة على أنباه النحاة (جـ ٢ ص ١١٨) وبغية الوعاة (ص ٢٨٢) وطبقات النحويين واللغويين (ص ٣٩٩).

(٣) ينقل المقري هنا عن التكملة لابن الأبار.

(٤) حكاية الجرجاني أيضًا في إنباه الرواة (جـ ٢ ص ١١٩).

(٥) غَلَّسَ لصلاة الصبح: خرج إليها وقت الغلس وهو قبل أن يسفر الصبح. لسان العرب (غلس).

(٦) في طبعة دار صادر: «إن على وجه الأرض..». وأنحى منك: أَعْرَفُ منك بالنحو.

(٧) في طبعة عبد الحميد: ٣٧٣.

٢٨٣ ـ ومنهم عبد اللّه بن رشيق، القرطبي[١].

رحل من الأندلس، فأوطن القيروان[٢]، واختصّ بأبي عمران الفاسي، وتفقّه به، وكان أديبًا شاعرًا عفيفًا خيِّرًا، وفي شيخه أبي عمران أكثرُ شعره، ورحل حاجًّا فأدّى الفريضة، وتوفي في انصرافه بمصر سنة ٤١٩، وأنشد له ابن رشيق في «الأنموذج» قولَه رحمه اللّه تعالى[٣]: [مجزوء الخفيف]

خيرُ أعمالكَ الرضا ... بالمقاديرِ والقضا
بينما المرء ناضرٌ[٤] ... قيل: قد مات وانقضى

وقوله[٥]: [الطويل]

سأقطع حبلي مِنْ حبالك جاهدًا ... وأهجرُ هجرًا لا يجرُّ[٦] لنا عرضا
وقد يُعْرِضُ الإنسانُ عَمَّنْ يَوَدُّهُ ... ويَلْقَى بِبِشْرٍ مَنْ يُسِرُّ له البغضا

قال في «الأنموذج»: وأراد الحجّ فناله وجعٌ فمات بمصر بعد اشتهاره فيها بالعلم والجلالة، وقد بلغ عمره نحو الأربعين سنة، رحمه اللّه تعالى! وهو مخالف لِمَا قدّمْناه من أنه أدّى الفريضة، وقد ذكر ابن الأبار العبارتين، واللّه تعالى أعلم.

٢٨٤ ـ ومنهم أبو بكر اليابري، ويكنى أيضًا أبا محمد، وهو عبد اللّه بن طلحة بن محمد بن عبد اللّه[٧].

أصله من يابرة، ونزل هو إشبيلية، وروى عن أبي الوليد الباجي وعن جماعة بغرب الأندلس منهم أبو بكر بن أيوب وأبو الحزم بن عليم وأبو عبد اللّه بن مزاحم البَطَلْيَوسِيُّون وغيرهم، وكان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وحفظ التفسير والقيام عليه، وحلّق به[٨] مدّة

(١) ترجمة عبد اللّه بن رشيق القرطبي في التكملة (ص ٧٩٣) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٢٢٥).
(٢) أوطن القيروان: أقام بها واتّخذها وطنًا. لسان العرب (وطن).
(٣) البيتان في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٢٢٦).
(٤) في الذيل والتكملة: «ناطقٌ».
(٥) البيتان في الذيل والتكملة.
(٦) في الذيل والتكملة: «لا يجزُّ».
(٧) ترجمة عبد اللّه بن طلحة اليابري في التكملة (ص ٨١٥).
(٨) حلّق به: كانت له به حلقة. لسان العرب (حلق).

بإشبيلية وغيرها، وهو كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملاً على العامّة، وكان متكلّمًا، وله ردٌّ على أبي محمد بن حَزْم، وكان أحد الأئمة بجامع العدبّس[1]، ورحل إلى المشرق، فروى عن أبي بكر محمد بن زيدون بن علي كتابه المؤلّف في الحديث المعروف بالزيدوني، وألّف كتابًا في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد[2]، وبيَّن ما فيها من العقائد، وله مجموعة في الأصول والفقه منها كتاب سمّاه «المدخل» إلى كتاب آخر سمّاه «سيف الإسلام، على مذهب مالك الإمام» ألّفه للأمير علي بن تميم بن المعز الصِّهناجي، صاحب المهدية، وذكر في فصل الحجّ منه أنه رحل إلى المهدية سنة ٥١٤[3]، واستوطن مصر مدّة، ثم رحل إلى مكة، وبها توفي رحمه اللّه تعالى! وروى عنه أبو المظفر الشيباني وأبو محمد العثماني وأبو الحجاج يوسف بن محمد القَيرَواني وأبو عمرو عثمان بن فرج العبدري وأبو محمد بن صدقة المنكبي وأبو عبد بن يعيش البَلَنْسي وغيرهم، وكان سماع أبي الحجاج منه موطأ مالك سنة ٥١٦، رحم اللّه تعالى الجميع!

٢٨٥ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن مرزوق، اليَحْصُبي، الأندلسي[4].

رحل حاجًّا فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السِّلفي كتاب «طبقات الأمم» لأبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي، وحدَّث به عنه عن ابن بُرْأل[5] عن صاعد.

٢٨٦ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن محمد، الصريحي، المرسي، ويُعْرف بابن مطحنة[6].

روى عن أبي بكر بن الفَرَضي النحوي، وتأدّب به، ورحل إلى المشرق، ولقي أبا محمد العثماني وغيره، وحجَّ، وقعد لتعليم الآداب، ومِمَّنْ أخذ عنه أبو عبد اللّه محمد بن عبد السلام وأبو عبد اللّه المكناسي وغيرهما، وأنشد، رحمه اللّه تعالى، قال: أنشدني أبو

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «العديس». وفي طبعة ليدن: «العريس».
(٢) في طبعة ليدن: «رسالة ابن زيدون».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «سنة ٥١٥».
(٤) ترجمة عبد اللّه بن محمد بن مرزوق الأندلسي في التكملة (ص ٨١٨).
(٥) في طبعة دار صادر: «بُرّال».
(٦) ترجمة عبد اللّه بن محمد المرسي ابن مطحنة في التكملة (ص ٨٣٠).

محمد عبد اللّه بن الْبَيَّاسي[1] بالإسكندرية لنفسه: [الوافر]

يمـدُّ الـدهـرُ مِنْ أجلي وعُمْـرِي ... كـمـا أنـي أمـدُّ مِـنَ الـمِـدادِ
لـنـا خـطَّانِ مـخـتـلفـانِ جـدًّا ... كمـا اختلف المُـوَالي والمُعَـادي
فـأكتبُ بـالسـواد على بيـاضٍ ... ويكتبُ بـالبيـاض على الـسـوادِ

وهذا نظير قول الآخر: [الوافر]

ولـي خطٌّ ولـلأيـام خطٌّ ... وبينهمـا مـخـالَفَـةُ الـمِـدادِ
فـأكتُبُـهُ سـوادًا فـي بيـاضٍ ... وتكتُبُـه بيـاضًـا فـي سـوادِ

وبعضهم ينسب الأبيات الثلاثة السابقة للسِّلفي الحافظ، فاللّه تعالى أعلم.

٢٨٧ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن عيسى، الشِّلْبي[2].

سمع من الصدفي وغيره، وكان من أهل الحفظ للحديث ورجاله والعلم بالأصول والفروع ومسائل الخلاف وعلم العربية والهيئة مع الخير والدين والزهد، وامتحن بالأمراء في قضاء بلده بعد أن تقلّده نحو تسعة أعوام لإقامته الحقّ وإظهاره العدل حتى أدّى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية، ثم سُرِّحَ فرحل حاجًّا إلى المشرق، ودخل المهدية فلقي بها المازِرِي، وأقام في صحبته نحو ثلاث سنين، ثم انتقل إلى مصر، وحجَّ سنة ٥٢٧، وأقام بمكة مجاورًا، وحجّ ثانية سنة ٥٢٨، ولقي بمكة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوريولي في هذه السنة، فحمل عنه، ودخل العراق وخُرَاسان، وأقام بها أعوامًا، وطار ذكره في هذه البلاد، وعظم شأنه في العلم والدين، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال، وتوفي بهَرَاة سنة ٥٥١، وقيل: إن وفاته سنة ٥٤٨، وذكره العماد في «الخريدة» والسمعاني في «الذيل»، وأنشد له: [الطويل]

تَـلَوَّنَـتِ الأيـامُ لـي بِصُـرُوفـهـا ... فكنتُ على لَـونٍ مِنَ الصَّبْـر واحـدِ
فـإن أقبلتْ أدبـرتُ عنهـا وإنْ نـأتْ ... فـأهْـوِنْ بمفـقـودٍ لأكـرمِ فـاقـدِ

وولد سنة ٤٨٤ بشِلْبٍ، رحمه اللّه تعالى!

---

(١) في التكملة: «ابن أبي اليابس».
(٢) ترجمة عبد اللّه بن عيسى الشِّلْبي في التكملة (ص ٨٣٤).

٢٨٨ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن موسى، الأزدي، المُرْسي، ويُعْرف بابن بُرْطُلَة[١].

سمع من صهره القاضي الشهيد أبي علي الصدفي، ورحل حاجًا سنة ٥١٠، فأدّى الفريضة وسمع من الطرطوشي والأنماطي والسِّلفي وغيرهم، وانصرف إلى مُرْسِية بلده، وكان حسن السَّمْت خاشعًا مُخْبِتًا خيِّرًا متواضعًا نبيهًا نزهًا سالم الباطن، وحكى عن شيخه أبي عبد اللّه الرازي عن أبيه أنه أخبره أن قاضي البرلس، وكان رجلاً صالحًا، خرج ذات ليلة إلى النِّيل فتوضّأ وأسبغ وضوءه، ثم قام فقرن قدميه وصلّى ما شاء اللّه تعالى أن يصلّي، فسمع قائلاً يقول: [البسيط]

لولا أناسٌ لهمْ سَرْدٌ يصومونا ... وآخرون لهمْ وِرْدٌ يقومونا
لزلزلَتْ أرضُكُمْ مِنْ تحتكُمْ سحَرًا ... لأنكُمْ قومُ سوءٍ لا تبالونا

قال: فتجوَّزت في صلاتي، وأدرت طرفي فما رأيتُ شخصًا ولا سمعْتُ حسًّا، فعلمْتُ أنَّ ذلك زاجر من اللّه تعالى!

وقال ابن بُرْطُلهْ رحمه اللّه تعالى: أنشدني أبو عامر قال: دخلت بعض مَرَاسي الثغر، فوجدْتُ في حَجَرٍ منقوشٍ هذه الأبيات: [المتقارب]

نَزَلْتُ ولي أملٌ عودةٌ ... ولكنني لستُ أدري متى
ودافعني قَدَرٌ لم أُطِقْ ... دفاعًا لمكروهِهِ إذ أتى
ومَنْ أمرُه في يَدَيْ غيره ... سَيُغْلَبُ إنْ لانَ أو إنْ عَتَا[٢]
فيا نازلاً بعدنا ههنا ... نُحَيِّيك إنْ كنتَ نِعْمَ الفتى

فسألت عن منشدها، فقيل لي: هو أبو بكر بن أبي درهم الوَشْقِي، وكان قد حجّ وأراد العَودة، فقال هذه الأبيات، ورواها بعضهم «رحلت» مكان «نزلت»، وهو أصوب، وأبدل قوله «يا نازلاً» بـ«يا ساكنًا»، والْخَطْب سَهْل فيه، وبعض يقول: إنّ الأبيات وُجِدَتْ بجامع مصر، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) ترجمة عبد اللّه بن موسى بن بُرْطُلة المرسي في التكملة (ص ٨٤١) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٢٣٠).

(٢) عَتَا: استكبر وجاوز الحدّ، لسان العرب (عتا).

٢٨٩ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّٰه بن محمد بن خلف بن سعادة، الداني، الأصبحي[١].

لازم ابن سعد الخير، واحتذى أول أمره مثالَ خطِّه فقاربه، وسمع منه، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر بن عوف والسِّلفي وغير واحد. قال التجيبي: كان معنا بالإسكندرية بالعادلية[٢] منها. وبقراءته سمعنا صحيح البخاري على السلفي[٣] سنة ٥٧٣. قال: وأنشدنا لشيخه الأستاذ أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الخير البَلَنْسي: [الكامل]

يا لاحظًا تمثالَ نَعْلِ نبيِّه ... قَبِّلْ مثال النَّعْل لا متكبِّرا
والْثِمْ له[٤] فلطالما عَكَفَتْ به ... قَدَمُ النبيّ مُرَوِّحا ومبكرا
أَو لا ترى أنَّ المحبَّ مُقَبِّلٌ ... طَلَلًا وإن لم يُلْفِ فيه مُخْبِرَا

وقد سبق ابن سعادة أبو عبد اللّٰه وهو غير هذا، واللّٰه تعالى أعلم!

٢٩٠ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّٰه بن يوسف، القُضَاعي، المري[٥].

سمع من أبي جعفر بن غزلون صاحب الباجي وغير واحد، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من السِّلفي والرازي، وتجوّل هنالك، وأخذ عنه أبو الحسن بن المفضل المقدسي وغير واحد. وقال ابن المفضل: أنشدني المذكور، قال: أنشدني أبو محمد بن صارة: [البسيط]

وكوكبٍ أبصرَ العفريتَ مُسْتَرِقًا ... للسمع فانْقَضَّ يُدْني خَلْفَه لَهَبَهْ
كفارسٍ حَلَّ إعصارُ[٦] عمامتَهُ ... فجرَّها كلَّها من خلفه عَذَبَهْ

٢٩١ ـ ومنهم شهاب الدين أحمد بن عبد اللّٰه بن مهاجر، الوادي آشي، الحنفي[٧].

---

(١) ترجمة عبد اللّٰه بن محمد الأصبحي الداني في التكملة (ص ٨٥٠) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٢٢٧).
(٢) في الذيل والتكملة (ص ٢٢٨): «بالمدرسة العادلية».
(٣) في المصدر نفسه: «على أبي الطاهر..».
(٤) في التكملة: «به».
(٥) ترجمة عبد اللّٰه بن يوسف القضاعي في التكملة (ص ٨٥٦) وفيه أنَّ أصل القضاعي من أندة.
(٦) في التكملة: «إحضار».
(٧) ترجمة أحمد بن عبد اللّٰه بن مهاجر الوادي آشي في الوافي بالوفيات (جـ ٧ ص ١٣٦) والدرر الكامنة (جـ ١ ص ١٨٢).

سكن طرابلس الشام، ثم انتقل إلى حلب، وأقام بها، وصار من العدول المبرزين في العدالة بحلب، يعرف النحو والعروض، ويشتغل فيهما، وله انتماء إلى قاضي القضاة الناصر ابن العديم. قال الصفدي: رأيته بحلب أيام مقامي بها سنة ٧٢٣، فرأيته حسن التودّد، وأنشدني لنفسه من لفظه[١]: [الكامل]

مـا لاحَ فـي دِرْعٍ يَصُـوْلُ بِسَيفِـهِ ... والـوَجْـهُ منـه يضيء تحت المِغْفَـرِ[٢]
إلّا حَـسِبْـتُ البحـرَ مَـدَّ بجـدولٍ ... والشمسُ تحت سحـائبٍ مِـنْ عَنْبَـرِ

قال الصفدي: جمع هذا المقطوع بَينَ قول ابن عباد[٣]: [المتقارب]

ولَمَّـا اقْتَحَمْتَ الـوَغَى دارعًـا ... وقَنَّعْتَ وَجْهَـكَ بـالمِغْفَـرِ
حَسِبْنـا مُحَيَّـاكَ شمسَ الضُّحَى ... عليهـا سحـابٌ مِنَ العنبـر

وبَينَ قول أبي بكر الرصافي[٤]: [الكامل]

لـو كنتَ شاهِـدَهُ وقـد غَشِيَ الـوَغَى ... يختـالُ في دِرْعِ الحـديـدِ المُسْبَـلِ
لَـرَأَيـتَ منـه والـقـضيـبُ بـكـفِّـهِ ... بحـرًا يُـرِيقُ دمَ الكُمَـاةِ بجـدولِ

وقال يمدح الشيخ كمال الدين محمد بن الزملكاني وقد توجّه إلى حلب قاضي القضاة: [البسيط]

يُمنٌ تَـرَنَّمَ فـوق الأيـكِ طـائـرُه ... وطـائـرٌ عَمَّتِ الـدنيـا بشـائِـرُهُ
وسُؤدَدٌ أصبـح الإقبـالُ ممتـثـلًا ... فـي أمـره مـا أخـوه العِـزُّ آمِـرُهُ

ومنـهـا:

مَـنْ مُخْبـرٌ عنّيَ الشهبـاءَ[٥] أنَّ كـمـا ... لَ الـدينِ قـد شُيِّـدَتْ فيـه مقـاصِـرُهُ
وأنَّ تـقـليـده الـزاهـي وخـلعـتـه الـ ... ـتـي تـطرِّزُ عـطْفَـيـهـا مـآثـرُهُ

---

(١) البيتان في الوافي بالوفيات (ص ١٣٧).

(٢) المِغْفَرُ: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة. لسان العرب (غفر).

(٣) البيتان في ديوان المعتمد بن عباد (ص ١٧) وقلائد العقيان (ص ٨) والوافي بالوفيات (ص ١٣٧)، وسيردان في الجزء السادس من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.

(٤) البيتان في ديوان الرصافي البلنسي (ص ١٢٥) والوافي بالوفيات. وقد يكونا لرصافي آخر؛ لأن كنية الرصافي البلنسي هي أبو عبد الله وليس أبا بكر.

(٥) الأبيات في الوافي بالوفيات (ص ١٣٧ - ١٣٨)، وكذلك الأبيات التالية. الشهباء: مدينة حلب.

بـالنفس أفـديـكَ مِنْ تقليـد مجتهـدٍ ... سـواهُ يـوجـدُ في الـدنيـا مُنـاظـرُهُ
أنشـدتُ حيـن أدار البـشـر كـأس طَلًى ... حـكـتْ أوائـلَهُ صـفـوًا أواخِـرُه
وقـد بدتْ في بيـاضِ الطِّرْس[1] أسطرُهُ ... سـودًا لِتُبْـدِيَ مـا أهـدتْ محـابـره
سـاقٍ تـكـوَّنَ مِنْ صبـحٍ ومـن غسـقٍ ... فـابـيضَّ خـدّاه واسـودَّتْ غـدائـره
وخـلعـة قـلتُ إذ لاحـتْ لـتـزريَنـا ... بـالـروضِ تَـطْفُـو على نهـرٍ أزاهـره
وقـد رآهـا عـدوٌّ كـان يُـضْـمِـرُ لـي ... مِنْ قَبْـلُ سـوءًا فـخـانتْـه ضمـائـره
ورام صـبـرًا فـأعْـيَـتْـهُ مـطالـبُـهُ ... وغَـيَّضَ الـدمـع فـانـهـلَّتْ بـوادره
بـعـودةِ الـدولـةِ الـغـرّاءِ ثـالـثـةً[2] ... أمـنـتُ مـنـك ونـام الـلـيـلَ سـاهِـرُهُ

وقال أيضًا: [الوافر]

تَسَعَّـرُ في الـوغى نيـرانُ حـرب ... بـأيـديـهـمْ مُـهَـنَّـدةٌ ذكـورُ
ومِنْ عَجَبٍ لـظًى قـد سَعَّـرَتْهـا ... جـداولُ قـد أَقَـلَّتْـهـا بُـدُورُ

وقال ملغزًا في قالب لبن: [المجتث]

مـا آكـلٌ فـي فَـمـيـنِ ... يـغـوطُ مِنْ مـخـرجـيـنِ
مُـغْـرًى بـقـبضٍ وبسطٍ ... ومـا لـه مـن يَـدَيـنِ
ويـقـطعُ الأرضَ سعـيًـا ... مـن غيـرِ مـا قَـدَمَـيـنِ

وخَمَّسَ لاميّـة العجم مدحًـا في رسول اللّه ﷺ. قـال الصفدي: ولمّـا كنت في حلب كتب إليَّ أبياتًا، انتهى.

٢٩٢ ـ ومنهم أبو جعفر أحمد بن صابر، القيسي[3].

قال أبو حيان: كان المـذكور رفيقًـا للأستـاذ أبي جعفر بن الـزبير شيخنـا، وكان كـاتبًا مترسِّلاً شـاعرًا، حسن الخطّ، على مـذهب أهل الـظاهر، وكـان كاتبًـا للأمير[4] أبي سعيد فرج ابن السلطان الغالب باللّه ابن الأحمر ملك الأندلس، وسبب خروجه من الأندلس أنه كان

---

(١) الطِّرْسُ: الصحيفة. لسان العرب (طرس).
(٢) في الوافي بالوفيات (ص ١٣٨): «ثانية».
(٣) ترجمة أحمد بن صابر القيسي في المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي (جـ ١ ص ٢٩٩).
(٤) في طبعة دار صادر: «وكان كاتب أبي سعيد..».

يرفع يديه في الصلاة على ما صحّ في الحديث، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد اللَّه، فتوعّده بقطع يديه، فضجّ من ذلك وقال: إن إقليمًا تماتُ فيه سنّةُ رسولِ اللَّه ﷺ، حتى يُتَوَعَّدُ بقطع اليد من يقيمها لجدير أن يرحل منه، فخرج وقدم ديار مصر، وسمع بها الحديث، وكان فاضلًا نبيلًا، ومن شعره: [الطويل]

أَتُنْكِرُ أنْ يَبْيَضَّ رأسي لحادثٍ ... من الدهر لا يَقْوَى له الجبلُ الراسي
وكان شعارًا في الهوى قد لبسْتُه ... فرأسيَ أُمَّيٌّ وقلبيَ عباسي

قلت: لو قال «شيبي» لكان الغاية.

وأنشد له بعضهم: [الطويل]

فلا تعجبا مِمَّنْ عَوَى خَلْفَ ذي عُلًا ... لكلِّ عليٍّ في الأنام مُعَاوِيَهْ

قلت: لا يخفى ما فيه من عدم سلوك الأدب مع الصحابة، رضي اللَّه تعالى عنهم أجمعين، ويرحم اللَّه بعض الأندلسيين حيث قال في رجز كبير: [الرجز]

ومن يكنْ يقدحُ في معاويهْ ... فذاك كلبٌ مِنْ كلابٍ عاريهْ

وأنشد أبو حيان للمذكور: [المتقارب]

أرى الدهرَ ساد به الأرذلو ... ن كالسَّيلِ يطفو عليه الغُثَا[1]
ومات الكرامُ وفات المديحُ ... فلم يَبْقَ للقول إلّا الرثا[2]

وأنشد له أيضًا: [السريع]

لولا ثلاثٌ هنَّ واللَّه مِنْ ... أكبرِ آماليَ في الدنيا
حَجٌّ لبيت اللَّه أرجو به ... أن يقبلَ النيّةَ والسَّعْيا
والعلمُ تحصيلًا ونشرًا إذا ... رَوَيتُ أوسَعْتُ الورى رِيّا
وأهلُ ودٍّ أسألُ اللَّه أنْ ... يُمْتِعَ بالبُقْيا إلى اللقيا
ما كنتُ أَخْشَى الموتَ أنَّى أتى ... بل لم أكنْ أَلْتَذُّ بالمحيا

---

(١) الغُثا: أصلها «الغُثاء» وهو ما يجرفه السيل ويطفو على وجه الماء. لسان العرب (غثا).

(٢) أصله: «الرِّثاء».

وقال أبو حيان في هذه المادة[1]: [الطويل]

أَمَا إنه لولا ثلاثٌ أُحِبُّها ... تَمَنَّيتُ أنِّي لا أُعَدُّ مِنَ الأَحْيَا
فمنها رجائي أنْ أفوزَ بتوبةٍ ... تُكَفِّرُ لي ذَنْبًا وتُنْجِحُ لي سَعْيا
ومنهنَّ صَوني النَّفْسَ عن كلِّ جاهلٍ ... لئيمٍ فلا أمشي إلى بابه مشيا
ومنهنَّ أخذي بالحديث إذا الورى ... نَسُوا سُنَّةَ المختار واتَّبعوا الرأيا
أتترك نَصًّا للرسول وتَقْتَدي ... بشخصٍ؟ لقد بُدِّلْتَ بالرُّشْدِ الغَيّا

٢٩٣ ـ ومنهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضي أبي الوليد الباجي.

سكن سَرَقُسْطَة وغيرها، وروى عن أبيه معظم علمه، وخَلَفه بعد وفاته في حلقته، وغلب عليه علم الأصول والنظر، وله تآليف تدلّ على حذقه؛ منها «العقيدة، في المذاهب السديدة» ورسالة «الاستعداد، للخلاص من المعاد». وكان غاية في الورع، توفي بجدة بعد منصرفه من الحجّ سنة ٤٩٣، رحمه اللّه تعالى!.

٢٩٤ ـ ومنهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد الساحلي، الغَرْنَاطي[2].

قال العز بن جماعة: قدم علينا من المغرب سنة ٧٢٤، ثم رجع إلى المغرب في هذه السنة، وبلغنا أنه توفي بمراكش سنة نيّف وأربعين وسبعمائة[3]، وأنشد والدي قصيدةً من نظمه امتدحه بها، وأنا أسمع، ومن خطِّه نقلْتُ، وهي: [الطويل]

قِفَا مَوْرِدًا عَينًا جرتْ بعدكُمْ دمًا ... أناضيَ أسفارٍ طوينَ على ظَمَا
غَدَونَ أهِلَّاتٍ تناقل أنجمًا ... ورُحْنَ حنيّات[4] تفوّق أسهما
يجشّمها الحادي الأمرّين حُسَّرًا ... ويوطئها الحادي الأحَرَّين هُيَّمَا
على مَنْسِمَيهَا للشقائق مَنْبِتٌ ... وفي فمويها للشقاشق مُرْتَمَى

---

(١) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء (ص٣١٤).

(٢) ترجمة إبراهيم بن محمد الساحلي الغرناطي مكررة، انظر رقم ١١٧ في الجزء الثاني؛ وقد أشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

(٣) في نثير فرائد الجمان (ص٣٠٨): توفي سنة ٧٤٤ هـ. وفي الجزء الثاني من نفح الطيب (ص٤٠٧): سنة ٧٤٧ هـ.

(٤) الحنيّات: جمع حنية وهي القوس. لسان العرب (حنا).

إلى أن قال:

وتعسًا لآمالٍ جهامٍ سحابُها	تُزَجَّى رُكَامًا ما استهلَّ ولا همى
تجاذبها نفسٌ تجيشُ نفيسةً	ومن لم يجدْ إلَّا صعيدًا[1] تيمَّما
فهل ذممٌ يرعاه ليلُ طويته	طوانيَ سِرًّا بين جنبيه منهما
أُقَبِّلُ منه للبروق مَبَاسمًا	وأرشفُ من بهماء ظلمائه لمى
إلى أنْ تجلَّى من كنانةَ بَدْرُهَا	فَعَرَّسَ[2] ركبي في حِماهُ وخيَّما
ثِمَالُ اليتامى حيث ليس مظلل	وكهف الأيامى أيما عَزَّ مرتمى

ومنها:

فيا كفَّه أأنت أم غيثُ ديمةٍ	أسالت عُبَابًا في ثرى الجود عَيلما[3]
ويا سَعْيَه يَهْنيك أَجْرٌ ثنى به	على معطفيْ علياهُ بُرْدًا مُسَهَّما
قضى بمِنًى أوطارَ نَفْسٍ كريمةٍ	ورَوَّى صداها حين حلَّ بزمزما
وناداه داعي الحقِّ حَيَّ على الهُدى	فأَسْرَجَ طوعًا في رضاه وألجما
فللَّه ما أهدى وأرشدَ واهتدى	ولله ما أعطى وأوفى وأنعما

ومنها:

أمتَّ بآدابٍ وعلمٍ كليهما	أقاما لديك الدّعي فرضًا وألزما

وهي طويلة.

٢٩٥ - ومن الراحلين من الأندلس الوليد بن هشام، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين[4].

خرج من الأندلس على طريقة الفقر والتجرّد، ووصل بَرْقَة بِرَكْوَة لا يملك سواها فعرف بأبي ركوة، وأظهر الزهد والعبادة، واشتغل بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن، وتغيير

(١) الصعيد: التراب. لسان العرب (صعد).

(٢) عَرَّسَ: نزل للاستراحة. لسان العرب (عرس).

(٣) في طبعة دار صادر: «هل أنت» بدل «أأنت». والعَيْلَمُ: البئر الواسعة أو البحر. لسان العرب (علم).

(٤) ترجمة الوليد بن هشام بن أبي ركوة في الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية (جـ ٦ ص ٢٧٥) واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (ص ٣٠٤) والكامل في التاريخ (جـ ٩ ص ١٩٧) ووفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٩٦).

المنكر، حتى خدع البربر بقوله وفعله، وزعم أن مَسْلَمة بن عبد الملك بشّر بخلافته بما كان عنده من علم الحدثان، وكان يقال عن مسلمة: إنه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية، وأخرج لهم أرجوزة أسندها إلى مسلمة، ومنها في وصفه: [الرجز]

وابنُ هشامٍ قائمٌ في بَرْقَهْ   به ينالُ عبدُ شمسٍ حَقَّهْ
يكونُ في بربرها قِيَامُهْ   وقُرَّةُ العُرْب لها إكرامُهْ

واتّفق أنّ قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه، وحصروا معه مدينة برْقة حتى فتحوها، وخطبوا له فيها بالخلافة، وكان قيامه في رجب سنة ٣٩٧، فهزم عسكر باديس الصِّنْهاجي صاحب إفريقية وعسكر الحاكم بمصر، وأحيا أمره، وخاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من سفك الحاكم الدماء، ورغبوه في الوصول إلى أوسيم[1]، وهو مكان بالجيزة قبالة القاهرة، فلمّا وصل إليها قام بمحاربته الفضل بن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة، ثم جاء به إلى القاهرة، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل، ثم قُتل صَبْرًا في ١٣ رجب سنة ٣٩٩، ولَمّا حصل في يد الحاكم كتب إليه: [الطويل]

فررتُ ولم يُغْنِ الفرارُ، ومن يكن   مع اللَّه لم يعجزه في الأرض هاربُ
ووالَّله ما كان الفرارُ لحاجةٍ   سوى فَزَعي الموتَ الذي أنا شاربُ
وقد قادني جُرْمي إليك برمَّتي   كما اجترَّ ميتًا في رحى الحرب سالبُ
وأَجْمَعَ كلُّ الناسِ أنك قاتلي   فيا رُبَّ ظَنٍّ رَبُّهُ فيه كاذب
وما هو إلَّا الانتقامُ وينتهي   وأخذُكَ منه واجبًا وهو واجب

ولأبي ركوة المذكور أشعار كثيرة، منها قوله: [الكامل]

بالسيفِ يقربُ كلُّ أمرٍ ينزحُ   فاطلبْ به إن كنتَ مِمَّنْ يُفْلحُ

وله: [الطويل]

على المرء أنْ يسعى لِمَا فيه نَفْعُهُ   وليس عليه أنْ يساعِدَهُ الدَّهْرُ

وقوله: [السريع]

إنْ لم أُجِلْهَا في ديار العدا   تملأ وَعْرَ الأرضِ والسَّهْلا
فلا سمعْتُ الحمدَ مِنْ قاصدٍ   يومًا ولا قلتُ له أهلا

---

(١) في طبعة ليدن: «وسيم».

وله غير ذلك مِمّا يطول، وخبره مشهور.

٢٩٦ ـ ومنهم أبو زكريا الطليطلي، يحيىٰ بن سليمان.

قدم إلى الإسكندرية، ثم رحل إلى الشام واستوطن حلب، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء، قال بعض مَنْ طالعه: ما رأيته مدح أحدًا إلاَّ وهجاه، وله مصنّفات في الأدب، ومن نظمه قوله: [الكامل]

أرضٌ سَقَتْ غيطانَها أعطانُها ... وزَهَتْ على كُثْبانها قُضْبانُها[1]

ومنها:

فَتَكَتْ بألبابِ الكُماة فَسَيفُها ... من طرفها وسِنَانُها وَسْنَانُها[2]

لم يَبْقَ شخصٌ بالبسيطة سالمًا ... إلاَّ سَبَى إنْسانَهُ إنسانُها

ومنها:

وتصاحَبَتْ وتجاوبتْ أطيارُها ... وتداولَتْ وتناولتْ ألحانَهَا

وتنسَّمَتْ وتبسَّمَتْ أيامُها ... وتهلَّلَتْ وتكلَّلَتْ أزمانُها

بمُدِيرِها ومُنيرِها ونَمِيرِها ... ومُعيرها حُسْنًا جلاه عيانها

٢٩٧ ـ ومنهم أبو بكر يحيىٰ بن عبد اللّه بن محمد، القرطبي، المعروف بالمَغِيليّ[3].

سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن، وقاسم بن أصبغ، وغيرهما، ورحل فسمع من أبي سعيد بن الأعرابي، وكان بصيرًا[4] بالعربية والشعر، ومؤلفًا جيّد النظر، حسن الاستنباط، حدّث. وتوفي فجأة في شهر[5] ربيع الأول سنة ٣٦٢، قاله ابن الفرضي.

---

(١) الغِيْطان: جمع غَوْط وهو المطمئنّ من الأرض. الأعطان: جمع عَطَن وهو مربض الغنم حول الماء. الكثبان: جمع كثيب وهو التلّ من الرمال. القضبان: جمع القضيب. لسان العرب (غوط) و (عطن) و (كثب) و (قضب).

(٢) السِّنان: نصل الرمح. الوسنان: النائم أول نومه. لسان العرب (سنن) و (وسن).

(٣) ترجمة يحيىٰ بن عبد اللّه المغيلي القرطبي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٩١٧).

(٤) في تاريخ علماء الأندلس: «وكان بصيرًا بالنحو والغريب والشعر، بليغًا، شاعرًا، مؤلّفًا، جيّد..».

(٥) في المصدر نفسه: «لعشر خلون من شهر ربيع الأول..».

٢٩٨ ـ ومنهم الإمام المحدّث أبو عبد اللّه محمد بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن سلمة، الأنصاري، الغَرْنَاطي.

قدم المشرق وتوفي بمصر سنة ٧٠٣ عن نحو خمسين سنة، بالبيمارستان المنصوري. قال قاضي القضاة عبد العزيز بن جماعة الكناني في كتابه «نزهة الألباب»: أنشدنا المذكور لنفسه بالقاهرة، بعد قدومه من مكة والمدينة، وقد رام أن يعود إليهما فلم يتيسَّر له: [الطويل]

لئن بَعُدَتْ عنِّي ديارُ الذي أهوى ... فقلبي على طول التباعد لا يَقْوَى
فحدِّثْ رعاكَ اللّهُ عن عُربِ رَامَةٍ ... فإني لهمْ عبدٌ على السِّرِّ والنجوى
فإن متُّ شوقًا في الهوى وصبابةً ... فيا شَرَفي إن متُّ في حُبِّ من أهوى
فيا أيها العُذَّالُ كُفُّوا مَلامَكُمْ ... فما عندكُمْ بعض الذي بي مِنَ الشكوى
ويا جِيرَةَ الحيِّ الذي وَلَهي بهمْ ... أما ترحموا[1] صَبًّا يحنّ إلى حُزْوَى
ويا أهلَ ذَيَّاكَ الحِمَى وحياتِكُمْ ... يمينَ وَفِيٍّ صادقِ القولِ والدَّعْوَى
مَلَكْتُمْ قيادي فارحموا وترفَّقُوا ... فأنتمْ مرادي لا سعادُ ولا علوى
فما لي سواكُمْ سادتي لا عَدِمْتُكُمْ ... فجودوا بوصلٍ أنتم الغايةُ القصوى

انتهى.

٢٩٩ ـ ومنهم الفاضل الأديب أبو عبد اللّه محمد بن علي بن يحيىٰ بن علي، الغَرْنَاطي[2].

قال ابن جماعة في الكتاب المسمّى قريبًا: أنشدني المذكور لنفسه، على قبر سيّدنا حمزة رضي اللّه تعالى عنه: [الكامل]

يا سيدَ الشهداءِ بَعْدَ محمدِ ... ورضيعَ ذي المَجْدِ المرفَّعِ أحمدِ
يا ابن الأعزّة مِنْ خلاصةِ هاشمٍ ... سُرُج المعالي والكرام الْمجَّدِ
يا أيها البطلُ الشجاعُ المحتمِي ... دينُ الإلٰه ببأسه المستأسد[3]
يا نَبْعَةَ الشرفِ الأصيلِ المُعْتلي ... يا ذروةَ الحسبِ الأثيلِ الأتلَدِ

---

(١) أما ترحموا: الصواب: «أما ترحمون».

(٢) ترجمة محمد بن علي الغرناطي في الدرر الكامنة (جـ ٤ ص ٩٦)، وهي ترجمة مكررة. انظر رقم ٣١ في الجزء الثاني.

(٣) إشارة إلى تسمية الرسول الكريم لعمّه حمزة: «أسد اللّه».

يـا نَجْـدَةَ الملهــوفِ في قُحَمِ الـوغى	عنــد التهــابِ جحيمهــا المتــوقّــد
يــا غَيثَ ذي الأمـلِ البعيـدِ مـرامُــه	يــا غَـوث[1] مـوتـورِ الـزمـان الأنكـد
يــا من لِعُـظْمِ مصــابـه خصّ الأسى	قـلبَ الــرســول وعَمَّ كــلَّ مــوحِّــدِ
يــا حمـزةَ الخيـر المـؤمَّـل نَفْـعُـهُ	يــومَ الهيــاجِ وعنــد فقـد المنجـد
وافــاك يــا أســدَ الإلّـه وسـيـفَـه	وَفْــدٌ أَلَـمُّــوا مِنْ حِـمــاكَ بمـعـهـد
جِئْنــاك يــا عمَّ الـرســولِ وصِنْــوَه	قَصْــدَ الـزيــارةِ فـاحتفــلْ بـالقُصَّــدِ
واســأل إلهــكَ في اغتفــارِ ذنــوبنــا	شِيَمُ الـمــزورِ قيــامُــهُ بــالـعُــوَّدِ[2]
لُــذْنَـا بجــانبكَ الكــريمِ تــوسُّــلاً	وكــذا العبيــدُ مَــلاَذُهُمْ بــالسيِّــد
فــاشفـعْ لضيفــك فــالكــريمُ مُشَفَّـعٌ	عنــد الكــريم ومَنْ يُـشَفَّــعْ يُـقْصَـدِ
يــا ابن الكــرام المكــرِمِينَ نــزيلَهمْ	أهــلِ الـمكــارمِ والـعُــلا والسؤدد
نـزل الضيـوفُ جنـابَ سـاحتك التي	منهــا يـؤمَّــلُ كــلُّ عــطفٍ مسعــد
فــاجعـلْ أبــا يعلى قِـرَانَــا عــطفــةً	وارْغَبْ لــربِّكَ في هُــدَانـا واقْصِــدِ
فعسى يمـنُّ على الـجميــع بتــوبــةٍ	يَهْــدي بهـا نَهْــجَ الـطريق الأرشـدِ
فقــد اعتمــدْنــا منــك خيــرَ وسيلةٍ	نــرجـو بهــا حُسْنَ التجــاوزِ في غــدِ
لــمْ لا تُــؤَمُّ وأنــتَ عَــمُّ مــحــمــدٍ	ولــدينــه قــد صُلْتَ صـولــةَ أيِّـدِ
وصَــحِبْتَــهُ ونَـصَــرْتَــهُ وعـضــدْتَــه	وَذَبَبْتَ عنــه بــالـلســان وبــالـيــد
وبـذلْتَ نفسَـك في رضـاه بصـولـة[3]	فــقُـتِــلْتَ فــي ذات الإلّــه الأوحــدِ
فَـجَــزاكَ عـنّــا الـلّه خـيــرَ جـزائــه	وسقــا ثَــراكَ حَيَــا الغمــامِ المُــرْعِـدِ
وعلى رســولِ اللّه منــه ســلامُــهُ[4]	وعليــك مُتَّصِـلُ الــرضــا المتجــدّد

ولد ببعض أعمال غَرْنَاطة قبل التسعين وستمائة، وتـوفي بالمـدينة الشـريفة طـابة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧١٥، ودفن بالبقيع، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

٣٠٠ ـ ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن، المايرقي.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «يا غيث».

(٢) العُوَّدُ: جمع عائد وهو الزائر. لسان العرب (عود).

(٣) في طبعة دار صادر: «بجنّةٍ فَقُبِلْتَ في ذات. .».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «سلامة».

من أقارب بعض ملوك المغرب، وكان من الفضلاء العلماء الأدباء، وله مشاركة جيّدة في العلوم ونظم حسن، ومنه قوله: [البسيط]

القُضْبُ راقصةٌ، والطيرُ صادحةٌ والنشرُ مرتفعٌ، والماءُ منحدرُ
وقد تجلّتْ مِنَ اللّذات أوجُهُها لكنها بظلالِ الدَّوح تستتر
فكلُّ وادٍ به موسى يُفَجِّره وكل رَوضٍ على حافاته الخَضِرُ

وقوله: [الطويل]

وذي هَيَفٍ راقَ العيونَ انثناؤه بقدٍّ كَريَّانٍ مِنَ البانِ مُورِقِ
كتبتُ إليه: هل تجودُ بزورةٍ؟ فوقّع «لا» خوفَ الرقيبِ المصدقِ
فأيقنْتُ مِنْ «لا» بالعناقِ تفاؤلا كما اعْتَنَقَتْ «لا» ثم لم تتفرقِ

وهذا أحسن من قول ذي القرنين بن حمدان[1]: [البسيط]

إني لأحسد «لا» في أحرف[2] الصحفِ إذا رأيتُ اعتناقَ اللام للألفِ
وما أظنّهما طالَ اعتناقُهما إلّا لِمَا لَقِيَا من لوعة الأسفِ[3]

وأحسن من هذا قول القَيسَرَاني: [البسيط]

أَسْتَشْعِرُ اليأس من[4] «لا» ثم يُطْمعني إشارة في اعتناق اللام لِلأَلِفِ

وكانت وفاة أبي الحسن المذكور في ربيع الأول سنة ٦٥٥، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى! والأبيات التي أولها «القُضْب راقصة»[5] نسبها له اليونيني وغير واحد، والصواب أنها ليست له، وإنما هي لنور الدين بن سعيد صاحب[6] المغرب، وقد تقدم ذكره، ولعلّ السَّهْوَ سَرَى مِنْ تشارك الاسم واللقب والقطر، ومثل هذا كثيرًا ما يقع، والله تعالى أعلم.

---

(١) في طبعة ليدن: «حمران». وهو أبو المطاع ذو القرنين ابن ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان. والبيتان في يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٩١ - ٩٢).

(٢) في يتيمة الدهر: «في أسطر».

(٣) في طبعة دار صادر: «اجتماعهما» بدل «اعتناقهما»، وفي يتيمة الدهر: «طال اجتماعهما... من شدّة الشّغفِ».

(٤) في طبعة دار صادر: «في».

(٥) في الطبعة نفسها: «..الخ، نسبها له..».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «الدين سعيد بن صاحب..».

٣٠١ ـ ومن الراحلين من أهل الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلي[١]، وكان فارق إشبيلية حين تولّاها ابن هود، واضطرمت بفتنته الأندلسُ نارًا، ولمّا قدم مصر هاربًا من تلك الأهوال تغيّرت عليه البلاد، وتبدّدت[٢] به الأحوال، فلمّا سُئل عن حاله، بعد بعده عن أرضه وتَرْحَاله، بادر وأنشد[٣]: [مخلع البسيط]

أصبحتُ في مصرَ مُسْتَضَامًا ... أرقصُ في دولة القُرُودِ
واضَيعَةَ العُمْرِ[٤] في أخيرٍ ... مَعَ النصارى أو اليهودِ
بالْجَدِّ رزقُ الأنامِ فيهمْ ... لا بذواتٍ ولا جُدُود
لا تُبْصر الدهرَ مَنْ يُرَاعي ... معنًى قصيدٍ ولا قُصُودِ
أودُّ مِنْ لؤمهمْ رجوعًا ... للغرب في دولة آبن هود

وتذكرت بقوله «أرقص في دولة القرود» ما وقع لأبي القاسم بن القطان، وهو مِمّا يُسْتطرف، ويُسْتظرف، وذلك أنه لَمّا ولي الوزارة الزينبيُّ دخل عليه أبو القاسم المذكور والمجلس حافلٌ بالرؤساء والأعيان، فوقف بين يديه ودعا له، وأظهر الفرح والسرور، ورقص، فقال الوزير لبعض من يُفْضي إليه بسرّه: قبّح اللّه هذا الشيخ! فإنه يشير برقصه إلى قول الشاعر: [المتقارب]

وأرقص للقرد في دولتهْ

٣٠٢ ـ ومن المرتحلين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن علي، الهواري[٥].

من أهل ألمَرِية، ويُعْرف بشمس الدين بن جابر الضرير، وله ترجمة في الإحاطة ذكرْناها مع زيادة عليها عند تعرّضنا لأولاد لسان الدين بن الخطيب، رحمه اللّه تعالى! ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام واستوطن حلب، وهو صاحب البديعية المعروفة

---

(١) ترجمة ابن عتبة الإشبيلي مكررة، انظر رقم ٦١ في الجزء الثاني، وقد أشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.
(٢) في طبعة دار صادر: «وتبدّدت به...».
(٣) الأبيات في اختصار القدح المعلى (ص ١٦٤).
(٤) واضيعة العمر: أي في آخر العمر.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «الهراوي»، والتصويب عن بغية الوعاة (ص ١٤). وفي طبعة دار صادر: «ومن المرتحلين أبو عبد اللّه بن جابر محمد بن جابر الضرير، من أهل المرية..». وقد مرّت ترجمة ابن جابر في الجزء الأول وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

ببديعية العميان، وله أمداح نبويّة كثيرة وتآليف[1] منها: «شرح ألفية ابن مالك» وغير ذلك، وله ديوان شعر وأمداح نبوية في غاية الإجادة، ومن نظمه رحمه اللّٰه تعالى مُوَرِّيًا بأسماء الكتب: [الطويل]

عرائسُ مدحي كم أَبَينَ لغيره ... فلما رأتْهُ قُلْنَ هذا من الأكْفَا[2]
نوادرُ آدابي ذخيرةُ ماجدٍ ... شمائلُ كم فيهنَّ مِنْ نُكَتٍ تُلْفَى
مطالعُها هُنَّ المشارقُ للعُلا ... قلائد قد راقتْ جواهرُها رَصْفَا
رسالةُ مدحي فيك واضحةٌ، ولي ... مسالكُ تهذيبٍ لتنبيه مَنْ أغفَى
فيا منتهى سؤلي ومحصولَ غايتي ... لأَنْتَ امرؤٌ من حاصل المجد مُسْتَصْفَى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتابًا، وهي: «العرائس» للثعالبي، و«النوادر» للقالي وغيره، و«الذخيرة» لابن بسام وغيره، و«الشمائل» للترمذي، و«النكت» لعبد الحق الصقلي وغيره، و«المطالع» لابن قرقول وغيره، و«المشارق» للقاضي عياض وغيره، و«القلائد» لابن خاقان وغيره، و«رصف المباني، في حروف المعاني» للأستاذ ابن عبد النور، وهو كتاب لم يصنّف في فنّه مثله، والرسالة لابن أبي زيد وغيره، والواضحة لابن حبيب، والمسالك للبكري وغيره، والجواهر لابن شاس[3] وغيره، و«التهذيب في اختصار المدوّنة» وغيره، و«التنبيه» لأبي إسحٰق وغيره، و«منتهى السؤل» لابن الحاجب، و«المحصول» للإمام الرازي، و«الغاية» للنووي وغيره، و«الحاصل» مختصر المحصول و«المستصفى» للغزالي. وما أحسن قول الحكيم موفق الدين: [البسيط]

للّٰه أيامُنا والشَّمْلُ منتظمٌ ... نظمًا به خَاطِرُ التفريقِ ما شَعَرَا
والَهْفَ نفسي على عيشٍ ظفرتُ به ... قطعْتُ مجموعَهُ المختارَ مختصرا

وهذه ثلاث كتب مشهورة: المختار، والمجموع، والمختصر. وأحسن منه قول الآخر: [الكامل]

عن حالتي، يا نورَ عيني، لا تَسَلْ ... تَرْكُ الجوابِ جوابُ تلك المسألهْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وتواليف».

(٢) في الطبعة نفسها: «كم أَتَيْنَ لغيره»، وما أثبتناه أكثر ملاءمة لما يريده الشاعر. والأكفا: الأكفاء: جمع كفء. لسان العرب (كفأ).

(٣) في طبعة ليدن: «لابن شاش».

حالي إذا حدَّثْتَ لا لمعًا ولا جملًا لإيضاحي بها من تكملهْ
عندي جَوًى يَذَرُ الفصيحَ مبلدًا فاتركْ مُفَصَّلَهُ ودونكَ مُجْمَلَهْ
القلبُ ليس من الصحاح فيرتجى إصلاحُهُ، والعينُ سُحْبٌ مثقله

وقد أوردنا في ترجمة أبي عبد اللّه بن جُزَي الكاتب الأندلسي جملة مستكثرة في التورية بأسماء الكتب فلتراجع ثمة.

رجع إلى الشمس بن جابر ـ فنقول: ومن نظمه رحمه اللّه تعالى تثمينه للأبيات المشهورة: [المجتث]

لم يَبْقَ فيَّ اصْطِبَارُ
مذ خَلَّفُوني وساروا
وللحبيبِ أشارُوا
جارَ الكرامُ فجاروا
للَّه ذاك الأُوارُ[1]
بَانُوا فما الدارُ دَارُ
يا بَدْرُ، أَهْلُكَ جارُوا وعلَّموكَ التَّجَرِّي
كانوا من الودِّ أهلي
ما عاملوني بعَدْلِ
أصْمَوا فؤادي بنَبْلِ[2]
يا بَينُ بَيَّنْتَ ثُكلي
يا روحَ قلبيَ قلْ لي
أَهُمْ دَعَوكَ لقتلي
وحَرَّموا لكَ وصلي وحلّلوا لك هَجْرِي
حسبي وما ذا عنادُ
هُمُ المنى والمرادُ
وإنْ عن الحقِّ حَادُوا

(١) الأُوار، بضم الهمزة: حَرُّ النار. محيط المحيط (أور).
(٢) أَصْمَوا فؤادي بالنَّبْل: رموه به فقتلوه. محيط المحيط (صمى).

أو جاملوني وجادوا
يا من به الكلُّ سادوا
والكلُّ عندي سدَادُ
فَلْيَفْعَلُوا ما أرادوا فإنَّهمْ أهلُ بَدْرِ[1]

وتذكَّرْتُ بهذا قول أبي البركات أيمن بن محمد السعدي رحمه اللّه تعالى: [المجتث]

للعاشقين انكسارُ وذلّةٌ وافتقارُ
وللملاحِ افتخارُ وعزَّةٌ واقتدارُ
وأهلُ بدري أشاروا[2] وودّعوني وساروا

يا بَدْرُ ـ إلخ.

كتبتُ والوجد[3] يُمْلِي جدَّ الهوى بعد هَزْلِ
وحارَ ذهني وعقلي ما بَينَ بدري وأهلي
يا بَدْرُ فاحْكُمْ بعدلِ إذا أتوك بعذلِ

وحَرَّموا ـ إلخ.

لولا هواكَ المرادُ ما كنتُ مِمَّنْ يُصَادُ
ولا شجاني البعادُ يا بَدْرُ، أهلُكَ جادوا
غَلِطْتُ جاروا وزادوا لكنهم بكَ سادوا

فليفعلوا ـ إلخ. انتهى

رجع إلى ابن جابر، فنقول:

توفي، رحمه اللّه تعالى، في ألبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠، ومن نظمه قوله: [البسيط]

يا أهلَ طيبةَ في مغناكُمُ قمرٌ يهدي إلى كلِّ محمودٍ من الطُّرُقِ
كالغيث في كرم، والليث في حرم والبدر في أفقٍ، والزهر في خلقِ

(١) يشير هنا إلى الحديث الشريف: «لعلَّ ربَّك قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرْتُ لكم».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أثاروا».

(٣) في طبعة دار صادر: «والوصل»، وما أثبتناه أفضل للسياق.

وقـــوله[1]: [البسيط]

أمـا معـاني المعـاني فَهْيَ قـد جُمِعَتْ ... في ذاتـه فَبَـدَتْ نـارًا عـلى عَـلَمِ[2]

كـالبَـدْرِ في شَيَمٍ ، والبحـرِ فـي دِيَمٍ ... والـزهـرِ في نعـم، والـدهـرِ في نـقمِ

وقـال[3]: [الطويل]

ولَـمَّـا وقفْنـا كـي نـودِّعَ مَنْ نـأى ... ولـم يَبْـقَ إلاَّ أن تُـحَثَّ الـركـائـبُ

بـكـينـا وحَـقٌّ لـلمُحِبِّ إذا بكـى ... عشيّـة سـارت عن حمـاه الحبـائبُ

وقـال: [الكامل]

ضَحِكَتْ فقلتُ كـأنَّ جِيدكِ قـد غَـدَا ... يُهْـدِي لثغـرِكِ مِنْ جـواهـرِ عِقْـدِهِ

وكـأنَّ وَرْدَ الـخَـدِّ مـنـكِ بـمـائِـهِ ... قـد شـابَ عَـذْبَ لَمَـاكِ حـالـة وِرْدِهِ

وقـال: [الخفيف]

مَنَعَتْنـا قِـرى الْجَمَـالِ وقـالتْ: ... لـيس فـي غـيـر زادنـا مِـنْ مَـجَـالِ

فـأقَمْـنـا عـلى الـرحـالِ وقلْنـا ... مـا لـنـا حـاجـةٌ بحطِّ الـرحـال

وقـال: [السريع]

عَـذَّبَ قَلْبي رَشَـأٌ نـاعـمٌ ... أَسْهَـرَ طرفي[4] طَـرْفُـهُ النـاعِسُ

يـحـرسُ بـاللحظِ جَنَى خـدِّه ... يـا لـيتـه لـو غـفـلَ الـحـارسُ

وقـال: [الكامل]

وافـيتُ رَبْـعَهُـمُ وقـد بَعُـدَ الـمَـدَى ... ونـأى الفـريقُ مِـنَ الـديـار وسـارا

مـا كـدْتُ أعـرفُ بعـد طـولِ تـأمـلٍ ... دارًا بـهـا طـافَ الـسـرورُ ودارا

ولـه: [الوافر]

ولستُ أرى الـرجـالَ سـوى أُنـاسٍ ... هُـمُـومُهُـمُ مـوافـاةُ الـرجـالِ

أطـالـوا في النَّـدَى إهـلاكَ مـالٍ ... فعـاشـوا في الأنـام ذوي كمـالِ

---

(١) في الطبعة نفسها: «وله»، وأورد البيتين التاليين وهما: «ولمّا وقفْنا حتى . . . الحبائبُ».

(٢) العَلَمُ، بالفتح: الجبل. مختار الصحاح (علم).

(٣) ترتيب هذين البيتين في طبعة دار صادر قبل البيتين السابقين.

(٤) في طبعة دار صادر: «أَسْهَرَ جفني . . .».

وقـــال: [الخفيف]

أيهـا المُتْهِمُـون نَفْسي فـداكُـمْ ... أنْجِـدُوني على الـوصـول لنجـدِ
وقـفـوا بي عـلى مـنـازلِ لـيلى ... فـوجـودي هنـاكَ يُـذْهِبُ وَجْـدي

وما كتبه على كتاب «نسيم الصَّبَا» لابن حبيب، وصورته: لَمَّا وقفْتُ على الفصول الموسومة بنسيم الصَّبا، المرسومة في صفحات الحُسْن فإذا أبصرها اللبيب صبَا، انتعش بها الخاطر انتعاش النبت بالغمام، وهَمَتْ[1] سحائبُ بيانها فأثمرت حدائق الكلام، وأخرجت أرضُ القرائح ما فيها من النبات، وسمعت الآذان صخبة[2] الأذهان بهذه الأبيات: [المنسرح]

هـذي فصـولُ الـربيـع في الـزمنِ ... كـم حَسَـنٍ أسنـدتْ إلـى حَسَـنِ
رَقَّـتْ وراقـتْ فَـمِنْ شـمـائِلِهـا ... بمثـلِ صَـرْفِ الشَّمُـول[3] تُتْحِفُنِي
كـم مُـلَحٍ قـد حَـوَتْ وكـم لـمـحٍ ... يُـعْـجبـني لـفـظُهـا ويُـعْـجـزنـي
كـم فـيـه مِـنْ نُـفَـثٍ ومن نُـكَـتٍ ... أشـهـدني حُـسْنُـهـا فـأدهـشـني
جَمْـعٌ عـدمْنـا لـه الـنـظيـرَ فـلا ... يُـصْـرَفُ عـن خـاطـرٍ ولا أُذُنِ
يـا خَـيـرَ أهـلِ العُـلا وبَـحْـرَهُـمُ ... أيّ بـديـعِ الـكـلامِ لـم تُـرِنـي
بَـذْرُكَ فـي مـطلع الـفـضـائـل لا ... يـكـونُ مـثـلٌ لـه ولـم يَـكُـنِ
هـذي الـفصـولُ الـتي أتيـتَ بـهـا ... قـد أفـحـمـتْ كـلَّ نـاطـقٍ لَـسِـنِ
كـم فـنٍّ مـعـنًـى بـهـا يـذكّـرنـي ... شَجْـوِي لشَـدْو الـحمـامِ في فَنَـن
فـمن نـسيـبٍ مَـعَ النسيـمِ جـرى ... لـطفًـا فـأزرى بـالجـوهـرِ الثمن
وحُسْنِ سَـجْـعٍ كـالـزهـر في أفـقٍ ... والـزَّهْـرِ في نـاعـمٍ من الـغُـصُـنِ
لـه مَـعـانٍ أعـيـتْ مـداركُـهـا ... كـلَّ مُـعـانٍ بـنـيـلـهـنَّ عُـنِـي
لا زالَ راقٍ لـلـمـجـدِ راقـمـهـا ... ذا سـنـنٍ حـاز أحـسنَ الـسـنـن

فصولٌ، هي للحُسْن أصولٌ، وشَمُولٌ، لها على كل القلوب شُمُولٌ، ليسَ لقُدَامة على التقدّم إليها حُصولٌ، ولا لسَحْبانَ لأنْ يسحب ذيلها وُصولٌ، ولا انتهى قسّ الإياديّ، إلى[4]

(١) في طبعة عبد الحميد: «وهملت».

(٢) في الطبعة نفسها: «ضمخة». وفي طبعة ليدن: «ضخمة».

(٣) الشَّمُوْلُ: الخمر. لسان العرب (شمل).

(٤) في طبعة دار صادر: «لهذه الأيادي».

هذه الأيادي، ولا ظفر بديعُ الزمان، بهذه البدائع الحِسان، لقد قصّر فيها حبيب عن ابنه، وحار بين لطافة فضله وفضل ذهنه، نزهت في طرف خمائلها، ونبّهت بلطف شمائلها، تاللّه إنها لسحر حَلال، وخلال ما مثلها خلال، كلام كلّه كمال، ومجال لا يُرى فيه إلاّ جمال، راقم بردها، وناظم عقدها، في كل فصل، جاء بكمال فضل، وفي كل معنى، عَمَر بالبراعة مَغْنى، أعرب فأغرب، وأوجز فأعجز، وأطال فأطاب، وأجاد حين أجاب، فما أنفس فرائده، وأنفع فوائده، وأفصح مَقَاله، وأفسَحَ مجاله، وأطوع للنظم طباعه، وأطول في النثر باعه، أزاهر نبتت في كتاب، وجواهر تكوَّنت من ألفاظٍ عِذاب، ومواهب لا تُدْرَكُ بيد اكتساب، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب، فصول أحلى في الأفواه من الشَّهْد، وأشهى إلى النواظر من النوم بعد السُّهد، سبك[1] أدبها في قالب النكت الحسان، وذهب بمحامد عبد الحميد ومحاسن حَسَّان، فما أحقّها أن تسمّى فصول الربيع، وأصول البديع، لا زال حُسْنُها يملأ الأوراق بما راق، ويزيّن الآفاق بما فاق، ولا برحتْ حدائقُ براعته نزهة للأحداق، وحقائق بلاغته في جِيد الإجادة بمنزلة الأطواق، بمنِّ اللّه تعالى وكرمه، انتهى.

وحيث جرى ذكر كتاب «نسيم الصَّبا» فلا بأس أن نذكر تقاريظ العلماء له، فمن ذلك قول القاضي شرف الدين بن ريان: وقفْتُ على هذا الكتاب الذي أبدع فيه مؤلِّفُه، ونظم فيه الجواهر النفيسة مُصَنِّفُه، وأينعت حدائق أدبه فدنا ثمرُها لمن يَقْطفه، وعرفت مقدار ما فيه من الإنشاء وأين مَنْ يعرفه، فوجدْتُه ألطف من اسمِه، وأحسن من الدُّرر في نظمه، وأطيب من الوَرْد عند شمِّه، هبَّتْ على رياض فصوله نسيمُ صَباها، ففاقت الأزهار في رُبَاها، وتشوقت[2] قلوب الأدباء إلى انتشاق شَذَاها وطيب رَيَّاها، وفاضت عليه أنوار البدر فأغنى سَنَاها، عن الشمس وضُحاها، وتحلّت نحور البلغاء من كلامه بالدُّرِّ اليتيم، ومن معانيه بالعقد النظيم، وترنَّحَتْ أفنان فنون الفصَاحة لما هبَّ عليها ذلك النسيم، كل فصل له في الفضل أسلوب على بابه، وطريق انفرد به مُنْشِئه محاسن لا توجد إلاَّ في كتابه، صَدَرَ هذا الكتاب عن علم سابق، وفكر ثاقب وذهن رائق ونَفَس صادق، وروية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق، وقريحة إذا ذقت جَنَاها، وشمْتُ[3] سَنَاها، تذكَّرْتُ ما بين العُذَيب

---

(١) في طبعة دار صادر: «سكب».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وتشوّفت».

(٣) شمْتُ سناها: تطلَّعْتُ نحوها ببصري. مختار الصحاح (شيم).

وبارق[1] فاللّه تعالى يبقي مصنّفه قبلة لأهل الأدب ويديمه، ويبلغه من سعادة الدنيا والآخرة ما يرومه، بمنّه وكرمه، انتهى.

وقرظ عليه بعضهم بقوله: وقف المملوك سليمان بن داود المصري على فصول[2] الحكم من هذه الفصول، ووَجَد من نسيم الصَّبا أمارات القبول، ونزَّه طَرَفه في رياض هذا الكتاب، وخاطب فكره العقيم في وصفه فعجز عن ردّ الجواب: [الكامل]

ماذا أقولُ وكلُّ وَصْفٍ دونه أين الحضيضُ من السِّماكِ الأعزلِ

يا لها كلمات نقصت قدر الأفاضل، وفضحت فصحاء الأوائل، وسحبت ذيل الفصاحة على سَحْبان وائل، وزادت في البلاغة على فريد، وغيّرت حال القدماء فما عبد الرحيم الفاضل وما عبد الحميد، وذلّت لها تشبيهات ابن المعتز طوعًا، وملكت زمام البَيَان فما تركت للبديع منه نوعًا[3]: [الكامل]

قَطَفَ الرجالُ القولَ حين نَبَاتِهِ وقَطَفْتَ أنتَ القولَ لَمَّا نَوَّرا

وخطاب أعجز الخطباءَ وَصْفُه، وجواب ألغى البلغاءَ رَصْفُه، وغرائب تعرَّفت بمبديها، وشوارد تألّفت بمهديها، وجنان بلاغة لم يَطْمِثْ أبكارَهَا إنسٌ قبلك ولا جانّ، ولم يقطف أزهارها عين ناظر ولا يَدُ جَانٍ، معانٍ تطرب السمع لها حكم وأحكام، وألفاظ هي الأرواح لا أرواح أجسام، فلمّا ألقى فهمه عروة المتماسك، وضاقت عليه في وصفه المسالك، وعجز عن وصف بلوغ بلاغته، عطف على حُسْن كتابته، فرأى خَطًّا يسبي الطرف، ويستغرق الظرف، نَسَجَ[4] قلمه الكريم من وشي البلاغة ديباجًا، واتّخذ من محاسن الحسان طريقًا ومنهاجًا، فألفى ألفاتٍ كاعتدال القدود، ونوناتٍ كأهِلّةِ السعود، وسينات كالطرر، ونقطًا كالدُّرر، جعل للأقلام حُجّة قاطعة على السيوف، وحَلَّى الأسماع بحلية زائدة على

---

(1) العُذَيْبُ: ماء بين القادسية والمغيثة. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٩٢). بارق: ماء بالعراق، وهو الحدّ بين القادسية والبصرة. معجم البلدان (جـ ١ ص ٣١٩).

(2) في طبعة ليدن: «فصوص».

(3) البيت للمتنبي، وهو في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٥٦٨).

(4) في طبعة ليدن: «نسخ».

الشُّنُوف[1]، فعطف ساعة يُطْنب[2] في دعائه وشكره، وآونة يميل من طَرَبه بألفاظه وسكره، فللّه درّ ألفاظك ودُرر فضلك، وأحسن بوابلك الهاطل بالبيان وطَلِّك: [الطويل]

لسانُك غوّاصٌ، ولفظُكَ جَوهَرٌ وصَدْرُكَ بحرٌ بالفضائلِ زاخرُ

واللّه المسؤول أن يرفع قدر مقالك ومقام قدرك، ويوضح منهاج الأدب بنور بدرك بمنّه وكرمه، إنه على كل شيء قدير.

وكتب قاضي القضاة تاج الدين السبكي، رحمه اللّه تعالى! في تقريظ الكتاب المذكور ما نصُّه: الحمد للّه وحده، وصلّى اللّه على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، حَدَّقْتُ نحو الحدائق، وفَوَّقْتُ سَهْمي تلقاء الغَرَض الشائق، وطرقْتُ إلى ما يضيء أخا الحجا أسهل الطرائق، فما عَلّلَ صَدَاي كنسيم الصَّبا، ولا كمثله سهمًا صائبًا صبا به[3] من لا صبا، ولا نظرت نظيره حديقة تنبت فِضّة وذهبا: [مجزوء الكامل]

وتجيءُ مِنْ مُلَحِ الكلا مِ بطارفٍ أو تالدَهْ
كلمٌ نوابغُ نحو آ فاقِ المَطَالعِ صاعِدَهْ
لو رامها قسٌّ لَمَا أَلْفى أباه ساعده
أبْدَى نتائجَ عِيِّهِ في ذي المعاني الشاردَهْ

فعين اللّه تعالى عليها كلمات عليها منه رقيب، ومحاسن تسلى عندها بالحسن حبيب، وفوائد حسان يذكرنا بها حسان البعيد حسن القريب، كتبه عبد الوهاب[4] السبكي، انتهى.

وكتب ناصر الدين صاحب دواوين الإنشاء ما صورته: وقفت على هذا الكتاب الذي أشبه الدُّرَّ في انتظامه، والثَّغْرَ في ابتسامه، وقَطْرَ الندى في انسجامه، وزهر الروض في البُكَر إذا غَنَّتْ على غصونه مُطْربات حَمَامه، فوجدت بين اسمه ومسمّاه مناسبة اقتضاها طبع مؤلّفه السليم، واتّصالاً قريبًا كاتّصال الصديق الحميم، فتحققت أنّ مؤلفه ـ أبقاه اللّه تعالى

---

(١) الشُّنُوفُ: جمع شَنْف وهو القُرْط الأعلى. مختار الصحاح (شنف).

(٢) في طبعة ليدن: «يطيب».

(٣) في طبعة دار صادر: «صابه من..».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «عبد الوهاب بن السبكي».

وحرسه! ـ أبدع في تأليفه، وأصاب في تمييزه بهذا الاسم وتعريفه، فهو في اللطافة كالماء في إروائه، وكالهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه، وكالسِّلْك إذا انْتُقي جوهره وأُجِيدَ في انتقائه، قد أينعت ثمراتُ فضائله فأصبحت دانية القطوف، وتجلّت عرائس بلاغته فظهر بدرها بلا كسوف، وانجابت ظلماتُ الهموم بسماع موصول مقاطعه التي هي في الحقيقة لآذان[1] الجوزاء شنوف، فأكرم به من كتاب ما الروضُ بأبهى من وَسيمه، ولا الرَّيحان بأعطر من شَميمه[2]، ولا المُدامة بأرقّ من هبوب نسيمه، ولا الدُّرُّ بأسنى زهرًا بل زهوًا من رُسُومه، إذا تدبّره الأديب أَغْنَتْهُ تلك الأفانين، عن نغمات القوانين، وإذا تأمّله الأريبُ نزّه طرفه في رياض البساتين، قد سُوِّر على كلّ نوع من البديع باب، لا يدخله إلاّ مَنْ خُصَّ من البلاغة باللُّبَاب[3]، واللَّه تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب، ويمتع بفضائله التي شهدها أهل العلم وذوو الألباب، بمنّه وكرمه، وكتبه محمد بن يعقوب الشافعي.

وكتب الصفدي شارح لامية العجم بما نصُّه: وقفتُ على هذا المصنّف الموسوم بنسيم الصَّبا، والتأليف الذي لو مَرَّ بالمجنون لَمَا ألف ليلاه ولا مال إليها ولا صَبَا، والإنشاء الذي إنْ شاء قائلُه جعل الكلام غيره في هَبَّات الهواء هَبَا، والنثر الذي أغار قائله على سبائك الذهب الإبريز[4] وسَبَى، والكلام الذي نبا عنه الجاحظ جاحدًا وما له ذكر ولا نبا[5]، فسبَّحَتْ جواهر حروفه لمن أوجده في هذا العصر، وعلمت أنّ ألفاظه ترمي قلوبَ حُسّاده بِشَرَرٍ كالقصر، وتحقّقت أن قعقعة طروسه أصوات أعلامه التي تَخْفِقُ له بالنصر، وتيّقنت أنّ سطوره غصون لا تصل إليها كفّ جناية بجَنًى ولا هَصْر: [الطويل]

وقلت لأهل النَّظْمِ والنَّثْرِ قابلوا (ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ)[6]

---

(١) في طبعة دار صادر: «لأُذُن».
(٢) الشميم: الرائحة الطيبة. لسان العرب (شمم).
(٣) اللُّباب: الخالص من كل شيء. لسان العرب (لبب).
(٤) الذهب الإبريز: الخالص الصافي. محيط المحيط (أبرز).
(٥) نبا: الأصل: نبأ، وقد حذف الهمزة مراعاة للسجع.
(٦) ما بين قوسين عجز بيت لامرىء القيس، وصدره هو:
مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ
ديوان امرىء القيس (ص ١٥). والسَّجَنْجَل: المرآة. مختار الصحاح (سجل).

وميلوا بـأعـطافِ التعجّب إنـهـا (نسيم الصَّباجاءتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ)[1]

ولَمَّا مِلْتُ بعد مـا ثملْتُ، وغزلْتُ بعـد ما هـزلْتُ، جردتُ من نفسي شخصًا أخاطبه وأجاريه، في أوصاف محاسنها التي أُناهبُـه منها وأُنـاهيه، فقـال لي: هذا الفنّ الفـذّ، والنثر الذي قهر أقران هذه الصناعة وبَذّ، والأدب الذي سـدَّ الطرق على أوابـده فما فـاته شيء ولا شذّ، وهذا الإنشاء الذي ما له عديل في هذا العديد ولا ضريب، وهذا الكلام الذي فاق في الآفـاق فمـا لحبيب بن أوس حُسْنُ حَسَنِ بن حبيب، فعين اللّه تعـالى عـلى هـذه الكـلم الساحرة، والفوائد التي أيقظت جفن الأدب بعد ما كان بـالساهـرة، ومتّع اللّهُ تعـالى الزمـانَ وأهلَه بهذا النوع الغضّ، والنقـد النضّ، والبز البضّ، والبـديع الـذي رَمَّ ما تشعَّث من ربـع هـذا الفنّ ورضّ، واقتضّ المعـاني أبكـاره وافتضّ، وأرسـل جـارح بـلاغتـه على الجـوارح فصادها وانقص وانقضّ، وأنْبَطَ ماء الفصاحـة لما تحـدّر وارفَضَّ، واستمال القلب الفظّ لمـا فكّ ختم ذهوله وفضّ، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، بمنّه وكرمـه، وكتبه خليـل الصفدي، انتهى.

٣٠٣ ـ ومنهم الأديب أبو جعفر الإلبيري[2].

رفيق ابن جابر[3] السابق الذكر، وهو البصيـر وابن جابـر الأعمى، وله نـظم بديـع منه قوله: [السريع]

أبـدتْ ليَ الصُّـدْغَ على خـدِّهـا فـأَطْلَعَ الـليـلُ لـنـا صُـبْـحَـهُ
فـخـدُّهـا مـع قـدِّهـا قـائـلٌ (هـذا شقيقٌ عـارضٌ رُمْحَـهُ)[4]

وقوله وقد دخل حمص: [السريع]

حـمصٌ لـمـن أضـحى بـهـا جنّـةٌ يـدنو لـديهـا الأمـلُ[5] القـاصي

(١) ما بين قوسين أيضًا عجز بيت لامرىء القيس، وصدره هو:
إذا الـتفـتتْ نـحـوي تضـوَّع ريـحُهـا
ديوان امرىء القيس (ص ١٥).
(٢) مرَّ التعريف بأبي جعفر الإلبيري والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.
(٣) تقدمت ترجمة ابن جابر رقم ٣٠٢ في هذا الجزء.
(٤) عجز هذا البيت هو صدر البيت التالي:
جـاء شـقـيـقٌ عـارضًـا رُمْـحَـهُ إنَّ بـنـي عَـمِّـكَ فـيـهـمْ سـلاحُ
(٥) في طبعة عبد الحميد: «الأملُ».

حـلَّ بهـا العـاصي[1] ألاَ فـاعجبـوا   من جنّـةٍ حَـلَّ بـهـا الـعـاصـي

وقـوله: [الخفيف]

إنَّ بَـيْنَ[2] الـحبيـبِ عنـديَ مـوتٌ   وبـه قـد حـيـيـتُ مـنـذ زمـانِ

ليت شعـري متى تشـاهـده العَيـ   ـنُ وتـقـضـي مـن الـلقـاء الأمـانـي

قال: وفيه استخدام؛ لأنَّ البَينَ يُطْلَقُ على البُعْد والقرب، انتهى.

ومن نظمه أيضًا رحمه اللَّه تعالى: [الكامل]

ومُـوَرَّدِ الـوَجَـنـاتِ دَبَّ عِـذارُهُ   فـكـأنـه خَطٌّ عـلى قـرطـاسِ

لَـمّـا رأيتُ عِـذارَهُ مـسـتـعـجـلاً   قـد رامَ يُـخْفـي الـوَرْدَ مـنـه بـآس

نـاديـتُـه قِـفْ لـي أودِّع وَرْدَهُ   (ما في وقـوفـكَ سـاعـةً مِنْ بـاس)[3]

وهذا المعنى قد تبارى فيه الشعراء وتسابقوا في مضماره، فمنهم مَنْ جلَّى وبرز، وحاز خصل السبق وأحرز، ومنهم من كـان مُصَلِّيًا، ومنهم من غَـدَا لِجِيدِ الإحسـان مُحَلِّيًا، ومنهم من عاد قبل الغاية مولِّيًا.

رجع ـ ومن تأليفه، رحمه اللَّه تعالى، شرحه لبديعية رفيقه ابن جـابر المـذكور. وقـال في خطبته: ولَمّا كانت القصيدة المنظومة في علم البديـع المسمّاة بـ «الحُلّة السِّيَـرَا في مدح خير الورى» التي أنشأها صاحبنا العلامة شمس الدين أبو عبد اللَّه بن جابـر الأندلسي، نـادرةً في فنّها، فريدة في حسنها، تجني[4] ثمـر البلاغـة من غصنها، وتنهـل سواكب الإجـادة من مُزْنِها، لم يُنْسج على منوالها، ولا سمعت قريحـة بمثالهـا، رأيتُ أنْ أضعَ لهـا شرحًـا يجلو عرائس معانيها لمعانيها، ويبدي غرائب ما فيها لموافيهـا، لا أُمِلُّ النـاظر فيـه بالتـطويل، ولا أعـوقه بكثـرة الاختصار عن مـدارك التحصيل، فخيـر الأمور أوسـطها، والغـرض مـا يقـرِّب المقاصد ويضبطها، فأعرب من ألفاظها كـلّ خفي، وأسكت من لغاتهـا عن كل جلي، واللَّه

---

(1) العاصي: هو نهر العاصي الذي يمرّ بحمص ويسقي بساتينها.

(2) بَيْنُ الحبيبِ: بُعْدُهُ وفراقه. لسان العرب (بين).

(3) عجز هذا البيت صدر بيت لأبي تمام، وهو مطلع قصيدة مديح في أحمد بن المعتصم، وهو:

مـا فـي وقـوفـك سـاعـةً مـن بـاسِ   تـقـضـي ذمـامَ الأربُـع الأدراسِ

(4) في طبعة دار صادر: «يُجْنَى».

أسأل أن يبلغنا ما قصدناه، ويوردنا أحسن الموارد فيما أردناه، انتهى. وسمّى الشرح المذكور «طراز الحلّة، وشفاء الغلة»، ومِمّا أورده، رحمه اللّه تعالى، في ذلك الشرح من نظم نفسه قوله: [السريع]

طَيبَةُ ما أَطْيَبَها منزلاً ... سَقَى ثراها المطرُ الصَّيِّبُ
طابتْ بمن حَلَّ بأرجائها ... فالتربُ منها عنبرٌ طَيِّبُ
يا طيبَ عيشي عند ذكري لها ... والعيشُ في ذاك الحِمَى أطيبُ

وقال، رحمه اللّه تعالى، في هذا الشرح بعد كلام ما نصُّه: وإذا أردْتَ أن تنظرَ إلى تفاوت درجات الكلام في هذا المقام فانظرْ إلى إسحٰق الموصلي؛ كيف جاء إلى قصر مشيد، ومحلٍّ سرور جديد، فخاطبه بما يخاطب به الطلول البالية، والمنازل الدارسة الخالية، فقال: [الكامل]

يا دارُ، غَيَّرَكِ البِلَى ومَحَاكِ

فأحزن في موضع السرور، وأجرى كلامه على عكس الأمور، وانظرْ إلى قول القَطامي: [البسيط]

إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ ... وإنْ بليتَ وإن طالتْ بك الطِّيَلُ[1]

فانظرْ كيف جاء إلى طَلَلٍ بالٍ، ورسمٍ خالٍ، فأحسن حين حيّاه، ودعا له بالسلامة كالمبتهج برؤية مُحَيَّاه، فلم يذكر دروس الطلل وبلاه، حتى آنس المسامع بأوفى التحيّة وأزكى السلامة، والذي فتح هذا الباب، وأطنب فيه غاية الإطناب، صاحب اللواء، ومقدم الشعراء، حيث قال[2]: [الطويل]

أَلَاعِمْ صباحًا أيها الطَّلَلُ البالي ... وهل يَعِمَنْ مَنْ كان في العُصُرِ الخالي
وهل يَعِمَنْ إلَّا سعيدٌ مُخَلَّدٌ ... قليلُ الهمومِ[3] ما يبيتُ بأوجالِ

قيل: وهذا البيت الأخير يحسن أن يكون من أوصاف الجنّة؛ لأنَّ السعادة والخلود وقلّة الهموم والأوجال لا توجد إلّا في الجنّة، انتهى.

---

(١) الطِّيَلُ والطِّوَلُ: الحبل الطويل يُرْبَطُ في وتد ويطول للدابة لترعى. لسان العرب (طول).

(٢) البيتان لامرىء القيس، وهما مطلع قصيدة في ديوانه (ص ٢٧).

(٣) هكذا في الديوان، وفي طبعة عبد الحميد: «هموم».

وقال، رحمه اللّه تعالى، عند رحيلِهِ من غَـرْنَاطـة وأعلام نجـد تلوح، وحمائمـه تشدو على الأيك وتنوح: [الطويل]

ولَـمَّـا وقـفْـنـا لـلوداعِ وقــد بَــدَتْ ... قِبابٌ بِنَجْدٍ قد عَلَتْ ذلك الـوادي
نَـظَرْتُ فـألفيتُ السبيكـةَ فِضَّـةً ... لِحُسْن بياضِ الزهرِ في ذلك النادي
فلمَّـا كَسَتْهَـا الشمسُ عـاد لُجَيْنُهـا ... لها ذهبًا فـاعْجَبْ لإكْسِيرِهـا البادي

والسبيكة: موضع خارج غَرْنَاطة.

وقال رحمه اللّه: [الخفيف]

هـذه عـشـرة تَقَـضَّتْ وعـنـدي ... من أليم البعـادِ شـوقٌ شـديـدُ
وإذا مـا رأيتَ إطفـاء شـوقـي ... بـالتـلاقي فـذاك رأيٌ سـديـدُ

وقال، رحمه اللّه تعالى، وقد أهدى طاقِيَّةً: [مجزوء الكامل]

خُـذْهـا إلـيـك هـديّـةً ... مِمَّنْ يـعـزُّ عـلى أنـاسِـكْ
اخْـتَـرتُـهَـا لـكَ عـنـدمـا ... أضحتْ هـديةَ كـلِّ نَاسِـكْ
أَرْسَـلْتُـهـا طـاقِـيّـةً ... لتنـوبَ عن[1] تقبيـلِ راسِـكْ

وله من رسالة: وافى كتابـك فوجـدْناه أزهى من الأزهـار، وأبهى من حسن الحَبَاب[2] على الأنهار، يشرق إشراق نجوم السماء، ويسمو إلى الأسماع سموّ حَبَابِ الماء.

وقال، رحمه اللّه تعالى، في العَرُوض على مذهب الخليل: [الكامل]

خَـلِّ الأنـامَ ولا تـخـالِطْ منهُـمُ ... أحـدًا ولـو أصفى إليك ضمـائِـرَهْ
إنَّ الـمُـوَفَّقَ مـن يـكـونُ كـأنـه ... متقـاربٌ فَهْوَ الـوحيدُ بـدائِـرَهْ

وقال على مذهب الأخفش: [الكامل]

إنَّ الخـلاصَ من الأنـام لَـراحَـةٌ ... لـكنـه مـا نـال ذلـك سَـالِـكُ
أضـحى بـدائـرةٍ لـه مـتـقـاربٌ ... يـرجـو الخـلاصَ فعاقَـهُ متـداركُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «في».

(٢) الحباب: الفقاقيع التي تظهر على سطح الماء أو الخمر. لسان العرب (حبب).

ولـــه: [مخلع البسيط]

دائـرةُ الـحُـبِّ قـد تـنـاهـتْ ... فـمـا لهـا فـي الـهـوى مـزيـدُ
فَبَحْـرُ شـوقـي بـهـا طـويـلٌ ... وبَـحْـرُ دَمْـعـي بـهـا مـديـد
وإنَّ وَجْـدي بـهـا بـسـيطٌ ... فـليفـعـلِ الحسنُ مـا يـريـد

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرًا، ومنهم الشيخ شهاب الدين بن صارو البعلي.

قال أبو جعفر المترجم به: أنشدنا شهاب الدين المذكور لنفسه بحماة: [السريع]

وبي عـروضيٌّ[1] سـريـعُ الجَفَـا ... يغـار غصنُ البـانِ مِنْ عـطفِـهِ
الـوردُ مِـنْ وَجْـنـتـه وافـرٌ ... لـكـنـه يَـمْـنَـعُ مِـنْ قَـطْفِـهِ

قال: وأنشدنا أيضًا لنفسه: [السريع]

وبـي عـروضـيٌّ سـريـعُ الـجَـفَـا ... وجـدي بـه مِـثْـلُ جـفـاه طـويـلْ
قـلـت لـه قَـطّعَـتْ قـلـبـي أسًـى ... فقـال لي التقـطيـعُ دأبُ الخليـلْ[2]

انتهى[3].

وأنشـد، رحمه اللَّه تعـالى، لرفيقـه ابن جابـر الضـريـر السـابق التـرجمـة في ذلـك: [البسيط]

إنْ صـدَّ عـنّـي فـإنـي لا أُعـاتـبـه ... فمـا التنـافـرُ في الـغـزلان تنـقيصُ
شـوقي مـديـدٌ وحبِّي كـامـلٌ أبـدًا ... لأجـل ذلـك قلبي فيـه مَـوقُـوصُ[4]

وأنشدنا[5] في ذلك أيضًا: [الخفيف]

عـالِمٌ بـالعَـرُوض يَـخْبِـنُ قلبـي ... في مـديـدِ الهـوى بلحظٍ سـريـعِ
عـنـده وافـرٌ مِـنَ الـرِّدْفِ يـبـدو ... وخفيفٌ من خـصـره المـقـطوعِ

---

(١) العروضي: الذي صنعته علم العروض.
(٢) هنا تورية بالخليل، وهو الصديق أو الخليل بن أحمد الفراهيدي، واضع علم العروض.
(٣) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٤) يستعمل الشاعر هنا «الوقص» وهو من مصطلحات العروض، وهو إسقاط الحرف الثاني المتحرك في «متفاعلن» في بحر الكامل، فتصبح «مفاعلن». الكافي في العروض والقوافي (ص ٦٤).
(٥) في طبعة دار صادر: «وأنشد له أيضًا في ذلك».

ولــــه[1]: [الكامل]

سَبَبٌ خفيفٌ خَصْـرُهـا، ووراءه مِنْ رِدْفِهـا سببٌ ثقيـلٌ ظـاهـرُ
لم يُجْمـعِ النوعـانِ في تـركيبهـا إلاَّ لأنَّ الـحُـسْـنَ فـيـهـا وافـرُ

ولـــه[2]: [المجتث]

صـدودُهُ لـي مـديـدٌ وأمـرُ حُـبِّـي طـويـلُ
وفـيـه أسبـابُ حُـسْـنٍ وتـلك عنـدي الأصـول[3]
فـخصـرُهُ لـي خفـيـفٌ وردفـه لـي ثـقـيـلُ

وقد ذكر أبـو جعفر ـ رحمـه اللَّه تعالى! ـ لـرفيقه ابن جـابر السابق الذكـر مقطوعـات كثيرة، منها قوله: [الكامل]

يـا أيها الحـادي آسْقني كـأسَ السُّـرَى نحـو الحـبيـبِ ومهـجتي للسـاقـي
حيِّ العـراقَ على النـوى واحمـلْ إلى أهـلِ الحجـازِ رسـائـلَ العُشّـاقِ
يـا حُسْنَ ألحـانِ الحُـدَاة إذا جَـرَتْ نـغمـاتُـهَـا بمسـامـعِ المُشْتـاقِ

وأورد له أيضًا: [الكامل]

يـا حُسْنَ ليلتِنـا التي قـد زارنـي فيهـا فـأنجـزَ مـا مَضَـى مِنْ وَعـدِهِ
قَـوَّمْتُ شمسَ جمـالِـهِ فـوجـدْتُهـا في عَقْـرَبِ الصُّدْغ الـذي في خـدِّهِ

رجـع إلى أبي جعفر ـ رحمـه اللَّه تعالى! ـ ومن فـوائده أنـه لَمّا ذكر فَذْلَكـةَ الحساب قال[4]: هي التي يضعها[5] أهل الحساب آخر جملهم المتقدّمة فيقولون: فذلـك كذا كـذا، انتهى.

ولما أنشد، رحمه اللَّه تعالى، قول بعضهم: [مجزوء الوافر]

غَـزالٌ قـد غَـزَا قَـلْبـي بـألـحـاظٍ وأَحْـداقِ
لـه الـثـلـثـانِ مِـنْ قـلبـي وثـلـثـا ثـلـثِـهِ الـبـاقـي

---

(١) ترتيب هذين البيتين في طبعة دار صادر بعد البيتين التاليين.
(٢) ترتيب هذين البيتين في طبعة دار صادر قبل البيتين السابقين.
(٣) في طبعة ليدن: «وتلك فهي الأصول».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «فقال».
(٥) في طبعة دار صادر: «يصنعها».

وثلثا ثلثٍ ما يَبْقَى … وباقي الثلثِ للساقي
وتَبْقَى أَسْهُمٌ سِتٌّ … تُقَسَّمُ بين عُشّاقِ

قال ما نصُّه: هذا الشاعر قسم قلبه إلى ٨١ سهمًا، فجعل لمحبوبه منها الثلثين ٥٤، وبقي الثلث ٢٧، فزاده ثلثيه ١٨، فصار له ٧٢، يبقى ثلث الثلث وهو ٩، زاده منها ثلثي ثلثها، وهو اثنان، وبقي من الثلث واحد أعطاه للساقي، فبقي من التسعة ستة، قسمها بين العشاق، فاجتمع لمحبوبه ٧٤، وللساقي سهم واحد، وللعشّاق ستة، والجملة ٨١، انتهى.

وأنشد، رحمه اللّه تعالى، في علم الحساب لرفيقه ابن جابر السابق الذكر: [الخفيف]

قَسَمَ القلبَ في الغرامِ بلحظٍ … يَضْرِبُ القلبَ حين يرسلُ سَهْمَهْ
هذه في هواه يا قومُ حالي … ضاع قلبي ما بين ضَرْبٍ وقِسْمَهْ

وأنشد له في الهندسة: [الطويل]

مُحيطٌ بأشكالِ المَلاَحَةِ وَجْهُهُ … كأنَّ به إقليدسًا يتحدَّثُ
فعارِضُهُ خطُّ استواءٍ، وخاله … به نقطةٌ، والشكلُ شكلٌ مثلَّثُ

وأنشد له في خطّ الرمل: [الخفيف]

فوق خدَّيْه للعِذَارِ طريقٌ … قد بَدَا تحته بياضٌ وحُمْرَهْ
قيل ما ذا فقلْتُ أشكالُ حُسْنٍ … تقتضي أنْ أبيعَ قلبي بنظرَهْ

وأنشد له في علم الخطّ: [المنسرح]

قد حَقَّقَ الحُسْنُ نون[1] حاجِبِهِ … وخَطَّ في الصُّدْغ واوَ ريحانِ
ومَدَّ مِنْ حُسْنِ قدِّه أَلِفًا … أَوْقَفَ عيني وقُوفَ حيرانِ

وأنشد له أيضًا: [الكامل]

أَلِفُ ابنِ مقلةَ في الكتابِ كقَدِّهِ … والنونُ مثلُ الصُّدْغِ في التحسينِ
والعَينُ مثل العين لكنْ هذه … شُكِلَتْ بحسنٍ وقاحةٍ ومجونِ
وعلى الجبين لشعره سينٌ بَدَتْ … حار ابن مقلةَ عند تلك السين

(١) في طبعة عبد الحميد: «نور».

قُلْ للذي قد خطَّ تحت الصُّدْغِ من ... خِيلَانِهِ نُقَطًا لجَلْبِ فنون
يا للرجالِ ويا لها مِنْ فتنةٍ ... في وضع ذاك النُّقْط تحت النون

وأورد له في ذكر الأقلام السبعة وغيرها: [البسيط]

تعليقُ رِدْفِكَ بالخَصْرِ الخفيفِ له ... ثُلْثُ الجمالِ وقد وَفَّتْهُ أجفانُ
خَدٌّ عليه رقاعُ الروضِ قد جُعِلَتْ ... وفي حواشيه للصُّدْغَين ريحانُ
خَطَّ الشبابُ بطُومار[1] العذارِ به ... سطرًا ففضَّاحُهُ للناس فتّان
محقق نسخ صبري عن هواه ومن ... توقيع مدمعيَ المنثورِ برهانُ
يا حسن ما قَلَمُ الأشعارِ خَطَّ على ... ذاك الجبين فلا يَسْلُوهُ إنسان
أقسمْتُ بالمصحف الشامي وأحرفه ... ما مرَّ بالبال يومًا عنك سُلْوَانُ
ولا غبار على حبي فعندك لي ... حساب شوق له في القلب ديوان

وأنشد له: [السريع]

يا صاحبَ المالِ ألم تستمعْ ... لقوله ﴿ ما عندكُمْ يَنْفَدُ ﴾[2]
فاعْمَلْ به خيرًا فواللَّه ما ... يبقى ولا أنتَ به مُخْلَدُ

وله: [الكامل]

إنْ شئتَ أن تجدَ العدوَّ وقد غَدَا ... لك صاحبًا يُولي الجميلَ ويُحْسِنُ
فاعملْ كما قال الخبيرُ بخلقه ... في قوله ﴿ ٱدْفَعْ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3]

وله: [المتقارب]

إذا شِئْتَ رزقًا بلا حِسْبَةٍ ... فَلُذْ بالتُّقَى واتَّبِعْ سُبْلَهُ
وتصديقُ ذلك في قوله ... ﴿ ومَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يجعلْ لهُ ﴾[4]

وأورد له أيضًا: [الرمل]

عملٌ إن لم يوافقْ نيّةً ... فَهْوَ غَرْسٌ لا يُرَى منه ثَمَرْ
«إنما الأعمالُ بالنيّات» قد ... نَصَّه عن سيّد الخلْق عُمَرْ

---

(١) الطُّومار: الصحيفة، والجمع طوامير. محيط المحيط (طمر).
(٢) قوله: ﴿ ما عندكم يَنْفَدُ ﴾ الآية ٩٦ من سورة النحل ١٦.
(٣) سورة المؤمنون ٢٣، الآية ٩٦، وسورة فُصِّلَتْ ٤١، الآية ٣٤.
(٤) سورة الطلاق ٦٥، الآية ٢.

وقولـه: [الكامل]

الخيـرُ في أشيـاءَ عن خيـرِ الـورى وَرَدَتْ فـأَبْـدَتْ كـلَّ نَـهْـجٍ بَـيِّـنِ

«دَعْ مـا يـريبُـكَ، واعْمَـلَنَّ بنيّـةٍ، وازهـدْ ولا تغضبْ، وخلْقَكَ حَسِّنِ»

وقولـه: [الوافر]

حيـاءُ الـمـرء يَـزْجـره فـيـخـشى فَخَـفْ مـن لا يكـون لـه حـيـاءُ

فـقـد قـال الـرسـولُ بـأنَّ مِـمّـا بـه نَـطَقَ الـكِـرامُ الأنـبـيـاءُ:

«إذا مـا أنت لم تَسْتَحْيِ فـاصـنـعْ كـمـا تختـارُ وافعـلْ مـا تـشـاءُ»

وقولـه: [مخلع البسيط]

قـال الـرسـول «الحيـاءُ خيـرٌ» فـاصْحَبْ من الناس ذا حيـاءِ

وعن قليـلِ الحيـاءِ فـابعـدْ فـخـيـرُهُ لـيس ذا رجـاءِ

وقولـه: [المنسرح]

«مـن سلم الـمـسـلمـون كـلُّهُـمُ وآمـنـوا[1] مـن لـسـانـه ويَـدِهْ

فـذلـك الـمسلم الحقيق» بِـذا جـاءَ حـديثٌ لا شـكَّ في سَـنَـدِهْ

ولابن جابر مِمّا كتب به إلى الصلاح الصَّفَدي: [البسيط]

إنَّ الـبـراعـةَ لـفظُ أنـتَ مـعـنـاهُ وكـلُّ شـيءٍ بـديـعٍ أنـتَ مَـغْـنَـاهُ

إنشـادُ نـظمـك أشهى عنـد سـامِعِـهِ مِنْ نـظمِ غيـرك لـو إِسْحَـاقُ غَنَّـاهُ[2]

وهي طويلة، فأجابه الصفدي بقوله: [البسيط]

يـا فـاضـلاً كـرمتْ فينـا سَجَـايـاه وخَصَّنـا بـالـلآلـي في هـدايـاهُ

خَصَصْتَني بقـريضٍ شَـفَّ جـوهـره لـمّـا تـألّقَ مـنـه نـورُ مـعـنـاه

مـن كـل بـيت مَـبَـانيـه مـشيـدة كـم من خـبـايـا معـانٍ في زوايـاه

وهي طويلة.

---

(١) في طبعة ليدن: «وأمعنوا» وهو تحريف.

(٢) يريد إسحٰق الموصلي.

رجع إلى نظم أبي جعفر ـ فمن ذلك قوله: [البسيط]

تُريكَ قدًّا على رِدْفٍ تجاذبُهُ كخُوطَةٍ[1] في كثيبِ الرملِ قد نبتتْ
رَيَّا القرنفلِ في ريحِ الصَّبا سحرًا يَضُوعُ منها إذا نحوي قد التفتَتْ

عقد بهما ألفاظ قول امرىء القيس[2]: [الطويل]

إذا التفتَتْ نحوي تَضَوَّعَ رِيحُها نسيمَ الصَّبا جاءتْ بِرَيَّا القرنفلِ

وأورد له قوله: [الطويل]

ولولا نَجَاءُ العِيسِ حولَ ديارها غداةَ مِنًى لم يَبْقَ في الركبِ مُحْرِمُ
ففوقَ ذُرَى المتنينِ بُرْدٌ مهلَّلٌ وتحت رداءِ الخَزِّ وجهٌ مُعلَمُ

عقد في الأول قول قيس بن الخطيم[3]: [الطويل]

ديارُ التي كُنَّا ونحن على مِنًى تحوطُ[4] بنا لولا نَجَاءُ الركائبِ

وعقد في الثاني قول ابن أخي ربيعة: [الطويل]

أماطتْ[5] رِداء الخزِّ عن حُرِّ وَجْهِها وأَرْخَتْ على المتنينِ بُرْدًا مهلَّلا

وأورد له قوله: [البسيط]

إنِ ادَّعى لك مروانُ الجلالَ فقلْ لا يجهلِ المرءُ بين الناسِ رُتْبَتَهُ
إنَّ الجلالةَ حقًّا للمقولِ له: «هذا الذي تعرفُ البطحاء وَطْأَتَهُ»[6]

---

(١) الخُوْطة: الغصن الناعم. لسان العرب (خوط).

(٢) البيت في ديوان امرىء القيس (ص ١٥).

(٣) البيت في ديوان قيس بن الخطيم (ص ٣٤).

(٤) في الديوان: «تحلُّ بنا».

(٥) أماطتِ الرداءَ: نَحَّتْهُ وأَبْعَدَتْهُ. مختار الصحاح (ميط).

(٦) عجز هذا البيت هو صدر بيت للفرزدق قاله من قصيدة في مدح زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، والبيت هو:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ

وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٩٥). والبيت لم يرد في شرح ديوان الفرزدق.

وقـولــه: [السريع]

مَـنْ مُنْـصِـفِـي يــا قــومُ مِـنْ ظـبـيــةٍ تُشْـرِفُ في هجـري وتـأبى الـوصـــالْ
وكــلّمــا أســألُ عـــن عـــذرِهــا تقــول لي: «مــا كــلُّ عُــذْرٍ يقــالْ»

وقـولــه: [الوافر]

هُمُ حسـدوا الرسـولَ فلم يُجيبـوا وكم حسـدوا فـصــار لهـمْ فـرارُ
وهـاجَـرَ عنـدمـا هجـروا فـأضحى لـخيـمــة أمٍّ معبــدٍ[1] الـفـخــارُ

وقـولــه: [الوافر]

بـحَسْبِـكَ أنْ تبيتَ عـلى رجــاءٍ ولـو حَـطَّتْـكَ لليأس الخـطـوبُ
ومهمـا أَكْـرَبَتْـك[2] صـروفُ دهْـرٍ فقـلْ مـا قــالـه الـرجـلُ الأريبُ:
(عسى الكـرب الـذي أمسيت فيــه يــكــون وراءه فَــرَجٌ قــريــبُ)

وقـولـه[3]: [الطويل]

خليليّ، هـذا قبرُ أشـرفِ مُـرْسَـلِ (قِفا نَبْكِ مِنْ ذكـرى حبيبٍ ومنزلِ)
رويدكما نبكي الـذنوب التي خَلَتْ (بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فحومل)
منـازل كـانتْ للتصـابي فـأَقْفَـرَتْ (لِمَـا نَسَجَتْهَا من جَنُوبٍ وشمـأل)

قال: ثم جرى على هذا النمط، واستخرج الدُّرَرَ النفيسة من ذلك السَّفَط، وقال قبله: إنه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالي، وصنع لها صدورًا، وصرفها إلى مـدح النبي، ﷺ، فجاء في ذلـك بما لم يُسْبَقْ إليـه، ولم يقف أحـد في تلك المعـاني على ما وقف عليه، انتهى.

وقـولــه: [الخفيف]

كـم ليــالٍ خَـلَتْ بـكـمْ كــالـلآلـي نَـظَـمَـتْـهَــا لـنــا يَــدُ الأزمـــانِ
أيـهــا النــازحــون عـن رأي عـيـنـي وهُــمُ فـي جــوانــحي وجَـنَــانـي

---

(١) أم معبد: هي المرأة التي قال في خيمتها النبيّ ﷺ وأبو بكر حين هجرتهما إلى المدينة.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أقربتك».

(٣) ما بين قوسين شعر لامرىء القيس وهو:

قِـفــا نَبْـكِ مـن ذكـرى حبيبٍ ومـنــزلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بين الـدَّخُـوْلِ وحَـوْمَـلِ
فَتُـوْضِـحَ فــالمِقْـراة لم يَـعْفُ رَسْمُهــا لِـمَــا نَسَجَتْهــا من جَنُـوْبٍ وَشَـمْـألِ

ديوان امرىء القيس (ص ٨).

مـا ألَـذَّ الـوصـالَ بـعـد التنـائي	وأمـرَّ الـفـراقِ بـعـد الـتـدانـي
قـد وَكَـلْنـاكُـمُ لـربٍّ كـريـمٍ	غـيـر وانٍ عـن عـبـده فـي أوان
مـا رحـلْنـا عـن اخـتـيـارٍ ولـكـنْ	رَحَّـلَتْـنـا تـلوّنـاتُ الـزمـان

وقـولـه: [الخفيف]

تشتكي الصُّفْرُ من يديه وترضى السُّـ	ـسُمْرُ عن راحتيه عند الحروبِ[1]
أحمرُ السيفِ أخضرُ السَّيبِ حيثُ الـ	أرضُ غبراءُ من سوادِ الخطوبِ

وقوله مِمّا التزم في أوله الدال: [الطويل]

دفـاعٌ لـمـكـروهٍ، أمـانٌ لـخـائـفٍ	سحـابٌ لِمُستَجْـدٍ، هـلاكٌ لِمُسْتَعْـدي
دروبٌ على الحسنى، عفـوٌّ لـمـن جنـى	مثيبٌ لمن أثنى، مجيبٌ لِـذِي قـصـد
دَعِ الغَيثَ إن أعـطى، دَعِ الليثَ إنْ سـطا	دَعِ الـروضَ إذ يُهدي، دَعِ البدرَ إذ يَهْـدِي

وقـولـه: [الوافر]

غـزالٌ مـا تـوسَّـدَ ظِـلَّ بـانٍ	بهـاجـرةٍ[2] ولا عَـرَفَ الـظلالا
تـبسَّـم لـؤلـؤًا، واهـتـزَّ غـصـنًـا	وأعـرضَ شـادنًـا، وبَـدَا هِـلالا

وقـولـه: [الخفيف]

رُفِـعَ الـخَصْـرُ فـوق مـنـصـوبِ رِدْفٍ	ولـجـزمِ الـقـلوبِ فَـرْعَـيْـهِ جَـرًّا
مـال غُصْنًـا، رَنَـا[3] رَشًـا، فـاحَ مِسْكًـا	تـاه دُرًّا، أَرْخَـى دُجًـى، لاح بَـدْرا

وقوله حين زار قبر قسّ بن ساعدة بجبل سِمْعَان: [مجزوء الكامل]

هـذي مـنـازلُ ذي الـعُـلا	قسُّ بـن سـاعـدةَ الإيـادي
كـم عـاش فـي الـدنـيـا وكـم	أَسْـدَى إلـيـنـا مـن أيـادي
قـد زانـهـا بِـحُـلَى الـبَـلا	غَـةِ مـفـصـحًـا في كـل نـادي
قـد قـرَّ فـي بـطن الـثـرى	مـتـفـرِّدًا بـيـن الـعـبـادِ

---

(١) الصُّفْرُ: الدنانير. السُّمْرُ: الرماح. لسان العرب (صفر) و(سمر).
(٢) الهاجرة: نصف النهار في الحرّ الشديد من زوال الشمس حتى العصر. لسان العرب (هجر).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «دنا».

قال أبو جعفر: زُرْنا قبره فرأينا موضعًا ترتاح إليه النفس، ويلوح عليه الأنس، وعند قبره عين ماء يقال: إنه ليس بجبل سمعان عين تجري غيرها هنالك، وأورد له قوله: [الطويل]

كِرَامٌ فِخَامٌ مِنْ ذُؤَابَة هاشمٍ يقولون للأضياف أهلاً ومرحبَا
فيفعل في فقر المقلِّين جُودُهُمْ كفعل عليٍّ يوم حاربَ مَرْحَبَا[1]

رجع إلى أبي جعفر، رحمه اللّه تعالى، فنقول: إنه كان بمدينة النبي، ﷺ، سنة ٧٥٥، ولَمّا ذكر الروضة قال: قيل: ولا تكون الروضة إلاَّ بماءٍ[2] يسقيها أو إلى جنبها، ولا يقال في موضع الشجر روضة، انتهى، وقال: [مجزوء الكامل]

لقوامِهِ الألِفُ التي جاءت بحسنٍ ما أُلِفْ
عانقْتُهُ فكأنني لامٌ معانِقَةُ الألِفْ

وقال، رحمه اللّه تعالى، معتذرًا عَمَّنْ لم يسلِّمْ: [البسيط]

لا تعتبنَّ على تَرْكِ السلامِ فقد جاءتك أحرفُهُ كَتْبًا بلا قَلَمِ
فالسينُ مِنْ طرّتي واللام معْ أَلِفٍ من عارضيَّ وهذا الميمُ مِيمُ فمي

وقال رحمه اللّه تعالى: [المجتث]

لا يُقْنِطَنَّكَ ذَنْبٌ قد كان منك، عظيمُ
فاللّه قد قال قولاً وهو الجوادُ الكريمُ
﴿نَبِّىءْ عبادِيَ أنّي أنا الغفورُ الرحيمُ﴾[3]

---

(١) مَرْحَبٌ: هو أحد رجال يهود خيبر وفرسانهم؛ لمّا افتتح رسول اللّه، ﷺ، حصن القصب، وكان آخر ما افتتح، خرج منه مرحب وهو يقول: [الرجز]

قد عَلِمَتْ خيبرُ أني مَرْحَبُ شاكي السلاح بَطلٌ مُجَرَّبُ
أطعنُ أحيانًا وحينًا أَضْرِبُ إذا الليوثُ أقبلتْ تلهَّبُ
كان حماي كالحِمَى لا يُقْرَبُ

وسأل المبارزة، فخرج إليه محمد بن مسلمة، فأقرّه رسول اللّه، ﷺ، بمبارزته، فضربه ابن مسلمة حتى قتله. الكامل في التاريخ (جـ ٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «إلاّ بما سقتها، أزال جنبها. . ».

(٣) سورة الحجر ١٥، الآية ٤٩.

وقـــال: [المتقارب]

إذا ظَـلَـمَ الـمـرءُ فـاصـبـرْ لـه ... فـبـالقـربِ يُـقْـطَـعُ منـه الـوَتِـيـنُ
فـقـد قـال ربُّـكَ وهْـوَ الـقـويُّ ... ﴿ وأُمْلي لهـمْ إنَّ كَيـدي مَتِيـنُ ﴾[1]

ومن نثره، لَمَّا ذكر قصيدة كعب بن زهير، رضي اللّٰه تعالى عنه، ما نصُّه: وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ، والحُكْم الذي لم يوجد له ناسخ، أنشدها كعبٌ في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسَّل بها فوصل إلى العفو عن عقابه، فسدّ ﷺ خَلَّته[2]، وخلع عليه حُلَّته، وكَفَّ عنه كَفَّ من أراده، وأبلغه في نفسه وأهله مُرَاده، وذلك بعد إهدار دمه، وما سبق من هَذَرِ كَلِمِه، فَمَحَتْ حسناتُها تلك الذنوب، وسترتْ محاسنُها وَجْهَ تلك العيوب، ولولاها لمنع المدح والغَزَل، وقَطَع مَنْ أخذ الجوائز على الشعر الأمل، فهي حجّة الشعراء فيما سلكوه، ومِلاك أمرهم فيما ملكوه. حدّثني بعضُ شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أنَّ بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلَّا بقصيدة كعب، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت رسول اللّٰه، ﷺ، فقلت: يا رسول اللّٰه، قصيدة كعب أنشدها بين يديك؟ فقال: نعم، وأنا أُحِبُّها وأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّها، قال: فعاهدت اللّٰه أني لا أخلو من قراءتها كل يوم.

قلت: ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن يَنْسِجُون على مِنْوَالها، ويقتدون بأقوالها، تبرّكًا بمن أُنْشِدَتْ بين يديه، ونُسِبَ مدحُها إليه، ولَمَّا صنع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قصيدة في مدح النبي، ﷺ، على وزن «بانت سعاد» قال: [الطويل]

لقـد قـال كعبٌ في الـنبيِّ قصيـدةً ... وقُلْنـا عَسَـى في مـدحـه نتشـاركُ
فـإنْ شَمَلَتْنـا بـالجـوائـزِ رحـمـةٌ ... كـرحمـةِ كعبٍ فهـو كَـعْبٌ مبـاركُ

انتهى.

وقال رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

لـقـد كَـرَّ الـعـذارُ بـوجـنـتـيـهِ ... كـمـا كَـرَّ الـظلامُ عـلى الـنـهـارِ
فـغـابـتْ شـمسُ وَجْـنـتـه وجـاءتْ ... عـلى مَـهَـلٍ عَـشِـيَّـاتُ الـعِـذارِ

---

(١) سورة الأعراف ٧، الآية ١٨٣.

(٢) الخَلَّةُ، بفتح الخاء وتشديد اللام: الحاجة. مختار الصحاح (خلل).

فقلتُ لناظري لمّا رآها ... وقد خلط السواد بالاحمرار
(تمتّع مِنْ شميم عَرَارِ[1] نَجْدٍ ... فما بَعْدَ العشيّةِ مِنْ عَرَارِ)

وقال: [الكامل]

قالوا عَشِقْتَ وقد أضرَّ بك الهوى ... فأَجَبْتُهُمْ يا ليتني لم أَعْشَقِ
قالوا سَبَقْتَ إلى محبة حُسْنِهِ ... فأجبتهمْ ما فاز من لم يسبقِ

ولما أنشد، رحمه اللّه تعالى، قولَ ابن الخشاب في المستضيء باللّه: [الكامل]

وَرَدَ الورى سَلْسَالَ جُودِك فارْتَوَوْا ... ووقفْتُ دون الوِرْدِ وَقْفَةَ حائمِ
ظمـآنُ أطلبُ خفّةً مِنْ زحمةٍ ... والوِرْدُ لا يزدادُ غيرَ تزاحمِ

قال ما نصُّه: فانظرْ حسن هذين البيتين كيف جريا كالماء في سَلاَسته، ووقعا من القلوب كالشهد في حلاوته، مع أن ناظمهما ما خرج عن وصف الماء كلامُه، ولا تعدّى ذلك المعنى نظامُه، حتى قيل: إنَّ فيهما عشرة مواضع من مراعاة النظير، فهما في الحسن ما لهما من نظير، لكنه ما سلم مليحٌ من عيب، ولا خلا من وقوع ريب، فمع هذه المحاسن الوافية، ما سلما من عيب القافية، انتهى.

ولنختم ترجمته بقوله عند شرح بيت رفيقه: [البسيط]

خيرُ الليالي ليالي الخيرِ في إضَمٍ ... والقومُ قد بلغوا أقصى مُرَادِهُمُ

ما نَصُّه: يقول: إن خير الليالي التي تنشرح لها الصدور، ويحمد فيها الورود والصدور، ليالي الخير في إضَم، حيث النزيل لم يُضَم، والقوم قد وردوا موارد الكرم، وبلغوا أقصى مرادهم في ذلك الحرم.

٣٠٤ ـ ومن الراحلين الوليُّ الصالحُ أبو مروان عبدُ الملك بن إبراهيم بن بشر، القيسي.

وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسي، نسبة إلى بجانس قرية من قرى وادي آش، وكان ـ رحمه اللّه تعالى! ـ في أواسط المائة السابعة، وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيىٰ الأزدي الفَشْتَالي في تأليفه الذي سمّاه «تحفة المغرب، ببلاد

---

(١) العَرار، بالفتح: بهار البَرِّ وهو نبتٌ طيب الريح. مختار الصحاح (عرر).

المغرب» وقال فيه: راضوا نفوسهم لتَنْقَادَ للمولى سرًّا وعلنا، وزهدوا في الدنيا فلم يقولوا معنا ولا لنا، وانتدبوا لقول اللّه تعالى: ﴿ والذين جاهَدُوا فينا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا ﴾[1].

وقال صاحب التأليف المذكور: سألت الشيخ أبا مروان يومًا في مسيري معه من وادي آش إلى بلده بجانس سنة تسع وأربعين وستمائة، فقلت له: أنت يا سيدي، لم تكن قرأتَ ولا لازمْتَ المشايخ قبل سفرك للمشرق، ولا سافرْتَ مع عالم تقتدي ببركته في هذا الطريق، فقال لي: أقام اللّه تعالى لي من باطني شيخًا، قلت له: كيف؟ قال: كنت إذا عرض لي أمر نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك، أحدهما محمود والآخر مذموم، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عَمَّنْ فيه من المشايخ والعلماء، فأسأله عن ذلك، فكان يذكر لي المحمود محمودًا والمذموم مذمومًا، فأحمد اللّه تعالى أن وفّقني، ومع تتابع ذلك واتّصاله دون مخالفة لم أعتمد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء، انتهى.

ومن كلام صاحب التأليف المذكور قوله في حقّ الصوفية، نفعنا اللّه تعالى بهم: حَمَوا طريقَ الحقّ فحاماهم، ونوّر بصائرهم فأصمَّهم عن الباطل وأعماهم، وأهانوا في رضاه نفوسهم، ورفضوا نعماهم، فأعلى قَدْرهم عنده وعند الناس وأسماهم، انتهى.

وما أحسن قوله في التأليف المذكور: يا هذا، من حافظ حوفظ عليه، ومن طلب الخير بصدقٍ وصل إليه، ومن أخلص العبودية لربّه قام الأحرار خَدَمة بين يديه، انتهى.

٣٠٥ ـ ومنهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن البيطار، المالَقِي، نزيل القاهرة[2].

وهو الذي عناه ابن سعيد في كتابه «المغرب» بقوله: وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتابًا في هذا الشان حَشَر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها، وضبطه على حروف المعجم، وهو النهاية في مقصده.

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩، الآية ٦٩.

(٢) ترجمة عبد اللّه بن أحمد بن البيطار المالقي في فوات الوفيات (جـ٢ ص ١٥٩) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٦٠١) وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جـ١ ص ٥٤٢). وسيترجم له المقري في الجزء الرابع .

وقد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملته في غير هذا الموضع، فليراجع.

وكان ابن البيطار أوحد زمانه في معرفة النباتات[1]، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب، واجتمع بجماعة كثيرة من الذين يعانون هذا الفن، وعاين مَنَابته وتحقّقها، وعاد بعد أسفاره، وخدم الكامل ابن العادل، وكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش، وجعله في الديار المصرية رئيسًا على سائر العَشّابين وأصحاب البسطات، ومن بعده خدم ولَدَه[2] الصالح، وكان حظيًّا عنده، إلى أن توفي بشعبان سنة ٦٤٦ التي توفي بها ابن الحاجب، وله من المصنّفات كتاب «الجامع[3] في الأدوية المفردة» وكتاب «المغني» أيضًا في الأدوية، وكتاب «الإبانة والإعلام، بما[4] في المنهاج من الخلل والأوهام» وكتاب «الأفعال العجيبة، والخواصّ الغريبة»[5]، وشرح كتاب ديسقوريدوس. قال الذهبي: انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته، وأماكنه ومنافعه، وتوفي بدمشق، انتهى.

٣٠٦ ـ ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن علي، القرشي، البسطي، الشهير بالقَلَصَادي ـ بفتحات ـ كما قال السخاوي[6].

الصالح الرحلة، المؤلّف، الفرضي، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس، وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض، كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء والحوفي، وكفاه فخرًا أنَّ الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب، وأجازه جميع مروياته، وأصله من بسطة، ثم انتقل إلى غَرْنَاطة، فاستوطنها، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطي وغيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق ومرّ بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضي أبي الفضل قاسم العقباني وأبي العباس بن زاغ وغيرهم، ثم ارتحل فلقي بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب والقلشاني وحلولو وغيرهم،

---

(١) في طبعة دار صادر: «النبات».

(٢) في طبعة ليدن: «والده»، وهو تحريف.

(٣) في فوات الوفيات: «الأدوية المفردة».

(٤) في المصدر نفسه: «على ما في المنهاج..».

(٥) في عيون الأنباء وفوات الوفيات: «الأفعال الغريبة والخواصّ العجيبة».

(٦) ترجمة علي بن محمد البسطي القلصادي في الضوء اللامع (جـ ٥ ص ١٤) ونيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص ٢٠٩).

ثم حجَّ ولقي أعلامًا، وعاد فاستوطن غَرْنَاطة إلى أن حلّ بوطنه ما حلَّ، فتحيّـل في خَلَاصِـهِ من الشِّرْك وارتحل، ومرَّ بتلمسان فنزل بها على الكفيف ابن مـرزوق ابن شيخه، ثم جـدَّتْ به الرحلةُ إلى أن وافته منيّته بباجة إفريقية منتصف ذي الحجة سنة ٨٩١، وكان كثير المواظبة على الدرس والكتابة والتأليف. ومن تـآليفه «أشـرف المسالـك، إلى مذهب مـالك» وشـرح مختصر خليل، وشـرح الرسـالة، وشـرح التلقين و«هدايـة الأنام، في شـرح مختصر قـواعد الإسـلام» وهو شـرح مفيـد، وشـرح رجـز القـرطبي، و«تنبيـه الإنسـان، إلى علم الميـزان» و«المدخل الضروري» وشرح إساغوجي في المنـطق. وله شـرح الأنوار السنيـة لابن جُزَي، وشرح رجز الشراز في الفرائض الذي أوله: [الرجز]

بحمـد خيـرِ الـوارثين أبتـدي ... وبـالسِّـراج النبـويِّ أهتـدي

وشرح حِكَم ابن عَطَاء اللّه، ورجز أبي عمرو بن منظور في أسماء النبي، ﷺ، وشـرح البردة، ورجز ابن بري، ورجز شيخه أبي إسحٰق بن فتوح في النجوم الذي أوله: [الرجز]

سبحـان رافـع السمـاء سَقْفَـا ... نـاصبهـا دَلَالَـة لا تَـخْفَـى

وشـرح رجز أبي مقـرعة، ولـه «النصيحة في السيـاسة العـامة والخـاصة»، و«هـدايـة النظّار، في تحفة الأحكـام والأسرار»، و«كشف الجلبـاب، عن علم الحسـاب»، و«كشف الأسرار، عن علم الغبار»، و«التبصرة»، و«قانـون الحساب» في قـدر التلخيص، وشرحـه، وشرحان على التلخيص كبير وصغير، وشرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، ومختصـره، وكليات الفرائض، وشـرحها، وشـرحان للتلمسـانية كبيـر وصغير، وشـرح فرائض صـالح بن شريف وابن الشاط وفـرائض مختصر خليـل والتلقين وابن الحاجب، ولـه كتاب «الغنيـة في الفـرائض»، و«غنية النحـاة» وشرحـاها الكبيـر والصغيـر، و«تقـريب المـواريث»، و«منتهى العقول البواحث»، وشرح مختصر العقباني، ولم يتمّ، و«مدخـل الطالبين»، ومختصـر مفيد في النحو، وشرح رجـز ابن مالـك، والجرومية، وجمل الـزجاجي، ومُلْحـة الحريـري[1]، والخزْرجية، ومختصر في العروض، وغير ذلك، وأخذ بمصر عن الحـافظ ابن حجر والـزين طاهر النـويري وأبي القـاسم النويـري والعلامـة الجلال المحلّي والتقي الشمني وأبي الفتـح المـراغي وغيرهم، حسبمـا ذكر ذلـك في رحلته الشهيـرة، وهي حاويـة لشيوخـه بـالمغـرب والمشرق وجملة من أحوالهم، رحم اللّه تعالى الجميع!.

(١) هو «ملحة الأعراب» لأبي محمد القاسم بن علي الحريري البصري، مؤلّف المقامات.

٣٠٧ ـ ومنهم أبو عبد الله الراعي، وهو شمس الدين محمد بن إسماعيل، الأندلسي، الغَرْنَاطي[1].

ولد بها سنة ٧٨٢[2] تقريبًا، ونشأ بها، وأخذ الفقه والأصول والعربية عن جماعة، منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسي، وسمع على أبي بكر عبد الله بن محمد بن محمد المَعَافري بن الدب، ويُعْرف بابن أبي عامر، والخطيب أبي عبد الله محمد بن علي بن الحفار، ومحمد بن عبد الملك بن علي القيسي المنتوري، صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة، ومِمّا أخذ عنه الجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي عن مؤلِّفها أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، عُرف بابن آجروم، وجميع «خلاصة الباحثين، في حصر حال الوارثين» للقاضي أبي بكر عبد الله بن يحيىٰ بن زكريا الأنصاري بأخذه لها عن مؤلّفها، وأجاز له أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي، والقاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، والعلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام، وعالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، وغيرهم من المغاربة. ومن أشياخه من أهل المشرق الكمال بن خير السكندري، والزين أبو بكر المراغي، والزين محمد الطبري، وأبو إسحٰق إبراهيم بن العفيف النابلسي، في آخرين. ودخل القاهرة سنة ٨٢٥ فحجَّ واستوطنها، وسمع بها من الشهاب المتبولي وابن الجزري والحافظ ابن حجر وطائفة، وأمَّ بالمؤيدية وقتًا، وتصدّى للاشتغال، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، لا سيما في العربية، بل هي كانت فنّه الذي اشتهر به وبجودة الإرشاد لها، وشرح كلًّا من الجروميّة والألفيّة والقواعد وغيرها مِمّا حمله عنه الفضلاء. وله نظم وسط؛ قال السخاوي: كتبت عنه منه الكثير، ومِما لم أسمعه منه ما أودعه في مقدمة كتاب صنّفه في نصرة مذهبه وأثبته دفعًا لشيء نُسب إليه، فقال: [الطويل]

عليكَ بتقوى اللَّهِ ما شئْتَ واتَّبِعْ أئمةَ دِينِ الحَقِّ تُهْدَ[3] وتَسْعَدُ

---

(١) هو محمد بن محمد بن إسماعيل الأندلسي المالكي الغرناطي، وترجمته في الضوء اللامع (جـ ٩ ص ٢٠٣) وبغية الوعاة (ص ١٠٠) وشذرات الذهب (جـ ٧ ص ٢٧٨).

(٢) في بغية الوعاة: «سنة نيِّف وثمانين وسبعمائة».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «تهدى».

فمـالِكُهُمْ والشـافعيُّ وأحمـدٌ ... ونُعْمانهمْ كلٌّ إلى الخير يُرْشِـدُ[1]
فتابـعْ لمن أحببْتَ منهـمْ ولا تَمِـلْ ... لذي الجهل والتعصيبِ إنْ شئتَ تحمدُ
فكـلٌّ سـواءٌ في وجيبـة الاقتـدا ... مُتَـابعهـمْ جنّـاتِ عَـدْنٍ يخلدُ
وحُبُّهُـمُ ديـنٌ يـزيـنُ وبغـضهـمْ ... خـروجٌ عن الإسلام والحقّ يبعـد
فلعنـةُ ربِّ العـرشِ والخلقِ كلِّهـمْ ... على مَنْ قَلاهمْ والتعصّبَ يقصـدُ

وكان حادَّ اللسان والخلق، شديد النفرة من الشيخ يحيىٰ العجيسي، أضر بآخرة، ومات بسكنه بالصالحية يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجّة سنة ٨٥٣، بعد أن أنشد قبيل موته بشهر في حال صحّته الشيخَ جمال الدين بن الأمانة من نظمه قولَه: [الطويل]

أفكِّـرُ في مـوتـي وبعـد فضيحتي ... فيحـزنُ قلبي من عـظيم خـطيئتي
وتبكي دمًـا عيني وحُقَّ لهـا البُكـا ... عـلى سـوء أفعـالـي وقلَّةِ حيلتي
وقـد ذابَتَ آكبـادي عنـاءً وحسـرةً ... عـلى بُعْـدِ أوطـانـي وفقْـد أحبّتي
فـمـا ليَ إلاَّ اللّه أرجـوهُ دائـمًـا ... ولا سيمـا عنـد اقتـرابِ منيَّتي
فـنسـألُ ربِّي في وفـاتيَ مؤمنًـا ... بجـاه رسـولِ اللّهِ خيـرِ البـريّـةِ

قال السخاوي: وممّا كتبْتُه عنه: [الكامل]

أَلْفَيتُـهُ حـولَ المعلِّم بـاكيًـا ... ودموعُهُ قد صاغهـا من كَوْثَـرِ
نَثَـرَ الدمـوعَ على الخدودِ فخلْتها ... دُرًّا تنـاثـرَ في عقيـقٍ أحمـرِ

وقـولـه: [المتقارب]

عـليـكَ بـنـعـمـةِ ربِّ الـعُـلاَ ... وراعِ الـمـلوكَ لـرَعْـي الـذِّمَـمْ
وذو الـعـلـمِ فـارْعَ لـه حـقَّـه ... وإلاَّ تـفـارقْ وتَـلْقَ الـنـدمْ
فـهـذا مـقـالـيَ فلتسمـعـوا ... نصيحـةَ حَبْـرٍ[2] مِنَ آهـلِ الحِكَمْ
إذا كـنـتَ فـي نـعـمـةٍ فـارْعَـهـا ... فـإنَّ الـمـعـاصي تُـزِيـلُ الـنِّـعَـمْ

---

(١) في البيت ذكر لأئمة مذاهب السّنّة، وهم مالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة النعمان.
(٢) الحَبْرُ، بفتح الحاء وسكون الباء: العالِمُ. لسان العرب (حبر).

وقـال: [الكامل]

للغـرب فَضْـلٌ شـائـعٌ لا يُـجْهَـلُ ولأهـله شـرفٌ وديـنٌ يـكـمـلُ
ظـهـرتْ بـه أعـلامُ حَقٍّ حَقّقَتْ مـا قـالـه خيـرُ الأنـامِ المُـرْسَـلُ
مِـنْ أنهـم حتـى القـيـامـة لـن يـزا لـوا ظاهـرينَ على الهدى لن يُخْذَلـوا

وممَّنْ حدّث[1] عن الراعي الحافظ ابن فهد والبرهان البقاعي، ومن تأليفه «شرح القواعد» وكتاب «انتصار الفقير السالك، لمذهب الإمام الكبير مالك» في كراريس أربعة حسن في موضوعه، وله «النوازل النحوية» في عشرة كراريس أو أكثر وفيها فوائد حسنة وأبحاث رائقة، تكلّم معه في بعضها أبو عبد اللَّه بن العباس التلمساني.

وذكر بعضهم أنه اختصر شرح شيخه ابن مرزوق على مختصر الشيخ خليل من باب القضاء إلى آخر الكتاب، انتهى.

وجرت له في صغره حكاية دلّت على نُبْله، وهي أنه دخل على الطلبة رجل وهم بجامع غَرْنَاطة، فسألهم عَمَّنْ كان وراء إمام، فحدث للإمام عذر ذهب لأجله، مثل الرعاف مثلًا، فصلّوا بعض الصلاة لأنفسهم، ثم اقتدَوا بإمام منهم قدّموه فيما بقي، فهل تَصِحُّ صلاتُهُم أم لا؟ فلم يكن عند أحد من الحاضرين فيها علم، فقال هو: إنّ الصلاة باطلة؛ لأنّ النحاة يقولون: الإتباعُ بعد القَطْع لا يجوز.

وقد حكى ذلك في شرحه للجروميّة الذي سمّاه بعنوان الإفادة في باب النعت إذ قال ما نصُّه: كنت جالسًا بمسجد قيسارية غَرْنَاطة أنتظر سيّدنا وشيخنا أبا الحسن علي بن سمعة، رحمه اللَّه تعالى، مع جماعة من كبار طلبته، وكنت إذ ذاك أصغرهم سنًّا وأقلّهم علمًا، فدخل سائل سأل عن مسألة فقهية نصُّها: إنَّ إمامًا صلّى بجماعة جزءًا من صلاة، ثم غلب عليه الحدث، فخرج ولم يستخلف عليهم[2]، فقام كلُّ واحد من الجماعة وصلّى وحده جزءًا من الصلاة، ثم بعد[3] ذلك استخلفوا مَنْ أتمَّ بهم الصلاة، فهل تصحُّ تلك الصلاةُ أم لا؟ فلم يكن فيها عند الحاضرين جواب، فقلت: أنا أجاوب فيها بجواب نحوي، فقال: هاتِ الجوابَ، فقلت: هذا إتباع بعد القطع، وهو ممتنع عند النحويين، فصلاة

---

(١) في طبعة بولاق: «عنه الراعي».

(٢) في طبعة ليدن: «لهم».

(٣) في الطبعة نفسها: «ثم من بعد ذلك».

هؤلاء باطلة، فاستظرفها منّي مَنْ حضر لصغر سنّي، ثم طلبنا النصّ فيها فلم نلقه في ذلك التاريخ، ولو لقيناه لكان حسنًا، انتهى.

ومن ألغازه قوله: [الرجز]

حاجَيتُكُمْ[1] نُحَاتَنا المصريّهْ أولي الذكا والعلمِ والطعميّهْ
ما كلماتٌ أربعٌ نحويّهْ جُمِعْنَ في حَرْفَينِ للأحجيهْ

يعني فعل الأمر للواحد من «وَأَى يئي» إذا أضمر، فإنك تقول فيه: «إِيًا زيد» على حرف واحد، وهو الهمزة المقطوعة، فإذا قلت «قُلْ إِ» ونقلت حركته على لغة النقل إلى الساكن صار هكذا «قُلِ» فذهب فعل الأمر وفاعله، فهي كلمات أربع، فِعْلاَ أمرٍ وفاعلاهُما جُمِعْنَ في حرفين القاف واللام، فافْهَمْ.

وأحسن من هذا قوله ملغزًا في ذلك أيضًا: [الرجز]

في أيِّ لفظٍ يا نحاةَ المِلَّهْ حَرَكَةٌ قامتْ مقامَ الْجُمْلهْ

وبالجملة فمحاسنه كثيرة، رحمه اللَّه تعالى ورضي عنه!

ومن فوائده قوله: حكى لي بعض علماء المالكية قال: كُنّا نقرأ المدوّنة على الشيخ سراج الدين البلقيني الشافعي، فوقعت مسألة خلافية بين مالك والشافعي، فقال الشيخ في مسألة «مذهبنا كذا» في مسألة لم يقل فيها الشافعي بما قال، وإنما نسبها البلقيني لنفسه، ثم فطن وخاف أن ينتقد عليه المالكية ويقولون له: أنت شافعي وهذا ليس مذهب الشافعي، فقال: فإنْ قلتم يا مالكية لسنا بمالكية، وإنما أنتم شافعية، قلْنا: كذلك أنتم قاسمية، وقد اجتمعنا الكلّ في مالك، قال: وهذا الكلام حلو حسن في غاية الإنصاف من الشيخ.

قال: ولَمّا قرىء عليه كتاب «الشفاء» مدحه وأثنى عليه إلى الغاية، وكان يحضره جماعة من المالكية، فقال القاضي جمال الدين ابنه: ما لكم يا مالكية، لا تكونون مثل القاضي عياض؟ فقال له أبوه الشيخ سراج الدين المذكور: وما لك لا تقول للشافعية ما لكم يا شافعية لا تكونون مثل القاضي عياض؟

ومن فوائد الراعي في باب العَلَم من شرحه على الألفية: في الكلب.عشر خصال محمودة ينبغي أن تكون في كل فقير: لا يزال جائعًا، وهو من دأب الصالحين، ولا يكون له

---

(1) حاجاه: امتحنه بالاحاجي، أي بالألغاز. محيط المحيط (حجا).

موضع يُعْرف به، وذلك من علامة المتوكّلين، ولا ينام من الليل إلاَّ القليل، وذلك من صفات المُحِبِّين، وإذا مات لا يكون له ميراث، وذلك من أخلاق الزاهدين، ولا يهجر صاحبه وإن جَفَاه وطرده، وذلك من شيم المريدين[1]، ويرضى من الدنيا بأدنى يسير، وذلك من إشارة القانعين، وإذا غُلب عن مكانه تركه وانصرف إلى غيره، وذلك من علامة المتواضعين، وإذا ضُرب وطُرد ثم دُعيَ أجاب، وذلك من أخلاق الخاشعين، وإذا حضر شيء من الأكل وقف ينظر من بعيد، وذلك من أخلاق المساكين، وإذا رحل لم يرحل معه بشيء، وذلك من[2] علامة المتجرّدين، انتهى بمعناه.

وقد نسبه للحسن البصري رحمه الله تعالى ورضي عنه بمنّه.

ومن تصانيفه، رحمه الله تعالى، كتاب «الفتح المنير، في بعض ما يحتاج إليه الفقير» في غاية الإفادة، مَلَكْتُه بالمغرب ولم أَرَهُ بهذه البلاد المشرقية، وحفظْتُ منه فوائد ممتعة.

٣٠٨ ـ ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق بعد أخذ جميع بلاد الأندلس ـ أعادها الله تعالى! ـ قاضي الجماعة بِغَرْناطة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق[3].

قال السخاوي: إنه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد بن فتوح مفتي غَرْناطة في النحو والأصلين والمنطق، بحيث كان جلَّ انتفاعه به، وحضر مجالس أبي عبد الله محمد بن محمد السَّرَقُسْطي العالم الزاهد مفتيها أيضًا في الفقه، ومجالس الخطيب أبي الفرج عبد الله بن أحمد البقني، والشهاب قاضي الجماعة بغَرْناطة أبي العباس أحمد بن أبي يحيىٰ بن شرف[4] التلمساني، انتهى.

وله، رحمه الله تعالى، تآليف؛ منها «بدائع السلك، في طبائع الملك» كتاب حسن مفيد في موضوعه، لخّص فيه كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة، ومنها «روضة الأعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام» مجلّد ضخم فيه فوائد وحكايات لم

---

(١) المريدون: جمع مريد وهو عند الصوفيّة المتمرّد عن إرادته أو الذي أعرض قلبه عن كل ما سوى الله تعالى، أو من يحفظ مراد الله. محيط المحيط (راد).

(٢) كلمة «من» ساقطة من طبعة ليدن.

(٣) توفي ابن الأزرق في ذي الحجة من سنة ٨٩٦ هـ. ترجمته في أزهار الرياض (جـ ٣ ص ٣١٧) والأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل (جـ ٢ ص ٥٩١).

(٤) في طبعة ليدن: «ابن الشريف».

يؤلِّف في فنه مثلُه، وقفتُ عليه بتلمسان وحفظْتُ منه ما أنشده لبعض أهل عصره مِمّا يكتب في سيف[1]: [البسيط]

إنْ عَمَّتِ الأفْقَ مِنْ نَقْعِ الوغى سُحُبٌ ... فَشِمْ[2] بها بارقًا مِنْ لمع إيماضي
وإنْ نَوَتْ حركاتُ النصرِ أرضَ عِدًى ... فليس للفتح إلاَّ فِعْلِيَ الماضي[3]

ومن إنشائه في التأليف المذكور ما صورته: قلت: ولقد كان شيخنا العلامة أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد بن فتوح، قدّس اللَّه تعالى روحه، يُفْسِح لصاحب البحث مجالاً رحبًا، ويوسع المُرَاجع له قبولاً ورحبًا، بل يطالب بذلك ويقتضيه، ويختار طريق التعليم به ويرتضيه، توقيفًا على ما خلص له تحقيقه، ووضح له في معيار الاختيار تدقيقه، وإلاَّ فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصّل، ويتمهّد به مختار ما يحفظ ويتأصّل، انتهى.

وهو يدلُّ على ملكته في الإنشاء، ويحقّق ما يحصله، إلاَّ أنَّ ذلك إذا طال حتى وقع الملل والضجر أو كاد فينبغي الإمساك عن البحث، لئِلَّا يُفْضي الحالُ إلى ما ينهى عنه.

قال: ومخالفة التلميذِ الشيخَ في بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم، والإجلال الملائم، فقد خالف ابن عباس عمر وعليًّا وزيد بن ثابت، رضي اللَّه تعالى عنهم، وكان قد أخذ عنهم، وخالف كثير من التابعين بعضَ الصحابة، وإنما أخذوا العلم عنهم، وخالف مالك كثيرًا من أشياخه، وخالف الشافعي وابن القاسم وأشهب مالكًا في كثير من المسائل، وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعي، وقال: لا أحدُ أمنُّ عليَّ من مالك، وكاد كلُّ من أخذ العلم أن يخالفه بعضُ تلامذته في عدّة مسائل، ولم يزل ذلك دأبَ التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا، وقال: وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع أشياخهم، رحمهم اللَّه تعالى! قال: ولا ينبغي للشيخ أن يتبرّم من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذي وصفْناه، واللَّه تعالى أعلم، انتهى.

---

(١) سيرد البيتان في الجزء الثامن.

(٢) شامَ البرْقَ: نظر إلى سحابته أين تُمْطر. مختار الصحاح (شيم).

(٣) الماضي: القاطع. لسان العرب (مضا).

ولَمّا أنشد ابنُ الأزرق المذكور في كتابه «روضة الأعلام» قولَ القائل في مدح ابن عصفور: [الرمل]

نَقَلَ النحوَ إلينا الدُّؤلي عن أميرِ المؤمنينَ البَطَلِ[1]
بدأ النحوَ عليٌّ وكذا خَتَمَ النحوَ ابنُ عصفورٍ علي

قال بعده ما نصُّه: على أنَّ صاحبنا الكاتب الأديب الأبرع أبا عبد اللّه محمد بن الأزرق الوادي آشي، رحمه اللّه تعالى، قد قال فيما يدافع ابن عصفور عَمّا اقتضاه هذا المدح له بتفضيل الأستاذ المحقّق أبي الحسن بن الضائع عليه، ولقد أبدع في ذلك ما شاء لما تضمّن من التورية: [الطويل]

بضائعُكَ ابنَ الضائِع النَّدْبَ قد أتتْ بحظٍّ مِنَ التحقيقِ والعلمِ موفورِ
فَطِرْتَ عُقابًا كاسرًا أوَما ترى مَطَارَكَ قد أعْيا جناحَ ابن عصفورِ

انتهى.

وقد نقل عن ابن الأزرق صاحب المعيار في جامعه، وأثنى عليه غير واحد، ومن أعظم تآليفه شرحه الحافل على مختصر خليل المسمَّى بـ «شفاء الغليل، في شرح مختصر خليل» وقد توارد معه الشيخ ابن غازي على هذه التسمية، وكان مولانا العمّ الإمام شيخ الإسلام سيدي سعيد بن أحمد المقّري، رضي اللّه تعالى عنه، قال لي حين سألته عن هذا التوارد: لعلّ تسمية ابن الأزرق «شفاء العليل» بالعين، قلت: يُبْعدُ ذلك أنَّ جماعة من تلامذته الأكابر كالوادي آشي وغيره كتبوه بخطوطهم بالغين المعجمة، فبان أنه من توارد الخواطر، وأنّ كلاًّ منهما لم يقف على تسمية الآخر، واللّه تعالى أعلم، وقد رأيت جملة من هذا الشرح بتلمسان وذلك نحو ثلاثة مجلدات، ولا أدري هل أكمله أم لا؛ لأنّ تقديره بحسب ما رأيت يكون عشرين مجلّدًا، إذ المجلد[2] الأول ما أتمّ مسائل الصلاة، ورأيت الخطبة وحدها في أكثر من كراسة أبان فيها عن علوم، ولم أرَ في شروح خليل مع كثرتها مثله. ودخل تلمسان لَمّا استولى العدوُّ على بلاد الأندلس، ثم ارتحل إلى المشرق، فدخل مصر، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلب بَيْضَ

---

(١) الدؤلي: هو أبو الأسود الدؤلي. وأمير المؤمنين: هو علي بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «إذ المجلد إذ الأول».

الأَنُوق، أو الأبيض العَقُوق[1]. ثم حجَّ ورجع إلى مصر فجدّد الكلام في غرضه، فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولّاه بنزاهة وصيانة وطهارة، ولم تطل مدّته هنالك حتى توفي به بعد سنة خمس وتسعين وثمانمائة، حسبما ذكره صاحب «الأنس الجليل» في تاريخ القدس والخليل» فليراجع فإنه طال عهدي به.

ومن بارع نظمه، رحمه اللّه تعالى، قوله في المجَبَّنات: [مخلع البسيط]

ورُبَّ محبوبةٍ تَبَدَّتْ	كأنه الشمسُ في حُلاَها
فاعْجَبْ لحالِ الأنامِ مَنْ قد	أَحَبَّها منهم قَلاَها

ومنه قوله رحمه اللّه تعالى: [السريع]

عذري في[2] هذا الدخان الذي	جاورَ داري واضحٌ في البيانْ
قد قلتمُ إنَّ بها زخرفًا	ولا يلي الزخرفَ إلَّا الدخانْ[3]

وقوله: [الطويل]

تأمَّلْتُ مِنْ حُسْنِ الربيعِ نضارةً	وقد غرَّدَتْ فوق الغصون البلابلُ
حَكَتْ في غصون الدَّوحِ قسًّا فصاحةً	لِتَعْلَمَ أنَّ النبت في الروض باقلُ[4]

وقوله: [الطويل]

وقائلةٍ صِفْ للربيع محاسنًا	فقلتُ وعندي للكلام بِدارُ
همى بِبِطَاحِ الأرضِ صَوبٌ من الحَيَا	فللنَّبْتِ في وَجْهِ الزمان عِذار

---

(١) الأَنُوقُ: الرَّخَمَةُ وهو طائر أبقع يشبه النَّسْر. والعَقُوْقُ: الحامل من النُّوْقُ. ومنه المثل: «أعَزُّ من بَيْض الأَنُوْق» لأنها تبيض في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة، ولا يكاد يُظْفَرُ بها. وقد قال أحد الشعراء: [الخفيف]

طَلَبَ الأَبْلَقَ العَقُوْقَ، فَلمَّا ... لم يجدْه أراد بَيْضَ الأَنُوْقِ

لسان العرب (أنق) و (عقق).

(٢) في طبعة ليدن: «عن هذا».

(٣) الزخرف والدخان سورتان في القرآن الكريم، وقد جاءت سورة الدخان بعد سورة الزخرف في ترتيب المصحف الشريف، ورقم سورة الزخرف ٤٣، ورقم سورة الدخان ٤٤.

(٤) قَسّ: هو قسّ بن ساعدة الإيادي مضرب المثل بالفصاحة. وباقل: علم من العرب اشتهر بالفهاهة والعيّ.

وقولـه: [المتقارب]

تَعَجَّبْتُ مِنْ يانِعِ الوَرْدِ في سَنَى وَجْنَةٍ نَبْتُها بارِضُ[1]
ولَمْ لا يُرى وَرْدُها يانِعًا وقد سالَ من فوقِها العارِضُ

وقوله، رحمه اللّٰه تعالى، عند وفاة والدته: [البسيط]

تقولُ لي ودموعُ العينِ واكفةٌ ما أفظعَ البَيْنَ والتَّرْحالَ يا ولدي
فقلتُ أينَ السُّرَى قالتْ لرحمةِ مَنْ قد عَزَّ في المُلْكِ لم يُولَدْ ولم يَلِدِ

قال تلميذه الحافظ ابن داود: مِمّا ألفيته بخطِّ قاضي الجماعة أبي عبد اللّٰه بن الأزرق عن علي، رضي اللّٰه تعالى عنه: من أراد أن يطوِّل اللّٰه عمره، ويظفر بعدوِّه، ويُصَان من فتن الدنيا، ويوسِّع عليه بابُ رزقه، فليقل هذا التسبيح إذا أصبح ثلاثًا، وإذا أمسى ثلاثًا: سبحان اللّٰه ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وعدد النعم، وزِنَةَ العرش، والحمد للّٰه ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وعدد النعم، وزنة العرش، ولا إلٰه إلَّا اللّٰه ملء الميزان، ومنتهى العلم ومبلغ الرضا، وعدد النعم، وزنة العرش، واللّٰه أكبر ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وعدد النعم، وزنة العرش، ولا حول ولا قوَّة إلَّا باللّٰه العلي العظيم مثل ذلك، وصلَّى اللّٰه على سيِّدنا محمد وآله مثل ذلك.

قال: وبخطِّه أيضًا لنيل الرزق وما يراد: يا باسط، يا جَوَاد، يا علي في عرشك، بحقِّ حقِّك على جميع خلقك، ابسط لي رزقك، وسخِّرْ لي خلقك.

وبخطِّه أيضًا: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم الدافع المانع الحافظ الحي القيوم القوي القادر الولي الناصر الغالب الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

وبخطِّه أيضًا: يا فتّاح، يا عليم، يا نور، يا هادي، يا حقّ، يا مبين، افتحْ لي فتحًا تنوّر به قلبي، وتشرح به صدري، واهدني إلى طريق ترضاه، وبيِّنْ لي أمري، وصلَّى اللّٰه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا. انتهى.

---

(١) البارض: أول ما يظهر من نبات الأرض. لسان العرب (برض).

وقال رحمه اللّه تعالى مُوَرِّيًا: [الرمل]

مـن تكـنْ صـنـعـتُـهُ الإنـشـاء لا ينكـرُ الـرزقَ لأقـصى الـعُـمُـرِ
ولـو استعلى على الـسبـع الـدرا ريًّ بـمـا فـي فـمـه مِـنْ دُرَرِ
فـأنـا الـكـاتبُ لـكـن لـو يَبُـا عُ لـيَ العتق لـكنتُ المـشْـتَـرِي

هكذا رأيت نسبتها إليه.

ولنختم ترجمته ـ بل والباب جميعًا ـ بقوله، رحمه اللّه تعالى! ـ عند نزول طاغية النصارى بمَرْج غَرْناطة أعادها اللّه تعالى للإسلام بجاه النبيِّ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: [الطويل]

مَشُـوقٌ بخَيمـاتِ الأحبّـةِ مُـولَـعُ تـذكّـرهُ نَـجْـدٌ وتُغْـرِيْـهِ لَعْـلَعُ[1]
مَـوَاضِعَكُمْ[2] يـا لائمين على الْهَـوى فلم يَبْقَ للسُّلوان في القلب مَـوضِـعُ
ومَـنْ لي بـقلبٍ تَـلْتَـظِي فيـه زَفْـرَة ومَـنْ لي بـجَفْـنٍ تنـهَمِي منـه أدْمُـع
رُوَيـدك فـارقبْ لِلّطَائِـفِ مَـوضعًـا وخَـلِّ الـذي مـن شـرِّه يُـتَـوَقَّـعُ
وصبـرًا فـإنَّ الصبـرَ خيـرُ غنيـمـةٍ ويـا فَـوزَ من قـد كـان للصبر يـرجـعُ
وبِتْ واثقًـا بـاللطف من خيـر راحمٍ فـألـطافُـهُ مِنْ لَمحـةِ العين أسـرعُ
وإنْ جـاء خَـطْبٌ فـانتـظرْ فـرجًـا لـه فسـوف تـراه في غـدٍ عنك يُـرْفَـعُ
وكـنْ راجـعًـا لـلّه فـي كـلِّ حـالـة فـليس لنـا، إلاَّ إلـى اللّه، مَـرْجِـعُ

* * *

بحمده تعالى انتهى الجزء الثالث
من نفح الطيب ويليه الجزء الرابع مفتتحًا
بالباب السادس من القسم الأول من الكتاب
في ذكر من ارتحل إلى الأندلس من أهل المشرق

---

(١) نجد ولعلع: موضعان بغرناطة، وقد وردا بكثرة في المصادر الأندلسية ولا سيما في الإحاطة لابن الخطيب.

(٢) مواضعكم: مفعول به لفعل محذوف تقديره: «الْزموا»، أي الْزَموا مواضعكم.

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا لتقي الدين المقريزي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. دار الفكر العربي، سنة ١٩٤٨.

٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة (١ - ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ - ١٩٧٧.

٣ - أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٤ - اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

٥ - أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ - ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٦ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أحمد بن خالد الناصري (١ - ٩). طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٧ - الأعلام للزِّرِكْلي (١ - ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٨ - أعيان العصر وأعوان النصر للصلاح الصفدي. مخطوطة آيا صوفيا، رقم ٢٩٦٢.

٩ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

١٠ - الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي (١ - ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

١١ - إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي (١ - ٣). تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.

١٢ ـ الانتصار في واسطة عقد الأمصار لابن دقماق (٤ ـ ٥). طبعة بولاق، ١٣٠٩ هـ.
١٣ ـ الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للقاضي مجير الدين العليمي الحنبلي (١ ـ ٢). طبعة مصر، ١٢٨٣ هـ.
١٤ ـ البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١ ـ ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.
١٥ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضَّبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
١٦ ـ بغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.
١٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤). دار الكتاب العربي، بيروت.
١٨ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.
١٩ ـ تاريخ الفكر الأندلسي لأنجل بالنثيا. ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.
٢٠ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليفي بروفنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.
٢١ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.
٢٢ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). طبعة مصر، ويشار إليها بأرقام الصفحات، وإذا أشير إلى رقم الترجمة كان الاعتماد على طبعة مجريط من المكتبة الأندلسية.
٢٣ ـ التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي. تحقيق الأستاذ عبد الفتاح محمد الحلو. طبعة القاهرة، ١٩٦١.
٢٤ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران (١ ـ ٧). طبعة دمشق، ١٣٢٩ ـ ١٣٤٩ هـ.
٢٥ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١ ـ ١٢). حيدر أباد الدكن، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.
٢٦ ـ جذوة الاقتباس لابن القاضي. طبعة فاس، ١٣٠٩ هـ.
٢٧ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
٢٨ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٢٩ ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.
٣٠ ـ الحُلل المَوشِيَّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب. مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدّرة بعبارة «مجهول المؤلف» وهي عبارة صحيحة لأنه لا يَصحُّ أن يُنْسب هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدة منها الصياغة والمضمون، ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.
٣١ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر لابن فضل اللّه المحبي. طبعة القاهرة، ١٢٨٤ هـ.
٣٢ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٤). طبعة حيدر أباد الدكن.
٣٣ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (١ ـ ٥). طبعة مصر، ١٩٦٧.
٣٤ ـ الدرّة المضيّة في أخبار الدولة الفاطمية لأبي بكر بن عبد اللّه بن أيبك الدواداري. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة، ١٩٦١.
٣٥ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥١ هـ.
٣٦ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني. جمعه ورتبه الدكتور عبد الرحمن ياغي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.
٣٧ ـ ديوان ابن سهل الأندلسي. دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد اللّه. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
٣٨ ـ ديوان ابن عبد ربه. حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.
٣٩ ـ ديوان ابن عنين. تحقيق الأستاذ خليل مردم بك. من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، ١٩٤٦.
٤٠ ـ ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.
٤١ ـ ديوان أبي العتاهية (شرح ديوان أبي العتاهية). دار التراث، بيروت، ١٩٦٩.
٤٢ ـ ديوان أبي فراس الحمداني (شرح ديوان أبي فراس الحمداني). دار مكتبة الحياة، بيروت.
٤٣ ـ ديوان أبي نواس. تحقيق الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٣.

٤٤ ـ ديوان الأخطل (شرح ديوان الأخطل التغلبي)، صنفه وشرح معانيه الأستاذ إيليا سليم الحاوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨.
٤٥ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.
٤٦ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٢). دار صعب، بيروت.
٤٧ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي. دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥.
٤٨ ـ ديوان جرير. دار صادر ودار بيروت. بيروت، ١٩٦٠.
٤٩ ـ ديوان حازم القرطاجني. تحقيق الأستاذ عثمان الكعاك. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.
٥٠ ـ ديوان الرصافي البلنسي. جمعه وقدم له الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.
٥١ ـ ديوان صفي الدين الحلي. دار صادر ودار بيروت. بيروت، ١٩٦٢.
٥٢ ـ ديوان طرفة بن العبد. دار بيروت، بيروت، ١٩٨٦.
٥٣ ـ ديوان عبيد بن الأبرص. تحقيق الدكتور حسين نصار. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٧.
٥٤ ـ ديوان الفرزدق (شرح ديوان الفرزدق). قدم له وعلّق حواشيه الأستاذان سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب. دار مكتبة الحياة. بيروت، ١٩٨٣.
٥٥ ـ ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٢.
٥٦ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم ببيروت.
٥٧ ـ ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق الأستاذين أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. طبعة القاهرة، ١٩٥١.
٥٨ ـ ديوان النابغة الذبياني. حققه وقدم له الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.
٥٩ ـ ديوان الهذليين. تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج. طبعة القاهرة، ١٩٦٥.
٦٠ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (٤ أقسام في ٨ مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.
٦١ ـ ذيل الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) لأبي شامة. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٧.

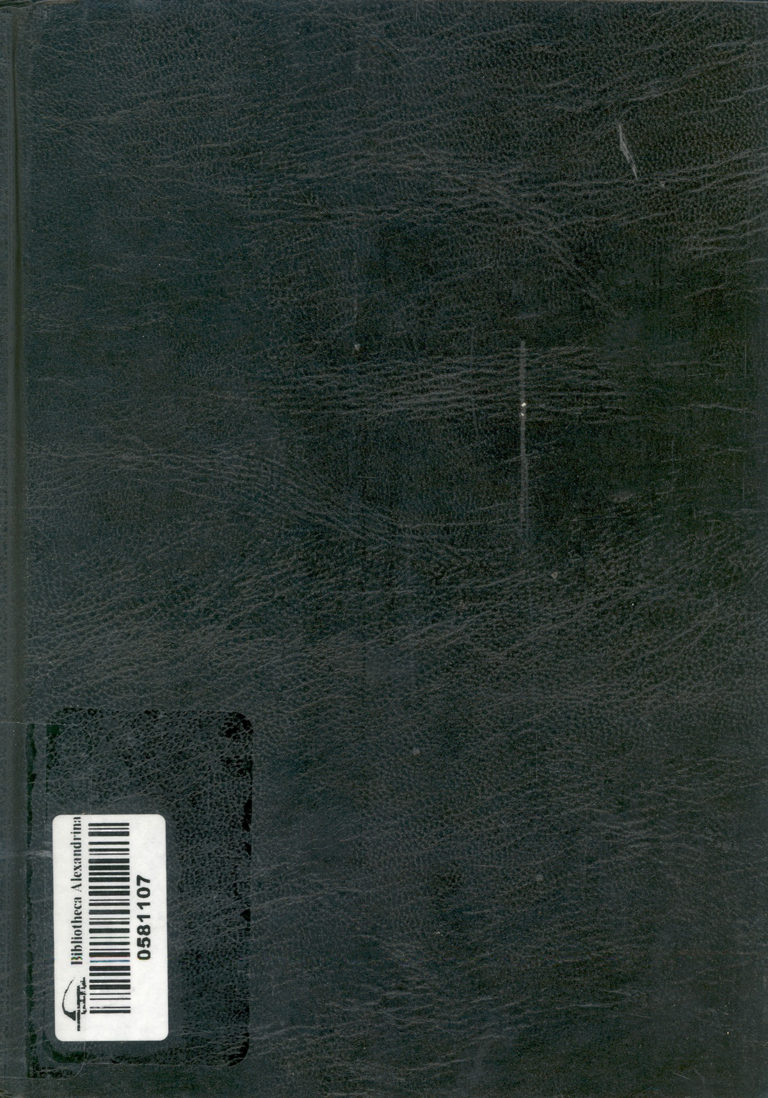
٦٢ - الـذيل والتكملة لابن عبـد الملك المـراكشي (١ - ٦). تحقيق الأستـاذين محمـد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
٦٣ - رحلة ابن بـطوطة وتسمَّى تُحْفـة النُّظّار في غـرائب الأمصـار وعجـائب الأسفـار. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٦٤ - رحلة ابن جبير. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت، ١٩٧٩.
٦٥ - رحلة العبدري. تحقيق الأستاذ أحمد بن جدّو. نشر كلية الآداب الجزائرية.
٦٦ - الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.
٦٧ - سـرور النفس بمدارك الحـواس الخمس للتيفاشي. تحقيق الـدكتور إحسـان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٦٨ - شـذرات الـذهب في أخبـار من ذهب للعمـاد الحنبلي (١ - ٨). نشـر القـدسي، القاهرة، ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ.
٦٩ - الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ - ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
٧٠ - صبـح الأعشى في صناعـة الإنشا للقلقشنـدي (١ - ١٤). شرحـه وعلّق عليه الأستـاذ محمـد حسين شمس الـدين والـدكتـور يـوسف علي طـويـل. دار الكتب العلميـة، بيروت، ١٩٨٧.
٧١ - صفوة من انتشر من أعيان القرن الحادي عشر للأفراني المراكشي. طبعة حجر.
٧٢ - الصلة لابن بشكوال (١ - ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.
٧٣ - صورة الأرض لابن حوقل. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.
٧٤ - الضوء اللامع للسخاوي (١ - ١٢). طبعة مصر، ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ.
٧٥ - الطالع السعيد لكمال الدين أبي الفضل الأدفوي. الطبعة الأولى، ١٩١٤.
٧٦ - طبقات الأمم لصاعد الأندلسي. نشره الأب لويس شيخو. طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢.
٧٧ - طبقـات النحويين واللغـويين للزبيدي النحـوي. تحقيق الأستـاذ محمـد أبـو الفضـل إبراهيم. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٤.
٧٨ - العاطل الحالي والمرخص الغالي لصفي الدين الحلي. نشر الأستاذ ولهلم هونرباخ. ويسبادن، ألمانيا، ١٩٥٥.
٧٩ - العبـر وديوان المبتـدإ والخبر (المعـروف بتـاريـخ ابن خلدون) لابن خلدون. (سبعـة مجلدات في أربعة عشر جزءًا). دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.
٨٠ - العقـد الفريـد لابن عبـد ربـه (١ - ٧). شـرح الأسـاتـذة أحمـد أمين وأحمـد الـزين وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٤٩ - ١٩٦٥.

٨١ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الطبعة الأولى، الجزائر، ١٩١٠.
٨٢ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (١ ـ ٢). شرح وضبط الدكتور يوسف طويل؛ (٣ ـ ٤) شرح وضبط الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.
٨٣ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.
٨٤ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١ ـ ٣). تحقيق برجشتراسر. طبعة القاهرة، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣.
٨٥ ـ الفهرست لابن النديم. تحقيق الأستاذ رضا تجدد. طهران، ١٩٧١.
٨٦ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.
٨٧ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.
٨٨ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
٨٩ ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
٩٠ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.
٩١ ـ الكافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي. تحقيق الأستاذ الحساني حسن عبد الله. خانجي وحمدان، بيروت.
٩٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ ـ ١٣). دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.
٩٣ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
٩٤ ـ الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي (١ ـ ٣). تحقيق الدكتور جبرائيل جبور. طبعة بيروت، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٨.
٩٥ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.
٩٦ ـ المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم للآمدي. تصحيح وتعليق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
٩٧ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.
٩٨ ـ المحلى لابن حزم (١ ـ ١١). دمشق، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٢ هـ.
٩٩ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.
١٠٠ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

١٠١ ـ مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله). نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
١٠٢ ـ مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين الغزولي (١ ـ ٢). الطبعة الأولى، طبعة مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩ هـ.
١٠٣ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.
١٠٤ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧.
١٠٥ ـ معجم الأدباء لياقوت الرومي (١ ـ ٢٠). طبعة مصر، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨.
١٠٦ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.
١٠٧ ـ معجم الشعراء للمرزباني. تصحيح الدكتور ف. كرنكو. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
١٠٨ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.
١٠٩ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
١١٠ ـ المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) لابن سعيد. تحقيق الدكتور زكي محمد حسن والدكتور شوقي ضيف والدكتورة سيدة كاشف. طبعة مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣.
١١١ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي (تتمة السفر الثاني ويؤرخ من سنة ٢٣٢ حتى سنة ٢٦٧ هـ). تحقيق الدكتور محمود علي مكي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.
١١٢ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.
١١٣ ـ ملحق المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي (١ ـ ٢). طبعة، ١٩٢٧.
١١٤ ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي (الجزء الأول). تحقيق الأستاذ أحمد يوسف نجاتي. مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٦.
١١٥ ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي (١ ـ ٤). طبعة مصر، ١٣٢٧ هـ.

١١٦ ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول ألزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.
١١٧ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (١ ـ ١٢). طبعة دار الكتب المصرية.
١١٨ ـ نزهة الأنام في محاسن الشام لعبد اللّه بن محمد البدري. المطبعة السلفية بمصر، ١٣٤١ هـ.
١١٩ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (١ ـ ٢). دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
١٢٠ ـ نهاية الأرب للنويري (١ ـ ٢٢). مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٣ ـ ١٩٧٦.
١٢١ ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. طبعة على هامش الديباج المذهب لابن فرحون. القاهرة، ١٣٥١ هـ.
١٢٢ ـ الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ١٧). ڤيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.
١٢٣ ـ وفيات الأعيان لابن خَلِّكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.
١٢٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.
١٢٥ ـ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة لمحمد بشير ظافر الأزهري. طبعة مصر، ١٣٢٥ هـ.

فهرس الجزء الثالث من كتاب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري


Bibliotheca Alexandrina
0581107